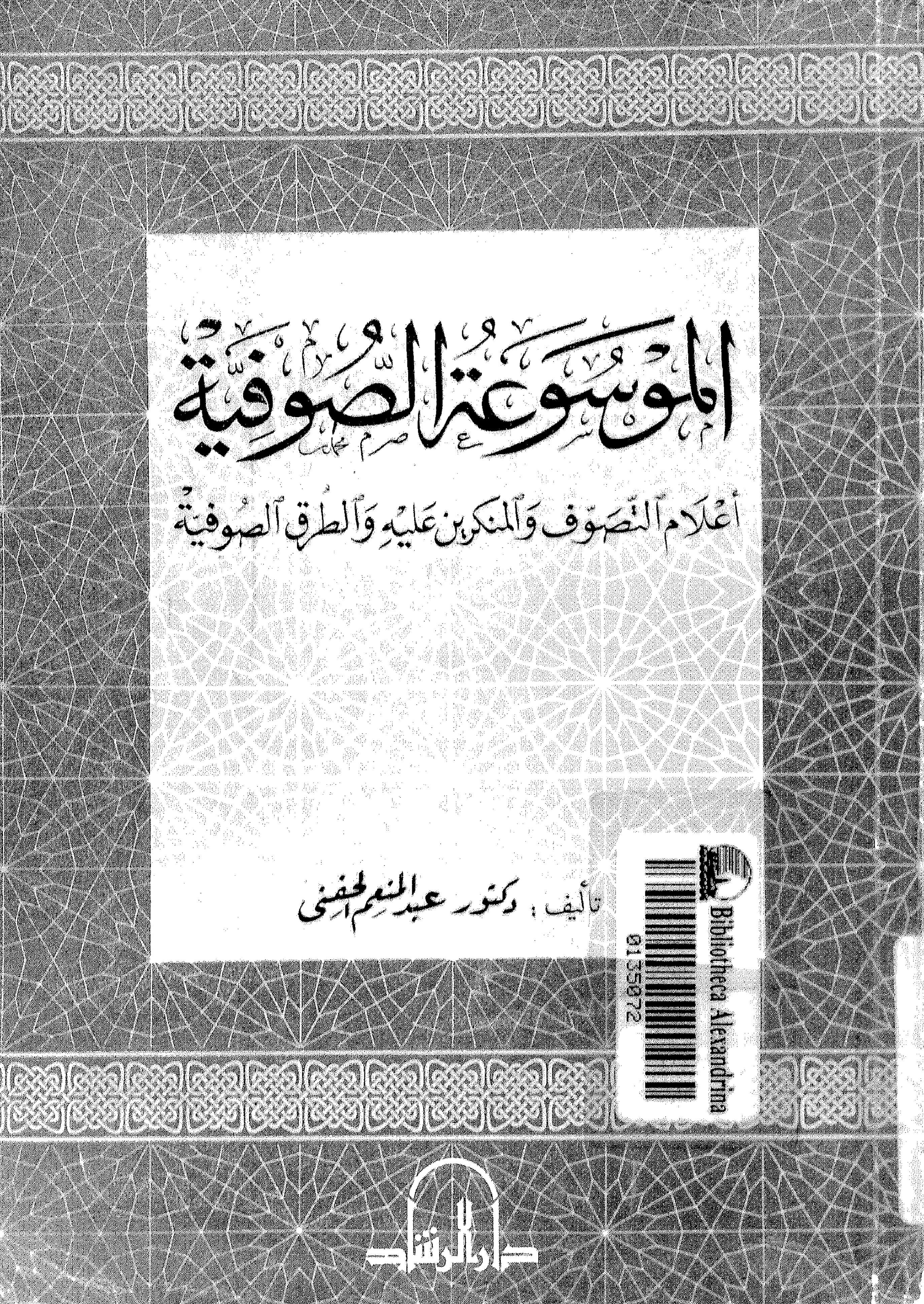

الموسوعة الصوفية
أعلام التصوف والمنكرين عليه والطرق الصوفية
تأليف : دكتور عبد المنعم الحفني
Bibliotheca Alexandrina
01335072
دار الرشاد


الموسوعة الصوفية
أعلام التصوف والمنكرين عليه والطرق الصوفية

الطبعة الأولى

١٤١٢هـ ــ ١٩٩٢م



الموسوعة الصوفية

أعلام التصوف والمنكرين عليه والطرق الصوفية

تأليف : دكتور عبد المنعم الحفني



بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمـــــــة

هذه الموسوعة كانت أملي وقد تحقق على تواضع، وكان منهجي فيها كما قال **الشعراني** لم أذكر إلاّ من كان له كلام فى الطريق ومن كان له كتاب يشرح فيه فلسفته، وكما يقول الشعرانى ما تركت ذكر من تركت استهانة بحقوقهم، فعدد الأولياء كثير، والفلاسفة منهم قليل، وكما قيل لا يخلو زمان من وجود مائة ولى وأربعة وعشرين، والترجمة لكل هؤلاء يخرج عن نطاق هدفى وغايتى، وأنا لست سوى محب للفلسفة ويستهوينى كلام الصوفية مما اعتبره من مجالات الفلسفة الإسلامية، ولقد قيل **إن التصوف هو فلسفة المسلمين، وهو علمهم فى الأخلاق،** كما قيل **إن الفقه هو منطق المسلمين،** ومن هذه الزاوية كتبت هذه الموسوعة، فهى **دائرة معارف فلسفية صوفية،** وقد حذفت الأسانيد عن كثير مما ذكرت، واقتصرت على متون الأخبار والآثار اختصاراً للوقت والجهد. وهؤلاء الصوفية الذين أقدمهم كانوا كما قيل كالأنجم يزهو بهم زمانهم، وأرجو بذكرهم بقاء الذكر لهم، فإنهم عاشوا بأُنس الرب سراً، وذاقوا من شراب الحب، وكل واحد نلتُ منه علماً أو أدباً فهو إمامى، وكان لى بأُنسهم سلوان، وإنى لأرجو بذكرهم أن يشفعوا لى عند رب العالمين فى يوم الشفاعة، وأن يدعو لى كل قارىء محب لهم فى الله، وقد قيل فى المحبة إنها صفاء الود مع دوام الذكر، والذى يحب شيئاً يُكثر من ذكره، وطوبى لمن شرب من محبة الله فمُلىء قلبه حباً لكل خلْقه ومخلوقاته. وقد ذكرت من الصوفية العرب أشهرهم، ومن الصوفية الإسلاميين أجلّهم وأخطرهم، ومن النقاد لهم من عاب طريقتهم وكانت له أسانيده وحججه، وكان دافعه لنقدهم غيرته على الدين وحبه لله تعالى من منطلق مختلف. وقد

أشركت مع هؤلاء كبار الكتّاب والمفكرين الذين اهتموا بعرض أفكارهم أو آراء معارضيهم ، سواء منهم من كان على دين الإسلام أو من أبناء غير ذلك من الملل والمذاهب ، وأعطيت كلاً حقه من التمحيص ، وقد يبدو أن المساحة المخصصة لأحدهم أكبر وكان ينبغى أن تكون أصغر ، أو قد يبدو أنى فضّلت أحدهم على غيره ، وذلك ما كنت أتحاشاه قدر طاقتى ، وقد استلهمت دائماً مكانة الصوفى أو الناقد له وما يقوله عنه أهل زمانه وما صار إليه شأنه فى بلادنا وعند غير العرب والمسلمين ، وأدعو الله أن أكون قد وفقت فما قصدت إلا الخير ، وصدق قول القائل فى تعريف العارف إنه الذى بذل مجهوده فيما لله ، وتحققت معرفته بما مَنّ الله ، وصح رجوعه من الأشياء إلى الله ، وما أجد ما أختم به كلامى إلا قول القائل :

يا لهفَ نفسى على قوم مضوا فقَضَوْا ... لم أقض منهم وإن طاولتُهم وَطرى
هم المخافيتُ فما كِبرُ الملوك إذا ... أبصرتهم قلت إضمارٌ بلا صور

عبد المنعم الحفنى

أ

الآملى

بهاء الدين حيدر بن على العبيدى (المتوفى بعد ٧٩٤هـ) علوى من آمل من طبرستان، يجمع بين الشيعة والحقيقة، ويرجع فى سلسلة خرقته إلى أبى يزيد البسطامى، وله **«جامع الأسرار ومنبع الأنوار فى أن عقائد الصوفية موافقة لمذاهب الإمامية الإثنا عشرية»** ألّفه فى العراق بناء على طلب الشيعة هناك، وله كتاب **شرح فصوص الحكم لابن عربى**، وكان فقيهاً ومتكلماً شيعياً متعصباً، واستمر كذلك مدة عشرين سنة، ثم تحول إلى التصوف فرغب عن التعصب، واختار رأى أصحاب **وحدة الوجود** ويسميهم **أرباب التوحيد**، وهاجم المباحية والحلولية والاتحادية والمعطلة وأخرجهم من التصوف، واختار ليثبت انتساب التصوف للتشيع أقوالاً من أقطاب الشيعة **كابن المطهر الحلى** من كتابيه **منهاج الكرامة وكشف الحق**، ومن أقطاب السنة كالغزالى وابن عربى ليدلل **على أن العلوم اللدنية والحقائق الإلهية مخصوصة بعلىّ رضى الله عنه دون غيره من الأولياء، من الأزل**، وقال إن الفرق بين **الشيعى والصوفى** أن الأول مؤمن عادى، والثانى مؤمن ممتحن، والناس ثلاث طبقات، الأولى الصوفية، والثانية الشيعة، والثالثة العوام. والصوفية اختصاصهم بالأسرار الإلهية وهم لذلك **الشيعة الخاصة**، وذكر أن الحسن البصرى كان تلميذاً لعلى، وأن إبراهيم بن أدهم أخذ عن على بن الحسين، وأن أبا يزيد البسطامى أخذ عن جعفر الصادق، وأن شقيقاً البلخى أخذ عن موسى بن جعفر، وأن معروفاً الكرخى أخذ عن على بن موسى الرضا، وكلهم أوصلوا ما اكتسبوه من علم

وإرشاد إلى مريديهم . وقال إن كل **أئمة الشيعة** أصحاب علوم كشفية وخرقة صوفية ، والمهدى هو إمام الشيعة وقطب الصوفية ، وفسر التقية بأنها تعنى الاحتراز عن إفشاء الأسرار الإلهية الذى يأخذ الصوفية به أنفسهم ، وقسّم **التوحيد** إلى توحيد الأنبياء الظاهرى وتوحيد الأولياء الباطنى ، وأقام تعليله **لوحدة الوجود** على براهين من **إخوان الصفا** فقال إن **الواحد** أصل الأعداد ، ومن تكراره تنشأ الأعداد وتتزايد ، والعقل الأول على ذلك يقابل الوجود الأول الفائض من الله :

كثرة لاتتناهى عددا قد طوتها وحدة الواحد طى

وقال إن أصل **الحقيقة المحمدية** أن محمداً وأهله من نفس وحقيقة واحدة باعتبارهم أشرف الخلق وأكملهم ، وعلياً من نفس محمد ، وهو خليفته ، والإنسان الكامل هو على ، وهو خاتم **الأولياء والمهدى لأنه مظهر باطن النبى .**

▪ ▪ ▪

الإباحية

فرقة من المتصوفة أو المندسين فى الصوفية أو المتشبهين بهم ، دخلوا التصوف ظاهراً وهم فى الباطن كفرة ، وقالوا إذا كانت السعادة والشقاوة قد كتبت علينا ، وأن الأعمال فى الأصل لا تراد إلا لاجتلاب السعادة ودفع الشقاوة ، فإن الأولى أن تتوجه العبادة إلى مساعدة المقدور على الوقوع بأن نترك النفوس على سجيتها ولا نمنعها عن ملذوذ مقدور لها تحصيله . وقالوا إن الله كما وصف نفسه مستغن عن أعمالنا وغير متأثر بها سواء فى المعصية أو الطاعة ، وإذن فلا ينبغى إلا أن نترك أمورنا على سجيتها بحسب أن كلاً ميسرٌ لما خلق له . وزعموا أن الله هو الرحمن الرحيم ، والرحمة أليق به ، فلا موجب للخوف من العقاب أو العذاب ولا وجه لحرمان النفوس والأجسام مراداتها . ومنهم جماعة راضوا نفوسهم على المجاهدات ولكنهم لم يحققوا لها الخلاص من كدوراتها ، فاستباحوا كل محرم ، فقد ظنوا أن التصوف هو الخلاص من الصفات البشرية وإزالة ما فى الطبع بالرياضة ، وما علموا أن الله قد خلق الشهوات لفائدة ، إذ لولا شهوة الطعام لهلك الإنسان ، ولولا شهوة النكاح لانقطع النسل ، وإنما المراد من الرياضة كف النفس عما يؤذى من جميع ذلك ، وردها إلى الاعتدال فيه ، ولذلك فمن طلب الرياضة لتغيير الطباع فقد ادعى المحال ، ومنهم جماعة راضوا أنفسهم على الرياضة وظنوا أنهم بلغوا بها غاياتهم ، وأنهم قد تجوهروا فقالوا إذن لا نبالى ما يصدر منا سواء كان مع

الشرع أو ليس معه ، لأن الشرع للعوام ، ولو قد بلغوا مبلغنا وحققوا ما حققنا وتجوهروا كما تجوهرنا لسقطت عنهم الأوامر والنواهي. وادعوا أن الشريعة القصد منها ضبط العوام ، وأن هؤلاء ليسوا من العوام حتى يمكن أن يشملهم التكليف ، حتى لقد قالوا إن الكمال لا يتحقق إلا لمن يتخلص من الحمية ، وجعلوا مقياس الخلاص منها أن يرى الواحد منهم أهله مع الأجنبى فلا يهمه من ذلك شيء. وقالوا فى مرتبة الكمال ترتفع الغيرة ، وكمال النفس أن يكون التفاتها لحظوظها وليس لحظوظ الناس من حولهم. وذكر ابن الجوزى وابن جرير أن هؤلاء الإباحية كانوا يستحلون الحرمات فيدعو الرجل منهم الجماعة إلى بيته فيطعمهم ويسقيهم ويحملهم على امرأته. ومنهم جماعة قالوا بالمؤاخاة بين الرجال والنساء ، فيقول أحدهم للمرأة تؤاخينى على ترك الاعتراض فيما بيننا.

وقيل من هؤلاء **ابن خفيف البغدادى** كان شيخ الصوفية فى شيراز ، وكان يتكلم فى الخطرات والوساوس ويحضر حلقته ألوف من الناس ، كما يروى أبو القاسم بن على التنوخى ، واستغوى الضعفاء ، وحدث أن رجلاً من أصحابه مات ، وخلّف زوجة صوفية ، فاجتمع بها النساء الصوفيات ، فلما فرغ العزاء دخل ابن خفيف هذا يعزيها ، وقال لها لماذا الهموم وتعذيب النفس بها ، ولماذا نترك امتزاج الأجسام لتلتقى الأنوار وتصفو الأرواح وتحصل البركات ، وما زال بها حتى رضيت هى والنساء اللاتى معها ، واختلط الرجال بهن طول الليل ، وذلك هو مذهبهم أى الممازجة فى الوطء بدعوى أن فى جسم كل واحد منهم نوراً إلهياً ، والوطء يمزج الأنوار ويكون به التقاؤها فيتحصل الخير وتتنزل البركة.

■ ■ ■

الأبيارى

عبد الهادى نجا بن رضوان الأبيارى المصرى (١٢٣٦ ـــ ١٣٠٥ هـ) له **« زهرة الطلع النضيد على إرشاد المريد »** ، و**« باب الفتوح لمعرفة أحوال الروح »** ، و**« زكاة الصيام بإرشاد العوام »** ، و**« نشوة الأفراح فى شرح راحة الأرواح »**. وقد ترجم عنه المستشرق أرنو Arnaud مختارات من كلامه عن الصوفية (١٨٨٩ م). والأبيارى نسبة إلى قرية أبيار من قرى محافظة الغربية حيث ولد ، وكان تعليمه بالأزهر واختير للإفتاء ، وله نحو الأربعين كتاباً فى التصوف والأدب ومصطلح الحديث.

إبن أبى الخير

أبو سعيد فضل الله (٣٥٧ ـــ ٤٤١ هـ) له **المقامات فى التوحيد**، صاغها شعرا بالفارسية فى شكل رباعيات، وقيل فيه إنه أول من أبدع الشعر الصوفى، وأول من استخدم الرمزية والقصص فيه، وأول من روج الرباعيات ويسرها للأفكار الصوفية، وتابعه على طريقته شعراء الصوفية الفرس كفريد الدين العطار وجلال الدين الرومى، وقد صنف فى ترجمته ابن عم له يدعى محمد بن المنور كتاباً أعطاه عنوان **« أسرار التوحيد فى مقامات الشيخ أبى سعيد »** اعتمده فريد الدين العطار فى تذكرة الأولياء وعبد الرحمن جامى فى نفحات الأنس فى شرح مذهبه وسيرته.

وأبو سعيد من مواليد ميهنة بخراسان ودرس الفقه الشافعى، وأخذ التصوف عن أبيه، وتلقى الخرقة من أبى عبد الرحمن السلمى، وحياته فى مرحلة الرياضة كلها زهد وتقشف، وكان فيها يلزم نفسه بخدمة المريدين فى الرباط ويكنس المساجد وينظف المغاسل حتى الحوائط، وقد ساح بالغياض مدة سبع سنوات يتغذى على أوراق الشجر والعشب ويصلى بالليل والنهار ويصوم بالأيام، ولما بدأ يعظ الناس التف حوله المريدون يرون فكانوا بالآلاف وانهالت عليه الصدقات والمنح والهبات فكان ينفق ببذخ على مريديه ومجالس السماع التى يعقدها، وكانوا ينشدون شعره ويصفقون ويرقصون فإذا غلبهم الوجد وأخذتهم الجذبة خلعوا الجبب وألقوا العمائم وشقوا القمصان، وتضايق الناس من هذه المجالس فشكوه إلى السلطان، وقيل إن الذين شكوه هم الشيعة والكرامية، إلا أن أبا سعيد كان يعتمد على الفراسة واستغلها أقصى استغلال فى قراءة أفكار خصومه والإيقاع بينهم فتركوه وشأنه لمجالسه، وكان يقول إن غايته إدخال السرور على قلوب أتباعه، وكان شعاره صل من قطعك، واعط من حرمك، واغفر لمن ظلمك. واتهمه مناوءوه بأنه كان يصعد المنبر فى خطبة الجمعة فيتلو الشعر وليس القرآن والحديث، وقد وصمه ابن حزم الأندلسى بالكفر، وقال عنه نيكلسون المستشرق أنه حلولى على مذهب الفرس والبسطامى خصوصاً، وأخذ عليه ابن حزم أنه يلبس الحرير كثيراً والصوف أحياناً، ويصلى مرة ألف ركعة، ومرات لا يصلى إطلاقاً، وذلك فى المرحلة الثانية من حياته والتى يعيبون فيها على الصوفية أنهم وقد ظنوا أنهم وصلوا فإنهم قد يهملون العبادات، ويروون أنه صدرت عنه مرة قولة مثل قولة الحلاج « أنا الحق »، واستبد به الوجد أثناء إلقائه موعظة من عظاته فقال مثله « ليس فى الجبة إلا الله »، وعندها ضرب سبابته فى جبته فشقها، وظل يحتفظ بالشق ليذكره بغلطته.

وعندما ذهب يزور القشيرى صاحب الرسالة انزعج القشيرى من المقابلة فقد كان قد سمع بأسلوبه فى السماع وإسرافه على نفسه وعلى مريديه فى مجالسهم وبذخه وجمعه للمنح والصدقات قسراً كلما أعوزه المال للإنفاق على هذه المجالس، وهى أمور ذكرها القشيرى فى باب النقائص والمثالب عند بعض الصوفية. وكان القشيرى قد عاقب أحد المريدين حيث ارتكب غلطة بأن قضى بنفيه من المدينة، وحضر أبو سعيد المجلس فاختلف معه وذكّره بأنه كان من الممكن أن يعاقبه بطريقة أرفق بأن يرسله فى مهمة تستوجب السفر. وعندما مات أبو سعيد بالغاً من العمر ثلاثة وثمانين عاماً قام ابنه أبو طاهر على رباطه وتوفر على خدمة الفقراء من أتباع طريقة أبية كما كان الحال معه، إلا أنه لم تكن له شخصيته وكان لا يحفظ من القرآن سوى سورة الفتح فانفرط عقد الطريقة، ولما دخل السلطان مسعود خراسان قتل من أفراد أسرته مالا يقل عن مائة فرد، على أن واحداً من المريدين هاجر إلى بغداد وأقام بها رباطاً صغيراً يحي فيه الطريقة. ومن شعره (ترجمة الدكتور الشواربى):

قلت: حدثنى عن جمالك.. من الذى يفوز ببهجته وسناه
فقال: أنا وحدى الفائز به.. ما دمت فى الوجود والحياة
فإنى أنا وحدى العاشق والمعشوق والعشق فى منتهاه
وإنى أنا وحدى العين المبصرة والجمال الزاهى والمرآة!

* * *

لا تلمنى يا سيدى إذا احتسيت الخمر والشراب
وإذا قضيت فى الخمر والعشق أيام الشيب والشباب
فأنا فى إفاقتى أعاشر الأحباب وغير الأحباب
ولكننى متى سكرت لا أجالس غير الأصحاب!

* * *

حدثت طبيبى عن آلامى الكثيرة الخافية
فقال لى كف الحديث ولا تتكلم إلا عن صفاته العالية
وحذار أن تجعل لك زاداً إلا من دماء قلبك الغالية
وحذار أن تفكر فى الدار الفانية أو الباقية

* * *

يا إلهى أنا فى عثرتى ارتجى عفوك ورضاك
وأنا فى ذلتى ابتغى رحمتك ونداك
ولن أفعل كسائر الناس فاحتمى بهذا أو ذاك

ولـيـس مـن حـام ولا واق فـى الـعـالمين سـواك!

* * *

ويقال إنه لما أشرف على الموت طلب أن يكتبوا على قبره هذين البيتين:

سألتك بل أوصيك إن مت فاكتبى　　علـى لـوح قـبرى كـان هـذا متيما
لـعـل شـجـيـا عـارفا سنن الهوى　　يمـر عـلـى قبر الـغـريـب مـسلما

▪ ▪ ▪

إبن أبى العشائر

أبو السعود بن أبى العشائر، من مشايخ مصر وصاحب **طائفة** توجه بهمته إلى **الأخلاق وتربية المريدين**، وكان مولده بواسط بالعراق ووفاته بالقاهرة سنة ٦٤٤ هـ، وله رسائل إلى إخوانه من باب النصح والوعظ يصف فيها أصول الطريق وآداب التصوف، ويقول إن الأخلاق الشريفة كلها تنشأ من القلوب، والأخلاق الذميمة كلها تنشأ من النفوس، فالصادق فى الطلب يشرع فى رياضة نفسه وطهارة قلبه حتى تتبدل أخلاقه فيبدل الشك بالتصديق، والشرك بالتوحيد، والمنازعة بالتسليم، والسخط والاعتراض بالرضا والتفويض، والغفلة بالمراقبة، والتفرقة بالجمعية، والغلظة باللين واللطف، ورؤية عيوب الناس بالغض عنها ورؤية المحاسن، والقسوة بالرحمة. والسالك ينبغى أن يجعل كتابه قلبه، وصلاح القلب فى التوحيد والصدق، وفساده فى الشرك والرياء، وعلامة صدق التوحيد شهود واحد ليس معه ثان، مع عدم الخوف والرجاء إلا من الله تعالى، وأما الصدق فهو التجرد عن الكل، ومحو كل ذات ظهرت، وفقد كل صفة بطنت. والسالك عليه إذا رأى من نفسه خلقاً سيئاً من كبر أو شرك أن يدخل نفسه فى ضد ما دعت إليه، ثم يقبل على ذكر الله حتى تضعف أخلاق نفسه. وأصول الطريقة التى ينبغى أن يبنى المريد عليها أمره أربعة: اشتغال اللسان مع حضور القلب بالذكر، وقسر القلب على المراقبة، ومخالفة النفس والهوى، وتصفية اللقمة لعبوديته.

وابن أبى العشائر **لايقول بالجوع ولا الفقر والانقطاع عن الدنيا** ولكن مايهمه هو أكل الحلال، ويقول إن أكل الحلال أو تصفية اللقمة بتعبيره هى القطب وبها تزكو الجوارح. ويبرر مخالفته للمعهود فى التصوف أن النفس ينبغى أن تعطى حظها من

المأكل والمشرب، وأن تمنع فى نفس الوقت عما يطغيها منه، لأنها أمانة الله عند العبد ومطيته التى يسير عليها، فظلمها كظلم الغير بل هو أشد لما ورد فى خلود قاتل نفسه دون قاتل غيره، إلا أن النفس من جهة أخرى لا ينبغى مطاوعتها على هواها، والنفس إذا استولت على القلوب أسرتها وصارت الولاية لها، ومع ذلك فالسالك يجب أن لا يشتغل بالكلية بمقاومة نفسه، فإن من اشتغل بمقاومتها أوقفته، ومن أهملها ركبته، بل يخدعها بأن يعطيها راحة دون راحة، ثم ينتقل إلى أقل من ذلك، ومن قاومها وصار خصمها شغلته، ومن أخذها بالخدع ولم يتابع هواها تبعته.

■ ■ ■

الأحمدى

أبو الفضل الأحمدى (المتوفى سنة ٩٤٢هـ) مصرى من شيوخ عبد الوهاب الشعرانى فقد صحبه خمس عشرة سنة ووصفه بأنه مِنْ أعرف أولياء الله بطريق الله وبأحوال الدنيا والآخرة وله كَلام محل اعتبار فيها، **ومذهبه فى التصوف** حسن الاعتقاد بربط القلب مع الله، وتنظيف الباطن من الحرص والغل والحقد وكل الأخلاق المذمومة، وإصلاح الطعمة فإنها أساس الدين، والتجرد عن الأسباب، والتعلم من كل من اختصه الله من فضله كائناً من كان لا سيما أهل الحرف النافعة فإن عندهم من الأدب ما لا يوجد عند خصوص الناس. وكلامه للمريدين عن **الأدب** يقول لا تقربوا من الأولياء إلا بالأدب ولو باسطوكم فإن قلوبهم مملوكه ونفوسهم مفقودة وعقولهم غير معقولة فيمقتون على أقل من القليل، ولا تتكلموا قط مع من فنى فى التوحيد فإنه مغلوب، وكلوه إلى مشيئة الله، ولا تشتغلوا بالإكثار من مطالعة كتب التوحيد فإنها توقفكم عما أنتم مخلوقون له، واحفظوا ألسنتكم مع أهل الشرع فإنهم بوابون لحضرة الأسماء والصفات، واحفظوا قلوبكم من الإنكار على الأولياء فإنهم بوابون لحضرة الذات، وإذا صحبتم كاملاً فلا تؤولوا له كلاماً إلى غير مفهومه الظاهر. ويضع الأحمدى **شروطاً** للمشايخ عند تلقين الذكر للمريدين وإلباسهم الخرقة وإرخائهم لهم العذبة، **فأما تلقين الذكر** فشرطه أن يكون للشيخ من القوة والتمكين وكمال الحال ما يستطيع به أن يمنح المريد عند قوله لا إله إلا الله جميع علوم الشرائع المنزلة إذ هى كلها أحكام لا إله إلا الله، وكلما كان المريد متمثلاً بشيخه كان ذلك أيسر على الشيخ، **والتلقين الحقيقى** لا يكون إلا لمن اتحد بشيخه اتحاداً كاملاً حتى صار كأنه هو، وأما إلباس الخرقة

فشرطه أن يكون الشيخ من التمكن بحيث أنه عند أمره للمريد بأن يخلع قميصه أو قلنسوته فإنه يخلع عنه فى الواقع جميع أخلاقه المذمومة فيتعطل عن استعمال شىء منها إلى أن يموت ذلك المريد، ثم يخلع على المريد مع إلباسه تلك الخرقة جميع الأخلاق المحمودة التى هى غاية درجة المريد فى علم الله فلا يحتاج بعدها إلى علاج خلق من الأخلاق، وأما **إرخاء العذبة** فشرطه أن يقدر الشيخ على أن يخلع على المريد حال إرخائها له سر النمو والزيادة لكل شىء يمسه ذلك المريد أو ينظر إليه، لتكون تلك الزيادة المرخاة من العمامة علامة وإشارة إلى التحقيق لتلك المرتبة من باب التحدث بالنعم.

■ ■ ■

إبن إدريس

أبو العباس أحمد بن إدريس (١١٧٢ ــ١٢٥٣هـ) مؤسس **الطريقة المحمدية الأحمدية**، وتشتهر فى اليمن والحجاز ومصر والشام والهند وحضرموت والسودان وجيبوتى والحبشة وجاوه والمغرب وليبيا والصومال. وكانت ولادته فى ميسور من قرى فاس بالمغرب، وبها نشأ وتعلم، ثم تتلمذ على الشيخ عبدالوهاب التازى الذى لازمه وأخذ عنه الطريق. وارتحل إلى مصر ثم مكة حيث استقر بها مدة ١٤ سنة، ثم عاد إلى مصر وأقام بالزينية مدة خمس سنوات، وعاد إلى مكة وأقام بها اثنتى عشرة سنة، ثم انتقل إلى اليمن وأقام بها تسع سنوات، وبها توفى ودفن فى قرية صبيا. وأخذ عنه فضلاء وقته مثل محمد السنوسى صاحب الجبل الأخضر، ومحمد حسن المدنى، والسيد عثمان الميرغنى، والشيخ المجذوب السواكنى، وابراهيم الرشيد. وله مؤلفات ومجالس علمية، ككتاب **العقد النفيس فى نظم جواهر التدريس، والصلوات المسماة بالمحامد الثمانية**. وهو شريف حَسَنى من نسل الحسن بن على. ولابراهيم الرشيد المتوفى سنة ١٢٩١هـ كراسة فى مناقبه أطلق عليها اسم «**عقد الدر النفيس فى بعض كرامات ومناقب أحمد بن إدريس**»، وكذلك للشيخ محمد خليل الهجرسى «**الفتوحات المدنية الهجرسية على الصلوات القدسية الإدريسية**» ومختصر له هو «**الجوهر النفيس على صلوات إدريس**»، وأيضاً لصالح بن محمد الجعفرى كتاب «**المنتقى النفيس فى مناقب قطب دائرة التقديس الإمام أحمد بن إدريس**». ويقول الميرغنى إن طريقة إبن إدريس تأخذ من الطريقة النقشبندية والطريقة الشاذلية، وعنوانها الطريقة الشاذلية، ويُطلق عليها اسم **الأحمدية** نسبة إلى ذاته، ومبناها وطريقة

سلوكها هو الإقبال بالكلية على تدبر معانى كتاب الله ، والتعرض لنفحات أسرار علومه ولطائف رقائقه وفهومه ، واتباع الكتاب والسنة . وكان ابن إدريس يقول إن **التصوف** هو تجريد القلب لله تعالى ، وهو علم الوراثة الذى نتيجته العمل المشار إليه بحديث فمن عمل بما علم أورثه الله علم ما لم يعلم . وهذه الطريقة تسمى **محمدية** ، ووجه اختصاصها بالانتساب إلى النبى ﷺ ، فمع أن الكل راجع إليه ومستمد منه ، إلا أن صاحبها بعد تصحيح بدايته وسلوكه على مناهج الاستقامة المبينة فى الكتاب والسنة ، يشتغل **بالصلاة على النبى** ، صلاةً إلى أن يثوى على قلبه ويتخامر لتعظيمه ويهتز لدى سماع ذكره ، فيسبغ الله عليه نعمته ظاهرةً وباطنة ، ولا يجعل لمخلوق عليه منة ، إلا النبى ﷺ فيراه يقظةً ومناماً ، ويسأله عما يريد ، ومن ثم جعل **الصلاة العظيمية** مدخلاً لطريقته ، كما ضمنها طلب الجمع به عليه الصلاة والسلام ، يقظةً ومناماً . وعنده أن **الاستقامة** هى غاية الكرامة ، واتباع النبى ﷺ ، خطوةً بخطوة ، وقدماً بقدم . وفى رسالة له تسمى **القواعد** ينصح مريديه بترك الراحة والرقاد ، والقيام لله على قدم الصدق ، وعدم الاستناد إلى البطالة ، وعدم الاغترار بالدنيا ، فإنه لا أضر على الفقير الصادق من طمعه فى الخلق .

ومما يتعلق بالأذكار من طريقته ما يسميه **التهليل والعظيمية** ، وصيغته **لا إله إلا الله محمد رسول الله فى كل لمحة ونفَس ، عدد ما وسعه علم الله** . وفاتحة الأوراد التى تستعمل أوائل كل عمل هى **اللهم إنى أقدم إليك بين يدى كل نفس ولمحة وطرفة يطرف بها أهل السماوات وأهل الأرض ، وكل شىء هو فى علمك كائن أو قد كان ، أقدم إليك بين يدى ذلك كله** . وكفارة المجلس هى **سبحانك اللهم وبحمدك أشهد أن لا إله إلا أنت ، أستغفرك وأتوب إليك . عملت سوءاً وظلمت نفسى فاغفر لى ، فإنه لا يغفر الذنوب إلا أنت** . والعدد فى التهليل فى الطريقة الأحمدية بحسب الطاقة ، وكذلك فى كل ذكر ، إلا أن الاستغفار فى السحر يعين بالسبعين . وفى رسالة **« مختصر الأنوار القدسية فى الطريقة المحمدية الأحمدية الإدريسية »** كلام عن **التهليل** أنه يشفى الغليل . وقراءة الوردين والحزبين المسمى أحدهما **بالسر الأعظم والكنز المطلسم** ، والآخر **بالتجلى الأكبز والسر الأفخر** ، ويسمى أيضاً **بالتجلى الأقدس والنور المقدس فى حضرة القدس** ، من لوازم الطريقة .

ولفظ الاستغفار الكبير: **استغفرك الله العظيم الذى لا إله إلا هو ، الحى القيوم ، غفار الذنوب ، ذا الجلال والإكرام ، وأتوب إليك من جميع المعاصى كلها**

والذنوب والآثام، ومن كل ذنب أذنبته، عمداً وخطأ، ظاهراً وباطناً، قولاً وفعلاً، فى جميع حركاتى وسكناتى وخطراتى وأنفاسى، كلها، دائماً أبداً، سرمدا، من الذنب الذى أعلم، ومن الذنب الذى لا أعلم، عدد ما أحاط به العلم وأحصاه الكتاب وخطه القلم، وعدد ما أوجدته القدرة وخصصته الإرادة، ومداد كلمات الله، كما ينبغى لجلال وجه ربنا وجماله وكماله، وكما يحب ربنا ويرضى.

■ ■ ■

إبــن أدهــم

إبراهيم، **الأمير الشحاذ** كما يصفه المستشرقون، والذين شبّهوا بدايته فى التصوف ببداية **بوذا**، وزادوا بأن قالوا إن حكاية ابن أدهم كلها قد صيغت نقلاً عن حكاية بوذا. وإبراهيم بن أدهم بن منصور بن يزيد بن جابر، أبو إسحق، التيمى العجلى، زاهد مشهور، من كورة بلخ، توفى سنة ١٦١ هـ، وقيلت فيه روايات كثيرة بمختلف اللغات فى بلاد الإسلام، وأنشدت فيه القصائد، وكانت حياته ملهمة ومستنهضة للهمم الإبداعية للكثيرين، ومن ذلك أن يقال إنه **ابن ملوك**، فقد ظن المستشرقون أن ذلك القول على الحقيقة، فلما تحروا أن يكون على بلخ أو خراسان أو العراق ملك أو سلطان، أو حتى وال يقال له أدهم، ولم يجدوا، أطلقوا القول بأن القصة مختلقة من أساسها، وأنه **لم يوجد متصوف مسلم اسمه إبراهيم بن أدهم، وإنما قصته ملفقة وترجمة لقصة بوذا**. وقالوا إن المشابهة بين أقوال ابن أدهم فى الزهد والتوكل والحب الصوفى وبين أقوال الصوفية فى زمنه متعذرة، ومن ذلك مايذكره المستشرق **فان أرينلوك** أنه من العبث أن نجد أى أثر فى تصوف معاصريه للنزعة النظرية عنده.

ويحكى ابن أدهم عن بدايته أن أباه حببّ إليه الصيد، وكان من المياسير، فخرج راكباً فرسه وكلبه معه، فبينما هو كذلك ثار أرنب أو ثعلب، فحرّك فرسه ناحيته، فسمع من ورائه: **ليس لذا خُلقت، ولا بذا أمرت!** ويقول إبراهيم: **فوقفت** أنظر يمنه ويسرّه فلا أرى أحداً، فقلت لعن الله إبليس، ثم حركت فرسى، فأسمع نداء من قربوس سرجى: **يا إبراهيم ما لذا خُلقت، ولا بذا أمرت**، فوقفت وقلت: **أنبهت أنبهت. جاءنى نذير من رب العالمين. والله لا عصيت الله بعد يومى ذا ما عصمنى ربى**، فرجعت إلى أهلى، فخليت عن فرسى، ثم جئت إلى راع لأبى،

فأخذت منه جبة وكساء ، وألقيت ثيابى إليه ، ثم أقبلت إلى العراق ، أرضٌ ترفعنى ، وأرض تضعنى ، وعملت بالعراق أياماً فلم يصف لى منها شيء من الحلال ، فسألت بعض المشايخ عن الحلال فقالوا لى : إذا أردت الحلال (يقصد الشُغل) فعليك ببلاد الشام ، فصرت إلى بلاد الشام ، فقيل لى إن أردت الحلال فعليك بطرسوس ، فتوجهت إليها ، وعملت بها أياماً أنظر البساتين (أى يحرسها) وأحصد الحصاد ، فبينا أنا كذلك جاء صاحب البستان مع أصحابه وقعد فى مجلسه ثم صاح : يا ناظور ، فقلت هو ذا أنا ، فقال اذهب فأتنا بأكبر رمان تقدر عليه وأطيبه ، فأتيته بأكبر رمان ، فأخذ واحدة فكسرها فوجدها حامضة ، فقال لى : يا ناظور ، أنت فى بستاننا منذ كذا وكذا ، تأكل فاكهتنا ، وتأكل رماننا ، لا تعرف الحلو من الحامض ؟ قال إبراهيم : قلت والله ما أكلت من فاكهتكم شيئاً ، وما أعرف الحلو من الحامض !! فلم يكن إبراهيم يأكل إلا من عمل يده ، ولا يطعم إلا ما يوافق دينه . ويروى أن شقيقاً البلخى التقى به فى الشام فسأله لماذا ترك خراسان ، فقال إبراهيم : ما تهنيت بالعيش إلا فى بلاد الشام (يقصد لأنه يأكل من عمل يده) ، أفر بدينى من شاهق إلى شاهق ، ومن جبل إلى جبل ، فمن يرانى يقول موسوس (**يقصد مجنوناً**) ، ومن يرانى يقول هو حمّال ، ثم قال : يا شقيق ، **لم ينبُل عندنا من نَبُل** (يقصد من كان على طريقة ابن أدهم فى التصوف) **بالحج ولا الجهاد ، وإنما نَبُل عندنا مَنْ نَبُل مَنْ كان يعقل ما يدخل فى جوفه** (يعنى طعامه) **مِنْ حِلّه** ، ثم قال : يا شقيق ، إن الله أنعم على الفقراء (يقصد الصوفية) ، لا يسألهم يوم القيامة ، لا عن زكاة ، ولا عن حج ، ولا عن جهاد ، ولا عن صلة رحم ، وإنما يسأل هؤلاء المساكين (يقصد الأغنياء) !! وفى رواية أخرى لإبراهيم بن بشّار الصوفى الخراسانى قال : أمسينا مع إبراهيم بن أدهم ذات ليلة وليس معنا شيء نفطر عليه ، ولا بنا حيلة ، فرآنى مغتماً حزيناً فقال : يا ابن بشّار : ماذا أنعم الله تعالى على الفقراء (الصوفية) والمساكين (الأغنياء) من النعيم والراحة فى الدنيا والآخرة ، لا يسأل الله الفقراء يوم القيامة عن زكاة ، ولا عن حج ، ولا عن صدقة ، ولا عن صلة رحم ، ولا عن مواساة ، وإنما يسأل ويحاسب عن هذا هؤلاء المساكين ، الأغنياء فى الدنيا ، والفقراء فى الآخرة ، أعزة فى الدنيا ، أذلة يوم القيامة . لا تغتم ولا تحزن ، فرزق الله مضمون ، سيأتيك ، **نحن والله الملوك الأغنياء** ، نحن (يقصد الصوفية) الذين تعجلنا الراحة فى الدنيا ، ولا نبالى على أى حال أصبحنا وأمسينا إذا أطعنا الله عز وجل !!! وهناك الكثير من القصص التى فيها مقارنة بين أحوال الغنى عند أهل الدنيا ، وأحوال الفقر عند أهل الله من الصوفية الزهاد ، وتتسق مع كون إبراهيم بن

أدهم من المياسير الذين خلّفوا كل جاه وسلطان ومال وولد، طوعاً وبالإرادة، طلباً لله. ولا يُفهم من ذلك أن إبراهيم يدعو إلى التواكل وترك الأسباب، فقد كان يتعيش من الزرع والحصد وطحن الفلال وما شابهه، إلا أنه لم يدع مع ذلك إلى الامتناع عن المسألة، لأنها فرصة لممارسة الإحسان من المحسن، واشترط فيها أن لا تكون تكسباً للعيش، وهو يقول: المسألة مسألتان، مسألة على أبواب الناس (أى اضطراراً ودفعاً للهلاك جوعاً، وحتى وهى كذلك فإن السائل عليه أن يسعى فى طلب القوت بطلبه من الناس بأن يمر عليهم فى بيوتهم)، ومسألة يقول الرجل فيها ألازم المسجد وأصلى وأصوم وأعبد الله، فمن جاءنى فى شىء قبلته، فهذه شر المسألتين، والآخذ بها هو المُلحف من المسألة. وإذن فطريقة إبراهيم هى طريقة العمل والأخذ بالأسباب مع التوكل على الله. وقد حدث أنه كان مع إخوانه أمام بيته، وأحدهم كان بادى الفقر، ومظهره شديد البؤس، فقال له إبراهيم: أدخل أدخل حتى لا يمر بك إنسان فيظن أنك سائل فيعطيك شيئاً!! ويروى إخوانه فى الطريق أنهم رأوه يأكل الطين عشرين يوماً، ويقول لولا أنى أتخوف أن أعين على نفسى (يعنى أن أجور على نفسى) ما كان لى طعام إلا الطين حتى ألقى الله عز وجل، حتى يصفو لى الحلال من أين هو. ويصف إبراهيم طريقته فيقول: لو علم الملوك وأبناء الملوك (لاحظ مرة أخرة ذكره للملوك وأبنائهم) ما نحن فيه من السرور والنعيم لجالدونا بأسيافهم أيام الحياة على ما نحن فيه من لذة العيش وقلة التعب!!! وكان إبراهيم يلبس فى الشتاء فروة ليس تحتها قميص، ولم يكن يلبس خفّين ولا عمامة، وفى الصيف له شقتان بأربعة دراهم، يأتزر بواحدة ويرتدى بأخرى، ويصوم فى السفر والحضر، ولا ينام الليل، وكان يتفكر، فإذا فرغ من الحصاد أرسل بعض أصحابه فحاسب صاحب الزرع، فيجيئون بالدراهم لا يمسها بيده، فيقول لأصحابه: اذهبوا كلوا بها شهواتكم!! وقيل فى إبراهيم إنه كان قلما يبتسم، وقد حدث ذلك ثلاث مرات، وفى إحداها كان سبب ابتسامته أنه نظر الفروة التى عليه فلم يميز بين شعرها وبين القمل لكثرته (القشيرى فى الرسالة)، ويعلق على ذلك أحد المستشرقين أن القصة ألصق بالتصوف الهندى والسريانى منها بالتصوف الإسلامى، غير أن هذا الفقر هو ما كان يطلبه إبراهيم، وعلى ذلك كانت تسمية الصوفية بالفقراء، وإبراهيم يقول: الفقر كنز فى السماء، يهبه الله للمخلصين من عباده، ومن علامة العارف بالله أن يكون أكبر همه العبادة. ويروى عنه أنه فى بغداد التقى بالإمام أبى حنيفة وحضر مجلسه فاشمأز تلاميذه من رثاثة ثياب ابن أدهم، فقال لهم أبو حنيفة أنتم مشغولون بأبدانكم، وهذا

شُغله بالله!! وحدث يوماً وكان ينظر كَرْماً أن مر به أحدهم وأمره أن يعطيه من الكرم، فقال إبراهيم: ما أذن لى صاحبه، فجعل الرجل يقلب سوطاً فى يده وأمسك إبراهيم من موضع الشيب فى رأسه، ويهدده، وإبراهيم يطأطىء رأسه ويقول: إضرب رأساً طالما عصى الله، فأعجز الرجل عنه، وهى قصة يقول المستشرقون فيها إن طريقة إبراهيم كما تصورها تجعله **متأثراً بالتصوف المسيحى**، وقد كانت منطقة طرسوس وما حولها حيث لبث إبراهيم نحو أربع وعشرين سنة يكثر فيها النصارى، وكثيراً ما كان إبراهيم يعمل عندهم، إلا أن طريقة إبراهيم كانت هى الطريقة المحمدية، وطريقة الآباء والإسلام. وإبراهيم **قد جاهد فى سبيل الله وغزا**، وكان الناس يركبون وإبراهيم على رجليه ويأبى الركوب، ولم يكن يأكل من الغنائم لكيلا يكون جهاده فى غير سبيل الله، ومات فى إحدى الغزوات ضد البيزنطيين فحملوا جثمانه إلى صور حيث دفنوه، وقيل دفن فى جَبَلة بالقرب من اللاذقية، وقالوا إنه مدفون فى دمشق أو فى بغداد، وقال البخارى: إن وفاته سنة ١٦١ هـ، وقال ابن عساكر سنة ١٦٢ أو ١٦٣ هـ.

وفلسفة ابراهيم قوامها: أطِبْ مطعمك ولا حرج عليك إن لم تقم الليل ولم تصم النهار. وطريقته **أساسها** أن درجة الصلاح لا ينالها المريد إلا إذا جاز ست عقبات، الأولى: أن تغلق باب النعمة وتفتح باب الشدة، والثانية: أن تغلق باب العز وتفتح باب الذل، والثالثة: أن تغلق باب الراحة وتفتح باب الجهد، والرابعة: أن تغلق باب النوم وتفتح باب السهر، والخامسة: أن تغلق باب الغنى وتفتح باب الفقر، والسادسة: أن تغلق باب الأمل وتفتح باب الاستعداد للموت.

والفقر بطريقة ابن أدهم يعادل الشهادة عند الله، وهو مقام لا يعطيه إلا لمن أحبه، فإذا فرحت بالموجود فأنت حريص، محروم، وإذا حزنت على المفقود فأنت ساخط، والساخط معذب، ودليل كل ما سبق قوله تعالى: «لكيلا تأسوا على ما فاتكم ولا تفرحوا بما آتاكم».

وإبراهيم لا يصدر عن فلسفات هندية أو سريانية أو مسيحية كما يقول المستشرقون، وليست القصص عنه خيالية رومانسية كما يدّعون. وحتى كلامه فى الحب الذى يكنه للحق لم يكن سابقاً على زمانه، ولم يكن مقلداً للمسيحيين، فهو قد أسلم أمره لله، وزهد فيما كل ما يمكن أن يشغله عن الله. وقد حدث يوماً أن رسولا جاءه بدنانير فرّدها على صاحبها قائلاً ما حاجتى إلى شىء لا يبقى علىّ. وحدث أن نام إبراهيم يوماً فى العراء والمطر ينهمر وقد غطى نفسه، فكشف أصحابه غطاءه ولاموه

فقال : طَلَبَ الملوكُ شيئاً ففاتهم ، وطلبناه فوجدناه (يقصد الطريق إلى الله ومحبة الله) .

وهو يشكو القلق دائماً ، ولكنه ليس الدنيوى ، ويقول مخاطباً الحق : اللهم إن كنت أعطيت أحداً من المحبين لك ما سَكّنت به قلوبَهم فأعطنى ذلك فقد أضرّ بى القلق . ويروى أنه رأى فى نفس الليلة فى المنام أن الله تعالى يقول له : يا إبراهيم ، أما استحييت منى ؟ تسألنى أن أعطيك ما يسكن به قلبك قبل لقائى ؟ وهل يسكن قلب المشتاق إلى غير حبيبه ؟ أم هل يستريح المحب إلى غير من اشتاق إليه ؟ فقال إبراهيم : قلت : يارب ، تُهت فى حبك ، فلم أدر ما أقول !!! وبمثل ذلك قعّد إبراهيم أصول طريقته ، فهى لم تقم على الصدفة والروايات والتأثير والتأثر، بمثل ما قامت على الأصول ، وهو يسأل مرة شقيقاً البلخى فى الأصول : علامَ أصّلتم أصولكم ، ويجيب البلخى : إذا رُزقنا أكلنا ، وإذا مُنعنا صبرنا ، فيرد إبراهيم رداً حاسماً هكذا كلاب بلخ ، إذا رُزقت أكلت ، وإذا مُنعت صبرت . إنّا أصّلنا أصولنا على أنّا إذا رُزقنا آثرنا ، وإذا مُنعنا حمدنا وشكرنا !!! (وذلك ما يميز الإنسان الصوفى أو الإنسان العابد homo religioso عن الإنسان ، أى إنسان ، أو عن الحيوان) . ويروى أن البلخى وقد سمع رد ابن أدهم أسرع وقعد بين يديه وقال : **أنت أستاذنا !!**

■ ■ ■

أربرى

أرثر أربرى Arberry مستشرق بريطانى (١٣٢٣ ـ ١٣٩٠هـ ، ١٩٠٥ ـ ١٩٧٠م) من أعضاء المجمع العلمى العربى بدمشق ، تعلم بمدرسة اللغات الشرقية فى بورتسماوث وكلية بمبروك فى كيمبردج ، وأتقن العربية والفارسية ، ورأس قسم الدراسات القديمة فى الجامعة المصرية من سنة ١٩٣٢ إلى سنة ١٩٣٤م ، وعين أمينا لمكتبة ديوان الهند ووزيراً للأنباء فى الهند ، ثم استاذاً للعربية فى جامعة لندن . ونشر فى التصوف **كتاب التعرف للكلاباذى ، واللمع للسراج ، والمواقف للنفرى ، والتوهم للمحاسبى ، والصدق لأبى سعيد الخراز** ، وترجمات من الشعر الصوفى الفارسى ، وبحوثاً فى الغزل الصوفى عند حافظ ، ورباعيات الرومى وأبى دنيا والشيخ شهاب الدين عمر السهروردى ، والتصوف الإسلامى فى الدراسات البريطانية ، وسير الصوفية ، وتراجم لذى النون المصرى والقشيرى وغيرهم ، وله كذلك المدخل لتاريخ التصوف .

الاسفراييني

أبو المظفر شاهفور بن طاهر بن محمد الاسفراييني الفقيه الأصولي المفسر الشافعي، توفي بطوس سنة ٤٧١ هـ، ومن مصنفاته «**تفسير الكتاب الكريم**» بالفارسية، و«الأوسط» في الملل والنحل. وله «**التبصير في الدين وتمييز الفرقة الناجية عن الفرق الهالكين**» المعروف بين أهل العلم بالتبصير، وأيضاً بكتاب الملل والنحل، ويعتبر الصوفية من الفرق الناجية ويقول إن الصوفية ليسوا من أهل البدع، لأن أهل البدع لم يكن لأحد منهم حظ من دقائق وحقائق علم التصوف، بل إن هؤلاء كانوا محرومين مما فيه من الراحة والحلاوة والسكينة والطمأنينة. ويذكر الاسفراييني أن عبد الرحمن السلمي قد أورد في طبقاته من أعلام الصوفية قريباً من الألف، وجمع إشاراتهم وأحاديثهم، ولم يكن فيمن أورد أسماءهم أحد ممن يمكن أن ينسب إلى شيء من بدع القدرية والروافض والخوارج، ويتساءل وكيف يمكن أن يتصور فيهم من هؤلاء وكلامهم، أي الصوفية، يدور على التسليم والتفويض والتبرى من النفس والتوحيد بالخلق والمشيئة، بينما أهل البدع ينسبون الفعل والمشيئة والخلق والتقدير إلى أنفسهم، وذلك بمعزل عما عليه أهل الحقائق من التسليم والتوحيد.

ويقول الاسفراييني في باب **فِرَق البدع الذين ينتسبون إلى دين الإسلام ولا يعدون في زمرة المسلمين** أن هؤلاء **الحلولية** وهم فرقة ظهرت في دولة الإسلام وكان غرضهم إفساد التوحيد على المسلمين، ومن جملتهم الحلاجية المنتسبون إلى **أبي المغيث الحسين بن منصور الحلاج** من أرض فارس، من بلد يقال له بيضاء، وكان في أول أمره يتكلم على لسان الصوفية ويتعاطى العبارات التي تسميها الصوفية الشطح، وهو أن يتكلم بكلام يحتمل معنيين، أحدهما مذموم والآخر محمود، وكان يدعى في كل علم، وافتتن به أهل العراق وجماعة من أهل طالقان خراسان، واختلف المتكلمون والفقهاء والصوفية في حاله. أما المتكلمون فأكثرهم على أنه من الحلولية، وكان محتالاً ممخرقاً، وإليه ذهب القاضي أبو بكر (الإمام محمد بن الطيب الباقلاني المتوفى سنة ٤٠٣ هـ) وحكى في كتابه كثيراً من حيله، وجماعة من متكلمي البصرة يقال لهم السالمية، وهم من جملة الحشوية، يتكلمون ببدع متناقضة، وقالوا إنه كان صوفياً محققاً وله كلام في معان دقيقة في حقائق الصوفية. وكذلك الفقهاء اختلفوا في حاله فقد سئل بعضهم عن حاله لما أريد قتله فتوقف فيه، وأفتى بعضهم بجواز قتله. وكذلك أهل التصوف اختلفوا في حاله، فردّه عمرو بن عثمان المكي وأبو أيوب الأقطع، وردّوا من كلامه أنه قال

يوماً للجنيد أنا الحق، فقال له الجنيد أنت بالحق أى خشبة تفسد، فظهرت فراسته حتى صلب بعد ذلك. وقبله أبو العباس بن عطاء وأبو عبدالله بن خفيف وأبو القاسم النصر آبادى وفارس الدينورى. وقالوا أظهر الله عليه أحوال من الكرامات وكان من حقه أن يحفظ سره فيها، فعاقبه الله تعالى بتسليط من كان يرده عليه حتى بقى حاله مشكلاً ملبساً، وقالوا: والدليل على صحة باطنه أنه كان يُقطع يده ورجله ويقول حسب الواحد إفراد الواحد. وحكى عنه أنه سئل عن دينه فقال: ثلاثة أحرف لاعجم فيها، ومعجومان وانقطع الكلام. قالوا أراد به التوحيد، والذين قالوا بتكفيره إنما قالوه لما حكى عنه أنه كان يقول: كل من هذب نفسه فى الطاعة وصبر على اللذة وصفا حتى لايبقى فيه شىء من البشرية حل فيه روح الإله كما حل فى عيسى عليه السلام، ولايريد شيئاً إلا كان كما أراد، ويكون جملة فعله قول الله تعالى. وكان يدعى لنفسه هذه المنزلة، وَوُجد له كتب كتبها إلى أتباعه عنوانها «مِنْ الهوهو رب الأرباب، المتصور فى كل صورة، إلى عبده فلان». وأتباعه كانوا يكتبون إليه «ياذات الذات ومنتهى غاية اللذات، نشهد أنك تتصور فيما شئت من الصور، وأنك الآن متصور فى صورة الحسين بن منصور، ونحن نستجيرك ياعلاّم الغيوب». ويقال إنه اختدع جماعة من خواص المقتدر، فخاف المقتدر فتنة فعرض حاله على الفقهاء، واستفتى فيه الفقهاء فوافق مراده فتوى أبى بكر بن داود فأمر حتى ضرب ألف سوط، وقطعت يداه ورجلاه وصلب يوم الثلاثاء لثلاث بقين من ذى القعدة سنة تسع وثلاثمئة، ثم أمر حتى أنزل من خشبته وأحرق وطرح رماده فى دجلة، وأتباعه الذين من أهل طالقان قالوا إنه حى، وأن الذى قتل كان شخصاً ألقى عليه شبهة، والله أعلم بحقيقة الأمر.

■ ■ ■

الإسنوى (عماد الدين)

محمد بن الحسن بن على بن عمر القرشى الإسنوى الأموى الأشعرى (٦٩٥ ـ ٧٦٤هـ) صاحب كتاب **«حياة القلوب فى كيفية الوصول إلى المحبوب»**، وميلاده بإسنا وتعلم بالقاهرة والشام واستوطن حماة مدة، وعاد إلى مصر فناب بالحكم فى القاهرة ومنوف وتوفى بالقاهرة، والكتاب فى أربعة فصول فى حد علم التصوف وحقيقته وشرفه ومعنى التصوف وأحوال الصوفية وأدبهم مع الحق والخلق ومعنى الولاية وكرامات الأولياء ولغة التصوف، وهو يقول إن **علم الباطن هو علم القلب أو علم**

التصوف، وهو أجل العلوم وأشرفها، ويعرف منه أحوال النفس فى الخير والشر وكيفية تنقيتها من عيوبها وآفاتها وتطهيرها من الصفات المذمومة والرذائل والنجاسات المعنوية التى ورد الشرع باجتنابها، والاتصاف بالصفات المحمودة، وهى الصفات التى طلب الشرع تحصيلها، وكيفية السلوك والسير إلى الله تعالى. **وفائدة هذا العلم** وثمرته هى النجاة فى الآخرة، والفوز برضا الله تعالى، ونيل سعادة الأبد، **وموضوعه** هو الباطن أى القلب من ناحية ما يعرف له من اللمحات والخواطر والهواجس والوساوس والعلوم والنيات والقصود والعزائم والاعتقادات وحديث النفس وغير ذلك. **ومسائل هذا العلم** هى الأحكام المتعلقة بهذه الخواطر والهواجس والنيات والقصود والعزائم وسائر أحوال النفس. **وشرف هذا العلم** أن أهله هم الصفوة بعد الأنبياء والرسل عليهم الصلاة والسلام، وهو العلم الذى درج عليه السلف الصالح من الصحابة والتابعين وتابعيهم، وهو العلم الذى لم يبعث الله الأنبياء إلا لأجله، وقد سماه فى كتابه فقهاً وعلماً وضياء ونوراً وهدى ورشداً، وهو مستخرج من القرآن والسنة، وهو علم يقين المقربين. والتصوف أوله علم وأوسطه عمل وآخره موهبة، فالعلم يكشف عن المراد، والعمل يعين على المطلوب، والموهبة تبلغ غاية الأمل، وأهله على **ثلاث طبقات**، مريد طالب، ومتوسط سالك، ومنته واصل، فالمريد صاحب وقت، والمتوسط صاحب حال، والمنتهى صاحب نفس، وأفضل الأشياء عندهم عد الأنفاس، فالمريد طالب متعوب فى طلب المراد، والمتوسط السالك مطالب بآداب المنازل، وهو صاحب تلوين لأنه يترقى من حال إلى حال، وهو فى الزيادة، والمنتهى الواصل محمول قد جاوز المقامات، وهو فى محل التمكين لا تغيره الأحوال. ومقام المريد المجاهدات والمكابدات وتحمل المشاق وتجرع المرارات ومجانبة الحظوظ، ومقام المتوسط ركوبه الأهوال فى طلب المراد ومراعاة الصدق فى الأحوال واستعمال الأدب فى المقامات، ومقام المنتهى الصحو والتمكين وإجابة الحق من حيث دعاه. والتصوف له **ظاهر وباطن**، فظاهره استعمال الأدب مع الخلق بالأخلاق الحسنة معهم، وباطنه منازلة الأحوال والمقامات مع الحق، فالظاهر علامة الباطن، والباطن حقيقة الظاهر. ويوصى الأموى المريد بأن يكون شديد التوق والاجتناب لمحدثات الأمور، وليكن حريصاً على التفتيش عن أخبار الصحابة وسيرهم، ويحذره من التخلى عن السنة وآدابها، ويوجب عليه الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر وجوباً على الكفاية، ويتأكد وجوبه على المريد والسالك، والدليل عليه قوله تعالى ولتكن منكم أمة يدعون إلى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر.

■ ■ ■

الأصم (حاتم)

أبو عبد الرحمن حاتم بن علوان، وشهرته حاتم الأصم، ولم يكن أصّم على الحقيقة وإنما جاءته امرأة تسأله مسألة فاتفق أن خرج منها ريح له صوت فخجلت المرأة، فقال حاتم إرفعى صوتك زاعماً أنه لم يسمع ما صدر منها، فداخل المرأة السرور لذلك، ومن يومها غلب عليه اسم الأصم. وهو أعجمى من بلخ، وصفه بعض أصحابه بأنه ألكن ليس يكلمه أحد إلا قطعه، وتوفى سنة ٢٣٧ هـ، وكان يقال فيه حاتم الأصم **لقمان هذه الأمة**، قيل تتلمذ على شقيق البلخى، وتتلمذ عليه أحمد بن خضرويه، وروى عنه أبو تراب النخشبى. وطريقته تقوم على إيثار الأدوم والأعم، والأخذ بالألزم والأقوم، ويؤسسها على التوكل والتيقن، ويفلسف توكله بأنه قد علم بأن رزقه لن يأكله غيره فاطمأنت نفسه، وعلم بأنه لا يخلو من عين الله حيثما كان فاستحيى منه، وأن له أجلاً يبادره فهو منتظر له. ويضرب المثل بنفسه فقد كانت له أربعة نسوة وتسعة أولاد ولم يقدر الشيطان أن يوسوس له فى شىء من أرزاقهم. ولما سأله أستاذه شقيق ماذا تعلمت منى منذ أن صحبتنى، أجابه تعلمت ست كلمات، أولهن رأيت كل الناس فى شك من أمر الرزق، والله يقول وما من دابة فى الأرض إلا على الله رزقها، فعلمت أنى من هذه الدواب فلم أشغل نفسى بشىء قد تكفل لى به ربى، والثانية رأيت لكل إنسان صديقاً يفشى إليه سره ويشكو إليه أمره، فقلت أنظر لى صديقاً، فكل صديق رأيته قبل الموت فأردت أن أتخذ صديقاً يكون لى بعد الموت، فصادقت الخير ليكون معى إلى الحساب ويجوز معى إلى الصراط ويثبتنى بين يدى الله عز وجل، والثالثة رأيت أن كل الناس لهم أعداء فقلت أنظر من يكون عدوى، فالذى يعطينى أو يأخذ منى ليس عدوى، وإنما عدوى هو الذى يأمرنى بالمعصية كلما كنت فى طاعة الله، وذلك هو إبليس وجنوده فاتخذتهم عدوى، ونصبت الحرب بينى وبينهم، والرابعة رأيت الناس لهم طالب يطلب كل واحد منهم فى يوم من الأيام وذلك هو الموت، ففرّغت له نفسى فإذا جاء أكون مستعداً للمضى معه، والخامسة رأيتنى أحب وأبغض حسداً للناس فطرحت الحسد من قلبى وأحببت الناس كلهم، فكل شىء لم أرضه لنفسى لم أرضه لهم، والسادسة رأيت الناس كلهم لهم بيت ومأوى يهتمون بتعميره، ولكن مآلهم إلى القبر وليس ما يعمرونه به، فقلت أفعل كل ما أقدر عليه من الخير حتى أعمر به قبرى.

والموت من يقينيات الأصم، وله فيه كلام يعظ به مريديه وكانوا كثيراً حتى أنه لما دخل الري في سياحة كان بصحبته ثلاثمئة وعشرون رجلاً من الصوفية يقول لهم من دخل مذهبنا فليضع نصب عينيه الموت، وهو ليس هذا الموت الحسى الذى نعرفه كنهاية للحياة على الأرض، ولكنه موت الصوفية، ومنه **موت أبيض** هو الجوع، **وموت أسود** هو احتمال أذى الناس، **وموت أحمر** هو مخالفة النفس، **وموت أخضر** هو طرح الرقاع بعضها على بعض. والصوفى المراقب لنفسه هو الذى يذكر نظر الله إليه إذا عمل، ويذكر سمع الله له إذا تكلم، وعلم الله فيه إذا سكت. وليس من يدعى حب الله من غير ورع عن محارمه، أو حب الجنة من غير إنفاق ماله، أو حب النبى من غير محبة الفقراء إلا كذباً. ورأس الأمر كله فى **الثقة بالله، ثم التوكل، ثم الإخلاص،** ثم المعرفة، والأشياء كلها تتم بالمعرفة، ومذهب الأصم يؤصله على المعرفة وهى الألزم والأقوم للصوفى، وبها يكون العارف عارفاً.

■ ■ ■

إبن الأعرابى

أبو سعيد أحمد بن زياد، المعروف بابن الأعرابى (٢٤٦ ــ ٣٤١هـ) بصرى نزيل مكة وبها مات، وله التصانيف المشهورة ومنها **طبقات النساك، والاختصاص** (فى ذكر الفقر والغنى)، **والإخلاص، ومعانى علم الباطن، ومعانى الزهد وأقوال الناس فى صفة الزاهدين، والمواعظ والفوائد.** وصحب ابن الأعرابى الجنيد وعمر بن عثمان المكى وأبا الحسين النورى، وأسند الحديث ورواه، وكان شيخ الحرم المكى فى وقته، ويفرق بين علوم الظاهر وعلوم الباطن، والأولى مدارجها الوسائط والثانية مدارجها المكاشفة، والتصوف ترك للفضول، والمعاملة كلها مبنية على استعمال الأولى فالأولى من العلم، فإذا زهدت فيلزمك أن تأخذ فقط ما لابد منه، وإذا توكلت فمعنى ذلك أن تطرح عن نفسك الكنف، وإذا رضيت فذلك معناه أنك تركت الاعتراض، وأما مقام المحبة فهو إيثار المحبوب على الكل، وفى الصبر تتلقى البلاء بالرحب، فإذا فوضت فإنك تطمئن تماماً، وعند تحقق اليقين تترك الشكوى وتكون الثقة بالله وأنه أعلم بك وبمصالحك منك بنفسك. والنفس هى آفة المريد، والاشتغال بها يقطعه عن عبادة ربه، والاشتغال بهموم الدنيا يقطعه عن هموم الآخرة، والأقرب إلى التوفيق من تنبه من الغفلة والنسيان برحمة من الله فيعرف نفسه بالعجز والذل والضعف وقلة الحيلة

فيتواضع لله وللخلق، وهكذا الفقراء أو الصوفية فأخلاقهم سكون عند الفقر واضطراب عند الوجود وأنس بالهموم ووحشة عند الأفراح.

■ ■ ■

أق شمس الدين

ولى البيرامية، محمد شمس الملة وولى الدين بن حمزة، له « **رسالة فى دوران الصوفية ورقصهم** »، ولد سنة ٧٩٢هـ فى دمشق، وقيل إنه من نسل محمد بن شهاب الدين السهروردى، وكان قدومه إلى قاواق سنة ٧٩٩هـ، وتوفى أبوه وهو فى السابعة، وانخرط فى دراسة الدين، واشتهر بدر الدين بن قاضى سماونة بأنه كان من شيوخه، واشتغل مدرساً للقرآن، وانضم للطريقة **البيرامية** وسرعان ما اختاره ولياً حاجى بيرام شيخاً سنة ٨٣٠هـ، وكانت له كرامات علاجية قرّبته من السلطان محمد الثانى، وكتب **عدداً من الكتب الطبية والصوفية** التى لم تنشر بعد ولكن البيرامية الشمسية يتداولون مخطوطاتها بينهم، وكان له دور كبير فى استبعاد الملامتية من الطريقة فانفصلوا بطريقتهم وتسموا باسم الملامتية البيرامية وشيخهم عمر دده البورسوى. (**أنظر البيرامية**)

■ ■ ■

الأقصرى

يوسف بن عبدالرحيم بن يوسف البغدادى (نحو ٥٥٠ ـ ٦٤٢هـ) وشهرته أبو الحجاج الأقصرى نسبة إلى مدينة الأقصر بصعيد مصر التى أقام به بعد رحيله إلى مصر من العراق حيث موطنه ومثوى آبائه، وكان من أخلص مريدى عبدالرحيم القنائى، وقيل فيه إنه كان عظيم الشأن فى مواجيده وأحواله ومكاشفاته وكراماته، واتسعت دائرته وانتسب إليه خلق كثيرون. ويذكر شهاب الدين السهروردى فى كتابه جذب القلوب إلى مواصلة المحبوب طرفاً من الحكايات عن الأقصرى وهو فى بغداد، ومنها نفهم أنه كان يعمل حائكا قبل أن يرحل إلى مصر، وكان له حانوته الخاص، وكان رحيل الأقصرى إلى مصر ولم يبلغ الأربعين، وصحبه أولاده الأربعة، وأسلمت على يديه راهبة الأقصر تريزة بنت القيصر لمّا رأت إيمانه ووهبته كنيستها فأقام عليها مسجده

وألحق به مدرسة لتدريس علوم الباطن لمريديه ، ويبدو من الترجمات التى تناولته أنه حارب البدع فى مجتمع الأقصر وأنه استطاع أن يخرجه من حياة الجحود والتخلف إلى السعى فى الدنيا والآخرة . وطريقته فى التصوف هى التزام الكتاب والسنة ، ومن تعاليمه أن المريد الصادق لا يخوض قط فى الذات تعظيماً لجناب الله ، وكان يحذر من الحلوليين والاتحاديين ويقول كل مريد سمعتموه يقول حقيقتى الله أو لا موجود إلا الله فعرفّوه بذنبه فإن لم يتب فاقتلوه لأنه زنديق . وله منظومة فى التوحيد ضمّنها تسعة وتسعين باباً ، وتتكون من نحو ألف وأربعمائة بيت ويستهلها بقوله :

الحمد لله العلى الصمد ... الأول الآخر بلا أمد

ويقول فى ذات الله وصفاته :

وكل ضد لصفات ذاته ... يستحيل ذاك فى صفاته

كالعجز والموت والمنام ... والجهل والمانع للكلام

وما يتنافى سمعه وبصره ... جلّ الإله ربنا ما أكبره

ويستحيل أن تكون ذاته ... كذات لمخلوق كذا صفاته

ولا له حد ولا مثال ... ولا تغير ولا زوال

والأقصرى له **منهجه فى التربية الصوفية** ، والمريد الصادق لا يرجع عن الطريق ولو قاسى كل الأهوال ، ومن شروطه أن لا يصحب شيخه بنفس ولا ملك ولا اختيار ، ومن كان له حسد لإخوانه فلا ارتقاء له أبداً . ومن أشهر تلاميذ الأقصرى أبو الغوث مفرج الدمامينى المتوفى سنة ٦٤٨ هـ والمدفون بدمامين من أعمال قوص ، وله كلام حسن فى الطريق ، وموسى بن الحسن بن يوسف المعروف بالصباغ وبالظهير القوصى والمتوفى سنة ٧١٠ هـ وقد تخرج عليه الكثيرون ومنهم تاج الدين الدشناوى ، وكمال الدين عبد الظاهر الجعبرى القوصى المتوفى سنة ٧٠١ هـ وقد استوطن أخميم وانتفع به خلق كثيرون .

الأنصارى (زكريا)

شيخ الإسلام ، نشأ فقيراً معدماً حتى أنه قال أنه كان يخرج فى الليل من شدة الجوع فيلتقط قشر البطيخ ويغسله ويأكله ، ولما ظهر فضله تتابعت عليه العطايا حتى

كان دخله قبل أن يتولى منصب القضاء نحو ثلاثة آلاف درهم، فأكثر من الصدقة واقتنى نفائس الكتب، واشتغل بالتعليم والتأليف، وله المصنفات والشروح، وتتلمذ عليه الشعرانى، وقال فيه إنه فى أواخر عمره الذى امتد أكثر من مائة عام (ولد سنة ٨٢٣ هـ ومات سنة ٩٢٦ هـ) لم يكن فى مصر كلها إلا من كان من طلبته أو من هو لا يزال يدرس عليه، وكان صوفياً ذاكراً، يشرح كلام أهل الطريق على أتم حال ويجيب عنه بالأجوبة الحسنة إذا أشكل على الناس شىء من كلامهم. وكان يقول إن الفقيه إذا لم تكن له معرفة بمصطلح ألفاظ القوم فهو كالخبز الجاف من غير إدام. ولما وقعت فتنة برهان الدين البقاعى فى إنكاره على ابن الفارض ألفاظه، كان يقول: **لا يجوز لمن لا يعرف مصطلح القوم أن يتكلم فى حقهم بِشر، لأن دائرة الولاية تبدأ من وراء طور العقل لقيامها على الكشف، يعنى أن علم الصوفية كشفى من دائرة وراء العقل، أى أن الكلام فيه ليس بالعقل.** وكان هو نفسه كثير الكشف لا تخيب فراسته فيمن يحادثه. وكان وهو شاب يحب طريق الصوفية ويحضر أذكارهم حتى أن أهل الفقه كانوا يعدون ذلك نقيصة فيه، ولا يستبشرون فيه خيراً للفقه، لكثرة مطالعته لكتب الصوفية. وقال عن نفسه إنه سافر إلى المحلة الكبرى ليلتقى بالشيخ الغمرى وأقام عنده أربعين يوماً قرأ عليه فيها كتابه **قواعد الصوفية** كاملاً وأخذ عنه لبس الخرقة وتلقن الذكر.

■ ■ ■

الأنطاكى

أبو عبد الله أحمد بن عاصم المتوفى سنة ٢٣٩ هـ، من أقران بشر الحافى والسرى السقطى والحارث المحاسبى، ومن أجل ذلك يدور كلامه على المراقبة والمحاسبة، ويسميه الدارانى لهذا السبب **جاسوس القلب**، ويطلق الأنطاكى على الصوفية اسم **أهل الصدق**، ومجالستهم لذلك تكون بالصدق لأنهم **جواسيس القلب**، وعلم التصوف هو علم **معاملات القلوب**. يقول: إذا صارت المعاملة إلى القلب استراحت الجوارح، وكل نفس مسئولة فتعهدها بالمحاسبة، واستح من قبولك من نفسك دعواها الصدق، والحكيم من نظر بعين القلب، والقلوب تحتاج من أصحاب النفوس الحية إلى دوام الرعاية، وإجمام القلوب يكون بقلة المخالطة وترك الطلب، ورقتها تستجلب بدوام مجالسة أهل الذكر من أهل العقول، ونورها يُتحصل بدوام الحزن، واستفتاح الحزن يكون بطول الفكر، والتماس الفكر يكون فى مواطن الخلوات.

والأنطاكى من الذين أمعنوا التفكير فى أحوال عصره، وقرأ كثيراً، ووازن بين مختلف العلوم، وصارت له رؤياه الخاصة. يقول: أدركت من الأزمنة زماناً عاد الإسلام فيه غريباً كما بدأ، وعاد وصف الحق فيه غريباً كما بدأ، إن نزعت فيه إلى عالم وجدته مفتوناً بالدنيا، يحب التعظيم والرياسة، ويأكل الدنيا بعلمه ويقول أنا أولى بها من غيرى، وإن ترغب فيه إلى عابد تجده مفتوناً جاهلاً فى عبادته، مخدوعاً لنفسه ولإبليس، قد صعد إلى أعلى درجات العبادة وهو جاهل بأدناها، فكيف بأعلاها، فقد صارت العلماء والعبّاد سباعاً ضارية، وذئاباً مختلسة، فهذا وصف أهل هذا الزمان من أهل العلم والقرآن ورعاة الحكمة، فاعتبروا يا أولى الأبصار. والأنطاكى بحث عن الحل وقد تبحر العلوم وجرب الأصول، وطالع الحكمة ودارس الموعظة، وتدبر القول بالمعقول، فلم يجد من العلم ما هو أشفى للصدر، وأتقى للهم وأحيي للقلب، وأجلب للخير وأذهب للشر، من **علم معرفة المعبود وتوحيده، والإيمان واليقين بآخرته ليصح الخوف من عقابه والرجاء لثوابه والشكر على نعمه. ويوجز الأنطاكى مذهبه فى هذه العبارة «كفى بالعبد عارا أن يدّعى دعوة ثم لا يحققها بفعله»، ويلخص حياته ومجاهداته الروحية وحقيقة تصوفه فى هذه الأبيات يعلم بها مريديه:**

ألم ترى أن النفس يرديك شرها ... وأنك مأخوذ بما كنت ساعيا
فمن ذا يريد اليوم للنفس حكمةً ... وعلماً يزيد العقل للصدر شافياً
هلمَّ إلىّ الآن إن كنت طالباً ... سبيل هدى أو كنت للحق باغيا
فعندى من الأنباء علمٌ مجربٌ ... فمنه بإلهام ومنه سماعيا
أخبرُ أخباراً تقادمَ عهدُها ... وكيف بدا الإسلام إذ كان باديا
وكيف نما حتى استتم كمالهُ ... وكيف ذوى إذ صار كالثوب باليا
ومن بعد ذا عندى من العلم جوهرٌ ... يفيدُك علماً إن وعيت كلاميا
وعلماً غزيرا جالى الرين والصدى ... عن القلب حتى يترك القلب صافياً
فأصبحتُ بالتوفيق للحق واضحاً ... وذاك بإلهام من الله ماضياً
لأنى فى دهر تغرّب وصفه ... فصار غريبا موحش الأهل قاسيا
فأحوج ما كنا إلى وصف ديننا ... ووصف دلالات العقول زمانيا
عجائب من خير وشر كليهما ... فإن كنت سماعا بدا للقلب واعيا
فقد ندب الإسلام أحمد ندبةً ... كما ندب الأموات ذو الشجو شاجيا
فأول ما أبدأ بالحمد للذى ... برانى للإسلام إذ كان باريا
وصيرنى إذا شاء من نسل آدم ... ولم أك شيطاناً من الجن عاتيا

ولا شاء من إبليس صيّر مخرجي فكنت مضلا جاحد الحق باغيا
ولكنه كان باللطف سابقا وإذ لم أكن حيا على الأرض ماشيا
وصيرني من بعد في دين أحمد وعلّمني ما غاب عنه سؤاليا
وفهمني نوراً وعلماً وحكمة فشكري له في الشاكرين موازيا
فمن أجل ذا أرجو إذ كان غافراً ومن أجل ذا قد صح مني رجائياً
ومن أجل ذا أرجوه إذ لم يكافني ولكن بلطف منه كان ابتدائياً
فلا كنتُ ذا عقل لما قد رجوته لقد كنتُ ذا خوف وشكري محاذيا
ولو كنت أرجوه لحسن ضيعه شكرت فصح الآن مني حيائيا
فشكري له إذ صيرت بالحق عالما وللشر وصافا وللخير واصياً
ومن بعد ذا وصفي لنفسي وطبعها ووصفي غيري إذ عرفت ابتدائيا
فهذا من الأنبياء وصف غرائب فمن كان وصفي لكان بحاليا
فكيف به إذا كان بالحق عالما فهيهات لا ينجبه إلا الفافيا
وذاك لأن الناس قد آثروا الهوى على الحق سرا ثم جهراً علانياً
فهذا زمان الشر فاحذر سبيله فإن سبيل الشر يردى المهاويا

الأنطاكي

داود بن عمر البصير، وكان ضريرا، صاحب التذكرة الطبية المشهورة، من مواليد أنطاكية، وله كتاب **«تزيين الأسواق بتفصيل أشواق العشاق»**، وكان قد هبط مصر وعاش بها وصار له شأن في الطب فيها، ووجدها كما يقول: **«ملاعب جنة»**، ويعقد في كتابه فصلاً عن **العشق الإلهي** يذكر فيه أن المحبة قسمين، أشرفها الحب في الله، لأنه يفنى متعلقه ولايفضله شيء في الحقيقة، إذ ما سواه أوهام تضمحلّ وتزول، وأعراض تفنى وتحول. ويعرف المحبة فيقول إنها ميل نفساني إلى المراد يعضده الجزم بالاعتقاد ورؤية ما سوى المطلوب من الفساد، وغاية ذلك الثبات على الحب. ثم لهذه المحبة أوصاف وشروط، منها ألاّ يبالي المحب بما يرد من المحبوب، وأن يؤثر رضاه على نفسه فيتلذذ فيه بالبلاء كالعطاء، وبالغيبة كالحضور، والهجر كالوصل، والفناء كالبقاء، إذا كان ذلك رضا المحبوب:

فكل الذي ترضاه والموت دونه به أنا راضٍ والصبابة أرضت

وكذلك السالك لم يزل يلقى مرادات نفسه حتى إذا وصل انطوى فى دائرة المحبوب فلم يبق له مطلوب. وشرط المحبة أنها ميل بلا نيل، وشرط بلا جزاء، لئلا تزول عند زوال العوض. وقيل فى قوله عز وجل «إنى مسنى الضر وأنت أرحم الراحمين» أن أيوب لم يزل يأكله الدود حتى لم يبق غير قلبه ولسانه، فأكل بعضه بعضا حتى بقيت واحدة فدبت إلى قلبه. فقال أى ربى! لم أخفْ من بلاء ما دام قلبى عارفاً بحلاوة ذكرك، فأوحى الله إليه: بما تنظر إلىّ غدا؟ فقال بهاتين العينين. قال: لا، ولكن أخلق لك عينين يسمّيان البقاء لتنظر إلى البقاء بالبقاء. ويذكر الأنطاكى فيمن استشهد من المحبين شوقاً إلى حضرة رب العالمين عبدالواحد بن زيد وسعدون المجنون وعتبة الغلام والشبلى ورياح القيسى ورابعة العدوية.

■ ■ ■

الأنطاكى (عبد الله بن خبيق)

أبو محمد، أصله من الكوفة ولكنه سكن أنطاكية، وهى ثغر أهله فى رباط، وابن خبيق من زهاد الصوفية المرابطين، وطريقته طريقة الثورى، ولقد صحبه يوسف بن أسباط وردد كثيراً كلام الثورى، وكلامه يدور على الأخلاق، وكان من المحدثين، وما تحدث به عن رسول الله ﷺ يدور حول معاملات المسلم الورع مع إخوانه ومع الدنيا، ومع زوجاته، وأحواله فى الجهاد، وما أعد للآخرة، والمضمون الأخلاقى للإسلام. وأقواله مواعظ، ولأنه أحتك بأهل الكتاب من المسيحيين واليهود فى أنطاكية فهو يروى عنهم المواعظ. يقول مثلاً: كان حبر من أحبار بنى إسرائيل يقول: يارب كم أعصيك ولا تعاقبنى! فأوحى الله إلى نبى من أنبياء بنى إسرائيل: قل له: كم أعاقبك وأنت لا تدرى! ألم أسلبك حلاوة مناجاتى؟ ويقول ابن خبيق أن مناط الأخلاق أربعة أشياء: العينان واللسان والهوى والقلب، فانظر عينيك لا تنظر بهما إلى مالا يحل لك، وانظر لسانك لا تقل به شيئاً يعلم الله خلافه من قلبك، وانظر قلبك لا يكن فيه نَمَل ولا دغَلَ على أحد من المسلمين، وانظر هواك لا تهوى شيئاً من الشر، وإذا أردت أن تعيش حياً فى حياتك فلا يسكن الطمع قلبك، ولا تغتم من شىء يضرك غدا، ولا تفرح إلا بشىء يسرك غدا. وسأله أحدهم: بماذا ألزم الحق فى أحوالى، فقال: بإنصاف الناس من نفسك، وقبول الحق ممن هو دونك. وإن استطعت أن لا يسبقك إلى مولاك أحد فافعل، ولا تؤثر على مولاك شيئاً. واعلم أن

طول الاستماع إلى الباطل يطفىء حلاوة الطاعة من القلب. وسئل عن أنفع الخوف وأنفع الرجاء فقال: أنفع الخوف ما حجزك عن المعاصى، وأطال منك الحزن على ما فات، وألزمك الفكرة فى بقية عمرك. وأنفع الرجاء هو ما سهّل عليك العمل لإدراك ما ترجو. ولا يستغنى حال من الأحوال عن الصدق، ولو صدق عبد فيما بينه وبين الله لاطلّع على خزائن من خزائن الغيب، ولكان أمينا فى السموات والأرض. وقال واعظاً أصحابه: تعلموا صحة العمل من سقمه فإنى أتعلمه فى اثنتين وعشرين سنة. وإياكم أن تكونوا من قرائى الأسواق، يقصد الذين يعلمون القرآن ولا يعملون به. يقول إذا دنا الرجل القارىء من المعصية ناداه القرآن من صدره، والله ما لهذا حملتنى، فلو أن العاصى سمع ذلك الصوت لمات حياءً من الله تعالى.

■ ■ ■

أوران

نصر الدين وشهرته أخى أوران، وله طريقة فى التصوف تضم بين فئاتها طبقتين، الأولى من العمال الذين تجمع بينهم أخوة الإسلام، ورباط الطريقة، والانتماء للشيخ، والعمل فى ميدان من الميادين كالدباغة أو الحرف الأخرى التى تنتشر فى المدن، والثانية من السالكين الذين لا يجيدون العمل ولا يقدرون عليه وحياتهم مخصصة للعبادة، ويركنون إلى التكايا، ويتعيشون مما يتصدق به عليهم الإخوان العمال. والعامل العضو فى الطريقة لا يجد أى إعنات أنه يعول إخوانه من الدراويش. ولا نعرف بالتحديد تاريخ ميلاد ووفاة أخى أوران، إلا أنه عاش فى القرن التاسع الهجرى، وضريحه باستنبول. والأخوة تعنى الفتوة والانتصار للحق وخدمة الخَلْق ونصفة المظلوم وقضاء حوائج الناس والبذل لهم والسعى من أجل خيرهم وتأكيد معانى السلام بينهم. وكان قيام الطريقة على منوال مملكة النحل، سوى أن الأخوة الصوفية قوامها فريقان، العمال العُبّاد، والعمال الحرفيون، والجميع على الأخلاق الصوفية العالية ويضمهم علو الهمة والتقوى والورع، وهمة العابد فى عبادته كما أن همة العامل فى عمله، ولذلك راجت الطريقة بين العمال الأتراك فقد كانت تشبع فيهم الناحية الدينية، وتؤلف بينهم على أهداف سامية فيها إعمار القلوب وإعمار الأرض، وبجعلهم باستمرار فى حالة تأهب للبذل والعطاء، وكان منهم مجاهدون أشاوس، ودفعهم ذلك للإجادة والتفوق فى كل شىء، حتى أنهم برعوا فى القضاء والحكم، وأقام العثمانيون فى وقت من الأوقات

دولتهم بفضل مساعداتهم. والأخ فى بداية الطريقة اسمه يكيت أى فتى، واليكيت فى أوله من القولية، أى عضو بالقول فقط، فإذا تدرجت به الحال وداوم على الاتصال والتلقى من الإخوة والعمل بما ينبغى منه صار من السيفية أى حملة السيف، أى أنه يصبح عضواً عاملاً، والشارة التى يحملونها هى غطاء الصوف الأبيض للرأس يتدلى طرفه بمقدار ذراع وعرض الإصبعين. ودخول المريد فى الجماعة له طقوس فبالإضافة إلى محفوظاتهم القرآنية وأداعيهم وأذكارهم فإن الغاية الأخيرة كانت تقليد الأخ المنطقة التى هى العوض عن الخرقة الصوفية وتناسبه أكثر كعامل، ويقص شعره، ويعطى سكينا يدخله منطقته باعتبار شعارهم أن من لا يزعه القرآن يزعه السلطان، أى القوة. وكان الإخوة سبباً فى الكثير من الفتن حتى صار السلاطين يخشونهم، وكان أن انتسب لهم السلطان مراد. والإخوة مثلهم مثل الأتراك على المذهب الحنفى. ومعنى أوران بالتركية التنين، أى أنه أخى الجبار، والقول المأثور لأخى أوران أن الإنسان به قوى خفية لو تحركت لزحزحت الجبال، وأن الإيمان بالله وممالأة الحق كفيلان بأن يجعلا للفرد قوة، يزيدها ويصونها أن يعمل من خلال الجماعة وفى إطار أهدافها، ولا عجب لذلك أن أصبحت هذه الجماعة قوة سياسية اجتماعية واقتصادية ودينية يعتد بها ويحسب حسابها. ويذكر ابن بطوطة فى كتابه «الرحلة» أن الإخوة أو الإخوان اجتماعهم فى المساء فى الرباط فيقدمون لشيخهم بعضا مما ربحوه فى يومهم، ويتعاونون فيما بينهم، ويتكفل الشيخ بمن لا يستطيع العمل منهم أو المتبطل، ويعقد لهم المآدب ويدعى إليها الضيوف، وكان ابن بطوطة ممن استضافهم الإخوة، ويروى عنهم أنه كان لهم شأن سياسى واجتماعى عظيم بمقاتلة الطغاة وتفريق أنصارهم.

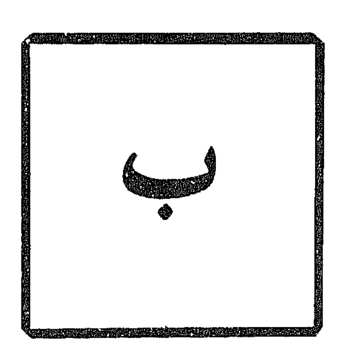
■ ■ ■

الأويسية

عند الشيعة الإيرانية وتنسب **لأويس القرنى**، وأعضاؤها هم **القرنيون**، ولم يدرك أويس رسول الله ﷺ، ولم تكن له معه صحبة، ولكنه رأى رجالاً رأوه، وبلغه عن حديثه، وقد منعه عن رسول الله ﷺ أنه ما كان يستطيع أن يأتى إلى مسجده من العرى، وما كان يترك أمه التى كان يرعاها، وفيه قال رسول الله ﷺ أويس القرنى خير التابعين بإحسان. والدعوة الأويسية بدأها **أبو الفتح سراج الدين محمود بن محمود الصابونى** وكان قد ارتحل إلى مصر، يتلقى عن الاسماعيلية وليكون من

المرشدين، وأخذ عنه الخرقة فيها **روزبهان البقلي**، الملقب شطاح فارس والذى استمرت إقامته بمصر مدة ١٥ سنة، وسمى لذلك **بروزبهان المصرى**، وقيل من مريديه **حافظ الشيرازى**، ومن بعده **نجم الدين كبرى** وهو أشهر صوفية الفرس، ومن تلاميذه **بهاء الدين ولد** أبو جلال الدين الرومى، **وفريد الدين العطار**، **وشهاب الدين السهروردى**. وتذكر لنجم الدين رباعيات فارسية واثنان وعشرون كتاباً ورسالة حول التصوف، ومنها **رسالة الخائف الهائم عن لومة اللائم**، **ورسالة منهاج السالكين**، **ورسالة سكينة الصالحين** وهى بالعربية. وخلفه **رضى الدين على لالا** وهو من نسل الشاعر **سنائى**، واشتهر بأنه صاحب مائة وثلاث عشرة خرقة. ومن شيوخ الطريقة **السمنانى** (٦٥٠ ـ ٧٣٦هـ)، وله **آداب السفرة**، **وبيان الإحسان لأهل العرفان وختام المسك**، **وسرالسماع**، **والفوائد فى التصوف**، **وعلى الهوانى** الذى هاجر إلى الهند وكان له دور كبير فى نشر الإسلام وتوفى سنة ٧٧٠هـ، **ومحمد نور الدين بخش** (٧٩٥ ـ ٨٦٩هـ) الذى اتهم بادعائه المهدية ومنح نفسه لقب نور بخش أى واهب النور، وله **سلسلة الذهب**، **والرسالة المعراجية**، **ورسالة مكارم الأخلاق**، **والواردات**، ونقل عنه مؤلف رياض العارفين بعض الأشعار.

■ ■ ■



بابا طاهر

كردى من همدان، توفى سنة ٤١٠ هـ، وكان يكتب الشعر فى رباعيات اشتهرت عنه بغزلياتها التى ينافس بها عمرالخيام، ومن الصعب تمييز عبارات الحب الصوفى فيها من عبارات الحب الدنيوى، ويصور فيها نفسه قائلاً إنه صوفى قلندرى، كثير السياحة، لم يعرف له بيت، ولم يأو تحت سقف، وسادته أى حجر يصادفه، ويرين على صدره الهم، ويملأ قلبه الأسى، ويستبد به القلق الروحى، وحتى الربيع بما فيه من آيات الجمال والأشواق فإنه لا يخلف فيه إلا الشقاء والبؤس والشعور بالوحدة. ويعترف فى شعره بخطاياه ويطلب من الله العفو عنه، ويتذلل له ويتمسح بالأعتاب، ويطلب منه الموت لجسده لعله يشفى من آلامه وتنتهى به عذاباته. ويحكى عن الصراع فى نفسه بين التعلق بالحياة ونشدان الموت، ويقول إن عينه تتعلق بأسباب العيش، وقلبه يتمرد عليه بين جوانحه ولا يدعه فى حاله، ويتساءل هل صرخاته هذه التى يطلقها فى أشعاره هى صرخات أسد هصور ممتلىء شجاعة وجرىء غير هياب، أم أنها صرخات نمر من النمور. ويناجى قلبه هاتفاً: لماذا لا تكف عن مجاهدتى وتتوقف عن مصارعتى؟ أيها القلب سأسفح دمك لو وقعت بين يدّى، لأرى من أى لون أنت!

وشعر بابا طاهر الصوفى يباين شعر الخيام، والبعض يقول إن شعر الخيام صرخات مدوية لنفس ثائرة ولكنها فى الأعماق مؤمنة بالله تعالى، إلا أنه من جهة أخرى يجد الخلاص لها فى اللذة، فهى الماء الذى يغسلها، والطهور الذى يزيح عنها الرين، والموت فيه راحة من كل مجاهدات، وأما بابا طاهر فشعره متأجج بالأشواق والعشق

للحق، وهو يشرح فلسفته الصوفية فى رسالات أو **كلمات قصار** كما يسميها يختار لها عناوين من الأمثال السائرة، فهناك باب **الحقيقة المشاهدة بعد علم اليقين**، وباب **الوجد وفقدان الموجودات ووجود المفقودات**، وباب **من يحل به قضاء الله فيبقى بلا حركة ولا إرادة**، وباب **من يقتله الجهل فكأنه لم يعش مطلقاً، ومن يقتله الذكر فإنه لا يموت أبداً**.

وهناك شروح عربية كثيرة عليها منها شرح **لعين القضاة الهمذانى** المتوفى سنة ٥٣٣ هـ بعنوان **الفتوحات الربانية فى إشارات الهمذانية**.

وبابا طاهر كشاعر صوفى له كرامات كما كان للشعراء الصوفية فى الفارسية كفريد الدين العطار وجلال الدين الرومى، وقد تساءل مرة كيف السبيل إلى المعرفة، فأشاروا عليه أنه سيحصل عليها لو قضى ليلة شتاء فى صهريج من الماء المثلج، ففعل، ويقول مريدوه إن حرارة إيمانه أذابت الثلج، وما أن أنبلج الصبح حتى كان قد استنار، فقال قولة أثرت عنه «**أمسيت كردياً وأصبحت عربياً**». ويبدو أن الطائفة التى يقال لها **أهل الحق** تعتقد فيه وتنزله منها منزلة الأولياء كما تفعل مع مشاهير الصوفية حيث يسمون الأماكن بأسمائهم على اعتقاد بأنهم يحلون فيها أو أن بركاتهم تحل بها.

■ ■ ■

البابائية

تنسب لمؤسسها **بابا رسول**، وقيل هو **بابا إسحق الكفر سودى التركمانى** الذى دعا أتباعه للثورة سنة ٦٣٨ هـ، وقيل هو **بابا إلياس**، وأما بابا إسحق فكان رسولاً لشيخ الطريقة واسمه بابا فقط، وقيل إن بابا إلياس هو الذى خلف إسحق على الطريقة بعد قتله، ويبدو أنها كانت طريقة شيعية حيث كان شعارها **لا إله إلا الله البابا ولى الله**، وقد زعم البابائية أنهم يقتدون بالخلفاء الراشدين، ولذلك فقد أطلق البابا على نفسه اسم أمير المؤمنين، ويقول مؤرخو الطريقة أن مؤسسها كان صوفياً يتخذ **المجاهدة والشعبذة**، وأنه كان يتعاطى السياسة ويستولى على عقول اتباعه بأن يمنّيهم بحياة أفضل تحت زعامته الروحية، وقد اصطدمت الحركة بالسلطة، وأسر البابا وزميله، وقيل قُتل أحدهما أو قُتل الاثنان، أو أن بابا إسحق اغتيل قبل المعركة الفاصلة، وقُتل أصحابه جميعاً عن بكرة أبيهم، والإجماع كما يقول الدكتور الشيبى أن

هذه الطريقة كانت ذات اتصال بالتشيع الغالى، وأن بكتاش مؤسس الطريقة البكتاشية كان من أتباع بابا إسحق، أو أنه كان من أعوان بابا إلياس وهاجر مثله من خراسان إلى تركيا أمام زحف التتار.

■ ■ ■

ابن باخلا

داود الكبير بن باخلا، **شيخ محمد وفا الشاذلى،** وكان **أمياً** لا يقرأ ولا يكتب ولكنه تكلم فى الطريق بكلام عال، وله كتاب **عيون الحقائق،** والحقائق التى يعنيها هى الحقائق العرفانية، ونظريته فى المعرفة الصوفية أن الموجودات موضوع علوم الدنيا أو علوم الظاهر، وما كان فوق إدراك العقل لا يمكن البحث فيه إلا بآلة عرفانية هى القلب، ومعرفة القلوب معرفة نورانية تتحصل لا بالدليل ولكن بالوهب، **وأهل العلم** جوّابون فى عوالم الحس، **وأهل المعرفة** جوّابون فى أفق العوالم الأعلى. والإنسان مخلوق ليعلم ويعرف، وهو أبدا فى عوالم ثلاثة، فعالم بالوصف الإنسانى الطينى له الجهل والنسيان، وعالم بالوصف الشيطانى له التكذيب والكفران والجحود والطغيان، وعالم بالوصف الروحانى له التصديق والإذعان ثم اليقين والعرفان ثم الشهود والعيان. وغاية العلم تنظيم أحوال الإنسان المعيشية، وأما المعرفة فتوجهها إلى الذات، والإنسان فى شوق دائم أن يعرف نفسه، ومن يعرف نفسه يعرف ربه. والإنسان كلما زاد علمه زاد افتقاره ومطلبه من العلم وعلت همته إليه لأنه فى حال جهله لا يطلب سوى أن يعلم، ولكنه فى حال علمه يطلب ما فوق العلم وهو أن يجلو العلوم والمعلومات. ويتفاوت الناس بإزاء الحقائق بحسب استعداداتهم، وما يبدو لهم منها يصنع علومهم، وأما ما يبدو فيهم فإنه ما يسميه العرفانيون **علوم الكشف،** ومن دأب أهل العلوم العلمية أن يقنعوا بما يسمعون ويرون ويستدلون عليه بالعقول، بينما أهل المعرفة أصحاب العلوم الكشفية فإن إقناعهم يكون **بالشهود،** ويسمى بن باخلا العلوم العلمية لذلك بعلوم الظاهر أو العلوم العقلية، ويطلق على العلوم الكشفية اسم علوم الباطن، ويقول إن علوم الظاهر تضبطها الأصول والنقول، وعلوم الباطن تضبطها أنوار القلوب. ويقول عن علوم الظاهر أنها علوم سلوكية أى أن مناطها الأخير هو تنظيم سلوك الإنسان فى حياته ومع مجتمعه، بينما العلوم الباطنة الكشفية منها ما قد يباح إظهاره، ومنها علوم مسررة غير مباح إظهارها بالمرة. والعلوم الكشفية مرة أخرى منها علوم إلهامية من نصيب الأولياء

العارفين، وعلوم وحي موكول بها الأنبياء. والفرق في **معرفة النبي ومعرفة الولي**، أن حقائق النبي غيبية ومع دلك له رقائق في عوالم الشهادة تقتضيها منه هذه العوالم، وحقائق الولي من عوالم الشهادة إلا أن للأولياء مع ذلك رقائق من عوالم الغيب. والغاية العظمى للمعرفة هي الانطواء بالفناء الأكبر في ظل الحق، والمرء مع من أحب، ومن أحب الله تعالى أحب كل ما كان سبباً منه، **والعارف** لا يرضيه أن يقصر معرفته على نفسه ولكنه يطلبها للناس، وهو إن لم يطلبه الناس ليصلوا بواسطته إلى الله تعالى طلبهم هو لاقتضاء حق الله تعالى، وما يتكلم بكلمة واحدة إلا انتفع بها كل من يسمعها، وما تكلم بكلمة إلا غاب فيها وجود المستمع، وهو في الدنيا لغيره لا لنفسه بينا غيره لنفسه لا لغيره، **ورسالة العارفين** إنقاذ الغرقى وتخليص الأسرى وتحمل أكدار الدنيا عن الضعفاء، **والعارف مع مريده** لابد له أن يتنزل لدرجته ليربيه وقلب العارف يكتب وأما قلب المريد فيكتب فيه، وسماع المريد كلمة أدب من العارف أفضل من سماعه لأبيه، لأن العارف يؤدب روحه وأبوك أو معلمك في الظاهر يؤدب نفسك، ومن سقاك من جسدك فقد ظلمك على الحقيقة، وكذلك من سقاك من نفسك ومن سقاك من عقلك، وأما من سقاك من شراب قلبك فقد أحياك. والمريد الصادق في حضوره **لمجلس العارف** يسمع كلامه بقلبه.

■ ■ ■

بارجيس

Bargés (١٨١٠ ـــ ١٨٩٦) أستاذ العربية بجامعة مرسيليا، وقد نشر **ديوان ابن الفارض** وعلق على قصيدتيه **الخمرية وسائق الأظعان**، وقدم دراسة عن الصوفي الكبير **أبي مدين الغوث**.

■ ■ ■

باعَلَوي

أو آل عَلَوي، عشيرة كبيرة ذات جاه، ومنها الكثيرون من السادات والصوفية في حضرموت خصوصاً في قرى تريم، نوه **محمد بن أبو بكر الشِلّي المتوفي سنة ١٠٩٣ هـ بذكرهم في كتابه المشرع**، وأورد أكثر من ٢٨٠ سيرة لأفراد من آل علوي، عرفوا بالعلم والأدب والتقوى والصلاح. وجدهم الأكبر علوي بن عبد الله بن أحمد بن عيسى المهاجر بن علي العُريضي بن جعفر الصادق بن محمد الباقر بن علي

زين العابدين بن الحسين بن على بن أبى طالب، فهم أشراف من آل البيت، ومنهم **محمد بن على بن محمد العلوى**، الملقب **بالأستاذ الأعظم والفقيه المقدَّم** (٥٧٤ ـــ٦٥٣هـ) وكان من مشايخ صوفية الجزيرة العربية، وصاحب **طريقة علوية**، وله رسائل منها «**بدائع علوم المكاشفات والتجليات**»، وخالط الصوفى سفيان اليمنى اللحجى حين زار حضرموت واستنزل المطر بعد طول الجدب، وتأثر عن طريق عبدالله صالح بن على المغربى وعبدالرحمن المُقعد بن محمد الحضرمى بأقوال أبى مدين شعيب بن الحسين التلمسانى، وكان أول من أدخل **التحكم الصوفى** فى حضرموت. ويصف الشلى الطريقة العلوية فيقول إنها طريقة الآباء. ومن الصوفية العلوية **علوى بن محمد العلوى** المتوفى سنة ٦٦٩هـ، وابنه **عبدالله العلوى** (٦٣٨ ـــ٧٣١هـ) وهما يتقدمان فرع باعلوى. ومنهم **محمد بن على بن علوى** (٧٠٥ ـــ٧٦٥هـ) وقد جعل رباطه فى مكان يقال له يَبْحر فلقبوه بمولى الدويلة، أى البلد القديم يبحر، وابنه عبدالرحمن السقّاف جد آل **السقاف والعيدروس**. ومنهم **عمر بن عبدالرحمن العلوى الملقب صاحب الحمراء**، وله رسائل صوفية قصيرة، وكتاب فى السيرة الصوفية لأبى بكر العيدروس الشاذلى، أطلق عليه اسم «**فتح الله الرحيم الرحمن فى مناقب عبدالله بن أبى بكر بن عبدالرحمن**». ومنهم **محمد بن على بن علوى الملقب جرد**، وله **رسائل** فى التصوف، وكتاب **النفحات**، **وغرر البهاء الضوئى فى مناقب السادة الصوفية بنى علوى**. ومنهم **سالم بن أحمد بن سيخان العلوى** (٩٩٥ ـــ١٠٤٦هـ) أدخله فى طريق السالكين أحمد الشناوى المتوفى سنة ١٠٢٨هـ. وكتب سالم عدة كتب فى التصوف، سجلها ابنه أبو بكر فى رسالة ضمنها الشلى سيرته فى كتابه المشرع، منها «**بُلغة المريد وبغية المستفيد**»، وهو شرح على الجزئين الرابع والخامس من **الجواهر الخمس** لمحمد غوث الله خطير الدين، و«**السفر المستور للدراية فى الدر المنثور للولاية**»، و«**مصباح السر اللامع بمفتاح الجفر الجامع**»، و«**غرر البيان عن عمر الزمان**»، و«**البرهان المعروف فى موازين الحروف**». ومنهم **عقيل بن عمر عمران العلوى** (١٠٠١ ـــ١٠٦٢هـ) الملقب **أبو المواهب**، ومن آثاره «**العقيدة**» وقد شرحها أحمد القشاشى وعلى بن عمر باعمر، و«**فتح الكريم الغافر فى شرح حلية المسافر**» وهو شرح على قصيدة صوفية لسعيد بن عمر بلحاف. ومنهم **محمد بن زين بن السمط العلوى** (١١٠٠ ـــ١١٧٢هـ) وله «**غاية القصد والمراد**» فى مناقب شيخه عبدالله بن علوى الحداد المتوفى سنة ١١٣٢هـ، و«**قرة العين**» فى مناقب شيخه أحمد بن زين بن علوى المتوفى سنة ١١٤٥هـ، وللأول ملخص هو بهجة

الفؤاد، وللثاني ملخص هو لب الألباب. ومنهم عبدالله بن حسين بن طاهر العلوى، ولقبه «الجاوى» والمتوفى سنة ١٢٧٢ هـ، وله كتاب «سُلّم التوفيق إلى محبة الله على التحقيق»، وعليه شرح عنوانه «مرقاة صعود التصديق لمحمد نووى الجاوى». ومنهم عبدالرحمن بن محمد بن حسين بن عمر العلوى، المتوفى نحو ١٢٥٠ هـ، وكان مفتى حضرموت، وله «بغية المسترشدين فى تلخيص فتاوى بعض الأئمة المتأخرين»، و«غاية تلخيص المراد فى فتاوى ابن زياد». ومنهم فضل بن علوى بن محمد بن سهل العلوى، المتوفى سنة ١٢٨٣ هـ، والملقب مولى أو والى الدويلة، وله «سبيل الأذكار والاعتبار» و«عقد الفرائد من نصوص العلماء الأماجد». (انظر السقافية والعيدروسية).

■ ■ ■

الباعونى

اسم أسرة اشتهرت بالقضاء والأدب والتصوف، أصلها من قرية **باعون** أو **باعونة** فى حوران الشام، وتنحدر من **ناصر بن خليفة بن فرج الناصرى الباعونى الشافعى، بدأ حياته نساجا، وتصوف واستقر فى الناصرة، وابناه اسماعيل** أصبح صوفياً وناب فى قضاء الناصرة، **وأحمد**، تصوف أيضاً وتقلد القضاء فى مصر، ومما يذكر له أنه رفض أن يوافق للسلطان برقوق بسلفة من أموال الأوقاف، فجر عليه ذلك غضبه، وإذلاله وحبسه، ومات فى دمشق سنة ٨١٦ هـ. وله قصيدة **«العقيدة»**. **وابراهيم بن أحمد**، وكان ينعت **بقاضى القضاة** حيث ناب عن أبيه فى قضاء دمشق، وذاعت شهرته حتى أطلقوا عليه **شيخ الأدب فى الديار الشامية**، ومن تلاميذه الشوكانى صاحب السير، وله خطب ورسائل وديوان شعر، وتوفى سنة ٨٧٠ هـ. **ومحمد بن أحمد** (٧٧٦ ـ ٨٧٠ هـ) وكان خطيباً للجامع الأموى بدمشق وناظراً للأوقاف، وله تلخيص منظوم لتاريخ الإسلام، وقضى سنيه الأخيرة متصوفاً زاهداً، ونظم **أرجوزة فى السيرة النبوية**، وله كتاب **منحة اللبيب**. **ويوسف بن أحمد** (٨٠٥ ـ ٨٨٠ هـ) تولى قضاء صفد وطرابلس وحلب ودمشق، وعاش متصوفاً، وكان ينظم الأراجيز فى السير. **ومحمد بن يوسف** (٨٥٧ ـ ٩١٦ هـ) عاش زاهداً كأبيه، ونظم الأراجيز مثله، وله **بهجة الخلد فى نصح الولد**. **وعائشة بنت يوسف**، وكانت نابغة فحفظت القرآن وهى دون الثامنة، واكتملت فيها فى هذه السن ملكات

الأدب ونزعات التصوف المأثورة عن أسرتها ، وورثت إلى جانب ذلك استقلالاً فى الفكر والرأى بدا فى مصاحبتها للرجال من معاصريها ، وتراسلها معهم بالشعر ، ودرست لبعض الوقت بالقاهرة . ولعل أشهر آثارها « **البديعية** » فى مدح الرسول ، وعنوانها **الفتح المبين فى مدح الأمين** ، وكتبت عليها شرحاً ، وتابعها على طريقتها عبد الغنى النابلسى فى كتابة بديعيته « بسمات الأزهار » وتدبيج شرحها ، ودأب على المقارنة بين أبيات عائشة الباعونية وأبياته المقابلة . وتشمل مصنفاتها « **كتاب الممالك الشريفة والآثار المنيفة** » و« **الفتح الحنفى** » وكلاهما فى موضوع التصوف ، وكتاب **مولد النبى** ، وبعضه شعر ، وبعضه نثر ، ونظمت « **المعجزات والخصائص النبوية** » للسيوطى ، واختصرت رسالة **الهروى** « **منازل السائرين** » **فى أرجوزة عنوانها** « **الإشارات الخفية فى المنازل العلية** » ، كما اختصرت فى أرجوزة أخرى « **القول البديع فى الصلاة على الحبيب** » **للسخاوى** . وتوفيت بدمشق سنة ٩٢٢ هـ .

■ ■ ■

باقى بالله

خواجه أبو المؤيد رضى الدين ، ويعرف أيضاً بعبد الباقى ، أو محمد باقى بن عبد السلام ، أويسى نقشبندى ، ولد فى كابول سنة ٩٧١ هـ ، وتوفى بدلهى سنة ١٠١٢ هـ ، ودرس فى سمرقند ، ونزع إلى التصوف ، وتوجه إلى الهند للعمل ولكنه بدلاً من ذلك بدأ يبحث عن السالكين والصوفية ، ودخل فى الطريقة النقشبندية ، وتتلمذ عليه أحمد سرهندى وعبد الحق دهلوى .

ولباقى فى التصوف **سلسلة الأحرار** وهى مجموعة من الرباعيات التى تصدى لها بالشرح أحمد سرهندى ، **والكليات** ، وينسب إليه تفسير صوفى للقرآن . (**أنظر أحمد السرهندى**) .

■ ■ ■

باقى خانلى

عباس قلى أغا ، وشهرته باقيخانوف ، واسمه المستعار الذى يوقع به هو قُدْسى ، وهو ابن مَمْدَخان حاكم باكو الذى استولى أخوه محمد قلى خان على عرشه . وكانت

ولادته سنة ١٧٩٤م في قرية مير من باكو، ووفاته سنة ١٨٤٧م، وتعلم العربية والفارسية والروسية، وزار شيروان وأرمينية وداغستان والكرج وتركيا وفارس والقوقاز والروسيا ودول البلطيق وبولنده، وكتب بالعربية والفارسية والآذرية، ومن مصنفاته فى التصوف **رياض القدس** وهو ترجمة لعدد من صوفية الإسلام المشهورين، **ورسالة فى الأخلاق** اعتمد فيها على أقوال الحكماء والفلاسفة العرب وغيرهم من اليونان والأوربيين الذين لهم نفس الاتجاهات، **ونصيحتنامه** بالفارسية وهو فى الأخلاق الإسلامية وما يمكن أن يكون عليه شأن الصوفى الزاهد.

■ ■ ■

بالمر

إدوارد هنرى بالمر Palmer (١٨٤٠ – ١٨٨٣م) إنجليزى أولع باللغة العربية وقرض بها الشعر وارتاد صحراء سينا واتصل بالبدو واتقن لهجاتهم وعرفوه باسم الشيخ عبدالله ومن آثاره **التصوف الشرقى** (كيمبردج سنة ١٨٦٧) وعدد من القصائد فيه بالفارسية والعربية.

■ ■ ■

البخارى

جلال الدين حسين الملقب **بمخدوم جهانيان جهانكشت** أو **الشيخ جلال مخدوم جهانيان**، من مشايخ الطريقة السهروردية ثم الطريقة الجشتية، ومريدوه يسمون أنفسهم **الجلالية**، وهم فقراء متجولون لا يعرفون الاستقرار، ولا يهتمون بالصلوات، ويتعاطون البنج أو القنب الهندى، ويأكلون الحيات والعقارب، ويحلقون لحاهم وشواربهم وحواجبهم، ويلبسون أساور من الزجاج، ويضعون حول رقابهم حبلاً من الصوف.

وجلال أبوه سيد أحمد كبير، هاجر من بخارى إلى مُلتان وبَهكر بالهند، وكان متصوفاً، وولد ابنه جلال سنة ٧٠٧هـ فى أجحه، وفيها مات سنة ٧٨٥هـ ودفن. وقد تعلم فى ملتان، وخرج جوّابا فزار الشام وفلسطين ومصر والجزيرة وبلخ وبخارى وخراسان ومكة والمدينة، وكتابه **سَفَر نامه مخدوم جهانيان** وصف لرحلاته فيه الكثير

من القصص الخارقة، وكان تلقيه للخرقة من نصير الدين جراغ دلهى، وأقيم شيخاً للإسلام على يد محمد بن تغلق، وكانت تتبعه أربعون خانقاه، وله غير كتاب الأسفار «**خلاصة الألفاظ جامع العلوم**» ويعرف باسم «**الدر المنظوم فى تلفظات المخدوم**»، و«**سراج الهداية**» و«**خزانة جلالى**» ويعرف أيضاً باسم **مناقب مخدوم جهانيان**، والكتب الثلاثة ضخمة فى حجمها، وكتبت بروح الكرامات والخوارق، وهناك كتاب أخير فى تعليم الطريقة الجلالية اسمه «**خزانة الفوائد الجلالية**» صنّفه سنة ٧٥٢هـ تلميذه أحمد بهاء بن يعقوب.

■ ■ ■

البدليسى

مولانا حكيم الدين إدريس، المؤرخ والصوفى، صاحب كتاب **هشت بشت** ومعناه الجنات الثمانى، يؤرخ به لعهود سلاطين العثمانيين الثمانية من عثمان إلى بايزيد الثانى، وله **شرح لفصوص الحكم لابن عربى، وشرح لكلشن راز للشبسترى**، وشرح بعنوان **حق المبين** لكتاب الشبسترى **حق اليقين**، **وشرح لخمرية ابن الفارض، ورسالة فى النفس، وحاشية على تفسير البيضاوى**، واشتهر بالورع، فلما عهدوا إليه بكتابة تاريخ البيت العثمانى ترفق بالفرس، ولما صحب سليما فى حملته على الكرد حاول ما استطاع أن يخدم الأكراد، وقيل إن سليم كان يحبه لتقواه فأطلق يده فى الأملاك الكردية فاستطاع أن يكسب ثقة أعيانهم. وقيل إنه فى حملة سليم على مصر احتج على مساوىء الولاة العثمانيين. وكانت زوجته زينب خاتون قد شيدت مسجداً دفن البدليسى بجواره عندما توفى سنة ٩٢٦هـ.

■ ■ ■

البدوى

شيخ العرب السيد أحمد البدوى، القطب الملثم، الصمّات وأبو فرّاج، وأبو العباس، وأبو الفتيان، العطّاب، والغضبان، **صاحب الطريقة الأحمدية**، ولد فى فاس سنة ٥٩٦هـ، وتوفى فى طنطا سنة ٦٧٥هـ وكان قد بلغها سنة ٦٣٦هـ على الأرجح، وعاش فوق سطوح دار ابن شحيط، ومن ثم كان لقبه السطوحى أيضاً،

وكان فى حالة وَلَهٍ دائم أو كثير الغياب كما يقول مريدوه من السطوحيين، وذلك ما جعل الناس فى حيرة من أمره فالتبس عليهم هل هو من الصوفية أم أنه مجنون، إلا أنه بفضل أصحابه ومجاهداتهم مع عامة الناس صار للطريقة الأحمدية أتباع كثيرون، وكان لها أعمق الأثر فى تاريخ مصر، دينيا واجتماعيا واقتصاديا وفكرياً، وتحولت بها طنطا إلى مدينة كبرى بعد أن كانت قرية صغيرة، وصارت موالد السيد البدوى مواسم للتجارة يحضرها الناس من كافة نجوع مصر. **ولم يترك البدوى كتابات لها أهميتها الفكرية، ويبدو من القليل الذى تركه أن مواهبه العقلية كانت محدودة على غير المتوقع لصاحب طريقة مشهورة كطريقته، ومن ذلك حزبه الذى نصه:** بسم الله الرحمن الرحيم، لووا عما نووا، فعموا وصموا عما طووا. رب لا تذرنى فردا وأنت خير الوارثين. بسم الله الرحمن الرحيم. ألم تر كيف فعل ربك بأصحاب الفيل. ألم يجعل كيدهم فى تضليل، وأرسل عليهم طيرا أبابيل، ترميهم بحجارة من سجيل، فجعلهم كعصف مأكول. اللهم أكفيهم بما شئت. اللهم إنى أعوذ بك من شرورهم، وأدرأ بك فى نحورهم. بك أحاول، وبك أقاتل. اللهم واقية كواقية الوليد، بكهيعص كفيت. بحمعسق حميت. فسيكفيكهم الله وهو السميع العليم. ولا حول ولا قوة إلا بالله العلى العظيم. وصلى الله على سيدنا محمد النبى الكريم، وعلى آله وصحبه وسلم تسليما، والحمد لله رب العالمين». وتلاوة هذا الحزب تكون فى الصباح والمساء بعد تلاوة الفاتحة مائة مرة، والصمدية مائة مرة.

ومن آثاره أيضاً **الأوراد**، وتخصص الطريقة الأحمدية لكل ليلة ورداً، وترتبط **الأوراد** بالصلوات الخمس. ومن آثاره كذلك **الوصايا**، وهى تتوجه إلى خليفته **عبد العال** فيقول له فيها: ياولدى أوصيك بتقوى الله فى السر والعلانية، وعليك بملازمة السنة والجماعة فى كل وقت. وبعد السلام من كل فرض تقرأ آية الكرسى مرة، وسبحان الله ثلاثاً وثلاثين مرة، والصلاة على النبى ﷺ مائة مرة. وتذكر الله ثلاثمئة مرة. وإن قدرت على تلاوة ذلك عقب كل فرض كان مفتاح كل خير، وإن لم تقدر فعقب الصبح والعشائين، وإلا فكل يوم مرة على الدوام. وإذا تأخرت عن التلاوة يوماً تعيد ما فاتك كله وقت القضاء، فإن الأوراد مطلوبة من المريد. وكذا ملازمة صوم يوم الإثنين والخميس، لما فى ذلك من الأحاديث الشريفة. واعلم يا ولدى أن صلاة ركعتين فى جوف الليل خير لك من صلاة ألف ركعة بالنهار. وأما ورد يوم الأحد فتقول عقب المفاتيح السابقة: اللهم صل على سيدنا محمد الأمى وعلى آله وصحبه وسلم مائة مرة وخمسين مرة، ثم تقول الحمد لله والله أكبر، من مائة إلى

مالا نهاية، كل بثوابه. ويوم الأثنين سبوح قدوس، من مائة مرة إلى آخر جهدك. ويوم الثلاثاء سبحان القادر المقتدر كذلك أيضاً. ويوم الأربعاء سبحان ذى الملك والملكوت كذلك. ويوم الخميس سبحان الله وبحمده ألف مرة، وهى بعتق رقبة كما ورد. وفى يوم الجمعة الصيغة الأمية، العدد السابق. ويوم السبت لا حول ولا قوة إلا بالله العلى العظيم مائة مرة فقط.

ومن **وصاياه** أيضاً: يا عبد العال، إياك وحب الدنيا فإنه يفسد العمل الصالح كما يفسد الخل العسل. واعلم يا عبدالعال بأن الله تعالى قال فى كتابه المكنون: إن الله مع الذين اتقوا والذين هم محسنون. يا عبدالعال: أشفق على اليتيم، واكس العريان، وأطعم الجيعان، وأكرم الغريب والضيفان، عسى أن تكون عند الله تعالى من المقبولين. يا عبدالعال: عليك بكثرة الذكر، وإياك أن تكون من الغافلين عن الله تعالى، واعلم أن كل ركعة بالليل أفضل من ألف ركعة بالنهار. ولا تكن منكراً على فقراء المسلمين جميعهم. يا عبدالعال: أحسنكم خلقاً أكثركم إيماناً بالله تعالى، والخلق السيء يفسد العمل الصالح كما يفسد الخل العسل.

والصلوات التى أورثها البدوى أتباعه توفر على شرحها عبدالرحمن بن مصطفى العيدروسى فى كتاب له اسمه «فتح الرحمن» (**أنظر العيدروس**)، وتقول الصلاة الرئيسية: «اللهم صل وسلم وبارك على سيدنا ومولانا محمد، شجرة الأصل النورانية، ولمعة القبضة الرحمانية، وأفضل الخليقة الإنسانية، وأشرف الصورة الجسمانية، ومعدن الأسرار الربانية، وخزائن العلوم الاصطفائية، صاحب القبضة الأصلية، والبهجة السنية، والرتبة العلية. مَنْ اندرجت النبيون تحت لوائه، فهم منه وإليه. وصل وسلم وبارك عليه وعلى آله وصحبه عدد ما خلقت ورزقت وأمت وأحييت إلى يوم تبعث مَنْ أفنيت، وسلم تسليما كثيراً، والحمد لله رب العالمين». وتقرأ هذه الصلاة ألف مرة بعد صلاة الصبح لذهاب الضر.

ومن الصلوات كذلك صلاة موجزة نصها: «اللهم صل على نور الأنوار، وسر الأسرار، وترياق الأغيار، ومفتاح باب اليسار، سيدنا محمد المختار وآله الأطهار وأصحابه الأخيار، عدد نعم الله وأفضاله». وقضاء الحاجات عند الأحدية مرهون بقراءة الصلاة الرئيسية بعد تلاوة سورة الإخلاص مائة مرة، والتوسل بالسيد البدوى بعد قراءة حزبه ثلاث مرات.

وواضح أن طريقة السيد البدوى أخلاقية أكثر منها عرفانية، ولعله لهذا يوصى مريديه بما أوصى به الحسن البصرى مريديه: الحلم والعلم والسخاء والشفقة والصبر والتقوى. والفقر (أى التصوف) علاماته هى التى نبه إليها الإمام على رضى الله عنه، وهى: معرفة الله، ومراعاة أوامره، والتمسك بسنة نبيه، ودوام الطهارة، والرضا عن الله فى كل حال، واليقين بما عند الله، والإياس مما فى أيدى الناس، وتحمل الأذى، والمبادرة لأمر الله، والشفقة بالناس، والتواضع لهم، والعلم بعداوة الشيطان. ومن كلامه: التوبة النصوح هى الندم على ما مضى من الذنب، والإقلاع عن المعصية والاستغفار باللسان، والعزم على أن لا يعود إلى المعصية، والصفاء بالقلب، فهذه هى التوبة النصوح التى أمر الله تعالى بها وذكرها فى كتابه العزيز فقال: يا أيها الذين آمنوا توبوا إلى الله توبة نصوحا. وسئل عن الذكر فقال: أن يكون بالقلب ولا يكون باللسان فقط، فإن الذكر باللسان دون القلب شقشقة. أذكر الله تعالى بقلب حاضر وإياك والغفلة عن الله تعالى فإنها تورث القسوة فى القلب. وسأله تلميذه ما حقيقة الصبر؟ قال: الصبر هو الرضا بحكم الله تعالى، والتسليم لأمر الله تعالى، وأن يفرح العبد بالمصيبة كما يفرح بالنعمة. يقول الله تعالى وبشر الصابرين. قال له التلميذ: قد فهمت ذلك، فما حقيقة الزهد فى الدنيا؟ قال: مخالفة النفس بترك الشهوات الدنيوية، وأن يترك العبد سبعين بابا من الحلال مخافة أن يقع فى الحرام. قال له التلميذ: فما حقيقة الوجد؟ فأجاب: الوجد على أوجه، منها أن يكثر ذكر الحق لا إله إلا هو، ومنها أن يقذف نور فى قلب الذاكر من قبل الله تعالى فيقشعر منه جلده، فيشتاق إلى المحبوب لا إله إلا هو، ويلحقه من قبل الله تعالى الوجد. قال التلميذ: فما حقيقة التفكر؟ قال: تفكر فى خلق الله وفى مصنوعات الله، ولا تتفكر فى ذات الله. وأوصيك يا عبد العال: لا تشمت بمصيبة أحد من خلق الله تعالى، ولا تنطق بغيبة ولا نميمة. ولا تؤذ من يؤذيك، واعف عمن ظلمك، وأحسن لمن أساء إليك، وأعط من حرمك. يا عبد العال: أتدرى من هو الفقير الصادق؟ هو الذى لا يسأل أحداً. إن أعطى شكر، وإن منع صبر. صابر لأحكام الله تعالى، عامل بالكتاب والسنة.

والطريقة الأحمدية تقوم على التنظيم الهرمى من قبل الخلفاء والمريدين، وقوامها كما قُسم العمل فيها أيام عبد العال أربعة بيوت: بيت الفقراء الكناسية الذين يكنسون المقام كل سنة فى المولد الأحمدى، وشيخهم فى ذلك الوقت الشيخ محمد السطوحى الكناسى، وبيت الفقراء المنايفة، وكان شيخهم رمضان الأشعث السطوحى، وبيت الفقراء السلامية والمرازقة وكان شيخهم عمر الشناوى الأشعث، وبيت الأنبابية

وشيخهم يوسف الأنبابى السطوحى. ولكل شيخ من هؤلاء مجلسه ومرتبته، وله نقباء ينوبون عنه ويساعدونه. وانتشر الشيوخ من تلاميذ البدوى فى مصر وخارجها، وكان **عبد العال صاحب البشت الأحمر** هو أول الخلفاء، وهو تلميذه من طفولته، ويروى عنه أنه لما قدم البدوى إلى مصر مر بقرية فيشا المنارة وقد لحق عيناه ورم نتيجة الحر الشديد، وكانت العادة أن يداوى الورم بوضع بيضة مسلوقة عليه، وبحث الشيخ عمن يعطيه واحدة، وكان هناك أطفال يلعبون فطلب منهم أن يحضروا له واحدة، ووافق الطفل عبد العال أن يحضر له واحدة بشرط أن يعطيه الجريدة الخضراء التى معه فوافق، وعاد عبد العال مخفقاً لأن أمه لم تجد بيضا فى عشة الفراخ، فطلب الشيخ منه الرجوع إلى العشة فرجع مع أمه فوجد فيها البيض كثيراً، ومن يومها وعبد العال يصحبه رغم أمه وظل معه حتى وفاته، وأشار عليه ببناء زاوية تكون مقراً للمريدين والأتباع وهى التى صارت من بعد المسجد الأحمدى، وعهد إليه بتنظيم أحوال الجماعة، وكان يقول له: اعلم يا عبد العال أن الفقراء كالزيتون، وأنا زيت من لم يكن له زيت. وعليك يا ولدى بملازمة الفقراء وجبر خواطرهم وخواطر أولادهم، فارفق بالكبير وارحم الصغير وكن أديباً.

وأفردت فى السيد البدوى والطريقة الأحمدية كتب عديدة منها «**الجواهر السنية فى الكرامات والنسبة الأحمدية**» لعبد الصمد زين الدين، و«**نسب البدوى**» لأزبك الصوفى، و«**النصيحة العلوية فى بيان حُسن طريقة السادة الأحمدية**» لعلى الحلبى، و«**النفحات الأحمدية والجواهر الصمدانية**» لحسن رشيدى المشهدى الخفاجى، و«**السيد البدوى**» لمحمد فهمى عبد اللطيف، و«**السيد البدوى: شيخ وطريقة**» للدكتور سعيد عبد الفتاح عاشور، «**والسيد البدوى**» للدكتور عبد الحليم محمود، و«**حياة السيد البدوى**» لإبراهيم أحمد نور الدين. **وللأحمدية** طريقتهم فى الانتساب، والمريد الراغب فى ذلك عليه الاتصال بالشيخ الواصل الموصل، فيتأكد هذا من حسن استعداده، ويأمره بالمعروف وينهاه عن المنكر ويقول له: أنت اخترت لنفسك الدخول فى رقعة سيدى أحمد البدوى رضى الله عنه، وأن يكون شيخنا شيخ الشيوخ أنس بن مالك صاحب رسول الله ﷺ، رضى الله تعالى عنه، وكلهم من رسول الله ملتمس، ورضيت أن تكون سميعاً مطيعاً محبا لى ولإخوانك. ويأمره الشيخ بالوضوء وأن يصلى ركعتين بنية التوبة، ثم يقرئه التوبة «تبت إلى الله توباً نصوحاً وندمت على ما فعلت وعزمت على ألاّ أعود أبدا، وأشهد الله وجميع خلقه علّى بذلك وأسأل الله الكريم بجاه سيدنا محمد ﷺ وعلى آله وصحبه وذريتهم من الصالحين

أجمعين أن يتقبل منى توبتى . ثم يأمره الشيخ أن يقول : الله معى . الله ناظر إلىّ شاهد علىّ . ثم ينصحه : إنك يا ولدى ما دمت تلاحظ تفسير هذه الكلمات على الدوام مع ملازمة أذكارك كل يوم عقب كل صلاة فرض أو نفل عشر مرات ، يصحح الله توبتك وتكون من التائبين المخلصين. **ولبس الخرقة الأحمدية** له طقوس ، فقبلها يتوضأ قائلاً استغفر الله العظيم الذى لا إله إلا هو الحى القيوم وأتوب إليه ، وأسأل التوبة والمغفرة والنجاة من النار ، توبة عبد ظالم لنفسه معترف بذنبه ، لا يملك لنفسه ضرا ، ولا نفعا ، ولا موتاً ، ولا حياة ، ولا نشوزا . ويقرأ آية الكرسى مرة ، وإنا أنزلناه فى ليلة القدر ثلاثاً ، ثم يستغفر الله قائلاً : استغفر الله العظيم ألفا فى آلاف ، وأسألك اللهم ألطافاً فى ألطاف فى ألطاف . اللهم بالبيت والمحراب وقبر نبيك سيدنا محمد ﷺ ، أن تلطف بى فيما سطرته علّى فى أم الكتاب ، يا كريم ، يا توّاب ، يا مجيب ، يا وهّاب . ثم يصلى على النبى عشر مرات . ثم يستقبل القبلة ويصلى ركعتين ، يقرأ فى الأولى الفاتحة وإذا جاء نصر الله ، وفى الثانية الفاتحة والصمدية ، فإذا انتهى يقول : استغفر الله العظيم لى ولوالدّى ولأصحاب الحقوق علىّ ، وللمؤمنين والمؤمنات ، والمسلمين والمسلمات ، الأحياء منهم والأموات . إنك سميع قريب مجيب الدعوات . ويكرر ذلك سبعاً وعشرين مرة ، ثم يقول : تب علينا يا توّاب قبل مرض موتنا توبة ترضيك وترضى بها عنا يارب العالمين . اللهم وفقنى لما يرضيك يا كريم . رب اغفر وارحم وتب واعف وتجاوز عما تعلم إنك سبحانك تعلم ما لا نعلم . إنك أنت علام الغيوب . وأنت الأعز الأكرم برحمتك يا أرحم الراحمين ، يا مجيب السائلين ، يا قابل التائبين ، وصلى الله على سيدنا محمد النبى الأمى وعلى آله وصحبه وسلم تسليماً كثيراً والحمد لله رب العالمين. وبعد ذلك يدخل فى حلقة الذكر لتصفية قلبه ، ثم يجلس بين يدى الشيخ المستقبل للقبلة ، ويستغفر الله العظيم الذى لا إله إلا هو الحى القيوم ويتوب إليه ثلاث مرات ويقرأ الفاتحة ويقول : يا سيدى وشيخى فى الله ، يا سلطان الأولياء ، يا سيدى أحمد يا بدوى مدد الله ، يا سادتنا وأشياخنا فى القدوة . شىء لله يا رسول الله . شىء لله يا سيدى يا رسول الله . شىء لله يا سيدى يا رسول الله . ثم يضع يده فى يد الشيخ وإبهامه اليمنى على إبهامه اليمنى ، ويقول الشيخ : اسمع ما قاله الله تعالى فى العهد فإنه قال وأوفوا بالعهد إن العهد كان مسئولا . إن الذين يبايعونك إنما يبايعون الله . يد الله فوق أيديهم ، فمن نكث فإنما ينكث على نفسه ، ومن أوفى بما عاهد عليه فسيؤتيه الله أجراً عظيماً . لقد رضى الله عن المؤمنين إذ يبايعونك تحت الشجرة ، فعلم ما فى قلوبهم ، فأنزل السكينة عليهم وأثابهم فتحاً قريباً. ثم يقول : اسمع يا أخى ، هذا عهد بينى وبينك على الكتاب

والسنة، ونحن إخوان فى الله وفى رقعة قطب الزمان وعون العصر والأوان، الحبيب النسيب أبى العباس السيد أحمد البدوى رضى الله عنه، خادم رسول الله ﷺ، الناجى يأخذ بيد أخيه فى يوم القيامة. ونحن إن شاء الله فى رحمة الله سبحانه وتعالى. ويتمتم الشيخ: اللهم خذ منه وتقبل وافتح عليه أبواب كل خير، كما فتحتها على أنبيائك وأوليائك، واجعلنى وإياه من المقبولين الفائزين من أحبائك، وأحباب حبيبك سيدنا محمد ﷺ، وعلى آله وصحبه وأهل بيته أجمعين، وسلام على المرسلين والحمد لله رب العالمين. ويقوم المريد ويدعو الله فى سره، والإخوان والشيخ يؤمنون على دعواته، ويختم دعاءه جهرا: يا مولانا يا مجيب. أجب من يرجوك لا يخيب. توسلنا إليك بجاه سيدنا محمد الحبيب، أن تقضى حوائجنا وقت الحاجات، يا حاضراً لا يغيب. ثم يقول الشيخ: يثبت الله الذين آمنوا بالقول الثابت فى الحياة الدنيا وفى الآخرة، ويقرأ الشيخ والحاضرون الفاتحة لأهل العهود وللشيخ أحمد البدوى وأرواح الأشياخ والمؤمنين والمؤمنات والمسلمين والمسلمات، ثم يقوم الشيخ بإلباس المريد الخرقة الأحمدية.

ومن فروع الأحمدية الطرق الحلبية والشعيبية والتقيانية والحمودية والزاهدية، ومنها أيضاً الفرغلية والشناوية والسطوحية والبيومية وهى المنتشرة حالياً فى مصر.

■ ■ ■

البراقية

طريقة **بَرَاق بابا**، وهو درويش تركى كان مريداً للصوفى صارى سلتوق، وكان أبوه موظفاً كبيراً فى بوقات، ونزح من تركيا إلى إيران، ونزل وفريق من أتباعه دمشق سنة ٧٠٦هـ فلفتوا الأنظار إليهم بتأثير لباسهم الغريب ومسلكهم غير المألوف، ولعله لهذا أطلق على نفسه اسم البَرَاق ومعناه بالتركى الكلب الأجرب أو الأقرع خالى الشعر، أو أنه الكلب الأشعث الأغبر، وطريقته تقوم على تنفير الناس منه للعزلة وانقطاعاً عن الناس، وقد حاول براق بابا ومريدوه بلوغ الديار المصرية فرفضهم الناس وعادوا أدراجهم. ويترجم له أفلاكى فى كتابه مناقب العارفين، ويرى فى تعاليمه ومسلكه صدى لأثر الشامانية التركية المغولية فى الإسلام، وقيل إنه قتل سنة ٧٠٧هـ فى إيران.

■ ■ ■

إبن بَرجان

أبو الحكم عبدالسلام بن عبدالرحمن بن أبى الرجال وتخفف إلى ابن برجان، أندلسى من إشبيلية ممن ذهبوا مذهب ابن مسرّة وخلطوا الفلسفة بالتصوف، وفلسفته إشراقية، وبسببها اتهموه بالزندقة واستدعاه على بن يوسف بن تاشفين إلى مراكش حيث مثل أمام قاضيها بن حمدين وألقى به فى السجن وبعدها بقليل مات، وقيل إنه مات مسموماً، وكان ذلك سنة ٥٣٦ هـ، وقد أمر بن تاشفين بأن لا يُصلى عليه وأن تلقى جثته فى القمامة، ولولا أن الصوفية فى مراكش أغضبهم ذلك لنفذ ابن تاشفين ما انتوى.

وكان ابن برجان وطيد الصلة بالصوفى الأشهر **ابن العرّيف** صاحب مدرسة المرية، وكان يراسله ويبدو أنهما تأثرا ببعضهما وكانا شديدى الإعجاب بالغزالى، وكثيراً ما كان ابن برجان يستخدم أقوال الغزالى فى الرد على الفقهاء وخاصة أن النزاع بين الصوفية والفقهاء كان على أشده فى الأندلس بالذات بسبب التفلسف الذى أخذ به المتصوفة أنفسهم به فى هذه البلاد. كما أن الغزالى كان تجديداً للفكر الصوفى فى الأندلس، واستخدم ابن برجان الفكر الغزالى فى نزاعه مع الحكومة، ونادى بإحياء الإمامة فاعترفت به القرى إماماً عليها، وقد وصفه مؤرخه ابن الأبار فقال إنه كان صوفياً نابهاً، وكان المفكرون يقولون عنه إنه **غزالى الأندلس**. ويبدو ابن برجان قريباً فى تفكيره الصوفى الفلسفى من **أبى بكر الميورقى**، ولذلك فإن ابن تاشفين عندما استدعى بن برجان فإن أمر الاستدعاء شمل ابن العريف والميورقى، وقد هرب الميورقى، وصمد ابن العريف للاختبار وأطلق ابن تاشفين سراحه، إلا أن ابن حمدين لم يعجبه ذلك، ومات ابن العريف هو الآخر بعد موت ابن برجان بقليل، وقيل إنه أيضاً مات مسموماً.

ولابن برجان **تفسير صوفى للقرآن** لم يكمله وذهب فى تأويل الآيات فيه على الطريقة الباطنية، كما أن له **شرحاً لأسماء الله الحسنى**. ويبدو أنه فى حياته الخاصة كان شديد الزهد واشتهر بالصلاح، وكانت له قدرة على التنبؤ، وتنبأ بسقوط تنبأ بموته غير أنه ذكر أن ابن تاشفين يموت أيضاً، وقد مات ابن تاشفين بعده بسنة واحدة.

إبن بزّاز (توَكُّل)

صاحب كتاب «**صفوة الصفوة**» يذكر فيه مناقب الأولياء، ويخص به شيخ أردبيل الأكبر صفى الدين جد الأسرة الصفوية، يقول إن الذى دفعه إلى تصنيفه الشيخ صدر الدين بن الشيخ صفى الدين، وأشرف على تنقيحه من يدعى أبا الفتح الحسينى. والكتاب كبير الحجم، قيل كلماته بلغت نحو ٢١٦ ألف كلمة، ويشبه كتاب «**مناقب العارفين**» لأفلاكى، فهذا بعدد مناقب أكابر الطريقة الصوفية المولوية فى قونية وعلى رأسهم مولانا جلال الدين الرومى، وذاك بعدد مناقب شيوخ الطريقة الصفوية وعلى رأسهم شيخ أردبيل صفى الدين. والكتاب فوق ذلك يورد الكثير من التفاصيل المتصلة بالحياة الثقافية والتاريخ وتقويم البلدان لهذا القسم الشمالى الغربى من بلاد الإسلام من فارس وغيرها، وإن غلب فيه ذكر الخوارق والكرامات، وبه شواهد من اللهجة الفارسية فى أذربيجان كما كانت فى القرن الثامن الهجرى حيث جاء تأليفه قرابة سنة ٧٠٠هـ.

■ ■ ■

البسطامى

سلطان العارفين أبو يزيد الأكبر طيفور بن عيسى (١٨٨ ــ ٢٦١هـ) من بسطام خراسان، لم تؤثر عنه كتابات فى التصوف ولكن أقواله رصدها أصحابه ومحبوه وخصومه على السواء، وهى تشكل مذهباً فى التصوف قالوا فيه إنه **الطيفورية**، وهو مذهب فى المحبة الصوفية والفناء الصوفى، ولعل أكمل المراجع فى سيرته ومعراجه الروحى، كما يقول عنه البعض، هو كتاب **السهلجى** «**النور عن كلمات أبى طيفور**». واشتهر أبو يزيد **بالشطح**، وأصله كلمات مستغربة تصدر عن الصوفى فى حال وجده وذهوله بمشاهدة جلال الحق فلا يدرى مايقول، أو أنه ينطق عما يشهد بلسان مشهوده، وفى ذلك **يقول الجنيد شيخ الصوفية إن حال أبى يزيد كحال مجنون ليلى فإن حبه لليلى وقد تملكه لم يعد معه يرى فى الأشياء والمخلوقات، وحتى فى نفسه، إلا أنها ليلى، فلما سألوه من أنت قال ليلى**. ويروون عن ذى النون أنه لما بلغه أن أحد أصحابه ذهب يسأل عن أبى يزيد، ولقاه ذاك، فقال له أأنت أبو يزيد؟ فقال أبو يزيد ومن يكون هذا وأين أجده، قال ذو النون: مسكين أخى أبو يزيد. **لقد فقد نفسه فى حب الله، فصار يطلبها مع الطالبين!**

وأبو يزيد كان همه الأكبر **التوحيد،** وهو يروى عن جهاده فى طريق معرفة الله فيقول إنه أقام دهراً طويلاً مع العلماء حتى صار من العارفين ولكنه رأى ازدحامهم على أبواب الحق ولم يجد لنفسه موضع قدم بينهم، وقال لنفسه إن العلم لا يستقيم من غير الحقيقة، والحقيقة هى الاجتهاد مع المصلين فأقام دهراً معهم، فلم ير لنفسه موضع قدم بينهم، ثم وجد الحقيقة مع الصائمين فأقام معهم دهراً ولم يجد نفسه، وانصرف إلى الملبين بالحج القاصدين بيت الله من كل فج عميق فلم يجد لنفسه موضع قدم بينهم، فانصرف إلى الجهاد وأقام مع المجاهدين يضرب معهم السيوف فى وجوه أعداء الله دهراً طويلاً ولم يجد لنفسه موضع قدم بينهم، فانصرف وقال: يا إلهى إرحمنى وارحم حيرتى وأقم بعبدك مقاماً أتقرب إليك لا ينافسنى فى ذلك المقام منافس ولا يزاحمنى فيه مزاحم، فلقد أشْرِفَ بى على من سبقونى إليك ورأيتنى لا أطيق اللحوق بهم، فنادانى الحق: يا أبا يزيد، إنه لا يتقرب إلى متقرب بمثل من يأتينى بما ليس لى. قلت يا إلهى وما الذى ليس لك وأنت لا تقرب من يأتيك به، ومن أين لى ما ليس لك؟ فقال يا أبا يزيد، ليس لى فاقة ولا فقر، فمن ابتغى لدى الوسيلة بها قربته من بساطى. قلت: اللهم أشرف بى على ذوى الفقر والفاقة، فأشرف بى، فإذا هم شرذمة قليلون، لا أرى هناك ازدحاماً ولا تنافساً، ولا أرى لهم على الباب جلبة ولا صياحاً، فعاهدته لا أؤثر على الفقر والفاقة شيئاً، فها أنا معه على هذا العهد، فليس من ساعة إلا وتأتينى منه كرامة جديدة، فقلت إلهى، هذا شىء خصصتنى به من بين خلقك، قال هذه الكرامة لا ينالها إلاّ من آثر الفقر والفاقة وصبر عليهما وأنس بهما.

ويروون عنه فى سيرته الروحية أنه قال: رأيت رب العزة فى المنام فقلت كيف الطريق إليك، فقال **اترك نفسك وتعال.** ويردف أبو يزيد معلقاً: **يستزيد أبو يزيد ولا مزيد على التوحيد.** ويقول: طلقت الدنيا ثلاثاً وصرت وحدى إلى ربى فناديته بالاستغاثة: إلهى ومولاى. أدعوك دعاء من لم يبق له غيرك. فلما عرف صدق الدعاء من قلبى مع الإياس منى، كان أول ما أورد علىّ من إجابة هذا الدعاء أن أنسانى نفسى بالكلية، ونصب الخلائق بين يدّى مع إعراضى عنهم. ويصف أبو يزيد **طريقته** لمريديه فيقول: عملت أشياء أولها اتخذته سبحانه معلماً فقلت إن لم يكفك ربك لم يكفك غيره فى السماوات والأرض، وشغلت لسانى بذكره، وبدنى بخدمته، فكلما أعيت جارحة رجعت إلى الأخرى، وأكرمنى الله بثمانى كرامات ثم بعدها نادانى يا أبا يزيد، أولها رأيت نفسى متأخراً ورأيت الخلق قد سبقونى، والثانى رضيت بأن

أحرق بالنار بدل خلقه شفقة بهم، والثالث كان قصدى إدخال الفرح فى قلوب المؤمنين، والرابع لم أمسك شيئاً قط للغير، والخامس أردت رحمة الله بالناس أكثر مما أردتها لنفسى، والسادس بذلت جهدى أن أدخل السرور على المؤمن وأخرج الغم من قلبه، والسابع ابتدأت بالسلام على من لقينى من المؤمنين من شفقتى عليهم، والثامن قلت لو غفر الله لى يوم القيامة وأذن لى بالشفاعة لشفعت أولاً لمن آذانى وجفانى ثم من برّنى وأكرمنى.

وأبو يزيد كما يقول **عرف الله بالله**، وعرف من دون الله بنور الله. وهو يقول إنه توهم فى بداية أمره أنه يذكر الله ويعرفه ويحبه ويطلبه، فلما انتهى رأى ذكره تعالى له أسبق من ذكر أبى يزيد له تعالى، ومعرفته ومحبته أقدم، وطلب الله له كان الأسبق. ويقول عن مجاهداته: إن الله تعالى فى بداية أمرى هدانى **للزراعة** فزرعت فى نفسى أنواع العبادة، ثم أرشدنى **للقصارة** فلم أزل أغتسل بأنواع الطهارات والمياه فلم أرها طهرتنى بعد. وكنت أثنتى عشرة سنة **حدّاد نفسى**، وخمس سنين **مرآة نفسى**، وسنة أنظر فيما بينهما، فإذا فى وسطى زُنّار فعملت فى قطعه خمس سنين أنظر كيف يقطع فكُشف لى ذلك، فنظرت إلى الخلق فرأيتهم موتى، فكبرت عليهم أربع تكبيرات. ومررت على بابه فلم أر زحاماً لأن أهل الدنيا حجبوا بالدنيا، وأهل الآخرة شغلوا بالآخرة، والمدّعين من الصوفية حجبوا بالأكل والشرب، ومَنْ فوقهم حجبوا بالسماع والشواهد، وأئمة الصوفية لا يعجبهم شىء من هذه الأشياء فرأيتهم حيارى سكارى.

وأبو يزيد **لا يريد من الله سواه.** وقيل له ما أشد ما لقيت فى سبيل الله، فقال لا يمكن وصفه، فقيل له وما أهون ما لقيت نفسك منك، فقال دعوتها إلى شىء من الطاعات فلم تجبنى فمنعتها الماء سنة. ولو نظرتم إلى رجل أعطى من الكرامات حتى يرتقى فى الهواء فلا تغتروا به حتى تنظروا كيف تجدونه فى الأمر والنهى وحفظ الحدود وأداء الشريعة. والناس كلهم يهربون من الحساب ويتجافون عنه، وأنا أسأل الله أن يحاسبنى لعله يقول لى فيما بين ذلك يا عبدى فأقول لبيك، فقوله لى يا عبدى أحب إلىّ من الدنيا وما فيها وليفعل بى بعد ذلك ما يشاء. ولمّا كتب له أحدهم أنه قد سكر من كثرة ما شرب من كأس محبة الله، رد عليه أبو يزيد بأن غيره شرب بحور السماوات والأرض وما روى بعد، ولسانه خارج يقول هل من مزيد. ويصور أبو يزيد حاله فى حب الله فيقول:

عجيب لمن يقول ذكرت ربى وهل أنسى فأذكر من نسيت ؟
شربت الحب كأساً بعد كأس فما نفذ الشراب ولا رويت

وحبه لله هو **حب العارف** الذى محيت رسومه وفنيت هويته لهوية غيره ، وعييت آثاره لآثار غيره . وهو يقول فى هذا الحب :

غرست الحب غرساً فى فؤادى فلا أسلو إلى يوم التنادى
جرحت القلب منى باتصال فشوقى زائد والحب بادى
سقانى شربة أحيا فؤادى بكأس الحب فى بحر الوداد
فلولا الله يحفظ عارفيه لهام العارفون بكل وادى

وحبه لله هو الذى يقضه ويقلقه فينتقل بين المقامات ويعانى الأحوال فيما وصفه مؤرخوه بأنه معراج أبى يزيد ، وهو يقول فيه إنه طار إلى **ميدان الليسية** حتى أشرف على التوحيد فصار فيه طيراً من الأحدية ، جناحاه من الديمومية ، ولم يزل يطير إلى أن صار فى **ميدان الأزلية** وشاهد شجرة الأحدية ـ ثم يصفها ويصف أرضها وفرعها وثمارها ، **والليسية** هو مقام توحيد الله بليس كمثله شىء ولا إله إلا الله ، ثم يتلوه مقام **الأيس** بعد الليس ، بتوحيد الله بدون لا وليس ، والإيجاب له فى كل شىء ، فلا يكون ثمت إلا الله ، ويكون الفناء فى الله ، ولا يكون هناك إلا هو الواحد الأحد ، وهو مقام الأحدية والديمومية والأزلية . والعارف الذى يطمح إليه أبو يزيد فى تصوفه هو هذا الذى تكون أدنى صفاته أن تجرى فيه صفات وجنس الربوبية فيراه خلق الله وقد تزين بالوحدانية وارتفع إلى الأحدية حتى ليكون هو ولا يكون هو هناك . ألم يقل الله تعالى إنى جاعل فى الأرض خليفة . **والإنسان الكامل الربانى** هو خليفة الله وصورته على صورة مولاه . ولقد رأى أبو يزيد أنه وقد بلغ هذا المقام صار بالله ومن الله ولله ، وهو فيه ينطق بما نطق بما أسموه شطحات من مثل **سبحانى سبحانى ، ما أعظم شأنى** ، وهو فيه يخاطب ربه فيقول : أنت العالم والمعلوم ، والمفرد والفرد . تفردت بفردانيتك ، وتوحدت بوحدانيتك ، وانقطعت حجة الله علىّ فى فردانيته ، وبوحدانيته فى وحدانيته فأقمت معه دون تفردى بفردانيته ، فأقمت معه به ، وفنيت صفاتى بصفاته ، وسقط اسمى باسمه ، وسقطت عنى أوليته بأوليتى ، وآخريتى بآخريته ، فنظرت إليه بذاته التى لا يراها الواصفون ولا يبلغها العالمون ولا يفهمها العاملون ، فنظر إلىّ بعين الذات بعدما سقط اسمى وصفاتى وأولى وآخرى ونعتى ، فدعانى باسمه ، وكنانى بهويته ، وناجانى

بأحديته ، فقال : يا أنا ، فقلت : يا أنت ، فقال لى : يا أنت ، فانقطعت حجة الله علىّ به ، ما سمانى باسم من أسمائه إلا سميته به ، وما وصفنى بصفة من صفاته إلا وصفته به ، فانقطع كل شىء منى به ، وما وصفنى بصفة من صفاته إلا وصفته بها ، فانقطع كل شىء منى به ، فبقيت دهراً بلا روح ولا جسم كالميت ، ثم إنه أحيانى بحياتى بعدما أماتنى فقال : لمن الملك اليوم ، فلما أحيانى قلت لله الواحد القهار ، فقال لمن الاسم ، قلت لله الواحد القهار ، فقال لمن الحكم اليوم ، فقلت لله الواحد القهار ، فقال لمن الاختيار ، فقلت للرب الجبار ، فقال أحييتك بحياتى ، وملكتك ملكى ، وسميتك باسمى ، وحكمتك حكمى ، وأفهمتك اختيارى ، ووافقتك بأسماء الربوبيةو والصفات الأزلية ، فقلت لا أدرى ما تريد ، فقد كنت لنفسى فلا ترضى ، وكنت لك بك فلا ترضى ، فقال لا تكن لنفسك ولا لنفسى . إنى كنت لك حيث لم تكن ، فكن لى حيث لم تكن . وكنت لك حيث كنت ، فكن لى حيث كنت ، فقلت وأنّى لى بذلك إلا بك ، فنظر إلى نظرة بعين القدرة فأعدمنى بكونه ، وظهر فىّ بذاته ، فكنت به ، فانقطعت المناجاة ، فصارت الكلمة واحدة ، وصار الكل بالكل واحداً ، فقال لى يا أنت ، فقلت له يا أنا ، فقال لى أنت الفرد ، فقلت أنا الفرد ، فقال لى أنت أنت ، فقلت أنا أنا . ولو كنت أنا من حيث أنا لما قلت أنا ، فلما لم أكن أنا ، فكن أنت أنت ، قال أنا أنا . **قولى بأنائيته كقولى بهويته توحيداً ، فصارت صفاتى صفات الربوبية ، ولسانى لسان التوحيد ، وصفاتى هى أن هو هو لا إله إلا هو ، فكان ما كان بكونه مما قد كان ، وما يكون بكونه يكون ما يكون ، صفاتى صفات الربوبية ، وإشاراتى إشارات الأزلية ، ولسانى لسان التوحيد .**

وذلك ما أنكره القوم عليه ، وقد سألوه أنه يبلغهم فى كل وقت أشياء يقولها ولا يفهموها ، فينكروها ، فقال : إنما يخرج الكلام منى على حسب وقتى ، ويأخذه كل إنسان على حسب ما يقوله ، ثم ينسبه إلىّ .

وما تنبأ به البسطامى كان ، فقد تأوّله الجميع ، المريدون المؤيدون ، والأصحاب والأحباب ، والخصوم المنكرون ، وكان الجيلانى والسراج والجنيد من المتأولين العاذرين ، بينما كان غيرهم من المكذبين كابن الجوزى وابن سالم . وحاول البعض إنكار نسبة هذه الأقوال إليه مثلما فعل شيخ الإسلام عبدالله الأنصارى والإمام الذهبى . وحذر السهلجى من الخلط بين كلامه وكلام من ينسبون أنفسهم إليه ويدعون بكنيته ، ويقول إن هؤلاء بلغوا نحو الألف ، ومن لم تكن له منهم الدرجة والمقام والمنزلة

فلا يصح التعويل على قوله، وقد جرى العرف بين أهل العلم والتحقيق أن مالا نعرف مبناه فليس لنا أن ندعى أننا نفهم معناه، وما لم نعرف مقامه لا نزعم أن بوسعنا أن نصف مقامه، وما لا نملك عبارته لا يجوز لنا أن نقول إننا ندرك إشارته. ويذكر على الجوزجانى دفاعاً عن البسطامى أن ما قاله قد قاله وهو فى مقامه، فمن أراد أن يفهمه فليرتق إلى هذا المقام، وليجاهد نفسه ليبلغه كما جاهد أبو يزيد، فهناك سيفهم كلام أبى يزيد.

البسطامى

زين الدين عبد الرحمن بن محمد بن على بن أحمد بن محمد البسطامى الحنفى الحروفى، كان على طريقة الحروفية للدراويش، وله فى التفسير الحروفى **«كشف أسرار الحروف»** و**«شمس الآفاق فى علم الحروف»** و**«مفتاح الجفر الجامع»**، على أن أشهر كتبه فى التصوف **«مناهج التوصل فى مباهج الترسل»**، حاول فيه أن ينهج على نهج ابن عربى فى الفتوحات المكية، وجعله فى مائة باب، انتهى من ثلاثين باباً منها ولم يكملها. وقد ظن أنه يمكنه من خلال قراءة معانى ودلالات وإرشادات حروف الكلمات فى القرآن النفوذ إلى أسراره وإدراك الحقائق القدسية، والأسماء الحسنى هى مادته الجوهرية، ويطبق عليها أصول علم الحروف لبلوغ ما يسميه الكشف، فضلاً عن أن طبيعة الحروف وخواصها السرية تكشف عن خواص الأشياء، ومن ثم يعطى العلم بها القدرة على التأثير فى الطبيعة والكشف عن الأدوار التى كانت للأشياء عبر مراحل تطورها وتحولاتها، والتنبؤ لذلك بما كان منها فى الماضى وما سيكون منها فى المستقبل. والبسطامى ينصرف اهتمامه إلى الأحلام وأسرارها وغير ذلك من العلوم الباطنة التى يتوسل بها إلى إدراك الحقائق الباطنة. وهو من مواليد أنطاكية، وتعلم بالقاهرة، وتوجه إلى بروسة وكانت يومئذ قصبة العثمانيين، وأهدى كتبه للسلطان مراد الثانى، وكان يرعى العلم فنال حظوة لديه، وتوفى فى بروسة سنة ٨٥٨ هـ.

■ ■ ■

البصرى (حسن)

قال فيه **أبو حيان التوحيدى**: ما أحسد هذه الأمة العربية إلا على ثلاثة أنفس، أولهم **عمر بن الخطاب**، والثانى **الحسن بن أبى الحسن البصرى**، والثالث **أبو عثمان**

الجاحظ. وكان الحسن البصرى من درارى النجوم، علماً وتقوى، وزهداً وورعاً، وعفةً ورقة، وتألهاً وتنزهاً، وفقهاً ومعرفة، وفصاحةً ونصاحةً، مواعظه تصل إلى القلوب، وألفاظه تلتبس بالعقول، وليس له ثان، لا قريباً، ولامدانياً، وكان منظره وفق مخبره، وعلانيته فى وزن سريرته، يجمع مجلسه ضروباً من الناس وأصناف اللباس، لما يوسعهم من بيانه، بالكلام الفصل، واللفظ الجزل، والصدر الرحب، لا تثنيه لائمة فى الله، ولا تذهله رائعة عن الله، يجلس تحت كرسيه قتادة صاحب التفسير، وعمرو وواصل صاحبا الكلام، وابن أبى إسحق صاحب النحو، وفرقد السبخى صاحب الرقائق، وأشباه هؤلاء ونظراؤهم، فمن ذا مثله، ومن ذا يجرى مجراه؟

وكنيته أبو سعيد، كان أبوه إيرانياً من ميسان، وسباه المسلمون لدى فتح العراق، وسكن المدينة، وقد اعتقه من كان عندهم من الأنصار، وولد ابنه الحسن فيها سنة ٢٢ هـ، وغادرها إلى البصرة سنة ٣٨ هـ، وأقام بها إلى أن توفى سنة ١١٠ هـ. يقول عنه **أبو طالب المكى:** كان الحسن أول من أنهج سبيل هذا العلم، وفتّق الألسنة به، ونطق بمعانيه، وأظهر أنواره، وكان يتكلم فيه بكلام لم يسمعوه من أحد من إخوانه، فقيل له: يا أبا سعيد! إنك تتكلم فى هذا العلم بكلام لم نسمعه من أحد من غيرك. ممن أخذت هذا؟ فقال: **من حذيفة بن اليمان.** قيل، وقالوا لحذيفة بن اليمان: نراك تتكلم فى هذا العلم بكلام لم نسمعه من أحد من أصحاب رسول الله ﷺ، فمن أين أخذته؟ فقال: خصّنى به رسول الله ﷺ، كان الناس يسألونه عن الخير، وكنت أسأله عن الشر، مخافة أن أقع فيه. وكان حذيفة قد خُصّ من بين الصحابة بعلم المنافقين، وأفرد بمعرفة علم النفاق، وبسرائر العلم ودقائق الفهم وخفايا اليقين، فكان عمر وعثمان وأكابر الصحابة يسألونه عن الفتن العامة والخاصة، ويرجعون إليه فى العلم الذى خُصّ به، ويسألونه عن المنافقين، وكان عمر يستكشفه عن نفسه: هل يعلم فيه شيئاً من النفاق، فبرّأه منه.

ويقول الحسن فى **التصوف:** من لبس الصوف تواضعاً لله عز وجل، زاده نوراً فى بصره وقلبه، ومن لبسه للتكبر والخيلاء كُوِّر فى جهنم مع المردة. وكان ينشد:

ليس من مات فاستراح بميت ... إنما الميت ميت الأحياء

وكان يقول لمريديه: كل من اتبع طاعة الله لزمته معرفته، ومن أحب رجلاً صالحاً فكأنما أحب الله. ويبعث الله أقواماً يطلبون هذا العلم حسبةً، ليس لهم فيه نية، فيتعبهم فى طلبه كى لا يضيع العلم، وتبقى عليهم تبعته. ويعرّف **الإسلام** فيقول:

السر والعلانية فيه مشتبهة ، وهو أن يسلم قلبك لله ، وأن يسلم منك كل مسلم ، وكل ذى عهد. **والمؤمن** من يعلم أن ما قاله الله عز وجل هو كما قال ، وهو أحسن الناس عملاً ، وأشد الناس خوفاً ، ولو أنفق جبلاً من مال ما أمين دون أن يعاين ، ولا يزداد صلاحاً وبراً وعبادةً إلا ازداد فَرَقاً ، يقول لا أنجو ، والمنافق يقول سواد الناس كثير ، وَسَيُغفر لى ولا بأس علىّ ، فيُنسىء ويتمنى على الله تعالى . ويقول الحسن فى **المتصوفة :** قلوبهم محزونة ، وشرورهم مأمونة ، وحوائجهم خفية ، وأنفسهم عفيفة ، صبروا أياماً قصاراً تُعقب راحة طويلة ، أما الليل فمُصافة أقدامهم ، تسيل دموعهم على خدودهم ، يجأرون إلى ربهم : ربنا !! ربنا !! وأما النهار ، فحكماء علماء ، بررة أتقياء ، كأنهم القداح ، ينظر إليهم الناظر فيحسبهم مرضى ، وما بالقوم من مرض ، أو خولطوا ، ولقد خالط القوم من ذِكْر الآخرة أمرٌ عظيم . ويقول فى **الصوفية :** هم أهل التقوى ، علاماتهم : صدق الحديث ، والوفاء بالعهد ، وصلة الرحم ، ورحمة الضعفاء ، وقلة الفخر والخيلاء ، وبذل المعروف ، وقلة المباهاة للناس ، وسعة الخلق مما يقرّب إلى الله .

والحسن البصرى ينكر على **الفقهاء** المترسمين برسم الفقهاء أنهم فقهاء حقاً . يقول له **فرقد السبخى** تلميذه : يا أبا سعيد ، إن **الفقهاء** يخالفونك ، فيسأل الحسن وهل رأيت بعينيك **فقهاء ؟** إنما **الفقيه الزاهد فى الدنيا ،** الراغب فى الآخرة ، البصير بدينه ، المداوم على عبادة ربه ، الورع ، الكاف عن أعراض المسلمين ، العفيف عن أموالهم ، الناصح لجماعتهم .

وزهد الحسن فى الدنيا جعله يهرب ويستتر عندما وليه الأمير القضاء وكتب إليه : أيها الأمير ، فإن الكاره للأمر غير جدير بقضاء الواجب فيه ، وإن العامل للعمل بغير نية حقيق أن لا يُعان عليه ، فعافنى عافاك الله . فعافاه الأمير وأكرمه .

ويضرب الحسن نماذج **للزهد من حياة المرسلين : فأما محمد** عليه الصلاة والسلام فشدّ الحجر على بطنه من **الجوع ،** وأما **موسى** فرؤيت خُضرة البقل من صفاق بطنه من هُزاله ، ما سأل الله تعالى ، يوم أوى إلى الظل ، إلا طعاماً يأكله من جوعه . ولقد جاءت الروايات عنه أن الله تعالى أوحى إليه أن يا موسى ، إذا رأيت **الفقر** مقبلاً فقل : مرحباً بشعار الصالحين ، وإذا رأيت **الغنى** قد أقبل فقل : ذنبٌ عجّلت عقوبته . **وصاحب الروح والكلمة ، عيسى بن مريم ،** فى أمره عجيبة ، قد كان يقول : **أُدْمِي** الجوعُ ، وشعارى الخوفُ ، ولباسى الصوفُ ، ودابتى رجلى ، وسراجى بالليل القمر ، وصلاّيتى فى الشتاء الشمس ، وفاكهتى وريحانى ما أنبت الأرض لسباع

والأنعام. أبيتُ وليس لى شيء، وليس أحدٌ أغنى منى. **وسليمان بن داود** عليهما السلام ليس دونهم فى العَجَب: يأكل خبز الشعير في خاصته، ويطعم أهله الخُشْكار أى الطحين الخشن، ويطعم الناس الدَّرْمك، أى الطحين الأبيض، فإذا جنّه الليل لبس المسوح، وغلّ اليد إلى العنق، وبات باكياً حتى يصبح، يأكل الخشن من الطعام، ويلبس الشعر من الثياب !!

وكتب الحسن إلى **عمر بن العزيز** لمّا سأله أن يعظه: أما بعد، فإن رأس ما مُصْلِحُكَ ومُصْلَحٌ به على يدك: **الزهد فى الدنيا**، وإنما الزهد باليقين، واليقين بالتفكّر، والتفكّر بالاعتبار، فإذا أنت تفكّرت فى **الدنيا** لم تجدها أهلاً أن تبيع بها نفسك، ووجدت نفسك أهلاً أن تكرمها **بهوان الدنيا**، فإنما الدنيا دار بلاء ومنزل غفلة.

وقال الحسن فى **المسئولية والحرية والاختيار**: «وكل ألزمناه طائره فى عنقه، ونخرج له يوم القيامة كتاباً منشوراً. إقرأ كتابك، كفى بنفسك اليوم عليك حسيبا». عَدَلَ والله عليك مَنْ جعلك حسيب نفسك. أعدوا الجواب فإنكم مسئولون، والمؤمن من لم يأخذ دينه عن رأيه، ولكنه أخذه من قِبَلِ ربه. ورحم الله رجلاً خلا بكتاب الله، فعرض عليه نفسه، فإن وافقه حمد ربه وسأله الزيادة من فضله، وإن خالفه أعتب وأناب وراجع من قريب. والناس عند الحسن أحد ثلاثة: مؤمن، وكافر، ومنافق، فأما **المؤمن** فقد ألجمه الخوف، وقوّمه ذكر العَرْض (أى الحساب)، وأما **الكافر** فقد قمعه السيف، وشرّده الخوف، فأذعن بالجزية، وأما **المنافق** ففى الحجرات والطرقات، يُسّرون غير ما يعلنون، ويضمرون غير ما يظهرون. ولولا ثلاثة ما طأطأ ابن آدم رأسه: **الموت، والمرض، والفقر. والدنيا حلم، والآخرة يقظة، والمتوسط بينهما الموت، والعباد فى أضغاث أحلام، والإنسان عددٌ، فإذا مضى له يوم فقد مضى بعضه.** ويغلب الحزن والهم على الحسن: «إن المؤمن يصبح حزيناً ويمسى حزيناً، ولا يسعه غير ذلك، لأنه بين مخافتين، ذنب قد مضى لا يدرى ما الله يصنع فيه، وأجلٌ قد بقى لا يدرى ما يصيب فيه من المهالك.

وكان الحسن رحمه الله يبدو عليه كأنما هو فى خوف دائم، وكأنما النار لم تخلق إلاّ له، ويقول ذهبت المعارف وبقيت المناكر، ومن بقى من المسلمين فهو مغموم. وقيل عن الحسن ما كنا نراه إلا كأنه حديث عهد بمصيبة. وكان يقول كثرة الضحك تميت القلب. ويفرق الحسن بين الوسواس والهاجس أفضل تفرقة عرفها التحليل النفسى

فيقول : ما من وسواس نبذ فهو من إبليس ، وما كان فيه إلحاح فهو من النفس ، يعنى الوساوس تأتى وتروح ، وتظهر فجأة وتتلاشى ، وأما هواجس النفس فهى التى تلح عليها ، ويسمون ذلك فى الطب النفسى العصاب الوسواسى ، وعلاجه عند الحسن هو العلاج الدينى ، يقول : يستعان فيه بالصوم والصلاة والرياضة . ويقول أبو طالب المكى ، وكان الحسن يجتمع مع خاصة أتباعه فى بيته ، مثل **مالك بن دينار ، وثابت البنانى ، وأيوب السختيانى ، ومحمد بن واسع ، وفرقد السبخى ، وعبد الواحد بن زيد ،** فيقول : هاتوا انشروا النور ، فيتكلم عليهم فى علم اليقين والقدرة ، وفى خواطر القلوب وفساد الأعمال ووسواس النفوس . ومايزال الحسن البصرى يعى الكلمة حتى نطق بها وقال : المحب سكران لا يفيق إلا عند مشاهدة محبوبه .

■ ■ ■

البغدادى

أبو حمزة محمد بن إبراهيم ، وشهرته **الصوفى** فقد كان الإمام أحمد بن حنبل إذا جرى فى مجلسه شىء من كلام الصوفية يقول له : ماذا تقول فى هذا يا صوفى ، فعرف هذا عنه . وكان فقيهاً عالماً بالقرآن والقراءات ، توفى سنة ٢٨٩ هـ ، واشتغل بالبزازة فسمّوه **البزاز أبا حمزة ، وكان أول من تكلم ببغداد فى المحبة ، وقالوا فيه هو شيخ الصوفية ولسانهم فى المحبة والشوق والأنس والقرب وموارد القلوب .** سألوه عن المحبة وهل يمكن أن يتفرغ المحب لشىء سوى محبوبه ، فأجاب بالنفى لأن المحبوب فى بلاء دائم وسرور منقطع وأوجاع متصلة لا يعرفها إلا مَنْ باشرها . والمحبة تعنى الذكر ، فمن المحال أن تحب المحبوب فلا تذكره ، ومن المحال أن تذكره فلا يوجدك طعم ذكره ، ومن المحال أن يوجدك طعم ذكره ثم تُشغل بغيره . والأنس هو أن تكون موافقتك لمولاك ويضيق صدرك عن معاشرة الخلق . وله شعر رقيق . منه :

لك من قلبى المكان المصون ... كل صعب علىّ فيك يهون

ومنه :

نهانى حيائى منك أن أكتم الهوى ... فأغنيتنى بالفهم منك عن الكشف
تلطفت فى أمرى وأبديت شاهدى ... إلى غائبى واللطف يدرك باللطف
تراءيت لى بالغيب حتى كأنما ... تبشرنى بالغيب أنك فى الكف

أراك وبي من هيبتي لك حشمة — فتؤنسني باللطف منك وبالعطف
وتحيي محباً أنت في الحب حتفه — وذا عجب كون الحياة مع الحتف

وقيل إنه خرج مرة يشيع بعض الشهداء في الجهاد فسمع من ينشد :

نقل فؤادك حيث شئت من الهوى — ما الحب إلا للحبيب الأول

فسقط مغشياً عليه .

■ ■ ■

البقاعـــى

الإمام برهان الدين إبراهيم بن عمر بن حسن الرُباط بن على بن أبى بكر البقاعى (٨٠٩ ــ ٨٨٥هـ) أصله من البقاع بسورية، وارتحل إلى القاهرة وبها صنف رسالتيه «**تنبيه الغبى إلى تكفير ابن عربى**» سنة ٨٦٤هـ، و«**تحذير العباد من أهل العناد ببدعة الاتحاد**» سنة ٨٧٨هـ، وله تصانيف أخرى أشهرها «**نظم الدرر فى تناسب الآيات والسور**» ويعرف **بمناسبات البقاعى**. وقد نشر عبدالرحمن الوكيل الرسالتين فى كتاب واحد أعطاه اسم **مصرع التصوف**، ونقل عنه الزركلى فى ترجمته للبقاعى هذا الاسم المنتحل على أنه كتاب له فى التصوف. **وأهمية الرسالتين أنهما يسجلان أسماء المنكرين لابن عربى وابن الفارض قولهما بالحلول والاتحاد أو وحدة الوجود، ويورد البقاعى فيهما نحوا من أربعين اسماً من أسماء المشايخ الكبار وكلهم يعترضون على ما ذهب إليه ابن عربى وابن الفارض ومن تابعهما من فلاسفة الصوفية كابن سبعين وابن مسرة وغيرهما**. وهو يدفع عن نفسه تهمة البغض للصوفية ويقول إنه إنما يبغض من كفّره من أجمعنا على أنهم صوفية مثل **الجنيد والقشيرى وشهاب الدين السهروردى** الذين أكدوا أن طريق الصوفية لا يخالف الكتاب ولا السنة ويرتبط بهما، ومن يخالفهما فهو ليس من الصوفية، ومن ذلك قول **أبى عثمان الحيرى** من أمر على نفسه السنة قولاً وفعلاً نطق بالحكمة، ومن أمّر الهوىَ على نفسه نطق بالبدعة، وقول **التسترى** أصول مذهبنا ثلاثة : الاقتداء بالنبى ﷺ فى الأخلاق والأفعال، والأكل من الحلال، وإخلاص النية فى جميع الأعمال. ويذكر البقاعى أن **سبب تأليفه للرسالتين** أن الناس قد اختلطت عليهم الأمور بشأن ابن عربى وابن

الفارض فأراد أن يوضح من أمرهما ما استغلق من دعاواهم ، وكان كفر ابن عربى جلياً فى كتابه الفصوص بالذات ، وفى الفتوحات المكية ، وأما ابن الفارض فهو فى تائيته إنما ينقل عن ابن عربى ، فليست التائية سوى النظم الشعرى للفتوحات المكية المنثورة . وعقيدة ابن عربى هى وحدة الوجود ، بمعنى أنه لا شىء سوى هذا العالم ، والإله أمر كلى لا وجود له إلا ضمن جزئياته . وابن عربى ومن ينهج نهجه يتسترون بالإسلام ليروجوا لدعواهم ، لأنهم لو صرحوا بالتعطيل فسينصرف الناس عنهم . ومن دعاواهم أن الإله هو عين كل شىء ، وأن كل عابد شىء هو عابد لله ، وأن الخلق هو الحق ، والحق هو الخلق ، والحق هو الإنسان الكبير ، وهو حقيقة العالم وهويته ، وأنه ليس لوعيد الله عين تعاين ، وأن الآخرة موضع سعادة لكل أحد ، والمُعَذّب مُنَعّم بعذابه ، وأن الحق مفتقر إلى الخلق ، وأنه يتلبس بصور الخلق ، وأن هويته عين أعضاء العبد وقواه ، وأن الأديان كلها واحدة ، والضال مهتد ، والكافر لن يعذب ، والشرائع أوهام ، والداعى هو عين المجيب . وقد صرح بكُفر ابن عربى ومن نحا نحوه فى مثل أقواله الظاهرة جماعة من العلماء نقل فتاواهم **الإمام شهاب الدين أحمد بن يحى بن أبى حجلة التلمسانى الحنفى ، والإمام سيف الدين عبد اللطيف بن بلبان الصوفى ، والعلامة بدر الدين حسين بن الأهدل فى تصنيفه المسمى كشف الغطا عن حقائق التوحيد .** ومن المنكرين له سلطان العلماء **عز الدين بن عبد السلام** ، ونقل عنه شيخ الإسلام **تقى الدين بن دقيق العيد** أنه قال هو شيخ سوء ، كذاب ؛ ومنهم **شمس الدين محمد بن الجرزى** ، قال فيه كلامه باطل متناقض وهو كفر ، **والإمام أبو حيان محمد الأندلسى** ، قال : ومن بعض اعتقاد النصارى استنبط من أقر بالإسلام ظاهراً ، وانتمى إلى الصوفية حلول الله فى الصور الجميلة ، ومن ذهب من ملاحدتهم إلى القول بالاتحاد والوحدة ، كالحلاج والشعوذى وابن أحلى وابن عربى وابن الفارض ، واتباعهم كابن سبعين ؛ **وشيخ الإسلام تقى الدين السبكى** ، قال : ومن كان من هؤلاء الصوفية المتأخرين كابن عربى وغيره فهم ضُلاّل جُهّال خارجون عن طريقة الإسلام فضلاً عن العلماء . وقال ذلك فى باب الوصية من شرح المنهاج ، ونقله الدميرى والتقى الحصنى . وقال **الحافظ تقى الدين الفاسى** فى كتابه فيه : وقد أحرقت كتب ابن عربى غير مرة . وممن صنع ذلك من العلماء المعتبرين **الشيخ بهاء الدين السبكى** ، والعلامة القاضى شرف الدين عيسى بن مسعود الزواوى شارح صحيح مسلم ، فقال : وأما ما تضمنه هذا التصنيف من الهذيان والكفر والبهتان فهو كله تلبيس وضلال وتحريف وتبديل ، ويجب على ولى الأمر إذا سمع بهذا

التصنيف البحث عنه وجمع نسخه حيث وجدها وإحراقها ، وأدب من اتهم بهذا المذهب أو نسب إليه على قدر التهمة عليه حتى يعرفه الناس ويحذروه . ومنهم **الشيخ الإمام المحقق نور الدين على بن يعقوب البكرى** ، قال : وأما تصنيف تذكر فيه هذه الأقوال ويكون المراد به ظاهرها فصاحبها ألعن وأقبح من أن يُتأول له ذلك ، بل هو كاذب فاجر. ومنهم **العلامة نجم الدين محمد بن عقيل البالسى** ، قال : من صدق هذه المقالة الباطلة كان كافراً يراق دمه ولا تنفعه التوبة ؛ **والعلامة أبو إمامة ابن النقاش المصرى** فقال : وقد ظهرت أمة ضعيفة العقل ، نزرة العلم ، اشتغلوا بهذه الحروف وجعلوا لها دلالات ، واشتقوا منها ألفاظاً واستدلوا منها على مُدَد وسموا أنفسهم بعلماء الحروف ، ثم جاءهم شيخ جاهل يقال له البونى ، ألف فيها المؤلفات وأتى فيها بالطامات . ومن الحروف دخلوا للباطن ، وأن للقرآن باطناً غير ظاهر ، بل وللشرائع باطناً غير ظاهرها ، ومن ذلك تدرجوا إلى وحدة الوجود ، وهو مذهب الملحدين كابن عربى وابن سبعين وابن الفارض ممن يجعل الوجود الخالق هو الوجود المخلوق ، وقد لا يرضى هؤلاء بلفظ الاتحاد ، بل يقولون بالوحدة ، لأن الاتحاد يكون افتعالاً بين شيئين ، وهم يقولون الوجود واحد لا تعدد فيه ، ولم يفرقوا بين الواحد بالعين والواحد بالنوع ، فإن الموجودات مشتركة فى مسمى الوجود ، ولكن ليس وجود هذا هو وجود هذا ، والقدر المشترك هو كلى ، والكلى المطلق لا يوجد كلياً مطلقاً إلا فى الأذهان لا فى الأعيان . وهم متأهلون للخيال ومعظمون له ولا سيما ابن عربى ، وهو يسميه (أى الخيال) أرض الحقيقة ، ويظنون دعاواهم الخيالية كرامات ، ولقد حكى سعيد الفرغانى فى شرح قصيدة التائية لابن الفارض أن رجلاً نزل دجله يتوضأ فخرج من نيل مصر وأقام هناك وتزوج وأنجب ، ثم نزل فى إحدى المرات النيل للوضوء فخرج من دجلة ووجد غلامه ودابته فى انتظاره والناس لم تصل الجمعة بعد . وهذا الخيال يظنونه لجهلهم حقيقة وواقعاً . ثم قال : وحقيقة قولهم أن ما ثم وجوداً إلا هذا العالم لا غير كما قاله فرعون ، لكن هم يقولون إن العالم هو الله ، وفرعون أنكر وجود الله . ثم قال – وقيل لبعض أكابرهم : ما الفرق بينكم وبين النصارى ؟ قال : النصارى خصصوا ، وهذا موجود فى كلام ابن عربى وغيره ، ينكرون على المشركين تخصيصهم عبادة بعض ، والعارف عندهم يعبد كل شىء . ومنهم **العلامة جمال الدين عبد اللطيف بن هشام صاحب المغنى** وقد كتب عن الفصوص :

هذا الذى بضلاله ضلت أوائل مع أواخر
من ظن فيه غير ذا فليس عنا فهو كافر

هذا كتاب فصوص الظلم ونقيض الحكم وضلال الأمم. وقال **العلامة ابن** خلدون: طريق المتصوفة منحصر فى طريقين: الأولى وهى طريقة السنة وسلفهم الجارية على الكتاب والسنة والاقتداء بالسلف الصالح من الصحابة والتابعين، والثانية مشوبة بالبدع وهى طريقة قوم من المتأخرين، يجعلون الطريقة الأولى وسيلة إلى كشف حجاب الحس لأنها من نتائجها، ومنهم ابن عربى وابن سبعين وابن برجان وأتباعهم ممن سلك سبيلهم. والحُكْم فى الكتب من أمثال الفصوص والفتوحات المكية لابن عربى، والبُد لابن سبعين، وخلع النعلين لابن قسى، وعين اليقين لابن برجان، والكثير من شعر ابن الفارض والعفيف التلمسانى وأمثالها، وكذا شرح الفرغانى للقصيدة التائية من نظم ابن الفارض، هو إذهاب أعيانها متى وجدت بالتحريق بالنار. ومنهم **العلامة شمس الدين محمد العيرزى فى كتابه «الفتاوى المنتشرة»**، قال عن الفصوص: قال العلماء جميع ما فيه كفر لأنه دائر مع عقيدة الاتحاد. وابن عربى من غلاة الصوفية المحذر من **طرائقهم** وهما شعبان، شعب حلولية يعتقدون حلول الخالق فى المخلوق، وشعب اتحادية لا يعتقدون تعدداً فى الوجود فى زعمهم أن العالم هو الله، وكل فريق منهم يكفر الآخر، وأهل الحق يكفرون الفريقين. ومنهم ابن الفارض صاحب الديوان. وقد ذكر هؤلاء بالحلول والاتحاد جماعة من علماء الشريعة المتأخرين كالشيخ عز الدين عبدالسلام وأبى عمرو بن الصلاح وابن دقيق العيد وشيخ الفقهاء الزين الكتنائى وقاضى القضاة الشيخ تقى الدين السبكى، وحكم بتكفيرهم البدر بن جماعة والزين الحنفى والشرف الزواوى والسعد الحنبلى. ومنهم **لسان الدين محي ابن الخطيب فى كتابه روضة التعريف بالحب الشريف**، فقال الفرع الخامس فى رأى أهل الوحدة المطلقة ــ ثم قال: وحاصله أن البارى هو مجموع ما ظهر وما بطن، وأنه لا شيء خلاف ذلك، وأن تعدد هذه الحقيقة المطلقة والآنية الجامعة التى هى عين كل آنية، والهوية التى هى عين كل هوية، إنما وقع بالأوهام من الزمان والمكان والخلاف والغيبة والظهور والألم واللذة والوجود والعدم. قالوا وهذه إذا حققت إنما هى أوهام راجعة إلى أخبار الضمير وليس فى الخارج شيء منها، فإذا سقطت الأوهام صار مجموع العالم بأسره وما فيه واحداً، وذلك الواحد هو الحق، وإنما العبد مؤلف من طرفى حق وباطل، فإذا سقط الباطل ــ وهو اللازم بالأوهام ــ لم يبق إلا الحق، وصرحت بذلك أقوال شيوخهم، فمنه قول ابن أحلى: حق أقام باطلاً ببعض صفاته. وقال الحلاج وابن عربى وقد تعرضا لما به وقع التعدد وأنه وهم، فالكل واحد وإن كان متفرقاً، فسبحان من هو الكل ولا شيء

سواه، الواحد بنفسه، المتعدد بنفسه. ومنهم **شيخ الإسلام أبو الفضل بن حجر وشيخه شيخ الإسلام سراج الدين عمر البلقيني**، فقال فى ترجمة عمر بن الفارض بأنه شيخ الاتحادية، وأنه ينعق بالاتحاد الصريح فى شعره. ومنهم **الحافظ عماد الدين بن كثير**، قال: هؤلاء كلهم يقتفون فى مسالكهم هذه طريقة الحسين بن الحلاج الذى أجمع الفقهاء فى زمانه على كفره وقتله؛ **وشمس الدين محمد بن عثمان الذهبى**، قال فى كتابه **تاريخ الإسلام**: كلام ابن عربى كفر وزندقة كان يجتمع به آحاد الاتحادية ولا يصرح بأمره لكل أحد، ولم تشتهر كتبه إلا بعد موته، ولهذا تمادى أمره؛ **والإمام ابن تيمية**، قال فى كتابه **الفرقان بين أولياء الرحمن وأولياء الشيطان**: وقد صنف بعضهم ــ أى أهل الاتحاد ــ كتباً وقصائد على مذهبه مثل قصيدة ابن الفارض المسماة بنظم السلوك، وفصوص الحكم لابن عربى وأمثاله مثل صاحبه القونوى ــ يعنى صدر الدين ــ والتلمسانى وابن سبعين **والششترى** وابن الفارض وأتباعهم، ومذهبهم الذى هم عليه أن الوجود واحد، ويسمون أهل وحدة الوجود، ويدعون التحقيق والعرفان، ويجعلون وجود الخلق هو عين وجود المخلوقات، فكل ما تتصف به المخلوقات من حسن وقبح ومدح وذم إنما المتصف به عندهم عين الخالق، وليس للخالق عندهم وجود مباين لوجود المخلوقات منفصل عنهم، بل عندهم ما ثم غير الخالق ولا سواه، فعبّاد الأصنام لم يعبدوا غيره لأنه ما عندهم له غير؛ **وشرف الدين إسماعيل بن أبى المقرى**، قال: وأما من أثنى على ابن عربى فلفضله وزهده وإيثاره واجتهاده فى العبادة، ولم يعرفوا ما فى كلامه من المنكرات لاشتغالهم عنه بالعبادة. وبعض المثنين عليه يعرفون ما فى كلامه من المنكرات ولكنهم يزعمون أن لها تأويلات، وحملهم على ذلك كونهم تابعين لابن عربى فى طريقته، فثناؤهم عليه مطروح لتزكيتهم **معتقدهم والعلامة علاء الدين محمد بن محمد البخارى الحنفى**، وصنف فيهم رسالة سماها **«فاضحة الملحدين وناصحة الموحدين»**، وبيّن أن وحدتهم هى التى قرر أصلها بعض الفلاسفة، لا التى يسميها أهل الله الفناء، ونقل عن القاضى عضد الدين فى وصفه لابن عربى أنه يحكى عنه أنه كان كذاباً حشاشاً كأوغاد الأوباش، فقد صح عن صاحب كتاب المواقف أنه لما سئل عن كتاب الفتوحات لصاحب الفصوص قال: **أفتطمعون** من مغربى يابس المزاج **بِحَرّ** مكة ويأكل الحشيش شيئاً غير ذلك؟ وقد تبعه ــ أى ابن عربى ــ فى ذلك ابن الفارض حيث يقول: أمرنى النبى بتسمية التائية نظم السلوك، إذ لا يخفى على العاقل أن ذلك من الخيالات المتناقضة الحاصلة من الحشيش، إذ عندهم أن وجود الكائنات هو الله تعالى، فإذن الكل هو الله، لا غير،

فلا نبى، ولا رسول، ولا مرسل إليه، وقال إن الملاحدة عبروا عن ضلالتهم بعبارات العارفين بالله، يتسترون بها فى زندقتهم فينبغى الحذر منهم، فأرادوا **بالفناء** نفى حقائق الأشياء، وجعلوها خيالاً وسراباً على ما هو مذهب السوفسطائية، **وبالبقاء** ملاحظة الوجود المطلق، **وبالوحدة المطلقة** كون ما سوى الوجود من الأشياء خيالاً وسراباً، وكون وجود جميع الأشياء —حتى الخبائث والقاذورات— إلهاً، وذلك غير ما أراده العارفون، فإنهم أرادوا بها معانى يصدقها الشرع، وهم مصرحون بأن كل حقيقة يردها الشرع فهى زندقة، وأنه ليس فى أسرار المعرفة شىء يناقض ظاهر الشرع، بل باطن الشريعة يتم بظاهره، وسره يكمل صريحه، ويروج ابن عربى وأمثاله سفسطتهم بإحالتها إلى **الكشف**، ويتفيقهون بأن مرتبة الكشف وراء طور العقل، والمعروف أن مرتبة الكشف ينال بها ما ليس ينال العقل، وليس ما هو ببديهة العقل محال، فلا مجال فى مورد الشرع ولا فى طور الولاية والكشف لما يحكم العقل عليه بأنه محال، بل يجب أن يكون كل منهما فى حيز الإمكان والاحتمال. ومنهم **الحافظ تقى الدين محمد بن أحمد الفاسى المكى** فى كتابه «**تحذير النبيه والغبى من الافتتان بابن عربى**»، يقول: إن من ينسب إليه هذا الكلام لا يشك مسلم منصف فى فسقه وضلاله وزندقته. وممن كفروا ابن الفارض **عز الدين بن عبد السلام والحافظ بن الصلاح والإمام الفقيه الصوفى قطب الدين القسطلانى، والإمام نجم الدين أحمد بن أحمد بن حمدان الحنبلى وقد شرح التائية وبيّن عواره فيها بيتاً بيتاً، والسكونى وابن الحاجب وابن دقيق العيد وابن بنت الأعز وابن جماعة والزواوى والسعد الحارثى وأبو حيان الشافعى، وأبو أمامة والحافظ الموصلى والسبكى والزين الكتناتى وابن تيمية وابن حجر والبسطامى وابن الأهدل**. كما شهد بالنقل عنهم نحو عشرين كتاباً من مصنفاتهم ومصنفات غيرهم، وهى **شرح التائية لابن حمدان، وديباحة ديوان ابن الفارض، ولحن العوام لابن خليل وتفسير أبى حيان البحر والنهر، والفرقان لابن تيمية، وقصيدة السفاقسى** التى يقول فيها:

وكالششترى القونوى ابن الفارض　　فلا يرّد الله ثراهم ولا أسقى

وكتاب ابن أبى حجلة، والميزان ولسانه لابن حجر، والتاريخ لابن كثير، وناصحة الموحدين للعلاء البخارى، والفتاوى المكية للعراقى، وتاريخ العينى، وشرح التائية للبساطى، وكشف الغطاء لابن الأهدل، فهذه ستة عشر كتاباً وقصيدة شهدت بكفره من بضع وعشرين عالماً هم أعيان كل عصر.

البكتاشية

طريقة الدراويش البكتاشية التى كانت منتشرة بين الانكشارية حتى أن معنى البكتاشى كان ينصرف إلى الإنكشارى، وكانت من الحركات الدينية التى لها أهميتها البالغة فى شرقى آسيا الصغرى وكردستان وألبانيا والشام وفارس ومصر، وكانت لهم بجبل المقطم تكية، وتنسب هذه الطريقة لحاج بكتاش ولى واسمه محمد رضوى، وقيل إنه ولد بنيسابور ودرس على أحمد سَوَى، وقيل إن وفاته كانت سنة ٧٣٨ هـ، إلا أن هذه السنة هى المقابل لكلمة بكتاشية فى حساب الحروف كما يعتقد أصحاب هذه الطريقة. وتنسب له كرامات عظيمة، وقيل عنه إن الإنكشارية كلهم أسلموا على يديه فى عهد أورخان، وصاروا على طريقته فى التصوف، وهى طريقة تقوم على التقشف والنظام الصارم، وتقول بالمساواة بين الأديان. ومن البكتاشية من هم على عقائد السنة، ومنهم علويون ينتصرون لآل البيت ويذمون أبا بكر وعمر وعثمان كما يفعل الشيعة، ويعترفون بالأئمة الإثنى عشر وينزلون الإمام جعفر الصادق منهم منزلة خاصة، وشعارهم «الله. محمد. على»، ويرى المستشرقون أن ذلك منهم كالتثليث، كما يرون أن التزامهم شرب النبيذ والتقوت بالجبن والخبز عناصر نصرانية يفسرونها عندهم بأن البكتاشية أو حاج بكتاش ولى ربما كان فى الأصل نصرانياً وأسلم، وذكرهم فيه الرقص، وشيوخهم يدعون البابا ويتلقون منهم المغفرة، ومنهم من يبلغ زهده حد العزوف بالكلية عن الدنيا والركون فى التكايا وعدم الزواج، ويميز المصرون على العزوبية أنفسهم بلبس الأقراط فى آذانهم ولهم مشايخهم، والبكتاشى الدرويش يقال له المريد، والملتحق بتكية البكتاشية يقال له منتسب، ولباسهم عباءة بيضاء وطاقية يقال لها سكة، مثلثة وأطرافها ١٢ بعدد الأئمة، والبابا أو الشيخ يلف حولها عمامة خضراء، وحول رقابهم حجاب من الحجر يقال له تسليم تاش، ويضعون فى أيديهم عصا طويلة ويتسلحون ببلطة ذات حدين، وهذه الخصيصة فيهم وميولهم القتالية ربما كانت سبب إقبال الإنكشارية على الدخول فى طريقتهم، أو ربما كانت من تأثير دخول الانكشارة فى الطريقة، حتى أن الانكشارية كان يقال لهم أبناء الحاج بكتاش، وكان مشايخ فرق الانكشارية العسكرية المنتشرة فى العالم الإسلامى ومن الامبراطورية التركية من دراويش البكتاشية، وقد لعبت طريقة البكتاشية دوراً كبيراً فى الفتن السياسية والدينية والتحولات الاجتماعية، وقيل إن الآراء التحررية فى ثورة أتاتورك الخاصة بالمساواة بين الأديان وعدم حجاب المرأة هى من تأثير معتقدات

البكتاشية ، وربما لذلك كان إقبال البكتاشية على الأفكار التقدمية عموماً. ويرأس خالد بكتاش الحزب الشيوعى السورى ، ويضم بين أعضائه بقايا العناصر الانكشارية فى هذه البلاد.

وللبكتاشية مصطلحات ينفردون بها مثل «التولية والتبْرية» ، ومعنى التولية مشايعتهم لآل البيت ، وأما التبرية فهى التبرئة من غيرهم. والولاية عندهم أربعة : وهى الشريعة والطريقة والمعرفة والحقيقة ، والمقامات أربعون لكل باب عشرة مقامات. وأئمتهم سبعة عشر ، يسمونهم بالمتحزمين أو الكمرسته ، وهم أصحاب علىّ بن أبى طالب الذين خرجوا معه. وفى كل ذكر يوضع عدد من الفراء فى أماكن خاصة بطريقة خاصة ، ترمز لولى من الأولياء ، وتسمى بوست. ومن أشهر أدعياتهم الدعاء الذى يطلقون عليه اسم «دعاء علىّ» ويقول : ياعلّى ! ياعلّى ! أدركنى ياعلّى. أدركنى يا إيليا يا أبا الحسين ! يا أبا تراب ! ياذا الجلال والجمال والهيبة والكمال !

■ ■ ■

البكرى

مصطفى بن كمال الدين بن على الصديقى الحنفى الدمشقى البكرى (١٠٩٩ ـ ١١٦١ هـ) قال عنه الجبرتى هو الأستاذ شيخ الطريقة والحقيقة وقدوة السالكين ومربى المريدين ، المذكور فى منظومة النسبة لسيدى عبدالغنى النابلسى ، ونشأته ببيت المقدس ، رباه شيخه عبداللطيف الحلبى ، وتآليفه تقارب المائتين ، وأحزابه وأوراده أكثر من ستين ، وأجلها **الورد السحرى** ، وعليه ثلاثة شروح أكبرها فى مجلدين. وقال عنه محمد توفيق البكرى (١٢٨٧ ـ ١٣٥١ هـ) صاحب التراجم الصوفية أنه طلب العلم بدمشق وقابل والى مصر ببيت المقدس فاصطحبه إلى مصر وأخذ عنه خلق كثيرون أجلّهم الشيخ محمد الحفنى. ومن مؤلفاته **الوصية الجليلة للسالكين طريق الخلوتية ، والفتح القدسى ، والمورد العذب لذوى الورود فى كشف معنى وحدة الوجود ، والتواصى بالصبر والحق ، وبلْغة المريد ، واللمحات فى صلوات بن مشيش ، والمنهل السائغ لوارده فى ذكر صلوات الطريق وأوراده ، وفوائد الفرائد ، والسيوف الحداد فى أعناق أهل الزندقة والإلحاد.** وله منظومة مشهورة لرسالة السيوطى فى التصوف التى أوردها رداً على أهل الدعاوى الكاذبة بالولاية يبدأها بعد الديباجة بهذه الأبيات :

أولها طريقة التصوف تجريدك القلب لحبك الوفى

ثم احتقارك السوى مراقباً جنابه وغيره مجانباً

■ ■ ■

بلاثيوس

ميجيل أسين بلاثيوس Palacios أسبانى من مواليد سرقسطة (١٨٧١ — ١٩٤٤م) وكان استاذاً للغة العربية بجامعة مدريد، واشتهر بدراساته فى التصوف وفلاسفة الصوفية، وأخصهم **الغزالى وابن عربى**، وكانت رسالته للدكتوراه عن **الغزالى**، ونشر البحوث فى تأثير **الرشدية** على الفلسفة اللاهوتية للقديس **توما الأكوينى**، وفلسفة **ابن مسرة** وتشكيلها للتصوف الإسلامى فى الأندلس، ثم تأثيرها على الفكر الأوروبى من خلال **روجر بيكون وريموندو لوليو**، وقدم سنة ١٩١٩ بحثه الأشهر فى **«الأخرويات الإسلامية فى الكوميديا الإلهية»**. وقد درس ابن عربى دراسة مستفيضة ونشر فيه بحوثاً فى **علم النفس عند محي الدين بن عربى، ونفسانية الوجد الصوفى عند الصوفيين الغزالى وابن عربى**، وقدم ترجمة لحياته، ونبه إلى الخصائص العامة لمذهبه، وكذلك كتب عن **الغزالى** ونفسية الاعتقاد عنده، ومعانى الأخلاق والزهد فى فلسفته، وتصوفه وروحانيته، وترجم فى التصوف فصولاً من كتاب **الإحياء**، ونصوصاً مختارة من كتب ابن عربى **تحفة السفرة إلى حضرة البررة، والأمر المحكم المربوط فيما يلزم أهل طريق الله من الشروط، والتدبيرات الإلهية فى إصلاح المملكة الإنسانية، وكنه مالابد للمريد منه، ومواقع النجوم ومطالع أهلة الأسرار والعلوم، والأنوار فيما يمنح صاحب الخلوة من الأسرار، والفتوحات الملكية**، كما ترجم كتاب **الأخلاق** لابن حزم، وكتابه **الفصل فى الملل والأهواء والنحل**، ودراسات فى كتابه **طوق الحمامة**، وتابع تأثير الإسلام وفلاسفة المتصوفين المسلمين فى الفكر اللاهوتى المسيحى ببيان سرقة الراهب الفرانشيسكانى تورميدا لرسائل من إخوان الصفا، وتأثير ابن عباد الرندى فى يوحنا الصليبى، وتوج حياته أخيراً بكتابه «تأثيرات الإسلام» (١٩٤١) فجاء كتاباً جامعاً ومن خير ما كتب.

■ ■ ■

البنورى

أبو عبدالله معز الدين آدم بن إسماعيل البنورى ، من خلفاء أحمد السرهندى ، وله فى التصوف «نكات الأسرار» يتناول فيه بعض المسائل الصوفية ورياضاته ومجاهداته الروحية وبعض التراجم الصوفية ، و«خلاصة المعارف» فى مجلدين ، وموضوعاته كالكتاب السابق ، وله تفسير صوفى للفاتحة . وكان ميلاده فى بنور من البنجاب نحو سنة ١٠٠٥ هـ وتوفى فى المدينة سنة ١٠٥٣ هـ ، وكان مريدوه فى حياته نحو الأربعمائة ألف ، ومبادؤه فى طريقته بسيطة ، وتقوم على التزام الشريعة والاقتداء بالسلف والزهد فى الدنيا واحتقار المناصب والتعفف عن ذوى السلطان .

■ ■ ■

بهتائـــى

شاه عبداللطيف بهتائى (١١١٣ ــ ١١٧٦ هـ) باكستانى من بيت دين من ميتارى ، شعره صوفى ، وله ديوان «الرسالة» ، قصائده فيه تتناول القصص الريفى وتعرضه بأسلوب فلسفى دينى ، وموضوعاته من مثل الحب العذرى ، والحب العاشق من طرف واحد ، أو الذى لا يبد لحبه وإخلاصه ما يكافئه ، والحاجة فى الحب للاعتصام بالله والتعين بقدره ، وطلب رحمته والأمل فى رضوانه ، وتفويضه فيما يتجرعه المحب من آلام ، وما يحتمله من عذابات ، ولعل هذه النغمة الصوفية التى تسرى فى شعر بهتائى ، والإيمان الذى يكشف عنه بفلسفته ، ومسرى قصصه وخواتيمها ، وقوله بالقدر ، ذلك كله هو ما يشد إلى سماعه عامة الناس والفلاحين البسطاء . وأبطاله من الفقراء دائماً والمسحوقين والمضطهدين ، وشخصياته يرسمها لأفراد يستشعرون الكرامة ويؤمنون بالقيم رغم الحاجة الشديدة التى يعيشون فيها . والأوزان التى يستخدمها بهتائى مما يصلح للتلحين والغناء ، ولذلك فإن الكثير من قصائده يتغنى الناس بها وينشدونها فى مجالسهم ويعقدون لها الندوات ، والكثير منها مما يشتاق لسماعه الأطفال .

■ ■ ■

البوصيــرى

محمد بن سعيد بن حماد بن الصنهاجى (٦٠٨ ــ ٦٩٦ هـ) ونسبته إلى بوصير بمصر التى نشأ بها ، وأحياناً يقال له **الدلاصيرى** نسبة إلى دلاص حيث مولده ، ويشتهر

بقصيدته **البردة**، وكان قد أصابه الفالج فقطع على نفسه عهداً لئن شفاه الله أن ينظم قصيدة فى مدح الرسول عليه الصلاة والسلام «**خير البرية**»، ولذلك سميت قصيدته «**الكواكب الدرية فى مدح خير البرية**»، وكان قد بدأ فى نظمها أثناء مرضه فلما انتهى منها رأى فى المنام رسول الله يمر بيده الكريمة على جسمه كله فيبرأ، ولذلك سميت القصيدة أيضاً باسم **البرأة**، وقد جازاه الرسول بأن خلع عليه بردته ولذا سميت كذلك **بالبردة**. ويبدو أنه قد نظمها وفى باله قصيدة الشاعر الصوفى المصرى ابن الفارض والتى يقول فيها:

هل نار ليلى بدت ليلاً بذى سلم   أم بارق لاح فى الزوراء بالعلم

ويقوم تصوف البوصيرى على محبة الرسول، وفى أغلب شعره الدينى يتصدى بالرد على منكرى نبوة النبى من غير المسلمين، ويشيد بالقرآن وإعجازه، ويدعو إلى الزهد ومخالفة النفس والندم والاستغفار. ولما ذاع صيت البردة صار الصوفية ينشدونها فى مجالسهم، وصارت تنشد فى الاحتفالات الدينية تشفعا بالنبى وطلبا لتفريج كربتهم باعتبار شهرتها أنها «**قصيدة الشدائد**». وكانت هناك الكثير من المعارضات لها وتقليدها وترجمت إلى اللغات الأجنبية. وأقام البوصيرى فى آخر حياته بالإسكندرية، وكان من أصحاب أبى العباس المرسى وتلقى عنه علم الحقائق والأسرار، ولما مات دفن فى قبره الذى شيد عليه مسجده المعروف باسم مسجد البوصيرى.

■ ■ ■

البونى

أبو العباس أحمد بن على بن يوسف (المتوفى ٦٢٢ هـ)، نسبته إلى بونة بالمغرب، وله «شمس المعارف الكبرى» ويسمى «**شمس المعارف ولطائف العوارف**» أربعة أجزاء، ورسائل «**اللمعة النورانية**» و«**السلك الزاهر**» و«**شمس المعارف الوسطى**» و«**شمس المعارف الصغرى**» و«**شرح اسم الله الأعظم**» و«**فضل بسم الله الرحمن الرحيم**» و«**مواقف الغايات فى أسرار الرياضات**» وجميعها فى التصوف وعلم الحروف ومات بالقاهرة.

■ ■ ■

البيرامية

طريقة تنسب لمؤسسها حاجى بيرام ولي، وكانت مراكزها فى القرنين الثامن والتاسع الهجريين فى استنبول وأنقره وأزمير وقسطمونى، وتشتق من الطريقة الخلوتية، بدعوى أن النبى عليه الصلاة والسلام قد عهد إلى أبى بكر رضى الله عنه **بالذكر الخفى**، وإلى على رضى الله عنه **بالذكر الجلى**، وتختص البيرامية أتباعها بالذكر الخفى، وهو ما تأخذ به الطريقة النقشبندية كذلك، ويبدو أن سبب هذا الاختيار هو الأصول الملامتية التى تقوم عليها الطريقتان. وعندما توفى حاجى بيرام انقسمت الطريقة إلى بيرامية شمسية وشيخهم أق شمس الدين، وقد أخذ بالذكر الجلى، وبيرامية ملامتية وشيخهم عمر دده البورسوى وهؤلاء اتبعوا الطريقة الملامتية وهجروا الذكر والورد وتكاياهم ولم يعد لهم لباسهم المميز، وفلسفتهم تحريم إظهار التقوى وأن تكون علاقة العبد بربه وإخلاصه له فى السر، وخافوا أن يكون تعبدهم نفاقاً أو للمظهرية فأخفوه عن الناس وظهروا بمظهر غير المتدينين أو الذين لا اعتبار لهم للدين.

والمبتدىء فى البيرامية يمارس العبادة على أساس توحيد الأفعال، أو فنائها فى فعل الله تعالى باعتبار أنها جميعاً من عند الله، فليس العبد هو الفاعل، وإنما الفاعل الحقيقى هو الله تعالى، وبعد ذلك تأتى المرحلة التى عليه فيها أن يفهم أن الأفعال هى كشف لصفاته، وكلها صفات لله تعالى، فإذا قام مثلاً بفعل فيه الكرم واتصف به فإنما لأن الكريم هو الله، والكرم فعله، ونحن نصفه به ونقدره له لأنه من صفات الله وفعله، وتلك مرحلة توحيد الصفات أو فنائها فى صفات الله، ثم تأتى المرحلة الأخيرة وهى التى عليه فيها أن يفهم أن الصفات وقد فنيت فى صفات الله، ولم يعد غير صفات الحق التى هى تجليات لذاته، فإن الوجود يصبح فى حقيقته واحداً، وكل الأعيان فى الوجود هى أعيان علمية لم توجد إلا لأنها موجودة فى علم الله، وتلك المرحلة هى مرحلة توحيد الذات أو فناء كل الذوات فى ذات الله تعالى.

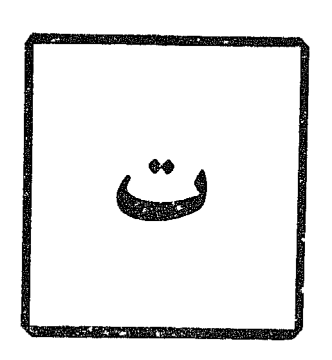
والبيرامى يضع على رأسه طاقية من اللباد الأبيض لها ست جهات ترمز إلى الجهات الست: أعلى وأسفل ويسار وأمام وخلف، بما يعنى أنه قد صار له علم محيط.

■ ■ ■

البيومية

طريقة سيدى على بن حجازى بن محمد البيومى الشافعى (نحو ١١٠٨ ـ ١١٨٣ هـ) حفظ القرآن فى صغره، وتلقن الخلوتية من السيد حسين الدمرداش العادلى وسلك بها مدة، ثم أخذ طريق الأحمدية عن جماعة، ثم حصل له جذب ومالت إليه القلوب وصار للناس فيه اعتقاد عظيم، وصار له أتباع ومريدون، وأقام ذكراً متميزاً مشى عليه الكثيرون، فيه «يا ألله» يقولها الأتباع مع إحناء الرأس وضم اليدين على الصدر، ويتبع ذلك رفع الرأس والتصفيق باليدين. وثمة خصيصة أخرى للبيومية هى مخاطبتها لأفقر الطبقات والعصاة من قطاع الطرق، المصر منهم على المعصية يربطه بسلاسل الحديد بعامود مسجد الظاهر حيث كانت تجرى حلقات ذكره، ومن هؤلاء من صار من السالكين وانضم إلى حاشيته، فإذا ركب الشيخ بغلته ساروا خلفه بالأسلحة والعصى، وإذا ورد المشهد الحسينى يغلب عليه الوجد فى الذكر حتى يصير كالوحش النافر فى غاية القوة، فإذا جلس بعد الذكر تراه فى غاية الضعف. وكان يلبس قميصاً أبيض، وطاقية بيضاء، ويعتم عليها بشملة حمراء، لا يزيد على ذلك صيفاً وشتاء. وكان لا يخرج من بيته إلا مرة كل أسبوع لزيارة المشهد الحسينى، وأتباعه حوله يعلنون بالتوحيد والذكر، وربما جلس شهوراً لا يجتمع بأحد من الناس، ولما كان يعقد الذكر بالمشهد الحسينى كل ثلاثاء كانت جماعته يأتون على الحال السابقة ويذكرون فى الصحن إلى الضحوة الكبرى، فأنكر العلماء عليه ذلك واشتكوا من التلوث فى الجامع من أقدام جماعته، إذ غالبهم كانوا يأتون حفاة ويرفعون أصواتهم بشدة، وكاد أن يتم منعهم لولا أن الشيخ الشبراوى تدخل وانتصر له بدعوى أن البيومى من كبار العلماء والأولياء فلا ينبغى التعرض له، وطلب منه أن يعقد درساً بالأزهر وحضره غالب العلماء فاقتنعوا به وسكتوا عنه وخمدت نار الفتنة، وبنى له الأمير عثمان أغا المسجد المعروف بالحسينية وسبيلاً وكتّاباً وقُبة وبداخلها مدفن، فلما مات صلوا عليه بالأزهر فى مشهد عظيم ودفن بالقبر الذى بنى له بداخل القبة بالمسجد المذكور. وكان البيومى ذا واردات وفيوضات، ولم يترك خليفة، وله مصنفات عديدة، منها **شرح الجامع الصغير، والحكم العطائية، والإنسان الكامل للجيلى، وله مؤلف فى طريق القوم خصوصاً فى طريق الخلوتية الدمرداشية، وشرح الأربعين النووية، ورسالة فى الحدود، وشرح على الصيغة الأحمدية**، وله كلام عال فى التصوف.

■ ■ ■



التبريزى (شمس الدين)

محمد بن على بن ملك داد تبريزى ، وشهرته شمس الدين ، والحق ، أصله من تبريز ، وكان سواحاً جواباً ، التقى بالشاعر الصوفى **جلال الدين الرومى فى** قونيه فحوّلة من مدرس فقه إلى صوفى صاحب طريقة من أشهر الطرق الصوفية ، هى الطريقة **المولوية** ، نسبة إلى **مولانا** جلال الدين الرومى ، وفجّر فيه طاقات إبداعية وجدانية ، كتب بها **ديوان شمس تبريز** ، وهو قصائد غزلية بلغ عدد أبياتها ٣٥٠٠ بيت ، وجاء تأليفه للديوان وتضمينه لاسم التبريزى بحيث يُظن أنه هو نفسه المؤلف . وقيل فى تسمية الرومى للتبريزى باسم **شمس** ، **والشمس** ، أنه كان آية فى صباحة الوجه وحسن القوام ودماثة الخلق وبلاغة اللسان ، وقد أحبه الرومى حباً ملك عليه نفسه ، وكان مصدر إزعاج لأهله وأولاده وأصحابه . ويحكى الرومى عن لقائهما وكان يستمع إليه مأخوذاً ، فسأله لماذا تأخذ نفسك بدراسة الفقه ، فأجاب الرومى : لأعرف الشرع ، فقال التبريزى : أليس الأجدى أن تعرف صاحب الشرع . إن العلم إن لم يجردك من نفسك فالجهل خير منه . ولزمه الرومى لا يبرحه ، حتى أنه حبس نفسه معه فى حجرة واحدة أربعين يوماً ، سرت فيه منه روح التصوف ، فاعتزل التدريس وانخرط فى الطريقة ، وحدثت بين التبريزى وأهل الرومى وأصحابه مغاضبات ، وتركهم مرة وسافر إلى الشام ، وأرسل الرومى ابنه وراءه ليعيده ، ومعه رسالة ينشده فيها :

أنت كالشمس إذا دنت ونأت   يا قريبا إلينا تعال

ولّما عاد التبريزى كانت فرحة كبرى للرومى، وزّوجه من إحدى بنات الأسرة ليخرس الألسن ويمنع القيل والقيل، ولكن المضايقات عادت ففادرهم التبريزى هذه المرة إلى غير رجعة. ويذكر أن الرومى بدأ مجالس السماع بعد رحيله متعزياً بها عنه. وكان التبريزى يلبس ملابس الدراويش، ونسبوا إليه قصيدة **سعدى الشيرازى** «سوك نامه» التى يتأسى فيها على سقوط الخلافة الإسلامية على يد التتار، ويقول فيها إن السماء لتنزف دماً على ما أصاب الأرض من مصيبة حلت بأولاد المصطفى وهى سقوط دولة الإسلام، ويناشد النبى ﷺ أن يولى المسلمين نظرة فقد اشتدت بهم الضائقة وعم البلاء. ويبدو أن هذه المصائب التى كانت تنزل بالجملة بالمسلمين فى وقته، وما عرفه عن الناس من نفاق هما اللذان باعدا بينه وبين الحياة ودفعاه إلى الانزواء. **ومن أقواله** الناس اعتادوا النفاق، والتعامل معهم يقتضى أن تكون مثلهم وتلتزم سلوكهم وإلا فالأولى بك أن تهرب منهم إلى الصحراء أو الجبال. **ويقول** إن سر البقاء سعيداً مع الناس هو أن تشايعهم على النفاق. **ويقول:** الدنيا ليست خيراً فى ذاته أو شراً فى ذاته، والإنسان هو الذى يجعل منها خيراً أو شراً.

ويقول فى محى الدين بن عربى: كان ابن عربى معيناً ومؤنساً ولكنه لم يتبع الشريعة، وجعل من نفسه متبوعاً. **ويقول** عن الحلاج: إنه لم يكن مبصراً تماماً لنور الكمال، ولم يظهر له النور والجمال فى تمامها، وإلاّ فكيف يقول أنا الحق. **ويقول** عن البسطامى: إنه لم يكن عنده اطلاع وإلا فكيف يتبجح قائلاً أنا. ويقول: الدنيا على أحوال شتى لا يمكن معها إصلاح الفاسد وإحلال الصالح محل الفاسد، وقد يحدث العكس فإن الفاسد قد يتبدل بالأفسد. وأدرك التبريزى عصر الرازى، وعندما توفى كان هو فى السادسة والعشرين. **ومن مؤثوراته:** المشكلة تحدث منك؛ والتتار فيك وهم غضبك؛ والمؤمن لا يحتار، والكافر مشكور لأنه لا ينافق ويقولها صراحة أنا عدوكم؛ والمنافق أخطر من الكافر؛ وعبادة الحق هى أن تتخلص من عبادتك لنفسك؛ والناس من منبع واحد فلماذا هذا الاختلاف.

ويروى عن التبريزى أنه كان يلبس عمامة سوداء يسمونها **كلاه**، وأطلقوا عليه اسم **برنده** أى الطيار لكثرة سياحاته، وقالوا عنه إنه سلطان العاشقين. وفى الطريقة المولوية هناك طبقة من الواصلين جديدة تماماً فى التصوف أطلقوا عليها طبقة العاشقين الواصلين لها نفس درجة الأولياء الكاملين، وأسمى من ذلك مقام المعشوق. وقيل إن هذه الفضيحة التى موضوعها العشق بين شمس تبريزى وجلال الدين الرومى قد دفعت

ابن جلال المدعو علاء الدين إلى أن يقتل التبريزى، وكتموا الأمر عن جلال بدعوى أن شمس قد رحل، ويبدو أنهم اكتشفوا أخيراً فى قونيه البئر الذى أخفى فيه علاء الدين جثمان شمس، وعثروا فيه على بقاياه. ويبدو أن سلطان ولد الابن الأكبر لجلال الدين الرومى كان يعرف بمقتل التبريزى رغم تظاهره بالبحث عنه فى دمشق وغيرها، وكانت هذه المعرفة تشكل هما يجثم على قلبه فصار يحب السماع ويرهف السمع للموسيقى أكثر، وشعر أن شمسا المفقود يمثل فى نفسه، ووصف حالته النفسية فى أبيات مؤثرة فى ديوانه ولد نامه.

■ ■ ■

التجانية

طريقة تنسب لمؤسسها **أبى العباس أحمد بن محمد بن المختار بن سالم التجانى** (١١٥٠ ـ ١٢٣٠ هـ)، واسم التجانى (بكسر التاء) من الأسماء المألوفة فى المغرب، والتجانية ارتبطت طريقتهم بحوادث سياسية مؤسفة، فقد كان ظهورهم أثناء مقاومة الأمير عبدالقادر للاحتلال الفرنسى، ولما زاد أتباعهم حاول الأمير أن يستميلهم إلى قواته، ولكن التجانى رفض بدعوى عدم الاشتغال بالسياسة، وأنهم قوم يعبدون الله ولا دخل لهم بما يجرى من حوادث وطنية أو غير وطنية، وظل ذلك دأبهم حتى بعد وفاة مؤسس الطريقة. والتجانى من قرية **عين ماضى**، وظلت هذه القرية معقلاً للتجانية بعد إجلائهم عن فاس، وحاصرهم الأمير عبدالقادر ثمانية أشهر حتى ذاع صيتهم، واكتسبوا تأييد العامة وعطف الفرنسيين عليهم، ولما قتل محمد الكبير إبن التجانى، انسحبوا إلى الأغواط، وقيل إنهم ساعدوا الفرنسيين على عبدالقادر. والتجانية من فروع **الطريقة الخلوتية**، وقد بدأ التجانى قادرياً ثم طيبياً ثم خلوتياً. ومات أبواه بالطاعون وهو بعد فى السادسة عشرة فرحل إلى فاس وتلمسان ومكة والمدينة، يلتقى بالشيوخ ويأخذ عنهم، ثم توجه إلى القاهرة وفيها التقى بصديق يدعى محمود الكردى أشار عليه بأن تكون له طريقته فى بلده، ومن ثم سافر إلى فاس وانقطع للتعبد فى واحة بالصحراء اسمها بوسمعون، ورأى رؤيا أن النبى يكلفه بالدعوة، فعاد إلى فاس واتخذها مقراً له، وفيها مات ودفن بالزاوية الخاصة بالتجانية، وقبره مزار لأتباع الطريقة. ولا تختلف شعائر التجانية كثيراً عن شعائر الخلوتية، والأتباع يسمون **الأحباب**، ومن مشايخهم على بن عيسى، ومحمد الحافظ بن مختار الملقب بالبَدّى، وهو

الذى نشر الدعوة بالصحراء، وينتشر التجانية شرقاً وغرباً إلا أنهم غالباً فى إفريقية الفرنسية، وحلت طريقتهم فيها محل **القادرية** أينما وجدت. وأهم المصنفات التى تجمع مذهبهم ورياضاتهم كتاب «**جواهر المعانى وبلوغ الأمانى فى فيض الشيخ التجانى**» وهو المعروف كذلك باسم **الكُنّاشى**، ويقال إن هذا المصنف من إملاء منشىء الطريقة، وهو أهم مرجع عن سيرته. وهناك معجم «**كشف الحجاب عمن تلقى مع التجانى من الأصحاب**» صنفه أبو العباس **أحمد بن أحمد العياشى**.

ومن التجانية أحمد بن بابا بن عثمان الشنقيطى العلوى (المتوفى بعد ١٢٦٠هـ)، ولد وتعلم بشنقيط وله «**نظم منية المريد**» فى التصوف على الطريقة.

■ ■ ■

التِّرْمِذِى (الحكيم)

أبو عبدالله محمد بن على الحكيم الترمذى (نحو ٢٠٥ ـ ٣٢٠هـ)، من أهل ترمذ وأبوه هو أبو على الترمذى المحدّث المشهور، له التصانيف الكثيرة، وطريقته تسمى **الحكيمية** والترمذية أيضاً وتقوم على اعتبار الولاية هى الأساس، ويعدها الترمذى قاعدة للطريقة، وبينما ينظر مشايخ التصوف إلى الولاية كرتبة ومصدر للعرفان، فإنه يجعلها حقيقة الطريقة ويقول: **لله تعالى أولياء اصطفاهم من بين الخلق، وقد انقطعت همتهم عن المتعلقات، وتنصلوا من قبول دعاوى النفس والهوى، وأقام كلاً على درجة، وفتح عليهم باباً من المعانى**. وقد قاطعه أهل **ترمذ** بسبب آرائه فى الولاية، وكتابه فيها المعنون «**ختم الولاية وعلل الشريعة**»، وشهدوا عليه بالكفر لمّا خالفهم وفضّل الولاية على النبوة، ونفوه من بلدهم فدخل **بلخ** محمولاً وهو فى التسعين من عمره، وقبله أهلها لموافقة رأيه لعموم آرائهم، وكان يقول للأولياء خاتم كما أن للأنبياء خاتم. وقد اجتمع عليه أهلها وكثر أشياعه. والترمذى صحب الجلاّء والقصّار وابن خضرويه، ولقى النخشبى، ومن كتبه «**نوادر الأصول فى أحاديث الرسول**»، و«**الفروق**» يتناول فيه الفروق بين موضوعات كالمداراة والمداهنة، والمحاجة والمجادلة، والمناظرة والمغالبة، والانتصار والانتقام، والصدر والقلب والفؤاد واللب، والعقل والهوى، إلى غير ذلك من الفروق. ومن **أقواله** فى الولاية كركن ركين لطريقته: أن إنكار الآيات للأولياء إنما يكون فى قلوب الجهّال وحدهم من

ضيق صدورهم عن المصادر، وبُعْد علومهم عن موارد الحكمة والقدرة؛ وأن الولى دائماً فى سِتْر حاله، غير أن الكون كله ينطق عن ولايته، بينما المدعى ينطق بالولاية والكون كله ينكر عليه. ويعتبر الترمذى الاستهانة بالأولياء من قلة المعرفة بالله، وأنه من المستحيل أن يصل العابد إلى مقام الولاية وهو غير المحترم لأهله، وأن قلة الاحترام هذه من شأنها أن تحرمه بركات المقام. والترمذى فى تآليفه يقول إنه لا يكتب حرفاً عن تدبير، ولا لينسب إليه شيء منه، وإنما كلما اشتد عليه وقته فإنه يكتب للتسلية، والناس فى الاستماع إليه أو الاستماع إلى الحكمة رجلان، أحدهما عاقل يتعجب لما يسمع ويشتهى ما يسمع، والآخر عامل يتقلب مما يسمع وكأن قلبه منه صار حَيّة تتلوى. **والصلاح** الذى يرجوه للناس هو خمسة أصناف، **ورجاؤه** لهم فى خمسة مواطن، فصلاح الصبيان يكون فى إلحاقهم بالكُتّاب، وصلاح قطّاع الطرق يكون فى السجن، وصلاح النساء يكون بأن يقرن فى بيوتهن، وصلاح الفتيان فى التعلم والأخذ بالعلم، وصلاح الكهول بأن يؤموا المساجد ويعمروها. ويقول الترمذى إن المؤمن بِشْره فى وجهه، وحزنه فى قلبه، ولكن المنافق حزنه فى وجهه وبشره فى قلبه. والمنافق أخطر من الكافر. وينصح لذلك **مريديه** بأن يجعلوا مراقبتهم لمن لا يغيب نظره عنهم، وشكرهم لمن لا تنقطع نعمه عليهم، وخضوعهم لمن لا يخرجون عن مُلكه وسلطانه. **ويقول لمريديه:** إن حقيقة محبة الله فى دوام الأُنس بذكره، والعاقل من اتقى ربه وحاسب نفسه، وليست مخالفة الله وترك المواظبة على ذكر القلب لله إلا بسبب اعوجاج الباطن. والقلب والوقت هما رأس مال المريد، فلو شغل قلبه بهواجس الظنون وضيّع وقته بالاشتغال بما لا يعنيه فإنه يخسر رأس المال، والخاسر لرأس مال متى يكون إذن رابحاً.

ولا يعرف تاريخ وفاته بالضبط ولكنه قيل نحو ٣٢٠هـ.

التُسْتَرى

أبو محمد سهل بن عبدالله التسترى، نسبته إلى تُسْتَر من خوزستان، سكن البصرة وعبادان، وطريقته تسمى **السهلية** كما يقول الهجويرى فى كشف **المحجوب**، وأساسها المجاهدة ورياضة النفس ومراقبتها ومخالفتها كسبيل للخلاص والنجاة والوصول. وكان سهل يعيش على الشعير، يشترى منه بدرهم فيطحنه ويُخبز له ويفطر منه عند السحر كل ليلة على أوقية واحدة بغير ملح ولا إدام، فكان الدرهم يكفيه سنة، ثم عزم على

أن يطوى ثلاث ليال ثم يفطر ليلة ، ثم خمساً ، ثم سبعاً ، ثم خمساً وعشرين ليلة ، واستمر على ذلك عشرين سنة فى ابتدائه ، وكان يقوم الليل كله . ويروى سهل **أصل تصوفه وطريقته** فيقول إنه وعى على الحياة يرى ، وهو بعد طفل ابن ثلاث سنوات ، خاله محمد بن سوار يقوم بالليل ، فيظل يرقبه ، فيشغل خاله بيقظته ، ويطلب إليه أن يذهب لينام . وقال له يوماً : يا سهل ، ألا تذكر الله الذى خلقك ، فقال له : وكيف أذكره ، فأجاب : قل بقلبك عند تقلبك فى ثيابك ثلاث مرات ، من غير أن تحرك لسانك : **الله معى ، الله ناظرٌ إلىّ ، الله شاهدٌ علىّ .** فظل سهل يقول ذلك ثلاث ليال ثم أعلمه ، فقال له : قل فى كل ليلة إحدى عشرة مرة ، فقال سهل ذلك فوقعت فى قلبه له حلاوة ، فلما كان بعد سنة قال له خاله : احفظ يا سهل ما علّمتك ، ودُم عليه إلى أن تدخل القبر، فإنه ينفعك فى الدنيا والآخرة . يقول سهل : فلم أزل على ذلك سنين فوجدت لها حلاوة فى سرّى ؛ ثم قال له خاله يوماً : يا سهل ، من كان معه الله ، وهو ناظر إليه ، وشاهده ، أيعصيه ؟ إياك والمعصية يا سهل ! ويقول سهل عن حياته فى طفولته أيضاً : مضيت إلى الكتّاب وأنا ابن ست سنوات أو سبع ، وكنت أصوم الدهر، وقوتى خبز الشعير، إلى أن بلغت اثنتى عشرة سنة فبدأت السفر طلباً للعلم .
يقول سهل : شكر العلم العمل ، وشكر العمل زيادة العلم . والعيش على أربعة أوجه : عيش الملائكة فى الطاعة ، وعيش الأنبياء فى العلم وانتظار الوحى ، وعيش الصديقين فى الاقتداء ، وعيش سائر الناس عالماً كان أو جاهلاً ، زاهداً كان أو عابداً ، فى الأكل والشرب . **ويقول :** لا معين إلا الله ، ولا دليل إلا رسول الله ، ولا زاد إلا التقوى ، ولا عمل إلا الصبر . لقد أيس العلماء والحكماء من هذه الثلاث خِلال : مُلازمة التوبة ، ومتابعة السُنّة ، وتَرْكُ أذى الخلق : والذى يلزم الصوفى ثلاثة أشياء : حِفْظُ سرّه ، وأداء فرضه ، وصيانة فقره . والأصول سبعة : التمسك بكتاب الله تعالى . والاقتداء بُسنّة رسوله ﷺ ، وأكل الحلال ، وكف الأذى ، واجتناب الآثام ، والتوبة وأداء الحقوق . وكان رحمه الله يقول عن نفسه أنا حجة الله على الخلق ، وأنا حجة على أولياء زمانى ، فبلغ ذلك جماعة من أكابر الصوفية فذهبوا إليه وسألوه : إنك تقول أنا حجة الله على الخلق ، وأنا حجة الله على أولياء زمانى ، فبماذا صرت ؟ هل أنت نبى أو صدّيق ؟ فقال سهل : لم أذهب حيث ظننتم ، ولست أنا نبياً . إنما قلت هذا لأننى صححت أكل الحلال دون غيرى ، وقسمت عقلى ومعرفتى وقوتى على سبعة أجزاء ، فأترك الأكل حتى يذهب منها ستة أجزاء ويبقى جزء واحد ، فإذا خفت أن يذهب ذلك الجزء وتتلف معه نفسى ، أكلت بقدر البلعة خوفاً أن أكون أعنت على نفسى ،

ولترُد عليّ الستة الأخرى، فبهذا صحّ ليّ الحلال. فقالوا: نحن لا نقدر على المداومة على هذا، ولا نعرف أن نقّسم عقولنا ومعرفتنا وقوتنا على سبعة أجزاء، واعترفوا بفضل سهل. **وكان رحمه الله يقول:** يأتى على الناس زمان يذهب الحلال من أيدى أغنيائهم، وتكون أموالهم من غير حلها، فيسلّط اللهُ بعضهم على بعض، يعنى بالأذى والمرافعات عند الحكام، فتذهب لذة عيشهم، ويلزم قلوبهم خوف فقر الدنيا، وخوف شماتة الأعداء، ولا يجد لذة العيش إلا عبيدهم ومماليكهم، وتكون ساداتهم فى بلاء وشقاء وعناء وخوف من الظالمين، ولا يستلذ بعيش يومئذ إلا منافق، لا يبالى من أين أخذ، ولا فيما أنفق، ولا كيف أهلك نفسه، وحينئذ تكون رتبة القراء رتبة الجُهّال، وعيشهم عيش الفُجّار، وموتهم موت أهل الحيرة والضلال. وأما صفوة الله من خلقه، فالدنيا حرام عليهم أن ينالوا منها شيئاً، وكما حرّم الله على الخلق أن يأكلوا من صيد الحرم، ومن أكل منه لزمته الفدية، فكذلك من أكل من أهل صفوته شيئاً من الدنيا ليس له فدية إلا ترك الطاعات. إنما حُجبَ الخلقُ عن مشاهدة الملكوت وعن الوصول، بسوء المطعم وأذى الخلق. **وكان يقول لأصحابه عن طريقته:** ما دامت النفس تطلب منكم المعصية فأدّبوها بالجوع والعطش، فإذا لم ترد منكم المعصية، فأطعموها ما شاءت، واتركوها تنام من الليل ما أحبت. **وسألوه:** والجائع الذى لم يطعم الطعام لأيام كثيرة، كيف يطفىء لظى جوعه، فقال: بنور القلب. **وقال:** حياة القلوب التى تموت يكون بذكر الحى الذى لا يموت. ومات رحمه الله بتُسْتَر غالباً سنة ٢٨٣ هـ. ومن أصحابه **أبو عبد الله محمد بن أحمد بن سالم البصرى**، وهو راوى كلامه ولا ينتمى إلى غيره من المشايخ، وله تلاميذه الذين ينتسبون إليه وإلى ابنه **أبى الحسن**، وسار على نهجه وسلك مسلكه، وسألوه أنحن مستعبدون بالكسب أو بالتوكل، فقال التوكل حال رسول الله ﷺ، والكسب سنته، واستّن الكسب للضعفاء عن حال التوكل، فمن أطاق التوكل فغير مباح له كسب يعتمد عليه، ومن ضعف عن التوكل أبيح له طلب المعاش فى كسبه لئلا يسقط عن درجة سنته حيث سقط عن درجة حاله. ومن توكل على الله ملأ قلبه نور الحكمة وكفاه كل هم وأوصله إلى كل محبوب فإنه عز وجل يقول ومن يتوكل على الله فهو حسبه، أى هو القائم له بكل كفاية.

ويبدو أن **فرقة السالمية** تنتسب إلى أبى الحسن وليس لابن سالم الأب، ومصدر الخلط فى حقيقة نسبة أقوال هذه الفرقة لابن سالم الأب أن الجميع كانوا إذا نسبوا الأقوال للأب أو للابن أشاروا إليهما باسم **ابن سالم**. ولقد أدرك أبو الحسن التسترى ورصد له إجاباته على خمسة آلاف سؤال وُجهت إليه ونشرت الأسئلة والإجابات عليها

ضمن تراث فرقة السالمية. وأورد عبدالقادر الجيلانى عشر مقالات للسالمية وردّ عليها ووصفها بأنها فرقة ضالة. وأورد ابن الفرّاء ست عشرة مقالة تتصل جميعها بمسائل مثل رؤية الله والتجلى والحقيقة المحمدية ومواقف بعض الكفّار. وكانت وفاة ابن سالم سنة ٢٩٧هـ، أما ابنه فتوفى غالباً عام ٣٦٠هـ.

■ ■ ■

التفتازانى

شيخ الطريقة الغنيمية وشيخ مشايخ الطرق الصوفية فى مصر، أبو الوفا، من مواليد كفر الغنيمى شرقية فى ١٤ إبريل سنة ١٩٣٠، وهو الدكتور واستاذ الجامعة ورئيس قسم الفلسفة، والذى أسهم فى إنشاء أقسام للفلسفة بجامعات بيروت وقطر وعمان والكويت، وله البحوث والمؤلفات فى الفلسفة الإسلامية والتصوف، ومن ذلك كتابه عن **ابن سبعين**، ومؤلفاته عن **ابن عطاء الله السكندرى**، **والإنسان والكون فى الإسلام**، **والمدخل إلى التصوف**. وكان التصوف مدار حياته منذ شبابه، وتخصصه الأكاديمى فيه، **والطريقة الغنيمية** التى رأسها إحدى الطرق الخلوتية، مؤسسها الشيخ الغنيمى بن سلامه المتوفى سنة ٥٠٣هـ، وضريحه فى كوم حلّين مركز منيا القمح، وقد خلف التفتازانى أباه عليها، وفلسفته أساسها الجمع بين العلم بالكون والتصوف من حيث هو قيم أخلاقية رفيعة ونزعة روحية مثالية تهدف إلى النفاذ إلى الحقيقة، والعالم أو الفيلسوف أو الصوفى الذى يستطيع ذلك يصل إلى ذروة الكمال. والتصوف الحقيقى علاج للفرد وللمجتمع، فهو يجنّب الفرد شروراً كثيرة على رأسها الغرور بنفسه وبعلمه وبإمكانياته، وهو فى نفس الوقت يحدث فى المجتمعات التى تسودها فلسفات مادية نوعاً من التوازن بين مطالب المادة ومطالب الروح.

والتصوف منهج كامل فى الحياة، والصوفى المحقق هو الذى لايرى تعارضاً بين حياته التعبدية وحياة المجتمع الذى يعيش فيه، بل هو الذى يستعين بحياة التعبد على حياة المجتمع وما فيها من مشقة وكفاح، والتصوف بهذا المعنى **فلسفة إيجابية** تضفى على حياة الإنسان معنى سامياً، ولهذا لاينبغى أن يظن بأن الصوفية قوم سلبيون يصرفون الناس عن الكون المادى وعلومه إلى الإغراق فى العبادة والانعزالية عن المجتمع، فهذا تصور غير صحيح بالنسبة لصوفية الإسلام، فالتصوف الإسلامى يعبر عن قيم الإسلام، والإسلام دين جامع بين العمل الدنيوى والعمل الأخروى، ولا يصرف الناس عن

الأخذ بأسباب الدنيا وخيراتها . ونظرة صوفية الإسلام إلى الكون والإنسان ذات مغزى أخلاقي بعيد ، فهم يريدون أن يبينوا للناس أن الكون مجرد شأن من شئون الله ، ومصيره حتماً إلى الفناء ، فلا ينبغى للإنسان أن يتعلق نفسياً بالكون إلى حد العبادة ، ولا أن يغتر بنفسه وبعلمه ، ولابد من تطهير القلب من أخلاقياته الذميمة ، والتعلق بالأغيار العدمية ، ولابد أن يتفكر الإنسان فيما يشاهده فى الأكوان من دلالات على وجود الله . والصوفية يرون أن العالم المادى ليس غاية فى ذاته وإنما وراء علة صنعه حكمة مدبرة ، وكل ما فى الكون ناطق بوحدانية الله . ويعتبر الصوفية الوقوف مع موجودات هذا الكون مع الغيبة عن إدراك المكون مما لا يليق بالإنسان ، لأن كل ما فى هذا الكون ناطق بوجوده تعالى ، وليس ثمة حجاب بين الإنسان والله ، لأن الله متجلّ فى الموجودات على اختلافها ، والحجاب فينا نحن ، وفى شهواتنا وأهوائنا ، ولو تخلصنا منها لبدت الحقيقة واضحة كشمس النهار ، وبهذا أيضاً تتحقق حريتنا الجديرة بنا . والصوفية لا يمكن أن يزهدوا فى الكون ، لأنه مظهر تجليات الله بصفاته المختلفة كالعلم والحكمة والقدرة والخلق والتدبير ، ولا يمكن أن يهونوا من شأن الإنسان ، لأنهم يعلمون أنه خليفة الله على الأرض ، ولابد أن لكلامهم عن الكون والإنسان غايات بعيدة ، لأنهم يريدون للإنسان فى علاقته بالكون أن يكون خاضعاً لقيم أخلاقية معينة . وهم كأطباء النفوس يعلمون الكثير عن نواحي الضعف الخُلقى فى الإنسان ، فيريدون له أن يتحرر من عبودية الركون إلى العالم المحسوس وملذاته لينطلق إلى فضاء المعرفة بخالقه . وهو صورة مصغرة للكون كله ، جامعة لأسراره ، والكون المادى وإن وسعه من حيث جسمه المادى إلا أنه لا يسعه من حيث حقيقته الروحانية . والامتزاج الحقيقى بين الصوفى ورجل العلم هو قمة السمو ، وهو شىء يمكن تحققه فى عالم الفكر . ولقد حققه التفتازانى فى نفسه .

■ ■ ■

التفتازانى (سعد الدين)

مسعود بن عمر بن عبدالله التفتازانى ، وشهرته سعد الدين التفتازانى ، ولد سنة ٧٢٢ هـ بتفتازان من بلاد خراسان ، وأقام بسرخس ، وأبعده تيمورلنك إلى سمرقند فتوفى فيها سنة ٧٩٣ هـ ، وله المصنفات الكثيرة فى المنطق والكلام والأصول ، وقد تناول الصوفية وابن عربى بالذات والقائلين بمذهب وحدة الوجود فى رسالة طويلة يعارض كتاب **فصوص الحكم** ، وهو يقول فيها إن هذا الكتاب هو **نقيض الحكم**

وليس فصوص الحكم، وهو ضلال الأمم حيث يزعم أن مالا يدركه العقل من الأمور الإلهية يمكن أن يظهره الكشف الصوفي ويوضحه، وأن الكائنات من سوى الله يضمحل وجودها في نظر العارفين الواصلين إلى درجة الفناء في الفناء في التوحيد عند تجليات أنوار الواحد، اضمحلال نور الكواكب مع وجودها عند ظهور نور الشمس في النهار، فلا يشاهدون في تلك الحال غير وجود الله من الأشياء، كما لا يشاهدون في النهار غير الشمس من كواكب السماء، ويسمون انفراد مشاهدة الله من بين الموجودات للذهول عنها **بالوحدة المطلقة** التي هي نهاية درجات أهل المعرفة، وهو ما يزعمه هؤلاء الكفرة الوجودية، واعتقادهم الذي **معناه أن وجود الكائنات، حتى وجود الخبائث والقاذورات، هو الله تعالى،** تعالى الله عما يقول الظالمون، وأن ذوات الممكنات من الأرض والسماوات وما بينهما هي سراب وخيال ولا حقيقة لها كما كان يقول **السوفسطائية،** ويروجون لتلك السفسطة النافية لدين الإسلام، بإحالته إلى **الكشف** بدعوى أن الكشف من المجريات التي تقع وراء طور العقل، وأن عظماء الملة ورءوساء الإسلام وأئمته لم يصلوا إلى الكشف لأنهم ظاهريون، وسموا زندقتهم علم الحقيقة. وزعم ابن عربي أن الدين لم يكمل، وأن الولي هو المنوط به الإكمال بمكاشفاته، والزيادة على الكمال نقص، وقد أجمع أهل العلم على أن صرف النصوص عن ظواهرها إلى معان يدعيها الباطنية زندقة وإلحاد. ويتضمن **مذهب وحدة الوجود** كما يعرضه مروجوه فلسفات دهرية ومعطلة وسوفسطائية، ولم يكن التجاؤهم إلى دعوى الكشف إلا لأنهم عجزوا عن إقامة البرهان. وقولهم أن **الله تعالى هو الوجود المطلق** هو قول باطل مبني على أصول باطلة، وهو نفس ما يذهب إليه الملاحدة، وجميعهم يكذبون قواعد البراهين العقلية ويدعون الألوهية بطريقة أو بأخرى، كزعم من زعم منهم أنه الحق أو طنطنته قائلاً سبحاني، وقولهم أن من عبد الأصنام فقد عبد الله سوى أنه أخطأ في طريق العبادة، أو أن عبدة العجل أصدق في عبادتهم من موسى، واتخاذهم للعجل إلهاً كانوا فيه مصيبين لكنهم في عبادتهم مخطئون. (أنظر البقاعي)

■ ■ ■

التلمساني (العفيف)

سليمان بن علي بن عبد الله بن علي، يقال له عفيف الدين التلمساني، ويلقب بالعفيف التلمساني، وله شرح على **مواقف النفري**، وشرح على **فصوص الحكم لابن عربي**، وشرح على **منازل السائرين للهروي**، وقد اتهمه خصومه بأنه من أتباع **ابن عربي** ومن القائلين **بوحدة الوجود**، ولكن **الإمام ابن تيمية** كان يرى أن

التلمسانى **أشد كفراً**، فلقد كان ابن عربى يحض على مكارم الأخلاق ولكن «**الفاجر التلمسانى الملقب بالعفيف**» كان يتفلسف كاستاذه **الصدر الرومى**، ولهذا الأخير كتاب عنوانه «**مفتاح غيب الجمع والوجود**» يميز فيه بين الوجود المطلق أى الوجود بالاسم كما نقول الحيوان، ونعنى بذلك الحيوان على إطلاقه، والوجود المتعين أو العينى، أى هذا الوجود فى الخارج متجسداً فى هذا الحيوان أو ذاك. ويقول الرومى إن وجود الله المطلق هو نفسه وجود الأعيان، فلا شىء موجود على الحقيقة اسمه الله، ولكن وجوده هو هذا الوجود المتجسد فى المتعينات. وأما **الفاجر التلمسانى** فهو **أخبث من ابن عربى** الذى يقول إن وجود المحدثات أو المخلوقات هو عين وجود الخالق، وأشد **خبثاً من الرومى** الذى بمقتضى مذهبه فإن ذات الكلب والخنزير والبول والعذرة هو عين وجوده تعالى، لأن التلمسانى ليس عنده إلا «**ما ثَمّ غيرٌ ولا سِوَىً**» فالعبد إنما يشهد السوى ما دام محجوباً، فإذا انكشف حجابه رأى أنه ما ثم غير، ولذلك فكل الأمور عنده سواء، وكل المحرمات عنده حلال، ولا يوجد المحرم أصلاً، فالمحرم هو ما حرموه هم على أنفسهم، والبنت بمنزلة الأم، وبمنزلة الأجنبية، وكلهن شىء واحد، بمعنى أنثى يمكن أن تؤتى، وليس فى ذلك حرام، والقائلون بالحرام يقولون ذلك لأنهم ما يزالون محجوبين ولم يعرفوا. وكان يقول القرآن كله شرك وليس فيه توحيد، وإنما التوحيد هو الكلام الذى يقوله هو. وكان يحتج بأن شريعته ليست شريعة واحدة، فإذا أحسن القول قال القرآن يوصل إلى الجنة، ولكنه هو يوصل إلى الله، وله شروح للأسماء الحسنى على هذا المنوال. وله شعر غزلى كان يشرحه شرحاً صوفياً على طريقته، وقالوا فيه إنه شعر بحسب الصنعة كان جيداً، ولكنه كما قيل **لحم خنزير فى طبق صينى**.

والتلمسانى ينسب إلى تلمسان، وكان ميلاده بها سنة ٦١٠ هـ، ويرجع أصله إلى إحدى عوائل الكوفة كما يقول، وتنقل كثيراً فى البلاد، وأقام لفترة فى مصر، وفيها أنجب ابنه محمد (سنة ٦٦١ هـ) المشهور **بشمس الدين التلمسانى**، وكان شاعراً مثله، وإن قيل إنه أشعر منه، وكان يلقب **بالشاب الظريف لميله إلى المجون**، وشعره فيه تشبيب بالنساء والغلمان، وحاول اتباع أبيه تفسيره تفسيراً صوفياً، وله غير ذلك «**فصاحة المسبوق فى ملاحة المعشوق**»، و«**مقامات العشاق**»، وكان أبوه يقول فى ذلك إن إفراط شمس يعينه على أن يكون **صوفياً متحققاً على طريقة الملامتية**، أى ادعاء الفجور والظهور بمظهره والتقوى والورع فى باطنه، غير أن إفراطه ذاك عجل

بموته وهو فى السابعة والعشرين ، أى سنة ٦٨٨ هـ ، قبل موت أبيه بعامين ، أى سنة ٦٩٠ هـ . ومن شعره الصوفى :

أحلى الهوى أن يطول الوجد والسقم ... وأصدق الحب ما حلّت به التهم
ليت الليالى أحلاماً تعود لنا ... فربما قد شفى داء الهوى الحلم

ويقول :

يا غائبين ووجدى حاضر بهم ... وعاتبين وذنبى فى الغرام هم
بنتم فلا طرف إلا وهو مضطرب ... شوقاً ولا قلب إلا وهو مضطرم

ويقول :

أبداً بذكرك تنقضى أوقاتى ... ما بين سمّارى وفى خلواتى
يا واحد الحسن البديع لذاته ... أنا واجد الأحزان فيك لذاتى
وبحبك اشتغلت حواسى مثلما ... بجمالك امتلأت جميع جهاتى
حسبى من اللذات فيك صبابة ... عندى اشتغلتُ بها عن اللذات
ورضاى أنى فاعل برضاك ما ... تختار من محوى ومن إثباتى
يا حاضراً غابت له عشاقه ... عن كل ماض فى الزمان وآت
حاسبت نفسى فلم أر واحدا ... منها خلا وقتاً من الأوقات

■ ■ ■

التوحيدى (أبو حيان)

على بن محمد بن العباس التوحيدى ، قيل اسمه **التوحيدى** لأن أحد أجداده كان يتاجر فى تمر مخصوص اسمه **التوحيدى** ، وقيل إن اسمه التوحيدى لأن مذهبه فى التصوف يقوم على **التوحيد الخالص** ، ومع ذلك فإنهم اختلفوا فى تقويم هذا المذهب ، فجماعة قالوا فى التوحيدى إنه **شيخ الصوفية وفيلسوف الأدباء** ، وجماعة أخرى اتهموه بالزندقة حتى لقد قال فيه **ابن الجوزى : زنادقة الإسلام ثلاثة : ابن الراوندى والتوحيدى والمعرى ، وأشرهم التوحيدى لأن المعرى وابن الراوندى صرحاً بالزندقة وهو لم يصرح** . ولعل ذلك لأن التوحيدى عرض آراءه بغموض ، وقالوا فيه بل عرضها

بدهاء وقيل إنه رغم أن له ستة كتب فى التصوف هى «**الإشارات الإلهية**»، و«**رياض العارفين**»، «**والحج العقلى إذا ضاق الفضاء عن الحج الشرعى**»، و«**رسالة فى أخبار الصوفية**»، و«**الرسالة الصوفية**»، و«**المحاضرات والمناظرات**»، فإن أخلاقه الشكسة واستعلاءه جعلاه يعيش فى ضائقة وفاقة وينصرف الناس عنه. وكان يتعيش من النسخ، وواصل الوزير ابن العميد، واستخدمه الوزير ابن عبّاد، فلم يرتاحاً إليه، وفصله ابن عبّاد من خدمته، فهجاهما فى كتاب «**مثالب الوزيرين ابن العميد وابن عباد**»، ولعل هذا الكتاب هو الذى أساء إليه كثيراً حتى ما عاد الناس يصدقون تصوفه، ودرج المؤلفون على أن لا يضموه إلى قائمة الصوفية فى زمنه. ويذكر المؤرخون أن الوزير المُهلّبى كان وراء اضطهاده واتهامه بالزندقة. وأساس التهمة أنه كان رغم تصوفه يتابع الفلاسفة، ويحضر مجالس مشايخ الصوفية وأعلام الفلسفة فى وقته، وعرفوا عنه حضوره عند **يحي بن عدى**، واستهامه أفكار وأقوال **أبى سليمان المنطقى**، وقيل إن أبا سليمان هو ملهمه كتابه **المقابسات**، بل كل كتبه، وأنه جعله لذلك الشخصية المتحدثة الأولى فى هذا الكتاب. وكان أبو سليمان على **مذهب الأفلاطونية المحدثة** مما يحذره الصوفية والفقهاء، إلا أن كتبه الصوفية تخلو من أى أثر لذلك، وليس كتابه **الإشارات الإلهية**، وهو أهمها، سوى دعوات وعظات وشرح لبعض المصطلحات الصوفية، إلا كتاب **الحج العقلى** فإنه يذكر بأقوال الحلاج ورابعة العدوية وغيرهما ممن تحدثوا فى هذا الحج دون الحج على الحقيقة. ولا نكاد نعرف شيئاً على اليقين عن ميلاد وموطن التوحيدى، ويبدو أنه ولد بين سنتى ٣١٠ و٣٢٠هـ فى نيسابور أو شيراز، إلا أنه تعلم فى بغداد واستقر بها، ويبدو من كتاباته وأحواله النفسية أنه كانت تتراوحه أحوال من البسط والقبض، والسرور والاكتئاب، وأن ذلك تمثل فى تصويره للأشخاص، فكان يروى النوادر عنها، ويرسمها فى صورة هزلية، أو يعلى من شأنها، وكتاباه «**المقابسات**» و«**الإمتاع والمؤانسة**» كما قيل فيهما، كنزان من كنوز المعرفة عن الحياة العقلية فى زمنه بكل اتجاهاتها الدينية والفلسفية والثقافية. ويبدو أنه فى آخر حياته أصابه اكتئاب لم يشف منه، واعترته لوثة اضطهاد فعمد إلى كتبه فأحرقها، بدعوى أنه عاش مهملاً فى حياته، ولا ينبغى أن يفيد منها أحد من بعده، ولم ينج منها إلا ما كان قد نُقلَ قبل الإحراق. وهناك من يؤكد أن قبر التوحيدى بجهة شيراز، ويحدد وفاته بسنة ٤١٤هـ. وقيل فى كتابه الإشارات الإلهية، وأصل تسميته «الإشارات الإلهية والأنفاس الروحانية» أنه ربما ينتمى للمرحلة الأخيرة من عمره، وأنه كتبه للتعبير عن توبته،

والكتاب درة من درر الآداب العالمية نهج فيه التوحيدى على منهج المناجاة وليس نظير فى ذلك إلا كتاب مناجاة الفرد الكامل للصدر القونوى، ويوجه فيه الخطاب إلى الله، ومن ذلك قوله: اللهم إنا نسألك ما نسأل لا عن ثقة ببياض وجوهنا عندك وحسن أفعالنا معك وسوالف إحساننا قبلك، ولكن عن ثقة بكرمك الفائض وطمعاً فى رحمتك الواسعة. نعم وعن توحيد لا يشوبه إشراك ومعرفة لا يخالطها إنكار. وإن كانت أعمارنا قاصرة عن غايات حقائق التوحيد والمعرفة، فنسألك أن لا ترد علينا هذه الثقة بك فتشمت بنا من لم تكن له هذه الوسيلة إليك. يا حافظ الأسرار، ويا مسبل الأستار، ويا واهب الأعمار، ويا منشىء الأخبار، ويا مولج الليل فى النهار، ويا مصافى الأخيار، ويا مدارى الأشرار، ويا منقذ الأبرار من النار والعار. عُد إلينا بصفحك عن زلاتنا، وأنعشنا عند تتابع صرعاتنا وخطر حالنا معك فى اختلاف سكراتنا وصحواتنا، وكن لنا وإن لم نكن لأنفسنا، لأنك أولى بنا، فامزج خوفنا منك برجائنا فيك. وإذا غلب علينا يأسنا منك، فتلقه بالأمل فيك. بَشّرنا عند توجهنا نحوك بالوصول إليك. متّعنا بالنظر إلى نور وجهك. أسبغ علينا نعمتك بما وهبت لنا من توحيدك!

■ ■ ■

إبن تيمية

أحمد بن عبد الحليم بن عبد السلام بن عبد الله بن الخضر بن محمد بن تيمية، الحرّانى نسبة إلى حرّان بالشام (٦٦١ ـــ ٧٢٨ هـ). وهو الإمام النابه رأس المدرسة السلفية، **وكان يهاجم التصوف ليس بما هو تصوف، وإنما يهاجم ما جرى فيه من انحرافات، وموقفه فى هذا كموقف كبار الصوفية أنفسهم الذين غلّطوا الانحرافات كالسراج والسلمى وغيرهما.** وابن تيمية نفسه كانت نشأته نشأة المتصوف الزاهد فى ملبسه ومأكله، وكان فى بدايته يغشى مجالس الصوفية، إلا أنه من شبابه الباكر كان يرفض سماعهم ورقصهم ولا يوافق عليه، فكانوا إذا ألحوا عليه فى الحضور أفردوا له مكاناً وحده يرقبهم ولا يشاركهم، وأثنى عليه كثير من مشايخهم، كالواسطى شبيه الجنيد، الذى قال إنه لم ير مثيلاً لابن تيمية، علماً وعملاً وحالاً وخلقاً واتباعاً وكرماً وحلماً، وطلب من تلاميذه أن يلزموه عسى الله أن يرزقهم قسطاً من نصيبه المحمدى معه فإنما ذلك يسرى بواسطة محبة الشيخ للمريد، واستجلاب المريد لمحبة الشيخ، بموافقته وحفظ قلبه وخاطره، إلا أن ابن تيمية كان **عدواً للابتداع**،

وهاجم لذلك من منطلق سلفى حنبلى كل الفرق الإسلامية كالخوارج والمرجئة والرافضة والقدرية والمعتزلة والجهمية والكرامية والأشعرية، وانتقد الفلاسفة انتقاداً شديداً، ومنهم ابن سينا، وحتى **الغزالى** فى كتبه التى زخرت بالآراء الفلسفية مثل كتابه المنقذ من الضلال، وعاب على الصوفية أنه قد انتسب لهم طوائف من الزنادقة وغيرهم **كالحلاج** مثلاً، فإن أكثر مشايخ الطريق قد انكروه وأخرجوه عن الطريق، مثل الجنيد بن محمد شيخ الطائفة، غير أن الكثيرين من المتصوفة أوّلوا هذا الاتجاه عنده بالعداء التقليدى بين **الفقهاء والصوفية**، أو بين **السلفية والتصوف**، ومس هؤلاء **ابن عطاء الله السكندرى** الذى تزعم حملة كبيرة عليه استعدى فيها نحو الخمسمائة من أعضاء الطرق الصوفية فى مصر، وادعى عليه بادعاءات لم يثبت شىء منها، إلا أنها كانت سبباً فى حبس ابن تيمية، وقيل إن ابن عطاء كان مدفوعاً فى خصومته المغالى فيها بدوافع أخرى شخصية، فقد كان شيخ الطريقة الشاذلية فى مصر، وابن تيمية كانت له **مؤاخذات على أوراد الشاذلى**، قيل فيها إنه كان على حق، وأن ثورة ابن عطاء عليه لم يكن لها ما يبررها موضوعياً. ويبدو أن نقد ابن تيمية لبعض المتصوفة أفلحوا أن يجعلوه نقداً شاملاً للتصوف، ومن ذلك ما تذكره **دائرة المعارف الإسلامية** أنه هاجم المتصوفة وسلكهم والمتكلمين معاً فى جماعة واحدة. وقد تنبأ ابن تيمية بهذا اليوم الذى يشنّع فيه أعداؤه عليه بأنه يعادى التصوف، مع أن التصوف قد حظى منه بالدراسة كأى من فروع المعرفة الإسلامية، وله فيه عدد من الرسائل اعتمد فيها على دراسة أقوال كبار مشايخ الصوفية، ومن ذلك رسالته فى **التصوف**، وكتابه فى **السلوك** ضمن مجموعة **فتاويه**، وله «**التحفة العراقية فى الأعمال القلبية**»، يدرس فيها المقامات والأحوال ويُطريها، وأبدى فى كتبه الأخرى مثل «**درء تعارض العقل والنقل**»، و«**منهاج السنّة النبوية**» وغيرهما عناية كبيرة بإسهامات أكابر الصوفية لترسيخ التوحيد ودعم أسس العقيدة، من أمثال **الفضيل بن عياض ويوسف بن أسباط وسهل بن عبد الله التسترى وبشر الحافى وعبد القادر الجيلانى وعبد الله بن خفيف وأبى نعيم الأصبهانى ومعمر بن زياد الأصفهانى وأحمد بن أبى الحوارى وعمرو بن عثمان المكى والحارث المحاسبى**، وعدّهم ابن تيمية من أئمة السلف.

ويعرض ابن تيمية لأصل كلمة **الصوفية** ويرجح أن **الصوفى** منسوب إلى اللبسة، أى **لبس الصوف**، لأنها ظاهر حالهم، ويبين الخلاف فى الحكم عليهم، فطائفة ذمت الصوفية والتصوف وقالوا هم مبتدعون خارجون عن السنّة، وطائفة غلت فجعلت

طريقهم أفضل الطرق، والصواب أنهم يجتهدون فى طاعة الله، فنهم المذنب ومنهم التقى، وقد صاروا إلى ثلاث طبقات: **صوفية الحقائق، وصوفية الأرزاق، وصوفية الرسوم،** فأما صوفية الحقائق فهم الذين وصفناهم، وأما صوفية الأرزاق فهم الذين وُقِفَتْ عليهم الخوانق والوقوف، فلا يشترط فى هؤلاء أن يكونوا من أهل الحقائق. وأما صوفية الرسوم المقتصرون على التشبه بهم فى اللباس والآداب الوضعية، فهم بمنزلة الذى يقتصر على زى أهل العلم وهو ليس من العلماء.

وابن تيمية إذا كان لا يقر الانحرافات فإنه فى المقابل يقر **بكرامات الأولياء** التى يقول بها الصوفية، وهى حق باتفاق أئمة الإسلام والسُنة والجماعة، ودلّ عليها القرآن فى غير موضع، إلا أن ما ذهب إليه أهل البدع فيها من المعتزلة والجهمية وغيرهم ينكرها، كما ينكر من يدّعيها أو تُدّعى له كذباً ولَبساً عليه. وأيضاً فهى لا تدل على عصمة صاحبها، ولا على وجوب اتباعه فى كل ما يقول، **بل قد تصدر بعض الخوارق من الكشف وغيره عن الكفّار والسحرة بمواخاتهم للشياطين، ولهذا اتفق أهل أئمة الدين على أن الرجل لو طار فى الهواء أو مشى على الماء لم تثبت له الولاية ولا الإسلام حتى ينظر وقوفه عند الأمر والنهى.**

ويقول ابن تيمية إن **المواجيد** من السكر والواردات مما اشتهر عن الصوفية، إذا كانت أسبابها مشروعة، وصاحبها صادقاً وعاجزاً عن دفعها، كان محموداً على ما فعله من الخير، ومعذوراً فيما عجز عنه وأصابه بغير اختياره. وهم أكمل ممن لم يبلغ منزلتهم لنقص إيمانه وقساوة قلبه، ومن لم يَزِلّ عقله، مع كونه قد حصل له من الإيمان ما حصل لهم وأكمل، فهو أفضل منهم، وحاله هو حال الصحابة رضى الله تعالى عنهم أجمعين، وحال نبينا محمد ﷺ، فإنه أُسرى به ورأى ما رأى من آيات ربه الكبرى، وأصبح ثابت العقل لم يتغير، فحاله بلا شك أكمل من حال موسى الذى خرّ صعقاً لمّا تجلى ربه للجبل وجعله دكا. وحال موسى حال جليلة فاضلة عَليةٌ، لكن حال محمد ﷺ أفضل وأكمل وأعلى. ويقول ابن تيمية عن **المقامات والأحوال** إذا كانت فى إطار الدين دون تجاوز ولا مبالغة فهى أعمال القلوب ومن أصول الإيمان، ومثلها مثل محبة الله ورسوله والتوكل على الله والإخلاص والشكر له، ويُخَطىء من يدّعى أنها احتكار للخاصة، ويقرر أنها فرض على الأعيان باتفاق أهل الإيمان، وينكر ما ينسبه الصوفية إلى **الخضر والقطب الغوث** من أوصاف وأفعال خارقة، ويصف بالكفر ادعاءهم أن الغوث هو القطب الجامع فى الوجود، بمعنى أنه مَدَد الخلائق فى رزقهم،

ونصر لهم، ومدد الملائكة، وكذلك قول البعض إن الأرزاق تنزل من السماء باسم **غوث الوقت** الذى يُدعى «الخَضِر»، فهذا كله باطل، ولا أصل له فى كتاب الله ولا فى سّنة رسوله، ولا قاله أحد من السلف، ولا الأئمة، ولا مشايخ الصوفية المقتدى بهم. ومن رأيه أن **الخضر** قد مات، وليس للمسلمين من حاجة إليه، لأنهم أخذوا دينهم عن النبى ﷺ، وأن عامة ما يُحكى عنه إما كذب أو مبنى على ظن، ويدمغ بالكفر قول القائلين أن علم **القطب** من علم الله تعالى، وقدرته من قدرته.

وكان أشد هجوم وجّهه ابن تيمية للصوفية ما تضمنته رسالته **إلى الشيخ أبى الفتح نصر المنيجى** المتوفى سنة ٧٠٩ هـ، وفيها يحذر من الخائضين فى **مذهب الاتحادية والحلولية** ليدفع ضررهم عن أهل الطريق السالكين، ويشبّه الجهاد ضدهم بأنه كالجهاد ضد التتار، ويقول إنه كان قديماً يحسن الظن **بابن عربى** ويعظمه لما رأى فى كتبه مثل **الفتوحات والكُنه والمحكم** المربوط **والدرة الفاخرة ومطالع النجوم** من الفوائد، ولم يكن قد اطلع على كتابه **فصوص الحكم**، فلما تبين له مقصوده فى هذا الكتاب تصدى له بالنقد الشديد. ويقول ابن تيمية إن الكثيرين من الصوفية وقعوا فى **الاتحاد والحلول**، وهم صنفان، فقوم يخصون الحلول أو الاتحاد بالله فى بعض الأشياء أو المشايخ، وقوم يعُمون فيقولون بحلول الله أو اتحاده فى جميع الموجودات كما عند الجهمية ومن تبعهم من الاتحادية، كأصحاب **ابن عربى وابن الفارض والتلمسانى والبليانى** وغيرهم، ولم يسبق إلى ذلك أحد إلا من أنكر وجود الصانع، لأنهم يقررون **أن عين وجود الحق هو عين وجود الخلق، وأن وجود ذات الله ــ خالق السماوات والأرض ــ هو نفسه وجود المخلوقات**، فلا يُتصور عندهم أن يكون الله تعالى خلق غيره، ولا أنه رب العالمين، ولا أنه غنى وما سواه فقير. ويؤكد ابن تيمية أن شيوخ الصوفية المشهورين من أبرأ الناس من مذهب **وحدة الوجود**. ويقول عن **الحلاج** أنه إن كان قد تاب فى الباطن وقت أن قتلوه فإن الله ينفعه بتوبته، وإن كان كاذباً فى التوبة فإنه يكون قد قتل وهو كافر. ويدافع ابن تيمية مع ذلك عن **الحلاج** ويقول بأن الرسائل والكلمات التى نُسبت إليه هى فى الغالب منحولة عليه، وإن كانت صحيحة وصدرت منه بالفعل فالغالب أن يصدق عليها أنه قد غلب عليه الوجد والحال حتى عثر فى المقال ولم يدر ما قال، وكلام السكران يُطوى ولا يُروى، ومن ثم **فالحلاج المقتول شهيد، وقاتله مجتهد ومجاهد فى سبيل الله**، وعلى أى الأحوال، فالحلاج وغيره ممن لهم شطحات أدخلتهم ضمن زمرة الحلوليين والاتحاديين

لا ينبغى الاستشهاد بهم من الصوفية فى مجال العقيدة والتوحيد ، والأولى الاستشهاد بأقوال المشايخ مثل **الجنيد** ، والتوحيد الذى يقصد إليه صوفى كالجنيد هو نفسه ما اتفق السلف عليه ، والجنيد عندما يقول إن **التوحيد هو إفراد القديم عن المحدث** يعنى التوحيد فى القصد والإرادة وما يدخل فى ذلك من الإخلاص والتوكل والمحبة الخ ، وأن يفرد الحق سبحانه وتعالى بهذا كله فلا يشرك به محدثاً ، وذلك صحيح ويلحق بالتوحيد الذى بعث به محمد ﷺ ، وهو التوحيد الذى يميز بين الخالق والمخلوق ، وينزه القديم عن المحدث ، ولا يساوى بينهما فى النعوت ، ويزيل العلة عن الربوبية . وهو الذى يقوم الإيمان به على القول والعمل والنية . ولقد كان **إيمان الصوفية الكبار** من أمثال عبد الله بن المبارك وابن أسباط وابن عياض وغيرهم يقوم أيضاً على **القول والعمل والنية** ، وعلى مقولة أنه **يزيد وينقص** ، بخلاف من ادّعى من المتصوفة أن الإيمان وحده بدون العمل يكفى ، واسترسلوا مع القدر وجعلوا ذلك من باب التفويض والتوكل ، ولم يفرقوا بين ما أمر به الله ويرضاه وبين ما نهى عنه ويبغضه فسووا بينهما ، وانتهى الأمر بغُلاتهم والمنحرفين منهم أنهم أصبحوا لا يميزون بين الأوامر الشرعية وما يكون من الأحوال التى تجرى على أيدى الكفار والفجّار ، فيشهدون وجه الجمع بقضاء الله وقدره وإرادته العامة ، وأنه داخل فى ملكه ، ولا يشهدون وجه الفرق بين أوليائه وأعدائه . ويلتبس الأمر على البعض فيظنون أن الطريقة الكاملة هى ألاّ يكون للعبد **إرادة** أصلاً ، ويضربون المثل بقول البسطامى لمّا سألوه ، ماذا تريد فقال **« أريد ألا أريد »** فحملوا المعنى على أنه ترك الإرادة مطلقاً ، والواقع أن البسطامى لما قال ذلك تناقض ، لأنه بقوله قد أراد فعلاً وإن كان قد قال غير ذلك ، والغلط فى الإرادة أنهم يتكلمون على إرادتهم ويقصدون بها الإرادة الإلهية . وهم يغلطون من جهة الله تعالى فى كل شىء ، فهم مثلاً يقولون إن الله عندما **كلّم** موسى لم يكلمه بصوت ، لأن الصوت فعل ، وهم يثبتون الصفات لله وينفون عنه الفعل ، ومن يقول ذلك منهم عدو لله وللإسلام ، فإذا قال الله أنه كلم موسى فهو قد كلمه ، والغلط أنهم يقرنون كلام الله بالكلام عند البشر ، وليس الأمر كذلك ، فصوت الله ليس كصوت البشر ، لأنه ليس كمثله شىء .

وابن تيمية فى حملته على **ابن عربى** يبين أن مذهبه فى وحدة الوجود مبنى على أصلين ، **أحدهما** أن المعدوم قبل أن يوجد هو أيضاً شىء ، **والثانى** أن وجود الأعيان هو نفس وجود الحق وعينه ، واستدل ابن عربى على الأصل الأول بأن الله تعالى يقول

إنه إذا أراد شيئاً فإنما يقول له كن فيكون ، أى أن الشيء موجود قبل أن يكون ، وردّ عليه ابن تيمية أن الشيء الذى يريده الله أن يكون قد ثبت فى علم الله وقدره ولكنه لم يثبت كحقيقة وهو فى العدم . ويترتب على ذلك بالتبعية بطلان دعوى ابن عربى التى مضمونها أن الحقيقة المحمدية موجودة عيناً قبل الموجودات ، استناداً إلى أحاديث زعمها ابن عربى ، وبيّن ابن تيمية أنها مكذوبة ولا أصل لها ، من مثل القول المنحول على النبى ﷺ كنت نبياً وآدم بين الماء والطين ، كما بيّن تهافت الدعوى القائمة على الحديث السابق بوجود خاتم للأولياء يقابل خاتم الأنبياء ، وأنه كان أيضاً ولياً وآدم بين الماء والطين ، وردّد ابن تيمية أن الله سبحانه علم الأشياء وقدّرها قبل أن تكون ، فلا تكون موجودة بحقيقتها إلا حين توجد ، وأن تلك حقيقة يستوى إزاءها الأنبياء والأولياء وسائر المخلوقات ، فلا فرق ، ولكن الصوفية الذين يأخذون بالفلسفة ويقولون بالولاية ويحتجون لها بالأحاديث المنحولة ، يبلغ بهم أنهم جعلوا الولاية فوق النبوة ليجعلوا أنفسهم فى مرتبة أعلى من مرتبة الأنبياء ، وابن عربى يزعم أن لمحمد عليه الصلاة والسلام نبوة ورسالة وولاية ، وولايته فوق نبوته ورسالته ، لأن الولاية أعم وأشمل . ويزعم ابن عربى أن الرسل والأنبياء يتلقون لذلك من مشكاة خاتم الأنبياء ، فجعل خاتم الأولياء الذى يقول به أعلم من جميع الأنبياء والرسل ، بدعوى أن الرسالة والنبوة وقتيان ومآلهما إلى الانقطاع ، بينما الولاية لا تنقطع أبداً . ويرتب ابن عربى المقامات فيجعل مقام النبى فى برزخ فوق برزخ مقام الرسول ، بينما مقام الولى هو الأعلى . ويرد ابن تيمية بأن دعوى ابن عربى كدعوى الملاحدة الذين زعموا أن إمامة على بن أبى طالب من الأزل ، وأن مقامه يفضل مقام محمد عليه الصلاة والسلام ، وذلك باطل اتفق شيوخ الصوفية على معارضته ودحضه ، وعندهم أن الأنبياء والرسل مفضلون على الأولياء ، وأن أبا بكر وعمراً مفضلان على على بن أبى طالب ، وعلى كل الصوفية والزاعمين منهم الولاية ، وقد أجمعت أمة الإسلام على أن النبى ما نص على أحد يكون بعده ، وذلك يشمل علياً ، ولم يحدث أن استعمل السلف الصالح تعبير خاتم الأولياء ، وحتى لو كان ذلك وارداً فموجب اللفظ يعنى آخر مؤمن تقى من الدنيا ، لأن كل من كان مؤمناً فهو ولى من أولياء الله ، والمؤمن الذى يعيش لآخر لحظة فى الدنيا والذى يكون خاتماً للأولياء أو يختتم به الأولياء ، أى المؤمنون ، ليس هو أفضلهم ولا أكملهم ، فليس معنى خاتمهم أنه أفضلهم أو أكملهم ، بل إن أفضلهم وأكملهم هم السابقون من أصحاب محمد ﷺ ، وإذا كان ابن عربى وأتباعه يتمسكون بقصة الخضر مع موسى عليه السلام ، باعتبار الخضر ولياً ، وكان يعلم مالا يعلمه موسى ، وقد تابعه

موسى ليتعلم منه ما علمه من لدنه . فإن موسى كان على علم من الله لا يعلمه الخضر وهو الشريعة ، كما أن الخضر كان على علم لا يعلمه موسى أيضاً ، فإذا كان موسى قد انتقد الخضر لأنه قد ارتكب فعلاً تعاقب عليه الشريعة ، فإن الخضر لم يكن من الذين بعث الله إليهم موسى فيكون ملزوماً بشريعته التى جزاء القتل فيها أن يقتل القاتل ، ومع ذلك فالخضر لم يخالف الشريعة ، والأمور التى فعلها الخضر تبيحها الشريعة لو علم العبد أسبابها كما علمها الخضر من الله ، ولهذا فإنه لمّا بيّن له أسبابها وافقه موسى عليها ، وإذن فلا معنى لأن يكون الخضر الولى أعلم أو أفضل من موسى النبى وصاحب الرسالة .

ومع كل هذا النقد السابق وغيره فإن ابن تيمية يرى أن **ابن عربى أقرب القائلين بوحدة الوجود إلى الإسلام وأحسنهم كلاماً فى الكثير من المواضع** ، لأنه لم يخلط الظاهر بالمظاهر، وأقر الأمر والنهى والشرائع ، وأمر بالسلوك الصوفى على ما أمر به المشايخ من الأخلاق والعبادات ، ولهذا فإن الكثيرين من اتباع طريقته الأكبرية (نسبة إلى لقبه المشهور به وهو الشيخ الأكبر) يستعيرون سلوكهم من كلامه وينتفعون بجانبه الأخلاقى وإن لم يفهموا جانبه الميتافيزيقى أو الفلسفى . وأما غيره مثل صاحبه **الصدر الرومى** فكان متفلسفاً فَبَعُدَ عن الشريعة والإسلام ، وكذلك تلميذه الذى يطلق عليه ابن تيمية اسم « **الفاجر التلمسانى الملقب بالعفيف** » ، وقد ورد فى كتاب « **مفتاح غيب الجمع والوجود** » للرومى أن الله هو الوجود المطلق والمعين ، ويفرق الرومى بين المطلق والمعين ، فالحيوان مثلاً يوجد فى الخارج مطلقاً ، كما أنه يوجد متعيناً فى الحيوانات ، وكذلك الله وجوده مطلقاً ، ووجوده المتعين على الحقيقة فى الأعيان ، والوجود المطلق ليس وجوداً على الحقيقة ، ولا هو وجود أصلاً ، فلا حقيقة ولا ثبوت إلا نفس الوجود القائم بالمتعينات ، تماماً مثل الوجود المطلق للحيوان فهو ليس الوجود على الحقيقة ولكنه وجود بالاسم ، وإنما الوجود الحقيقى للحيوان هو هذا الحيوان أو ذاك متجسداً . وأما الفاجر التلمسانى فهو أخبث القوم وأعمقهم فى الكفر، فإنه لا يفرق بين الوجود والثبوت مثل ابن عربى ، ولا بين المطلق والمعين مثل الرومى ، ولكنه يقول : « ما ثَمّ غير ، ولا سِوَىً ، بوجه من الوجوه » ، وأن العبد إنما يشهد السِوَىَ ما دام محجوباً ، فإذا انكشف حجابه رأى أنه ما ثَمّ غير ، ولهذا كان يستحل كل المحرمات ، فالبنت والأم والأجنبية شىء واحد وليس فى ذلك حرام ، وإنما هؤلاء المحجوبون قالوا حرام ، فقلنا حرام عليكم . وكان يقول القرآن كله شِرك ليس فيه توحيد وإنما التوحيد فى كلامنا .

وأما **ابن سبعين**، فإنه فى كتابيه **بُد العارف، والإحاطة**، يقول أيضاً بوحدة الوجود، وأنه ما ثم غير. وكذلك **ابن الفارض** فى تائيته فإنه إن لم يصرح هل يقول مثل التلمسانى أو الرومى أو ابن عربى، إلا أنه إلى كلام التلمسانى أقرب، والتلمسانى هو أشدهم كفراً، وآخر يقال له **البلياني** من مشايخ شيراز، ومن شعره:

وفــى كــل شــىء لــه آيــة ... تــدل عــلــى أنــه عــيــنُــه

ومنه:

وما أنت غير الكون، بل أنت عينه ... ويفهم هذا السر من هو ذائقه

ومنه:

وتلتذ إن مرت على جسدى يدى ... لأنى فى التحقيق لست سواكم

ومنه:

مـا بـال عـيـسك لأيـقـرُّ قـرارُهـا ... وإلام ظـلُّـك لايـنـى مـتـنـقـلاً

فـلـسـوف تعلم أن سيرك لم يكن ... إلا إلـيـك إذا بـلـغـت المـنـزلا

ومنه:

مـا الأمـر إلا نـسـق واحـد ... مـا فـيـه مـن حَـمْـدٍ ولا ذم

وإنمـا الـعـادة قـد خَـصَّـصـت ... والـطـبـع والـشـارع فـى الحـكـم

■ ■ ■

ج

جامى (أحمد)

شيخ الإسلام شهاب الدين أبو نصر أحمد بن أبى الحسن النامقى (٤٤١ ــ ٥٣٦ هـ) ، ولقبه **زنده بيل ، أى ضخم الجثة كالفيل** ، ولد فى قرية نامق من قوهستان من أصول عربية ، وله **ديوان الشعر الصوفى** المشهور عنه ، ومؤلفاته فى التصوف « **أنس التائبين** » و« **سراج السائرين** » و« **فتوح القلوب** » و« **روضة المذنبين** » و« **بحار الحقيقة** » و« **كنوز الحكمة** » و« **مفتاح السائرين** » و« **رسالة سمرقندية** » وتسمى أيضاً « **سؤال وجواب** » وقيلت فى توبته عندما كان فى الثانية والعشرين أنه كان يقود حماراً يحمل عليه خمراً لمجلس شراب كان هو ضيفاً عليه ، ولكنه سمع هاتفاً يهتف به من أعماقه أنه لم يخلق لهذه الحياة ، فأهرق الخمر واعتزل الناس فى التلال لمدة اثنتى عشرة سنة ، يجاهد نفسه ويعودها على الرياضات **فى الزهد** والنسك والصوم والصلاة والسهر والذكر ، ثم رأى فى المنام أنه يستقر فى جبال بزدى بخراسان ، وفى قرية يقال لها **جام** ابتنى مسجد النور ، وصارت نسبته **الجامى** ، وكان يدعو الناس ، وقيل إن من تابوا على يديه بلغوا ستين ألفاً ، ثم انتقل إلى مَعَد آباد من أعمال جام أيضاً ، وابتنى خانقاه ومسجداً جامعاً ، ولما قارب الموت أوصى مريديه وأهله بأن يدفنوه خارج معد فى مكان عيّنه ، وأن يبتنوا فوق قبره مسجداً ورباطاً ، وأصبح قرية عامرة يقال لها تربت شيخ جام . والجامى لم يتلق التصوف عن شيخ من الشيوخ ، وإنما استنّه لنفسه وحدد طريقته ، وأقامها على الشريعة والسنّة المطهرة ، وقيل إنه كانت له صلات بشيخ يقال له **أبا طاهر** كان من تلاميذ **أبى سعيد بن أبى**

الخير، وقيل إن أبا طاهر هذا هو الذى ألبس الجامى خرقة أبى سعيد الذى أودعها إياه إلى أن يجد لها من تنطبق عليه شروطها، فلما انطبقت على الجامى علّمه أصولها. ويقوم **مذهب الجامى** فى التصوف على تخلية القلب من كل العلائق وتطهير النفس من الأدران، **ومراحل الرياضة النفسية** ثلاث هى النفس الأمارة والنفس اللوامة والنفس الملهمة ثم النفس المطمئنة. والجامى مر بالمراحل الثلاث وكابدها، وتميز الارتقاء الروحى أو المدرج السلوكى الروحى للجامى بالإلهام، **وتعاليمه** كما يقول أتته كلها بالإلهام. واطمئنان النفس تحقيقه اطمئنان القلب، والنفس المطمئنة هى غلاف القلب المؤمن، وغاية المجاهدة هى اطمئنان النفس والقلب، ووسيلة ذلك الذكر والمداومة عليه، والصبر على الجهاد. ولايقول الجامى بأن التصوف يتحقق به أن تكون للعبد صفات من صفات الله وكرامات وخوارق، فالكرامة التى يضفيها التصوف وعبادة الله تعالى هى الاستقامة على الطريق وأن **يخلص** العبد لله وتناله بركة الطمأنينة، وتلك هى الجائزة. والجامى كشاعر يوقع لذلك باسم **تخلص**، وله فى الشعر **خمريات وغزليات**، ويتحدث فى **الحب**، وكل ذلك من المطروقات عند الشعراء الفرس خصوصاً فى باب التصوف، ولكنه لا يدعى وهو فى مقام الحب أنه قد فنى عن نفسه فى الله، أو أن الناسوت فيه قد اختلط باللاهوت، فهو وإن كان يبث الله لواعج حبه له إلا أنه لا ينسى نفسه أبداً فى حضرته، ويظل يذكر أنه فى حضرة ذى الجلال، ومع ذلك فإن التواجد فى الحضرة الإلهية يقتضى من المحب أن يكون على قدر المقام، فإذا كان المحب يتهيأ باللباس لمحبوبه فيضفى على نفسه أبهاه، فإن الجامى كصوفى لا يجد أبهى لمقام الحضرة الإلهية من **لباس الفقر**، لأنه لباس التقوى الذى تحدث الله تعالى عنه فى قرآنه. وشعر الجامى الصوفى فيه رصانة وجمال وانسياب. وبعد وفاته تناول سيرته كثيرون، ولعل أشهر المؤلفات فيه دراسة إيفانوف المستشرق سنة ١٩١٧ **«سيرة الشيخ أحمدى جام»** و**«مقامات شيخ الإسلام أحمد بن أبى الحسن النامقى ثم الجامى»** لسديد الدين محمد بن موسى الغزنوى، و**«خلاصة المقامات»**، لميرزا معصوم على شاه.

▪ ▪ ▪

جامى (عبد الرحمن)

الشاعر الصوفى الفارسى الأشهر، كنيته نور الدين، ولد سنة ٨١٧هـ بناحية **جام** من أعمال هراة، وتوفى بهراة سنة ٨٩٨هـ، وأسرته من دشت بالقرب من **أصفهان**، ولذا كان يوقع **تخلّص دشتى** قبل أن ينتحل اسم **جامى**. ويتمتع بشخصية هادئة.

وقد أقبل منذ أن وعى الحياة على التصوف ، وكان نقشبندياً ، تتلمذ على سعد الدين الكاشغرى ، تلميذ الشيخ الأكبر بهاء الدين نقشبند ، وخليفته على الطريقة من بعده ، وتزوج ابنة سعد وأولدها أربعة أطفال ، مات منهم ثلاثة فى الطفولة ، ومات الرابع فى الشباب . وشعر الجامى ونثره يتخذ **الرمزية** كالشعر الصوفى الفارسى عند **سنائى وأوحدى ونظامى وخسرو**، ولذلك فهو يتجه **للأسطورة** غالباً ، وكانت قصائد جامى من نوع **ليلى والمجنون** ، **ويوسف وزليخا** ، **وحكمة الإسكندر**، وهو مشهور خصوصاً بقصيدة **يوسف وزليخا** ، **والمثنويات السبعة** المعروفة باسم **الأكاليل السبعة** من أسماء الصورة السماوية المعروفة بالدب الأكبر، وهى ثلاث مجموعات غنائية تشكل **ديواناً** ، وتشتمل على مراحل حياته كلها ، حيث المجموعة الأولى اسمها «**فاتحة الشباب**» ، والثانية «**واسطة العقد**» ، والثالثة «**خاتمة الحياة**» . وله **سلسلة الذهب** وهى مجموعة متسلسلة من الحكايات التى يتخذها إطاراً لعرض وجهة نظره الفلسفية والدينية والأخلاقية ، **وسلمان وأبسال** وهى الرواية الرمزية التى تناولها ابن سينا وابن طفيل وشرحها الطوسى ، وقصيدة **تحفة الأحرار** فى مدح شيخ الطريقة ناصر الدين المعروف باسم خواجاى أحرار، وقصيدة **سُبحة الأبرار** وهى فى التصوف وإن كانت تمتدح السلطان حسين بيقرا . وأغلب أعماله توفر المستشرقون أمثال **فيتنرجيرالد وأربيرى وبريستو وروزنزفايج وشيزى** على ترجمتها إلى الإنجليزية والألمانية والفرنسية . ولغته وموضوعاته الصوفية يطرحها فى إطار من فلسفته فى **وحدة الوجود** ، وتتحدى المنافسة مع آثار أكبر شعراء الصوفية ، وقد قيل إن جامى يعتبر **آخر سلسلة الشعراء الصوفية الفحول** . وله آثار نثرية فى **تفسير القرآن والحديث** ، وشروح على المسائل الصوفية وأخصها شرح **فصوص الحكم لابن عربى** ، وشرح **خمرية ابن الفارض** ، **والدرر الفاخرة فى التصوف والحكمة** ؛ وله «**نفحات الأنس**» الكتاب الموسوعى الذى يتضمن سير الصوفية مع دراسة شاملة للتصوف وترجمته على طريقة تذكرة الأولياء لفريد الدين العطار، وترجمه المستشرق الفرنسى سيلفستردى ساسى ، ونذكر له كذلك «**شواهد النبوة**» ، و«**اللوائح**» التى ترجمها وينفيلد ، و«**بهارستان**» وهى مجموعة حكايات عجيبة وقصص عن الحيوان ، تعليمية ومضمونها صوفى ، ولها عدة ترجمات ألمانية وفرنسية لماسيه وآخرين . وكان جامى فى كتاباته وحياته الصوفية أوحد زمانه كما وصفه أحد مؤرخى سيرته .

ويعتبر البعض **نفحات الأنس** أهم مؤلفات جامى وبمثابة العينين بالنسبة لهذه المؤلفات ، إلا أنه كان فيه ناقلاً عن غيره فقد استعان فى تأليفه بطبقات السلمى

وترجمة عبد الله **الأنصارى** للكتاب إلى الهروية ، ونقل الكثير عن الهجويرى من كتابه المرجع **كشف المحجوب** ، كما نقل عن أسرار التوحيد لمحمد بن المنور حفيد أبى سعيد بن أبى الخير .

■ ■ ■

الجرجانى

على بن محمد بن على (٧٤٠ ــ ٨١٦هـ) ، وكنيته أبو الحسن الحسينى ، وشهرته السيد الشريف ، صاحب كتاب **التعريفات** ، وهو معجم يشرح الألفاظ المصطلح عليها فى كافة فروع المعرفة ، ومن ذلك **التصوف** . والجرجانى كان حنفياً ومتصوفاً ، وحياته تشهد له بالورع والتقوى ، ومعرفته بالمصطلح نتيجة قراءاته وغشيانه لمجالس العلم ، ويحتوى التعريفات **(انظر التعريفات تحقيق دكتور عبد المنعم الحفنى)** على نحو ١٩٠٣ مصطلحاً منها **نحو ثلاثمئة مصطلح تخص التصوف** . ولا يخشى الجرجانى من تبسيط التعريف ، وهدفه من ذلك تسهيل تناوله للطالبين . والجرجانى تلقى العلم فى هراة لمدة أربع سنوات على قطب الدين الرازى الذى نصحه بالشخوص إلى مصر ليدرس على تلميذه مباركشاه ، فأقام بها لأربع سنوات بسعيد السعداء . وبعدها بدأ التدريس ومناقشة العلماء والسياحة ، وفى سمرقند جرت بينه وبين سعد الدين التفتازانى محاورات لم يعرف من كان الغالب فيها . ومعظم مصنفاته شروح ، وهو يقول فى التصوف إنه مذهب كله جد ، وقال هو تصفيه القلب عن مواقف البرية ، ومفارقة الأخلاق الطبيعية ، وإخماد صفات البشرية ، ومجانبة الدعاوى النفسانية ، ومنازلة الصفات الروحانية ، والتعلق بعلوم الحقيقة ، والنصح لجميع الأمة ، واتباع الرسول فى الشريعة . وقال التصوف ترك الاختيار ، وبذل المجهود ، والأنس بالمعبود ، وهو الإعراض عن الاعتراض وصفاء المعاملة مع الله تعالى ، وأصله التفرغ عن الدنيا . وقال هو خدمة التشرف وترك التكلف ، والأخذ بالحقائق ، والكلام بالدقائق ، والإياس مما فى أيدى الخلائق . ويقول الجرجانى فى **المريد** هو المجرد عن الإرادة ، **والسالك** هو الذى مشى على المقامات بحاله ، لا بعلمه وتصوره ، **والمقام** عبارة عما يتوصل إليه بنوع تصرف ، ويتحقق به بضرب تطلب ومقاساة تكلف ، **والسكر** غفلة تعرض بغلبة السرور على العقل ، **والقبض والبسط هما حالتان بعد ترقى العبد عن حالة الخوف والرجاء .**

■ ■ ■

الجريرى

أبو محمد أحمد بن الحسين، من كبار أصحاب الجنيد وخلفه فى مجلسه، وتوفى سنة ٣١١هـ، ويقول إنه **ربانى وقّراء**، ويدعو تلاميذه إلى أن يكونوا مثله ربانيين أى سامعين من الله وقائلين بالله، أى بالقرآن، والذى يقرأ القرآن بقصد الدرجات فى الجنة فقد رضى بالقليل بدلاً عن الكثير، لأن الجنة مخلوقة والقرآن غير مخلوق، ومعظم الفائدة فى قراءة القرآن، والقّراء يطلب الآخرة ويسعى لها سعيها، ويعرض عن الدنيا والاشتغال بها، لقوله تعالى سأصرف عن آياتى الذين يتكبرون فى الأرض بغير الحق، يعنى لا يفهمونه ولا يجدون له لذة، فيصرف الله عن قلوبهم فهم مخاطباته ويغلق عليهم سبيل فهم كتابه، ويسلبهم الانتفاع بمواعظه فلا يعرفون الحق ولا يسلكون سبيله.

والجريرى أول صوفى يتحدث عن دلائل وجود الله ويعددها ثلاثة: ملكه الظاهر، ثم تدبيره فى ملكه، ثم كلامه الذى يستوفى كل شىء، فتلك أدل الأشياء على وجود الله. ويذكر الجريرى فى **سبب تصوفه** أنه رأى أن الأعمال لا توصل إلى الله تعالى ولا تبلغ بالمريد مأموله، لأن النبى ﷺ قال: «لن ينجنى أحداً منكم عمله»، وإنما الذى ينجيه فضل الله، ومن صح اعتماده على فضل الله فذلك الذى يرجى له الوصول، ومن لم يحكم بينه وبين الله التقوى والمراقبة لم يصل إلى الكشف والمشاهدة.

■ ■ ■

الجُزولى

والكزولى والغزولى أيضاً، نسبة إلى **جزولة أو كزولة أو غزولة** أحد بطون البربر من سوس المراكشية، ومنهم **عبد الله بن ياسين** منشىء حركة **المرابطين** الدينية والسياسية. والجزولى أو أبو عبدالله محمد بن سليمان بن أبى بكر الجزولى السملالى الشاذلى (٨٠٧ ــ ٨٧٠هـ) صاحب كتاب **«دلائل الخيرات»** واسمه على الحقيقة **«دلائل الخيرات وشوارق الأنوار فى ذكر الصلاة على النبى المختار»**، وهو مجموعة صلوات على النبى، مع وصف ضريحه، وذكر أسمائه وغير ذلك، طبع عشرات المرات، وكان تصنيفه له بفاس، مستعيناً بما فى مكتبة القرويين من ذخائر، وكان قد توجه فى سياحة طويلة زار فيها طنجة ومكة والمدينة وبيت المقدس، ولما عاد انضم إلى

الطريقة الشاذلية ، وله « **حزب الفلاح** » ، و« **حزب الجزولي** » ويعرف أيضاً باسم « **حزب سبحان الدائم الذى لا يزول** » كتبه بالعامية . وهو منشىء **الطريقة الجزولية الشاذلية** ، وأتباعه يرددون البسملة أربعة عشر ألف مرة ، ودلائل الخيرات مرتين فى اليوم ، ويتلون فى الليل دلائل الخيرات مرة واحدة ، هى والربع الأخير من القرآن .
وكان الجزولى قد اعتزل لفترة اشتغل فيها بالتعبد ، ثم توجه إلى آسفى ، وهناك زاد أتباعه زيادة كبيرة ، فخاف والى المدينة من الجزولى وتنامى قوته ، وطلب منه الخروج بهم ، ويقال إن الجزولى دعا على المدينة فوقعت فى أيدى البرتغاليين ، وظلت خاضعة لهم مدة أربعين سنة . ويبدو أن والى .. بنة دس السم للجزولى قبل أن يرحل ، وقيل إنه مات مسموماً فى بقعة يقال لها أفغال ، قيل سنة ٨٧٠ ، وقيل سنة ٨٧٣هـ ، وقد أقسم أحد أتباعه ويدعى عمرو بن سليمان الشيظمى ، المعروف بالسياف ، أن يثأر له ، وقد ادعى النبوة بعد ذلك ، ووضع جثمان الجزولى فى تابوت لم يدفنه ، وحفظه فى رباط ، يضاء حوله فى الليل بشمعة فى طول القامة ، فى إناء مملوء بالزيت ، ولما توفى عمرو السياف عام ٨٩٠هـ دفن الجزولى ، وبعد ذلك بسبعة وسبعين عاماً أخرج السلطان **أبو العباس أحمد الملقب بالأعرج** ، بعد دخوله مراكش ، رفات الجزولى من مقبرته هى وبقايا رفات والد السلطان الذى كان مدفوناً إلى جواره ، وربما كان ذلك لأغراض دينية أو سياسية ، وأخذ معه التابوتين إلى مراكش ، ودفن الجثتين هناك .
وكان الجزولى إلى جانب ثقافته الواسعة بالطرق الصوفية ، فقيهاً متمكناً يحفظ عن ظهر قلب المدونة والمختصر الفرعى لابن الحاجب ، ومناقبه وأخبار طريقته مسرودة فى كتاب « **ممتع الأسماع بمناقب الشيخ الجزولى ومن له من الأتباع** » لمؤلف مجهول . وقيل إن الجزولى مات عن ٢٦٦٥ مريداً .

■ ■ ■

الچشتية

طريقة هندية ، قيل مؤسسها يدعى **أبا إسحاق** من نسل سيدنا على ، وهاجر إلى بلدة **چشت** فى خراسان ، وإليها ينسب ، وقيل منشؤها **أحمد أبدال الچشتى** (من چشت) ، واستقدمه إلى الهند **معين الدين السجزى** واستقر فى أجمير . وقيل إن **معين الدين هو نفسه الچشتى ، وهو صاحب الطريقة ، وأطلقوا** عليه **أفتاب ملك هند** ، يعنى **شمس مملكة الهند** ، فقد كان من أكابر مشايخ الصوفية والأولياء ، وكانت

ولادته سنة ٥٣٧ هـ ، وتوفى أبوه وهو فى الخامسة عشرة ، فتنقل بين البلاد ، وتعرف فى بغداد على أشهر صوفية زمنه ومنهم **نجم الدين كبرى وشهاب الدين السهروردى وأوحد الدين الكرمانى**، ثم وفد سنة ٥٨٩ هـ إلى دهلى ، ومنها انتقل إلى أجمير، وتوفى فيها عام ٦٣٣ هـ ، وقبره مزار، وقد حج إليه الامبراطور **أكبر** سيراً على الأقدام ، وخلفه على الطريقة **خواجه قطب الدين بختيار**، ثم **بابا فريد سكر كنج** ، وكان له مريدان ، أحدهما **على أحمد صابر**، وأتباعه يعرفون باسم صابر چشتى ، والآخر **نظام الدين أولياء** ، ويتسمى أتباعه باسم **نظامى** ، ومنهم **نصير الدين محمود بن يحيى يزدى أودهى** الملقب **جراغ دهلى** أى نور دهلى ، وكان من أبرز مريدى الشيخ نظام الدين ، وكان أبوه تاجر أقمشة وتوفى ومحمود فى الثامنة ، فأشرفت أمه على تربيته على المشايخ ، فما وافى الخامسة والعشرين إلا وقد اعتزل الناس لسبع سنوات يشق فيها طريق مجاهدة النفس بالصلاة والصوم ، فلما بلغ الثالثة والأربعين توجه إلى دلهى أو دهلى كما كان يقال لها آنذاك ، وانتظم كمريد للشيخ نظام فى **جماعة خانة** ، وأقامه شيخه الذى كان وقتها فى الرابعة والتسعين خليفة له وخلع عليه آثار شيخه وهى الخرقة والمسبحة والسجادة وغير ذلك ، ونهج جراغ نهج شيخه فى **طريق الفقر والصبر والتسليم لله والرضا** ، وظل عزباً طوال حياته ، وبعد شيخه هدى الناس اثنتين وثلاثين سنة ، وعاش وأتباعه مطيعين **للشريعة**، وشغلوا أنفسهم بتدريس العلوم ، واستمسك بسنة أوليائه الجشتية فلم يكتب أى كتاب ولكن أحكامه جمعها **حميد قلندر** فى كتاب «**خير المجالس**» ، ويحتوى على مائة مجلس ، وراجعه الشيخ بنفسه ، وألحق به مؤلفه تكملة بعد وفاة الشيخ . وكان لمحمود تأثير ضخم فى دهلى أو دلهى وخارجها ، وذلك واضح من الثبت الطويل لمشاهير مريديه وخلفائه مما نجده فى كتاب **أخبار الأخبار** لقلندر، وتوفى الشيخ بعد مرض قصير سنة ٧٥٧ هـ ، ودفن فى داره دون أن يستخلف أحداً ، ودفنت الآثار التى تلقاها عن شيخه معه ، وذلك رمز لنهاية السلسلة الأولى من أئمة الچشتية فى الهند ، وأقيم على قبره ضريح شيده السلطان فيروز شاه .

والچشتية يركزون فى الذكر على الشهادة ، ويؤكدون على **إلاّ الله** ، ويترنمون فى صلاتهم ، ويلبسون الثياب المصبوغة بلحاء شجر السنط . ومن شعائر الدخول فى الطريقة أن المريد يصلى أولاً ركعتين ، ثم تؤخذ عليه التوبة ، ويلقن معانى كلمات مثل الفقر والقناعة والرياضة ، ويكشف له عن اسم من أسماء الله ، ويطلب إليه أن يتوجه إلى أحد الأضرحة ويلزمه صائماً أربعين يوماً تعرف باسم **چلّه كشى**، ثم يلقن حدود الطريقة ، ويحرم عليه من بعد ذلك تعاطى المسكرات أو المخدرات . وللچشتية

أناشيد، وأكبر شعرائهم على ما يبدو هو **بده شاه وغلام شاه وخواجه غلام فريد**، ولهم كتب فى تراجم أوليائهم مثل «**سير الأولياء**» لمحمد مبارك كرمانى، «**وخزينة الأصفياء**» لمفتى غلام سرور لاهورى.

■ ■ ■

الجعفرية

الطريقة الجعفرية الأحمدية المحمدية، نسبة إلى مؤسسها الشيخ **صالح الجعفرى** (١٣٢٨ ــ ١٣٩٩هـ) عن شيخه أحمد بن إدريس، وقد خلفه عليها ابنه **عبد الغنى صالح الجعفرى**. والجعافرة قبيلة تسكن مصر والسودان، وكانت ولادة صالح الجعفرى بدنقلا، ودرس بالأزهر وحصل على إجازة التدريس من كلية الشريعة، وعين إماماً ومدرساً بالجامع الأزهر، فاتخذ من رواق المغاربة مقراً له متفرغاً لتدريس العلم والدعوة إلى الله تعالى، وكانت له خلوة يتعبد فيها ولا يغادرها إلا للحج، فالتف حول المريدون، وقد عكف على مؤلفات أحمد بن إدريس، وسافر من أجل المخطوطات إلى المغرب وزار خلوته التى كان يتعبد فيها والتقى بمشايخ الطريقة، وحصل منهم على أوراقه وكلماته فنقحها وصححها وعلق عليها وخرّج أحاديثها ورقم آياتها وطبعها على نفقته ونشرها وجدّد بذلك تراث أحمد بن إدريس، وله فى التصوف «**فتح وفيض من الله**» يشرح فيه المعانى فى كلمة **لا إله إلا الله** وما يتعلق بها من الإشراقات والنفحات، و«**المنتقى النفيس**» يتحدث فيه عن أصل الطريق ويترجم لحياة أحمد بن إدريس ونهج الطريقة الإدريسية، و«**مفتاح كنوز الأرض والسماء**» ويتناول الطريقة إلى الإشراقات الروحية والقلبية، و«**المعانى الرقيقة**» والمقصود بها الإشارات الصوفية، و«**كيمياء اليقين**»، و«**لوامع البروق النورانية**»، و«**الإلهام النافع**»، و«**آداب وإرشادات**»، و«**النفحات والخيرات الجعفرية**»، و«**الذخيرة المعجلة**»، و«**رسالة الأوراد الإدريسية**»، و«**رسالة الكشف والبيان**»، وله ديوان شعر جيد أطلق عليه اسم **الديوان الجعفرى**، وهو مجموعة قصائد فى مدح الرسول وأهل البيت، وبعضها يشمل مواعظ قلبية وأحكام فقهية وإرشادات للمريدين والسالكين. ومن الكتب فى نسب ومدرسة صالح الجعفرى كتاب «**الحق الجلى**» لمحمد طاهر خراشى العدوى.

■ ■ ■

الجلوتية

إحدى الطرف الصوفية التركية ، أسسها عزيز **محمود** هدائى الإسكودارى ، نسبة إلى إسكودار حيث مقام الطريقة ، والجلوتية من **الجلوة** ، وهى مرحلة تأتى بعد الخلوة ، فالخلوتى الذى ينزع عن نفسه الأنانية ويصبح مع الله تتحقق له الجلوة ، **والجلوتى** لا يبلغ هذه الدرجة إلاّ إذا صار خلوتياً . وقيل إن الجلوتية فرع من **الطريقة الهاشمية** التى أسسها هاشم بابا سنة ١٧٧٣ م ، وهو شيخ جلوتى كان فى وقت ما ملامياً . وقيل إن الجلوتية ينحدرون أصلاً من **الطريقة البيرامية** نسبة إلى حاجى بيرام حيث كان هدائى تلميذاً للشيخ أوفتاده الذى تلقى عن حمد الله چلبى ، الذى أخذ عن آق شمس الدين عن شيخه حاجى بيرام .

والجلوتية **طريقة سنية تعتمد الذكر** ، ويكون بالأسماء السبعة الأصول من أسماء الله الحسنى ، بالإضافة إلى خمسة أسماء فروع هى الوهاب والفتاح والواحد والأحد والصمد ، ويختار شيخ الطريقة للمريد الأسماء التى عليه أن تكون بها أذكاره ، بالإضافة إلى الصلوات والصيام من النوافل الخاصة بالطريقة . وكان هدائى يطلق **شعر رأسه** وتابعه مريدوه على ذلك . ويلبس الجلوتى عمامة يسمونها **التاج** من ثلاث عشرة قطعة ترمز إلى الأسماء الحسنى الأثنى عشر والوحدة التى تجمع بينها جميعاً .

وهدائى من مواليد إحدى القرى التابعة لقونيه ، وقيل هو من مواليد سنة ٩٥٠ هـ ، وتعلم بأدرنه واشتغل فيها بالتدريس ، ثم خرج إلى الشام ومنها إلى مصر ، فلزم شيخاً خلوتياً يقال له الشيخ كريم الدين الخلوتى ، فأخذ عنه الطريقة الخلوتية ، إلا أنه عندما عاد إلى تركيا أقام فى بروسه وتلقى عن الشيخ أوفتاده الجلوتى ودخل الطريقة سنة ٩٨٥ هـ ، واستقر فى استنبول بجوار جامع الجلوتية ، وكان بليغاً ، وله المصنفات الكثيرة ، قيل منها **ثمانية عشر كتاباً بالعربية واثنا عشر بالتركية** ، أغلبها موجود بمكتبات إسكودار حيث ضريحه ، وهى عبارة عن رسائل أو مجالس أو كليات للوعظ وإرشاد المريدين ، ومنها **رسالة فى الطريقة المحمدية ، وطريقة نامه** بالتركية ، ورسالة منظومة بعنوان **نجاة الغريق** ، وهذه الرسائل فضلاً عن أهميتها الصوفية فيها إشارات تاريخية هامة عن الحوادث والناس فى زمانها ، وبعض القصائد كان نظمها للإنشاد فى حلقات الذكر ، وقد لحنها هدائى بنفسه ، ومن المضمون العام لها نفهم أن هدائى كان

متمسكاً بالشريعة، ومنكراً على الغلاة من الصوفية، وهو فى بعض رسائله يستنجد بالسلطان ضد الغلاة من السماونة أتباع شرف الدين السماونة.

■ ■ ■

الجمالى

حامد بن فضل الله الجمالى، المتوفى سنة ٩٤٢هـ صاحب ديوان **مرآة المعانى** وكتاب **سِيرَ العارفين**، وكان شاعراً فذاً، وله باع طويل فى المثنويات، إلا أن شهرته قامت على كتابه سير العارفين، وهو من كتب الطبقات فى تراجم الصوفية، ألفه ليجمع فيه تراجم أولياء الطريقتين **الجشتية والسهروردية**، وهما من الطرق الصوفية الهندية، ويتبع فيه طريقة المؤلفين لكتب الطبقات. والجمالى **سهروردى**، وكان كثير الأسفار حتى قيل إنه لم يترك بلداً إسلامياً سمع أن فيه ولياً من أولياء الله أو متصوفاً مشهوراً إلا قصده، وقيل إن أسفاره امتدت من الأناضول شمالاً إلى اليمن جنوباً، ومن الهند شرقاً حتى المغرب غرباً، وكانت له معارضات صوفية، ومعارضات شعرية مع غيره، كتلك التى جرت بينه وبين الشاعر الصوفى الكبير **عبد الرحمن جامى**. وكان للجمالى كغيره من الصوفية السهروردية ارتباطات ببلاط دهلى، وقيل إنه المسئول عن انتقال **الأسلوب الصوفى فى سباكة الشعر** من هراة حيث ولادته فى فارس إلى دهلى فى الهند، وأن ظهور ما يسمى فى الهند باسم **سبك هندى** فى الشعر الدينى كان من تأثيره. وبلغ من عمق صلته بدهلى أن ابنه الشيخ عبد الرحمن صار صدراً فى حكم الملك أكبر.

■ ■ ■

الجمالى

مولانا علاء الدين على بن محمد الجمالى المعروف **بعلى چلبى** أو زنبيللى على أفندى، شيخ الإسلام العثمانى من سنة ٩٠٨ حتى ٩٣٢هـ، وكان يُلقّب أيضاً بالصوفى على جمالى، وقد بدأ حياته بالتدريس والإفتاء، وكان له نفوذ كبير على بايزيد الثانى فعينه مدرساً فى مدرسة ثمانيه وهى أكبر مدارس استنبول وقتها، واستمر فى منصب شيخ الإسلام فى عهده وعهدى سليم الأول وسليمان الأول إلى أن أدركته الوفاة سنة ٩٣٢هـ، وجرت بينه وبين السلطان سليم مشاحنات فلم احتج السلطان بأنه

لا دخل له فى الحكم قال الجمالى إنه مسئول عن حياة السلطان فى الآخرة ولا يحب له أن يخسرها بالدنيا ، وكرّمه سليم بأن عيّنه أيضاً قاضى عسكر. وله فى التصوف **«الرسالة فى حق الدوران» و«مختار الهداية»** .

■ ■ ■

الجنيد

أبو القاسم الجنيد بن محمد الجنيد ، أول من تكلم فى علم التوحيد ببغداد ، ومولده ونشأته بها ووفاته سنة ٢٩٧ هـ ، وأصله من نهاوند ، **ومذهبه يقيده بالكتاب والسنة** ، فمن لم يتفقه فى الدين ويحفظ القرآن ويكتب الحديث لا يُقتدى به ، فحفظ تصوفه من شُبه الغُلاة ، وصانه من العقائد الذميمة ، فكان مقبولاً من الجميع ، وكان الكتبة يحضرون مجالسه لألفاظه ، والشعراء لفصاحته ، والمتكلمون لمعانيه . وكان يُعرف **بالقواريرى** نسبة لعمل القوارير ، **وبالزجّاج** أيضاً ، واشتغل فى بدايته بالفقه على أبى ثور صاحب الإمام الشافعى وراوى مذهبه القديم ، وكان يُفتى فى حلقته وبحضوره وَسِنُّه عشرون سنة ، وصحب خاله السرى السقطى ، وتلقى عن المحاسبى والقصّاب ، وينفى أن يُنسب إلى السرى ، ويثبت أستاذية القصاب له ، وكتب الكثير من الرسائل إلى إخوانه ، منها ما اشتهرت عنه فى **التوحيد والألوهية** . وأساس **مذهبه** مراقبة الباطن وتصفية القلب وتزكية النفس والتخلق بالأخلاق الحميدة . **وطريقته** تقوم على الصحو ، وتابعه فيها أغلب الصوفية لأنها لا تتصادم مع الشريعة وتجمع بين الظاهر والباطن ، والجنيد فى شرحه لأصولها وفروعها أستاذ ، وكان مريدوه يلقبونه **بالأستاذ** ، وهو مرب صوفى بالمعنى الاصطلاحى للمربى ، فهو العارف بفنون علوم التصوف والمؤيد بعلوم الفقه ، وقيل لذلك إن **طريقة الجنيد أصلح للمبتدئين** ، وخاصة أن أصحاب طريقة السُكر ، وهى الطريقة المقابلة لطريقة الجنيد ، كما هى عند البسطامى والخرقانى وأبى سعيد بن أبى الخير والحسين بن منصور الحلاج ، قد أثاروا الفقهاء والمتشرعين وأهل الظاهر على الصوفية ، حتى اعتبر البعض التصوف كفراً أو بدعة وأفتوا بقتل جماعة منهم . وأغلب **كلام الجنيد** لذلك تعاريف ، **ودوره فى التصوف** هو دور المعلم ، وهو يقول إن ما يتكلم به هو علم لم يكن له فيه فضل ، وكان هذا العلم عند من سبقوه تحققاً ولكنه صار اليوم تعاليم . والتصوف فى مذهبه رسم للعبد ولكنه بالنسبة لله تعالى حقيقة ، والأخلاق فيه إلهية ، وهى شمائل الأنبياء ، فالسخاء فيه لإبراهيم ، والرضا

لإسحق ، والصبر لأيوب ، والإشارة لزكريا ، والغُربة ليحيى ، ولبس الصوف لموسى ، والسياحة لعيسى ، والفقر لمحمد . والتصوف هو صفاء المعاملة مع الله ، وأصله التعزّف عن الدنيا ، والصوفية القدامى لم يأخذوه عن القيل والقال وإنما عن الجوع وترك الدنيا وقطع المؤلوفات والمستحسنات ، **والمعرفة** فيه منها ما هو للخاصة ، وما هو للعامة ، ولكنها فى الحالين معرفة واحدة ، لأن مدارها جميعاً على الله سبحانه وهو واحد ، غير أن المعرفة لها أول وأعلى ، فالخاصة فى أعلاها وإن كانت لا يمكن الوصول فيها إلى نهاية ، وكيف يمكن أن تكون معرفة محيطية والمعروف فيها لا يحيط به فكر ولا يتوهمه ذهن ولا تتكيفه رؤية ، وأعلم خلق الله أشدهم إقراراً بالعجز عن إدراك عظمته أو تكَشُّف ذاته ، لمعرفتهم عن عجزهم عن إدراك من لا شىء مثله ، إذ هو القديم وسواه محدث ، وهو الأزلى وغيره المبدأ ، وهو الإله وما سواه مألوه ، فسبحانه الأول بغير بداية ، والباقى إلى غير نهاية ، ولا يستحق هذا الوصل غيره ، ولا يليق بسواه ، فأهل الخاصة من أوليائه فى أعلى المعرفة من غير أن يبلغوا فيها نهاية ، والعامة من المؤمنين فى أولها ، ولها شواهد ودلائل من العارفين على أعلاها وأدناها ، والشاهد على أدناها الإقرار بتوحيد الله ، وخلع الأنداد عنه ، والتصديق به وبكتابه وما فرضه فيه ونهى عنه . والشاهد على أعلاها القيام فيه بحقه وإيثاره على جميع خلقه واتباع معالى الأخلاق التى كان أنبياؤه فيها القدوة والأسوة ، فالمعرفة التى فضلت الخاصة على العامة هى عظيم المعرفة فى قلوبهم بعظيم القدر والإجلال والقدرة النافذة والعلم المحيط والجود والكرم لله تعالى ، فعظُم فى قلوبهم قدره وجلاله وهيبته ونفاذ قدرته وأليم عذابه وشدة بطشه وجزيل ثوابه وإحسانه ورحمته وعفوه ، فلما عظمت المعرفة بذلك عظم القادر فى قلوبهم فأجلّوه وهابوه واستحيوا منه وخافوه ورجوه ، فقاموا بحقه وأعطوه المجهود من قلوبهم وأبدانهم ، ولذلك قيل فلان بالله عارف ، وفلان بالله عالم ، لمّا رأى المسلمون منهم هذه الأخلاق وأنهم بها أعلم وأعرف من العوام . والتوحيد الذى ينفرد به الصوفية هو **إفراد القدم عن الحدث** ، وعلم التوحيد كما يقول هو علم قد طوى بساطه منذ عشرين سنة ، والناس يتكلمون فيه حالياً ، أى وقت الجنيد ، فى الحواشى لا غير . ويعلّم الجنيد أصحابه أن العلم له ثمنه فلا تعطوه إلا به ، وثمنه هو وضعه عند من يُحسن حمله ولا يضيّعه ، فتوسموه فى الحر ، وهو ذلك الذى خرج عن كل العلائق وكان لله وحده ومما دونه حراً . **والحر الحقيقى** هو الذى عبوديته لله خالصة ، ولن تكون على الحقيقة عبداً لله وشىء مما دون الله يسترقك . **والعبودية لله** هى أن تخلص له الحب ، فتحب ما يحب الله ، وتكره ما يكره الله . ومن يعرف الله لا يُسرَ إلا به . والله تعالى يخلص إلى

القلوب من برِّه حسب ما تخلص له القلوب من ذِكره. والورع فى الكلام عند الجنيد أشد منه فى الاكتساب، لأن مذهبه أصلاً مذهب تعليمى أو أنه يذهب فيه إلى الناحية التعليمية، وكان فيما يقوله لأصحابه ظريفاً يراعى كافة الاعتبارات ولا يتبشع جوابه على أحد ويعطى الجواب بحسب السائل وثقافته الدينية، وإن كان دائماً يقول إن العلم يشير إلى استعماله، وما يعلمه للمريدين ليس ليعرفوه دون استعماله، وإنما العلم للاستعمال فى مراتبه، ويفسر قوله تعالى سنقرئك فلا تنسى، أى سنعلمك العلم فلا تنسى العمل به. ولما سألوه أيهما أتم: استغراق العلم فى الوجود أو استغراق الوجود فى العلم، أجاب بل استغراق العلم فى الوجود، فليس العالمون بالله كالواجدين له.

■ ■ ■

الجوانية

هى علم الباطن أو الدخائل، وقد شاع المصطلح بكتاب **الدكتور عثمان أمين** بنفس الاسم، فقد روى عن على بن أبى طالب أن النبى ﷺ قال له: يا على، ما من عبد إلا وله جوانى وبرانى، بمعنى سريرة وعلانية، فمن أصلح جوانيه أصلح الله برانيه، ومن أفسد جوانيه أفسد الله برانيه. ويعرف جابر بن حيان **العلم الجوانى** بأنه العلم بالشيء المدبر من داخل، **والعلم البرانى** هو العلم بما يدبر من خارج، ومعنى الجوانى هو البطون والاتصال، ومعنى البرانى هو الظهور والانفصال. والحلاج فى الطواسين يقول المنكر هو فى دائرة البرانى، ويتحدث عن الفوقانى والتحتانى والوسطانى. والمعرفة الكشفية عند الغزالى جوانية يصل إليها السالك بعد مجاوزة المعطيات الحسية والاستدلالات العقلية، وتحصيلها عن طريق القلب يقول: لو فرضنا حوضاً محفوراً فى الأرض، احتمل أن يساق إليه الماء من فوقه بأنهار تفتح فيه، ويحتمل أن يحفر أسفل الحوض ويرفع منه التراب إلى أن يقرب من مستقر الماء الصافى، فيتفجر الماء من أسفل الحوض، ويكون ذلك الماء أصفى وأدوم، وقد يكون أغزر وأكثر، فذلك القلب مثل الحوض، والعلم مثل الماء، وتكون الحواس الخمس مثل الأنهار. وقد يمكن أن تساق العلوم إلى القلب بواسطة أنهار الحواس والاعتبار بالمشاهدات حتى يمتلىء علماً. ويمكن أن تسد هذه الأنهار بالخلوة والعزلة وغض البصر، ويعمد إلى عمق القلب بتطهيره ورفع طبقات الحجب عنه حتى تنفجر ينابيع العلم من داخله. وطريق الجوانية عند الغزالى هو علم الأعمال بما يفسدها ويهيج الوسواس ويشوش القلب ويثير الشر، وهو طريق صعب لا يميل إليه أكثر الناس، وإنما

ميلهم للأوفق لطباعهم ، لأن معرفة القلب وصفاته وتطهيره عن الأخلاق المذمومة هو مجاهدة دائمة للنفس. والجوانية عند الصوفية المحققين مراعاة للأسرار ومحافظة للقلب بالإخلاص ، بالتوقى عن ملاحظة الخلق ومطالعة النفس . والجوانية هى رؤية للنفس وأحوالها ، وأشد من ذلك مطالعة الأغراض على أفعالها ، فلا خير فى قول ولا فعل إلا مع النية .

إبن الجوزى

أبو الفرج عبد الرحمن بن على بن محمد الجوزى (٥٠٨ ــ ٥٩٧ هـ) نسبة إلى مشرعة الجوز من أرباض بغداد حيث مولده ، وهو عَلّم عصره فى التاريخ والحديث ، وله نحو الثلاثمئة كتاب ، منها **«تلبيس إبليس»** الذائع الصيت والذى ينتقد فيه نهج الصوفية ويأخذ عليهم فيه مآخذ يقول إنها من تلبيس إبليس عليهم ، ويقول ربما كان التصوف نتاجاً أفرزه الزهد الإسلامى عند الأوائل ، إلا أن صوفية هذا الزمن قد انحرفوا عن السنّة وصارت لهم سننهم الخاصة بهم والتى صنفوا فيها الكتب ، وأخصها كتاب **عبد الرحمن السلمى الطبقات** الذى أسند إليهم فيه العجب فى تفسير القرآن ، وكتاب **أبى نصر السراج** الذى أطلق عليه أسم **لمع الصوفية** ونسب إليهم فيه الكثير من الاعتقادات القبيحة والكلام المرذول ، وكتاب **أبى طالب المكى قوت القلوب** وضمنه الأحاديث الباطلة مما لا يستند فيها إلى أصل عن الصلاة فى الليل والنهار وغير ذلك ، وكتاب **الحلية لأبى نعيم الأصبهانى** الذى احتوى على أشياء منكرة قال فيها إنها حدود التصوف ، ولم يستح أن يضم إلى قائمة المتصوفة أسماء سادات الصحابة من أمثال أبى بكر وعمر وعثمان وعلى ، وذكر أن شريحا القاضى والحسن البصرى وسفيان الثورى وأحمد بن حنبل من أهل التصوف لأنهم زهاد ، وكذلك أدرج السلمى فى طبقاته الفضل وابن أدهم والكرخى وجعلهم من الصوفية . وصنف **القشيرى رسالة فى** التصوف فذكر العجائب فيها أسماه المقامات والأحوال عن الفناء والبقاء ، والقبض والبسط ، والوقت والحال ، والوجد والوجود ، والجمع والتفرقة ، والصحو والسكر ، والذوق والشرب ، والمحو والإثبات ، والتجلى والمحاضرة ، إلى غير ذلك من التخليط الذى ليس بشىء وتفسيره أعجب منه . ومن تصانيفهم أيضاً كتاب **صفوة الصفوة للمقدسى** ويشتمل على أشياء يستحى العاقل من سردها ، وحتى كتاب **أبى حامد الغزالى** المسمى **إحياء الدين** ، فقد ألّفه على طريقتهم وملأه بالأحاديث الباطلة وهو لا يعلم بطلانها ، وتكلم عن المكاشفة فخرج عن الفقه ، وفسّر الكواكب والشمس والقمر اللاتى رآهن إبراهيم عليه السلام بأنها حجب الله عز وجل وليست هى التى نعرفها ،

وكلامه من جنس كلام الباطنية، ومن ذلك ادعاؤه أن الصوفية فى أحوالهم يشاهدون الملائكة وأرواح الأنبياء ويسمعون منهم أصوات ويقتبسون فوائد، ثم تترقى مشاهداتهم من الصورة إلى الأصل عبر مدارج يضيق عنها نطاق الكلام. والسبب فى كل هذه التصانيف التى تخالف الشريعة وتجانب الدين قلة علم الذين صنفوها بالسنن والإسلام، **ولعله لهذا كتب ابن الجوزى من جديد كتاب الإحياء للغزالى يخليه من أحاديثه الباطلة ويصحح ما انزلق إليه من أخطاء عن جهل بالصواب.** وابن الجوزى من رأيه أن **اسم الصوفية** من الأسماء العربية الصميمة وليس اسما دخيلاً، ويرجعه إلى خدم الكعبة الذين انقطعوا للخدمة فيها، وكان الواحد منهم يسمى **صوفة وصوفان**، أو أن صوفة هذا هو **الغوث بن مر**، ولم تكن أمه يعيش لها أولاد، فنذرت إن عاش ابنها هذا أن تهبه لخدمة الكعبة وتقطعه عليها وتميزه بأن تجعل فى رأسه **صوفة** إشارة إلى أنه ربيط الكعبة، ومن ثم فقد انتسب الصوفية إلى صوفة هذا لمشابهتهم إياه فى الانقطاع إلى الله. وربما أن الصوفى نسبة إلى **الصوفانة** وهى بقلة من بقول الصحراء يتعيش عليها كطعام المنقطعون لعبادة الله فى الصحارى والفيافى، فنسبوا إليها؛ وربما كان انتسابهم **لصوفة القفا** أى شعراته المدلاة التى يطلقها القوم نسياناً لأنفسهم فى التعبد، **وعلى أى الأحوال فإن التصوف كان رياضة نفس ومجاهدة طبع عند الشيوخ الأوائل، إلا أن ذلك الوقت قد مضى وجاء قوم من الأدعياء تلبّس إبليس عليهم فصدّهم عن العلم وأراهم أن المقصود بالعبادة هو العمل، فلما أطفأ نور العلم عندهم تخبطوا فى الظلمات**، فمنهم من أراه أن التصوف هو ترك الدنيا بالجملة، فرفضوا الكسب، وركنوا إلى البطالة، وأهملوا ما يصلح أبدانهم، وشبّهوا المال بالعقارب ونسوا أنه خلق للمصالح، وبالغوا الحمل على أنفسهم حتى كان الواحد لا يذوق الطعام بالأيام فيفسد بذلك تفكيره ويتخلّط ذهنه ويتوهم أشياء كأن تكلمه الملائكة أو يشاهد الله، وتنتابه الوساوس والخطرات من شدة الجوع ووطأة الفقر وقلة النوم، وقد صنف **الحارث المحاسبى** التصانيف فى ذلك باعتبارها من الفضائل. وأفرد آخرون التصوف بصفات ميزوه بها من اختصاص بالمرقعة والسماع والوجد والرقص والتصفيق، وقال بعضهم بالحلول والاتحاد، وادّعوا العشق الإلهى، ونسوا أن العشق فى اللغة يقال للمنكوح، والله يُحب ويُحَب ولكنه لا يَعْشق ولا يُعْشق وترتب على هذا الترخص فى القول ادّعاء البعض النبوة ثم الربوبية حتى قيل إن الحلاج أرسل فى إحدى المرات كتاباً إلى أحدهم قال فيه **من الرحمن الرحيم إلى فلان بن فلان**، وفسّر هذا التبجح منه بأن تلك طريقة الصوفية فيما يسمى عين الجمع، فالله على

الحقيقة هو الذى يكتب ويملى وليست اليد التى تخط إلا مجرد آلة. وأطلق الصوفية على هذا العلم عندهم اسم **علم الباطن** بينما الفقه هو **علم الظاهر**، وبلغ من تلبيس إبليس عليهم أن عادوا الفقهاء ودفنوا كتب الفقه أو أغرقوها فى الماء، ثم جاءت أقوام أخرى من المتصوفة زاد من تلبيس إبليس عليهم أنهم تشبهاً بأسلافهم لبسوا المراقع مثلهم ولكنهم لفقوها من فاخر الثياب، وانتحلوا للمراقع نسباً يصلهم بالصحابة وآل البيت، وبعد أن كانت حياة السابقين قوامها الجوع والفقر والزهد، فإن هؤلاء استغرقتهم النعم وعرفوا الطريق إلى الأمراء والحكام وأقبلوا على لذات الطعام والشراب، ومصادقة الولدان ومرافقة النسوان، وادعوا أن الله يحل فى الصورة الحسنة والجسم الجميل من الأولاد المُرد، واقتحمت جماعة منهم يقال لهم **الملامتية** الذنوب بدعوى أن يسقطوا فى أعين الناس فيسلموا بذلك من الجاه، وأظهروا من أنفسهم أقبح الصفات، ومنهم أيضاً **إباحية المتصوفة** وهؤلاء ادعوا أنهم لمّا زهدوا وراضوا أنفسهم وصلوا فسقطت عنهم التكاليف والعبادات، أو أنه طالما أن المكتوب فى القدر واقع فلا ملامة عليهم فيما يصدر عنهم، أو أن الأمور تستوى فى المعصية والطاعة طالما أن الله مستغن عن الأعمال ولا يتأثر بها، وأن رحمته وسعت الجميع فلا وجه للحرمان والمعاناة والتعب، ومن ثم ذهبوا إلى تأويل الأحاديث والقرآن، وقالوا الأوامر والنواهى رسوم العامة، وأما هم فقد تجوهروا لمّا وصلوا، ولو تجوهر العامة لسقطت عنهم تلك الأوامر والنواهى، ومن بالغ منهم فى الرياضة وفتح الله عليه بالكلمات اللطيفة أو رأى الرؤى التى تثمرها الخلوة والتفكير ادّعى الكرامات وكانت لهم شطحات، مثلما قال البسطامى إن النار إذا رأته تخمد فيكون ظهوره عليها رحمة للخلق، أو أنه فى الآخرة سيسأل الله أن يدخله النار ليعلم الخلائق أن برَّ الله ولطفه فى النار مع أوليائه، وذلك وغيره كله من أقبح الأقوال والأفعال ويتضمن تحقير ما عظّمه الله وحضّ عليه وكان سنة النبى ﷺ والسلف الصالح.

■ ■ ■

الجوعى

أبو عبد الملك القاسم بن عثمان، دمشقى مات سنة ٢٤٨هـ، **ومذهبه الجوع**، يقول سُميت الجوعى لأن الله قوانّى عليه فكنت أبقى شهراً لا آكل ولا أشرب، ولو تركونى لزدت، وكنت أقول اللهم أنت فعلت ذلك فأتمه علىّ بمّنك. وقيل الجوعى اثنان بنفس الاسم، أى القاسم بن عثمان، أحدهما يقال له **الكبير** حكى عنه ابن أبى الحوارى، والآخر من أقران السرى والحارث وكان أبو تراب يصحبه، ولم يتأكد

لدينا ذلك ويبدو أنهم خالفوا بينها بحسب الرواة عنها، وعلى أى الأحوال فمذهب الجوعية يعنى التصوف، وكان **الصوفية يلقبون بالجوعية**، إلا أن دعوة ابن عثمان أصلها أن **المعدة أساس البلاء، والجوع مخ العبادة**.

إصبرْ على كسرة وملح ... فالصبر مفتاح كل زَيْن
واقنع فإن القُنوع عز ... لا خير فى شهوة بدَيْن

وينتقد الجوعى الأولياء الذين قعّدوا مذاهبهم على المحبة دون الجوع فأحبوا لذّات الأطعمة والأشربة والشهوات ولذات الدنيا «لأنهم تلذذوا بلذة ليس فوقها لذة»، فقطعتهم عن كل لذة. والجوع الذى يقول به يفلسفه بأن محبته، على عكس ما يذهب الأولياء، تنصرف إلى **المعرفة**، فما عُبد الله بشيء أفضل من **المعرفة**.

■ ■ ■

جولدتسيهر Goldziher

(١٨٥٠ ـــ ١٩٢١) مَجَرِىّ انتسب لفترة إلى الأزهر واستمع إلى الشيخ محمد عبده، وله مصنفات مشهورة فى الإسلام، وفى التصوف **رسالة الحسين بن منصور الحلاج** نقد فيها كتاب الطواسين لماسينيون، **ودراسة عن الأولياء وتكريمهم فى الإسلام، ودراسة عن الزهد الصوفى، وعن الصوفية**.

■ ■ ■

الجيلانى (عبد القادر)

أبو محمد محي الدين عبدالقادر بن موسى بن عبدالله الجيلانى أو الجيلى (٤٧١ ـــ ٥٦١ هـ) صاحب **الطريقة القادرية**، ونسبه إلى **جيلان** من طبرستان، تلّقى الطريقة من حماد الدباس، وأخذ الخرقة من ابن سعد المبارك، واشتغل بالقرآن فى مبتدئه وتفقه على مذهب ابن حنبل. وله فى التصوف مصنفات **«الغنية لطالب طريق الحق» و«الفتح الربانى» و«فتوح الغيب» و«الفيوضات الربانية»**.

وكان يأكل من عمل يديه، وبرع فى الوعظ وتكلم للناس فى الزهد فكثر مريدوه، وأقام فى مدرسته يدرس فيها ويتخذها رباطاً إلى أن توفى، وقالوا فيه إنه **أول من نادى بالطرق الصوفية وأسّسها**، وأنه فاق أهل زمانه فى علوم الدين، وكانت له القدم الراسخة فى المجاهدة وقطع دواعى الهوى والنفس، ووقع له القبول التام حتى أن

عبد الله بن قدامة (٥٤١ ـــ ٦٢٠هـ) الفقيه الحنبلى المشهور وصاحب رسالة **« ذم ما عليه مدعو التصوف »** امتدحه فقال : لم أسمع عن أحد يحكى عنه من الكرامات أكثر مما يُحكى عنه ، ولا رأيت أحداً يعظمه الناس للدين أكثر منه . وأشاد بسلوكه **ابن كثير** لقيامه بالأمر بالمعروف والنهى عن المنكر وزهده ومكاشفاته وورعه وصلاحه ، وتأثر به **الإمام ابن تيمية** وقال عن طريقته **إنها الطريقة الشرعية الصحيحة** . والتصوف عند الجيلانى ليس أقوالاً تقال ولكنه طريقة فيها الجوع وقطع المألوفات والمستحسنات . والخصال التى ينبغى أن يأخذ الصوفى بها نفسه هى نفسها خصال الأنبياء عليهم السلام ، كالصبر الذى تحلى به أيوب ، وكل نبى له خصلة ، **والمتصوف** يكون فى الابتداء ويتكلف هذه الخصال ، وأما **الصوفى** فهو الذى انطبع بها فزهد الدنيا وفنى عنها بحيث تأتيه الأشياء فلا يريدها ولا يبغضها ، وإنما هو المتمثل لله فيها ، والمنتظر لفعل الله معه بشأنها . **وتعريف التصوف** الذى يؤثره الجيلانى هو أنه من الصفاء من أدران النفس والهوى ، وأنه الصدق مع الحق وحسن الخُلُق مع الخلق ، ويهدف من ذلك أن يخلص التصوف من البدعية ويلزم مريديه بالآداب الشرعية سواء فى سلوكهم مع شيوخهم ، أو مع بعضهم البعض ، أو فى ذكرهم ومجالسهم وخدمتهم لإخوانهم . وعنده أن كل حقيقة لا تشهد لها الشريعة فهى زندقة ، وأن المتصوف لا ينبغى أن يخترع لنفسه عبادات وصلوات لم يكتبها الله عليه ، فذلك شأن من ضلّوا السبيل وابتدعوا الرهبانية وما كتبها الله تعالى عليهم ، والصواب فى التصوف كطريق للعبادة **أن يلتزم المتصوف الكتاب والسنة التزاماً حرفياً** ، وخاصة فى الجانب المعرفى للتصوف أو جانبه الكلامى ، فيذهب الجيلانى إلى **تعريف للفناء** يخالف به الصوفية ويربطه كأحد المقولات الرئيسية فى التصوف بالسنة المحمدية ، وهو عنده أن يفنى العبد عن أهوائه ويغلب إرادة ربه بالالتزام بأوامره ونواهيه ، وهو لذلك لا يشتط فى التنظير لطريقته ويحصرها فى عدد من المقامات يربط بينها وبين المعروف عند أهل السنة منها ، وطريقة الجيلانى لذلك طريقة سهلة على المسلم ، ومفهومة ، وتتفق مع روح الإسلام ، ولا تباعد بين المتّبع والسلف ؛ فإذا كان الفناء هو أعلى مقام السالكين فإنما هو كذلك لأن الذى يبلغه هو المتحقق بالقرآن والسنة ، عَبْدُ الأمر الإلهى وليس عَبْدَ هواه ، وفى مقام الفناء يكون العبد مع الله كالطفل مع الظئر والميت مع الغاسل والمريض المقلوب على جنبيه بين يدى الطبيب . **والصوفى المتحقق** هو الذى فى مقام الفناء يفنى عن الخلق والهوى والإرادة والرغائب فيصل إلى الله ، لا بالمعنى الاتحادى ، ولكن بمعنى أنه يخرج عن خُلُقه وهواه وإرادته ومناه . **والمريد** اشتقاقها من الإرادة .

وطريق الإرادة يقتضى معرفة المراد وهو الله تعالى، ثم تكون **الإرادة هى إرادة ما يريده الله تعالى، باتباع أوامره ونواهيه، وذلك هو معنى التوحيد، وتلك حقيقته**. والفناء فى هذا التوحيد هو فناء المرسلين والمؤمنين، وهو أن تفنى بعبادة الحق عن عبادة سواه، فتطيعه وتسأله، وتخافه وترجوه، وتحبه عن كل ما سواه. **وطريقة الجيلانى** فى التصوف أساسها أن بلوغ مقام الفناء هو أن يعمل السالك على أن لا تكون له إرادة مع الله تعالى من حيث هواه، فهو يريد ما يريده الله بالتزام كتابه وسنة نبيه. **والبقاء** المقابل للفناء هو البقاء بالشريعة وتقديمها على أى ذوق صوفى يمكن أن تكون فيه مخالفة لها. وإذا كانت الشريعة مطلوبة فى أعلى المقامات فهى ألزم فى المقامات الأدنى. ومن اللازم دائماً أن يكون للمؤمن فى سائر أحواله **ثلاثة أشياء**: أمر يمتثله، ونهى يجتنبه، وقدر يرضى به. وأقل حالات المؤمن لا يخلو فيها من أحد هذه الأشياء، وينبغى له أن يلزم هَمُّها قَلْبَه ويحدث بها نفسه ويأخذ جوارحه بها فى كل الأحوال. والأصل عنده فى الأَكْل أنه بالسنة وبالكسب من حلال الدنيا، لكن التعويل على الخَلْق فيه، دون الله، إشراك به، وكذلك الاطمئنان إلى الكسب ونسيان فضل الله تعالى هو شِرْك خفى، والأولى بالمؤمن أن يؤمن بأن الله وحده هو الرزّاق والمعين على الكسب والميّسر له، فإذا كتب لك شيئاً من الكسب فإنه سبحانه يوجد عندك الشهوة لتحصيله، فيكون سعيك إليه وإظهار براعتك واستحقاقك له، فيسوقه إليك ويواصلك به عند الحاجة، ثم يوفقك إلى أنه منه، وأنه الذى يسوقه ويرزقك به، ومن يدرك ذلك ويعيه فإن الطمأنينه تلحقه ولا يكون له القلق.

وأما البلايا والمصائب التى يمكن أن يأتيه بها القدر فمن اللازم أن يعى أن الحياة فيها المرض والأوجاع والمصائب، وكذلك فيها أنواع النِقَم، ومن يجهل ذلك فقد جهل الدنيا، والرشيد هو من يفوّض أمره لله ويسلم نفسه لقدره. والشأن مع الدنيا كالأجير الذى لا بد له من أن يكد ويتعب ويشقى ويتألم ويطيع رغبة مخدومه فيحصل فى النهاية على ما تستقيم به حياته من مال، أفلا يكون ذلك أدعى مع المولى سبحانه بأن نصبر على البلاء والمرض، وأن نروض أنفسنا على طاعة أوامره ونواهيه، طمعاً فى حُسن ثوابه وطيب العيش فى الآخرة؟ والفضائل أو الخصال الجامعة التى ينصح بها الجيلانى للمريدين سبع هى مجاهدة النفس عن هواها، والتوكل على الله، وحُسن الخلق مع الناس، و[illegible] لله، والصبر على قضائه، والرضا بقدره، والصدق فى كل أمر، وهى التى يحتاج إليها كل أحد فى كافة أموره فى الحياة.

ولإبراهيم بن على القادرى (نحو ٨١٦ — ٨٨٠ هـ) الشافعى الحلبى كتاب

«**الروض الزاهر**» فى مناقب الشيخ عبدالقادر، وكان شديد الولع بجمع أخبار الصوفية حتى كتب منها مجلدين.

■ ■ ■

جينو

رينيه جينو Guenon (١٨٨٦ ــ ١٩٥١) عكف **الدكتور عبدالحليم محمود** على كتابة سيرته وضمّنها فى كتابه عن المدرسة الشاذلية وإمامها أبى الحسن الشاذلى، وهو مستشرق فرنسى أسلم وتصوف وتسمى باسم عبدالواحد يحيى، وأنشأ **مجلة المعرفة** (سنة ١٩٠٩)، وكان إسلامه وتصوفه على شبخ يدعى عليش وكان شاذلياً على المذهب المالكى، وعاش جينو فى الأزهر وتزوج مصرية، وظل طابع المجلة التى يصدرها صوفياً، وقارن بين التصوف الإسلامى، والتصوف المسيحى ونبّه إلى سمو التصوف الإسلامى. وكانت له كتابات كثيرة ومقالات وبحوث اشتهرت عنه وذكر الدكتور عبدالحليم محمود أنها تضعه إلى جوار الغزالى وأمثاله.

■ ■ ■

ح

الحافى (بشر)

أبو نصر بشر بن الحارث بن على بن عبدالرحمن المروزى (١٥٠ ــ ٢٢٧ هـ) ولقبه **الحافى** لأن نعله انقطع ، فذهب به إلى الإسكاف يصلحه ، فقال له الإسكاف ما أكثر كلفتكم على الناس (يقصد الصوفية) فألقى بشر النعل من يده والآخر من رجله ، وحلف لا يلبس نعلاً بعدها ، فكان يُرى وقد أسود أسفل قدميه من أثر التراب مما يمشى حافياً .

وبشر أصله من مرو وسكن بغداد ، وصحب الفضيل بن عياض . وسُئل ما كان بدء أمره لأن اسمه بين الناس كأنه اسم نبى فقال : هذا من فضل الله فقد كنت ماراً فى يوم من الأيام فإذا أنا بقرطاس فى الطريق ، فرفعته فإذا فيه بسم الله الرحمن الرحيم ، فمسحته وجعلته فى جيبى ، وكان عندى درهمان ما كنت أملك غيرهما ، فذهبت إلى العطارين فاشتريت بهما عطراً ، وجعلت أمسح على اسم الله بالعطر ، فنمت تلك الليلة فرأيت فى المنام كأن قائلاً يقول لى : يا بشر بن الحارث رفعت اسمنا عن الطريق وطيبته ، لأطيبّن اسمك فى الدنيا والآخرة ، ثم كان ما كان . ويذكره الخليفة المأمون فيقول لم يبق شئ ببغداد أحد يُستحيا منه غير بشر بن الحارث ، ويذكره آخرون فيقولون كانت لذى النون العبارة ، ولسهل التسترى الإشارة ، ولبشر بن الحارث الورع .

وطريقة بشر قوامها الورع ، يقول للمريدين لا تؤثروا على حذف العلائق شيئاً ، إنى إن أجبت نفسى إلى ما تشتهى من المطعم والملبس خفت أن أكون مكاساً أو شرطياً .

ويقول من لم يحتج إلى النساء فليتق الله تعالى ولا يألف أفخاذهن، ويعلل بشر عدم زواجه بشغله بالفرض دون السنة، لأن الزواج سنة وليس فرضاً. وكان من ورعه يأنف من لقاء الناس ويقول حب لقائهم من حب الدنيا، ويتحرج أن يسيء الظن بالناس، وأن يصاحب الأشرار لأن صحبتهم تورث سوء الظن بالأخيار، ولا يجد بأساً أن لا يعرفه الناس، ومن أجل ذلك كان يتحرج أن يتحدث عن رسول الله، ويتحرج أن يطيل فى صلاته فى ركوعه وسجوده، ويسمى ذلك سرائر الشرك، واختار **صحبة أصحاب رسول الله** على صحبة الناس، ويقول ما أنا بشيء من عملى أوثق به منى بحبى أصحاب رسول الله. **والعلم** عنده يسبق العمل ويترتب عليه، فمن علم عمل وعلّم، وذلك هو الذى يُدعى عظيماً فى ملكوت السماء. والعلم أداة الأنبياء، والنبى ﷺ أدّى علمه إلى أصحابه فتمسكوا وعملوا به وحفظوه، وأدّوه إلى قومٍ أدّوه إلى آخرين، حتى صار العلم إلى قوم يأكلون به

ذهب الرجال المرتجى لفعالهم — والمنكرون لكل أمر منكر
وبقيتُ فى خلف يزين بعضُهم — بعضاً ليدفع معورٌ عن معور

وبشر لذلك لا يريد من أصحابه أن يحدّثوا أو يشهدوا أو يؤمّوا قوماً، أو يأكلوا لأحد طعاماً، ويقول عن نفسه لو علمت أن أحداً يعطى لله لأخذت منه، ولكنه يعطى بالليل ويحدّث بالنهار. ويأمر أصحابه أن لا يكذبوا ويقولوا توكلنا على الله لأنهم لو كانوا صادقين فى توكلهم لرضوا بما يفعله بهم ربهم. ويصنف **الفقراء** ثلاثة، فقير لا يسأل وإن أعطى لا يأخذ فهو من الروحانيين، فإذا سأل الله أعطاه وإن أقسم على الله أبّره؛ وفقير لا يسأل فإن أعطى قَبِل، فهو من أواسط القوم وعَقْدُه التوكل والسكون إلى الله، وهو ممن توضع له الموائد فى حظيرة القدس؛ وفقير اعتقد الصبر ومدافعة الوقت فإذا طرقته الحاجة خرج إلى عبيد الله وقلبه إلى الله بالسؤال، فكفارة مسألته صدقة. ويتحسر بشر على ما كان للصوفية قديماً ويقول فيهم حسبك أقوام موتى تحيا القلوب بذكرهم، وأن أقواماً أحياء تقسو القلوب برؤيتهم. فلما رأى بشر شاباً يلبس مرقعة قال له: ثوب شهرة يكرمك الناس من أجلها، فأجابه الشاب: إنى لبستها ليعلم الناس أنى أعبد الله فيكرمونى لأجله، فقال بشر: أحسنت! مثلك من يصلح له لبس المرقعة! وينصح بشر مريديه فيقول: انظروا خبزكم من أين هو، وانظروا مساكنكم التى تتقلبون فيها كيف هى، والزموا الأسواق لكى لا تتكففوا الناس، ولا تحبوا الثناء ولا أن تُحمدوا ولا أن تعرفوا. وسأله أحدهم أين يعبد الله، فقال له أصلح سريرتك أولاً ثم

اعبده حيثما شئت . وسأله أحدهم ألا تريد أن تصلى فى الصف الأول ، فقال له إنما يريد الله قرب القلوب لا قرب الأجساد . ويقول بشر أولى درجات الطريق التوبة ، وصدق التوبة فى اتباع القرآن ، فالقرآن يدل على الداء والدواء ، والذنب لا يصلحه إلا الاستغفار ، وإن لم تطع الله فلا أقل من أن لا تعصاه ، وهب أنك لا تخاف منه ألا تشتاق أن تعرفه ؟ إن من يحرم المعرفة لا يجد للطاعة حلاوة ، وحلاوة العبادة لن يجدها العبد إلا إذا جعل بينه وبين الشهوات حائطاً من حديد .

ويبدو أن بشراً كتب فى **الزهد** فقد ذكر ذلك صاحب الفهرست ، وتأثر به الإمام ابن حنبل وضمّن كتابه فى الزهد أيضاً شذرات من كتاب بشر. وربما كان اسم الزهد هو الذى يفضله البعض للتصوف ، وصنف عبد الله بن المبارك كتاباً فيه ، وكان الإمام أحمد ينصح تلاميذه بقراءته بدلاً من قراءة كتاب المحاسبى الصوفى رعاية حقوق الله . وبشر كان من المحدثين ولكنه ترك رواية الحديث فقد تحرّج أن يرويه بعد أن تصوف وزهد ، ويعده ابن حيّان من الثقات ، ويبدو أنه فى كتابه الزهد قد أسنده بطريقة الإمام ، ولم يكن بشر حنبلياً وإنما على **مذهب الثورى** وإن تفوق فيه عليه كما يقول النقّاد . ويعقد المؤرخون مقارنات بين الإمام أحمد وبشر ، ويفضل بشر الإمام أحمد على نفسه **بثلاث ،** فالإمام طلب الحلال لنفسه ولغيره بينما بشر طلبه لنفسه فقط ، والإمام اتسع للنكاح أى الزواج ، وبشر ضاق به ، والإمام كان إماماً للعامة وبشر طلب الوحدة لنفسه . وكانت مسألة **عدم زواج بشر** من المسائل التى كثر الجدل حولها ، ويعلق الإمام أحمد بأن بشرا لو تزوج لتم أمره ، والعامة يقولون إن بشراً بتركه للسنة يتشبه بالرهبان ، وبشر يعتذر عن نفسه بالقرآن فى قوله تعالى ولهن مثل الذى عليهن ، فكان يخشى لو تزوج أن لا يعطى من يتزوجهن من حقوقها بقدر ما يتقاضاها من واجبات . ورغم هذا التبرير الذى يسوقه فقد كان يعلم فى قرارة نفسه أنه مقصّر ، فلما جاءه رجل يطلب منه أن يدعو له بالرزق بسبب ما يعانى من كثرة النفقة والعيال ، أجابه بشر بل ادع أنت لنفسك لأن حالك عند الله خير منى . والسبب أن بشراً كان يرى أنه لم يأخذ بالسنة التى أخذ بها الرجل ، وكان يرى أن جماع الأمر كله فى كتاب الله وسنة نبيه ، وأن المؤمن يبتلى فيمتحن ، فلما أخذوا الإمام أحمد وضربوه بالسياط فى محنة خلق القرآن علّق بشر: أدخل أحمد بن حنبل الكير فخرج ذهباً أحمر. وبلغ ذلك أحمد بن حنبل فقال الحمد لله الذى أرضى بشراً بما صنعنا . وبشر من مذهبه أنه لا ينبغى أن يتصدى للأمر بالمعروف والنهى عن المنكر إلا من يروض نفسه على الصبر على الأذى ، ومعرفة الخير والشر لا تكفى وإنما لا بد فيها من العمل كما أسلفنا . والجدير

بالذكر أنه كانت لبشر ثلاث أخوات حالهن هو حاله من الورع ، وكانت كبراهن يقال لها مضغة وماتت فى حياته فحزن عليها حزناً شديداً. وكان يقول فى حسرة : قرأت فى بعض الكتب أن العبد إذا قصّر فى خدمة ربه سلبه أنيسه، وهذه أختى مضغة كانت أنيستى فى الدنيا ! وأما الأخت الوسطى فكان اسمها مخة ، وكانت كثيرة التردد على الإمام أحمد بن حنبل تسأله فى أمور دينها فيعجب لما تسأل ولشدة ورعها ، وجاءته يوماً تقول له إن رأس مالها دانقان تشترى بهما القطن لتغزله وتبيع نتاجه بنصف درهم فتتقوت بدانق من الجمعة إلى الجمعة ، ولكنها فى ليلة من الليالى مر بمنزلها رجل يحمل مشعلاً وجعل يكلم أصحابه ، فانتهزت الفرصة واستأنفت شغلها فى نو المشعل ، وظل الرجل يتحدث مع إخوانه وهى تشتغل ، فلما انصرف وجلست إلى نفسها ساورتها الشكوك أنها فعلت إثماً فقد أخذت من نور ينفق عليه غيرها ، فلما عرضت مسألتها على الإمام طلبت أن يفتيها ، فما كان منه إلا أن قال لها تخرجين الدانقين وتبقين بلا رأس مال حتى يعوضك الله خيراً منه. وقال الإمام لأصحابه فى تبرير فتواه أن سؤالها لا يحتمل تأويلاً آخر غير هذا ، لأنها أخت بشر وصادقة كل الصدق فى ورعها ، فلابد أن يصدقها النصيحة ويعطيها جواباً يتفق مع مقامها وحالها. وسألته مرة هل أنين المريض شكوى من الله تعالى ، فأجابها أرجو أن لا يكون شكوى منه ولكنه اشتكاء إليه عز وجل. وقال الإمام لأصحابه ما سمعت قط إنساناً يسأل عن مثل هذا إلا أن يكون هذا الإنسان أخت بشر. أما الأخت الثالثة واسمها زبدة فمن أقوالها : أثقل شىء على العبد الذنوب ، وأخفّه عليه التوبة ، وأعجب أن لا يدفع أثقل شىء بأخف شىء. وهذه الأخت هى التى يقول عنها بشر إنه تعلم الورع منها فإنها كانت تجتهد أن لا تأكل ما لمخلوق فيه صنع.

■ ■ ■

حتّى

فيليب حتى الأستاذ بجامعة برنستون والمشرف على الدراسات العربية بها ، وله تلاميذ كثيرون من العرب ، من سوريا ولبنان خصوصاً ، وهو لبنانى الأصل وأمريكى الهوية ، وكتبه وبحوثه ومنشوراته فى التاريخ والفكر العربيين لا تحصى. ويعقد فى كتابه تاريخ العرب فصلاً عن التصوف يقول فيه مقالة النصارى والمستشرقين أن التصوف يمثل حركة معاكسة للنظر العقلانى فى الدين ، وأساسه نفسى وهو تشوق المرء

إلى التقرب من الله والاتحاد الشخصي بالحقيقة الدينية (!!)، ويعود بأصله كسواه من الحركات الإسلامية إلى القرآن والحديث، بل إن علاقة محمد بالله ترتكز على الشعور المباشر بالحضرة الإلهية، وقد أصبح أصحاب التصوف يعدون أنفسهم المفسرين الحقيقيين لتعاليم النبى الباطنية الواردة فى الحديث. وكان التصوف فى بدايته مقصوراً على الحياة الزهدية القائمة على الاعتزال والتأمل كما هو الحال عند النساك النصارى، ثم أصبح فى القرن الثانى للهجرة ومابعده حركة تجمع المعتقدات من مصادر شتى **نصرانية وأفلاطونية جديدة وغنوستية وبوذية(!!)**، وتتدرج من مذاهب السلوك إلى مذهب الاتصال بالله وشمول الألوهية. أما **لبس الصوف** فمأخوذ عن رهبان النصارى، ومنهم أيضاً أخذت فكرة **العزوبة أو التبتل** التى لم تكن من الإسلام فى شيء، وفى التأملات الفردية والتنبه الطويل والانصراف إلى الخلوات شيء من تأثير الصوامع السريانية. أما **نظام الطريقة** ومنه الشيخ والمريد كما كان عند النصارى الكاهن والمبتدىء فهو نظام يحاكى الرهبنة بالرغم من الحديث المنسوب إلى النبى لا رهبانية فى الإسلام. وكذلك حلقات **الذكر** وهى الطقس الدينى الوحيد فى الإسلام فإنها تنم عن أصل مسيحى. وتشير التقاليد الصوفية المختصة بالآخرة وبالمسيح الدجّال إلى أثر متصوفين أصلهم نصارى ويهود، وأما حركة **الزهد** عند المسلمين فإنها لم تلبث أن تأثرت بالمؤثرات النصرانية والأفكار الهيلينية فأصبحت فى القرن الثانى للهجرة طريقة تصوفية هدفها المعرفة بالله، وهى شكل من الغنوستية عند اليونان. وقد أنشأ عقيدة المعرفة هذه أبو سليمان الدارانى، ولكن أول صوفى أخذ بمذهب السلوك دون التزهد هو **معروف الكرخي وكان نصراني الأصل**، أو لعله كان على مذهب الصابئة واشتهر حين تصوف بحب أو عشق الله. وتطور التصوف النظرى إلى مذهب الاتصال بالله، وتم الانتقال فى عهد الترجمة اليونانية وبتأثير الأفكار الهيلينية. وتم الانتقال من مذهب الاتصال إلى القول بشمول الألوهية **بتأثير الفكر الهندى الإيرانى**. وقد حفظ لنا صاحب الأغانى صورة واحدة على الأقل ظهرت فى تضاعيفها **وجهة النظر البوذية**. أما النُسّاك الزنادقة الذين وصفهم الجاحظ فهم إما من معاشر الساذو الهنود والنساك البوذيين أو من مقلديهم. وقام بايزيد البسطامى **وكان جده مجوسياً** فأحدث القول بقانون الفناء الذى تنعكس فيه فكرة **النرفانا**. ويمكن أن نعد الصوفية **المنظمة الكهنوتية** الوحيدة فى الإسلام. وفضلاً عن التنسك والطقوس الدينية أدخل المتصوفون إلى الإسلام أموراً أخرى منها استعمال **السبحة** عند المسلمين، **وهى هندية الأصل**، ولعل المتصوفين استعاروها من البيَع النصرانية الشرقية وليس من الهند

مباشرة. وفى زمن **الحروب الصليبية** اتصل أمرها **بالعالم الغربى الكاثوليكى**، ووردت أول إشارة إلى السبحة فى الأدب العربى فى شعر أبى نواس. وفوق هذا أخذت أهل التصوف عادة تكريم الأولياء على **طريقة النصارى**. ومن المتصوفين السهروردى الذى قتل فى حلب متهماً بالزندقة، وفى دعاء له تركه يظهر أن مذهب المتصوفين كان مديناً فى فكرة الاتصال بالله **للفلسفة الأفلاطونية الجديدة وللنصرانية أيضاً !!**

■ ■ ■

الحرّاق

محمد بن عبد الواحد العلمى الشاذلى الدرقاوى، وشهرته الحراق، له **ديوان العلمى** سلك فيه طريقة ابن الفارض، ويشتمل على تواشيح وأزجال، وشرح **الصلاة المشيشية**، نسبة إلى عبد السلام بن مشيش الذى أخذ عنه الشاذلى التصوف، ومن تلاميذه ابن العربى الدلائى المتوفى سنة ١٢٨٥هـ كتب ترجمته باسم **النور اللامع البراق فى ترجمة محمد الحراق**. وكانت وفاة الحراق بتطوان سنة ١٢٦١ هـ.

■ ■ ■

الحروفية

تقوم دعوى الحروفيين على أن الأصل فى العبادة هو اللفظ، وبه يمكن للإنسان أن يتواصل بالله، والمعرفة هى أيضاً معرفة بالألفاظ لأنها مظهر للموجودات، واللفظ لذلك مقدم على المعنى، ولا يمكن تصور معنى دون لفظ. والحروفية دعوى شيعية فارسية، فهم يرون أن التعبير عن المعانى بالحروف وأصواتها يكتمل فى الحروف العربية وعددها ٢٨، والحروف الفارسية وعددها ٣٢، والصلة بين الحروف فى اللغتين فى حرف «اللام ألف» الذى يجمع فى حقيقته الحروف الفارسية الزائدة على العربية، لتكون اللغة الفارسية مفسرة للغة العربية، وليكون المذهب الشيعى هو المذهب المؤول للقرآن. ويطبق الحروفيون عدد الحروف العربية والفارسية على كل مظاهر العالم الظاهرة والباطنة، ويبدأون بآدم وخلق العالم فى ستة أيام، ويأولون أوائل السور القرآنية

المتميزة بالحروف المقطعة. ودور النبى موسى فى الحروفية أساسه أنه كليم الله، والمسيح هو المثل الأعلى لأنه كلمة الله، ومحمد لأنه بعث بجوامع الكلم، وعلىّ لأنه كلام الله الناطق. وطموح صوفية الحروفية هو ولاية علىّ. ومؤسس الحروفية **فضل الله بن عبد الرحمن الحسينى**، الشاعر الفارسى المتخلص **بنعيمى**، وهو الداعية، وولادته بشروان سنة ٧٤٠هـ من أسرة صوفية من الاتحادية، وكان يدعى بين الناس بفضل الله حلال خور، أى حلال المطاعم، لأنه كان يخيط الطواقى الأعجمية ويقتات بثمنها، أو لأنه لم يضع فى فمه طعاماً لم يعمل للحصول عليه عملاً من يديه. ويقوم مذهبه الحروفى على دمج المهدية الشيعية بالقطبية الصوفية، ولبس اللباد الأبيض على رأسه وبدنه هو وأتباعه إشارة إلى الكفن الذى يضعه جنود المهدى على أجسادهم مبايعين له على الموت. ودعوة فضل الله كما يقول الدكتور الشيبى هى دعوة قوامها أنه خليفة الله كآدم وعيسى ومحمد اجتمعت فيه مُثل الصوفية والشيعة لإنقاذ العالم بالجهاد، أى بالسيف أو الدم، فهو المهدى وخاتم الأولياء معاً. وله فى ذلك ثلاثة كتب هى «الجاودان نامة» أى كتاب الخلود، **«ومحبة نامة»** و**«عرش نامة»** وهما أشعار مقدسة، وكتب أخرى غير مقدسة. ولما قُتل فضل الله تفرق من بقى من أتباعه، واستمرت دعوتهم حتى دخلت الحروفية الكثير من التفاسير الصوفية، وكان **ابن عربى** من الحروفيين، وضمنّ الفتوحات المكية من الباب الثانى إلى السابع بعض هذه المعارف الحروفية، مطابقاً بين عدد الحروف الثمانى والعشرين ومنازل القمر، ومطابقاً السباعات للكواكب السيارة، ورابطاً عدد الأسماء الحسنى بعدد العوالم، وحقيقتها بحقيقة هذه العوالم، يجمعها الاسم الأعظم المستغرق لكل الحقائق ووحدة الوجود، واعتبر عيسى من أعيان الوجود بكونه كلمة الله، وربط ذلك بمعنى جوامع الكلم التى وهبها الله النبى، وبالأسماء التى علمّها آدم لتجتمع كلها فى **الإنسان الكامل** الذى ورث العلوم الإلهية باعتباره الجامع لكلمات الله. ومن رأى الدكتور الشيبى أن الحروفية تستقى من مصادر صوفية إسلامية وغير إسلامية، وأنها كما يقول المستشرق براون تعبير عن الروح الفارسية التى لا تتهيب الكلام فى الزندقة، وأن فضل الله الحروفى هو رجعة لخسرو من غيبته فى الغار، ومظهراً لمخلصهم القديم من الفتح العربى، وقائداً للعنصر الفارسى بالسيف. وللحلاج عند الحروفيين مقام سام حتى جعلوه رأساً من رءوسهم، وكذلك الشبلى، وابن عربى، والعطار، وابن أدهم، وفى ذلك يقول الشاعر نسيمى:

الشبلى قطرة من بحرنا   وأدهم نقطة من حروفنا

وقد بدأ نفد الحروفية الصوفية باعتبار مذهبهم أوسع من التصوف، ثم زادوا فنقدوا المُثل الصوفية، وسمّوا الصوفية بأهل الظاهر.

■ ■ ■

إبن حزم الأندلسى

أبو محمد على بن أحمد بن سعيد بن حزم الأندلسى، صاحب **الفصل فى الملل والأهواء والنحل**، وأحد أئمة الإسلام، وأتباعه يسمون **الحزمية**، وميلاده بقرطبة سنة ٣٨٤هـ، وكانت له رياسة الوزارة ولأبيه، وزهد فيها وانصرف إلى العلم والتأليف، وقيل بلغت مصنفاته نحو الأربعمائة مجلد، وكان شديد النقد حتى قيل: **«لسان ابن حزم وسيف الحجاج شقيقان»**، وكان فى أول أمره شافعياً وانقلب ظاهرياً، وأبطل ما لا يستند إلى القرآن والحديث، ولم يأخذ إلا بظاهر لفظهما، وأنكر التوسل بالأولياء ومذاهب المتصوفة الذين ادعوا أن الولى أفضل من النبى ومن الملائكة، أو قالوا أن من عرف الله حق معرفته فقد سقطت عنه التكاليف والشرائع، أو قالوا بحلول البارى تعالى فى أجسام خلقه كالحلاج وغيره، أو ذهبوا إلى تأويل كلام الله، وادعاء النبوة، أو تلاعبوا فقرروا صلوات غير الصلاة، أو عدداً لها غير عددها. ويقول ابن حزم محذراً منهم جماعات المسلمين: فلا يغرنكم أهل الكفر والإلحاد، ومن موّه الكلام بغير برهان بتمويهات ووعظ على خلاف ما أتى به كتاب الله وكلام نبيه، فلا خير فيما سواهما، **فدين الله تعالى ظاهر ولا باطن فيه، وهو جهر ولا سر تحته، وكله برهان ولا مسامحة فيه**، وكل من يدعو أو يتبع بلا برهان فهو متهم، وكل من ادعى للديانة سراً وباطناً فهى دعاوى ومخارق، ورسول الله لم يكتم من الشريعة كلمة، لا أطلع أخص الناس به من زوجة أو ابنة، أو ابن عم، أو صاحب، على شىء من الشريعة كتمه عن الأحمر والأسود ورعاة الغنم، **ولا كان عنده عليه السلام سر، ولا رمز، ولا باطن، غير ما دعا الناس كلهم إليه**، ولو كتمهم شيئاً لما بلّغ كما أُمِر، ومن قال هذا فهو كافر، فإياكم وكل قول لم تبن سبيله، ولا وضح دليله، ولا تَعَوَّجا عما مضى عليه نبيكم ﷺ، وأصحابه رضى الله عنهم، فالزموا ما نص عليه ربكم تعالى فى القرآن بلسان عربى مبين، لم يفرط فيه من شىء، تبياناً لكل شىء، وما صح عن نبيكم برواية الثقاة من أئمة أصحاب الحديث، مسند إليه عليه السلام، فهما طريقتان يوصلانكم إلى رضا ربكم عز وجل. ويبدو أن ابن حزم قد أكثر من خصومه فتمالأوا

على بغضه ، وأجمعوا على تضليله ، وألّبوا عليه أصحاب السلطان ، وأثاروا عليه العامة ، فاضطر أن يغادر إلى بادية لَبْلة وتوفى فيها سنة ٤٥٦ هـ ، وما أشبه ما جرى له بما جرى للإمام ابن تيمية ، فكلاهما لم يصانع أحداً ، وكان فقيهاً حافظاً يستنبط الأحكام من الكتاب والسنة ، ودافع عن سنن السلف الصالح بأدلة لم يُسبق إليها مع أنها مستقاة من القرآن والحديث ، إلا أن حريته فى الجدل والمناظرة جلبت عليه عداوة الكثيرين من علماء سائر المذاهب ومشايخ الصوفية .

■ ■ ■

الحفنى

عبد المنعم بن محمد الحفنى له **الموسوعة الصوفية** ، كَتَبَها جامعة شاملة ، وضمّنها أعلام الصوفية ومذاهبهم وأقوالهم وأحوالهم ومواقفهم ؛ **ومعجم المصطلحات الصوفية** وهو جماع الغريب وغير المألوف من ألفاظ الصوفية ، على مختلف مقاصدهم من استخدامها ؛ **ومعجم مصطلحات التصوف المسيحى** حيث تكمل الفائدة بمقارنة هذين النوعين من التصوف ، الإسلامى والمسيحى ، وبيان تهافت الدعوة بأن التصوف الإسلامى قد تأثر بالتصوف المسيحى ؛ **والبديع من أشعار الصوفية** ، وهو مجال قلما يتطرق إليه بحث الباحثين ؛ **والتعريفات** وهو الكتاب المرجع للكثير من الألفاظ الصوفية وغيرها من ألفاظ الفلسفة والمنطق والفقه واللغة ، والذى وضعه السيد الشريف على بن محمد على الجرجانى المتوفى سنة ٨١٦ هـ ؛ **وقوت القلوب** الموسوعة الإسلامية الكبرى والكتاب المرجع فى التصوف **لأبى طالب المكّى** ، **ورابعة العدوية** يرد به على دعاوى الدكتور عبدالرحمن بدوى فى سيرة هذه العابدة الخاشعة ، **وعمر الخيام** وهو دراسة نفسية لهذا الشاعر تحسم الزعم بأنه من الصوفية ، **والتفسير الصوفى للقرآن** عن الشيخ الكبير محي الدين بن عربى ؛ **والبراهين العقلية لوجود الله والرد على الماديين والطبيعيين والمنكرين** ، وهو أقسام ، فمنه البراهين التى أوردها الإسلاميون ، والبراهين التقليدية فى الفلسفة والتى بدأت مع أرسطو ، ومنه براهين ابتدعها المسيحيون أو طوروها عن الإسلاميين ، وبراهين عرضها فلاسفة كبار مثل كنت وديكارت ، وبراهين جديدة فى بابها مثل برهان الحرية والبرهان الاجتماعى وبرهان الوعى . والدكتور الحفنى درس فى القاهرة وكاليفورنيا وهايدلبرج ، وله أربعة وسبعون مصنفاً ، منها موسوعة الفلسفة ، والموسوعة النقدية للفلسفة اليهودية ، والفلسفة الوجودية ، والمعجم الفلسفى باللغات العربية والإنجليزية والفرنسية والألمانية واللاتينية ، وقاموس الألفاظ

اللاتينية فى الفلسفة ، وموسوعة علم النفس ، وموسوعة التحليل النفسى ، والتحليل النفسى للأحلام ، ودراساته وعرضه لأية مفاهيم أوروبية من منطلق إسلامى دائماً.
والدكتور الحفنى من بيت علم اشتهر بحب المعرفة والاشتغال بها فى مجالاتها المختلفة العلمية والأدبية والفنية والدينية ، وجده الأكبر الشيخ الإمام محمد الحفنى ، تولى مشيخة الأزهر عام ١١٧١ وتوفى سنة ١١٨١هـ (١٧٦٧م) وكان بارعاً فى حواشيه الزاهرة على أمهات الكتب الإسلامية ، وصحب مصطفى البكرى وأرشد جمعاً كثيراً.

■ ■ ■

الحلاّج

الحسين بن منصور الحلاج ، الشاعر الصوفى صاحب المأساة المشهورة فى تاريخ الفكر والتصوف باسم **مأساة الحلاج**. واختلفوا فيه فردّته جماعة وأنكرته ، وقبلته جماعة وأثنت عليه وحكت عنه ، وصححت له وجعلته من المحققين. وأصله من البيضاء من كورة اصطخر بفارس ، وكان ميلاده سنة ٢٤٤هـ ، وقيل فى اسمه الحلاج أن أباه كان يعمل فى **صناعة الحلج** ، وقال أتباعه إنما سمى كذلك لأنه كان يكاشفهم بما فى قلوبهم وأطلقوا عليه **حلاج الأسرار**، ويبدو أن دعوة الحلاج كانت تتجاوز أن يكون شيخاً صاحب طريقة وأن يكون له اتباع ، فقد كان يجمع حوله جماعات الساخطين والمضطهدين والفقراء والمحزونين ويتصل بالجماعات السياسية الثائرة التى تهدف إلى قلب الحكم وخلع الخليفة ، ويقول ماسينيون إن الحلاج بعد أن تلقى علوم الصوفية على سهل بن عبدالله التسترى ، وتلقى خرقة الصوفية عن عمر المكى ، توجه إلى مكة مرتين ، وظل بصحن الحرم صائماً وصامتاً لمدة عام ، مثلما فعلت مريم بنت عمران ، واستعداداً لميلاد الكلمة فيه ، ثم اعتصم بقمة جبل أبى قبيس يتعبد ويخلو بنفسه ، وبعدها طاف ببلاد الإسلام وتوجه إلى تركستان والهند ، وصعد فى السند من ملتان إلى كشمير ثم طرفان ، وكان يبشر بالإسلام ويعلّم الناس طريقته وكأنه يفكر فى هداية الإنسانية كلها عبر الإسلام ، وأطلقوا عليه اسم **المغيث والمقيت والمصطلم والمحير**، وكانت له كرامات ، وفى بغداد صحب الجنيد شيخ الصوفية ، وكان صديقه الشبلى ، وتكأكأ عليه المريدون ، وكان يعظ الناس ، ويلقى الشعر فيسحر الألباب ، حتى فتنوا به وحكوا عنه الروايات ، وكانت تأخذه الجذبة فيقف فى الأسواق وفى

المساجد يصيح : يا أهل الإسلام ! أغيثوني ! فليس يتركني ونفسي فآنس بها ، وليس يأخذني من نفسي فأستريح منها ، وهذا دلال لا أطيقه !

تبارَكْتْ مشيئتك يا قصدي ومرادي
يا ذات وجودي وغاية رغبتي
يا حديثي وإيمائي ورمزي
يا جميعي وعنصري وأجزائي

ويعلن الحلاج عن حبه العميق لله تعالى فيقول :

يا موضع الناظر من ناظري ... ويا مكان السرّ من خاطري
يا جملة الكل التي كلها ... أحب من بعض ومن سائري

ويعاتبونه على مخاطباته لله تعالى وأشواقه التي لا يداري إعلانها فيقول :

الحب ما دام مكتوماً على خطر ... وغاية الأمن أن تدنو من الحذر
وأطيب الحب ما تّم الحديث به ... كالنار لم تؤت نفعاً وهي في الحجر

والأولى بالعتاب هو الله سبحانه :

مازلت أطفو في بحار الهوى ... يرفعني الموج وأنحط
فتارة يرفعني موجها ... وتارة أهوى وأنغط
حتى إذا صيرّني في الهوى ... إلى مكان ما له شط
ناديت يا من لم أبح بسره ... ولم أخنه فِّي الهوى قط
تقيك نفسي السوء من حاكم ... ما كان هذا بيننا شرط

ويشكو إلى مولاه فقد عذّبه الحب وأضناه :

لبيك لبيك يا سرئي ونجوائي ... لبيك لبيك يا قصدي ومعنائي
أدعوك بل أنت تدعوني إليك ... فهل ناديت أم ناجيت إيائي
يا عين عين وجودي يا مدى همي ... يا منطقي وعباراتي وإعيائي
يا كل كلي ويا سمعي ويا بصري ... يا جملتي وتباعيضي وأجزائي
يا من به علقت روحي فقد تلفت ... وجداً فصرت رهيناً تحت أهوائي
أبكي على شجني من فرقتي وطني ... طوعاً ويسعدني بالنوح أعدائي

حـتـى لـقـد عـايـنـه خـلـقـه كـلـحـظـة الحـاجـب بـالحـاجـب

واستجوبه صديقه الشبلى فى مجلس الشعر فقال وهو يخفى عينيه نصف إخفاء بطرف كمه : أنا الحق . ويشرح ذلك فيقول :

يـا سـر سـر يـدق حـتـى يخـفـى عـلـى وهم كـل حـى
وظـاهـراً بـاطـنـاً تجـلـى لـكـل شـىء بـكـل شـىء
إن اعـتـذارى إلـيـك جـهـل وعـظـم شـك وفـرط عـي
يـا جمـلـة الـكـل لـسـت غـيـرى فمـا اعـتـذارى إذاً إلـىّ ؟

أدنـو فـيـبـعـدنـى خـوفـى فـيـقـلـقـنـى شوق مُمَكّن فى مكنون أحشائى
فـكـيـف أصنع فى حب كـلـفـت بـه مولاى قد ملّ من سقمى أطبائى
قـالـوا تـداو بـه مـنـه فـقـلـت لهم يـا قـوم هـل يتداوى الداء بالدائى
حـبـى لمولاى أضـنـانـى وأسـقـمـنـى فـكـيـف أشكو إلى مولاى مولائى

ويجعله الحب محباً لكل المحبين لله مهما كانوا وكانت دياناتهم :

ومـن أعـجـب الأشـيـاء ظـبـى مـبـرقـع يـشـير بـعـنـاب ويـومـى بـأجـفـان
ومـرعـاه مـا بـين الـتـرائـب والحـشـا ويـاعـجـبـا من روضة وسط نـيـران
لـقـد صـار قـلـبـى قـابـلاً كـل صـورة فـمـرعـى لـغـزلان وديـر لـرهـبـان
وبـيـت لأوثـان وكـعـبـة طـائـف وألـواح تـوراة ومـصـحـف قـرآن
أديـن بـديـن الحـب أنّـى تـوجـهـت ركـائـبـه فـالحـب ديـنـى وإيمـانـى
لـنـا أسـوة فـى بشر هـنـد وأخـتـهـا وقـيـس لـيـلـى ثم مـي وغـيـلان

ولقد أفناه حبه لله عن نفسه فلم يعد هو لنفسه ، وإنما صار هو لله ، وانمحت بينه وبين الحق الأنا والهو حتى قال :

أنـا سـر الحـق مـا الحـق أنـا بـل أنـا حـق فـفـرق بـيـنـنـا
أنـا عين الله فـى الأشـيـاء فـهـل ظـاهـر فـى الـكـون إلا عـيـنـنـا

وقال :

سـبـحـان مـن أظـهـر نـاسـوتـه سـر سـنـا لاهـوتـه الـثـاقـب
ثم بـدا لخـلـقـه ظـاهـراً فـى صـورة الآكـل الـشـارب

وقالوا تزندق! وشكوا إلى الخليفة المقتدر فأمر بالقبض عليه وأتباعه، ونجا الحلاج وقبضوا على أربعة من أتباعه، وبعد ثلاث سنوات قبضوا عليه في واسط عندما استفحل خطره وتعاظم أمره. ويقول المستشرق الكبير نيكلسون أن رجال الدولة ضاقوا بنفوذ الحلاج وصيحاته ونداءاته واستغاثاته وخافوا أن توقظ همة الناس. واقتادوه إلى بغداد وناظر العلماء وتطاولوا عليه، ونفى ادعاء الألوهية، وذكر أنه ليس إلا عبداً لله يؤمن به وبرسله، ولكنه يدعو إلى الحق وينشد الخير للمسلمين ولا يقر الظلم، وتبرأ من الشهود الذين استدعوهم، واستعاذ بالله من الدعوى، وهاجت الجماهير المحتشدة خارج المحكمة، واستمر الحلاج متحفظاً عليه مدة تسع سنوات، وفيها وضع أهم ما كتب وخلده على مر الأيام، وهو مصنفاته التى بلغ عددها ٤٨ كتاباً، إلا أنهم لمّا استصدروا آخر الأمر الحكم بإعدامه راحوا يلاحقون أتباعه ويستولون على ما لديهم من أوراق وكاتبات له فضاعت جميعها إلا كتاب طاسين الأزل الذى أنقذه من الفناء صديقه ابن عطاء، وما تبقى من أشعاره التى لم يستطيعوا انتزاعها من صدور أحبائه، وشذرات من هنا وهناك عن التصوف. ومن ذلك قوله عن الصوفى: من أشار إليه فهو متصوف، ومن أشار عنه فهو صوفى، والصوفى وحدانى الذات، لا يقبل أحداً. وكلام الحلاج عميق ويحتاج للشرح الكثير، ففى طاسين التوحيد يقول مثلاً: الحق واحد أحد، وحيد موحد، والواحد والتوحيد فى وعن علم التوحيد مفرد مجرد. التوحيد صفة الموحِّد، لا صفة الموحّد. وأسماء كتبه غريبة عجيبة، فنها مثلاً: كتاب الصيهور فى نقص الدهور، وكتاب الأبد والمأبود، وكتاب كيف كان وكيف يكون، وكتاب هو هو، وكتاب لا كيف. ويقول المؤرخون أنه لما جيء به ليقتل أخذ يتبختر فى قيده وينشد:

طلبت المستقر بكل أرض ... فلم أر لى بأرض مستقرا
فنلت من الزمان ونال منى ... وكان مناله حلواً ومرا

ولمّا التفت ورأى الخشبة والمسامير التى سيصلبونه عليها ضحك حتى دمعت عيناه وزعق على الشبلى: هل معك سجادتك؟ ثم صلّى ركعتين فقرأ فى الأولى فاتحة الكتاب ثم قوله تعالى لنبلونكم بشيء من الخوف والجوع، وقرأ فى الثانية فاتحة الكتاب ثم قوله تعالى كل نفس ذائقة الموت، فلما سلّم قال: اللهم إنك المتجلى عن كل جهة، بحق قدمك على حدثى، وحق حدثى تحت ملابس قدمك، أن ترزقنى شكر هذه النعمة التى أنعمت بها علىّ حيث غيبت أغيارى عما كشفت لى من مطالع وجهك، وحرمت على غيرى ما أبحت لى من النظر فى مكنونات سرك. هؤلاء عبادك قد اجتمعوا لقتلى تعصباً لدينك، وتقرباً إليك، فاغفر لهم فإنك لو كشفت لهم

ما كشفت لى لما فعلوا ما فعلوا ، ولو سترت عنى ما سترت عنهم لما ابتليت بما ابتليت ، فلك الحمد فيما تفعل ، ولك الحمد فيما تريد » . ثم دنا منه الجلاد وبدأ يضربه بسياطه حتى أتمها ألف جلدة ، فلما انتهى كان الحلاج قد ذهب فى غيبوبة روحية حتى جعل يقول :

نديمى غير منسوب إلى شىء من الحيف
دعانى ثم حيّانى فِعل الضيف بالضيف
فلما دارت الكأس دعا بالنطع والسيف
كذا من يشرب الراح مع التنين فى الصيف

ثم قال : يستعجل بها الذين لا يؤمنون بها ، والذين آمنوا مشفقون منها ، ويعلمون أنها الحق ، ألا إن الذين يمارون فى الساعة لفى ضلال بعيد .

وتقدم السيّاف فقطع اليد اليمنى ثم اليسرى ، فلم يتأوه ولم يتألم وقال :

وحُرمة الود الذى لم يكن يطمع فى إفساده الدهر
ما نالنى عند هجوم البلا بأس ولا مسنى الضر
ما قُدّ لى عضو ولا مفصل إلا وفيه لكم ذكر

وفى غفلة من الجنود الذين كانوا ينهالون على الجموع الغفيرة التى جاءت تشهد صلب وقتل ولى من أولياء الله ضرباً وسباً ، أوفد الشبلى فاطمة الأموية إلى الحلاج على الصليب تبلغه : إن الله قد أئتمنك على سر من أسراره فأذعته فأذاقك طعم الحديد ، وطلب منها أن تحفظ ما يقول لها ، وأن تسأله ــ وهذه هى النتيجة فماذا يكون التصوف ؟ ومضت المرأة وبلغت الرسالة فأنشدها الحلاج :

تحاسرت فكاشفتك لما غلب الصبر
وما أحسن فى مثلك أن يُنتهك الستر
وإنْ عنفنى الناس ففى وجهك لى عذر
كأن البدر محتاج إلى وجهك يا بدر

وقال لها إذهبى وقولى له ما أذعت له سرا . وسألته ــ والتصوف ؟ فقال : أهون مرقاة فيه ما ترين . قالت فما أعلاه ؟ قال ليس لك إليه سبيل ، ولكن سترين غداً ما يجرى ، فإن الغيب ما شهدته وغاب عنك . والله ما فرقت بين نعمة وبلوى ساعة قط .

وفى اليوم التالى عذّبوه حتى كانوا يقطعونه عضواً عضواً فكان ينشد :

اقتلونى يا ثُقاتى إن من قتلى حياتى
ومماتى فى حياتى وحياتى فى مماتى
أنا عند مَحْو ذاتى من أجل المكرمات
وبقائى فى صفاتى من قبيح السيئات
فاقتلونى واحرقونى بعظامى الفانيات
ثم مروا برفاتى فى القبور الدراسات
تجدوا سر حبيبى فى طوايا الباقيات

وقبل أن يضرب السياف عنقه كانت آخر كلمة له : « حسْبُ الواجد إفراد الواحد له » فما سمع بهذه الكلمة أحد من المشايخ إلا ورَقّ له ، ثم ضربوا عنقه ، ولم يبق ببغداد إلا من شهد قتله ، وصبّوا على الجسد النفط وأشعلوا فيه النار ثم حملوا الرماد على رأس منارة لتذروه الريح ، وكان ذلك فى السادس والعشرين من ذى القعدة سنة ٣٠٩ هـ ، ونصبوا الرأس يومين على الجسر ثم طيف به فى خراسان . عليه رحمة الله وسلامه وبركاته .

■ ■ ■

الحنفى (شمس الدين)

أبو عبد الله محمد بن حسن ، ولقبه الحنفى نسبة إلى مذهبه ، وطريقته هى الطريقة الشاذلية ، وهو خامس الخلفاء فيها ، سكن القاهرة واشتهر بحكاياته مع السلطان برقوق وغيره ، وله « **الروض النسيق فى علم الطريق** » ، وله ديوان شعر ذكره بروكلمان ، وفى شعره شطحات وعبارات ، ومن ذلك :

فإن قلبى بيت لربى تطوف من حوله القلوب

والحنفى نشأ يتيم الأبوين ، وكان جميل السمت ، وكفله خاله الذى حاول أن يعلمه حرفة فكان يهرب منها إلى الكتاب ليحفظ القرآن ويدرس على الفقهاء ، ثم اختلى فى الرابعة عشرة ، وله الأمثال فى التصوف ، ومن ذلك حكايته عن التوتة قال : قالت لى : زرعونى فلما سقونى أسست ، فلما أسست فرّعت ، فلما فرعت أورقت ، فلما أورقت أثمرت ، فلما أثمرت أطعمت . وقال : فكان كلامها **سلوكا لى .**

وكان الحنفى يحب الفاخر من الثياب ، وينكره عليه القوم . وقال عن **الولى :** هو من قال لا إله إلا الله ، وقام بشروطها ، وشروطها أن يوالى الله ورسوله ، بمعنى أنه يوادّ

الله بشهادته له بالوحدانية، ولمحمد ﷺ بالرسالة. وكان يقول: إذا مات الولى انقطع تصرفه فى الكون من الإمداد، وإذا حصل للزائر مدد بعد الموت، أو قضاء حاجة فهو من الله تعالى على يد القطب صاحب الوقت، فيعطى الزائر من المدد على قدر المزوْر. وهو قول جديد فى هذا الأمر من الحنفى يخرج به إلى دائرة العقل. وقالوا فى تفسير مقالته: ليس المزور فى الحقيقة إلا الصفات لا الذوات، فإن الذوات تبلى وتفنى، والصفات هى الباقية. والناس فى الزيارة إنما تتذاكر الصفات. وكان الحنفى نفسه يزور قبر أحد الصالحين وكان فى زمنه أبآراً، وكلمه أصحابه فى سبب هذه الزيارات فذكر أن الرجل كان كثيراً ما يطلب من الناس أن يقوموا لأهل العلوم الربانية، ويعلل طلبه منه أن قيامهم فى حقيقته هو قيام لصفة من صفات الله أنار بها قلوب هؤلاء الأولياء. ومات الحنفى سنة ٨٤٧هـ.

■ ■ ■

إبن أبى الحوارى (أحمد)

ريحانة أهل الشام فقد كان يعظ الناس بأعذب الكلام، ويكثر من القصص، وينسب للتوراه والإنجيل، ويحكى عن النبى ﷺ ويروى أحاديثه. قال عن علىّ بن فضيل أنه قال لأبيه: يا أبت ما أحلى كلام أصحاب محمد ﷺ، فقال: يا بنى وتدرى لما الحَلاَ؟ قال لا يا أبت. قال: لأنهم أرادوا الله به! وهكذا كانت روايات أحمد. وكان كثير الوعظ للنساء ويروى عنهن، وقد روى عن أسماء الرملية والبيضاء بنت المفضل، ورابعة بنت اسماعيل، وتزوجها لما خطبته من نفسه واستشار استاذه أبا سليمان الدارانى فيها، وكانت قد ورثت مالاً، ولها طريق إلى الله، فأرادت أن تنفقه على الإخوان، أى الصوفية، فأشار عليه الدارانى بالزواج منها، **فإن كلامها من الصدّيقين وإنها لولية لله.** ورابعة هذه سمية رابعة العدوية، وقيل اسمها رايعة، وكان الرواة يخلطون بين الرابعتين حتى ظنوا قبرها بالشام هو قبر العدوية. ولم تكن رابعة بها شهوة لابن أبى الحوارى، وتحكى أنه عندما كان يجيئها كانت تطعمه الطيبات وتطيبه وتقول له إذهب بنشاطك وقوتك إلى أزواجك. وقيل إنه تزوج عليها ثلاث نسوة. ويروى أحمد عن الدارانى الكثير، بل ويعتبر فى حكم الراوى الوحيد عنه. وكلامه يدور أغلبه على المحبة، أو أن ما يرويه عن الآخرين أغلبه عنها. وهو يروى مثلاً عن أحد الرهبان مبرراً عزلته وحبسه لنفسه: نجد فى كتبنا أن بدن ابن آدم خلق من الأرض، وروحه خلق من ملكوت السماء، فإذا أجاع بدنه وأعراه وأسهره نازع الروح إلى الموضع الذى خرج منه، وإذا أطعمه وسقاه ونوّمه وأراحه أخلد البدن

إلى الموضع الذى خرج منه، فلم يكن شىء أحب إليه من الدنيا. قيل ولهذا سُمى الصوفية باسم **الروحانية، وباسم الجوعية**، لأنهم أجاعوا البدن فصاروا أرواحاً هائمة. واشتهر ابن أبى الحوارى بقصصه أو أماثيله، ويحكى أن امرأة طرقت بابه وقالت: ضالة، دلّنى على الطريق رحمك الله. قال: رحمك الله، على أى طريق تسألين؟ فبكت ثم قالت: يا أحمد على طريق النجاة! قال: هيهات. إن بيننا وبين طريق النجاة عقابا، وتلك العقاب لا تقطع إلا بالسير الحثيث وتصحيح المعاملة وحذف العلائق الشاغلة عن أمر الدنيا والآخرة. قال فبكت بكاء شديداً، ثم قالت: يا أحمد، سبحان من أمسك عليك جوارحك فلم تتقطع، وحفظ عليك فؤادك فلم يتصدع. ثم خرت مغشياً عليها، فقال لبعض النسوة: انظرن أى شىء حال هذه الجارية؟ فقمن إليها ففتشنها وقلن إنها ميتة، فقلت لمن هى، قالوا: جارية قرشية مصابة وكانت تشكو إلينا وجعاً بجوفها فكنا نصفها لمتطببى الشام فكانت تقول: خلّوا بينى وبين الطبيب الراهب —تعنى أحمد— أشكو إليه بعض ما أجد من بلائى لعله أن يكون عنده شفائى!! ولا ندرى السبب الذى من أجله يصف إبن أبى الحوارى نفسه **بالطبيب الراهب**، إلا أن يكون ذلك لاشتهاره بالرواية عن الإنجيل والتوراة. ولعله كان كثير الاقتناء للكتب غير الإسلامية التى يستقى منها درايته بحكايات الصالحين من غير المسلمين، ولعله فى لحظة زهد فيها فاستغنى عنها وألقاها، فقد رووا عنه أنه قال فى تبرير فعلته: نِعْمَ الدليل كُتبٍ (أى الكتب)، والاشتغال بالدليل بعد الوصول محال. وقيل إنه فعل ذلك بعد ثلاثين سنة كان يطلب العلم فيها فلما بلغ فيه الغاية حملها إلى البحر فغرّقها وقال: يا علم، لم أفعل هذا بك تهاوناً بك، ولا استخفافاً بحقك، ولكن كنت أطلبك لأهتدى بك إلى ربى، فلمّا اهتديت بك إلى ربى استغنيت عنك! ويبدو أنه قد تعلم أيضاً أن **العلم** لا يوصل إلى الله تعالى وإنما العلم لغاية أخرى. يقول: لا دليل على الله سواه، وإنما يطلب العلم لآداب الخدمة. وإن كان للعلم درس قد انتهت إليه فائدته فهو هذا الدرس الذى يحكيه عن أحد الرهبان لمّا سأله عن الشىء القوى الذى يجدونه فى كتبهم، قال: ما نجد شيئاً أقوى من أن تجعل حيلك وقوتك كلها فى محبة الخالق! **ونظريته فى المحبة** أنه ليس من أعلام الحب أن تحب ما يبغضه حبيبك، وعلامة حب الله هو طاعته، وحب ذِكْره، ولا يستطيع العبد أن يحب الله حتى يكون الابتداء من الله له بالحب، وذلك حين يعرف منه الاجتهاد فى مرضاته، ومرتبة الحب لله هى أعلى مراتب السلوك، وهى مرتبة المقرّبين، وحتى حبه للناس يحكمه الحب لله، فالرجل لا يحب أخاه إلا لأنه يراه يحسن خدمة ربه. **والرضا**

بالله هو نواة الحب لله، وهو أن لا تختار شيئاً إلا ما يختاره الله لك، والرضا يسلم إلى الطاعة، والطاعة معها الندم على الذنب وتصحيح المعاملة والاستغفار باللسان والتوبة، والتوبة تؤدى إلى الزهد، ومن الزهد يتشعب الصدق والتوكل والاستقامة، ثم تتشعب المعرفة، ومنها الذكر، ثم يتشعب من الذكر الحلاوة والتلذذ فيكون الأنس فالحياء من الله فالخوف منه، ثم تحدث الروعة فيكون الانتهال إلى محبة الله التى تورث محبة كلامه وهو القرآن. يقول إبن أبى الحوارى: إنى لأقرأ القرآن فأنظر آية آية فيحار عقلى فيها، وأعجب من حفّاظ القرآن كيف يهنيهم النوم ويسيغهم أن يشتغلوا بشىء من الدنيا وهم يتكلمون كلام الرحمن!! أما لو فهموا ما يتلون وعرفوا حقه وتلذذوا به واستحلوا المناجاة به لذهب عنهم النوم فرحاً بما رزقوا ووفقوا!!

وتوفى رحمه الله سنة ٢٣٠ هـ، وقيل سنة ٢٤٠ هـ عن ٨٢ سنة.

■ ■ ■

إبن حيّان

أبو موسى جابر بن حيان، وحيد عصره فى الكيمياء، وأطلق عليه اللاتين اسم **جابر ملك العرب** Geber Rex Arabum، فقد كان مكتشفاً ورائداً، وجمع فى مذهبه علم الأوائل والأواخر، وحاز السبق فى الكيمياء والتنجيم والسحر والموسيقى والطب والرياضيات والفلسفة والعلوم العرفانية. وجابر من مواليد الكوفة، وقيل إن أصله حرّانى، وأنه كان صابئاً وأسلم، وحَسُن إسلامه، وقيل إنه **تلقى** على الإمام **جعفر الصادق**، وبسبب ذلك سمى **صوفياً**، وقال جابر عن علمه إنه علم بالتلقى، أو علم لدنى، فاض عليه من الإمام الذى يسميه **معدن الحكمة**، وأن دوره فيه هو إعادة صياغته وترتيبه فحسب. وجابر كتب نحو **خمسمائة** رسالة، بعضها فى الكيمياء القديمة، وبعضها شروح على أرسطو وأفلاطون، وبعضها يشرح فيها مذهبه، وهو **مذهب توحيدى** يربط فيه بين النظريات الكيميائية والفلسفة الدينية، ويطلق على ذلك اسم **علم الميزان**، ومرجعه فى ذلك القرآن حيث يقول الله تعالى فى سورة الرحمن «والسماء رفعها ووضع الميزان، ألاّ تطغوا فى **الميزان**، وأقيموا **الوزن** بالقسط ولا تخسروا **الميزان**»؛ ويعتبر **المعادن** كائنات حية، تُحتضن فى باطن الأرض لآماد طويلة فتتحول من معادن خسيسة إلى معادن نفيسة، وغاية علم الكيمياء الإسراع بهذا التحول. ويطبق جابر مذاهب التناسل والزواج والحمل والتعليم على المعادن، وكذلك

مذاهب الحياة والموت ، ويصف العناصر الغليظة الأرضية بأنها ميتة ، ويقول عن العناصر اللطيفة المشرقة أنها حية ، وينسب للعنصر الكيميائى نفساً وجسماً ، ويقول بأنه مركب من جزء مادى وجزء روحى ، وأن عمل الكيميائى هو فصل الواحد عن الآخر ، وتلطيفه ، وإعطاء كل جزء الطبع الذى يناسبه . ويبشر جابر بعصر جديد ، وبقرب ظهور **الإمام المنتظر** الذى تؤول إليه سيادة العالم فينصلح أمره ويسوده السلام ويعمه الخير . وهو يفسر **التاريخ** بدورات يربطها بظهور الوحى ، وعنده **أن الوحى** منذ الإمام علىّ ظهر ست مرات ، وفى المرة السابعة تبدأ مرحلة **الإمام المنتظر** من نسل علىّ **الإمام الإلهى الصامت** الغيبى ، **والإمام الناطق** هو الإمام المنتظر وهو الناسوت ، والإمام علىّ بمثابة **اللاهوت** الذى يحل فى **الناسوت** ، وهو أقنومة **العين** ، والأقانيم الأخرى اثنان : السين والميم ، **والسين** يعنى سلمان ، **والميم** يعنى محمد ، ومرتبة السين أعلى من الميم ، والإمام المنتظر يفيض من العين مباشرة بلا واسطة . وترد فى مذهب جابر مصطلحات مثل الحُجة والباب والداعى المطلق ، ويقول بالأضداد ، ويدين بالتناسخ ، ويكثر من استخدام الفسخ والرسخ والمسخ والأدوار والأكوار . ويفسر ابن النديم هذه الاتجاهات لدى جابر بأن « لهذا الرجل كتب فى مذاهب الشيعة » ، ويضيف أن أصله من خراسان ، وقد ورد فى « أخبار الحكماء » أن جابراً كان متقلداً للعلم المعروف بعلم الباطن ، وهو مذهب المتصوفين من أهل الإسلام كالحارث المحاسبى وسهل بن عبدالله التسترى ونظرائهم . ويؤرخ بن أبى أصيبعة لوفاته بسنة ٢٠٨ هـ أى بعد وفاة جعفر الصادق بستين سنة ، فإن كان قد تلقى عنه فكيف كان ذلك ؟ ويبدو أن كثرة الحكايات المتضاربة عنه هى التى جعلت ابن النديم يذكر أنه قد قيل فى النهاية « إن هذا الرجل لا أصل له ولا حقيقة » .

■ ■ ■

خ

الخرّاز

أبو سعيد أحمد بن عيسى الخرّاز، المتوفى سنة ٢٧٧ هـ، من أهل بغداد، وصحب ذا النون المصرى وسرياً السقطى وبشر بن الحارث، وكنيته **الخراز** لاشتغاله بالخرازه، وكان الجنيد يقول: لو طالبنا الله بحقيقة ما كان عليه أبو سعيد الخراز لهلكنا، فإنه أقام كذا وكذا سنة يخرز فما فاته الحق بين الخرزتين! وكان من أئمة القوم وجلة مشايخهم، وأول من تكلم فى **علم الفناء والبقاء**، وله الكتب المذكورة، ومنها **كتاب الصدق** الذى كان محاطاً بالكتمان من الصوفية ويضنون به على غيرهم، **وكتاب الصفاء**، **وكتاب الضياء**، **وكتاب الكشف والبيان**، **وكتاب الحقائق**، وهى رسائل صغيرة لكنها نفيسة ترسم الطريق بدقة ووضوح. وطريقة أبى سعيد يسمونها **الخرازية**، وأساسها الفلسفى **الفناء والبقاء**، فالعبد الذى يسلك الطريق وينجح فى أن يفنى جهله فإنه يبقى بعلمه، والذى يفنى عن المعصية يبقى بالطاعة، والذى يفنى عن الغفلة يبقى بالذكر، وعلى الجملة فإن الفناء هو فناء عن الأوصاف المذمومة، والبقاء هو بقاء بالصفات المحمودة، ومع ذلك فالبقاء بأية صفة بمثابة الحجاب أو المانع عن التقدم فى الطريق إلى البقاء الخالص، حيث تمام الوصول يعنى الفناء الكامل عن كل الأوصاف، فلا بقاء بقاءً تاماً خالصاً إلا بالله وحده، حيث لا عارف ولا معروف، ولا مقامات ولا أحوال. وأوائل الطريق إلى الله **التوبة**، ثم يكون الانتقال إلى **مقام الخوف**، **فالرجاء**، **فمقام الصالحين**، **فالمريدين**، **فالمطيعين**، **فالمحبين**، **فالمشتاقين**، **فالأولياء**، **فالمقربين**، ولكل مقام عشرة شروط، إذا أحكمها السالك وعاناها، حل

قلبه فى المقام، وأدمن النظر فى النعمة، وجالت روحه فى ملكوت الله بخالص العلم به. والله تعالى يعجل لأرواح أوليائه التلذذ بذكره والوصول إلى قربه، ويعجل لأبدانهم النعمة بما نالوه من مصالحهم، فعيش أبدانهم عيش الجنانيين (يعنى أهل الجنة)، وعيش أرواحهم عيش الربانيين. والسالك يجد فى كل مقام أنسه بالله، ويستبشر قلبه بقربه من الله، ويسر به ويهدأ فى سكونه إليه وأمنه معه. وهو دائم العطاء، وفرحه فى العطاء بالمُعطى، ولذته فى اللذات بخالق اللذات، وتنعمه فى النعم بالمُنعم دون النعم، لأن ذكر النعمة عند ذكر المنعم حجاب، ورؤية النعمة عند رؤية المنعم حجاب. ومحور تفكير الخرّاز: كل مافاتك من الله سوى الله يسير، وكل حظ لك سوى الله قليل. والمحب يتعلل إلى محبوبه بكل شىء ولا يتسلى عنه بشىء، ويتبع آثاره ولا يدع استخباره:

أيَا مَنْ يرى الأسباب أعلى وجوده ... ويفرح بالتيه الدنى وبالأنس
فلو كنت من أهل الوجود حقيقة ... لغبت عن الأكوان والعرش والكرسى
وكنت بلا حال مع الله واقفا ... تصان عن التذكار للجن والإنس

ويفسر الخراز قوله تعالى: لعلمه الذين يستنبطون منه» بأن **المستنبط** هو الذى يلاحظ الغيب أبداً، فلا يغيب عنه شىء، ولا يخفى عليه شىء. ويقول فى قوله تعالى: «لآيات للمتوسمين» أن **المتوسم** هو الذى يعرف الوسم، وهو العارف بما فى سويداء القلوب، وبالاستدلال والعلامات، فيميز أولياء الله من أعداء الله. **والعارفون** هم خزائن الله، أودع الله تعالى فيهم علوماً غريبة وأخباراً عجيبة، يتكلمون فيها بلسان الأبدية، ويخبرون عنها بعبارات أزلية. وعندما يوالى الله تعالى عبداً من عبيده فإنه تعالى يفتح له باب ذكره، فإذا استلذ بالذكر فتح عليه باب القرب، ثم رفعه إلى مجلس الأنس، ثم أجلسه على كرسى التوحيد، ثم رفع عنه الحجب فأدخله دار الفردانية، وكشف له عن الجلال والعظمة، فإذا وقع بصره على الجلال والعظمة بقى بلا هو، فحينئذ يصير العبد **فانيا**، فيقع فى حفظ الله، ويبرأ من دعاوى نفسه. وسألوه. فهل يصل العارف إلى حال يجفو عليه **البكاء**، فقال: نعم. إنما البكاء فى وقت سيره إلى الله عز وجل، فإذا نزل إلى حقائق القرب، وذاق طعم الوصول، زال عنه البكاء، ولذلك ورد «فإن لم تبكوا فتباكوا» أى تنزلوا فى المقام ليقتدى بكم السائرون. والله تعالى يرزق العارف لسانين، **لسان فى الباطن** يعرّفه صُنع الصانع فى المصنوع، **ولسان فى الظاهر** يُعلمه عِلْم المخلوقين، فلسان الظاهر يكلم جسمه، ولسان

الباطن يناجي روحه . والله تعالى جعل العلم دليلاً عليه ليعرف ، وجعل الحكمة رحمة منه عليهم ليُولِّف ، فالعلم دليل إلى الله ، والمعرفة دالة على الله ، وبالعلم تُنال المعلومات ، وبالمعرفة تنال المعروفات ، والعلم بالتعلم ، والمعرفة بالتعرف . والمعرفة تقع بتعريف الحق ، والعلم يُدرك بتعريف الخلْق . وإذا كانت العين واحدة ، فمن أيٍّ تلونت عليك ، فاجْرِ فيها فإن التغيير من جهتك ، لأن عين الحق لا تتقلب .

وكان للخراز ولد صالح مات ، فرآه في المنام ، فسأله الخراز أن يوصيه فقال له : «لا تجعل بينك وبين الله تعالى قيصاً» ، فما لبس أبو سعيد قيصاً منذ ثلاثين سنة ، ربما على الحقيقة وإنما معنى ذلك لا تجعل بينك وبين الله تعالى حجاباً ، وهى وصية الخراز لمريديه . وكان يقول لهم : ينبغى للصوفى أن يكون لطيف اللبسة ، ملازماً للخلوة ، حسن الصيانة ، فلا يطلب إلا عند وجود الفاقات ، وإلاّ فهو والكذابون سواء . ويحكى الخراز أنه لقى مرة شخصاً يدّعى الجنون ، فناداه قف يا مجنون ، ويقول الخراز : فالتفت إلىّ وقال : أتدرى من المجنون ، فقلت لا ، قال : المجنون من يخطو خطوة ولا يذكر ربه فيها . وربما كانت الحكاية أمثولة يريد بها أن يعلم المريدين . وكان يقول لهم إن قلب الإنسان محمول على حب من يحسن إليه ، وإنى لأعجب ممن لم ير محسناً غير الله فكيف لا يميل بكليته إليه ! غير أن شرف العبودية لله لا يمكن أن يتصف به العبد إلا إذا صارت له الأذكار غذاء ، والتراب له فراشاً . ولا ينبغى الاغترار بالعبودية فإن العبد قد ينسى فيها الربوبية ويكتفى بأن يكون عبداً . وسألوه : وما الخلاص ؟ فقال : أن تشهدوا صنع الربوبية فى إقامة العبودية ، فتنقطعوا عن نفوسكم ، وتسكنوا إلى ربكم ، وهناك تسلمون من الاستدراج . ويحكى لهم فيقول : دخلت المسجد الحرام فرأيت فقيراً عليه خرقتان يسأل شيئاً ، فقلت فى نفسى : مثل هذا كَلٌّ على الناس ! وقد علمنا أن الخراز كان يتعيش من كسب يديه . ويقول : صحبت الصوفية ما صحبت فما وقع بينى وبينهم خلاف ، فقالوا لما ؟ ، قال : لأنى كنت معهم على نفسى . وليس من طبع المؤمن أن يقول لا ، وذلك أنه إذا نظر ما بينه وبين ربه من أحكام الكرم استحى أن يقول لا . ويضرب الخراز المثل فيقول : رأيت إبليس فى النوم وقد مَرّ عنى ، فقلت : تعال ، فقال : وما عساى أعمل بكم . انتم طرحتم عن نفوسكم ما أخادع به الناس . فقلت : وما هو ؟ قال : الدنيا . وقال : ورأيته مرة أخرى ، وكان بين يدىّ عصا فرفعتها حتى أضربه بها فهتفت بى نفسى : هذا لا يفزع من العصا ، وإنما فزعه من نور القلب . وقال : العارف يستعين بكل شىء ، فإذا وصل استغنى بالله وارتفعت همته عن

الوقوف عما سواه وافتقر الناس إليه . اعرفوا نفوسكم ، فمثل النفس فى الصفات كمثل ماء طاهر صاف ، فإذا حركته ظهر ما تحته من الحمأ ، وكذلك النفس تظهر مرتبتها عند المحن والفاقة والمخالفة لأهوائها ، ومن لم يعرف ما طويت نفسه من الصفات ، فكيف يمكن أن يدّعى معرفة ربه ؟ واعلموا أن كل باطن يخالفه ظاهر فهو باطل . وسألوه عن سبب معاداة الصوفية لبعضهم البعض ، وبغضهم لبعضهم البعض ، فقال : لأنه لا رياسة عندهم ، والله قدّر عليهم ذلك غيرةً منه عليهم أن يسكن بعضهم إلى بعض ، ولكنهم مع ذلك وعندما يقع لهم كمال السير تذهب بغضاؤهم ، لأن الكامل لا يرى هناك من يرسل غضبه عليه من الخلق .

■ ■ ■

إبن خضرويه

أبو حامد أحمد بن الخضر المعروف بابن خضرويه البلخى ، توفى سنة ٢٤٦ هـ عن خمس وتسعين سنة ، واشتهر **بالفتوة والهمة** ، ويروون عنه أن زوجته وكان اسمها أم على كانت كلما نظرت إليه ترجع إلى حظوظ نفسها ، أى تجد نفسها كأنثى ، وكلما نظرت أبا يزيد البسطامى فقدت حظوظ نفسها ، فطلبت إليه أن يطلّقها على أن يزوجها البسطامى ففعل وحملها إليه ، وكان يرى ذلك منها ومن نفسه صدقاً ، فالذى يحب الله ينبغى أن يلزم الصدق معه ، والله دائماً مع الصادقين ، والتصوف إيثار ، وابن خضرويه كان يتخارج من الدنيا وينزل عن ماله ويقترض ليخدم الفقراء ويجد فى ذلك حريته أو تحرره من الدنيا والعلائق وذلك وحده الطريق ليكون مع الله خالصاً ، وليكون له عبداً على الحقيقة ، **فتمام العبودية لله هو حريته الحقيقية** ، والذى يميت نفسه ، أى يقتل فيها شهواتها ونزواتها ، هو الحر ، وهو الغنى ، وفى موات النفس حياتها ، **والهمة** هى قطع النفس عن كل ما سوى الله وتلك حقيقة المحبة له .

■ ■ ■

إبن الخطيب (لسان الدين)

صاحب « **روضة التعريف بالحب الشريف** » ، وهو من الكتب المعدودة فى التصوف ؛ ولد ونشأ بغرناطة (٧١٣ ــ ٧٧٦ هـ) واستوزره سلطانها أبو الحجاج يوسف بن

اسماعيل، وكان أهله يطلق عليهم اسم **بنى الوزير** لاستوزارهم، ثم أصبحوا يعرفون **ببنى الخطيب** نسبة إلى جدهم الأعلى سعيد بن عبد الله الذى اشتغل **خطيباً**، وعرف بسعيد الخطيب. وابن الخطيب هو أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن سعيد بن عبد الله بن على بن أحمد **السلمانى**، من أسرة هاجرت من الشام إلى الأندلس، ولذلك فهو يعرف أيضاً باسم ابن **الخطيب السلمانى**، ويقال له **ذو الوزارتين**، وزارة السيف ووزارة القلم، **وذو العمرين** لأنه كان يشغل عمره نهاراً بالوزارة، وعمره ليلاً بالتصنيف، **ولسان الدين** لعلمه الجم ومؤلفاته الكثيرة التى بلغت فيما قيل **ستين** مصنفاً، معظمها فى التاريخ والجغرافيا والأدب والتصوف والفلسفة والطب، ولم يصلنا منها إلا ثلثها تقريباً. وقيل فيه إنه كان أعظم الكتاب والشعراء ورجال الدولة وخاتمهم فى غرناطة، إن لم يكن فى الأندلس كلها. وكتابه **روضة التعريف** فى المحبة الإلهية، وموضوعاته مرتبة على هيئة شجرة وأرض، **فالشجرة** هى المحبة، مناسبةً وتشبيهاً، وإشارة إلى ما ورد فى الكتب المنزلة، **والأرض** هى النفوس التى تُغرس فيها، **والأغصان** أقسامها، **والأوراق حكاياتها**، **والأزهار** أشعار الصوفية، **والثمرة** الوصول إلى الله تعالى. واستكثر ابن الخطيب من **الأشعار** فى الكتاب، لأن الأشعار بمنزلة النسيم الذى يحرك أفنان الشجرة، والمزمار الذى ينفخ الشوق فى قلمه، كما استكثر من **الحكايات**، لأنها تروّح عن القارىء جهد القراءة، وتخفف الموضوع إن كان ثقيلاً. **والحب الإلهى** كما يعرضه ابن الخطيب هو الأصل فى كل تصوف، والسلوك إلى الحب يكون **بالذكر**، **والمعرفة العامة** تسبق الحب، فتتحصل به **المعرفة الخاصة**. ويعدّد ابن الخطيب أوصاف العارف وعلومه، وأنواع المحبوبات، ويعرّف بالمحبين من الفلاسفة الأقدمين، والإشراقيين، والإسلاميين، والمتكلمين، والصوفية سادة المسلمين، ويذكر علامات المحبة وأخبار المحبين. والكتاب برمته عرض لمذاهب التصوف، وأحواله ومقاماته وحقائقه، ومن ذلك **مذهب أهل الحلول والاتحاد**، فقد عرضه ابن الخطيب وشرحه واستوفاه، ووجد أعداؤه وحاسدوه من أهل السياسة فى تلك الشروح فرصتهم ليكيدوا له عند السلطان وينالوا منه ويوقعوا به، ففر ابن الخطيب سنة ٧٧٣هـ إلى سبتة فتلمسان واستقر بها فى ضيافة السلطان عبد العزيز ثم ابنه السعيد بالله إلى أن خلع هذا وتولى أبو العباس المستنصر الذى ساعده الغنى بالله صاحب غرناطة مشترطاً عليه شروطاً منها تسليمه ابن الخطيب، وتم القبض عليه، وأحضر إلى مجلس الشورى، ووجهت إليه **تهمة الزندقة وسلوك مذهب أهل الفلسفة** من ابن زُمْرُك وزير غرناطة الذى استقدموه على عجل ليحضر المحاكمة، وأفتى بعض

الفقهاء بقتله فأعيد إلى السجن، ويقول السلاوى المؤرخ إن رئيس الشورى سليمان بن داود أوعز إلى بعض الأوغاد من حاشيته أن يتسللوا إلى السجن ليلاً ويقتلوه، وتحقق ذلك وقاموا بخنقه ثم أشعلوا النار فى جثته ودفنوه فى مقبرة باب المحروق بفاس. ومما أخذ عليه قوله فى أصحاب وحدة الوجود والحلولية والاتحادية أنهم تدرجوا فى المراتب غير المكانية ولا الزمانية يبتغون القرب من الله حتى صح أن حقيقتهم العدم، يعنى أن خلْق الله هم صفته، فالأشياء سواه هى أفعاله وصفاته مع وجود الله عدم، وفى ذلك أنشدوا:

تمنى المحب يرى علوة   وقد شاع فى حبه وصفها
أعارته طرفاً يراها به   فكان البصير لها طرفاً

ويظهر ذلك عند حب الله إياه، وأنه سمعه وبصره ويده، فإذن ليس ثم إلا الله، وأن الخلق له، ثم به، ثم لا شيء إلا الله فى الوجود. ألا كل شيء ما خلا الله باطل، وليس مرادهم أن شيئين صارا واحداً، وإنما مرادهم أن التوحيد الحقيقى هو التخلص من ضيق عالم الحدوث إلى فسحة القِدَم. ومن زعم أنه تلاشت رسومه وفنى عن وجوده، ثم فنى عن فنائه، وأدرك عند ذلك حقيقة ذاته، لا يسعنا الحكم عليه بالرد ولا بالإثبات لأننا لا نعلم حقيقة ما يقول بالبرهان ولا بالنقل، ومدعيها من أهل الاستقامة، ولا يصح الحكم على ما نعرف، وإنما مستند هذه الدعوى هو الوجدان.

■ ■ ■

إبن خفيف

أبو عبد الله محمد بن خفيف الشيرازى (٢٧٦ - ٣٧١هـ)، كان من أبناء الملوك وتصوف كأبيه، وكان أول شيوخه هو شيخ أبيه أبو العباس أحمد بن يحى، فلقيه بأول درس له فى الرياضة، بأن طلب منه توصيل لحم اشتراه إلى البيت، وخجل أن يحمل اللحم ويسير به وسط السوق، فركن إلى حائط أحد المساجد لا يدرى ماذا يفعل، واستخار الله وسار به والناس يتصايحون عليه لمعرفتهم بأصوله، وعاد يتصبب عرقاً إلى الشيخ فاستعاده ما جرى له، فحكى ابن خفيف عن تجربته ولكن الشيخ طمأنه وتنبأ له بمستقبل فى الطريق، وصار ابن خفيف من كبار الصوفية وشيخ المشايخ فى وقته،

وله كتاب **المعتقد**، وطريقته فى التصوف كما يوردها الهجويرى فى كشف الظنون تقوم على **الحضور** كمقابل **للغيبة**، فمن غاب عن نفسه فإنما حضوره مع الحق وإلا فالغيبة بلا حضور جنون. وقد رجع الإمام ابن تيمية إلى أقواله فى المعتقد فى فتواه الحموية وينقل عنه قوله فى الحلولية: ومن زعم الإشراف على الخلق، يعلم مقاماتهم ومقدارهم عند الله بغير الوحى المنزل، فهو خارج عن الملّة، ومن ادعى أنه يعرف مآل الخلق ومنقلبهم، وعلى ماذا يموتون عليه، ويفتى لهم بغير الوحى المنزل من قول الله ورسوله، فقد باء بغضب من الله؛ ومن زعم أن صفات الله تعالى بصفات العبد فهو حلولى قائل باللاهوتية والالتحام، فذلك كفر لا محالة؛ ومن قال إن شيئاً من صفات الله حال فى العبد، أو قال بالتبعيض على الله فقد كفر. ويقول ابن خفيف فى معتقده: إن البارى تعالى واحد، لا حالّ فى الأشياء، ولا الأشياء حالّة فيه، ولا يتجلى فى شىء، ولا استتر بالحدث. ويقول ابن خفيف **فى النبوة والولاية**: الوصول من غير طريقة العبودية محال، والنبوة أجّل من الولاية، ولا يبلغ درجة النبوة بالعمل، والمعجزة للأنبياء، والكرامة للأولياء. ومن أقوال ابن خفيف: عهدى بالصوفية يسخرون من الشيطان، والآن الشيطان يسخر منهم. **والتصوف** عنده هو تصفية للقلب عن موافقة البشرية وإخماد صفاتها، ومفارقة أخلاق الطبيعة ومجانبة الدعاوى النفسية ومنازلة الصفات الروحية، والتعلق بعلوم الحقيقة، والوفاء لله على الحقيقة، واتباع الرسول ﷺ فى الشريعة. **والإيمان** تصديق القلب بما أعلمه الحق من الغيوب، **والتقوى** مجانبة ما يبعدك عن الله تعالى، **والخوف** اضطراب القلب بما يعلم من سطوة المعبود، **والتوكل** اكتفاء بضمان الحق وإسقاط التهمة عن قضائه، **والرياضة** هى كسر التقوى بالخدمة، **واليقين** هوأن تتحقق الغيوب، **والقُرب** طى المسافات بلطيف المداناة وقربك منه بملازمة الموافقات، **والانبساط** سقوط الاحتشام عند السؤال، **والمشاهدة** اطلاع القلب بصفاء اليقين إلى ما أخبر الحق عن الغيوب، **والوصول** هو الاتصال بالمحبوب دون كل شىء سواه والغياب عن كل شىء سواه، **والسُكر** غليان القلب عند معارضات ذكر المحبوب. **والمطالبات** بالنسبة للمريد شتى، **فمطالبة الإيمان** هى ما يحدوك عليه من صحة التصديق بوعده ووعيده، **ومطالبة العلم** ما تتبين به أحكامه فتظهر دلائله ويطالبك الحق باستعماله، **ومطالبة الحق** وهى التى إذا بدت قهرتك وجذبتك إلى ما أراد بصولته سبحانه. وليس شىء أضر بالمريد من مسامحة النفس فى ركوب **الرخص** وقبول التأويلات. **والأكل مع الفقراء** قُربة إلى الله.

وكان رحمه الله يشكو وجع الخاصرة، فكان إذا أخذه أقعده عن الحركة، فكان إذا

أقيمت الصلاة يُحمل على الظهر إلى المسجد ليصلى، فقيل له لو خففت على نفسك لكان لك سعة فى العلم، فقال إذا سمعتم حى على الصلاة ولم ترونى فى الصف فاطلبونى فى المقابر. وقال سألت الله أن ألقاه ولا يكون لى شىء، ولا لأحد علىّ شىء، ولا يكون على بدنى من اللحم شىء. ولمّا اشتدت به العلة ظل طريح الفراش سنة وأربعة شهور لم يتحرك، وسألوه قرب وفاته كيف يجد العلة، قال سلوا العلة عنى، فقالوا قل لا إله إلا الله فأنشد:

أفنيت كُلى بكُلِّك ... هذا جزا من يحبك!

■ ■ ■

إبن خلدون (عبد الرحمن)

الفيلسوف المؤرخ الأشهر، الأندلسى الأصل، التونسى المولد (٧٣٢هـ) والنشأة، صاحب كتاب **« العبر وديوان المبتدأ والخبر فى تاريخ العجم »** فى ستة مجلدات، أولها **المقدمة** التى ذاع صيتها، وترجمت إلى مختلف اللغات، ووضعت بشأنها المؤلفات، وتعد من أصول علم الاجتماع. وله رأى فى نشأة التصوف ومذهب المتصوفة، وينسب المتأخرين منهم للفلاسفة ويتولى الرد على أقوالهم فى **الفصل الحادى عشر من المقدمة**، ويقول فيه إن التصوف من العلوم الشرعية **الحادثة**، وأصله ما كان عليه السلف من الصحابة والتابعين من العبادة والهداية، والانقطاع إلى الله تعالى، والإعراض عن زخرف الدنيا، والزهد فيما يقبل عليه الجمهور من اللذات والمال والجاه، والانفراد عن الخلق فى الخلوة للعبادة، فلما فشا الإقبال على الدنيا فى **القرن الثانى وما بعده**، اختص المقبلون على العبادة باسم **الصوفية والمتصوفة**، من حيث أن الإدراك على نوعين، **إدراك للعلوم والمعارف** من اليقين والظن والشك والوهم، **وإدراك للأحوال** القائمة من الفرح والحزن، والقبض والبسط، والرضا والغضب، والصبر والشكر وأمثال ذلك، فإن الصوفية إدراكهم من هذا النوع الأخير، فالروح العاقل والمتصرف فى البدن تنشأ من الإدراكات والإرادات والأحوال، وتلك ميزة الإنسان على سائر المخلوقات، وهى إدراكات ينشأ بعضها من بعض كما ينشأ العلم من الأدلة، ومن الفرح والحزن عن إدراك المؤلم أو المتلذذ به. **والمريد** ينشأ له عن مجاهداته

أحوال، وهى من نوع العبادات التى ترسخ وتصير له **مقامات**، أو لا تكون من نوع العبادات وإنما هى صفات حاصلة للنفس من الحزن والسرور أو النشاط أو الكسل أو غير ذلك من المقامات. ولا يزال المريد **يترقى فى المقامات** إلى أن ينتهى إلى **التوحيد والمعرفة** اللتين هما الغاية المطلوبة للسعادة، فقد ذكر رسول الله ﷺ فى ذلك أن «**من مات يشهد أن لا إله إلا الله دخل الجنة**»، والمريد يترقى فى المقامات نحو هذا الهدف، وأساسها جيعاً **الطاعة والإخلاص والإيمان**، ولها ثمراتها من **الأحوال والصفات**، وحدوث **الخلل فى الترقى** معناه وجود تقصير فى **المحاسبة**؛ والمريد فى مجاهداته ومحاسباته يمارس ذلك بذوقه، **والأذواق والمواجيد** هما طريق الصوفية، ولهم فيها **آداب ومصطلحات** تدور بينهم وليست لغيرهم من أهل الشريعة والكلام. وصار علم الشريعة بهم علمان، **علم اختص به الفقهاء** يتعلق بالعبادات والأحكام والمعاملات، **وعلم اختصوا به** موضوعه هذه المجاهدات والمحاسبات والأذواق والخلوة والمواجيد والذكر والاصطلاحات، وصارت لهم به مؤلفاتهم كما **عند القشيرى والسهروردى والغزالى**، وصار علم التصوف يُدّون بعد أن كان فى الصدور وكانت الطريقة عبادات فقط. ويقول الصوفية بالكشف، أى كشف حجاب الحس، بمعنى الاطلاع على عوالم من أمر الله، وسبب الكشف أن الروح تقوى بالمجاهدات والانصراف عن الحس الظاهر إلى الباطن، **والذكر** للروح كالغذاء، ولا يزال ذلك يزيد بالصوفى حتى يتحول إلى ما يسمى **الشهود** بعد أن كان علماً، ويكشف حجاب الحس، ويتم للنفس وجودها الذى لها من ذاتها، وهو عين الإدراك، فيتعرض حينئذ للمواهب الربانية والعلوم اللدنية والفتح الإلهى، وتقترب ذاته فى تحقيق حقيقتها من الأفق الأعلى الذى للملائكة. وهذا الكشف يدرك به أهل المجاهدة واقعات قبل وقوعها، ويتصرفون به فى الموجودات السفلية فتصير طوع إرادتهم. والعظماء من الصوفية لا يعتبرون هذا الكشف، بل يعدون ما يقع لهم منه محنة. والذى حدث أن **جماعة منهم من المتأخرين انصرفت عنايتهم إلى كشف الحجاب والمدارك التى وراءه، واختلفت عندهم طرق الرياضة بحسب تعليمهم فى إماتة قوى الحس وتغذية الروح العاقل بالذكر حتى يحصل للنفس إدراكها الذى لها من ذاتها بتمام نشوتها وتغذيتها، فإذا حصل ذلك زعموا أن الوجود قد انحصر فى مداركها، وأنهم كشفوا ذوات الوجود وتصوروا حقائقها، فتكلموا فيها علوية وسفلية، وتعرضوا لحقائق المُلك والروح والعرش والكرسى وغير ذلك**. والناس بين منكر ومسلم لهم، بدعوى أن من لم يشاركهم طريقتهم فى الفهم عن ذوق وموجدة، فإن البرهان والدليل

لاينفع معه ، لأن قضايا التصوف لاينفع فيها دليل وبرهان ، بل هي من قبيل **الوجدانيات**. وربما قصد بعض المصنفين من الصوفية بيان مذاهبهم فى كشف الوجود وترتيب حقائقه فأتوا بالغامض كما فعل **الفرغاني** عندما تصدى لشرح قصيدة **ابن الفارض**، فذكر أن الوجود كله صادر عن صفة الوحدانية مظهر الأحدية ، وهما معاً صادران عن الذات الإلهية التى هى عين الوحدة ، ويسمون هذا الصدور **التجلى**، وأولى مراتب التجليات عندهم تجلى الذات على نفسه بمعنى الكمال بإفاضة الإيجاد والظهور كما فى الحديث القدسى الذى يتناقلونه بينهم «**كنت كنزاً مخفياً ، فأحببت أن أعرف ، فخلقت الخلق ليعرفونى**». وهذا الكمال فى الإيجاد المتنزل فى الوجود، وفى تفصيل الحقائق ، هو عندهم **عالم المعانى**، **والحضرة الكمالية والحقيقة المحمدية**، وفيها حقائق الصفات ، واللوح ، والقلم ، وحقائق الأنبياء والرسل أجمعين ، والكُمّل من أهل الملة المحمدية ، وهذا كله تفصيل **الحقيقة المحمدية**. ويصدر عن هذه الحقائق حقائق أخرى فى **الحضرة الهبائية**، وهى مرتبة المثال ، ثم عنها العرش ، ثم الكرسى ، ثم الأفلاك ، ثم عالم العناصر ، ثم عالم التراكيب ؛ هذا فى عالم **الرتق**، فإذا تجلّت فهى فى عالم **الفتق**؛ ويسمى هذا المذهب **مذهب أهل التجلى والمظاهر والحضْرات**. وكلامهم السابق من الصعب تحصيل أهل النظر لمقتضاه لغموضه وانغلاقه ، وشتان بين كلام مصدره المشاهدة والوجدان ، وكلام قوامه الدليل والبرهان ، ناهيك عن أن كلامهم قد يكون فيه مايناهض الشرع صراحة . وذهب آخرون إلى القول **بالوحدة المطلقة**، وهو رأى أغرب من الرأى السابق ، ويقوم على زعم **أن الوجود عبارة عن قوى مفصلة ، بها كانت الموجودات وصورها وموادها ، والقوة الجامعة لكل القوى هى القوة الإلهية التى تنبث فى جميع الموجودات ، كلية وجزئية ، وتجمعها وتحيط بها بحيث تكون كلها واحداً هو نفس الذات الإلهية ، وهى فى حقيقتها واحدة وبسيطة ولكنها مفصلة من جهة الاعتبار فقط**. ويشبه هذا المذهب قول القائلين بأن الألوان وجودها مشروط بالضوء ، فإذا عدم الضوء لم توجد الألوان بوجه . وكذلك يرون أن الموجودات المحسوسة كلها مشروطة بوجود المدُرك أى الإنسان ، فإذا الوجود المفصل كله مشروط بوجوده ، ولو لم يوجد لما كان هناك هذا التفصيل للوجود ، بل هو البسيط الواحد . وما كانت الحرارة والرطوبة والبرودة والصلابة واللين والأرض والماء والنار والسماء إلا بسبب وجود الحواس المُدْركه لها . وهو مذهب فى غاية السقوط لأننا نقطع بوجود البلد الذى نحن مسافرون عنه وإليه يقيناً مع غيبته عن أعيننا ، وبوجود السماء والكواكب الغائبة عنا ، ونقطع بذلك ولايكابر منا أحدٌ نَفْسَه . ويناقض هذا الرأى

كذلك من المتصوفة أنفسهم أن المريد عند الكشف ربما يعرض له توهم هذه الوحدة، وهو ما يعرفونه باسم **مقام الجمع**، إلا أنه يترقى عنه إلى التميز بين الموجودات، وهو ما يعرفونه باسم **مقام الفرق**، إلا أن هؤلاء المتأخرين من المتصوفة المتكلمين في الكشف، وفيما وراء الحس، توغلوا في ذلك، وذهبوا إلى **الحلول والوحدة**، مثل **الهروى وابن عربى وابن سبعين وابن العفيف وابن الفارض**. وخالط سلفهم الاسماعيلية المتأخرين من الرافضة، الدائنين أيضاً بالحلول وإلهية الأئمة، وتشربوا مذاهب بعضهم البعض، وتشابهت عقائدهم، وظهر في كلام المتصوفة القول **بالقطب** ومعناه رأس العارفين، يزعمون أنه لا يمكن أن يساويه أحد في مقامه في المعرفة حتى يقبضه الله، ثم يورث مقامه لآخر من أهل العرفان، وقد أشار إليه **ابن سينا** في كتاب الإشارات في فصول التصوف، وهو كلام لا تقوم عليه حجة عقلية، ولا دليل شرعى، وإنما هو من أنواع الخطابة، وهو بعينه ما تقوله الرافضة؛ ثم قالوا بترتيب وجود **الأبدال** بعد هذا القطب، كمقالة الشيعة في النقباء، حتى إنهم لما أسندوا لباس **خرقة التصوف** ليجعلوه أصلاً لطريقتهم وتخليهم، رفعوه إلى علىّ رضى الله عنه، في حين أن علياً رضى الله عنه لم يختص من بين الصحابة، بتخلية ولا طريقة في لباس ولا حال، بل كان أبو بكر وعمر أزهد الناس بعد الرسول ﷺ، وأكثرهم عبادة، ولم يختص أحد منهم في الدين بشيء يؤثر عنه في الخصوص، بل كان الصحابة كلهم أسوة في الدين والزهد والمجاهدة. **والحقيقة في أهل التصوف** أن كلامهم في المجاهدات والمقامات، وما يحصل من الأذواق والمواجد، ومحاسبة النفس، لا مدفع فيه لأحد، وأذواقهم فيه صحيحة، والتحقق بها هو عين السعادة، وأما الكلام في **كرامات القوم وإخبارهم بالمغيبات وتصرفهم في الكائنات** فأمر صحيح أيضاً غير مُنْكَر، وإن مال بعض العلماء إلى إنكارها بمكابرة لا داعى لها، لأن الوجود شاهد بوقوع الكثير منها، وقد وقعت للصحابة والسلف مما هو معلوم ومشهور. وأما الكلام في **الكشف وإعطاء حقائق العلويات وترتيب صدور الكائنات** فأكثر كلامهم فيه نوع من المتشابه، بالنظر إلى أنه وجدانى عندهم، وفاقد الوجدان عندهم بمعزل عن أذواقهم فيه، واللغة لا تعطيه دلالة على مرادهم، لأن اللغة وضعت للمتعارف، وأكثره من المحسوسات، **وينبغى إذن أن لا نتعرض لكلامهم في ذلك، ونتركه فيما تركناه من المتشابه**، ومَنْ رزقه الله فهم شيء من هذه الكلمات على الوجه الموافق لظاهر الشريعة فأكرم بها سعادة، وأما الألفاظ الموهمة، المعبر عنها **بالشطحات**، ويؤاخذهم بها أهل الشرع، فالإنصاف يقتضى أن ننوه بأنهم **أهل غيبة عن الحس، وتملكهم الواردات**، ولذلك

فهم ينطلقون بما لا يقصدونه ، وصاحب الغيبة غير مخاطب ، والمجبور معذور ، فمن علمنا فيه فضلاً واقتداءً حملنا ما يقوله على القصد الجميل كما فى حالة **أبى يزيد البسطامى ،** ومن لم نعلم له فضلاً نؤاخذه بما صدر عنه إذا لم يتبين لنا ما يحملنا على تأويل كلامه ، وأما من تكلم بمثلها وهو حاضر فى حسه ، ولم يملكه الحال ، فيؤاخذ أيضاً ، ولهذا أفتى الفقهاء وأكابر المتصوفة بقتل **الحلاج ،** لأنه تكلم فى حضور وهو مالكٌ لحاله . ولم يعرف أن السلف من المتصوفة من أعلام الملة وأهل الرسالة ، كان لهم حرص على كشف الحجاب ، ولا هذا النوع من الإدراك ، وكان همهم الاتباع والاقتداء ما استطاعوا ، ومن عرض له شىء من ذلك أعرض عنه ولم يحفل به ، بل يفرون منه ويرون أنه من العوائق والمحن ، وأنه إدراك من إدراكات النفس ، مخلوق حادث ، وأن الموجودات لا تنحصر فى مدارك الإنسان ، وعلم الله أوسع ، وخلقه أكبر ، وشريعته بالهداية أملك ، فلا ينطقون بشىء مما يدركون ، بل حظروا الخوض فى ذلك والوقوف عنده ، والتزموا طريقتهم فى عالم الحس قبل الكشف ، وأمروا أصحابهم بالتزامها ، **وهكذا ينبغى أن يكون حال المريد .**

رحم الله ابن خلدون ، وقد توفى بالقاهرة عام ٨٠٨هـ عن عمر يناهز السادسة والسبعين (أنظر البقاعى) .

■ ■ ■

الخُلـــدى

أبو محمد جعفر بن نصير (نحو ٢٥٢ ــ ٣٤٨هـ) بغدادى المنشأ والمولد والوفاة ، صحب الجنيد والثورى ورويما ، وكان مرجعاً فى علوم القوم وكتبهم وحكاياتهم ، ونسبته إلى الخلد محلة ببغداد فى رأى البعض ، وأما هو فيقول كنت يوماً عند الجنيد وعنده جماعة يسألونه أنطلب الرزق ، فأجبتهم إن علمتم فى أى موضع هو فاطلبوه ، وإن علمتم أنه نسيكم (أى الله) فذكّروه ، فقالوا أندخل البيت ونتوكل على الله ، فقلت أتجربون الله بالتوكل ، هذا شك . قالوا فكيف الحيلة ، قلت ترك الحيلة . وعندئذ قال له الجنيد معجباً به : يا **خلدى** من أين لك هذه الأجوبة ؟ ويعلق جعفر : فجرى اسم **الخلدى** علىّ إلى يومى هذا . ووالله ما سكنت الخُلد ولا سكنه أحد من آبائى ! ويحكى جعفر عن حبه للكتب وتتبعه لأخبار الصوفية فيقول إنه فى ابتداء أمره سمع فى المنام هاتفاً يأمره بأن يمضى إلى موضع ويحفر فيه ، فجاء المكان وحفر فوجد صندوقاً به دفاتر فيها

أسماء مشايخ من أهل الحقائق والأصفياء والأولياء عددهم ستة آلاف من وقت آدم حتى زمنه مع نعوتهم وصفاتهم ، وكلهم كانوا يدعون التصوف ، فقرأها وحفظ أسرارها ولم يدفعها إلى أحد ، **وكأنه يعنى أن التصوف ليس بالمستحدث وأنه قديم وفطرى فى الإنسان ، وأن له أسراره التى لا ينبغى البوح بها .** وكان جعفر يفاخر بأن عنده مائة ونيفا وثلاثين كتاباً من كتب الصوفية ، ولما سأله احدهم فهل عندك كتب الحكيم الترمذى ، قال لا ما عددته من الصوفية . وربما ذلك لأن الترمذى ذهب إلى تفضيل الولاية على النبوة . وهذا العلم الذى كان يميز جعفرا كصوفى هو الذى جعل الناس فى زمنه يقولون هذا القول المأثور **إن عجائب بغداد ثلاثة :** إشارات الشبلى ، ونكت المرتعش وحكايات جعفر . وهذه الحكايات التى كانت تروى عنه هى التى قال هو نفسه بشأنها : أخاف أن يوقفنى المشايخ بين يدى الله يقولون لما أخرجت أسرارنا إلى الناس ؟! ومن طريف ما يرويه عن نفسه أنه كان فى الصحراء فى إحدى رياضاته وضل الطريق وجاع ، فرأى كوخاً فيه غلام يصلى ، فقال انتظر حتى يأكل فآكل معه ، وظل منتظراً للطعام فترة طالت فقام مرتحلاً ، فلما كان فى بيته يقرأ إذا بالغلام يدق بابه فلما فتح له قال : يا جعفر أنت كما سُميت : **جاع فر ،** يقصد أنه لم يحتمل جوع البطن فأدبر !! ويقول أيضاً عن نفسه أنه وقف بعرفة ست وخمسين وقفة ، منها إحدى وعشرون **على المذهب ،** ومعنى على المذهب أنه كان يصعد إلى قنطرة الياسرية فينفض كُميَّه ، على طريقة الصوفية ، حتى يعلم أنه ليس معه زاد ولا ماء فيلبى ويسير . ويقول شارحاً تحوله من طلب علوم الدنيا إلى طلب علوم الآخرة أو الصوفية أنه فى حداثته كان يتلقى على أحد الشيوخ وكتب عنه أوراقاً وخرج فلقى أصحابه من الصوفية فسألوه عما معه فأراهم الورق ، فقالوا له تدع علم الخرق (جمع خرقة) وتأخذ علم الورق ، ثم خرموا أوراقه ، أى أفسدوها ، فدخل كلامهم قلبه ، ولم يعد إلى أستاذه وإنما انصرف إلى التصوف ، ومع ذلك فإنه لم يجعل للتصوف المكانة الفضلى على الشريعة ، وهو يقول إن الصوفى إن لم يزن أقواله وأفعاله وأحواله بالكتاب والسنة ، ولم يتهم خاطره فلا تعده فى ديوان الرجال . ولا أعرف شيئاً أفضل من العلم بالله وبأحكامه ، فإن الأعمال لا تزكو إلا بالعلم ، ومن لا علم عنده فليس له عمل ، وإنما يكره من العلم تضييعه ونبذه خلف الظهر . وسألوه : فهل طلب العلم عمل ، فقال هو من أكبر الأعمال ، فبالعلم أعرف الله وأطيع ، وبالعلم استَحْيَى من الله المستحيون ، وهو قبل الأعمال . قال الله تعالى علّم الإنسان ما لم يعلم ، وقال علّمه البيان ، ولا يكره العلم إلا منقوص . وكأننا بجعفر الخلدى حيال صورة للصوفى فيها العلم

والقراءة والعمل بغاية التحقق بالعبودية لله، والطريق الصوفى القائم على العلم والعمل هو الناظر إلى الحق بالكلية والملتزم لحرمة الخَلْق .

■ ■ ■

الخـــوّاص

أبو إسحق إبراهيم بن أحمد بن إسماعيل، وكان يبيع الخوص فلقبوه الخوّاص، ولد فى سُر مَنْ رأى ومات فى جامع الرّى سنة ٢٩١ هـ، وقال الخطيب البغدادى له كتب مصنفة، وكان من أقران الجنيد والنورى، ويبدو أنه قرّاء فله مأثورات من التوراة فيقول قرأت فى التوراة كذا أو صحبت يهودياً فقال، وأغلب كلامه قصص مرموزة، ومن ذلك سذه المأثورة من التوراة : ويح ابن آدم يذنب ويستغفرنى فأغفر له، ثم يعود ويستغفرنى فأغفر له، فلا هو يترك الذنب، ولا هو ييأس من رحمتى ! وهذه القصة : تاه أحد أصحابنا أياماً فى البادية إلى أن أشرف على العمار، وعثر على جارية تغتسل على عين ماء، فلما رأته تجللت بشعرها وقالت إليك عنى يا إنسان، فقال لها وكيف أذهب عنك والكل منى مشغول بك، فقالت على العين الأخرى جارية أحسن منى، فهل رأيتها، فالتفت خلفه ولم ير شيئاً، فقالت له : ما أحسن الصدق وأقبح الكذب، تزعم أن الكل منك مشغول بنا وأنت تلتفت إلى غيرنا ! ويبدو أن غرامه بالقصص هذا من تأثير قراءاته فى التوراة. والخواص شاعر، وشعره كالحكمة يصوغ فيه تجاربه فى الحياة، أو هو يحكى فيه عن أحواله مع الحق تعالى، أو يمدح به الصوفية. يقول :

تعودت من الضر حتى ألفته ... وأحوجنى طول البلاء إلى الصبر
وقطعت أيامى من الناس آيسا ... لعلمى بصنع الله من حيث لا أدرى

ويقول :

صبرت جهدى إن فى الصبر عزة ... وأرضى بدنيائى وإن هى قلّت

ويقول :

معطلة أجسامهم لا عيونهم ... ترى ما عليهم من قضاياه قد يجرى
جوارحهم عن كل لهو وزينة ... محجّبة ما أن تمر إلى أمر
فهم أمناء الله فى أرضه ... ملوك كرام فى البرارى وفى البحر
عدول ثقات فى جميع صفاتهم ... أرق عباد الله مع صحة السر

ويقول :

عـلـيـل لـيـس يـبـرئـه الـدواء   طـويـل الضر يـغـنـيـه الـشـفـاء
سـرائـره بـواد لـيـس تـبـدو   خـفـيـات إذا بـرح الخـفـاء

وطريقة الخواص هى التوكل، وله فيه رياضات وسياحات، والتوكل فيه الثقة بالله، والمتوكلون الواثقون هم الصوفية، العدول الثقات فى جميع صفاتهم، والرزق ليس فيه توكل وإنما فيه صبر حتى يأتى الله به فى وقته الذى وعد، وإنما يقوى صبر العبد على قدر معرفته بما صبر له أو لمن صبر، والصبر ينال بالمعرفة، والصابر يحمل مؤونة الصبر حتى يستحق ثواب الصابرين، لأن الله تعالى جعل الجزاء بعد الصبر. والتوكل يستلزم من العبد أن يعمل ويثق فى الله، والمريد بالحركة أى بالعمل يتطهر، ومعنى التوكل هو التوجه إلى الله، ومن يتوجه إليه وهموم الأرزاق فى قلبه فإنه لا يفلح. والتوكل على ثلاث درجات على الصبر والرضا والمحبة، لأنه إذا توكل وجب عليه أن يصبر على توكله بتوكله لمن توكل عليه، وإذا صبر وجب عليه أن يرضى بجميع ما حكم عليه، وإذا رضى وجب عليه أن يكون محباً لكل ما فعل به موافقةً له. ولم يكن الخواص يحب أن يعرف عنه أنه من الصالحين، على طريقة **الملامتية**، ويحكى أنه دخل إحدى البلاد وخاف أن يعظموه بسبب تقواه وورعه فدخل حماماً ووجد لباس أحد أبناء الملوك خلعه واحتفظ به عند الحمامى، فغافل الخواص الحمامى عنه ولبسه ومن فوقه ثيابه وخرج يمشى رويداً ليلحقوا به وينسبوه إلى اللصوصية فتزول عنه شهرة الصلاح، ولحقوه بالفعل وضربوه وأطلقوا عليه اسم **لص الحمام**، فقال لنفسه ههنا طاب المقام!

■ ■ ■

الخـــوّاص

على الخوّاص **أستاذ الإمام الشعرانى** والذى نقل عنه فى كتابيه **الجواهر والدُّرَر والطبقات**، وكانت حرفته **ضفر الخوص**، وهو مصرى من البرلس، **وأمى** لا يقرأ ولا يكتب ومع ذلك تكلم فى الطريقة وله مذهب وتفسيرات وتأويلات للقرآن والسنة حيّرت العلماء. والخواص يحب للمريد أن تكون له **حرفة** ولم يكن يقبل ضمن وتلاميذه إلا من كان من أصحاب الحرف، ويقول إن السوقة وأهل الصنائع والحرف أعظم درجة عند الله وأنفع من المجاذيب لقيامهم فى الأسباب. **والعالم** عنده هو الذى علمه مستفاد من نقل فهو حاك لعلم غيره وله أجر الذى يحمل العلم فيؤديه، وأما **الصوفى المتحقق** فهو المُسلك أى من أهل التسليك، وعلمه خِضْرى أو لَدُنّى يكفى الناس كلهم فى سائر ما يطلبونه. ولو أراد العالم أن يعلم مرتبته فى العلم فليرد كل قول حفظه إلى قائله وسيرى أنه لن يتبقى مما يعلمه إلا النزر اليسير الذى لا يمكن أن يصنع

منه . عالماً . وبداية التصوف أن يعلم المبتدىء كل الشريعة بمجملها ومفصلها وخاصها وعامها وناسخها ومنسوخها ، وليس بالرجل فى اعتبار أهل الطريق من يجهل حكماً واحداً . ويشرح الخواص قول الإمام أحمد بن حنبل أن التقرب إلى الله بتلاوة كلامه بفهم وبغير فهم ، أن الفهم لعلماء الشريعة فإن وسيلتهم للإحاطة بمضمون القرآن هو التفكير، وأما علماء الحقيقة أو العلماء من الصوفية فطريقتهم للإحاطة بذلك المضمون هو **الكشف والتعريف الإلهي** وذلك لا يحتاج إلى فهم ، وقد أنكر الخواص على أهل المعرفة أن يخوضوا فى التدليل على وجود الله والبرهنة على وحدانيته لهذا السبب ، وقال إن الحمار يكون حينئذ أعرف منهم بالله ، فالإيمان بالله شيء لا يتُحدث عنه لأنه وقر فى الصدر ولا يمكن التعبير عنه ، وما ورد فى السنة من ألفاظ الإيمان يرجع إلى التصديق والإذعان اللذين يفتحان على العلم بالمعلوم المستقر فى القلب بالفطرة ولذلك لم يسأل أحد رسول الله ﷺ عن حقيقة هذه الألفاظ ولا ناقشوا أصحابها . ومن يصح **توحيده** ينتفى عنه الرياء والإعجاب وسائر الدعاوى المضلة ، لأنه يشهد بأن كل الصفات والأفعال ليست له وإنما هى لله وحده ، وكمال الإسلام والإيمان فى التسليم والرضا ، ومناط ذلك **القلب** فإذا صلح القلب كان بيت الله ومهبط الوحى والأنوار، فالبيت لا يقبل إلا مُشاكله فكما أن الأحرف وعاء المعاني فكذلك القلب وعاء للحق والشرع والنور، وكما أن الحرف إذا تغير بعض صورته أو نقطه فسد المعنى فكذلك القلب إذا تغير بعض صورته وصفته فسد ما فيه ، وإصلاح القلب يكون بإصلاح الطعمة ، وإصلاح الطعمة يكون بالكسب فى الكون **مع التوكل على الله** ، والتوكل حقيقة هو المراقبة لله . ومذهب الخواص الذى يعلنه هو « **وقضى ربك ألا تعبدوا إلا إياه** » .

■ ■ ■

د

الدارانى (أبو سليمان)

عبدالرحمن بن أحمد بن عطية العبسى ينسب إلى داران أو داريا من قرى دمشق ، ووفاته سنة ٢١٥ هـ ، وكان فى زمنه وتداً وقطباً ، وابنه **سليمان** من جِّلة القوم وله لسان فى التصوف ، وأخوه **داود** الدارانى زاهد ورع ، وكلامه ككلام أبى سليمان فى **الرياضة والمعاملة.** ومن تلاميذه أحمد بن أبى الحوارى ريحانة الشام ، ومن أصحابه القاسم بن عثمان الجوعى . وكان الدارانى **بكّاءً** يقول لكل شئ علَم ، وعَلَم الخذلان ترك البكاء . وقد سأله تلميذه أحمد عن بكائه مرة ، فقال ولما لا أبكى ، وإذا جن الليل ونامت العيون وخلا كل حبيب بحبيبه ، وافترش أهل المحبة أقدامهم ، وجرت دموعهم على خدودهم ، وتقطرت فى محاريبهم ، وأشرف الجليل سبحانه وتعالى فنادى : يا جبريل ، بعينى من تلذّذ بكلامى واستراح إلى ذكرى ، وإنى لمطلع عليهم فى خلواتهم ، أسمع أنينهم وأرى بكاءهم ، فلما لا تنادى فيهم يا جبريل ـــ ما هذا البكاء ؟ هل رأيتم حبيباً يعذب أحباءه ، أم كيف يجمل بى أن آخذ قوماً إذا جنّهم الليل تملقوا لى ؟ فبى حلفت أنهم إذا وردوا علىّ يوم القيامة لأكشفن لهم عن وجهى الكريم حتى ينظروا إلىّ وأنظر إليهم !

وأبو سليمان يرى أنه لولا رحمة الله ما عبده العابدون وأحبه المحبون . يقول قرأت فى بعض الكتب ، يقول الله عز وجل بعينى ما يتحمل المتحملون من أجلى ويكابد المكابدون فى طلب مرضاتى فكيف بهم وقد صاروا فى جوارى وتبحبحوا فى رياض

خلدى ، فهنالك فليبشر المصغون إلى أعمالهم بالنظر العجيب من الحبيب القريب ، ترون أن أضيع لهم عملاً وأنا أجود على المولين عنى ، فكيف بالمقبلين علىّ . ما غضبت على أحد كغضبى على من أذنب ذنباً فاستعظمه فى جنب عفوى ، فلو كنت معجلاً أحداً ، وكانت العجلة من شأنى ، لعاجلت القانطين من رحمتى ، فأنا الدّيان الذى لا تحل معصيتى ولا أُطاع إلا بفضل رحمتى ، ولو لم أشكر عبادى إلا على خوفهم من المقام بين يدىّ لشكرتهم على ذلك ، وجعلت ثوابهم الأمن مما خافوا ، فكيف بعبادى لو قد رفعت قصوراً تحار لرؤيتها الأبصار ، فيقولون ربنا لمن هذه القصور فأقول : لمن أذنب ذنباً ولم يستعظمه فى جنب عفوى ، ألا وإنى مكافىء على المدح فامدحونى !

وحبه لله تعالى يدفعه إلى أن يؤثره على كل العلائق . يقول ذهب المطيعون لله بلذيذ العيش فى الدنيا والآخرة . يقول الله تعالى لهم يوم القيامة : رضيتم لى بدلاً دون خلقى وآثرتمونى على شهواتكم الدنيا ، فعندى اليوم فباشروها ، فلكم اليوم عندى تحياتى وإكرامى ، فبى فافرحوا ، وبقربى فتنعموا ، فوعزتى وجلالى ما خلقت الجنات إلا من أجلكم .

ومن كان ذلك محبته لله تعالى لابد أن يقول كل ما شغلك عن الله عز وجل من أهل ومال وولد فهو عليك شؤم . وتحريضه لمريديه على عدم الاشتغال بما سوى الله هو ما يعجب **الجنيد** فيه وقد تأثر بأفكاره فكان ينقلها عنه ، وخاصة ما يتعلق منها بالزهد ، لأنه زهد لا تقليلاً من شأن الدنيا وطيباتها ولكن لأنها تصرف عن الاشتغال بالله . ويحكى تلميذه أحمد أنه خرج معه فرا على زرع ، وإذا طائران يلتقطان الحب ، فلما شبق أراد الذكر الأنثى ، فقال الدارانى : يا أحمد أنظر فيما كان لما شبعا ، دعته بطنه إلى ما ترى . ويروى الدارانى قصة قرأها عن المسيح وابن خالته النبى يحي عليهما السلام . وكان الدارانى **كثير الاطلاع على الكتب المنزلة** ــ قال إنهما كانا يتماشيان فصدم يحى امرأة ، فقال له عيسى يا ابن خالة ، لقد أصبت اليوم خطيئة ما أظن أن يُغفر لك أبداً . قال وما هى يا ابن خالة ؟ قال إمرأة صدمتها ، قال والله ما شعرت بها . قال سبحان الله ! بدنك معى فأين روحك ؟ قال : معلق بالعرش ، ولو أن قلبى اطمأن إلى جبريل لظننت أنى ما عرفت الله طرفة عين ! ولكن عدم الاشتغال بالدنيا لا يمكن أن يكون إلى الحد الذى يركن فيه إلى الناس يطعمونه ، وهو ينتقد الصوفية الدين هدا دأبهم ويقول لتلميذه عن لقمان الحكيم لولده : يا بنى لا تدخل فى الدنيا دخولاً يضر بآخرتك ، ولا تتركها تركاً تكون كَلاً على الناس . ويستطرد قائلاً : ليست العبادة

عندنا أن تَصُفّ قدميك وغيرك يفت لك، ولكن أبدأ برغيفيك فاحرزهما ثم تعبّد! ثم يقول: ولا خير فى قلب يتوقع قرع الباب، يتوقع إنساناً يجيء يعطيه شيئاً! وزهد الدارانى ليس كالزهد الصوفى الموغل فى تعذيب الجسد حتى ليصيبه فيمنعه عن العبادة أو يمنعه من أداء واجباته الزوجية، ولكنه **الزهد المتوسط**. يقول: فؤادى يلحسنى من الجوع، ولولا أنى أخاف أن أضعف عن أداء الفرائض ما أكلت شيئاً! وانتقاده لصوفية زمنه يجعله يقول: ما رأيت صوفياً فيه خير إلا واحداً عبدالله بن مرزوق. ويقول: يا أحمد ما أنجب من أنجب إلا بالقبول من المعلمين، وأنا أقول لك لا تفتح أصابعك فى القصعة يا أحمد. عهدت ناساً يعدون الجوع فيهم غنيمة، كما تعد أنت وأصحابك الصوفية الشبع غنيمة. يا أحمد كيف تنير قلوبهم وكل شيء يجدونه من الشبهات يأكلونه. إنى لآكل الشبهة فأجد ناراً على قلبى من الجمعة إلى الجمعة! **والتوسط هو طريق الدارانى**. يقول: ليت قلبى فى القلوب مثل ثوبى فى الثياب! وكانت ثيابه وسطى. وما كان يحب الخوض فى كلام الصوفية وأحوالهم ومقاماتهم، ولما توفى رآه أصحابه فى المنام فسألوه: ما فعل الله بك؟ قال غفر لى، **وما كان شيء أضرّ علىّ من إشارات القوم!**

■ ■ ■

الدبّاغ (عبد الرحمن)

القيروانى (٦٠٥ ـ ٦٩٩هـ) صاحب كتاب «**مشارق أنوار القلوب ومفاتح أسرار الغيوب**»، وهو من الكتب المعدودة التى تبحث فى المحبة بمعناها الصوفى، وتتطرق إلى أقسامها ومعانيها، وعبارات الناس فيها، وأصناف السالكين من المحبين، وما يتصل بها من فضائل. **والدباغ** فقيه ومؤرخ، وله التصانيف فى أهل القيروان وتاريخهم وملوك الإسلام، وكان شاعراً له نظم جيد، وعنده أن المحبة تنتظم كل المقامات والأحوال، ففيها الشوق والصبر، والخوف والرجاء، والوصال والقرب والبعد، والزهد، والأنس والبسط والقبض، والمراقبة والهيبة، والفناء والبقاء، والمشاهدة، وسائر الأحوال؛ وأول مقامات المحبين الألفة، ثم الخلة، فالهوى، فالشغف، فالوجد، فالعشق. وأدنى مراتب المحبة عندما يكون موضوعها الجسم الجميل والصورة أو الهيئة البديعة، وأعلى المراتب هى مرتبة **محبة الحق تعالى**. ومن شروط **السالك** أنه لا يزال يترقى فى مراتب الكمال للمحبة. وأقصى الدرجات فيها هى العشق، والعشق شدة

الشوق إلى الاتحاد ، ومحبة الله تعالى ومعرفته لا يوصلان إليها بشيء سوى الله ، فهو العارف والمعروف ، والمحب والمحبوب ، وكل وجود هو وجوده ، وكل شهود هو شهوده . ومحبة الله تعالى وقربه هما السعادة العظمى ، ومحبة ما سواه بقصد الوصول بها إليه من العبادات . يقول الرسول ﷺ : **اللهم ارزقني حبك ، وحب من يحبك ، وحب من يقربني حبه إلى حبك** » ، فقد سأل عليه السلام محبة الأسباب الموصلة إلى محبة ربه تعالى ، ليس لذاتها ولكن لأنها آلات موصلة إلى الحضرة الإلهية . ويقول عليه السلام : « **من عرف نفسه عرف ربه** » ، ولا يعرف حقيقة نفسه إلا من يزكيها بالرياضة القلبية التامة لتصفو وترق ، فحينئذ تبصر ذاتها بشدة صفائها ، فإذا صارت كذلك تجلى لها نور الحق المشرق ، فتشاهد فيه نفسها وجمال الأكوان ، وتتعلق بخالق الأكوان وبديعها وفاطر كل هذا الجمال . والعارفون ينظرون إلى جمال الصنعة الإلهية فيتوصلون إلى صورة الجمال المجرد ، ثم منه إلى عالم الجمال الكلى ، ثم إلى جمال الواهب للكل الذى كل جمال فى العالم مستفاد منه ، بالغيبة عن أنفسهم فى مشاهدته ، حتى لا يبقى فيهم منهم شيء ، وأولئك هم الذين اختارهم الحق تعالى واصطفاهم واختصهم بمعرفته ومحبته . ومن عَدِمَ هذا الذوق ، وحُرِمَ هذا الحظ فهو المغبون على الحقيقة .

■ ■ ■

الدرديرى

أحمد بن محمد العدوى المالكى وشهرته أبو البركات الدردير والشهاب الدردير (١١٢٧ ــ ١٢٠١ هـ) وطريقته تسمى **الدرديرية والسباعية** أيضاً نسبة إلى تلميذه أحمد السباعى والمدفون معه فى ضريحه بمسجده بالغورية من أحياء القاهرة القديمة ، وهى **إحدى الطرق الخلوتية** ، وكان الدردير من كبار شيوخها فى مصر ، ووصفه الجبرتى بأنه كان شيخاً على أهل مصر كلها فى وقته حساً ومعنى ، وقيل فيه إنه من المجددين للدين على رأس المائة الثانية عشرة ، وله المصنفات العديدة فى علوم المعانى والبيان والفقه والعقيدة ، ومنها **تحفة الإخوان فى آداب أهل العرفان ، وشرح ورد الشيخ كريم الدين الخلوتى ، وشرح مقدمة نظم التوحيد للسيد محمد كمال الدين البكرى ، وشرح على رسالة التوحيد للشيخ دمرداش الخلوتى ، ومنظومة أسماء الله الحسنى ، والصلوات وتعرف بالمسبعات** ، وجميعها فى التصوف ، ومدرسته **مدرسة تربوية عملية** أكثر منها عرفانية ، وأوراده وأحزابه يحيل فيها إلى التراث الصوفى عند

المتقدمين كالغزالى وابن مشيش والشاذلى والبدوى والدسوقى ، ويفيد كثيراً من معاصريه كالبكرى . ويبرز فى مذهبه قوله **بالحقيقة المحمدية** الذى يصدر فيه عن السلف من فلاسفة الصوفية كالحلاج وابن عربى وابن الفارض ، باعتبار أن النبى عليه الصلاة والسلام له حقيقتان ، الحادثة التى نعرفها ، والقديمة التى يستمد منها كل الأنبياء والأولياء وهو المصدر لكل وجود وعرفان .

■ ■ ■

الدسوقى

العارف بالله سيدى إبراهيم الدسوقى (٦٥٣ ــ ٦٧٦ هـ) نزيل دسوق ، من أجلاء مشايخ مصر أصحاب الخرقة ، وطريقته **البرهامية** تنتشر فى مصر وسوريا وتركيا والحجاز واليمن وحضرموت ، ومنها فروع كثيرة **كالشرنوبية والشهاوية والسعيدية الشرنوبية .** وللدسوقى كلام كثير على لسان أهل الطريق منشور فى كتبه وأهمها **الجواهر** المعروف باسم **جوهرة الدسوقى .** وهو من أهل الحرف وكانت صناعته الفخار والحُصر (جمع حصير) ، وكان يكره للمريد أن يكون بطّالاً ويطلب إليه أن يتكسب لنفسه ، وخطابه إليه بصيغة يا ولدى ويا أخى ويا أولادى ويا ولد قلبى ويا أولاد قلبى . وللشعرانى ترجمة مطولة له فى طبقاته يقول إن الدسوقى من نسل الحسين وتفقه على مذهب الإمام الشافعى ثم اقتفى آثار الصوفية وجلس فى مرتبة الشيوخ وحمل الراية البيضاء وعاش من العمر ثلاثاً وأربعين سنة لم يغفل خلالها عن مجاهدة النفس والهوى والشيطان . وكلامه أغلبه نصائح ومن ذلك أن يقول للمريد اسمع يا عديم العقل والرشاد ، ومنه كلام لا معنى له إذ الكلام خطاب إنسانى فما لم يكن مفهوماً من المخاطبين المقصودين به فلا طائل منه ، فقد كتب إلى بعض مريديه بعد السلام وإننى أحب الولد وباطنى خلى من الحقد والحسد ولا بباطنى شظا ولا حريق لظى ولا جوى من مضى ولا مضض عضا ولا نكص نصا ولا سقط نطا ولا ثطب غظا ولا عطل حظا إلى آخر ذلك . ومذهبه كله فى حرفين كما يقول **من عَرَفَ الله وعَبَدَه فقد أدرك الشريعة والحقيقة فأحكموا الحقيقة والشريعة ولا تفرطوا إن أردتم أن يُقتدى بكم ، ولم يكن اسم الحقيقة إلا لأنها تحقق الأمور بالأعمال ، ومن بحر الشريعة تنتج الحقائق ، والشريعة هى الشجرة والحقيقة هى الثمرة ، والشريعة أصل والحقيقة فرع ، والشريعة تجمع كل العلوم المشروعة ، والحقيقة تجمع كل العلوم الخفية .** ويقول الدسوقى إن مقصوده من طريقته

أن يكون أولاده من الذائقين لا الواصفين فإن القوم ــ يقصد الصوفية ــ لم يتكلموا من الطروس وإنما من الصدور لمّا ذاقوا وامتلأت قلوبهم بعطاء الله ومواهبه فغاضت منها قطرات من ماء الحياة هي علومهم. والتصوف ليس بلبس الصوف وإنما الصوف من بعض شعاره، وحقيقة التصوف معنوية والصوفى الذى يصل إليها لا يرضى بلبس ما خشن لأنه وصل إلى مقامات اللطافة وخرج من مقامات الرعونة، بخلاف المريد فى بدايته يلبس الخشن ويأكل الخشن ليؤدب نفسه فتخضع لمولاها ويحصل لصاحبها تمهيد للمقامات التى يترقى إليها. ويفسر الدسوقى سبب تسميته للمريدين بأولاد القلب أن **ولد القلب** خير من ولد الصلب، فولد الصلب له إرث الظاهر من الميراث وولد القلب له إرث الباطن من السر، ويناشد أولاده بأن لا يسيئوه فى طريقته ولا يرموها بالكلام، وأن يقوموا بحقها، وأن لا يتكلموا فى الطريقة إلا لمن يقبل عليها ويحبها، وأن لا يتفرقوا، ولا يجالسوا أرباب الأقوال، ولا يتحدثوا إلا بدستور مشايخهم، وأن يتجردوا من قوالبهم إلى قلوبهم ويلزموا الصمت عن الاشتغال بما لا فائدة لهم فيه من الجدال. ويبدو أن الدسوقى كان من أصحاب **الفناء عن شهود السوى** فيقول توبة الخواص محو لكل ما سوى الله. ومن شعره فى الحب الإلهى المفضى إلى الفناء وشهود الوحدة وينحو فيه منحى ابن الفارض:

تجلى لى المحبوب فى كل وجهة ... فشاهدته فى كل معنى وصورة
وخاطبنى منى بكشف سرائرى ... فقال أتدرى من أنا قلت منيتى
فأنت منائى بل أنا أنت دائماً ... إذا كنت أنت اليوم عين حقيقتى
فقال كذلك الأمر لكنه إذا ... تعينت الأشياء كنت كنسختى
فأوصلت ذاتى باتحادى بذاته ... بغير حلول بل بتحقيق نسبتى
فصرت فناء فى بقاء مؤبد ... لذات بديمومة سرمدية
وغيبنى عنى فأصبحت سائلاً ... لذاتى عن ذاتى لشغلى بغيبتى
وانظر فى مرآة ذاتى مشاهداً ... لذاتى بذاتى وهى غاية بغيتى
فأغدو وأمرى بين أمرين واقف ... علومى تمحونى ووهمى مثبتى
خبأت له فى جنة القلب منزلا ... ترفع عن دعد وهند وعلوة

إلى أن يقول:

وما شهدت عينى سوى عين ذاتها ... وإن سواها لا يلم بفكرتى
بذاتى تقوم الذات فى كل ذروة ... أجدد فيها حلة بعد حلة

فليلى وهند والرباب وزينب وعلوى وسلمى بعدها وبثينة
عبارات أسماء بغير حقيقة وما لوّحوا بالقصد إلا لصورتي

■ ■ ■

الدسوقي

إبراهيم بن محمد بن عبد الرحمن الدسوقي الشافعي (٨٣٣ ـ ١٩١٩هـ) من أهل دمشق، وأصله مصرى، يقول فيه صاحب شذرات الذهب أنه كان شديد الإنكار على صوفية عصره، وله **رسائل فى التصوف**، ووصفه فقال لم تر عيناى من أهل دمشق من هو أمثل منه.

■ ■ ■

الدمياطى (شمس الدين)

أصله من دمياط، وكان محققاً للعلوم، كثير البكاء من خشية الله، زاهداً، ورعاً، عابداً، لا يكاد ينام من الليل إلا قليلاً، أخذ التصوف عن محمد الطنبولى ونور الدين الحسنى، وكان **يعيب على الفقهاء** الذين يتوسوسون فى ماء الطهارة، ولا يتوسوسون فى اللقمة، ويقول لهم: لو عكستم الأمر لأفلحتم. وكان **عازباً** لم يتزوج، يطبخ بنفسه، ويفرق على جيرانه، ويطعم طلبته ويقول: ما أحوجنى الله إلى النساء. كابدت العزوبة سنة، ثم ذهبت عنى شهوة الوطء.

■ ■ ■

إبن أبى الدنيا

أبو بكر عبد الله بن محمد بن عبيد بن سفيان بن أبى الدنيا القرشى الأموى البغدادى (٢٠٨ ـ ٢٨٢هـ) أطلقوا عليه اسم **الحافظ** فقد كانت كتبه كلها روايات عن الآخرين من مثل حدّثنى محمد بن الحسين عن محمد بن جعفر بن عون قال: قال داود الطائى: ما نعول على حسن الظن بالله تعالى، **فأما التفريط فهو** المستولى على

الأبدان. وقيل إن له من هذا النوع ثلاثمئة رسالة فى موضوعات التصوف، ومنها **التوبة، والتفكر والاعتبار، والتقوى، والتوكل، والجوع، والجهاد، وحسن الظن بالله، والحلم، والدعاء، وذم الدنيا، وذم الشهوات، وذم البغى، وذم الحسد، وذم الفقر، والزهد، والشكر، وشرف الفقر، والصمت، والصبر، والعزلة، والعزاء، والعلم، والفرج بعد الشدة، وفضل لا إله إلا الله، وفضل القرآن، وكرامات الأولياء، والمداراة، والمرض والكفّارات، والموت، وكتاب المروءة، والجوس، ومحاسبة النفس، واليقين.** وكل رسالة من هذه الرسالات لا تتجاوز صفحاتها الخمس عشرة صفحة من القطع المتوسط. ومدارها الأخلاق وتربية المريد، وكان عمله مؤدِّبا، وقد أدب غير واحد من أولاد الخلفاء فأطلقوا عليه اسم **مؤدب الخلفاء.** وكان من الوّعاظ العارفين بأساليب الكلام وما يناسب الناس، فإن شاء أبكى الجلساء وإن شاء أضحكهم، حتى ليضحك الواحد ويبكى فى نفس الوقت.

■ ■ ■

الدهلوى (أبو الفتح)

صدر الدين محمد بن يوسف بن على بن محمد الحسينى (٧٢١ ـ ٨٢٥هـ) له «**المعارف**» يشرح فيه كتاب العوارف للشهاب السهروردى، ونحو ١٢٥ كتاباً بالعربية والفارسية، منها «**آداب المريدين**» و«**شرح فصوص الحكم**» لابن عربى، **وتفسير القرآن.** وللشيخ محمد على السامانوى كتاب فى سيرته سماه «**السير المحمدى**».

■ ■ ■

الدهلوى (شاه ولى الدين)

أحمد بن عبد الرحيم الفاروقى الدهلوى الهندى (١١١٠ ـ ١١٧٦هـ) الملقب **شاه ولى الله،** قيل فيه أحيا الله به وبأولاده وأولاد بنته وتلاميذهم الحديث والسنة بالهند بعد موتها، وله مصنفات كثيرة منها «**الخير الكثير**» و«**الاعتقاد الصحيح**» و«**البدور البازغة**» و«**القول الجميل فى بيان سواء السبيل**» فى التصوف السنى، ومن رأيه أن الفرقة الناجية هم الآخذون فى العقيدة والعمل جميعاً بما ظهر من

الكتاب والسنة وجرى عليه جمهور الصحابة والتابعين . ويعالج الدهلوى المقامات والأحوال ويتحدث عن التجلى والإشراق ، ويرفع من شأن المجذوبين من الصوفية ، ومن رأيه أن الحقيقة تلزم لها الشريعة ، مثلما أنه لا شريعة بدون حقيقة ، ومن ثم فإنه يذهب إلى فتح باب الاجتهاد وعدم التقيد بآراء الفقهاء الأربعة حيث أن الإمام أبا حنيفة قد ذكر هو نفسه أنه لا ينبغى لمن لم يعرف دليله أن يفتى بكلامه ، وكذلك فقد ذكر الإمام مالك أنه ما من أحد إلا وهو مأخوذ من كلامه ومردود عليه إلا رسول الله ﷺ ، وكذلك الإمام الشافعى والإمام أحمد ، ومن ناحية أخرى **لابد من تنقية التصوف من الشوائب وإبراز الجانب الإسلامى فيه وملاشاة التأثيرات الفلسيفة غير الإسلامية عليه** ، ولذلك فقد ذهب إلى ماذهب إليه السرهندى وقال بوحدة الشهود بدلاً من وحدة الوجود عند ابن عربى ، فذلك أليق بالتصوف الإسلامى ويربطه إلى السنة ويجعل الناس أكثر إقبالاً عليه لمناسبته لديننا الحنيف . (**أنظر السهرندى**) .

■ ■ ■

دى تاسى

جارسن Garcin de Tassy (١٧٩٤ ــ ١٨٧٨) تخرّج على دى ساسى وتولى بعده تحرير المجلة الآسيوية ونشر وترجم الكثير من الإسلاميات ، ومنها فى التصوف ترجمته **لمنطق الطير للشاعر الصوفى الفارسى فريد الدين العطار، والرباعيات للخيام** .

■ ■ ■

دى ساسى De Sacy

سلفتير ، مستشرق فرنسى (١٧٥٨ ــ ١٨٣٨م) كان فى طليعة المستشرقين ، ومن أعضاء مجمع الكتابات والآداب ، ترجم **لفريد الدين العطار** الشاعر الصوفى الفارسى (١٨١٩) ، ونشر بمعاونة **دى لاجرانج** منتخبات من الشعر الصوفى **لابن الفارض** المصرى ، وكان المظنون أن ابن الفارض من **شعراء** الغزل نتيجة الفهم الخاطىء للمستشرق البولونى فابريس لشعره ، وقد صحح دى ساسى صورة ابن الفارض ، وله التعليقات على كتاب **البرق اليمانى فى الفتح العثمانى** لشيخ الصوفية **عمرو المكى**

المتوفى سنة ٢٩٧ هـ، وكتاب **الجمان للمقرى** الفاسى المتوفى سنة ٧٥٨ هـ، **وبلوغ المرام للزبيدى**، وقدم لكتاب **نفحات الأنس لعبد الرحمن جامى** بدراسة شاملة للتصوف.

ودى لاجرانج (١٧٩٠ ــ ١٨٥٩)، تلميذه ومعاونه، اشتهر بشغفه بالصوفية العرب، وقد أكب على دراسة العربية وتأويلات وتخريجات ألفاظها ومرادفاتها كى يستطيع أن يفهم التصوف الإسلامى وخصائصه التى تجعله فريداً ومتميزاً عن أى تصوف هندى أو مسيحى أو عبرى، وله فيه التصانيف والبحوث التى نشرها فى المجلة الآسيوية.

■ ■ ■

دى كورتى

بافيه Pavet de Courteille (١٨٢١ ــ ١٨٨٩) حفيد المستشرق دى ساسى، درس فى فرساى وتعلم على كاترمير وبرسفال ورينو وانصرف باهتمامه إلى الآداب التركية، ومن ترجماته فى التصوف **تذكرة الأولياء لفريد الدين العطار.**

■ ■ ■

دى ماتيو

إجنازيو دى ماتيو de Matteo (١٨٧٢ ــ ١٩٤٨) إيطالى، كان شديد الاهتمام باللغة العربية والتصوف الإسلامى والجدل بين المسيحيين والمسلمين وتاريخه، وتوفر على ترجمة **التائية الكبرى لابن الفارض** الشاعر المصرى الصوفى فى ٧٤٦ بيتاً، وتفسير ابن الفارض للتصوف ومصطلحاته (مجلة الدراسات الشرقية سنة ١٩٢٠) وانتقده المستشرق نللينو بالنظر إلى ما ذهب إليه فى تفسير بعض المصطلحات الصوفية أو ما فهمه منها عن ابن الفارض. وله بحوث فى الفكرة الإسلامية عما ينبغى أن يكون عليه الإيمان أو ما تكون عليه الديانة الحقة، وعن الروحانية فى الإسلام وفى النصرانية، وهى دراسة مقارنة، **ونشر الجواب الصحيح لابن تيمية، وكتاب الطبقات لأبى بكر الزبيدى.**

■ ■ ■

دى مينار

باربييه Barbier de Meynard (١٨٢٧ ـ ١٩٠٨) وله ترجمات عديدة من العربية إلى الفرنسية، ومن ذلك المنقذ من **الضلال للإمام الغزالى، وبستان السعدى الشاعر الفارسى.**

■ ■ ■

ابن دينار (مالك)

أبو يحى، فقد كان فى زهده ونسكه متشبهاً بالنبى **يحى**، وكان كثير القراءة للتوراة والزبور والأناجيل ويقتبس منها، وهو أكثر الصوفية اقتباساً منها وذكراً لها، وكان يتردد على الأديرة ويفعل فعل الرهبان، فكان يدعو إلى التجرد ويقول لمن عرض عليه الزواج: لو استطعت لطلّقت نفسى. أوَ ما تعلم أنى قد طلقت الدنيا. لا يبلغ الرجل منزلة الصدّيقين حتى يترك زوجته كأنها أرملة!

وابن دينار صحب **الحسن البصرى** ومات نحو سنة ١٣١ هـ، وكان يتكسب من شيئين: **عمل الخوص ونسخ القرآن**، وكان **يكتب المصحف** فى أربعة أشهر ولا يأخذ أجراً عليه أكثر من عمل يده. وكان **أُدْمُه** كلَّ سنة مِلحاً بفلسين، وتأتى عليه السنة لا يأكل فيها **لحماً** إلا فى يوم الأضحى ومن أضحيته. وكان يلبس **إزار وعباءة**، ويقول لو صلح لى أن أعمد إلى بُرد لى، فأقطعه باثنتين، فأتزّر بقطعة، وارتدى بقطعة لفعلت. ولولا أن يقول الناس جُن مالك للبست المسوح، ووضعت الرماد على رأسى، أنادى فى الناس: من رآنى فلا يعص ربه عز وجل. وسئل عن لبس **الصوف** فقال: أما أنا فلا أصلح له، لأنه يطلب صفاء. وكان **بيته** خالياً ليس فيه غير مصحف وإبريق وحصير، ويقول: هلك أصحاب الأثقال. وكان يقول فى **دعائه**: اللهم لا تدخل بيت دينار من الدنيا شيئاً. وقال فى **الدنيا**: اتقوا السحّارة، يقصد الدنيا، فإنها تسحر **قلوب العلماء**. وقال: خرج **أهل الدنيا** ولم يذوقوا أطيب شيء فيها، قالوا له ما هو، قال **معرفة الله عز وجل**. إنما **مثل الدنيا** كالسم، أكله مَنْ لم يعرفه، واجتنبه من يعرفه. **ومثل الدنيا** مثل الحيّة، مَسُّها لين، وفى جوفها السم القاتل، يحذرها ذوو العقول، ويهوى إليها الصبيان بأيديهم. وكان كثيراً ما **يحبس**

نفسه فى بيته **ويبكى** ويشهق، وكثيراً ما **يغشى** عليه من كثرة **المواجيد.** ودخل المقابر فى دفنة أحد الناس، ووقف على القبر وهم يوسدونه التراب، فجعل يندب ويقول: «**مالك غداً هكذا يصير**» وظل يردد ذلك حتى أغشى عليه. وسمع قارئاً يقرأ القرآن: **إذ زلزلت الأرض زلزالها**، فجعل ينتفض، حتى إذا قرأ: **فمن يعمل مثقال ذرة خيراً يره، ومن يعمل مثقال ذرة شراً يره**، أخذ يبكى ويشهق حتى غشى عليه. وكان يقول: لم يبق من رَوْح الدنيا إلا ثلاثة: **لقاء الإخوان، والتهجد بالقرآن، وبيت خال يذكر الله فيه.** وكان دائم **الحزن**، فإذا سئل فيه قال: القلب إن لم يكن فيه حزن خَرِبَ، كما أن البيت إذا لم يُسْكنْ يخرب. وكان يزجر **حملة القرآن** الذين لا يفيدون منه فى سلوك الصلاح والتقوى. قال: يا حملة القرآن، ماذا زرع القرآن فى قلوبكم، فإن القرآن ربيع المؤمن، كما أن الغيث ربيع الأرض، وكان يزجر الولاة وينصح لهم كأستاذه الحسن البصرى، وسأله بعض الولاة: ادع لنا، فقال: كيف أدعو لكم، وألف واحد يدعون عليكم. وكان يقول: إذا تعلم العبد العلم ليعمل به كثر علمه، وإذا تعلمه لغير العمل، زاده فجوراً وتكبراً واحتقاراً للعامة. ولما حضره الموت قال: لولا أنى أكره أن أصنع شيئاً لم يصنعه أحد قبلى، لأوصيت أهلى إذا متُّ أن يقيدونى، وأن يجمعوا يدىّ إلى عنقى، فينطلقون بى على تلك الحال حتى أدفن، كما يُصنع بالعبد الآبق.

■ ■ ■

ذ

ذو النون المصرى

أبو الفيض ثوْبان بن إبراهيم الأخميمى المصرى، نوبى كتب عنه أبو عمر الكندى (٢٨٣ ــ ٣٥٣هـ) فى كتابه «أعيان الموالى» فذكر أنه كان «مولى لقريش وكان أبوه نوبيا»، ووصفوه فقالوا كان نحيفاً طويلاً تعلوه حمرة وليس بأبيض اللحية، وقيل فيه أنه كان فائق هذا الشأن، يعنى التصوف، وأوحد وقته علماً وورعاً وحالاً وأدباً، وقال فيه المستشرق العلامة **نيكلسون** «هو أحق رجال الصوفية على الإطلاق أن ينسب إليه أنه واضع أسس التصوف. وقد اعترف له بالفضل كتّاب التراجم المؤرخون من المسلمين، وفيه يقول **جامى** فى كتابه **نفحات الأنس**: هو رأس هذه الفرقة، فالكل قد أخذ عنه وانتسب إليه، ولقد سبقه فى التصوف مشايخ ولكنه كان أول من فسّر إشارات الصوفية وتكلم فى هذا الطريق، وكان أول من تكلم فى مصر فى الأحوال ومقامات أهل الولاية، وأول من عرّف التوحيد لمعنى الصوفى، وكان له أكبر الأثر فى تشكيل الفكرة الصوفية. ويروى ابن خلكان أنه كان عبداً أعتقته قبيلة قريش وأدخلته فى ولائها، وأنه تتلمذ على الإمام مالك وروى كتاب الموطأ نقلاً عنه. وكان استاذه فى التصوف شقران العبد أو إسرافيل المغربى، وكان حكيماً فصيح العربية وشاعراً. وكان من الملامتية لأنه أخفى تقواه بظهوره بين الناس بالاستخفاف بأمور الشرع، ولذلك **عدّة المصريون** زنديقاً ولو أنهم اعترفوا له بالولاية بعد موته. ويذكره **صاحب الفهرست** بين الفلاسفة الذين تكلموا فى علم الكيمياء، وينسب إليه كتابان

فى هذه الصنعة، ويعده **ابن القفطى** فى كتابه **إخبار العلماء بأخبار الحكماء** من طبقة جابر بن حيان فى انتحال صناعة الكيمياء وعلم الباطن وعلوم الفلسفة. وكان كثير الملازمة لبلدة بربا أخميم فإنها بيت من بيوت الحكمة القديمة وفيها التصاوير العجيبة والمقالات الغريبة التى تزيد المؤمن إيماناً والكافر طغياناً، ويقال إنه فتح عليه علم ما فيها بطريق الولاية، وكانت له كرامات. وقيل فى اسمه ذى النون **لأنه امتحن فى دينه مثل النبى يونس** وأوذى كثيراً لكونه أتى بعلم جديد هو علم التصوف. ونسبته **المصرى** عند غير المصريين من الصوفية فقد كان كثير الأسفار وطلب الإخوان، ويحكى هو عن نفسه حكايات كثيرة فيها أنه كان فى مكة وفى البصرة والشام وتيه بنى إسرائيل وساحل البحر وجبال أنطاكية والبصرة وجبال بيت المقدس، وكان هو أيضاً ينادى على الصوفية بيا خراسانى ويا بصرى ويا كوفى وهكذا. وينفرد ذو النون بغرامه بالطبيعة فيحكى أنه بينما هو سائر على شاطىء نيل مصر، أو سائر بين الأشجار، ودعواته لله فيها أرق الأوصاف للطبيعة من مثل إلهى ما أصغى إلى صوت حيوان، ولا حفيف شجر، ولا خرير ماء، ولا ترنم طائر، ولا تنعم ظل، ولا دوى ريح، ولا قعقعة رعد، إلا وجدتها شاهدة بوحدانيتك دالة على أنه ليس كمثلك شىء. ويقول فى دعاء آخر وقد نظر إلى السماء والماء على ساحل البحر عند صخرة موسى، سبحان الله ما أعظم شأنكما، بل شأن خالقكما، أَعْظَمَ منكما ومن شأنكما. ولم نعثر فى كلام أحد من الصوفية على مثل كل هذه التعاريف لألفاظ الصوفية فقد تكلم ذو النون فى كل شىء من معرفة وعارف وأنس ووجد وسماع وتوبة وإخلاص وتقوى وورع وتوكل وغفلة وخوف الخ، ويفرق بين توبة الخواص وتوبة العوام، والعلم والمعرفة، والظاهر والباطن. وعندما يتحدث إلى الإخوان يقول **يا حبيبى** ولا نعلم أحداً سبقه إلى ذلك. وكلامه أغلبه فى **المحبة**، وشعره ينصرف فى معظمه إلى المحبة وأشواقها ولواعجها، والحبيب والغيبة والوصال، ويؤسس كل الذنوب على النظرة، ومن النظرة تكون الخطرة، فإن تداركتها ذهبت وإلا امتزجت بالوساوس فتتولد منها الشهوة ثم الطلب.

ويبدو أنه كان يعانى من **الحرمان الجنسى**، ولم نقرأ عنه أنه تزوج ولكنه دائم التحذير من شهوة الفرج وتكثر فى حكاياته لقاءاته مع نساء، وقد أحصيتُ عدد النساء اللاتى التقى بهن فوجدت أنهن ثمانى عشرة امرأة. يقول بينما أنا أسير فى جبال أنطاكية وإذا أنا بجارية، أو بينما أنا فى بعض مسيرى إذ لقيتنى امرأة، وكنت على شاطىء النيل إذ بجارية تدعو، أو كنت فى الصحراء فنظرت فإذا امرأة، ولقاءاته معهن تكون دائماً على خلفية من الطبيعة وليس معه والمرأة التى يلتقى بها أحد، ودائماً

تتحدث إليه النساء عن المحبة فتقول إحداهن مثلاً فتق الحبيب، أى الله تعالى، بينى وبين قلبك فعرفتك باتصال معرفة حب الحبيب، وتعاتبه أخرى عندما يتقدم محادثا لها فتقول: ما للرجل ومخاطبة النساء؟ ويسألها عن المحبة فتتعجب منه أنه وهو العارف يزعم الجهل بها، ولا تجد بأساً أن تعرفها فتقول أولها لهج القلب بذكر المحبوب والحزن الدائم والتشوق اللازم فإذا صاروا إلى أعلاها شغلهم وجدان الخلوات عن كثير من أعمال الطاعات. ومن الغريب أن ذا النون يورد على لسان هذه المرأة ذاتها أبياتاً لرابعة العدوية فى المحبة، وهى الأبيات المشهورة التى تقول فيها:

أحبك حبين حب الهوى	وحباً لأنك أهل لذاكا
فأما الذى هو حب الهوى	فذكرٌ شغلت به عن سواكا
وأما الذى أنت أهل له	فكشفك للحجب حتى أراكا
فما الحمد فى ذا ولا ذاك لى	ولكن لك الحمد فى ذا وذاكا

وقد نتساءل هل التقى ذو النون ورابعة العدوية؟ إلا أننا نعلم أن رابعة توفيت حوالى سنة ١٨٥هـ بينما ذو النون توفى سنة ٢٤٥هـ. وكل النساء اللاتى يردن فى روايات ذى النون عابدات زاهدات، أو لهن قصص مأساوية كقصة المرأة التى خطف ابنها التمساح على النيل. ومجلس ذى النون الذى يجمع أصفياءه وأصحابه كثيراً ما يتناول موضوع المحبة الذى يتطرق إليه استاذهم فى شعره وحكاياته، وذو النون يحذرهم أن يتحدثوا بها أمام السفلة أو المدعين لئلا يدعوها. ويعتبر ذو النون المحبة ميزة الإنسان، وهى سر الله أودعه فى القلوب وإلا كان الإنسان بمنزلة البهيمة. وحتى عندما اتهموه بالزندقة وأمر الخليفة المتوكل باستحضاره من مصر إلى بغداد مكبلاً فى الحديد يحكى ذو النون أنه لقيته امرأة فقالت إذا دخلت على المتوكل فلا تهبه ولا تر أنه فوقك، ولا تحتج لنفسك محقاً كنت أو متهماً، لأنك إن هبته سلطه الله عليك، وإن حاججت عن نفسك لم يزدك ذلك إلا وبالاً. ويبدو أن هذه النصيحة التى يسردها ذو النون هى دفاعاته النفسية نتيجة دوافع داخلية يجليها أنه كان نوبياً ومن الموالى. وله فى **التواضع** رأى إذا طلبه الناس منك فيقول إن سؤاله إياك يدل على تكبره فى الباطن، وتواضعك له يكون عوناً على التكبر. ولقد جاءه أحد مريديه وقال له إن امرأتى تقرأ عليك السلام فقال لا تقرءونا من النساء السلام، وله نصيحة عجيبة عن نساء العراق فيقول من أراد تجريد التوحيد وخالص التوكل فعليه بالنساء الزمنى ببغداد. ويبدو أن هذه الروايات من تضارب مؤرخيه واختلاف اتجاهاتهم فيه كمثل

القول بأنه قرشي ومن مكة ثم الادعاء بأن ثقافته مصرية فرعونية واهتماماته بعلوم المصريين القدامى فى الكيمياء والسحر وغيره والإلحاح فى نسبته بأنه مصرى ومن النوبة. ومن الغريب فى ذلك المجال أنهم ينسبون إليه نبوءتين عن مصر، الأولى قوله وهو يومىء إلى موضع بمصر ـ كأنك عن قليل ترى هذه المدينة عامرة وتخرج منها الخيل المحذفة وقوم عُجم، وعن قليل تراها خراباً. ويعلّق راويه بأنهم رأوها عامرة ورأوها كذلك خراباً. وقوله سيأتى على الناس زمان تكون الدولة فيه للحمقى على الأكياس. ويفسر الشعرانى النبوءة بأن الأحمق هو الذى يتبع هواه، والكيّس هو الذى يدين نفسه ويعمل كما بعد الموت، أى تكون الدولة للمفسدين على الصالحين الذين يخشون الله. ومن الطريف أيضاً أن ذا النون تحدّث فى **الضمير** وهى أول مرة فيما نعلم يرد ذلك فى كلام صوفى، ولا نعلم أحداً من الصوفية المتأخرين قد ذكره بالاسم الصريح، ويقول ذو النون إذا أطلع الخبير على الضمير فلم يجد فى الضمير غير الخبير جعل فيه سراجاً منيراً. وشعر ذى النون فيه رقة عشقه وقوة إيمانه يقول:

أموت وما ماتت إليك صبابتى ... ولا رويت من صدق حبك أوطارى
مناى المنى كل المنى أنت لى منى ... وأنت الغنى كل الغنى عند إقصارى
وأنت مدى سؤلى وغاية رغبتى ... وموضع شكواى ومكنون إضمارى
تحمل قلبى فيك ما لا أبثه ... وإن طال سقمى فيك أو طال إضرارى
وبين ضلوعى منك ما لولاك قد بدا ... ولم يبد باديه لأهلى ولا جارى
وبى منك فى الأحشاء داء مخامر ... فقد هدّ منى الركن وأثبت أسرارى
ألست دليل الركب إن هم تحيروا ... ومنقذ من أشفى على جرف هارى
أنرت الهدى للمهتدين ولم يكن ... من النور فى أيديهم عشر معشارى
فنلنى بعفو منك أحيى بقربه ... وغِّش بيسر منك فقرى وإعسارى

■ ■ ■

ر

الــرازى

أبو بكر نجم الدين عبدالله بن محمد، الأسدى الرازى المتوفى سنة ٦٥٤هـ **فى بغداد**، وله فى التصوف **«كشف الحقائق وشرح الدقائق»**.

■ ■ ■

الــرازى

أبو زكريا يحيى بن معاذ بن جعفر الرازى، توفى بنيسابور سنة ٢٥٨هـ، وكان يتكلم فى **الرجاء** وله لسان فى **المعرفة**، وله شقيقان اسماعيل وإبراهيم من الزاهدين، وكان دائم **الغم** يسائل نفسه لما خلقه الله، ويتحدث كثيراً عن **الفناء**، ويرجو أن يغفر له الله ذنوبه فهو لم يختر أن يذنب واختار أن يعرف، فلّما عرف أدرك أن عليه أن يعمل، وابن معاذ يختار من العمل أشرفه وهو اثنان بناء المنابر وتعبية العساكر، يعنى أن شغله فى **الدعوة والجهاد**، فالعبادة للعارف سلوك مع الخلق والخالق، والتصوف أدب، وطريق العارفين يبدأ بالخوف فتكون التوبة فالزهد، والرهد يسلم للرضا ومحبة الحق، والمحبة تؤسسها المعرفة، ومن عرف ذاق، ومن ذاق اشتاق. وأوثق الرجاء للعارفين هو رجاؤهم لربهم، وأصدق ظنونهم حسن ظنهم بالله. ولا يفهم ابن معاد من التزهد فى الدنيا بأنها مبغضة كريهة فى ذاتها، فالدنيا مخلوقة لله تعالى، وهى خزانته ولا يمكن أن تكون موضوعاً لكراهية الكارهين وبغض المبغضين وكل ما فيها من شجر أو

مدر أو حجر يسبح لله ، وقد خيرّها أن تأتى كرها أو طوعاً فأتت طوعاً ، والمجيب لله تعالى بالطاعة لا يستحق أن يكون بغيضاً فى قلوب العارفين . ويفسر ابن معاذ **الزهد** فى الدنيا بأنه عدم الطمع فيها ، فمن يريد الزهد فعليه أن يخرج من خصاله خصلة الطمع ، وكلما كان طلب الدنيا كان الابتعاد عن الله ، وعلى حسب اشتغال الفكر والقلب بالدنيا يكون انصرافهما عن الله وبالتالى البعد عنه ، وابن معاذ يحاول بزهده أن يقبل على الله معتمداً عليه ممتلىء القلب من رجائه ورطب اللسان من دعائه ، ويقول : «فى قلبى من الذنوب زفرات ومعى عليها ندامات» ويستعطف الله ووسيلته إليه **لا إله إلا الله** ، يعنى توحيده وتنزيهه ، ويقول لمن يسأله عن انشغاله عن أصحابه :

أنا مشغول بذنبى يا رجل   كف عنى إن قلبى فى شغل

وينتقد ابن معاذ **الصوفية الجاهلين** الذين يتعبدون قبل تعلمهم فروض الدين ، والصوفية الذين لا ينتفعون بأقوال المشايخ وبالتالى ليست لأفعالهم أصول ولا قواعد . ويقول فى هؤلاء وأولئك إن لبس الصوف والكلام فى الزهد عندهم حرفة ، وليس هكذا العارف فهو ولى الله وعدو الرياء والنفاق ، وليست الدنيا همه ، ولا يريد بالزهد أن يتكسب من الناس وإنما هو فى الدنيا داع إلى الله ومثله مثل الصياد ، وهو يصطاد العباد من أفواه الشياطين ، ولو لم يصد طوال حياته إلا عبداً واحداً لكان قد أوتى خيراً كثيراً . **والولى** من صفاته أنه يرجع إلى الله فى كل شىء ، ويرجو الله فى كل شىء ، وعبادته له حرفة ، وحانوته فيها الخلوة ، ورأس ماله الاجتهاد بالسنة ، وربحه منها رضا الله ومحبته . وقلبه إذا عرف الخلوة أوصلته معرفته لها إلى الأنس بالله ، ومن يأنس بالله يستوحش من غيره . والخلوة والقلة والجوع أساس الزهد ، **والجوع** بحسب الجائع ، فالتواب جوعه تجربة ، والزاهد جوعه سياسة ، والصديق تكرمة . والصوفى الجهول هو الذى يبدأ بلبس الصوف من غير إماتة نفس ، وهو أيضاً الذى يترك المكسب مع الحاجة ، فكل تعبد مع تضييع العيال هو جهل مؤكد . ويتساءل ابن معاذ **كم بين من يريد حضور الوليمة للوليمة ، وبين من يريد حضورها ليلتقى الحبيب فيها ؟** وحبه لله هو الذى يقوّى قلبه لأن يسأل الله أن يغفر له بلا توبة لأنه يقدر على شروطها ، ويعظ أحباءه أن لا يجالسوا إلا **أحباء الله** فهم المداومون على ذكره والملازمون لبابه .

■ ■ ■

الـــرازى

زين الدين محمد بن أبى بكر بن عبد القادر الرازى المتوفى بعد سنة ٦٦٦ هـ ، من فقهاء الحنفية ، وله «**حدائق الحقائق**» فى التصوف ، كما أن له مصنفات أخرى كثيرة فى مختلف العلوم على طريقة أهل عصره ، واشتهر بقاموسه «**مختار الصحاح**» ، و«**شرح المقامات الحريرية**» و«**أنموذج جليل عن أسئلة وأجوبة من غرائب آى التنزيل**» و«**الذهب الإبريز فى تفسير الكتاب العزيز**» و«**روضة الفصاحة**» و«**كنز الحكمة**» . زار مصر والشام ، وكان فى قونية سنة ٦٦٦ هـ وهى آخر العهد به .

■ ■ ■

الـــرازى (الفخر)

فخر الدين محمد بن عمر بن الحسن بن الحسين التيمى البكرى (٥٤٤ ـــ ٦٠٦هـ) الإمام المفسر ، أوحد زمانه فى المعقول والمنقول وعلوم الأوائل ، أصله من طبرستان ، وهو قرشى النسب ، ومولده فى الرى وإليها ينسب ، وتوفى فى هراة ، وله التصانيف ومنها كتاب «**اعتقادات فرق المسلمين والمشركين**» ويعقد فيه باباً فى أحوال الصوفية يقول فيه إن أكثر من حصر فرق الأمة لم **يذكر الصوفية وذلك خطأ** ، وما أورده الفخر الرازى عن الصوفية كفرقة أو فرق هو الأول فيما نعلم ، وحجة الرازى أن حاصل قول الصوفية أن الطريق إلى معرفة الله هو التصفية والتجرد من العلائق البدنية ، وهذا طريق حسن ، ولكنهم فرق ، **الأولى أصحاب العادات** ، وهم قوم منتهى أمرهم وغايته تزيين الظاهر ، كلبس الخرقة وتسوية السجادة ؛ **والثانية أصحاب العبادات** ، وهم قوم إذا فرغوا من أداء الفرض لم يشتغلوا بنوافل العبادات بل بالفكر وتجريد النفس عن العلائق البدنية ، وهم يجتهدون أن لا يخلو سرهم وبالهم عن ذكر الله ، وهؤلاء هم خير فرق الآدميين ؛ **والرابعة النورية** ، وهم طائفة يقولون إن الحجاب حجابان ، **نورى ونارى** ، وأما **النورى** فالاشتغال باكتساب الصفات المحمودة كالتوكل والشوق والتسليم والمراقبة والأنس والوحدة والحالة ، وأما **النارى** فالاشتغال بالشهوة والغضب والحرص والأمل ، لأن هذه الصفات نارية ، كما أن إبليس لما كان نارياً فلا جرم وقع فى الحسد ؛ **والخامسة الحلولية** وهم طائفة من هؤلاء القوم الذين ذكرناهم يرون فى أنفسهم أحوالاً عجيبة ، وليس لهم من العلوم العقلية نصيب وافر ، يتوهمون أنهم قد حصل لهم الحلول أو الاتحاد فيدعون دعاوى عظيمة . وأول ما أظهر هذه المقالة

فى الإسلام الروافض، فإنهم ادعوا الحلول فى حق أئمتهم ؛ **والسادسة المباحية**، وهم قوم يحفظون طاعات لا أصل لها، وتلبيسات فى الحقيقة، وهم يدعون محبة الله تعالى، وليس لهم نصيب فى شيء من الحقائق، بل يخالفون الشريعة ويقولون إن الحبيب رفع عنا التكليف، وهؤلاء شر الطوائف، وهم على الحقيقة على دين مزدك.

■ ■ ■

رابعة العدوية

أم الخير رابعة بنت إسماعيل العدوية البصرية، مولاة آل عتيك المتوفية نحو سنة ١٨٥هـ، كانت البنت الرابعة لأبويها، وهى بخلاف رابعة بنت إسماعيل الشامية زوجة الصوفى أحمد بن أبى الحوارى والمتوفية سنة ٢٣٥هـ، والأولى دفنت بالبصرة، والثانية قبرها ببيت المقدس. ويروون عن العدوية أنها وهى طفلة خرجت هى وأخواتها من شدة الجوع وقت أن نزل القحط بالبصرة فوجدها رجل باعها بستة دراهم، وكانت تفرض الشعر وتغنيه وتعزف على الناى، ولها مزاج فنى رقيق وميل طبعى إلى الحزن، ولعلها لذلك كانت تحب الناى على العود. وشعرها أنثوى فيه لغة النساء. وربما استعملها سيدها للغناء فى مجالسه وكان ذلك يسخطها عليه بسبب اتجاهاتها الدينية القوية حتى أنها شرعت فى الهرب وناجت ربها قائلة: «**إلهى! إنى غريبة ويتيمة وأرسف فى قيود الرق، ولكن همى الكبير هو أن أعرف أراض أنت عنى أم غير راض؟**»، أى أنها ربما كانت تخشى أن تبوء بغضب الله بسبب ما كان يجبرها عليه سيدها، وقد زادها ذلك من التهافت على العبادة والابتهال إلى الله أن يقيلها من عثرتها، وقد تسمّع عليها سيدها فى ليلة فوجدها تقول وهى ساجدة: «**إلهى! أنت تعلم أن قلبى يتمنى طاعتك، ونور عينى فى خدمة عتبتك، ولو كان الأمر بيدى لما انقطعت لحظة عن خدمتك، لكنك تركتنى تحت رحمة هذا المخلوق القاسى من عَبَدَتك!**»، فلما كان الصباح طلبها سيدها وأعتقها، فكان ذلك مدعاة أكثر للتوجه للشكر لربها فانصرفت بكليتها إليه وقد تحررت من رقها، وكانت إذا انتهت من صلاة العشاء تصعد إلى سطح دارها بعد أن تشد عليها درعها وخمارها وتدعو «**إلهى أنارت النجوم، ونامت العيون، وغلّقت الملوك أبوابها، وخلا كل حبيب بحبيبه، وهذا مقامى بين يديك**»، ثم تقبل على الصلاة فإذا كان السحر وطلع الفجر قالت: «**إلهى! هذا الليل قد أدبر، وهذا النهار قد أسفر، فليت شعرى أقبلت منى**

ليلتى فأهنأ، أم رددتها علىّ فأعزّى؟ فوعزتك هذا دأبى ما أحييتنى وأعنتنى!».
وقد تقول فى حياتها الجديدة وقد طويت صفحة القديمة :

تركت هوى ليلى وسُعدى بمعزل ... وعدت إلى مصحوب أول منزلى
ونادت بى الأشواق مهلاً فهذه ... منازل من تهوى رويدك فانزل

وإنشادها الآن يتوجه لسيدها الحقيقى، وشعرها فيه من نسجها وليس أبياتاً من أشعار المحبين كالتى كانت تحفظها وتقولها لمولاها من هل عتيك :

يا سرورى ومنيتى وعمادى ... وأنيسى وعُدتى ومُرادى
أنت روح الفؤاد، أنت رجائى ... أنت لى مؤنس وشوقك زادى
أنت لولاك ياحياتى وأنسى ... ماتشتت فى فسيح البلاد
كم بدت مِنّة وكم لك عندى ... من عطاء ونعمةٍ وأيادى
حبك الآن بغيتى ونعيمى ... وجلاء لعين قلبى الصادى
ليس لى عنك ماحييتُ براح ... أنت منى مُمَكَّن فى السواد
إن تكن راضياً علىّ فإنى ... يا منى القلب قد بدا إسعادى

وتزهد رابعة فى الزواج وتخطب مرتين، فى الأولى لعبد الواحد بن زيد، وهو صوفى مثلها، وفى الثانية لأمير البصرة محمد بن سليمان الهاشمى ويعدها بمائة ألف مهراً، وبعشرة آلاف فى كل شهر دخلاً، فخاصمت الأول عدة أيام إلى أن صالحها عليه إخوانها من الصوفية فجاءها على استحياء فقالت له : **«يا شهوانى! اطلب شهوانية مثلك! أى شىء رأيت فىّ من آلة الشهوة»**، وكتبت إلى الثانى تقول : **«ما يسرنى أنك لى عبد** (كما ذكر لها فى خطبته) **وأن كل مالك لى، وأنك شغلتنى عن الله طرفة عين!».** وتقول رابعة :

راحتى يا إخوتى فى خلوتى ... وحبيبى دائماً فى حضرتى
لم أجد لى عن هواه عوضا ... وهواه فى البرايا محنتى
حيثما كنت أشاهد حسنه ... فهو محرابى إليه قبلتى
إن مت وجداً وماتم رضا ... واعنائى فى الورى واشقوتى
ياطبيب القلب يا كل المنى ... جُدْ بوصل منك يشفى مهجتى
ياسرورى وحياتى دائماً ... نشأتى منك وأيضاً نشوتى
قد هجرت الخلق جمعاً أرتجى ... منك وصلاً فهو أقصى منيتى

وأشهر أبيات رابعة فى الحب الإلهى هى التى تقول فيها :

أحبك حبين : حب الهوى ... وحباً لأنك أهل لذاكا
فأما الذى هو حب الهوى ... فشُغلى بذكرك عمن سواكا
وأما الذى أنت أهلٌ له ... فكشفك للحُجب حتى أراكا
فلا الحمدُ فى ذا ولا ذاك لى ... ولكن لك الحمد فى ذا وذاكا

ومعنى قولها **حب الهوى**، أى رأيتك فأحببتك عن مشاهدة اليقين لا من خبر وسمع وتصديق من طريق النِعَم والإحسان، فتختلف محبتى إذا تغيرت الأفعال لاختلاف ذلك علىّ، ولكن محبتى من طريق العيان فقربتُ منك وهربت إليك فاشتغلت بك لما تفرغت لك. وأما الحب الثانى **الذى هو أهل له** فتعنى به حب التعظيم والإجلال لوجه العظيم ذى الجلال. تقول ثم إنى مع ذلك لا أستحق هذا الحب ولا أستأهل أن أنظر إليك فى الآخرة على الكشف والعيان فى محل الرضوان، لأن حبى لك لا يوجب لك جزاءً عليه، بل يوجب علىّ كل شىء مما لا أطيقه ولا أقوم بحقك فيه أبداً، إذ كنتِ قد أحببتك فلزمنى خوف التقصير ووجب علىّ الحياء من قلة الوفاء، والخوف لما تعرضت به من حبك، إذ ليس كمثلك شىء، فتفضلت علىّ بفضل كرمك وما أنت له أهل من تفضلك، فأريتنى وجهك عندك آخراً كما أريتينه اليوم عندم أولا، فلك علىّ ما تفضّلت به فى ذاك عندى فى الآخرة، ولا حمد لى فى ذا هاهنا، ولا حمد لى فى ذاك هناك، إذا كنت أنا وصلت إليهما بك، فأنت المحمود فيهما لأنك وصلتنى بهما، وهذا هو **وجد المحبين المحققين**. ولا غرابة إن أطلقوا على رابعة العدوية لهذا **أنها شاعرة المحبة الإلهية عند الصوفية، وأول من تكلم فيها وأدخل هذا المعنى فى التصوف الإسلامى**.

■ ■ ■

إبن رجب

أبو الفرج زين الدين عبد الرحمن بن أحمد بن رجب (٧٣٦ ــ ٧٩٥ هـ) كان يعقد المجالس للوعظ وتذكير القلوب، وكانت مجالسه صارعة، وللناس عامة مباركة نافعة، فقد اجتمعت الفَرق عليه، ومالت القلوب بالمحبة إليه. وكان قدومه من بغداد إلى دمشق وهو صغير، وأجازه ابن النقيب وابن النووى، وله ضمن مصنفات أخرى **«جامع العلوم والحكم فى شرح خمسين حديثاً من جوامع الكلم»** تناول فيه

التصوف بالنقد برغبة بيان ماكان من علوم المتصوفة عن الصحابة والتابعين وما استحدث من ذلك بعدهم ، فنفرق بين السنة والبدعة . ويقول إن بدع الأزمنة المتأخرة تدرجت من الحديث فى الحقيقة **بالذوق** والكشف إلى الفصل بين **الحقيقة والشريعة** ، ثم تطور الأمر فنادى بعض الصوفية بأن المعرفة وحدها كافية مع المحبة دون ضرورة للأعمال التى تعد عندهم حجاباً ولاحاجة إليها إلا بالنسبة للعوام وحدهم . وهو يعرض **للغلو** عند الصوفية فى العبادات كالصوم المستمر الذى يضعف البدن فيعجز العبد عن القيام بحقوق الله ، أو يضعفه عن الكسب للأولاد ، أو القيام بحقوق الزوجة ، وقد نهى الرسول عن تعذيب النفس بتحميلها مالا تطيق . ولقد انصرف الصوفية عن العلم وتحدثوا فى الوساوس والخطرات ، وكلامهم فيها لايستند إلى دليل شرعى وإنما على **الرأى والذوق** . ويتقرب البعض منهم إلى الله تعالى بسماع الملاهى أو بالرقص أو يكشف الرأس فى غير الإحرام وما أشبه ذلك من المحدثات ، والتقرب إلى الله ينبغى أن يتم بأداء الفرائض ثم النوافل ، فاتباع أى طريق يوصل إلى التقرب من الله وموالاته ومحبته سوى طاعته التى شرعها على لسان رسوله ممن ادعى ولاية الله ومحبته تبين أنه كاذب فى دعواه . والاقتداء ينبغى أن يكون بالسنة وليس بهؤلاء الصوفية لأن الرسول نهى عن التعسير وأمر بالتيسير . **والزهد** عند ابن رجب ليس بتحريم الحلال وإضاعة المال ، وإنما الزهادة فى الدنيا هو أن لاتكون فى يديك أوثق مما فى يد الله ، وأن تكون فى ثواب المصيبة إذا أنت أصبت بها أرغب فيها لو أنها بقيت لك . وليست **المحبة** فى السنة عواطف تجعل صاحبها يهيم على وجهه تاركاً الفروض والتكاليف ومقبلاً على النواهى ومردداً الأذكار ، ومهللاً بالتسابيح يتواجد بها ، وإنما المحبة الصحيحة تقتضى المتابعة من العبد ، والموافقة فى حب المحبوبات وبغض المكروهات . وكذلك الشأن فى **التوكل** ، فعلى العكس من الصوفية الذين قد يتعللون به لإبطال الأسباب وإسقاطها فإنه يربط التوكل بالأسباب فى الطاعة لله وهو من عمل الجوارح ، والتوكل عليه سبحانه من عمل القلب . ولابن رجب تفسيرات أخرى فى المعرفة **والجهاد** والمعية ، والجهاد هو ذروة سنام الأمر كله وأرفعه ، **والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر** أفضل الأعمال بعد الفرائض ، وأما الصوفية فقد عطلوا هذه الفريضة واعتزلوا الناس واختلوا بأنفسهم دونهم .

رضوان (حسن)

حسن بن رضوان بن محمد بن حنفى (١٢٣٩ ـــ ١٣١٠ هـ) له أرجوزة « **روض**

القلوب المستطاب» يشرح فيها عبارات القوم، وييسرها للطالبين من الطريقة الخلوتية. وكان مولده فى ببا الكبرى من محافظة بنى سويف، وأجداده كانوا من أهل الشام، وانتقل منهم إلى مصر جده الثانى، وتوفى والده وهو صغير فرعته أمه وأرسلته لطلب العلم فى الأزهر الشريف فبلغ مقام التدريس وهو ابن سبع عشرة سنة، وأخذ الطريق وهو فى سن العشرين، ثم ترك القاهرة وانتقل إلى السريرية من المنيا وأقام بزاوية استاذه تسع سنين، تولى فيها مراقبة المريدين وكانوا خمسمائة أو يزيدون، ثم انتقل بأهله إلى سفط أى جرج من بنى مزار واشترى دارا بجوار المسجد فاجتمع عليه الناس لمدارسة العلم وتلاوة القرآن، ثم أمره استاذه بالانتقال إلى أبى الوقف فأقام بها خمس سنوات وحج وانتقل إلى أبشاق الغزال بالقرب من سفط أبى جرج، وما زال ينتقل إلى أن وافته منيته. **وحياته نموذج للصوفى المتحقق**، فقد كان من العلماء وتوجه إلى نشر الثقافة الدينية والصوفية فكان يلقى الدروس ويقيم الأذكار وينشىء المؤلفات ويذيع المَثَل الطيب بسلوكه الشريف. ويقول الدكتور زكى مبارك نقلاً عن الشيخ مصطفى عبد الرازق أن البلد الذى كان الشيخ رضوان يقيم فيه كان يكثر فيه العلماء والمدرسون فهو من الهداة الصالحين الذين عرفتهم مصر فى القرن الثالث عشر، وله رسائل فى شرح بعض الأحاديث شرحاً صوفياً، وفى القراءات، وفى الصلاة على النبى، والتوسل بالإسم الأعظم. **والتصوف** عنده أفضل علوم العارفين، واختلاف عباراتهم فيه إنما لاختلاف المقاصد، فنهم من يعبر بالفقر أو بالزهد، وبعضهم بأخذ الحقائق وترك الاختيار والتسليم إلى مراد العالم الحكيم، وبعضهم بقطع كل العلائق واليأس مما لدى الخلائق، وبعضهم كان تعبيره بالقيام بالأدب لكل وقت فى جميع ما طلب من شكر النعم والتوبة وحسن الصبر على البلاء والصدق فى الرضا بالقضاء. وأهل التصوف هم الكاملون المتجردون عما سوى معبودهم، والمتقيدون بامتثال أوامره. ولفظ الصوفى اصطلاح، الصاد منه تعنى صرف الهمة فى كل مرضى، وصدق النية وصد الهوى والصدق بالحق والصلح وصقل القلب بالذكر والصغار بمعنى التواضع، والواو تشير إلى وصل المولى ووده والوعد فى وفائه، والفاء للفتوة وفقد الشهود وفتحه القريب والفناء عن رسومه والفرق والفرقان، والباء للنسبة المتحققة فى الصوفى بما يستحق عليه اسم الصوفى من حيث تعلق قلبه بأحوال الأولياء. **وعلم الصوفية** علم موروث عن النبى، **والعارف بالله** هو من أشرفت عليه أنوار حقائق آدابه عليه الصلاة والسلام، وأعظم العارفين رتبة هو المستحق للخلافة والدعوة إلى الله نيابة عنه، ولا يزال يرتقى وتتجلى علومه إلى المقام الأكمل وهو مقام الكشف، بالإيمان عما انطوى فى

مشهد العرفان عن وجوده فى شهوده للحق، وعندئذ يندرج فى مقام كنت سمعه ويشاهد الأشياء به وله، فإذا رُد إلى العباد يكون داعياً بينهم بإذنه، ساعياً بالرشاد، يدُلّهم ويعرّفهم ليعبدوه بصدق العزم. وليست **الطريقة** إلا سلوك المتصوفين نحو تلك الغاية، **وأصولها** التوبة والخوف والرجاء والقناعة والزهد والورع والتوكل والصبر والشكر والمجاهدة والدعاء والعزلة والصمت.

وأرجوزته **روض القلوب** تقع فى نحو اثنى عشر ألف بيت، وربما كانت لذلك أكبر منظومة فى قواعد التصوف، وتشير إلى شدة تمكن الشيخ رضوان من علم التصوف حيث لم يترك فيه شاردة ولا واردة إلا قيدها بأسباب من النظم الوثيق كما يقول الدكتور زكى مبارك، وهو بكلماته «قعّد التصوف تصعيداً وصيرّه من العلوم ذات القواعد والأصول بحيث يرى المطالع أنه ينظر فى فن مقعّد مضبوط. وهو فيما يشرحه من الإشارات يعنى ما يقول ويفهم ما يريد. ومن أعجب ما وقع منه أنه يبدأ منظومته بأصعب مسألة وهى وحدة الوجود ويختمها بأسهل مسألة وهى تعريف التصوف. ويقول عن وحدة الوجود:

وحسبه من ذلك المقصود ... إشراف نور وحدة الوجود

ويعلق الدكتور مبارك أنه أجرأ من الشعرانى الذى تبرأ من وحدة الوجود، وأصرح من ابن عربى الذى دار حولها فى تهيب واحتراس.

كل ما سواه نجم آفل ... بل فى شهود العارفين باطل
فليس إلا الله والمظاهر ... لجملة الأسماء وهو الظاهر
فغيره فى الكون لا يقال ... لأنه فى ذاته محال
ورتبة الإمكان لا تفارق ... لممكن ما وهى فيه الفارق
فالحق ذاتاً واجب الوجود ... لنفسه وعز فى الشهود
وكل مظهر بروحه استمد ... من حضرة الأسماء بخير ما استعد
ومن هنا اليقين والتمكين ... فى رتبة الشهود والتلوين
فمن صفت مرآته تحققا ... بما من الأسما عليه أشرقا
وشاهد المشاهد المصونة ... وأدرك المواهب المكنونة

■ ■ ■

الرفاعـــى (أحمد)

الشيخ الكبير السيد أحمد بن السيد أبى الحسن على الرفاعى الحسينى، **مؤسس الطريقة الرفاعية أو البطائحية** وينسب إلى جده رفاعة المغربى الحسينى. وكانت ولادته بقرية حسن من أعمال واسط بالعراق سنة ٥١٢هـ، ووفاته بقرية أم عبيده بين واسط والبصرة سنة ٥٧٨هـ، ولم يخلف كتباً إلا أن تلاميذه جمعوا ما قال فى ثلاثة أسفار هى « **جمع أسرار الشريعة والحقيقة والطريقة** » والمشهور باسم « **البرهان** » ، و« **النظام الخاص لأهل الاختصاص** » ، و« **رحيق الكوثر** » ، ومن أبرز هؤلاء التلاميذ شرف الدين بن عبدالسميع الهاشمى الواسطى الذى صرف همه ومعه نفر من الأصحاب إلى جمع بعض المخاطبات التى مفادها موضوع الطريقة وآداب المريد وأخلاق الصوفية وأصل التصوف واشتقاق الكلمة، وكان ذلك هو كتاب **البرهان**، وأما كتاب **النظام الخاص لأهل الاختصاص** فهو أصعب على الفهم، وربما لذلك الأجدر به خاصة المريدين، والكتاب لذلك أصغر حجماً، ومداره على الأخلاق، وهو خطبة واحدة، بينما كتاب البرهان عدة مخاطبات، يبدأ الشيخ إما بأيها السادة، أو يا أخى. والكتاب الثالث من وضع **ابن المهذب** صاحب كتاب عجائب واسط، ونسب فيه إليه شعراً ومنه الأبيات التى تقول:

إذا جن لَيْلى هام قلبى بذكركم　　　أنوح كما ناح الحمام المطّوق

وقد صنف كثيرون كتباً فى الشيخ وفى الطريقة منها **ربيع العاشقين** لعلى بن جمال الحداد، **وترياق المجيب** لتقى الدين الطوسى، **والنفحة المسكية** للفاروق الواسطى، **وخلاصة الإكسير** لعلى الواسطى، **والعقود الجوهرية** لأحمد عزت الفاروقى. **ونظرية التصوف** عند الرفاعى أساسها **احترام الشريعة أولاً** وأخيراً، والطرق الصوفية التى تخالف الشريعة زندقة، ومالم تشرق مناهجها بنور علم النبى وعمله فهى باطلة، **فالطريق الحق هو طريق النبى**، والصوفى المتبع هو الذى يعظم شأن النبى لأنه الداعى إلى الله والمخبر عنه والآخذ منه، وهو باب الحضرة الرحمانية، ومن اتصل به اتصل، ومن انفصل عنه انفصل، والنبوة باقية بعد وفاة النبى كبقائها حال حياته، وجميع الخَلْق مخاطبون بشريعته، ومن رد أخباره الصادقة كمن رد كلام الله تعالى، والتصوف فيه تجديد للمراتب وإنزال الناس منازلهم، وأشرف النوع الإنسانى هم الأنبياء، وأشرف الأنبياء هو محمد ﷺ، وأشراف الخلق بعده آله

وأصحابه ثم التابعون أصحاب خير القرون. **والتصوف الحق** لا يأخذ بالرأى، فما هلك من هلك إلا بالرأى، والتصوف لا يحكم فيه بالرأى أبدا إلا فى المباحات، فإن كان هناك تنازع فى أمر فرده إلى الله. والأولياء ذكرهم بالخير، فقد رفع الله تعالى البعض على البعض درجات، وتأييد الأولياء لا يكون بالدعوى. والأساس فى هذه الطريقة المحمدية إحياء السنة، والصوفى على الريق ما دام على السنة، فمتى حاد عنها زلّ عن الطريق، والصوفية كانوا ربطاء الكعبة فى الجاهلية، وكانوا يجيزون الحُجّاج، فلما أتى الإسلام أسلموا وكانوا عبّادا، ومن صحبهم سُمى بالصوفى، وكذلك من صحب من صحبهم أو تعبّد وَلَبِسَ الصوف مثلهم فينسبونه إليهم. وأهل الخرقة التزموا الصفاء والمصافاة وعملوا بالآداب الظاهرة وقالوا إنها تدل على الآداب الباطنة، وقالوا أحسن أدب الظاهر عنوان أدب الباطن، وقالوا من لم يعرف أدب الظاهر لا يؤتمن على أدب الباطن، وكل الآداب منحصرة فى متابعة النبى ﷺ قولاً وفعلاً، وحالاً وخُلقاً، فالصوفى آدابه تدل على مقامه، وأقواله وأفعاله وأخلاقه ميزانها الشرع، فمن ثقل ميزانه كان له من خلق النبى، ومن لم يلتزم الآداب الظاهرة فهو فيهم ولكن حاله لا يلتبس بحالهم، لأن استعمال الآداب دليل الجنسية، وهى علة الضم، والتصوف كله أدب. والرفاعى من فرط أدبه الصوفى ينفى عن نفسه أنه شيخ أحد، أو أنه بمقدم على أحد، ويقول: لست بشيخ ولست بمقدم عليكم، ولست بواعظ، ولست بمعلم، وحشرت مع فرعون وهامان إن خطر لى أنى شيخ على أحد من خلق الله إلا أن يتغمدنى الله برحمته فأكون كآحاد المسلمين، والإسلام هو حبل الوصلة إلى الله، فاحكموا رابطة الوصلة مع الله بشرائط الإسلام. ويقول: وينقلون عن الحلاّج أنه قال أنا الحق، وقد أخطأ الحلاّج بوهمه، فلو كان على الحق ما قال أنا الحق، ويذكرون له شعراً يوهم الوحدة، وكل ذلك ومثله باطل، وما أراه رجلاً واصلاً أبداً، وما أراه شرب أو حضر، وما أراه سمع إلا رنة أو طنيناً فأخذه الوهم من حال إلى حال، ومن ازداد قرباً ولم يزدد خوفاً فهو ممكور، فإياكم والقول بهذه الأقاويل، إن هى إلا أباطيل، وقد درج السلف على الحدود بلا تجاوز، والمتجاوز هو الجاهل، فلا تخجلونى غدا بين يدى العزيز سبحانه وقد سبقكم أصحاب الأعمال المرضيات، وعليكم بالأدب، فأقرب الناس إلى الزندقة المتصوفة المشغولون عن العبادات بالخوض فى الكلام على الذات والصفات، ومدعى الوحدة المطلقة محوز عن غيره بجهته ومكانه، والله تعالى منزه عن الجهة والمكان، وهو محاط بثوبه، والله تعالى بكل شىء محيط، وهو مستور بالعجز فى كل شىء، والله تعالى على كل شىء قدير، فكذب وهمه كما كذب وجوده ليدخل فى أعداد المؤمنين

الصادقين ، فكل ما يطرأ عليه الحدَث من جانب فهو حادث ، فاتقوا الله ونزهوا ربكم ، فإن التوحيد إفراد القِدَم عن الحادث ، وطريقنا لذلك هو طريق شيخنا **الجنيد أبى محمد** ، والمريد ينظر بزى من تزيا وبخلعة من تلبس ، فإذا لبس لباس الأنبياء والمرسلين وتزين بزى الأولياء الصالحين فليحفظ حق زيهم ، بالتخلق بأخلاقهم والعمل بأعمالهم . والطريق واضح أغلقت مناهجه جماعة اصطلح عليهم الحال وما بلغوا مقام التمكين ، فتجاوزوا بالشطح والدعوى الحدود ، فتبعهم فريقان ، فريق انقاد بحسن الظن ، وفريق قاده الجهل ، وكلاهما على شفا جرف ، إلا أن الطريق محجة بيضاء ، وكل ما فيه من قول وفعل ، بَطُنَ أو ظهر ، لا يتجاوز دائرة الشرع ، **وكل ما خالف الشرع فهو زندقة** . والطريق أن تقول : **آمنت بالله ، ووقفت عند حدود الله ، وعظّمت ما عظّم الله ، وانتهيت عما نهى الله** ، ولا طريق بعد هذا أبداً ، إذ ليس إلا بعد الحق الضلال . ولقد جاء جماعة من أهل هذا الطريق بعادات زائدة ، جعلوها سلما للعبادة ، ونبّهوا على كونها بدعة معتادة تدخل فى البدع الحسان ، إلا **أن أهل النقص عظّموا تلك العادات حتى أدخلوها فى العبادات ، واشتغلوا بها عن العبادات** ، فانقطعوا عن القافلة وبقوا بلا زاد ولا راحلة ، فإياك أيها السالك أن تدخل العادة فى العبادة ، فإن العادات المباحة أو المستحسنة صيغت بعقل مخلوق ، والعبادات قامت بأمر الخالق ، وبين عقل المخلوق وأمر الخالق الفرق بيّن ، تعالى الله علواً كبيراً .

والرفاعية أدخلها إلى مصر **أبو الفتح الواسطى** تلميذ الرفاعى الذى أقام بالإسكندرية وتوفى ودفن بها سنة ٥٨٠ هـ .

■ ■ ■

الرفــاعية

طريقة **أحمد الرفاعى** ، وقواعدها عشرة ، وأولها **البيعة** يؤديها المريد للمرشد على السجادة لاصقاً ركبتيه بركبتيه ويقرأ الفاتحة ، كما يقرأ عليه المرشد البيعة ، ويطلب منه **الاستغفار والتوبة** ويردد خلفه **الرضا** بمشيخته وإرشاده بطريقة أحمد الرفاعى ، ويقيمه المرشد مريدا على هذا **العهد** ، ثم يجلسه ويوصيه بتقوى الله ويلقنه **كلمة التوحيد** ، ويعلمه **الذكر بلا إله إلا الله** ، يقولها مخلصاً متجرداً من الأعماق ، ثم يضع جبهته على جبهته ويده على صدره ويدعو له بالتوفيق والإخلاص والبركة ، ويختم دعاءه بالفاتحة ، ويقوم مع المريد إلى القبلة **ويصليان على النبى** أول الخلق وخاتم الرسل والأنبياء

أجمعين، ثم يثنيان بالفاتحة. والقاعدة فى سلوك الطريقة الرفاعية **الأدب وصحة الصحبة**، وأول ذلك مع **المرشد**، **فيخدمه بطوعه**، وعن رغبته، لينطبع بطباعه بالمعاشرة، **فتحسن أخلاقه**، وينسلخ من الدعاوى والغرور والأقاويل والشطح والكسل، **ويسلك طريق السلف**، ويعمل بمقتضى الكتاب والسنة فيصير قريباً من أهل الحق، **ولا تأخذه فى الحق لومة لائم**، فإذا ظهرت عليه هذه العلامات يعطيه المرشد **أول أوراد الرفاعية**، وهى **الصلاة** على النبى بالعدد الذى يناسب استعداده، ويلحق به **الاستغفار والتوبة** بالعدد الذى يناسب استعداده أيضاً، فإذا طاب له الذكر **يزيد له العدد**، ويساعده على ذلك **بالرياضة** أحياناً، **وبالسياحة** حينا، **وبالتجرد والخلوة والسهر والتهجد والخدمة والصدقات**، ويعرّفه عقبات الطريق، وهى عند الرفاعية حب الشيخ بالانقطاع إليه عن غيره، واستغراق القلب واللسان بمحبة النبى ﷺ، والتمسك بشريعته وأحكام سننه، حتى ليشهده ﷺ معه دائماً فى كل مكان ووقت. ويستحسن أن يقرأ السالك مع رواتبه **حزب التحفة السنية الخاص بالرفاعية**، وهو عبارة عن آيات قرآنية ومجموعة من الأدعيات فى نحو الثلاث صفحات. ومن قواعد الرفاعية **الخلوة**، مرة كل سنة **سبعة** أيام، تبدأ باليوم الثانى من عاشوراء، أى الحادى عشر من محرم الحرام، إلى مساء اليوم السابع عشر، فيكون للمختلى **فراشه** الذى لا تشاركه فيه زوجته ولا غيرها، ويكون على **وضوئه** باستمرار، ويخلو **طعامه** من كل ذى روح، **ويصلى على النبى** الأمى الطاهر الزكى وآله وصحبه مائة مرة، وأن يكون **ذكره** بعد الراتب بالعدد الذى يسمح به استعداده، فى اليوم الأول **لا إله إلا الله**، وفى الثانى **يا الله**، وفى الثالث **يا وهّاب**، وفى الرابع **يا حى**، وفى الخامس **يا مجيد**، وفى السادس **يا معطى**، وفى السابع **يا قدوس**. ويلزم استغراق الوقت فى الذكر. ولا يتقيد الرفاعية **بزى مخصوص** إلا العمامة السوداء عملاً بالسنّة المحمدية، وأما الزى الأسود فذاك تخصيص إطلاق بلا قيد، إشارة إلى دوام السوددة وشرف الطريقة. وغالباً ما ينصب الورد العام **ليلتى الجمعة والاثنين**، والورد الخاص **كل يوم بعد العشاء**، وطريقته التحلق وكل فرد جاث على ركبتيه، ويقرأون الفاتحة، ويستأذنون على الرسول وآل البيت والصحابة والأولياء وسيد الأولياء الرفاعى، بقولهم دستور، ثم يختمون ذلك بطلب المدد، ويباشرون قراءة الورد، ويتضمن سور الأعلى، والقدر، والنصر، والإخلاص، والفلق، والناس، والفاتحة، ثم يقرأون عدداً من الصلوات والأشعار، ثم الفاتحة ويختمون. ومن مراسمهم **عدة النوبة** وهى عبارة عن الدفوف والطبول الأحمدية الكبيرة، يضربونها فى **ليالى الجمع**، ويجتمعون

عليها لتنشيط المريدين والترويح عن القلوب، **ويمدحون** النبى، **ويذكرون** الصالحين. والقاعدة فى **أدب المرشد والمريد** أن يكون المرشد كاملاً، متشرعاً، متديناً، عارفاً بأصول الطريقة وأركانها، وآدابها، وخلواتها، وجلواتها، وأذكارها وأورادها، وسلوكها، وأسرارها، ناصحاً لإخوانه، محباً لهم، لا يلتفت للشطحات. وينبغى أن يكون **المريد** صاحب أدب وخشوع وخضوع، عارفاً بمقدار شيخه، منقاداً له، لا يعترض عليه، حافظاً لحرمته، وحرمة أهله وأقاربه ومحبيه، لا يصاحب له عدواً، ولا يباعد له صديقاً، ولا يزور أحداً من صالحى الوقت بغير أمره وإذنه، ويكون بين يدى شيخه كالميت بين يدى الغاسل. **ومن الأدب مع صاحب الطريقة** معرفة قرابته بالرسول ﷺ، ليعرف له المريد حق المودة فى القربى، وأن محبته من محبة النبى ﷺ. ومن الأدب معه **معرفة سيرته** ليتخلق أتباعه بأخلاقه، ولا يصح لمن انتسب إلى طريقته أن ينتسب إلى طريقة أخرى بعدها. **ولبس الخرقة** من القواعد الرفاعية، وقد لبسها صاحب الطريقة من خاله الشيخ **منصور البطائحى**، الذى لبسها ضمن سلسلة من خمسة عشر إماماً، تنتهى بعلىّ كرّم الله وجهه، التى لبسها من النبى ﷺ.

■ ■ ■

الرَّقِّى (إبراهيم)

برهان الدين إبراهيم بن أحمد بن معالى الرقى (٦٤٧ ـــ٧٠٣هـ) له تصانيف منها «**أحسن المحاسن**» اختصره من صفة الصفوة فى طبقات الصوفية لابن الجوزى.

■ ■ ■

روزبهان

أبو محمد روزبهان بن أبى نصر البَقلى، ويلقب بشطاح فارس وروزبهان البقلى وروزبهان المصرى، ونشأته ووفاته بشيراز سنة ٦٠٦هـ، وله فى التصوف نحو من ثلاثين كتاباً، منها تفسير صوفى للقرآن بعنوان **لطائف البيان**، يذكره معين الدين أبو القاسم جنيد الشيرازى فى كتابه «**شد الإزار فى حط الأوزار عن زوار المزار**» عن أولياء بلده شيراز، وله **مشارب الأرواح**، **ومنطق الأسرار**، **وعبير العاشقين** يتناول فيه العشق الإلهى وأحوال العاشقين، **والشطحات**، وقد اهتم المستشرق كوربان بالكتابين الأخيرين وأصدرهما عن المعهد الإيرانى الفرنسى، وكتب مقدمة شاملة عن الشيخ روزبهان، وبسبب الكتاب الأخير كانت تسميته **بشطاح فارس**. ويبدو أنه

كان كثير الأسفار فى شبابه كعادة الدراويش، فزار العراق وكرمان والحجاز والشام، وقضى بمصر خمس عشرة بسنة، وفيها تلقى الخرقة عن محمود بن محمود الصابونى، ولذلك أطلقوا عليه فى شيراز اسم **روزبهان المصرى.** ولما عاد إلى إيران لزم جامع شيراز **المعروف** بالجامع العتيق، وقيل إنه توفى عن أربع وثمانين سنة، ووصف نفسه فقال: فى هذا الزمان أنا المرشد إلى طريق الله من أقصى الشرق إلى أقصى الغرب، فهل يستطيع العارفون أن يدركونى حقاً، وأنا البعيد النائى عنهم بروحى، حيث مستقر الأرواح؟

■ ■ ■

الرومـــى (جلال الدين)

محمد بن محمد بن الحسين البلخى، الشاعر الكبير صاحب **المثنوى**، المعروف بالرومى حيث كانت ولادته فى بلخ عام ٦٠٤هـ، وإقامته ووفاته **بقونية** تركيا عام ٦٧٢هـ، ومن ثم كانت شهرته باسم **القونوى أو الرومى، ومولاناى روم،** ويقصدون بروم قونية، واختصاصه بلقب **مولانا** جاء بعد وفاته، ويذكرونه بمولوى، وينسبون إليه **طريقة الدراويش المولوية أى الدراويش الراقصين.** وشعره أدب صوفى كامل، له كل المقومات الأدبية وليس عبارة عن فوران عاطفى يعبر عن نفسه فى بضعة أبيات كما عند رابعة العدوية، فقد كتب **المثنوى** فى ستة دفاتر أو مجلدات تضم ما يقرب من خمسة وعشرين ألف بيت، وكتب **ديوان شمس تبريز،** ويشتمل على غزليات صوفية يبلغ عدد أبياتها ثلاثة آلاف وخمسمائة بيت تقريباً، وله غير ذلك **الرباعيات** وتشتمل على ١٦٥٩ رباعية، وعدد أبياتها ٣٣١٨ بيتاً، ومن مصنفاته كتاب «فيه ما فيه» ويشتمل على قصص ومواعظ وأمثال، وكتاب «**المجالس السبعة**» ويشتمل على مواعظ وخطب ألقاها أثناء اشتغاله بالتدريس. وقد كان الرومى يعمل مدرساً للعلوم الدينية إلى أن التقى بالصوفى **شمس الدين التبريزى** فتأثر به وكان علامة تحول كبرى وانقلاباً فى حياته الروحية حيث انقطع إلى الرياضة الصوفية وسماع الموسيقى ونظم الشعر. وكان شمس يلبس ملابس الدراويش، ويقول الرومى عنه إن الشمس هو الذى أرانى طريق الحقيقة، وهو الذى أدين له فى إيمانى ويقينى. **وقد** سأله شمس: ما المقصود من دراسة العلوم، فرد الرومى بأنه الاطلاع على آداب الشرع، فقال شمس: لا، بل الوصول إلى المعلوم، ثم ذكر بيتاً للشاعر الصوفى حكيم اسنائى يقول: إن العلم إذا لم يجردك من نفسك فالجهل خير منه. ويذكر الرومى أنه حبس مع

شمس معلمه أربعين يوماً فى حجرة واحدة لا يدخلها عليهما أحد إلا من يخدمهما، امتلأ فيها الرومى بروح جديدة وانكشف له خلالها عالم جديد من الحقائق والأذواق. ويبدو أن الرومى كان دائماً فى حاجة إلى هذه الصحبة الروحية، فبعد التبريزى كان شديد التعلق بتلميذه **حسام الدين چلبى**، وهذا الأخير هو الذى طلب إليه تأليف هذا الأدب العظيم الذى اختص به الرومى ليكون تراثاً للأجيال من بعده، وزاد فى طلبه بأن يجعله على طريقة **حديقة الحقيقة** للشاعر الصوفى السنائى، أو **منطق الطير** للشاعر الصوفى فريد الدين العطار، وكان الرومى يملى على تلميذه، فجاء المثنوى كما يقول: «أصول أصول أصول الدين» يعنى أنه كتاب فى علم الحقيقة الذى يعد أساساً لمعرفة الكتاب والسنة وهما أصل الدين، ومن أقوال الرومى فى ذلك بأن من يريد الوصول بالظاهر فهو مخطىء إذ الوصول يُبتنى على الحقيقة وليس على الظاهر، ومن لا يعرف الحقيقة فإنه لا يدرى ما الكتاب ولا الإيمان. ويقول الرومى عن المثنوى أيضاً «هو فقه الله الأكبر» لاشتماله على مسائل نعد فقهها أكبر، لانصرافها إلى تصفية القلب وتطهير النفس وتخلية العقل، وهذا هو الفقة الأكبر، لأن تلك مهمة أكبر من الفقة المتعلق بالنكاح والطلاق والبيع والشراء. ويبدو أن كتاب **المثنوى** لذلك لخاصة الناس، وهم الداخلون فى التصوف والغارقون فى بحار معارفه، وأما كتابه **«فيه ما فيه»** فهو على العكس لعامة المثقفين. **وأسلوب الرومى** فى أدبه الصوفى قوى البيان، فياض الخيال، بارع التصوير، يوضح المعنى الواحد فى صور مختلفة، ويسوق المثل إثر المثل، والمعانى تأتيه أرسالاً، والألفاظ تواتيه انثيالاً، وبحور الشعر تطاوعه حتى لينظم حول القصة القصيرة مئات الأبيات، ويصل بها مايشاء من الآراء والنصائح والعظات والعبر، فقصة الأسد والوحوش والأرنب من قصص كليلة ودمنة، نظم فيها زهاء خمسمائة بيت، وقلبه فى شعره مفعم بالعشق الإلهى، ومستغرق فيه، فكل شىء يذكّر بالله تعالى، وكل فكر يؤدى إليه، ويقول عن العشق إنه **أسطرلاب أسرار الله**، ويعجز عن تعريفه فيقول **الشمس دليل الشمس**، يعنى أن العشق يعرّف أو يعبر عن نفسه، ويقول **العقل فى التعبير عن العشق مثل حمار نام فى الوحل**. وفى قصته عن الجارية والملك والدرويش يقول إن العشق الحقيقى هو **عشق الحى** لا عشق الموتى، لأن الحى هو الباقى أى الله تعالى، وينصح المريض فيقول: عليك أن تختار عشق الأنبياء الذين وجدوا بعشقهم الفوة والمجد. وعند الرومى يصح التعبير عن علاقة العبد بربه بالعشق لأنه يعنى المحبة الخالصة والعرفان الكامل والوجد الصوفى واستنارة أنوار الحق. وهو يقول **العشق** جعل جسم الأرض يعلو على الأفلاك فرقص الجبل وأضحى

خفيف الحركة ، والعشق حل فى روح الطور فسكر الطور وخر موسى صعقاً . ويقول يا من عشقه الجميل سر هيامنا ، ويا من هو الطبيب لكل ما نشكو من العلل . وللناى عنده مكانة خاصة لا تصاله بالعشق ، وقصة الناى يبدأ بها المثنوى فيقول : استمع للناى كيف يقصّ حكايته ، فهو يشكو آلام الفراق فى صوت هو شكاية ، ويقول به إنه منذ قطعوه من الغابة والناس يبكون ببكائه ، وصدره يمزقه الفراق ، يريد أن يشرحه ، لأن كل ما بَعُد عن أصله يطلب الوصال ويذكر حلاوة الأيام التى كانت تجمعه بمحبوبه . ويقول الناى : أصبح أنينى يتردد فى كل جماعة ، وصرت صاحب البائسين والسعداء ، ولا أحد يعلم الأسرار داخلى ، فلا توجد للعيون الأنوار التى تدرك بها مأساتى ، ولا توجد للآذان الأنوار التى تسمع بها أسرارى . ويفول الرومى : كل من تغيرت هيئته بسبب العشق فإن العشق يطهره من العيوب ، فيا مَنْ عشقه الجميل هو سر هيامنا ، ويا مَنْ هو الطبيب لكل ما نشكو من علل ، ويا من هو الدواء لغرورنا وكبريائنا ، إن المعشوق هو الكل ، والعاشق ليس سوى حجاب ، والمعشوق هو الحى ، والعاشق هو الميت .

ومنهج جلال الدين الرومى فى التصوف أساسه هذا **العشق الإلهى** الذى يبلغ حد **الجذب** فيكون الترقى فى مدارج الكمال . **وفلسفته** فى التصوف أساسها **وحدة الوجود** التى تلخصها قصته عن الاستاذ والتلميذ الذى كان به حَوَل فى عينيه ، فقد أمره الاستاذ أن يستحضر زجاجة من إحدى الحجرات ، فعاد إليه وسأله أى الزجاجتين ، لأنه وجد هناك زجاجتين وليس زجاجة واحدة ، لكن الأستاذ أكد له أنه لا توجد غير زجاجة واحدة ، والتلميذ أكد له أنه توجد زجاجتان ، ولم يجد الاستاذ بدأ من أن يطلب إليه أن بكسر إحدى الزجاجتين ويستحضر الأخرى ، فلما كسر التلميذ الزجاجة لم يجد أن هناك زجاجة أخرى كما كان يتوهم له ببصره الذى يعانى الحول ، وعلم أن استاذه كان على حق . ويقول الرومى إن مضمون قصته هو نفسه مضمون الآية الكريمة التى تقول **لا نفرق بين أحد من رسله** . ويذكرنا الرومى بعداوة اليهود للمسيحيين وعداوة المسيحيين لليهود ، ويقول كلاهما **مظهر لأنوار الله** ، فالناظر لأحدهما بالعداوة وللآخر بالحب يشبه الأحْوَل الذى يرى الشىء شيئين ، والحقيقة حقيقتين ، وفى الحقيقة ليس عيسى إلا روح موسى ، وليس موسى إلا روح عيسى . وللرومى فلسفة فى الصلة بين الروح أو القلب والعقل ، والوصول إلى الحق له طريقان ، **طريق الروح أو القلب وطريق العقل** ، ويقول عليك أن تقبل أوامر الروح ؛ ويقول لا تحسب كل وسوسة بحثاً وفكراً ، ولا تعتقد كل شىء صحيحاً ، ولا تجعل لروحك سجناً وعذاباً ،

ولا تجعلها رهينة للنفس التى تأكل وتشرب فقط ؛ ويقول اجلسوا فى المشهد المقدس بالحضور القلبى ، وإذا رأيت الروح واعظاً ومذكراً فلا تكن وراء الستار، بل اسمع من الروح ؛ ويقول افتح عينيك لترى بنور العقل أن فى كل ورقة شجر وكل حبة آثار تدل على أنه واحد لا شريك له . **العقل** أعز من كل شيء وهو مفتاح حريم الدولة ومصباح سرير الحشمة ، والعقل يهدى إلى الرشد ويأتى بالنصر فى المعارك ويستدل به على وجود الله تعالى ، ولكن العقل منه واصل ومنه ضال ، وكلاهما يطلق عليه العقل ، وعليك أن تعرف تفاوت العقول . ولو كان هذا العقل كافياً لمعرفة الحقائق الدينية لكان **فخر الدين الرازى** أكبر العارفين . وأولئك **أصحاب محمد** صلى الله عليه وعلى آله وصحبه وسلم ، أعمق الناس علماً وأقلهم تكلفاً ، ولم يقرأوا كتاب حكمة ، ولم يتلقوا درس فلسفة . ويقول : إلى متى العكوف على **الفلسفة اليونانية والحكمة المادية ،** وهى تباعد بين الإنسان والحقيقة وقتاً ، وتورث الأخذ بالألفاظ والقشور، وساق أصحاب **الاستدلال المنطقى** ساق خشبية لا مرونة فيها ولا تمكين . ويقول فى أولياء الله إنهم وصلوا إلى ما وصلوا ونالوا الكرامات لأنهم سيطروا على نفوسهم بعقولهم ، ووجهوا عقولهم إلى الأنوار فأخذوا منها ؛ ويقول نحن أطباء الروح تلاميذ الرحمن ، انفلقت لنا البحار وتفجرت العيون من الأحجار . وأطباء الجسم يعرفون مرضى المرض بالنبض ، ولكننا ننظر بنور الله ونتكلم بوحى الله . ويقول : ما دمت منهمكاً فى الشهوات فإبصارك مظلم ، ولا أمل لهدايتك . ومن قُتلت فيه شهوات الحس يكون له ذوق روحى يدرك به النور والحق . والحياة الروحية تحتاج للحرارة والماء ، وحرارتها الدمع ، وماؤها لهيب القلب ولوعة الشوق إلى المبادىء العالية . **(أنظر المولوية ، وشمس الدين التبريزى)**

والرومى أبوه بهاء الدين محمد بن حسين الخطيبى البلخى ، ويعرف باسم **بهاء ولد** ولقبه سلطان العلماء ، وله كتاب **المعارف** وهو عبارة عن مواعظ ومجالس ألقاها ونظمها بنفسه ورتبها وشرح فيها حقائق العرفان والدين وتأويلات الآيات ، ويبدأ أغلب أبواب الكتاب بعبارة قلت فى نفسى أو فكرت مع نفسى ، وكان له تأثير كبير فى توجهات الرومى من صباه .

■ ■ ■

رويم

أبو محمد رويم بن أحمد بن يزيد ، من أهل بغداد وتوفى سنة ٣٠٣هـ وله بحوث فى

التصوف لعلها أهم ما يسترعى القارىء من كلامه وأقواله ومن ذلك قوله أن طالبى التصوف فى وقته تحيروا والمريدين فتروا لما رأوا المنتسبين إلى التصوف على طبقات مختلفة ومقامات متفاوتة، فاستصغروا أهله وتراخوا عن الأعمال وتطاولوا إلى أحوال يعجزون عن بلوغها. وشخّص رويم الداء فى سببين، وكل سبب منهما على أصلين، أحدهما استعجال المنزلة قبل وقتها عجزاً عما عمل فيه الصادقون وبذله المحققون، والآخر الجهل بطريق السالكين إليها وإغفال التقوى عما لها وعليها. ويقول إن ذلك دعاه إلى التبين لأمورهم والتحذير من غرتهم، واستدعى ذلك منه أن يسأل كبراءهم ويناقش أئمتهم، فوجد أن فرقة منهم قالت إن حوادث الكون من الأفعال وغيرها من الأجسام والأعراض لا تخلو من أحد أمرين، إما محدث ظهر إلى الكون بغير علة ولا سبب، أو يكون حدثها ظهر عن علة وسبب، ومدار قول هذه الفرقة أن المخترعات أقوالها وأفعالها لله الواحد القهار، ولكنهم لم يفرقوا بين ما أحدثه المحدث من الخير والشر والهدى والغى، فذهب على هذه الفرقة ما فضل الله به بعض الأشياء على بعض، وغاب عنها إحداث الله للخلق على طبائع مختلفة ودواع متباينة ومن ثم تفاوتوا فى العبادة لله والأخذ عنه وإن بدا أن كل شيء فى قبضة التدبير وسلطان القهر وكأنه من الجبر. وفرقة أخرى من الصوفية لهم عجائب فى المقامات والطرق والسير إلا أنهم اغتروا فكانوا صرعى تحت الإشارات فى بحور عميقة بين عالم الجمع والتفريق. وفرقة أخرى قد أنِسوا بالفناء واستبطنوا البقاء فلاهم يقومون بعلم الفناء ولا هم دائمون على روح البقاء، فلم يعرفوا الحق من الباطل، ولم يفرقوا بين المخلوق والخالق، ولا الفاعل والمفعول، ولا الفعل من الانفعال، ولم يميزوا بين الظاهر والباطن. وفرقة منهم رأوا أنهم مُكِّنوا فى المقامات ولاحت لهم الأحكام، إلا أنهم علّقوها على الخلق لما رأوا آثارهم وحضور إرادتهم فاستوثق منهم العجب وتمكن الجهل لتعلقهم بفقد من الوجد. وأما الفرقة التى علت بها الإشارة إلى علم التوحيد فهم الذين صحبوا الأحوال فى أوقاتها بالوفاء، والأعمال بالإخلاص، فلم يرتقوا إلى مقام قبل إحكام المقام قبله، وتفقهوا بعلومها إلى أن أداهم ذلك إلى علم المعرفة فأذعنوا لله إذعان المحقين. وهذه الفرقة هى التى يصفهم رويم بأنهم قعدوا على الحقائق بينما غيرهم قعدوا على الرسوم، وطالبوا أنفسهم بحقيقة الورع ومداومة الصدق بينما طالب غيرهم أنفسهم بظواهر الشرع. والتصوف بهذا المعنى الحقيقى أقل ما فيه بذل الروح «**فإن أمكنك الدخول مع هذا فيه وإلا فلا تشتغل بترّهات الصوفية**».

■ ■ ■

ز

زاده (خواجه)

خواجه زاده أحمد حلمى ، تركى مؤلف موسوعة الطرق الصوفية « **حديقة الأولياء** » (١٣١٨هـ)، يؤرخ بها لأصول الطرق الكبرى ومؤسسيها ومشايخها والتابعين لهم فى تركيا ، ويشرح أركانها شرحاً موجزاً مستشهداً بأقوال الأقطاب ، وهذه الطرق هى **النقشبندية** ومؤسسها محمد بن محمد البخارى الأويسى الشهير بالنقشبند ، ومن أعلامها مولانا محمد باقى بالله كابلى ، وأحمد فاروق سرهندى مجدد الألف الثانى وغلام على دهلوى مجدد المائة الثالثة عشر؛ **والجيلانية** ومؤسسها عبدالقادر الجيلانى ، **والجشتية** ومؤسسها خواجه أبو أحمد أبدال جشتى ؛ **والسهروردية** ومؤسسها شهاب الدين أبو حفص عمر السهروردى ؛ **والكبروية** ومؤسسها نجم الدين كبرى ، ومن أعلامها بهاء الدين أبو جلال الدين الرومى ؛ **والمولوية** ومن أعلامها محمد بهاء ولد وشمس الدين تبريزى وجلال الدين الرومى وچلبى حسام الدين ؛ **والرفاعية** ومؤسسها أبو العلمين أحمد الرفاعى ، وشعبات الرفاعية هى : **الحريرية** لأبى الحسن على الحريرى ، **والكيالية** لإسماعيل مجذوب الكيالى ، **والنورية** لنور الدين حبيب الله الحديثى ، **والعزية** لحسين أبى الفيض عزى المصرى ، **والفنارية** لشمس الدين محمد بن حمزه الفنارى ، **والبرهانية** لبرهان الدين إبراهيم عمر بن على العلوى ، **والفضلية** لجمال الدين محمد بن فضل ، **والجندلية** لجندل بن محمد الرفاعى ، **والديرينية** لعز الدين بن أحمد الديرينى الشافعى الرفاعى ، **والجميلية** لجمال الدين العراقى ، **والعطائية** لمحمد عطية الرفاعى ، **والسبسبية**

لسليمان سبسبى، **والعمادية** لسيد عماد الدين الأكبر، **والصيادية** للشيخ سعيد عز الدين أحمد الصيادى؛ ومن الطرق الصوفية الكبرى بخلاف ما سبق **الأحمدية** للقطب الربانى سيدى أحمد البدوى السطوحى الملثم، وشعباتها هى: **الشناوية** لعمر الشناوى الأشعث، **والحلبية** لشيخ أحمد الأحمدى الحلبى، **والعلوانية** لأحمد بن علوان، **والعبد العالية** لعبد العال الأنصارى، **والبرنسية** لشيخ يوسف برنس، **والجوهرية** للشيخ عبد الوهاب جوهرى؛ **والبرهانية** لقطب الأقطاب أبى العينين سيد إبراهيم برهان الدين الدسوقى، وشعباتها **الشرنوبية** لشهاب الدين أبى العباس أحمد بن عثمان الشرنوبى المالكى البرهانى، **والتازية** للشيخ إبراهيم التازى، **والسيوطية** لجلال الدين عبد الرحمن السيوطى، **والعاشورية** لسيد صالح عاشور المغربى؛ **والشاذلية** لأبى الحسن الشاذلى، وشعباتها **الحنفية** لشمس الدين محمد بن حسين الحنفى، **والوفائية** لمحمد وفا بن محمد بن نجم الدين المغربى السكندرى المالكى الشاذلى، **والبكرى** لأبى المكارم محمد بكرى، **والزروقية** لأبى العباس شهاب الدين أحمد بن محمد بن عيسى البرنسى الفاسى المعروف بشيخ زروق، **والراشدية** لأبى العباس أحمد بن يوسف الراشدى الملياني، **والغازية** لأبى القاسم الغازى السلجماسى، **والناصرية** لأبى عبد الله محمد بن محمد بن أحمد بن ناصر بن عمرو الدرعى، **والعفيفية** للشيخ عبد الوهاب بن عبد السلام عفيفى، **والجزولية** لأبى عبد الله محمد بن سليمان الجزولى، **والعيسوية** لمحمد بن عيسى المكتاس السباعى المغربى، **والمصطارية أو المزطارية** للشيخ محمد بن المكتاس المغربى، **والعلمية** لأبى عبد الله الشريف بن إبراهيم علمى، **والمدنية** لمحمد حسن بن حمزة ظافر المدنى، **والوفائية** لإبراهيم بن يوسف بن عبد الباقى السعدى الدمشقى.

وتلك كانت كل الطرق التى يرصدها، وقد ذيّل الموسوعة من مشايخ المولوية بالموصل الحافظ عثمان النورى بخاتمة يمتدحها ويقول: فقد أطلعنى الشاب السالك نهج هداه والناشىء فى طاعة ربه والغالب وجده على قلبه **أحمد أفندى** نجل العلم الفرد الجامع لكل إخلاص حضرة **خلوصى أفندى** على نسخة ألّفها خدمة للأصفياء، سمّاها **حديقة الأولياء**، ترجم فيها أحوالهم العليّة، ونقل بعض أقوالهم الشهيّة، بأسلوب حسن عجيب، وسبك بديع غريب، وذلك خدمة لأبناء جلدته، خصوصاً أهل طريقته، مستجلياً من الكل الدعاء الألزم، لحضرة سلطان الأعظم، عبد الحميد خان الثانى، دامت تُنشر بعصره ألوية المعارف:

حـــديـــقـــة ســـارت بـــطـــبـــع أحـــمـــد

بـــكـــل ســـالـــك وكـــل مـــرشـــد
تـــرجـــم فيهـــا حـــال أربـــاب الـــصـــفـــا
أوضـــح نـــهـــجـــهـــم إلـــى المـــســـتـــرشـــد
قـــد جـــمـــعـــت مـــن طـــبـــقـــاء الأولـــيـــا
أنـــفـــس در صـــاغـــه فـــى مـــســـجـــد
سَـــلْـــسَـــلَ عنهـــم طـــرقـــاً دائـــرة
عـــلـــى الـــوصـــول لـــلـــمـــقـــام الـــســـرمـــد
نجـــل خـــلـــوصـــى الحبر مـــن إخـــلاصـــه
ســـــرى بـــنـــجـــلـــه الـــنـــجـــيـــب الأمجـــد

■ ■ ■

الزاهـــد

أبو العباس شهاب الدين أحمد بن محمد بن سليمان المعروف بالزاهد، صنّف كثيراً للمريدين، ومن كتبه « **رسالة النور** » أربعة أجزاء، و« **هدية المتعلم وعمدة المعلم** » و« **تحفة المبتدى ولمعة المنتهى** ». وكان مولعاً برميم المساجد القديمة، وبنى جامعاً بالمقس يعظ فيه الناس ولا سيا النساء، ونقموا عليه فتواه برأيه من غير نظر فى العلم.

■ ■ ■

الزبيدى

أبو العباس أحمد بن عبداللطيف الشرجى الزبيدى الحنفى (٨١٢ — ٨٩٣هـ) نسبته إلى شرجة جنوبى زبيد، واشتهر وتوفى فى زبيد، وله « **طبقات الخواص أهل الصدق والإخلاص** » يقول فيه إن كتب طبقات الصوفية من أمثال رسالة القشيرى، والعوارف للسهروردى، والطبقات للسلمى، ومناقب الأبرار لابن خميس وغيرهم لم يتعرض مؤلفوها لذكر صوفية اليمن واقتصروا فيها على أهل الشام والعراق والمغرب ونحو ذلك، ومن شأن ذلك أن يوهم أنه ليس فى اليمن من هو مستحق للذكر ممن يتصفون بصفات الأولياء، فى حين أن أهل اليمن أهل إيمان صادق، وقلوب واعية رقيقة، وصلاح ظاهر، وصفاء بواطن، بشاهد قول رسول ﷺ أهل اليمن أرق قلوباً وألين

أفئدة ، والإيمان يمانى ، والحكمة يمانية ، إلى غير ذلك مما روى عنه فى فضائلهم . ويقول إن الإمام أحمد بن موسى بن عجيل سئل عن الأولياء الذين يذكرون فى الكتب ، فيقال فلان المصرى وفلان البلخى وغير ذلك ولا يقال فلان اليمنى ، فقال إنما ذلك لكثرتهم فإنهم عصائب عصائب . ويقول الشرجى إنه من أجل ذلك فقد جمع كتابه هذا يخص به أولياء اليمن دون غيرهم ويبين فيه أحوالهم وأقوالهم ومناقبهم وكراماتهم ، وقد جعل مراجعة كتب اليافعى والجندى والخزرجى والأهدل والمرزوقى وإسماعيل الجبرتى وطلحة الهتار وأبى بكر بن حسان . ويثبت الشرجى إن الصحابة لم يرو عنهم من الكرامات الكثيرة مثل ما اشتهر عن الأولياء بحجة ابن حنبل أن أولئك كان إيمانهم قوياً لم يحتاجوا إلى زيادة ، وغيرهم لم يبلغ إيمانهم إيمان أولئك فقووا بإظهار الكرامات . ويتناول الكتاب ١٩٢ ترجمة ، تلحق بها خاتمة على سبيل الإجمال من ٢٣ أخرى .

■ ■ ■

زرّوق

أبو العباس أحمد بن أحمد بن محمد بن عيسى البرنسى الفاسى (٨٤٦ ــ ٨٩٩هـ) من أهل المغرب ، قرأ بمصر ، وتوفى فى تكرين من طرابلس الغرب ، وله التصانيف فى التصوف والفقه والشروح الكثيرة على الحكم العطائية حتى قيل إن عددها تجاوز الثلاثين فكان يستطيع أن يمليها عن ظهر قلب وفى كل مرة بعبارة جديدة ، ولعل أهم كتبه فى التصوف **إعانة المتوجه المسكين على طريق الفتح والتمكين ، وقواعد التصوف على وجه يجمع بين الشريعة والحقيقة ويصل الأصول والفقه بالطريقة .** وكان شديد النقد لبدع الصوفية وله « **البدع التى يفعلها فقراء الصوفية** » . ويميل زورق إلى الاختصار فى كتاباته . وأصل تسميته بزورق كما قال عن نفسه أن جده كان أزرق العينين فقالوا له زورق فسَرت فى عقبه . **ومذهبه** أن التصوف لا يعرف إلا مع العمل به ، فالاستظهار به دون عمل تدليس وإن كان العمل شرط كماله ، وأنه لم تظهر حقيقة قط فى الوجود إلا قوبلت بدعوى مثلها وإدخال ماليس منها عليها ووجود تكذيبها ، وكل ذلك ليظهر فضل الاستئثار بها وتتبين حقيقتها بانتفاء معارضها ، وأن أصل التصوف مقام الإحسان وهو نوعان أحدهما بدل من الآخر وهما أن تعبد الله كأنك تراه وإلا فإنه يراك ، فالأول رتبة العارف ، والثانى رتبة من دونه ، وعلى الأول يحوم الشاذلية ومن نحا نحوهم ، وعلى الثانى يحوم الغزالى ومن نحا نحوه ، واتّباع الأحسن محبوب طبعاً ومطلوب شرعاً ، وتعدد وجوه الحُسن يقضى بتعدد الاستحسان وحصول

الحسن لكل مستحسن، فمن ثم كان لكل فريق طريق، فللعامى تصوف حوته كتب المحاسبى ومن نحا نحوه، وللفقيه تصوف رامه ابن الحاج فى مدخله، وللمحدث تصوف حام حوله ابن العربى فى سراجه، وللعابد تصوف دار عليه الغزالى فى منهاجه، وللمتريض تصوف نبّه عليه القشيرى فى رسالته، وللناسك تصوف حواه القُوت والإحياء، وللحكيم تصوف أدخله الحاتمى (يقصد ابن عربى) فى كتبه، وللمنطقى تصوف نحا إليه ابن سبعين فى تآليفه، وللطبائعى تصوف جاء به البوْنى فى أسراره، وللأصولى تصوف قام الشاذلى بتحقيقه —ويعنى زروق بذلك أنه لا ينبغى الحكم على أحد من هؤلاء ومن نحا نحوهم لأن كلامهم له مريدوه وطلاّبه، وله تخصصه أو زاوية رؤياه، وكل علم يؤخذ من أربابه، وأخذ العلم والعمل يكون عن المشايخ أتم من أخذه دونهم، وأصل كل أصل من علوم الدنيا والآخرة مأخوذ من الكتاب والسنّة، إلا أن الناس فى أخذها ثلاث مسالك، أولها قوم تعلقوا بالظاهر مع قطع النظر عن المعنى جملة وهؤلاء أهل الجحود من الظاهرية ولا عبرة بهم، والثانى قوم نظروا لنفس المعنى جمعاً بين الحقائق فتأولوا ما يؤوّل وعدلوا ما يعدل وهؤلاء أهل التحقيق من أصحاب المعانى والفقهاء، والثالث قوم أثبتوا المعنى وحققوا المبانى وأخذوا الإشارة من ظاهر اللفظ وباطن المعنى وهم الصوفية المحققون والأئمة المدققون وليس الباطنية الذين حملوا الكل على الإشارة فلم يثبتوا لمعنى ولا عبارة فخرجوا عن الملة ورفضوا الدين كله. والقاعدة أنه لا يجوز أن يقدم أحد على أمر حتى يعلم حكم الله فيه، وإتيان الشىء من بابه أمكن لتحصيله، ولا قول فى باب الاعتقاد لموهم ولا مبهم، ولا يجوز لأحد أن يتعدى ما انتهى إليه من العلم بالوجه الواضح، والنظر للأزمنة والأشخاص لا من حيث أصل شرعى أمر جاهلى، وينبغى دائماً النظر لعموم فضل الله تعالى من غير مبالاة بوقت ولا شخص إلا من حيث ما خصّه الله به، وكل صوفى أهمل أحواله من النظر لمعاملة الحق كما أمر فيها وصرف وجهه لنحو الحق دون نظر لسننه فى عبادة فلابد له من غلط فى أعماله أو شطح فى أحواله أو وقوع طامة فى أقواله. ويتناول زروق دواعى الإنكار على الصوفية ولا يجد غضاضة فى ذكرها ليحذروا الغلط فيها، وهى خمسة أولها النظر لكمال طريق الصوفية فإذا أتت منهم إساءة أسرع الناس فى الإنكار عليهم لأن النظيف يظهر فيه أقل عيب، والثانى رقة علومهم ووقع الطعن عليها لأن النفس تسرع إلى إنكار ما لم يتقدم لها علمه، والثالث كثرة المبطلين فى الدعاوى والطالبين للأغراض وذلك بسبب إنكار حال من ظهر منهم بدعوى، والرابع خوف الضلال على العامة باتباع الباطن دون الاعتناء بظاهر الشريعة، والخامس شحة

النفوس بمراتبها إذ ظهور حقيقة يبطل أخرى ومن ثم أولع الناس بالصوفية أكثر من غيرهم وتسلط عليهم أصحاب المراتب أكثر من سواهم.

■ ■ ■

الزهـــراوى

عبدالحميد بن محمد شاكر بن إبراهيم الزهراوى، من العلماء الذين اشتغلوا بالإسلام السياسى، وله كتاب «**الفقه والتصوف**» برد به على أسئلة قرائه، فقد كان يكتب فى الصحف على طريقة الأفغانى ومحمد عبده ومحمد رشيد رضا، وذمُّه للتصوف من **منطلق سياسى** باعتباره حركة دينية انسحابية، ونشاطاً إسلامياً سلبياً، وهو يقول إن إدعاء الصوفية أنهم يتشبهون **أهل الصفّة** ادعاء باطل، فأهل الصفة لم يكونوا من **المتعطلين** لأنهم أرادوا ذلك وإنما لقلة أسباب العيش فى زمانهم، فى حين أن الطريقة الصوفية تقوم على **التجرد من الأسباب وترك الاكتساب**، ويتعمد أصحابها أن يكونوا من **الفقراء** ويسمون أنفسهم كذلك، وفى أيام الزهراوى كان الاسم الشائع لهم هو **الدراويش**، وذلك لأنهم من **الأعاجم** فى رأى الزهراوى، واسم الصوفية نفسه يدل على **عُجمة** أصحاب هذا المذهب، فهو اسم لا أصل له فى العربية، ولم يعرف أن أحداً من أصحاب الرسول ولا التابعين نعتوه بأنه صوفى، والاسم من تحريفات اللسان الأعجمى، والمذهب كله **خلط**، حيث يورد أصحابه كلام الفلاسفة الإلهيين القدماء ويخلطونه بالآيات القرآنية وأحاديث الرسول، ويحاولون أن ينتحلوا ألفاظ القرآن لما يدعونه من مقامات وأحوال، فصرفوا بذلك الألفاظ اللغوية عما وضعت له، صرفاً لهم يراعوا فيه العلاقة القريبة والقرائن الدالة، وغلوا فى تأويلاتهم، وأغرقوا فى صرف الألفاظ، فعبثوا بالفلسفة والدين معاً. والزاهراوى من زعماء النهضة الإسلامية، ومن المجاهدين بالقلم، وأصدر صحف **المنير** فى سوريا، **والحضارة** فى الآستانة، وكتب بجريدة المقطم، ونفى لفترة فى مصر، وأسهم فى تركيا فى تأسيس حزبى الحرية والاعتدال، والائتلاف، المناوئين لحزب الاتحاديين. وعندما عقد المؤتمر العربى الأول فى باريس انتخب الزهراوى أول رئيس له، وحوكم بسبب مجاهداته الإسلامية وقضى عليه بالإعدام شنقاً فى دمشق سنة ١٣٣٤هـ (١٩١٦م)، وكان صدور كتابه **الفقه والتصوف** سنة ١٣١٩هـ، ومنه نسخة بمكتبة جامعة القاهرة.

■ ■ ■

إبن زيد (عبد الواحد)

وقيل إبن زياد، توفى سنة ١٧٧ هـ، وهو **شيخ الصوفية واعتبره ابن تيمية الصوفى الأول وأعظم من لحق الحسن البصرى**، قيل صلى الصبح بوضوء العتمة أربعين سنة، وكان مولى أبى بشر البصرى، ويتخذونه دليلاً على أن التصوف اختص به الموالى غالباً، ويذكره ابن الملقن ضمن سلاسل خرقته، ومن أصحابه بخلاف الحسن عتبة الغلام وفرقد السبخى ومحمد بن واسع ومالك بن دينار، واشتهر بكثرة مواجيده وبكائه حتى قالوا فيه إن بثه لو قسّموه على أهل البصرة لوسعهم جميعاً، وكانت له طريقة فى الإلقاء والبكاء والتحنن بحيث يؤثر فى سامعيه فيشهقون ويدمعون ويبكون بالصوت المسموع، وكثيراً ما كان يغشى على بعضهم، وقد يموت البعض من رهاف القلوب من شدة الانفعال، وهو إذن من طبقة **البكائين** ونموذج لهم، وزهده مضرب الأمثال فينصح مريديه: عليكم بالخبز والملح فإنه يذهب شحم الكلى ويزيد فى اليقين. ويقول لهم ما يسرنى لو أن جميع ما حوت البصرة من الأموال والثمار كانت لى بفلسين. من قوى على بطنه قوى على دينه، ومن قوى على بطنه قوى على الأخلاق الصالحة، ومن لم يعرف مضرته فى دينه من قبل بطنه فذاك رجل فى العابدين أعمى. وكان يكثر فى مواعظه من قول يا إخوتاه. يقول: يا إخواتاه ألا تبكون خوفاً من النيران، ألا وإنه من بكى خوفاً من النار أعاذه الله تعالى منها. يا إخوتاه ألا تبكون خوفاً من شدة العطش يوم القيامة. يا إخوتاه ألا تبكون؟ **وفلسفته** فى التصوف تقوم أولاً على الخوف من الله تعالى، وإجلاله ثانياً، والصبر على ما حكم، والرضا بما قسم. يقول: ما أحسب شيئاً من الأعمال يتقدم الصبر إلا الرضا، ولا أعلم درجة أرفع ولا أشرف من **الرضا**، وهو رأس المحبة. **ومحبة الله** رأس كل حكمة وكل عبادة. يقول: منتهى الخوف إجلال الله. ومنتهى الرجاء أن تأمل فى الله على كل الحالات، ومنتهى محبة الله الفرح بلقائه. وينفرد ابن زيد برواية هذا الحديث القدسى عن الحسن البصرى عن رسول الله ﷺ: إذا كان الغالب على عبدى الاشتغال بى جعلت نعيمه ولذته فى ذكرى، فإذا جعلت نعيمه ولذته فى ذكرى عشقنى وعشقته، فإذا عشقنى وعشقته رفعت الحجاب فيما بينى وبينه وصرت معالم بين عينيه، لا يسهو إذا سها الناس. أولئك الأبطال حقاً. أولئك الذين إذا أردت بأهل الأرض عقوبة وعذاباً ذكرتُهم فصرفت ذلك عنهم. وفى هذا الحديث يأتى ذكر العشق لأول مرة، وقيل وذلك الحديث هو سبب ما ذهب إليه الصوفية فى مصطلحهم **العشق الإلهى** حيث

يعاب ذلك عليهم بدعوى أنه فى مقام الله تعالى نقول المحبة ولا نقول العشق ، فالمحبة تكون بين العبد والله ، وبين الله والعبد ، وأما العشق فينصرف إلى الأشباه فيكون بين العبد والعبد . وابن زيد هو فيما يبدو أول من يذكر الصوفية باسم **أهل محبة الله** . يقول مناجياً ربه : بأبى أنت يا مسبغ نعمه غادية رائحة على أهل معصيته ، فكيف ييأس من رحمته أهل محبته ؟ ومن رأى ابن زيد أن المؤمن إذا أخطأ فخطؤه عن سهو ، ويتبقى دائماً الرجاء والأمل فى الله . يقول : السهو والأمل نعمتان عظيمتان على بنى آدم . وحياة ابن زيد لذلك هى حياة **الصوفى المتكمل** ، وفلسفته نظرية ولكن أساسها **العمل** . وقمة العمل هى **الجهاد** ، فليس التصوف مجرد عبادات ورياضيات ، وهو يحكى عن نفسه : كنا فى غزاة لنا ونحن فى العسكر الأعظم فنزلنا منزلاً فنام أصحابى وقمت أقرأ جزئى ، إلى أن يقول فغلبنى النوم فرأيت فى منامى كأنى أرى شاباً جميلاً بيده ورقة مكتوب فيها :

ينام من شاء على غفلة والنوم كالموت فلا تتكل
تنقطع الأعمال فيه كما تنقطع الدنيا عن المنتقل

والجهاد ركن الدنيا ، ولا ينسى ابن زيد الله فينساه تعالى ، فحتى فى الحرب والنوم يذكر ربه ، وكان يردد على نفسه البيتين باستمرار ويقول : فرق النوم بين المصلين وبين لذتهم فى الصلاة ، وبين الصائمين وبين لذتهم فى الصيام . ويقولون عنه أنه إذا أقبل سواد الليل قام لمحرابه كأنه فرس رهان مضمر ، فإذا أقبل على صلاته فكأنه رجل مخاطب . ويروى عنه أنه كان كثير السياحات والتردد على أماكن العبادة والإخوان ، وكان يحرص على لقاء الرهبان والتحدث إليهم ، ولعله لهذا الميل عند بعض الصوفية قال من قال من المستشرقين بأثر المسيحية على التصوف . وكان حديث ابن زيد معهم فى الرياضات ، ومن ذلك تأثره بأحدهم وقوله من بعد ذلك إن شهادة لا إله إلا الله وحدها لا تكفى . ويروى عن ذلك قول الراهب له : كما لا يجوز الزيف من الدراهم ، كذلك لا تجوز لا إله إلا الله إلا بنور الإخلاص . ويروى أيضاً عن أحد الرهبان قوله : يا عبد الواحد بن زيد إن أحببت أن تعلم علم اليقين فاجعل بينك وبين الشهوات حائطاً من حديد !

■ ■ ■

س

إبن سبعين

قطب الدين أبو محمد عبد الحق بن محمد بن عبدالحق بن سبعين كما أطلق على نفسه، أى الفتى الشجاع صاحب المروءة والنخوة والكرم، وله العبارات والإشارات، والمريدون والأتباع، وطريقته تسمى **السبعينية**. قال عنه **ابن دقيق العيد**: جلست مع ابن سبعين من ضحوه إلى قرب الظهر، وهو يسرد كلاماً، تعقل مفرداته ولا تعقل مركباته، واشتهر عنه أنه قال: **لقد تحجّر ابن آمنة (يقصد النبى ﷺ) واسعاً بقوله لا نبى بعدى**، فيقال أنه نفى من المغرب بسبب هذه الكلمة، أو أن كتاباته ومواعظه لمريديه كثر بها القول **بوحدة الوجود**، وهو أبرز ممثل لهذا المذهب، ومن أجله كفرّه فقهاء المغرب فلجأ إلى المشرق وجاور بمكة حتى وفاته سنة ٦٦٩هـ. واختلفوا فى وفاته، وقيل إنه فصد يديه وترك الدم يخرج حتى تصفّى. وابن سبعين وإن كان يعتبر مغربياً إلا أنه من مواليد مرسية الأندلس سنة ٦١٣ هـ، وظل بها حتى نحو العشرين من عمره، وفى المغرب كان له الأصحاب وألّف كتبه أو رسائله كلها تقريباً إلا كتاب **بد العارف**، واشتهر بأنه من **فلاسفة الصوفية**، حتى أن ملك صقلية قصده للإجابة على أسئلته فى الفلسفة فيما سمى **بالمسائل الصقلية**، ولم يكن يفلت فرصة تسنح له إلا وينقد الفلاسفة والصوفية، ويخص منهم المشائين ورئيسهم أرسطو، وأتباعه من غير ملة الإسلام ثامسطيوس والإسكندر الأفروديسى وفرفوريوس، وأتباعه من ملة الإسلام مثل الفارابى وابن سينا وابن ماجه وابن رشد والسهروردى والغزالى والرازى، وعنده أن **التصوف** لم يصل له هؤلاء، وما كان من الممكن أن يصلوا إليه لقصورهم. وفى **الرسالة الفقيرية** يجعل موضوعه **الفقر** ويقول إنه **التصوف**، ويقول إنه على أوجه، فهو الصبر على المكروه، وشكر المنعم الحكيم، والفتوة المحضة ورفع الأذى كله، وفعل

ما يجب كما يجب على ما يجب ، وهو الخلافة الباطنة كما أن المُلك هو الخلافة الظاهرة ، وهو الذى تُرسم بدايته بالإرادة ، والعبادة ، والإسلام ، وعالم الشهادة ، والخروج من الشر المحض إلى الخير المشترك ، والمجاهدة ، والطريق المقيد ، والتوكل ، والتسليم ، والتفويض ، والتوبة الأولى ، والخلوة المشوقة ، والأربعينيات المحركة والمهيئة ، والرضا ، والإيمان ، والعبودية ، والسفر فى الطريق ، والتوبة الثانية ، والفكر التابع للسكينة ، والذكر المحرك للتخلى ، والتحلى ، والتجلى ، وبُعد الأهل والوطن ، وحذف العلائق بالجملة ، والتزام السوابع الكاشفة للمقصود ، والإحسان ، وصرف المحو إلى الصحو ، والتوبة الثالثة . ويقول : **الفقر** هو الذى يجعل الفقر يمسك الشرع فى يمينه ، والعقل فى شماله ، وبينهما العلم ، ويحرك الكل بالأدب والهمة والحقيقة . وهو **علم التحقيق أو العلم الإلهى** الذى مداره **الله** سبحانه ، الأصل فى كل شىء ، **فلا حول ولا قوة إلا بالله ،** يجب عليها الأدب والاستغفار ، ولا شك فى **الله ،** ولا شىء أعز من **الله ،** ولا موجود على الإطلاق لا يفتقر إلى **الله .** ويقول ابن سبعين لتلاميذه ناصحاً أن يتشبهوا بالله ، ويعظموا سنة حبيبه وخليله . ويقول للسالك : يا هُمام ، اهتمامك بماهية همتك هو همك الأهم ، فعجل باهتبال عين كمالك ، ويكون شوقك إليه لا يتبدل . ولابد لكل **عارف** من مقام ، ومقامك **التوحيد ،** وأنت فى وقتك فيه واحد الحال ، ولا تلتفت فى حياتك إلى الموتى ، ولا تتحدث بعيشك إلا فى عيش الآخرة ، **وقل هو الله أحد ،** وأعوذ برب الناس من الوهم ومن الكون . **الله فقط .** اعتدل واملأ صدرك من **الله ،** وقسم ذلك النصيب الشريف على جملة قواك الروحانية والجسمانية ، ولازم **حب الله** حتى يظهر جاه ذاته بالذات فى الذات ، ولا تنكر **الله** على أى حال كان ، ولا تحب منه البعض وتكره البعض ، من حكمه وأفعاله ، وما تعلم منه وما هو عليه . **الله فقط .** ويقول ابن سبعين فى **الرسالة القوسية :** أصدق كلمة قالها القائل : ألا كل شىء ما خلا الله باطل . وفى **كتاب العقد** يقول ابن سبعين فى **عهده** لتلاميذه : اجبر وقتك مع **الله** بتوبة صادقة ، فإن بابه ما عليه بوّاب إلا رحمته خاصة ورضوانه ، وإياك من العمل المعدوم ، وحبيبك من يدبر أمر آخرتك ويعينك عليها ، ويهجرك ويصلك من أجلها . وفى كتابه **الإحاطة** يشرح ابن سبعين **الإحاطة** ويقصد به الوجود كله كوحدة واحدة ، وفيه يختلط الزوج بالفرد ، ويكون السبت هو الأحد ، والموحد هو عين الأحد ، والذاهب من الزمان هو الحاضر ، والأول فى العيان هو الآخر ، والباطن هو الظاهر ، والمؤمن هو الكافر ، والفقير هو الغنى ، ومعنى ذلك التوحيد **المطلق ،** أو **الوحدة المطلقة فى الوجود ،** وأنه ليس ثم غير ولا سوى ، وكل شىء هو الله ، وليس إلا الأيس فقط ، أى ليس إلا الوجود فقط ، **وهو هو الله الله .**

وأهم مصنفات ابن سبعين فى الفلسفة والتصوف هو كتابه **بُد العارف**، وهو ينصح لمن يريد أن يطالع مذهبه أن يقصد هذا الكتاب الذى أثبت فيه مالم يثبته فى أى من كتبه الأخرى، ويعتبره من أهم ذخائر العالم وينصح مقتنيه بأن يحفظه «**فإنه تاسع كتاب وقع فى العلم**». والبُد فى اللغة هو المعبود، وبد العارفين هو الله سبحانه «منبه المسترشد إلى واجبه، ومعطى الطالب جميع مطالبه، ومعلم السعيد علم سعادته، ومبصر العابد حق عبادته، ومخرج المنكر من رعونته وعادته، ومغبط السالك بقصده، ومشّوقة إلى عالمه وبده»، «فيا أيها السالك لا يبقى لك توجه إلا إلى بُدك الحق الواحد الحق وحده» وهو «بُد الكل، وبد العارف والمعروف والمعرفة». وطريقة ابن سبعين فى التصوف أو الطريقة السبعينية أطلق عليها قطب الدين القسطلانى اسم **الليسية** وكان يقول احذروا هؤلاء الليسية، أى اتباع ابن سبعن، لأنهم كما يبدو كانوا يقولون فى ذكرهم ليس إلا الله، بدلاً من لا إله إلا الله.

ومن هؤلاء أبو الحسن الششترى الذى أقام بمصر وتوفى بدمياط سنة ٦٦٨ هـ، وكان أديباً له نظم على طريقة التحقيق، وموشحاته وأزجاله فى «غاية الحسن» وكان الشاذلية يزكونها.

السرّاج الطوسى

أبو نصر عبدالله بن على السراج الطوسى، الملقب **بطاووس الفقراء**، وصاحب كتاب **اللمع**، وهو من أكثر المراجع وفاء بعلوم الصوفية وبمذهبهم وأخبارهم وأشعارهم ومسائلهم وأجوبتهم ومقاماتهم وأحوالهم، وما انفردوا به من الإشارات اللطيفة، والعبارات الفصيحة، والألفاظ المشكلة الصحيحة على أصولهم وحقائقهم ومواجيدهم وفصولهم. والكتاب فريد فيما قصد إليه، وكان الطوسى رائداً فى هذا المجال، واقتفى أثره **القشيرى والهجويرى والسلمى والكلاباذى**. ويعد أقدم المراجع وأوثقها فى التصوف. وكان الطوسى من أوائل من حذروا من المتشبهين بالصوفية، والمتلبسين بلباسهم، والمتسمين باسمهم. وتوفى الطوسى سنة ٣٧٨ هـ، أى أنه عاش فى القرن الرابع الهجرى، ومع ذلك فهو يكتب عن زمانه فيقول: إن الخائضبن فى علوم الصوفية قد كثروا، وألّفوا الكتب فيهم بكلام مزخرف من عندهم وليس بالمستحسن، لأنهم غلطوا فيهم، وأقحموا على كلامهم مالم يقولوه، وفسروا ما قالوه بتفسيرات من عندهم جانبت الصوات، فالصوفية لم يكونوا كما رسمهم هؤلاء، فهم **طائفة آمنت بربها، ومنهم أبرار صديقون، وبدلاء مقربون، أحبوا الله وأخلصوا له العبادة، واستغنوا**

به عمن سواه، وآثروه على ما دونه، وانقطعوا إليه، وتوكلوا عليه، وعكفوا ببابه، ورضوا بقضائه، وصبروا على بلائه، وفارقوا فيه الأوطان، وهجروا له الإخوان، وتركوا من أجله الأنساب، وقطعوا فيه العلائق، وهربوا من الخلائق، مستأنسين به، ومستوحشين مما سواه. ويقسم الطوسى الناس فى زمنه بالنسبة للتصوف إلى خمسة طوائف، فنهم من يغلوا فى تفضيله ورفعه فوق مرتبته، ومنهم من يخرجه عن حد المعقول والتحصيل، ومنهم من يرى أن ذلك ضرب من اللهو واللعب وقلة المبالاة بالجهل، ومنهم من ينسب ذلك إلى التقوى والتقشف ولبس الصوف، ومنهم من يسرف فى الطعن وقبح المقال فى الصوفية حتى ينسبهم إلى الزندقة والضلالة. ويذهب الطوسى إلى أن أولى العلم، القائمين بالقسط، الذين هم ورثة الأنبياء، هم المعتصمون بكتاب الله، والمجتهدون فى متابعة رسوله، والمقتدون بالصحابة والتابعين، والسالكون سبيل أوليائه المتقين وعباده الصالحين، وهم ثلاثة أصناف: **أصحاب الحديث، والفقهاء، والصوفية**، وكل صنف من هؤلاء مترسم بنوع من العلم والعمل والحقيقة والحال، ولكل منهم فى معناه علم، وعمل، ومقام، ومقال، وفهم، ومكان، وفقه، وبيان عَلِمَه مْن علمه وجهله من جهله، ولا يبلغ أحد الكمال الذى به يحوى جميع العلوم والأعمال والأحوال. والصوفية قد اختصوا بالمعانى التى ترسموا بها، ولهم فى ذلك آداب وعلوم ومقامات وحقائق ومشاهدات ومراقبات وأسرار واجتهادات ودرجات وإرادات وغلبات، ومعرفة بالنفس وأماراتها وخواطرها وخلاصها وآفاقها، ومستنبطات فى العلوم تشكل على فهوم الفقهاء والعلماء، وهى لطائف مودعة فى إشارات لهم تخفى فى العبارة من دقتها، فى معنى العوارض والعوائق والعلائق والحجب وخبايا السر ومقامات الإخلاص وأحوال المعارف وحقائق العبودية. والصوفية اختصاصهم ذلك، وممارساتهم لها بالمنازلة والمباشرة، والهجوم عليها ببذل المهج، حتى يخبروا عن طعمها وذوقها ونقصانها وزياداتها. وإنما ينكر علم التصوف جماعة من المترسمين بعلم الظاهر لأنهم لم يعرفوا إلا ما يتعلق بظواهر الأحكام. وقد يكون إنكارهم للصوفية بسبب الغالطين فى التصوف من أبنائه، وهم **ثلاث طبقات**، فطبقة منهم غلطوا فى الأصول من قلة أحكامهم لأصول الشريعة، وضعف دعائمهم فى الصدق والإخلاص وقلة معرفتهم بذلك، كما قال بعض المشايخ إنما حرموا الوصول لتضييع الأصول. وطبقة ثانية منهم غلطوا فى الفروع، وهى الآداب والأخلاق والمقامات والأحوال والأفعال والأقوال، فكان ذلك من قلة معرفتهم بالأصول ومتابعتهم لحظوظ النفوس ومزاج الطبع، لأنهم لم يدنوا ممن يروضهم ويجرعهم المرارات ويوقفهم على المنهج الذى يؤدى إلى مطلبهم. فمثلهم فى ذلك كمثل من يدخل بيتاً مظلماً بلا

سراج ، فالذى يفسده أكثر مما يصلحه ، وكلما ظن أنه قد ظفر بجوهر نفيس لم يجد معه إلا خزفاً خسيساً ، لأنه لم يتبع أهل البصيرة الذين يميزون بين الأشياء والأشكال والأخلاق والأجناس ، فعند ذلك يقع لهم الغلط ، ويكثر منهم الهفوة والشطط ، فهم متحيرون ومتفرقون بين منهزم ومفتون ، ومتجبر ومحزون ، ومغتر بالظنون ، ومحترف الجنون ، ومتلبس بالمجون ، ومكمد بالشجون ، ومدع ومفتون ومتمن للمنون . وكل طبقة من هذه الطبقات الثلاث على أحوال شتى من التفاوت والإرادات والمقاصد والنيات ، فمن غلط فى الأصول فلا يسلم من الضلالة ولا يرجى لدائه دواء ، والغلط فى الفروع أقل آفة .

وأغلاط الأصول منها **الغلط فى معنى الحرية والعبودية** فيظن أن العبد ما دام بينه وبين الله تعالى تعبد فهو مسمى باسم العبودية ، فإذا وصل إلى الله فقد صار حراً .

ومنها **الغلط فى الإخلاص** فقد يزعم أن الإخلاص لا يصح للعبد حتى يخرج عن رؤية الخلق ولا يوافقهم فى جميع ما يريد عمله ـــ كان ذلك حقاً أو باطلاً . ومنها **الغلط فى تفضيل الولاية على النبوة** ، والذى جرهم فى هذا الغلط قصة موسى والخضر إذ استخلصوا منها أن الولى أفضل من النبى ، لأن الخضر فى هذه القصة يبدو هو العالم بباطن الأمور وأسرار الحوادث ، بينما موسى جهل هذه الأسرار والبواطن ، فظنت هذه الطائفة الضالة أن ذلك نقص فى نبوة موسى عليه السلام وزيادة للخضر عليه السلام على موسى فى الفضيلة . ومنها **الغلط فى الإباحة والحظر** فقد زعمت طائفة أن الأصل فى الأشياء الإباحة ، وإنما وقع الحظر بسبب التعدى ، فإذا لم يقع التعدى تكون الأشياء على أصلها من الإباحة ، ومن ثم فقد أباحوا لأنفسهم المحظور الممنوع على المسلمين طالما أنهم لم يتعدوا فى تناوله . ومنها **غلط الحلولية** الذين زعموا أن الحق اصطفى أجساماً حلّ فيها بمعانى الربوبية وأزال عنها معانى البشرية . ومن ذلك **الغلط فى فناء البشرية** بالزعم بأن من تضعف بشريته يجوز أن يكون موصوفاً بصفات الإلهية ، **وادعائهم الرؤية بالقلوب** فى دار الدنيا مثل الرؤية بالعيان فى دار الآخرة . وقريب من هؤلاء **من زعموا أنهم يرون أنواراً** أو أن فى قلوبهم أنواراً وكأنها مستمدة من الأنوار التى وصف الله بها نفسه . وكذلك **غلط قوم فى عين الجمع** فلم يضيفوا إلى الخلق ما أضاف الله تعالى إليهم ولم يصفوا أنفسهم بالحركة فيما تحركوا فيه احترازاً حتى لا يكون مع الله شىء سوى الله عز وجل فأخرجهم ذلك من الملة وترك حدود الشريعة لقولهم أنهم مجبرون على حركاتهم حتى أسقطوا اللائمة عن أنفسهم عند مجاوزة الحدود ومخالفة الاتباع . وكذلك **غلط قوم فى معنى الأنس والبسط** فتوهموا أن بينهم وبين الله حالاً من القرب والدنو فلم يراعوا الحشمة والآداب والحدود ، وهذا غلط لأن

الآداب والأحوال والمقامات خلع من الله تعالى على عباده وكرامة لهم فإذا تجاوزوا الحدود وخالفوا نكصوا على أعقابهم وسُلبوا الخلع التى أكرموا بها من الطاعات. وكذلك **الغلط فى ادعاء فقد الحس** عن المواجيد حتى لا يحسوا بشىء ويخرجوا عن أوصاف المحسوسين، وقد غلطوا فى ذلك لأن فقد الحس لا يعلمه صاحبه إلا بالحس لأن الحس صفة بشرية. وآخر الأغلاط **الغلط فى الأرواح** فقوم قالوا الروح نور وتوهموا أنه نور ذاته، وقوم قالوا حياة من حياة الله، وقوم قالوا الأرواح مخلوقة وروح القدس من ذات الله، وقوم قالوا أرواح العامة مخلوقة وأرواح الخاصة ليست بمخلوقة، وقوم قالوا الأرواح قديمة ولا تموت ولا تعذب ولا تبلى، وقوم قالوا تتناسخ الأرواح من جسد إلى جسد، وقوم قالوا للكافر روح واحد وللمؤمن ثلاثة أرواح وللأنبياء وللصديقين خمسة أرواح. وقوم قالوا الروح خلق من نور، وآخرون قالوا الروح روحانية من الملكوت فإذا صفت رجعت إلى الملكوت، وقوم قالوا الروح روحان. روح لاهوتية وروح ناسوتية. وهؤلاء جميعاً غلطوا وضلوا وجهلوا وذلك من تعمقهم وتفكرهم بآرائهم فيما صنع الله تعالى قلوب العباد من التفكر فيه.

ولا نكاد نعرف شيئاً كثيراً عن الطوسى إلا بعض الكرامات، وأنه كان كثير التنقل بين بغداد ودمشق والقاهرة ودمياط والرملة والبصرة وتبريز ونيسابور، ينشر علوم التصوف، متعرفاً إلى أعلامه، وقد تكون له مؤلفات أخرى غير اللمع.

■ ■ ■

السَّرغينى

محمد بن محمد بن المعطى، نسبه إلى سرغين من المغرب، له «**روض الجنان**» فى مناقب شيخه عبدالكبير الكتانى، و«**المنحة العطوفية فى جواز الرقص للصوفية**» و«**حل الطلاسم فى شرح صلاة القاسم**» وتوفى بمراكش سنة ١٣٢٩ هـ.

■ ■ ■

السعودى (عبد اللطيف)

المتوفى سنة ٧٣٦ هـ، اشتهر بمعارضاته للصوفية، وله فى ذلك «**الرد على بعض ما جاء فى فصوص الحكم لابن عربى**» وهو رسالة فى الأزهر، و«**الغيث العارض فى معارضة ابن الفارض**».

■ ■ ■

السقّافية

من تريم بحضرموت، اشتهروا بالأدب والتصوف، وجدهم **عبد الرحمن السقاف**، وكان أبوه **محمد بن على بن العلوى**، ولقبه مولى الدويلة أى ولى البلد القديم بيحر؛ ومنهم على بن أبى بكر بن عبد الرحمن السقاف العلوى، الفقيه المتصوف (٨١٨ ـ ٨٩٥ هـ)، كان مولده ووفاته بتريم، وله كتب منها **«معارج الهداية»**، و**«البرقة المشيقة فى ذكر الخرقة الأنيقة وشيوخ الطريقة»** فى تراجم الصوفية من الشيوخ ببلدة تريم، وعدد ضخم من الشعر الصوفى الجيد. ومنهم **أبو بكر بن سالم السقاف العلوى**، صاحب **«معراج الأرواح»** و**«مفتاح السرائر»** و**«فتح باب المواهب»**، وكلها كتب فى التصوف، وكانت ولادته فى تريم (٩١٩ هـ) ووفاته فى عينات (٩٩٢هـ)، وكان مريدوه يسيرون فى مواكب ويستقبلونه بالأعلام والطاسات، ولمحمد بن عبد الرحمن سراج الدين الحضرمى المتوفى سنة ١٠١٩هـ كتاب فى مناقبه اسمه **«بلوغ الظفر والمغانم فى مناقب أبى بكر بن سالم»**. ومنهم **شيخان بن على بن هاشم السقاف العلوى** (١٢٤٨ ـ ١٣١٣ هـ) ولد بقرية الغرف جنوبى تريم، وأقام زمناً فى سورابايا بجاوة، وتوفى بالمكلا، وله ديوان فى التصوف، وكلامه المنثور جمعه أبنه فى ثلاثة مجلدات. (**انظر باعلوى والعيدروسية**).

■ ■ ■

السَّقَطى (السَرِّى)

أبو الحسن سرى بن المُغلسِّ السقطى، أول من تكلم فى بغداد فى لسان التوحيد وحقائق الأحوال، وكان تلميذاً **لمعروف الكرخى**، وتتلمذ عليه **الجنيد** والنصراباذى وسمنون والخلدى.. ومولده ووفاته ببغداد سنة ٢٥٣ هـ. وكانت أكثر صحبة الجنيد له فقد كان خاله، وقال فيه ما رأيت أعبد منه، فقد أتت عليه ثمان وتسعون سنة ما رؤى مضطجعاً إلا فى علة الموت. وكان يتجر فى السوق فمرت عليه جارية معها إناء فوقع منها وانكسر، فأخذ سرى شيئاً من المال من دكانه فدفعه إليها بدل الإناء، وكان معروف الكرخى موجوداً فأعجبه فعلُه فقال له: بَغَّضَ اللهُ إليك الدنيا، فقام سرى لتوه من الدكان وليس شيء أبغض إليه من الدنيا، ولزم داره لا يراه أحد إلا مَن يقصده، ولولا الجُمعة والجماعة لسدّ على نفسه الباب لم يخرج. **وطريقته** قوامها الورع

والزهد، واشتهر بطيب وتصفية قوته حتى بلغ ذلك **الإمام أحمد بن حنبل** فكان يصفه كذلك بأنه الشيخ الذى يعرف بطيب الغذاء. وكان يقول إن خير الرزق ماسلم من الآثام فى الاكتساب، والمذلة فى الخضوع فى السؤال، والغش فى الصناعة، ومعاملة الظلم. وكان يشكو اضطراب قلبه وقلة سكونه خوفاً من الله ورجاءً فيه وحباً له وحياء منه وأُنساً به. وكان كل همه أن يجد الأكلة التى يأكلها وليس لله عليه فيها تبعة ولا لمخلوق فيها منّة، ومثله الأعلى فى الورع أربعة: **حذيفة المرعشى وإبراهيم بن أدهم ويوسف بن أسباط وسليمان الخوّاص**، فهؤلاء نظروا فى الورع فلما ضاقت عليهم الأمور فزعوا إلى التقلل. ويحكى أنه ذهب غازياً ودخل طرسوس وبات مع فتية متعبدين، وكانوا يخبزون فانكسر التنور، فأصلحه من ماله، فتورعوا أن يختبزوا فيه. ولما دخل أرض الروم كان معه أبو يوسف الغسولى، فكان الناس يأكلون من طعام الروم والغسولى يرفض، فسأله أتشك أنه حلال، فيقول لا أشك فهو حلال، وإنما الزهد فى الحلال، ويقارن ذلك بفقهاء زمنه الذين يأكلون بدينهم، ويصفهم بالنذالة، وإنما **الفتى** حقاً هو المستقيم على أمر الله، والمجتهد الذى ليس معه سهو، والمتيقظ الذى ليس معه غفلة، والمراقب لله فى السر والجهر كالغسولى صاحبه فى الجهاد، فذلك هو الشجاع البطل. **ومجلس سرى** مجلس علم، ولو علم أن جلوسه أفضل من جلوسه فى البيت ما جلس معهم، ولكن ذلك اقتضاه منه العلم، ورغم أنه ينتقى جلساءه لم يكن يأمن أحدهم على سره، وينصح الجنيد أن لا يصحب الأشرار، وأن لا يشتغل عن الله، وبمجالسة الأخيار، وأن لا يدعى باطن علم ينفض ظاهر حكم، وأن يكون أخوف ما يكون من الله. ويحكى أنه فى إحدى المرات صلى ليلة وقرأ ورده ثم بسط ساقه فى المحراب فسمع كأن هاتفاً يقول له: يا سرى! كذا تجالس الملوك! فضمّ رجله وقال وعزتك لا مددتُ رجلى بعد ذلك أبداً. وورعه وخوفه من الله يهديانه إلى الطريق المختصر للوصول ــ يقول: لا تأخذ من أحد شيئاً، ولا تسل أحداً شيئاً، ولا يكن معك ما تعطى منه أحداً شيئاً. وكان يشفق على نفسه ويتمنى مع ذلك لو أن حزن الخلق كلهم أُلقى عليه، ويعزو حزنه وهمه وخشيته وكثرة بكائه وتضرعه فى الليل والنهار إلى الخوف من الله، ويصف أحوال الخائف وصف العارف المُعانى ويقول إنه دائم الهرب من مواطن الراحة، وأنه كثير الوله، يستشعر الوجل فى قلبه، ويتنغص عليه عيشه من مراقبته لله فى كل ما يقول ويفعل، ويقول إنه لينظر إلى وجهه كل يوم مخافة أن يكون قد اسوّد، ويتمنى لو يموت فى مكان لا يعرف فيه، فسألوه عن السبب، فقال أخاف أن لا يقبلنى قبرى فأفتضح. وله فى **الصوفى** ثلاثة معان، فهو الذى لا يطفىء نور

معرفته نور ورعه ، ولا يتكلم بباطن فى علم ينقضه ظاهر الكتاب والسنّة ، ولا تحمله الكرامات على هتك أستار محارم الله . وهو يدعو اللهم مهما عذبتنى بشىء فلا تعذبنى بذُل الحجاب ، يقصد بما يشغله عن الحق . ويذكر من **علامات العارف** قيامه بحقوق الله وإيثاره على النفس فيما أمكنته فيه القدرة . وكان ينشد :

لافى النهار ولا فى الليل لى فرح ... فلا أبالى أطال الليل أو قصرا
لأنى طول ليلى هائم دنف ... وبالنهار أقاسى الهم والفكرا

■ ■ ■

السُّلَمى (أبو عبد الرحمن)

شيخ الصوفية وصاحب تاريخهم وطبقاتهم وتفسيرهم ، محمد بن الحسن بن محمد بن موسى الأزدى ، ونسبته إلى جده لأمه أبى عمرو إسماعيل بن نجيد **السلمى** ، فقد كان أبوه رقيق الحال وأهله مضيقاً عليهم فى الرزق ، بينما أهل أمه من ذوى الثراء والسلطان ، ولمّامات أبوه وهو فى نحو الخامسة عشرة كفله جده ، وورثه بعد وفاته حيث لم يكن له ولد ، وكانت ثروته كبيرة مكنته من أن يعيش للعلم والتحصيل ، وأن يشترى مكتبة ضخمة جمع فيها مالم يسبقه إليه أحد من **طرائف** كتب الصوفية والمحدّثين ، وكان شيوخ **نيسابور** ، حيث ولد وعاش ، يستعيرون منه بعض ما تحويه من نفائس . وكان أبوه رغم ضيق حاله صوفياً جليل القدر ، صحب **ابن منازل وأبا على الثقفى** ، ولمّا ولد له أبو عبد الرحمن باع ما عنده وتصدّق به . وكانت ولادته سنة ٣٢٥ هـ على الأرجح ، وفى أواخر أيامه ابتنى للصوفية خانقاه اشتهرت فى نيسابور وما حولها ، وفيها دفن بعد وفاته سنة ٤١٢ هـ . وله من التصانيف **مئة** أو أكثر ، منها : **الإخوة والأخوات من الصوفية ، وأدب الصحبة ، وآداب الصوفية ، وجوامع آداب الصوفية ، وتاريخ الصوفية ، ورسالة فى غلطات الصوفية ، ورسالة الملامتية ، وسلوك العارفين ، ومحن الصوفية ، ومقامات الأولياء ، ومقدمة فى التصوف ، ومناهج العارفين ، وحقائق التفسير** ، غير أنه اشتهر من دون كل هذه المصنفات الصوفية بكتابه الأزهر **طبقات الصوفية** ، وقد ترجم فيه لخمس ومائة شيخ ، وكان للكتاب وما اتبّع فيه من منهج أثره البالغ على المؤلفين فى هذا الفن من بعده مثل **أبى نعيم** فى حِلية الأولياء ، **والخطيب البغدادى** فى تاريخ بغداد ، **والقشيرى**

فى رسالته، **وعبد الرحمن الجامى** فى نفحات الأنس، **والشعرانى** فى طبقاته. ويذكر **أبو عبد الرحمن** فى هدفه وغايته من الكتاب أنه لم يخلُ وقت من داع إلى الله تعالى، والدُعاة فى كل زمان طبقات، يخلف بعضهم بعضاً بالاتباع والاقتداء، والرسول قد نبه إلى ذلك فقال: **خير الناس قرنى، ثم الذين يلونهم، ثم الذين يلونهم (الحديث)**، وقال ﷺ: **مثل أمتى مثل المطر، لا يُدرى أوله خير أم آخره**، فَعُلِمَ أن آخر أمته لا يخلو من الأولياء والبدلاء، وهم خلفاء الأنبياء، وأرباب حقائق التوحيد والمُحَدِّثون وأصحاب الفراسات والآداب، وهو يقول: **لا يزال فى أمتى أربعون على خُلق إبراهيم الخليل عليه السلام، إذا جاء الأمر قُبضوا**. وطبقات الصوفية يتناول **أرباب الأحوال والمتكلمين على لسان التفريد وحقائق التوحيد واستعمال طرق التجريد**. وأبو عبد الرحمن فى ذلك يمثل **مدرسة** فى التأليف الصوفى، منها **أبو نصر السراج** صاحب اللمع **والقشيرى** صاحب الرسالة، وهؤلاء طريقتهم تعتمد على **الإيراد والسرد**، بعكس طريقة غيرهم التى قوامها الرأى وأسانيده عند الآخرين. ولقد قيل إن السلمى لم يكن مع ذلك المؤرخ المدقق، واتهم بأنه كان **يضع الأحاديث ويؤلف العبارات** وينسبها للصوفية بحسب مشاربهم ونزعاتهم، وقيل إن تفسيره للقرآن **بغير إسناد من طرق العلم** حتى اتهمه بعضهم بالزندقة الباطنية والتخريف والقرمطة، إلا أن السلمى لم يَعْدُ طريقته أو مدرسته فى التأليف فاكتفى بإيراد تأويلات الصوفية على آيات القرآن وألفاظه. ويروى **القشيرى** أن أستاذه **الدقّاق** طلب إليه أن يزور السلمى فى بيته «فستجده بين كتبه، وعلى وجه الكتب مجلدة حمراء صغيرة فيها شعر الحسين بن منصور، يعنى الحلاجّ، فاحملها ولا تقل له شيئاً»، فصدع القشيرى للأمر ووجد الحال كما وصف الدقاق، وخاف أن يأخذ المجلدة دون إذنه فقص عليه الحكاية، ويقول القشيرى إن السلمى أخرج مجلدة أخرى من كلام الحلاج وقال «احملها إليه وقل إنى أطالعها لأنقل منها لمصنفاتى»، فالدقاق ينتقد طريقة السلمى، وكأنه بانتزاعه للمجلدة يحرمه أن «يسرق» منها، والسلمى لا يجد حرجاً فيما يفعل فهذه طريقته فى التأليف، ولا تثريب عليه، وقد كان مع ذلك محل ثناء من معاصريه، فأبو نعيم معاصره يقول فيه: «له العناية التامة بتوطئة مذهب المتصوفة، مفارق لما يؤثر عن المتخرفين المتهوسين من جهّال هذه الطائفة، منكر عليهم»، ويقول فى خُلقه «إنه ذو صيام وقيام، مقرىء الأئمة والأعلام على مدى السنين والأعوام، فى التعبد لبيب، وفى التعليم أريب». وعندما أشرف السلمى على الموت قال إنى لأرجو ربى وقد صُمتُ له ثمانين رمضاناً. وقالوا فيه أقرأ السلمى

القرآن فى المسجد أربعين سنة . وكان يأتى بالطعام لنفسه إلى المسجد، فربما يستقبله الفقراء فى الطريق فيطعمه المساكين فيقولون له بارك الله فيك، فيقول وبارك الله فيكم .

السملالى

أبو العباس أحمد بن عبدالله بن يعقوب السملالى الجزولى، من أهل تزموت بسوس المغرب، وله «**مختصر كتاب التشوف إلى رجال التصوف**» و«**أسماء بعض الصالحين**» و«**الفوائد المحمدية لكل كربة**»، وتوفى سنة ١٠٩٣ هـ.

■ ■ ■

السمنانى

علاء الدولة ركن الدين أحمد بن محمد السمنانى (٦٥٩ ــ ٧٣٦ هـ) مولده سمنان ووفاته ببغداد، وكان ينكر على ابن عربى ويكفّره، وله مصنفات تزيد على الثلاثمئة، ومن كتبه الباقية «**الفلاح لأهل الصلاح**» و«**العروة لأهل الخلوة**» و«**صفوة العروة**» وتناول فى الكتابين الأخيرين الآداب الشرعية وصيانة خلوات المتصوفة عن الشطحات والترهات، و«**تحفة السالكين**».

■ ■ ■

سمنون المحب

سمنون بن حمزة، قيل أبو الحسن، وقيل أبو القاسم الخوّاص، فقد كان يشتغل بالخوص، ويسكن بغداد وتوفى سنة ٢٩٨ هـ تقريباً، وكان من أصحاب السرّى السقطى، والقصّاب والقلانسى، وأصل تسميته بالمحب أنه كان يتكلم فى المحبة، ووصفوا كلامه فيها لأنه «أحسن كلام»، وأقواله أغلبها لايدور إلا على الصد والهوى والجفا والصبر والرجا والوجد والعتاب والشوق والوصال والبين والبكاء والعذاب والغياب والصبابة والحنان والدموع، ولا يخاطب الناس إلا ويقول يا حبيبى، وما وصلنا منه أغلبه شعر، وهو الأنسب للمحبة، وشعره رقيق للغاية، ويبرر سمنون رقته فيقول : لايعبر عن الشىء إلا بما هو أرّق منه، ولا شىء أرّق من المحبة. ومن أرق شعره :

أمسى بخدّى للدموع رسوم — أسفاً عليك وفى الفؤاد كلام
والصبر يحسُن فى المصائب كلها — إلا عليك فإنه مذموم

ومنه :

أحِنُّ بأطراف النهار صبابةً — وفى الليل يدعونى الهوى فأجيب
وأيامنا تفنى وشوقى زائد — كأن زمان الشوق ليس يغيب

ومنه :

بلَيت ودمع العين للنفس راحة — ولكن دمع الشوق يُنكى به القلب
وذكرى لما ألقاه ليس بنافعى — ولكنه شىء يهيج به الكرب
فلو قيل لى ما أنت قلت معذب — بنار مواجيد يضرمها العَتْب

ومن الطريف أن سمنون أطلق على نفسه اسم **الكذّاب**، وكان سبب ذلك أبياتاً قال فيها :

فليس لى فى سواك حظ — فكيف ما شئت فامتحنى

فُحصر بوله وذاك هو الامتحان، فكان يشكو ويتلوى من الألم مثل الحية ويصرخ ويدور على الناس يسألهم أن يدعوا لعمهم الكذّاب، فلما أطلق بوله قال يارب تبت إليك، أى تبت عن طلب الامتحان.

■ ■ ■

سنائى الغزنوى أو البلخى

أبو المجد مجدود بن آدم **أول الشعراء الصوفية الثلاثة الكبار الذين نظموا المثنويات**، وهم على الترتيب: **سنائى ثم فريد الدين العطار ثم جلال الدين الرومى**، والرومى أعظم الثلاثة ولو أنه يذكر فى تواضع يليق به: أن العطار هو الروح، وسنائى هو بمثابة العينين لهذه الروح، ثم يأتى دورى بعد سنائى والعطار. ولا نكاد نعرف شيئاً عن سنائى سوى أنه فى بداية حياته كشاعر التحق بخدمة

السلطان بهرامشاه، وأنه كان سقيماً فى شبابه وتعرض لتجربة زواج فاشلة، وقام برحلات كثيرة تعرض فى إحداها لانقلاب روحى. ويورد عبد الرحمن جامى فى نفحات الأنس أن سنائى، وكان يجلس فى إحدى الحانات، إذ بمجذوب يحضر ويسخر منه لأنه كان ينشد الشعر فى مدح الملوك، ولا ينشده فى مدح ملك الملوك، فاغتم سنائى وتاب وأناب، وصار صوفياً لا يقول الشعر إلا فى الأحوال والمقامات؛ وقيل فى **رواية أخرى** أن سنائى كان مدلهاً بحب صبى، وأن هذا الحب أذله وامُتهن فيه، فتحول من الحب الحسى إلى الحب الإلهى وتصوف؛ وفى **رواية ثالثة** أن سنائى وكان يمتدح الملوك من أجل المال ــ لم يحصّل شيئاً وخسر نفسه، فانصرف عن هذا الطريق وتزهّد. ويبدو أن سنائى ترجيحاً هو من مواليد ٤٦٥ هـ، وأنه لم ينظم **حديقة الحقيقة** التى عُرف بها إلا فى أواخر حياته، ولم يكد يتمها حتى وافته منيته سنة ٥٢٦ هـ. ولم يخلف سنائى فيما نعلم إلا سبع مثنويات والديوان، واشتهرت منها **حديقة الحقيقة**، والست الباقيات هى: **طريق التحقيق، وغريب نامه، وسير العباد إلى المعاد، وكار نامه أو كتاب الأعمال، وعشق نامه أو كتاب العشق، وعقل نامه أو كتاب العقل**. والحديقة التى يشتهر بها يهديها إلى بهرام شاه سلطان غزنه، **ومضمونها صوفى أخلاقى**، أى أن اهتمامه بالسلوك الصوفى أكثر من اهتمامه بالتصوف النظرى، ويبلغ عدد أبياتها أحد عشر ألف بيت، ويقسمها إلى عشرة كتب أو فصول، الأول فى الثناء على الله، والثانى فى الثناء على النبى، والثالث فى مدح العقل، والرابع فى التنويه بعظمة المعرفة، والخامس فى ذم الإهمال، والسادس فى السماء وعلامات البروج، والسابع فى الفلسفة، والثامن فى المحبة، والتاسع يصف فيه ظروفه ويذكر عن أحواله، والعاشر يخصصه لمديح بهرام شاه. وفى هذه الأمثولة التى يطرحها فى ثنايا حكايات الحديقة قد نستطيع أن نتبين نوع الحكمة التى خلص إليها سنائى، ويعطيها عنوان **«عن صحبة العميان وصفات الفيل»** ويقول:

كانت مدينة شامخة ليست بالبعيدة، وسكانها جميعهم من العميان، وفى يوم من الأيام مر أحد السلاطين ونصب خيامه فى الوادى، وكان من مقتنياته فيل عظيم الجثة، مخيف الهيئة، يحتفظ به من باب الأبهة، وأن يستحدث الاحترام فى نفوس مشاهديه، وسمع سكان المدينة العميان بأمر الفيل، ولم يكونوا قد سمعوا بحيوان مثله، فأرسلوا وفداً عنهم يتعرفه، ويتحرى أمره، واقترب العميان من الفيل يتحسسونه، فمن أمسك بخرطومه وصفه لسكان المدينة العميان، بأن الفيل كالمخروط البشع، ومن أمسك

بأذن الفيل قال إنه عريض وواسع كالسجادة، وهكذا، أى أن كل واحد حكى عن الجزئية التى تحسسها، وكانوا جميعاً على خطأ، فلم يحدث أن عرفوا الفيل على حقيقته، وكذلك الناس فإنهم عميان يلجأون إلى عميان، عندما يحاولون أن يتحصلوا على المعرفة بالله من خلال آخرين مثلهم.

■ ■ ■

السنوسى

أبو عبد الله محمد بن على (١٢٠٢ ـ ١٢٧٦ هـ) السنوسى الخطابى الإدريسى، مؤسس الطريقة السنوسية، وتصوفه من التصوف السياسى، وكانت ولادته فى محلة الواسطة من بلدة مستغانم على الساحل الجزائرى حيث كانت أسرته. واسم السنوسى نسبة إلى قبيلة بنى سنوس من قبائل تلمسان التى نزل عليها جده فنسب إليها، وتعزى إلى جبل هناك يسمى أسنوس، ولقبه الخطابى من جده خطاب بن يحى، وكانت الأسرة تعرف باسم آل خطاب، ولقبه الإدريسى من الأدارسة الذين ينتسب إليهم والذين أسس جدهم إدريس الأكبر دولة فى المغرب الأقصى. وقد ربته عمته فاطمة بعد وفاة أبيه فأشغلته بعلم العقائد والتوحيد، وكفله بعدها ابن عم له يدعى الشارف درس عليه الفقه والحديث والتصوف، ولما مات سافر السنوسى إلى فاس طلباً للعلم، وكانت مجمعاً للفرق الصوفية، فتعرف فيها على الطرق القادرية والشاذلية والجازولية والتيجانية والدرقاوية والناصرية والحبيبية وغيرها، ورحل إلى القاهرة فترة ثم غادرها إلى مكة لنقص الدراسات الصوفية بالأزهر، وفى مكة التقى بأستاذه **أحمد بن إدريس** الملّقب بأبى العباس العرائشى وأخذ عنه التصوف، فلما توفى سنة ١٢٥٣ هـ بنى لنفسه زاوية على جبل أبى قبيس بمكة وبدأ يلقى دروسه وينشر دعوته فالتف حوله المريدون والأتباع، وانتهز مواسم الحج فالتقى بالوافدين من أقطار العالم الإسلامى واستجاب له عدد من أهل طرابلس الغرب. وكانت له **طريقة فريدة** وهو أنه كان يأخذ اتباعه بالعبادة والنسك الشديدين حتى يكاد الواحد منهم أن يشرف على الهلاك فتصفى نفوسهم وعقولهم من سابق الأهواء والعلوم وعندئذ يطلب إليهم أن ينتشروا إلى بلادهم يُنشئون الزوايا وينشرون الإسلام ويقيمون المجتمع الإسلامى. وكانت الطريقة السنوسية فى التصوف سبباً فى أعمال المقاومة ضد الاحتلال الفرنسى فى الجزائر والثورات المختلفة التى قامت ضد فرنسا كثورة محمد بن عبد الله فى تلمسان وصحراء الجزائر سنة

١٨٤٨ وعصيان محمد بن تكوك فى الظهرا سنة ١٨٥١ ؛ ولما عاد السنوسى إلى المغرب اختار برقة مركزاً لطريقته لتوسطها فى الموقع ولكونها مخرجا لإفريقيا الوسطى، وأمر أتباعه ببناء الزاوية البيضاء، وكان يختار لإقامة زواياه المواقع الاستراتيجية لتوقعه مباغتة قوات الاستعمار لأتباعه. وقد أقام بالعزيات بالجبل الأخضر ثم انتقل إلى واحة جغبوب إمعاناً فى الابتعاد عن عيون قوات الاحتلال الإيطالية فى ليبيا وبالنظر إلى ارتياب الحكومة العثمانية فى نواياه. وظل بجغبوب حتى وفاته، وتحولت الجغبوب بعد انتقاله إليها إلى مركز تعليمى بسبب مسجدها ومدرستها ومكتبتها التى أسسها السنوسى، وأصبحت مركزاً لتعليم مريدى الطريقة وتخريج الدعاة. وله ما يزيد على الأربعة والأربعين كتاباً ورسالة فى الفقه والتصوف، منها «**المنهل الراوى الرائق فى أسانيد العلوم وأصول الطرائق**» عن العلماء الذين تلقى عليهم والطرف التى تعرّف عليها، و«**السلسبيل المعين فى الطرائق الأربعين**»، وقد انتخب فيه من كل الطرق التى عرضها أربعين سوية أفردها برسالته وذكر كيفيتها وما يتعلق بها من تلقين الذكر وأخذ العهد ولبس الخرقة، ويقول إن الطرق إلى الله كثيرة بعدد أنفاس الخلائق ولكنها فى الحقيقة واحدة، وقد بيّن السنوسى أن رسالته هذه هى ملخص رسالة لشيخ مشايخه حسن العجيمى، وجاء فى ختام الرسالة قصيدة له تجمع بين طرق الأقطاب فى طريقة واحدة هى طريقته، ويُكثر من القصص الرمزية وضرب الأمثال لتفهيم مريديه وتقريب المعنى الذى يقصد إليه. وبعد وفاته خلفه على الطريقة ابنه محمد المهدى (١٢٦٠ ـــ ١٣٢٠هـ) وكانت له قوة قيادية وتنظيمية، وقد زادت الزوايا فى خلافته زيادة كبيرة يقدرها البعض بأكثر من أربعة أضعاف عددها فى عهد أبيه، وانتشرت فى الصحراء الليبية وعلى طريق مصر وطريق تونس وفى وداى وغيرها، وروّج أتباعه لمهدويته وتردد هذا القول فى شعرهم وكتاباتهم كهذين البيتين:

إمـامٌ جـلـيـل بـشّـرتـنـا بـه الـعـلا ... علـى أنـه الـمهـدى قـد كـان فـى المهـد
إمـامٌ إلـى بـيـت الـنـبـوة يـنـتـمـى ... ولا شـك عـنـد اثـنين فـى أنـه الـمهـدى

وساعد على ذلك أن اسمه محمد المهدى، وأن أباه اسمه محمد وأمه فاطمة، وأنه يبلغ الأربعين سنة ١٣٠٠هـ وله شامة على خده. ولما خشى المهدى الغزو الأوربى انتقل من الجغبوب بعد حوالى ٣٦ سنة إلى واحة الكفرة ثم إلى قرو فى الصحراء الإفريقية. وتعاليمه تقوم على مزج العبادة بالعمل فلا تصوف بدون عمل، وكان يحث المريدين على تعلم ركوب الخيل والرماية والطراد والجلاد، ويعظّم فريضة الجهاد،

ويخصص لهم كل خميس للعمل اليدوى فيتركون الدروس ويشتغلون بالحرف من بناء ونجارة وحدادة ونساجة وصحافة وخاصة الزراعة والغرس، وكان المهدى نفسه يعمل بيديه، ويقول لهم يكفيكم من الدين حسن النية والقيام بالفرائض الشرعية، وينخرط معهم فى العمل ويقول يظن أهل الوريقات والسبيحات أنهم يسبقوننا عند الله، لا والله ما يسبقوننا. ونلاحظ أن السنوسية تعتمد فى كل نشاطاتها على الزاوية، وقد اقتبس السنوسى نظام الزاوية السنوسية من الزاوية الصوفية، ورتّب لها خليفة يقوم فيها بتعليم القرآن وتدريس العلوم. وللزاوية بيوت للضيافة ومساكن للخدم ومخازن لحفظ المؤن ومتجر وفرن وحجرة خاصة بالفقراء الذين لا مأوى لهم، وتقوم حولها المبانى الأخرى التى ينشئها القادرون، ولها أراضى موقوفة عليها لا تباع ولا تشترى، ومن وظائفها إحياء الأراضى البور وإصلاح الخربة. وكانت غاية السنوسى توحيد الطرق الصوفية تمهيداً لتوحيد المسلمين. ويقول **أحمد الشريف السنوسى** فى كتابه «**الأنوار القدسية فى معالم الطريقة السنوسية**» أنه سأل عمه المهدى عن الطريقة السنوسية لمن تُنسب فذكر له أنها تسمى السنوسية الإدريسية القادرية الناصرية الشاذلية، وكلها مرجعها محمدية، أى أنها تتابع السنة فى القليل والكثير. ويبدو من أوراد الطريقة أنها إحدى فروع الشاذلية، ومبناها كما يقول أحمد الشريف متابعة السنة فى الأقوال والأفعال والأحوال والاشتغال بالصلاة على النبى فى عموم الأوقات. ولعله لأنها التزمت السنة فإن الوهابيين لم ينتقدوها كنقدهم للطرق الصوفية الأخرى. وكان السنوسى يقول إن أعمال الصوفية موزونة بميزان الشريعة. وتجمع السنوسية بين الطريقتين البرهانية والإشراقية كأسلوب للوصول إلى الكمال، ويقول أحمد الشريف إن الإشراقية دأب متصوفيها تصفية النفوس من الأكدار وتوجيهها نحو الحق لنهج المعارف والأسرار بدون تعلم ولا تعليم من باب اتقوا الله ويعلمكم الله، وأما البرهانية فدأب متصوفيها اتّباع الأوامر واجتناب النواهى واقتباس العلوم الأربعة التى هى علوم الذات والصفات والفقه والحديث والدلالات. والطريقة السنوسية جامعة بينها، فمن أراد الإشراقية سلك بها سبيلها، ومن أراد البرهانية سلك بها سبيلها. وسبيل البرهانية وهو تعمير الظواهر بالآداب على متابعة أقوال النبى، وتعمير البواطن بمراقبة الله فى جميع الحركات والسكنات على السنن النبوى والنهج المصطفوى. وكان السنوسى يأمر المريدين بقراءة صحيح البخارى والموطأ وبلوغ المرام فى الحديث ورسالة ابن أبى زيد القيروانى فى الفقه والرسائل السبع فى التصوف. وتقوم السنوسية على الصلة بين السالك والرسول، وإمكان تحقيق الاتحاد به. واتباع السنوسية كانوا يقولون إن محمداً المهدى يتلقى عن النبى، وكان هو نفسه

يقول إنه مأمور من النبى . ومن تقاليد السنوسية مناولة السبحة والحزب ولبس الجرد وهو الحرام الصوفى الليبى . ويتحدث المؤرخون للتصوف السنوسى عن ثلاثة أمور أخرى هى الإمامة والهجرة والجهاد ، فطاعة الإمام واجبة ، والهجرة طلباً للتمكين ، والجهاد لإعلاء كلمة الحق والدين . ولابن الشريف كتاب فى الحث على الجهاد بعنوان : « بغية المساعد فى أحكام المجاهد » . ويلخص بعضهم الطريقة السنوسية بأنها عبارة عن جمعية مذهبية وطريقة صوفية وسياسية واجتماعية . وكان تركيز ابن الشريف الذى خلف المهدى على الطريقة على الجهاد بسبب حروبه مع الفرنسيين ، وفى عهده توقف نحو الزوايا للانصراف إلى الجهاد ، ولولا ذلك لتتابع انتشار السنوسية فى داخل إفريقيا كما كان مقدراً لها .

■ ■ ■

السُهْرَوَرْدى

أبو حفص شهاب الدين عمر بن محمد بن عبدالله بن عَمّوَيْه (٥٣٩ ــ ٦٣٢هـ) صاحب المتن الأشهر « عوارف المعارف » ، ونسبه إلى سُهْرَوَرْد من بلاد زنجان ، وقدم بغداد صغيراً وصحب عمه الصوفى الكبير أبا النجيب عبدالقاهر السهروردى ، وتتلمذ عليه فى التصوف ، ثم انقطع مشتغلاً بالعبادة ، ووعظ عند كبر سنه فى مدرسة عمه على شاطىء دجلة ، وكان يحضر مجلسه خلق كثير ، واشتهر ، وتاب على يده جمع غفير وصار له أتباع ، وأملى فى الرد على الفلاسفة « **رشف النصائح الإيمانية وكشف الفضائح اليونانية** » . وكان مليح الخَلْق والخُلُق ، متواضعاً جامعاً للمكارم ، وما للمال عنده قدر ، ولو حصّل منه الألوف فرّقها ، ولما طعن فى السن أُقعد فكان يُحمل على محفة إلى المسجد ، ومات ولم يخلف كفناً ولا شيئاً من أسباب الدنيا . ويقول فى أسباب تأليفه لكتابه **العوارف** أنه كان يؤثر الصوفية ويحبهم لعلمه بشرف أحوالهم وصحة طريقتهم المبنية على الكتاب والسنة ، وقد أغضبه كثرة المتشبهين بهم والمتسترين بزيهم حتى ساء ظن الناس بهم جميعاً ووقعوا فيهم ظناً أن حاصل التصوف يرجع إلى مجرد الرسم وأن تخصص الصوفية يعود إلى مجرد الإسم . ويقول إن الله قد فتح عليه بمنح وعوارف ، وأجلّ المنح **عوارف المعارف** . والكتاب يشتمل على نيف وستين باباً فى منشأ علوم الصوفية وفضيلة هذه العلوم ، وماهية التصوف وسبب الاسم ، وأحوال المتصوفة المتشبهة والمنتمين للصوفية وليسوا منهم والملامتية ، وأخلاق الصوفية وآدابهم فى

الرُبَط وغيرها ، وفى الصيام والطعام واللباس والسفر، ومع الشيوخ والصحبة والتلاميذ ، وشروح الأحوال والمقامات وبعض المصطلحات الخ . والصوفى الذى يعنيه السهروردى فى كتابه هذا المرجع هو كما يقول : «**المقرّب**» ، فليس فى القرآن اسم الصوفى ، وإنما وُضع الاسم للمقرّب ، فكم فى بلاد الإسلام مَن لا يسمون صوفية لأنهم لا يتزيون بزى الصوفية إلا أنهم فى الحقيقة كذلك ، ولا مشاحة فى الألفاظ ، فكل الصوفية الوارد ذكرهم فى كتب الطبقات كانوا فى طريق المقربين ، وعلومهم علوم أحوال المقربين ، ومن يتطلع إلى مقام المقربين من جملة الأبرار فهو المتصوف ما لم يتحقق بحالهم ، فإذا تحقق بحالهم صار صوفياً ، ومن عداهما ممن تميز بزى ونُسب إليهم فهو متشبّه . **وعلوم الصوفية** منها علم الحال وعلم القيام وعلم الخواطر وعلم اليقين وعلم الإخلاص ، وعلم النفس ومعرفتها ومعرفة أخلاقها وهو من أعز علوم الصوفية . وأقوم الناس بطريق المقربين والصوفية أقومهم بمعرفة النفس وعلم معرفة أقسام الدنيا ودقائق الهوى وخفايا الشهوات ، وعلم الضرورة ومطالبة النفس بالوقوف عليها قولاً وفعلاً وأكلاً ولبساً ونوماً ، ومعرفة حقائق التوبة ، وعلم خفى الذنوب ، وعلم المراقبة والمحاسبة والرعاية ، وحقائق التوكل ، والرضا ، والزهد ، ومعرفة الزهد فى الزهد ، ثم زهد ثالث بعد الزهد فى الزهد ، وعلم الإنابة والالتجاء والدعاء والمحبة ، وعلم المشاهدات كعلم الهيبة والأُنس والقبض والبسط ، وعلم الفناء والبقاء والجمع والفرق واللوامع والطوالع والصحو والسكر إلى غير ذلك . ويجمع الصوفية فى كل علومهم شيئان هما الوصف الذى إليه الإشارة فى قوله تعالى : «الله يجتبى إليه من يشاء ويهدى إليه من ينيب» ، فقوم منهم خُصّوا **بالاجتباء** الصرف ، وقوم خصوا **بالهداية** بشرط مقدمة الإنابة . **وأهل الخاصة** أو الصوفية هم الذين اجتباهم مولاهم وأكمل لهم النعمة فأسقط عنهم حركات الطلب فصارت حركاتهم فى العمل والخدمة والذكر والتنعم بمناجاته والانفراد بقربه . **والمراد** محمول على حاله مُعانٌ على حركاته وسعيه فى الخدمة ، مُكفى مصون عن الشواهد والنواظر . **والمريد** الذى مات قلبه عن كل شىء دون الله تعالى ، فيريد الله وحده ، ويريد قربه ويشتاق إليه . والصوفية هم **الفقراء** المؤثرون على الغنى تطلعاً إلى العوض عند الله ، وهم **الشكفتية** أى الذين يأوون إلى الكهوف والمغارات يتعبدون كما كان النبى يتعبد فى غار حراء ، وهم **الجوعية** لأنهم صائمون وصابرون على الجوع . **والمتشبه** هو الذى اختار التشبه بهم دون غيرهم لمحبته إياهم ، وهو صاحب إيمان ، وأما **المتصوف** فهو صاحب علم . **والملامتى** هو الذى لا يظهر خيراً ولا يضمر شراً ، وقد تحقق بالصدق فلا يحب أن يطّلع أحد على حاله وأعماله ، وقد يدعى إلى السماع

فيمتنع لأنه يعرف أنه إذا حضر فسيظهر عليه وجد، وهو يؤثر أن لا يعلم أحد بحاله. **والقلندرية** يقولون عن أنفسهم أنهم ملامتية أى لا يحبون أن يظهروا بمظهر التصوف، إلا أنهم غالوا فقلّت أعمالهم من الصوم والصلاة إلا الفرائض، وربما اقتصروا على رعاية الرخصة ولم يطلبوا حقائق العزيمة، وهم من جانب آخر يتمسكون بترك الادخار والجمع والاستكثار، ولا يترسمون بمراسم المتعشقين والمتزهدين والمتعبدين. ويذكر أن رجلاً كان يتحدث فى المعرفة فقال للجنيد: أهل المعرفة بالله يصلون إلى ترك الحركات من باب البر والتقوى إلى الله تعالى، فقال له الجنيد: إن هذا قول قوم تكلموا بإسقاط الأعمال، ومن جملتهم قوم يقولون بالحلول ويزعمون إن الله تعالى يحل فيهم ويحل فى أجسام يصطفيها، ويسبق لأفهامهم معنى من قول النصارى فى اللاهوت والناسوت. ويُذكر أن أبا سعيد الخراز قال إن للعارفين خزائن أودعوها علوماً غريبة وأنباء عجيبة، يتكلمون فيها بلسان الأبدية ويخبرون عنها بعبارة أزلية، وهى من العلم المجهول. ويقول السهروردى إن قوله لسان الأبدية والأزلية إشارة إلى أنهم بالله ينطقون، وقد قال النبى ﷺ «بى ينطق»، وهو **العلم اللدنى** الذى آتاه الله الخضر عليه السلام، وهو **علم أرباب النهايات** الذين استقامت بواطنهم وظواهرهم لله، وأرواحهم خلصت عن ظلمات النفس ووطئت بساط القرب. **وعلامة العارف بالله** أن نور معرفته لا يطفىء نور ورعه، ولا يعتقد باطناً من العلم ينقض عليه ظاهراً من الحكم، ولا تحمله كثرة نِعَم الله وكراماته على هتك أستار محارم الله، فأرباب النهايات كلما ازدادوا نعمة ازدادوا عبودية، وكلما ازدادوا جاهاً ورفعة ازدادوا تواضعاً وذلة. **وكمال المعرفة** إذا اجتمعت المتفرقات واستوت الأحوال والأماكن وسقطت رؤية التميز. **وحاجة العارفين** دائماً إلى الخصلة التى تكمل بها المحاسن كلها، ألا وهى **الاستقامة**، وكل من أتمّ معرفة كان أتم استقامة. وقد سئل الجنيد عن **النهاية** فقال: إنها الرجوع إلى البداية، وفسّروها بأنه كان فى ابتداء أمره فى جهل، ثم وصل إلى المعرفة، ثم رُد إلى التحير والجهل.

■ ■ ■

السهروردى

أبو النجيب عبدالقاهر بن عبدالله بن محمد (٤٩٠ ــ٥٦٣ هـ) البكرى الصديقى، حيث نسبه ينتهى إلى أبى بكر الصدّيق، وولادته بسهرورد، ووفاته ببغداد، وقبره بها ظاهر يزاره. وكتابه العمدة «**آداب المريدين**». وكان فقيهاً واعظاً، تفقه بالنظامية

على الميهنى، ووليها، ولكنه ترك ذلك وانقطع، وبنى لنفسه رباطاً وصار له خلق كثير من المريدين، وعليه تتلمذ **أبو حفص شهاب الدين السهروردى**، وسمع الحديث من أبى محمد بن سعيد بن نبهان وغيره، وروى عنه الناس. **والتصوف** فى مذهبه يقوم فى أوله على **العلم**، فالعلم له الأساس، وفى أوسطه هو **عمل**، وأما آخره فهو **موهبة**. والعلم يكشف مرادات التصوف، والعمل يعين على الطلب، والموهبة تبلّغ الغاية، وعلى ذلك فأهل التصوف ثلاثة، **المريد الطالب، والمتوسط الطائر، والمنتهى الواصل**، فالمريد صاحب وقت، والمتوسط صاحب حال، والمنتهى صاحب يقين. ومقام المريد المجاهدات والمكابدات وتجرع المرارات ومجانبة الحظوظ وكل ما للنفع فيه منفعة. ومقام المتوسط ركوب الأهوال فى طلب المراد ومراعاة الصدق فى الأحوال واستعمال الأدب فى المقامات. وهو مطالب بآداب المنازل، وصاحب تكوين لأنه يرتقى من حال إلى حال ودائماً فى زيادة. ومقام المنتهى الصحو والثبات وإجابة الحق من حيث دعاه، والمنتهى قد جاوز المقامات وصار فى محل التمكين لا تغيره الأحوال ولا تؤثر فيه الأهوال ويستوى فى حال الشدة والرخاء، والمنع والعطاء، والجفاء والوفاء، وأكله كجوعه، ونومه كسهره، فنيت حظوظه، وبقيت حقوقه ظاهرة مع الخلق وباطنة مع الحق، وكل ذلك منقول من أحوال النبى ﷺ.

■ ■ ■

السهروردى المقتول

شهاب الدين السهروردى، ويلّقب بالمقتول وليس الشهيد، لأنه اتُّهم بالكفر والخروج على السُّنة، وناظره علماء حلب وكتبوا إلى صلاح الدين الأيوبى بأنه يثير البلبلة بما يتحدث به من فلسفة فى مجال الدين، ويدّعيه من تصوف، وكان صلاح الدين يحارب الفرنجة الذين غزوا الشام وفى نفس الوقت يجاهد ضد الباطنية الذين كثرت دعاواهم، فكتب إلى ابنه الملك الغازى بقتل السهروردى، وكان الملك الظاهر قد استمع للمناظرة وقامت بينه وبين السهروردى صداقة، فلم يُرد أن يقتله، إلا أن العلماء بعثوا لصلاح الدين مرة أخرى فهددوا ابنه بالخلع، وتتباين الأخبار حول وفاة السهروردى، فقد قيل إنه مات مخنوقاً، وقيل بل مات قتلاً بالسيف، وقيل إنه امتنع بنفسه عن كل طعام حتى وافته منيته.

والسهروردى ينسب لسهرورد التى ولد بها من أعمال زنجان، واسمه الحقيقى أبو

الفتوح يحى بن حبش بن أميرك ، وكان عمره وقت وفاته سنة ٥٨٧ هـ بين السادسة والثامنة والثلاثين ، وهو يقول عن نفسه إنه من الفلاسفة المتألّهين أى المتصوفين ، وينسب علمه للتراث الأفلوطيني ، ويقول إنه علم يحصل لمن يريده عن طريق الذوق الباطنى ، وأن كتبه لا يصلح لقراءتها الفلاسفة ولا الصوفية ، ولكنها تناسبلا طالبى التأله وليس الباحث الذى لم يتأله ولم يطلب التأله . ويقول عن ذوقه الذى ينفرد به بين المتصوفة والفلاسفة أنه التجربة التى قوامها الحكمة أو هو الحكمة المجرّبة ، وهو ذوق إمام الحكمة ورئيسنا أفلوطين ومن سبقوه من زمن والد الحكماء هرمس ومن جاءوا بعده مثل أنباذوقلس وفيثاغورث ، وطريقته هى طريقة حكماء فارس مثل جاماسف وفرشادشور وبوزرجمهر ، ويستخدم فيها الأمثلة والرموز والقصص ولا يريد بها المعنى الظاهر وإنما باطن الرمز ، ويترك للقارىء أن يستشف منها المعنى الذى يريده والذى يُحمّله لكلماته ، ويزعم أنه تعلم ذلك من مدرسة الصوفى سهل التسترى ، ويردد أقوال لأبى طالب المكى بما معناه أن الله يقرأ على لسان كل قارىء للقرآن ، بمعنى أن القارىء عندما يقرأ يتمثل باطن النصوص ، وأن ذلك ما يطلبه من قارىء كتبه . والسهروردى له نحو ٤٩ كتاباً معظمها فى التصوف ، ومنها رسالة **أصوات أجنحة جبرائيل ، وكلمة التصوف ، ومقامات الصوفية ومعانى مصطلحاتهم ، والغربة الغربية ، والكلمات الذوقية والنكتات الشوقية ، ومؤنس العشاق ، والواردات الإلهية ، والبارقات الإلهية والنعمات السماوية ، ولوامع الأنوار.** وكان كثير الغشيان للتجمعات الصوفية ، ويلبس الرث من الثياب ، وتبدو عليه القذارة وقد طال شعره وأظافره ، ويضع أحياناً عليه خرقة صوفية ، وأحياناً يرتدى ثياباً فضفاضة وعمامة زاهية ، وقيل فى تعاليمه الباطنة أنه إسماعيلى ومن الدعاة ، جاهر بالدعوة ولم يؤمر بذلك ، ولما نزل فى بلاط عماد الدين آمير خربوط أسس مدرسة إشراقية . وكان يؤثر الوحدة ويكثر من التأمل ، ويوجه كتبه على هيئة رسالات إلى من يسميهم إخوانه وأصحابه . وكتابه العمدة هو **حكمة الإشراق ،** وفلسفته هى **الإشراقية ،** وهى امتداد للسلسلة التى بدأها **الحلاّج ،** وهو يدعوه باسم **أخيه ،** ويؤلف كتبه فى شكل حكايات لها توجهات صوفية ، وعلى هيئة رؤى ، ففى **« أصوات أجنحة جبرائيل »** يرى الرائى أنه أمام عشرة شيوخ لهم سمت حسن وقد انتظموا صفوفاً صامتين إلا العاشر القريب منه فإنه هو الذى يكلمه ويقول له إن هؤلاء لا يمكن أن يكلموك لأنك لست تشبههم ، وأنه وحده الذى يستطيع أن يترجم له مرادهم ، ويعنى بالشيوخ التسعة العقول المفارقة التى تهيمن على الأفلاك ، أما العاشر الناطق فهو **جبرائيل ، الوحى المعبر عنهم .** وفى

رسالته «**كلمة التصوف**» يطلب من القارىء أن يقرأه بوجد وطرب وفكر، وفى «**الغربة الغربية**» يتمثل الإشارات القرآنية وبخاصة فى سورة الكهف. وهو يقول فى **التوحيد** إنه لا يقصد به ماهو ذائع من توحيد الله، وإنما معناه عنده تجريد النفس عن كل العلائق حتى ينطوى فى الربوبية كل نظر فى مبادىء الوجود ومراتبه، فلا يكون ثمة مقام وراء مقام. **والحكيم المتأله هو نفسه الصوفى المجرب الذى يتذوق**. وفى «**رسالة صفير سيمرغ**» يبين وجوب نسيان الصوفى لذاته، بل ونسيان نسيانه، أى أن يفنى عن نفسه ويفنى عن فنائه، لأنه طالما هو يقتصر على المعرفة فهو بعيد عن الهدف، وهى حالة من الشرك الخفى، وهو لن يبلغ الكمال ويتحقق له الوصول إلا فى اللحظة التى يُفنى فيها معرفته فى العارف، لأن الذى يرضى بمعرفته لا يزال فى حال من يتوجه بكل قصده إلى أن يعرف، ولا تعنى معرفته بالله أنه قد تحقق به. وثمة **أربع درجات من التوحيد** تؤدى إلى الدرجة النهائية، الأولى درجة العامة الموحدين **بلا إله إلا الله**، والثانية من يقولون **لا هو إلا هو**، وهؤلاء ينفون عن الهو الإلهى كل أنواع الهو، أى أنه **لا أحد إلا هو** يمكن أن يتسمى بذلك، فكلٌ **هو** صادر عنه ويشتق منه، والثالثة من يقولون **لا أنت إلا أنت**، وهم السابقون الذين لا يسمّون الله بضمير الغائب وينكرون كل أنت تريد أن تشهد على نفسها بذلك، والرابعة وهى درجة المشركين الذين يقوم خطابهم لله بأن تكون هناك مسافة بينه وبينهم، وخطابهم فيه **ثنائية**. وأما الصيغة الكاملة للتوحيد فهى «**لا أنا إلا أنا**»، وهى صيغة يعدها غير المتذوقين من غير الصوفية كفراً، فلا أحد إلا الصوفى يعرف أن **الأنا** التى ينطق بها ليست هى **الأنا** فى الخطاب العادى، وإنما هو **الأنا** المفصول عن **الأنا**، أو أنه **أنا** قد تجاوز من الله إلى الإنسان، أى يمكن أن ينسب للإنسان مجازاً وليس على الحقيقة، ومع ذلك فإن من يقولها يكون ما يزال على الطريق ولم يصل بعد، لأنه عندما يصل يسقط **الهو والأنت والأنا** جميعاً وتغرق فى بحر الفناء، فلا تكون أوامر ولا نواه، وتختفى الإشارات حيث «**كل شىء هالك إلا وجهه**». ويتابع السهروردى حكاياته الرمزية، ففى رسالة «**مؤنس العشاق**» يدفع القلق الشهوة إلى التعلق بالجمال الإلهى، فيولد الكون، ويأتى لزيارة يعقوب فى بلاد كنعان، ويسأله يعقوب من أين أتيت فيقول أنا قادم من **ناجا أباد**، أى من حيث **أين لا أين**، ونفس الشىء يحدث فى **رسالة أصوات أجنحة جبرائيل**، فالحكيم يقول للرائى إنه قادم من حيث **أين لا أين**، وفى «**رسالة لغة النمل أو لغة موران**» يذكر السهروردى أنا أبا طالب المكى ينقل عن الرسول أن **المكان انطوى عليه**، أى أن الكون والمكان قد زالا عنه، ويذكر قول الحلاج عن

معراج الرسول أنه **غمض العين عن الأين**. وفى «**رسالة الغربة الغربية**» يشير إلى **لامكان**، ويقول بلاد ماوراء النهر، ونعرف من بعد أنه جبل سيناء، وسيناء هى المحنة، لأن موسى فيها امتنع عليه معاينة الله وجهاً لوجه، وينظر السهروردى لقضية موسى باعتبارها **قضية التصوف**، لأن موسى يمثل الحب الصوفى الكامل، وبتعبيره عن رغبته فى أن يشاهد الله يكون قد تمنى الموت على الحقيقة. وسيناء هى السر المحجوب، وفى **رسالة الغربة الغربية** يستحضر السهروردى التاريخ من الماضى، ويجعله تاريخ اللحظة وما يجرى للراوى نفسه، وإشاراته إلى موسى وسليمان ونوح ولوط وعزرا ينقلها إلى ضمير المتكلم والحاضر، إلى أن يقول **فأنا فى هذه القصة**، أى أنه هو الغريب المغترب فى القرية الظالم أهلها، ألقوا به فى بئر لا يخرج منه إلا فى الليل فقط، ليشم من بعيد برق نجد الممنوع دخولها، ولابد من الرحيل والخروج من مصر. وبلوغ سيناء هو بمثابة **العودة إلى الوطن من الغربة** كما تقول الآية: «يا أيتها النفس المطمئنة ارجعى إلى ربك راضية مرضية»، والوطن ليس هو دمشق أو بغداد أو أى وطن أرضى وإنما هو **الله**. ويوضح ذلك أكثر فى رسالته «**كلمات ذوقية ونكتات شوقية**» ويفسر قول رسول الله «**حب الوطن من الإيمان**»، والوطن بالنسبة للنفس هو الكعبة، وليس وطنها هو الأبدان الأرضية، فهى أصنام ينبغى تحطيمها، وحب الأوطان أو الأجسام الأرضية أصل كل خطيئة، فاخرج من القرية الظالم أهلها واذهب إلى حيث تنمحى الحدود، إلى الله. ويضرب المثل بالقمر فهو فى عشقه للشمس لا يتوقف، وينتقل من منزل إلى منزل حتى يكون بدراً، فتنعكس عليه الشمس وتبدو ظلمته، ولكنه لو سئل لما أدرك إلا مايظهر منه، وقد يقول من تنوّره: **أنا الشمس**، إشارة إلى العبارة الشطحية للحلاج: **أنا الحق**، ولم يكن الحلاج أو البسطامى أو غيرهما وهم يرددون أمثال هذه الشطحات إلا كمثل القمر مع الشمس، فقد تلألأت قلوبهم بأنوار الله فنطقوا بحالهم وقالوا **أنا الله**، وهو أعلى مراتب التوحيد لله عز وجل.

■ ■ ■

السهرندى (أحمد)

أحمد الفاروقى الحنفى السهرندى (٩٧١ ـ ١٠٣٤هـ)، ولد فى بلدة سهرند من أعمال لاهور، واشتغل بالطرق الثلاث القادرية والسهروردية والجشتية على والده الذى أذن له بالإرشاد والاستخلاف فى الطرق السابقة، وكان سنه وقتئذ سبع عشرة سنة، إلى أن اجتمع **بمحمد الباقى** فأخذ عنه الطريقة **النقشبندية**، ويسمى **المجددى** بدعوى أنه يجىء على رأس الألف سنة ليجدد الدين، وكان يكثر من حديث رسول الله ﷺ

عن داود قوله : **إن الله يبعث على رأس كل مائة سنة من يجدد هذه الأمة أمر دينها .** وكان يعلق على ذلك فيقول إن هذا مايكون من أمر المائة سنة فكيف بالألف ، فأنا كمجدد على رأس الألف بينى وبين المجدد على رأس المائة ما بين المائة والألف من تفاوت . ويصف رحلته الروحية الإيمانية فيقول : **وجدت** الله سبحانه أولاً **عين الأشياء** كما قال أرباب **التوحيد الوجودى** من متأخرى الصوفية ، ثم وجدت الله **فى** الأشياء من غير حلول وسريان ، ثم وجدته سبحانه **معها** بمعية ذاتية ، ثم رأيته **بعدها** ثم **قبلها** ، ثم رأيته سبحانه وما رأيت شيئاً ، وهو معنى **التوحيد الشهودى ،** المعبر عنه **بالفناء ،** وأول قدم توضع إلى **الولاية ،** ثم ترقيت إلى **البقاء ،** وهو ثانى قدم فى الولاية ، فرأيت الأشياء ثانياً ، فوجدت الله **عينها ، بل عين نفسى ،** ثم وجدته تعالى **فى** الأشياء ، بل **فى نفسى ،** ثم **مع** الأشياء ، بل **مع نفسى ،** ثم **قبل الأشياء ،** بل قبل نفسى ، ثم **بعد** الأشياء ، بل بعد نفسى ، **ثم رأيت الأشياء ، وما رأيت الله تعالى أصلاً ،** وهى النهاية التى هى الرجوع إلى البداية والعود إلى مرتبة العوام ، وهذا المقام هو أتم مقامات الخلق إلى الحق . وكان يقول : **العلوم والمعارف** الصادرة عنه إنما تخرج عن طور **الولاية ،** وتقتبس من **مشكاة النبوة ، وجددت** بتجديد الألف الثانى بطريقة **التبعية والوراثة ،** وهى وراء علوم العلماء ومعارف الأولياء ، وعلوم هؤلاء بالنسبة لها **قشر ،** وتلك العلوم هى **لبابها ،** ولا تخالف **الشريعة .** ويقول : **المقصود من الطريقة** ازدياد علوم الشريعة لنتخلص من البرهان إلى الكشف . ويقول فى **الصوفية :** علومهم هى علوم الشريعة ، والفرق بينهم وبين العلماء أن تلك العلوم بالنسبة إلى العلماء نظرية واستدلالية ، وبالنسبة إليهم كشفية وضرورية . ويقول فى **الشريعة :** هى متكفلة بكل السعادات الدنيوية والأخروية ، وأما الطريقة والحقيقة فهما خادمان للشريعة ، وتحصيلهما لتكميل الشريعة ، وأما **الأحوال والمواجيد** التى تظهر للصوفية فى أثناء الطريق فليست من المقاصد ، بل أوهام وخيالات لتربية أطفال الطريقة . وقال فى **القلب :** المدار على القلب ، ولا نتيجة للأعمال الصورية ، **وسلامة القلب** بعدم التفاته إلى ما سوى الله ، **وعلاج القلب** بمتابعة المصطفى عليه الصلاة والسلام . **والتوحيد** قسمان : توحيد شهودى ، وتوحيد وجودى ، والأول لابد منه ويتعلق به الفناء ، ولا يخالف العقل ولا الشرع ، بخلاف الوجودى ، فإنه يخالفهما . وأقوال المشايخ لابد أن تحمل على التوحيد الشهودى حتى لا تخالف العقل والشرع ، فالتوحيد الوجودى من مرتبة **علم اليقين ،** والشهودى فى مرتبة **عين اليقين** التى هى مقام الحيرة ، كقول الحلاج أنا الحق ، وقول أبى يزيد البسطامى سبحانى ، فإنها جميعاً فى مقام عين اليقين الذى هو

مقام الحيرة قبل الوصول إلى حق اليقين.

والوصول له طريقان: الجذبة والسلوك، أو التزكية والتصفية. والجذبة التى قبل السلوك ليست من المقاصد، والتصفية التى قبل التزكية ليست من المطالب. والجذبة التى تكون بعد تمام السلوك، والتصفية التى تكون بعد حصول التزكية، من المقاصد المطلوبة، فالجذبة والتصمية السابقة لأجل تسهيل السلوك على السالك، وبدون السلوك لاينال المطلوب، وبلا قطع المنازل لايظهر جمال المحبوب.

وللسهرندى مجموعة رسائل منها «**المبدأ والمعاد**» و«**الرسالة التهليلية**» و«**المعارف اللدنية**» و«**المكاشفات الغيبية**» و«**أدب المريدين**» و«**شرح رباعيات خواجه باقى الله**» وغيرها. إلا أن أشهر هذه الكتابات فى التصوف هى «**المكتوبات**» التى وجهها إلى مريديه يشرح فيها العقيدة والطريقة **على المذهب السنى**، وتعتبر من أكبر الإسهامات فى نشر التصوف السنى فى الهند وأفغانستان وآسيا الوسطى وفارس وتركيا، وأتباعه يقال لهم **المجتهدون**، وكتاباته يحاول فيها التوفيق بين الموحدين والقائلين بوحدة الوجود، ومذهبه الجديد فى **وحدة الشهود** هو إسهامه الذى استحدثه.

■ ■ ■

السيّارى

أبو العباس القاسم بن القاسم، من أهل مرو، **وأول من تكلم عندهم فى حقائق الأحوال**، وكان فقيهاً عالماً، كتب الحديث ورواه، ورأس **طائفة السيارية** ومات سنة ٣٤٢ هـ، وتكلم فى **علوم التوحيد** على لسان **الجبر**، وصحب أبا بكر الواسطى، **ومذهبه** مبنى على الجمع والتفرقة، فكل ماينسب إلى السالك **فهو تفرقة**، وكل مايكون من جانب الله تعالى **فهو جمع**، ومعنى ذلك أن كل مايرتبط بمكاسب العبد، وكل ما هو نتيجة قيامه بواجبات العبودية والأحوال البشرية **فهو تفرقة**، وكل ما كان من المواهب الإلهية، وكل ما كان نتيجة للطف الله تعالى وإحسانه وفضله **فهو جمع**. والعبد مضطر إلى تحصيل الجمع والتفرقة، لأن من ليست له تفرقة فليست له عبودية، ومن ليس له جمع فليست له معرفة، وعلى العبد أن يكون له التفرقة والجمع، والتفرقة هى بداية الإرادة، والجمع نهايتها، وجمع الجمع هو المقام الأعلى والأكمل للجمع، لأن الجمع مشاهدة الأشياء بواسطة الله، وحيث لايرى العارف فى مثل هذه الأحوال مؤثراً فى

العالم إلا الله، بينما جمع الجمع هو مقاء الفناء عما سوى الله، والذهول التام والانعدام الكامل، وهو مقام الاتحاد والاتصال، والعارف فى هذه الحالة يكون قد تخلص من عالم التعينات الذى هو عالم التفرقة. **ويقول السيارى:** الحق فناء ليس فيه التذاذ، ولا حظ، ولا احتظاظ. ومن عرف الله خضع له كل شىء، لأنه عاين أثر مُلكه فيه.

وما نطق أحد عن الحق إلا من كان محجوباً. والحق إذا لاحظ عبداً ببّره غيّبه عن كل مكروه فى وقته، وإذا لاحظه بسخطه أظهر عليه من الوحشة ما يهرب منه كل أحد. ومن حفظ قلبه مع الله بالصدق أجرى الله على لسانه الحكمة. والخطرة للأنبياء، وللوسوسة للأولياء، والفكرة للعوام، والعزم للفتيان. وسألوه عن معنى « **وألزمهم كلمة التقوى، وكانوا أحق بها وأهلها** »، فقال أهلهم فى الأزل للتقوى، فأظهر عليهم فى الوقت كلمة الإيمان والإخلاص. ومن أقواله: **الربوبية** نفاذ الأمر والمشيئة والتقدير والقضية: **والعبودية** معرفة المعبود والقيام بالعهود. وما أظهر الله تعالى شيئاً إلا تحت

ستره، فستر سيئة الأشياء عن الأشياء حتى لا يستوى علمان، ولا معرفتان، ولا قدرتان. وقال للمريد ناصحاً: المريد يروض نفسه بالصبر على الأوامر، واجتناب النواهى، وصحبة الصالحين، وخدمة الرفقاء، ومجالسة الفقراء، والمرء حيث وضع نفسه. كن شريف الهمة، قريب المنظر، بعيد المأخذ، عزيزاً، غريباً، فلباس الهداية للعامة، ولباس الهيبة للعارفين، ولباس الزينة لأهل الدنيا، ولباس اللقاء للأولياء، ولباس التقوى لأهل الحضور. يقول الله تعالى: **ولباس التقوى ذلك خير.** ولقد قيل لبعض الحكماء: من أين معاشك، فقال: من عند ضيّق المعاش على من شاء من غير علّة، ووسّع على من يشاء من غير علة، والأغنياء أربعة، غنى بالله، وغنى بغنى الله، والرسول ﷺ يقول الغِنَى غِنَى القلب، وغنى باليقين، يقول عليه السلام كفى باليقين غنى، وغنى لا يذكر غنى ولا فقراً، لِمَا ورد على سره من هيبة القدرة. وكان رحمه الله يقول لو جاز أن يصلى ببيت من الشعر لكان ذلك بهذا البيت:

أتمنى على الزمان محالا   أن ترى مقلتاى طلعة حر

وكان ينشد:

صبرت على اللذات حتى تولت   وألزمت نفسى صبرها فاستمرت
وما النفس إلا حيث يجعلها الفتى   فإن أطمعت تاقت وإلا سَلت
وكانت على الأيام نفسى عزيزة   فلما رأت عزمى على الذل ذلت

السيوطى (جلال الدين)

كان من العلماء العاملين الصادقين، وله المكاشفات والعلوم والمصنفات، وقيل مصنفاته بلغت **أربعمائة وستين**، وقال عن نفسه: **رزقنى الله تعالى التبحر فى سبعة** علوم هى: التفسير، والفقه، والحديث، والنحو، والمعانى، والبيان، والبديع، على طريقة أهل الفلسفات، وبلغ مرتبة الاجتهاد المطلق، ولما بلغ سن الأربعين، أخذ فى التجرد والعبادة، والانقطاع إلى الله، والإعراض عن الدنيا وأهلها، حتى كأنه لم يعرف أحداً منهم، وشرع فى تحرير مؤلفاته، وترك الإفتاء والتدريس. وله كتاب فى الدفاع عن ابن عربى سماه «**تنبيه الغبى فى تبرئه ابن العربى**» ويذكر أنه قد قال لصوفية الخانقاه البيبرسية: لستم بصوفية، وإنما **الصوفى** من يتخلق بأخلاق الأولياء، ومن يأكل المعلوم من غير تَخَلُّقٍ بأخلاقهم أَكَلَ حراماً». وتسبب له ذلك أن قام عليه هؤلاء، وسعوا فى قتله عند السلطان، فكان يقول: حسبنا الله ونعم الوكيل. وما كان يدعو على من آذاه، ولا يقابله بسوء. ومما انفرد به من المؤلفات كتاب «**المعانى الدقيقة فى إدراك الحقيقة**» وكتاب «**تزيين الأرائك فى إرسال نبينا إلى الملائك**» وكتاب «**أنموذج اللبيب فى خصائص الحبيب**». ومات سنة ٩١١هـ، ودفن بحوش طوسون خارج القرافة **بمصر**، وقبره ظاهر يزار. وكان شيخه فى التصوف **محمد المغربى الشاذلى**.

■ ■ ■

إبن سينا

أبو على الحسين بن عبدالله **بن سينا**، وكتبه فى الفلسفة والطب والمنطق معروفة ومشهورة، وصيته ذائع بين الأوروبيين لاستيعابه الكامل لأرسطو وفضله فى ترجمته إليهم، ومن مؤلفاته **كتاب الشفاء، وكتاب النجاة، والإنصاف، ومنطق المشرقين، والرسالة الأضحوية فى أمر المعاد، وعيون الحكمة، ورسالة فى ماهية العشق، وأسباب حدوث الحروف، ورسالة فى الحدود، ورسالة فى أقسام العلوم العقلية، وفى إثبات النبوات، ورسالة حى بن يقظان، ورسالة الطير، وكتاب المباحثات، والتعليقات، والقانون**، ومنها أيضاً كتابه **الإشارات والتنبيهات** ويتضمن فى النمطين الثامن والتاسع بحثاً فى **التصوف وأحوال العارفين ومقاماتهم**، وقيل إن ماكتبه ابن سينا فى ذلك يفوق بكثير ما كتبه أغلب أكابر الصوفية، مع أن ابن سينا لم

يكن من الصوفية ، وكانت حياته حياة ملذات فى الطعام والشراب والجماع حتى أصيب منها بداء القولونج ومات به سنة ٤٢٨ هـ عن ثمان وخمسين سنة .

وابن سينا أصله من بلخ ، وهاجر أبوه إلى بخارى وفيها نشأ وتعلّم ، وكان موته بهمذان ، ويقول فى سيرته الذاتية إنه انتهى من العلوم كلها فى الثامنة عشرة من عمره ، وانخرط فى السياسة وتقلبت به الأحوال واستوزره الأمراء وكاد يقتل مرة ، ونُهبت كتبه . ويشكل ما كتبه فى التصوف النظرى استكمالاً لمذهبه العقلى . وهو يقول إن ذوى الخير والكمال يكونون على حال من السعادة والبهجة بإدراكهم وتعشقهم وشوقهم للخير والكمال . **والعارفون** (أى الصوفية) من هؤلاء ، وهم الذين تجردوا من كل الشوائب المادية ، وخلصوا إلى عالم القدس ، ولهم أمور خفية هى مشاهدات تعجز الأوهام عن إدراكها ، وتكّل الألسنة عن بيانها ، وابتهاجهم بما لاعين رأت ولا أذن سمعت ، ولهم أمور ظاهرة عنهم هى آثار كمال وإكمال ، تظهر من أقوالهم وأفعالهم ، ويستنكرها منهم من ينكرها عليهم . ويرد ابن سينا سبب وصولهم إلى هذه المرتبة إلى التجرد عن الشهوات والانصراف إلى الحق ، ويصور ذلك بقصته لمن أسماهما **سلامان وأبسال** ، وهما رمزان للنفس الشهوانية والنفس الناطقة الكاملة والصراع الأزلى بينهما . والعارفون طلاّب الحق ، وطالب الشيء يبتدىء بإعراض عما يعتقد أنه يبعده عن مطلوبه ، ثم بإقبال على ما يعتقد أنه يقرّبه إليه ، وينتهى عند وجدان المطلوب . وطالب الحق يلزمه فى الابتداء أن يعرض عما سوى الحق أى متاع الدنيا ، وهو وإن كان فى بدنه إلا أنه كما لو كان قد خلع بدنه . وطالب الحق عند ابن سينا إما **زاهد** وإما **عابد** وإما **عارف** ، **والزاهد** هو المُعرض عن متاع الدنيا ، وعمله عمل التاجر الذى يشترى متاع الآخرة بمتاع الدنيا ، **والعابد** هو المواظب على العبادات من قيام وصيام ونحو ذلك ، كأن يعمل فى الدنيا لأجرة يأخذها فى الآخرة . وأما **العارف** فهو المنصرف بفكره إلى قدس الجبروت ويستديم لنور الحق فى سره ، **وزهده** لتنزهٍ عما يشغل سره عن الحق ، **وعبادته** رياضة لهممه وقُوىَ نفسه ليجرها بالتعويد عن جَناب الغرور إلى جناب الحق فتصير مسالمة للسر الباطن حينما يستجلى الحق ، فيخلص السر إلى الشروق الساطع ويصير ذلك فيه ملكة مستقرة فكلما شاء السر أطّلع إلى نور الحق . وأولى درجات العارفين **الإرادة** ، ومبدؤها تصور الكمال الذاتى والتصديق بوجوده تصديقاً جازماً بسكون نفس ، سواء كان يقينياً مستفاداً من قياس برهانى ، أو كان إيماناً مستفاداً من قبول الأئمة الهادين إلى الله تعالى ، فإن كلاًّ منها اعتقاد يقتضى تحريك صاحبه إلى العالم القدسى ، وغاية ذلك نيل روح الاتصال بذلك العالم .

وما دامت هذه هى درجة العارف فهو **مريد**، والمريد يحتاج إلى **رياضة**، ورياضة النفس تنصرف إلى **أغراض**، وهى نهى النفس عن هواها وصرفها إلى طاعة مولاها، وذلك بالالتفات إلى الحق وحده لتنطع إليه وتنصرف عما عداه، ويتوقف ذلك على حصول الاستعداد له وزوال الموانع الداخلية والخارجية وتطويع النفس الأمارة بالسوء لسلطان النفس المطمئنة حتى يتحول التخيل عن الجانب السفلى إلى الجانب القدسى، ثم تلطيف السر للتنبه بمعنى تهيئة باطن النفس كى تتمثل فيه الصور العقلية بسرعة، وينفعل عن الأمور الإلهية المهيجة للشوق والوجد بسهولة. وتعين المريد فى ذلك عبادته المقرونة بالفكر، والألحان التى ترقق النفس، والكلام الواعظ الذى يفيد التصديق بما ينبغى أن يكون عليه السلوك، خصوصاً إذا اقترن ذلك بأن يكون القائل ذكياً، بليغ العبارة، رخيم الصوت. ويعين على تلطيف السر للتنبه الفكر اللطيف، والعشق العفيف الذى يجعل النفس لينة رقيقة ذات وجد، معرضة عما سوى المعشوق ولا سلطان للشهوة عليها. فإذا ما **ترقى** المريد فى رياضته حتى يبلغ حداً معيناً عنّت له **خلسات** من اطلاع نور الحق، لذيذة كأنها **بروق** تومض إليه ثم تخمد عنه، وهو المسمى عندهم **أوقاتاً**. وكل وقت يكتنفه وجدان، **وجد إليه، ووجد عليه**، لأن الأول حزن فى استبطاء الوجد، والآخر أسف على فواته؛ ثم تكثر عليه **الغواشى** إذا أمعن فى الارتياض؛ ثم يوغل فى ذلك حتى تغشاه فى غير الارتياض، فكلما لمح منها شيئاً عرج منها إلى جناب القدس، يتذكر من أمره أمراً، فيغشاه غاش، **فيكاد يرى الحق فى كل شىء**. ولعله إلى هذا الحد تستعلى عليه غواشيه ويزول هو عن سكينته، فيؤثر كتمان ما يرد عليه ويستعمل التلبيس فيه لاستنكافه عن الترائى بالكمال، إلا أن الرياضة قد تبلغ به بعد ذلك مبلغاً بحيث يصير المخطوف مألوفاً، والوميض شهاباً بيّنا، فتحصل له معارف مستقرة كأنها الصحبة المستمرة، وينقلب وقته إلى سكينة، ويستمتع فيها ببهجته، فإذا زايلته أسف لمزايلتها؛ فإذا تغلغل فى ذلك أيضاً فإنه يصير فى هذا المقام وكأنه الحاضر الغائب، أو الغائب الحاضر؛ ثم يتدرج إلى أن تكون له هذه الحالة متى يشاء؛ ثم يتقدم فى الرتبة فلا يتوقف أمره إلى مشيئته بل كلما لاحظ شيئاً لاحظ غيره، وإن لم تكن ملاحظته للاعتبار، فيسنح له تعريج عن عالم الزور إلى عالم الحق يستقر به، فإذا تمت رياضته واستغنى عنها لبلوغه مطلوبه وهو الاتصال الدائم بالحق، صار سره مرآة مجلوة محاذياً بها شطر الحق، ودّرت عليه اللذات العُلى، وفرح بنفسه لما بها من أثر الحق، وكان له نظر إلى الحق، ونظر إلى نفسه، وكان بعد متردداً بسبب اتجاه نظره مرة إلى الحق ومرة إلى ذاته المبتهجة بالحق؛ ثم إنه ليغيب عن

نفسه فيلحظ جناب القدس فقط ، أى لا يرى ماسوى الله ، وهنا تتم الغيبة عن النفس ، وإن لحظ نفسه فمن حيث هى لاحظة لا من حيث هى بزينتها ، وهناك يحق الوصول ، أى أن ملاحظته لنفسه بالمجاز وليس بالحقيقة لأنه متوجه بكليته إلى الحق . وكأن درجات المريد كلها **تسع درجات** ، **الثلاثة الأولى** منها تشتمل على مراتب بداية السلوك ، وهى أول الاتصال المسمى بالوقت ، وتمكنه بحيث يحصل فى غير حالات الارتياض ، واستقراره بحيث يزول معه الاستقرار . **والثلاثة التى بعدها** تشتمل على المراتب الوسطى ، وهى ازدياد الاتصال الذى عبر عنه بصيرورة الوقت سكينة ، وتمكن هذه الحال حتى يلتبس أثر الحصول بأثر عدم الحصول ، واستقرارها بحيث يحصل متى يشاء ، لا فى وقت دون وقت . **والثلاثة الأخيرة** تشتمل على مراتب المنتهى ، وهى حصول الاتصال مع عدم المشيئة ، واستقراره مع عدم الرياضة ، وثبوته مع عدم ملاحظة النفس . ثم إن ابن سينا بعد أن فرغ من درجات السلوك وانتهى إلى درجات الوصول ، أراد أن ينبه على تقلبات جميع الدرجات قبل درجة الوصول ، فبدأ **بالزهد** الذى هو تنزه عما يشغل عن الحق ، وذكر أنه **شاغل** ، وإذن الزهد مؤد إلى ما يحترز منه ، ثم عقّب **بالعبادة** التى هى تطويع النفس الأمّارة للنفس المطمئنة لتتقوى المطمئنة على أفعالها الخاصة بإعانة الأمارة إياها على ذلك ، وذكر أيضاً أنه **عجز** ، أى اعتداد النفس بما يطيعهاة عجز ، وإذن العبادة مؤدية أيضاً إلى ما يحترز منها ، ثم عقّب بآخر درجات السلوك المنتهية إلى الوصول ، فإن التنبيه على نقصانها يتضمن التنبيه على نقصان ما قبلها ، وذكر ان الابتهاج بما يحصل لذات المبتهج وإن كان بالحق تيه وحيرة ، فإنه يقتضى تردداً من جانب إلى جانب يقابله ، وابتغى بذلك الهداية عن التحير . والوقوف إذن فى هذه الدرجة من السلوك هو أيضاً يتأدّى إلى ما يحترز عنه ؛ ثم ذكر أن الخلاص من جميع ذلك بالوصول الأخير الذى هو الإقبال بالكلية على الحق . وينتهى ابن سينا إلى تقرير حقيقة **العرفان** ، فيقول إنه مبتدىء من تفريق ، ونقض ، وترك ورفض ، فأما **التفريق** من ذات العارف وما عسى أن يشغله عن الحق ، وأما **النقض** فاطرّاح الشواغل ، وأما **الترك** فالتخلص من الشواغل ابتغاء توخى الكمال لأجل ذاته ، وأما **الرفض** فهو أن يرفض ذاته بالكلية . وتلك **درجات التزكية** ، ويتلوها **بدرجات التحلية** ، وبيانها بالإجمال أن العارف إذا انقطع عن نفسه واتصل بالحق رأى كل قدرة مستغرقة فى قدرته ، وكل علم مستغرقاً فى علمه ، وكل إرادة مستغرقة فى إرادته و بل كل وجود ، وكل كمال فهو صادر عنه وفائض من لدنّه ، فيصير الحق حينئذ بصره الذى به يبصر ، وسمعه الذى به يسمع ، وقدرته التى بها يفعل ، وعلمه الذى به يعلم ،

ووجوده الذى به يوجد، فصار العارف حينئذ متخلقاً بأخلاق الله تعالى بالحقيقة، ويعبر ابن سينا عن ذلك بقوله: **العرفان ممعن فى جميع الصفات**، ومعناه جمع صفات الحق للذات المريدة بالصدق. ثم إن المريد يعاين هذه الصفات، متكثرة بالقياس إلى الكثرة، ومتحدة بالقياس إلى مبدئها الواحد، فإن علمه الذاتى تعالى هو بعينه قدرته الذاتية، وهى بعينها إرادته، إذ لا وجود ذاتياً لغيره، فلا صفات مغايرة للذات، ولا ذات موضوعة بالصفحات، بل الكل شىء واحد، كما قال عزّ من قائل: **« إنما الله إله واحد »**، فهو لا شىء غيره، وهناك لا يبقى واصف ولا موصوف، ولا سالك ولا مسلوك، ولا عارف ولا معروف، وهو **مقام الوقوف**.

ويزيد ابن سينا فى تعريف **العارف** فيقول: **العرفان** حالة **العارف** بالقياس إلى **المعروف**، فمن كان غرضه من العرفان نفس العرفان فهو ليس من **الموحدين**، لأنه يريد مع الحق شيئاً غيره، وهذه حال المتبجج بزينة ذاته وإن كان بالحق. وأما من عرف الحق وغاب عن ذاته، فهو غائب لا محالة عن العرفان الذى هو حالة لذاته، فهو قد وجد العرفان كأنه لم يجده، بل يجد المعروف فقط، وهو الخائض لجهة الوصول. وهناك درجات هى **درجات التحلية بالأمور الوجودية** التى هى النعوت الإلهية، وهى ليست بأقل من درجات ما قبله، أى درجات التزكية من الأمور الخلقية التى تعود إلى الأوصاف العدمية، وذلك لأن الإلهيات محيطة غير متناهية، والخلقيات محاط بها متناهية، وإلى هذا يقول الله تعالى: **قل لو كان البحر مداداً لكلمات ربى لنفد البحر قبل أن تنفد كلمات ربى**؛ فالارتقاء فى تلك الدرجات سلوك إلى الله، وفى هذه سلوك فى الله، وينتهى السلوكان بالفناء فى التوحيد. **والعبارة عن هذه الدرجات غير ممكنة، لأن العبارات موضوعة للمعانى التى يتصورها أهل اللغات، أما التى لا يصل إليها إلا غائب عن ذاته، فضلاً عن قوى بدنه، فليس يمكن أن يوضع لها ألفاظ، فضلاً عن أن يعبر عنها**. وكما أن المعقولات لا تدرك بالأوهام، والموهومات لا تدرك بالخيالات، والمتخيلات لا تدرك بالحواس، كذلك ما من شأنه أن يعاين **عين اليقين** فلا يمكن أن يدرك **بعلم اليقين**، فالواجب على من يريد ذلك أن يجتهد فى الوصول إليه بالعيان دون أن يطلبه بالبرهان.

ثم يصف ابن سينا **أخلاق العارفين** بعد أن تناول درجاتهم فيقول إن العارف رجل هش بش، أى طلق الوجه، طيب، بسام، وله أحوال لا يحتمل فيها الإحساس بشاغل يرد عليه من خارج أو من جهة نفسه يمنعه من الوصول بالحق، ولا يعنيه

التجسس والتحسس ، ولا يستهويه الغضب ، وإذا أمر بالمعروف أمر برفق ، وهو شجاع ، صفاح للذنوب. ويختلف العارفون فى الهمم والخواطر. وقد يذهل العارف فى حال اتصاله بعالم القدس فهو فى حكم من لا يكلف ، والناس لا يعرفون هذه الحقائق عن العارفين ، وهم أعداء ما يجهلون ، والله سبحانه ربما كان ذلك منه لأنه سبحانه يجل جنابه أن يكون شريعة لكل وارد ، أو يطلع عليه الناس الواحد بعد الواحد. رحم الله ابن سينا ، ورحم نصر الدين الطوسى الذى توفر على شرح أقواله فهدانا بها.

■ ■ ■

ش

الشاذلى (أبو الحسن)

شيخ الطائفة الشاذلية على بن عبد الله بن عبد الجبار، واسم الشهرة هو **الشاذلى**، نسبة إلى **شاذلة** إحدى قرى تونس التى هاجر إليها بعد أن غادر قريته غمارة فى المغرب . والشاذلى **ولد** سنة ٥٩٣ هـ، واتخذ **الإسكندرية مقراً ، وفيها تزوج واقتنى الضياع وكان له الولد والأهل والأحباب ، ومات** سنة ٦٥٦ هـ فى طريقه إلى الحج بالصحراء بين قنا والقصير **ودفن حيث مات** ، وقد استخلف من بعده **أبا العباس المرسى**. وتلقى الشاذلى علوم الطريقة على الشيخ **عبدالسلام بن مشيش**، ومقامه فى المغرب كمقام الشافعى بمصر، وكان يقول له : إلزم الطهارة من الشرك ، كلما أحدّثت تطهرت من دنس حب الدنيا ، وكلما ملت إلى شهوة أصلحت بالتوبة ما أفسدت بالهوى أو كدت . وعليك بمحبة الله على التوقير والنزاهة ، **وأدمنْ** الشرب بكأسها مع السكر والصحو، كلما أفقت أو تيقظت شربت ، حيث يكون سكرك وصحوك به ، وحيث تغيب بجماله عن المحبة والشراب ، والشرب والكأس ، بما يبدو لك من نور جماله ، وقدس جلاله .

وكان الشاذلى يأخذ **زينته** عند كل مسجد ، ويتحلى دائماً **بالثياب** الحسنة ، ويعرض عن لبس زى ينادى على سر اللابس بالإفشاء، ويفصح عن طريقه بالإبداء ، ومَنْ لبس الزى متعمداً فقد ادّعى ، وكان يقول : إعرف الله وكن كيف شئت ، ومن عرف الله فلا عليه أيضاً **إنْ أكل** هنيئاً مريئاً . وكان يأمر غلامه فيقول :

يا بنى برّد **الماء**، فإنك إذا شربت الماء السُخْن ففلت الحمد لله تقولها بكزازة، وإذا شربت الماء البارد فقلت الحمد لله، استجاب كل عضو منك بالحمد لله. وكان الشاذلى يركب **الخيل الجياد** ويقول: لا تسرف بترك الدنيا فتغشاك ظلمتها، أو تنحل أعضاؤك لها فترجع لمعانقتها بعد الخروج منها. وكان فى المواسم يحتفل أيما احتفال، بالمواكب والأعلام والصاجات. وكان يفول عن طريقته **الشاذلية:** ليس هذا الطريق بالرهبانية، ولا بأكل الشعير والنخالة، ولا ببقية الصناعة، وإنما هو بالصبر على الأوامر، واليقين فى الهداية. وقيل إنه جاهد فى **موقعة المنصورة** بىن المسلمين بزعامة الظاهر بيبرس، والفرنجة بزعامة لويس التاسع ملك فرنسا، ورغم أن الشاذلى كان مسناً قد كف بصره فإنه كان فى مقدمة المجاهدين. وكان يقول: من ثبتت ولايته من الله، لا يكره الموت. وكان يكره من المريد أن يكون متعطلاً، وأن يسأل الناس، وكان يقول: لكل ولى حجاب، وأنا حجابى الأسباب. وكان الشاذلى يشارك فى الزرع والحرث والحصاد، ويربى الثيران ويفول: إن أردت أن تكون من أصحابى، **فلا تسأل أحداً شيئاً**، وإن أتاك شىء من غير مسألة فلا تفبله. وإن كنت مقتدياً بالرسول فى الأخذ، فكن مقتدياً به كيف يأخذ. كان ﷺ لا يأخذ شيئاً إلا ليثيب من يعطيه ويعوضه عليه، فإن تطهرت نفسك وتقدست هكذا، فاقبل، وإلاّ فلا. وكان يفول: نوديت **لا تختر مع الله شيئاً**، وإن اخترت فاختر العبودية لله، إقتداء برسول الله ﷺ حيث قال «عبداً رسولاً»، وإن كان ولابد أن تختار، فاختر أن لا تختار، وفِرْ من ذلك المختار إلى اختيار الله تعالى. ويستطرد فيقول: وانتبهت فسمعت إن الله اختار لك أن تقول: اللهم وسع علىّ رزقى من دنياى، ولا تحجبنى عن أخراى، واجعل مفامى عندك دائماً بين يديك، وناظراً منك إليك، وأرنى وجهك، وورانى عن الرؤية، وعن كل شىء دونك، وارفع البين فيما بينى وبينك، يا مَنْ هو الأول والآخر، والظاهر والباطن، وهو بكل شىء عليم.

وكان الشاذلى يسعى فى مصالح الناس، ويستشفعون به من أجل معايشهم، وكان يقول: إذا توجهت لشىء من عمل الدنيا والآخرة فقل: يا قوى، يا عزيز، يا عليم، يا قدير، يا سميع، يا بصير. وكان يقول: إذا ورد عليك مزيد من الدنيا أو الآخرة فقل: حسبنا الله، سيؤتينا الله من فضله ورسوله، إنا إلى الله راغبون. ويقول: إذا تداين أحدكم، فليتوجه بقلبه إلى الله تعالى، ويتداين على الله تعالى، فإن كل ما تداينه العبد على الله تعالى، فعلى الله أداؤه. وكان يقول: رأيت فى النوم صائحاً

يصيح في جو السماء: إنما تساق لرزقك، أو لأجلك، أو لما يقضى الله به عليك، أو بك، أو لك، **وهى خمسة لا سادس لها.** ويقول: إياك أن تقف مع الخلق، بل انفِ المضار والمنافع عنهم، لأنها ليست منهم، واشهدها من الله فيهم، وفر إلى الله منهم، بشهود القدر الجارى عليك وعليهم، أو لك ولهم، ولا تخف خوفاً تغفل به عن الله تعالى، وترد القدر إليهم، تهلك.

وكان رضى الله عنه يقول: مريد واحد يصلح أن يكون محلاً لأسرارك، خير من ألف مريد لا يكونون محلاً لوضع أسرارك. ويقول: **التصوف** تدريب النفس على العبودية، وردها لأحكام الربوبية. **والصوفى** يرى وجوده كالهباء فى الهواء، غير موجود ولا معدوم، حسب ما هو عليه فى علم الله. **والحقائق** هى المعانى القائمة فى القلوب، وما اتضح لها وانكشف من الغيوب، وهى منح من الله تعالى وكرامات، وبها وصلوا إلى البر والطاعات. ويقول: **العارف** بالله تعالى لا تنقصه خطوط النفس، لأنه بالله تعالى فيما يأخذ وفيما يترك، إلا إن كانت الحظوظ معاص. وإذا ترك العارف الذكر على وجه الغفلة نفساً أو نفسين، قيّض الله له تعالى شيطاناً، فهو له قرين، وأما غير العارف فيسامح بمثل ذلك، ولا يؤاخذ إلا فى مثل درجة أو درجتين، أو زمن أو زمنين، أو ساعة أو ساعتين على حسب المراتب. ويقول: من الأولياء من يسكر من شهود الكأس ولم يذق بعد شيئاً، فما ظنك بعد ذوق الشراب وبعد الرى؟ واعلم أن الرى قّل من يفهم المراد به، فإنه مزج الأوصاف بالأوصاف، والأخلاق بالأخلاق، والأنوار بالأنوار، والأسماء بالأسماء، والنعوت بالنعوت، والأفعال بالأفعال، وأما الشرب فهو سقياً القلب والأوصال والعروق من هذا الشراب حتى يسكر، وأما الكأس فهو معرفة الحق. ويكون الشرب بالتدريب بعد التذويب والتهذيب، فيسقى كل على قدره، فمنهم من يسقى بغير واسطة، والله سبحانه يتولى ذلك منه له، ومنهم من يسقى من جهة الوسائط، كالملائكة والعلماء والأكابر من المقربين، ومنهم من يسكر بشهود الكأس ولم يذق بعد شيئاً، فما ظنك بعد الذوق، وبعد بالشرب، وبعد بالرى، وبعد بالسكر بالمشروب؟

ولما سئل رضى الله عنه: لِماَ لم تضع الكتب فى الدلالة على الله تعالى وعلوم القوم قال: **كتبى أصحابى.** ومن وصاياه: إياك أيها الأخ أن تصغى إلى الواقعين فى هذه الطائفة، المستهزئين بهم، لئلا تسقط من عين الله، وتستوجب المقتى من الله، فإن هؤلاء القوم جلسوا مع الله على حقيقة الصدق وإخلاص الوفاء، ومراقبة الأنفاس مع

الله ، قد سلّموا قيادهم إليه ، وألفوا أنفسهم سلماً بين يديه ، تركوا الانتصار لنفوسهم حياءً من ربوبيته ، واكتفاء بقيوميته ، فقام لهم بأوفى مايقومون لأنفسهم ، وكان هو المحارب عنهم لمن حاربهم ، والمغالب لمن غالبهم . وأصحاب الشاذلى وفدوا معه من تونس ومنهم **أبو العباس المرسى** ، ولما توفى المرسى خلفه على الطريقة أبرز تلاميذه من المصريين ــ **ابن عطاء الله السكندرى** . وتصوف الشاذلى والمرسى وابن عطاء الله وهم أركان الطريقة الشاذلية كان تصوفاً **سنياً** ، ابتعد عن الفلسفة ، وسلم من تيار مدرسة ابن عربى ومذهبها فى وحدة الوجود ، وبقدر ابتعاد الأقطاب الثلاثة عن ابن عربى ومن نحا نحوه فقد اقتربوا كثيراً من الغزالى وطلبوا من مريديهم أن يتخذوه قدوة . ويقول الشاذلى : إذا عرضت لكم إلى الله حاجة فتوسلوا إليه بالإمام أبى حامد الغزالى . وكتاب **الإحياء** للغزالى يورث العلم ، وكتاب **قوت القلوب** للمكى يورث النور . وانتشرت الشاذلية فى العالم الإسلامى لما فيها من معايشة للواقع ، وبلغت الأندلس وكان أبرز ممثليها هناك **ابن عباد الرندى** المتوفى سنة ٧٩٠هـ والذى تولى شرح الحِكَم العطائية ، وامتد تأثيرها إلى جنوب شرقى آسيا وغرب إفريقيا وتركيا والبلاد العربية .

■ ■ ■

الشاذلى

محمد أبو المواهب له مؤلفات كثيرة فى العلوم اللدنّية ، أهمها كتابه **قوانين حكم الإشراق** يشرح فيه للمريدين الأحوال والمقامات والسلوك . وكانت له خلوة فوق سطح الأزهر ، ويغلب عليه سكر الحال ، وله الكثير من **الموشحات الربانية** التى كانت تنشد فى الموالد والمساجد والاجتماعات على رءوس العلماء والأخيار فيتمايلون طرباً . يقول : تفاخر **الغنى والفقر** ، فقال الغنى : أنا وصف الرب الكريم ، فمن أنت يا حقير ، فقال له الفقير : لولا وصفى ما تميز وصفك ، ولولا تواضعى ما رفع قدرك ، وأنا وصفى وُسِمَ بذل العبودية ، وأنت وصفك نازع الربوبية .

وللشاذلى **لطائف فى التفسير** ، فقال فى معنى قول الصوفية **إن للربوبية سراً** ، لو ظهر السر لعطل نور الشريعة ، والمراد به الفناء ، وإعطاء سر التكوين ، وأن العبد يفعل ما يشاء ، يعنى لو أعطى العبد ذلك لتعطلت أفعال الشريعة كلها ، وبطل القول بالكسب ، واختل النظام . وقال فى قول بعضهم **يصل الولى إلى حد يسقط عنه**

التكليف، المراد به سقوط كلفه الأعمال ومشقتها من باب «**أرحنا يا بلال**». وقال في معنى قول عمر بن الفارض: **وكل بلا أيوب بعض بليتي**، أي لأن بلاء أيوب عليه السلام في الجسد دون الروح، وبلاء العارف فيهما معاً. وقال في معنى قول بعضهم: **مقام النبوة في برزخ فويق الرسول ودون الولي**، يعني أن **مقام النبوة** يعطي الأخذ عن الله بواسطة وحي الله، **ومقام الرسالة** يعطي تبليغ ما أمره الله به للعباد، **ومقام الولاية** الخاصة يعطي الأخذ عن الله بالله من الوجه الخاص. وهذه الحقائق الثلاث كلها موجودة فيمن كان رسولاً، ومن المحال أن يعتقد أحد من أهل الله تعالى تفضيل الولاية على النبوة والرسالة. وقال في معنى قول محي الدين بن عربي:

توضأ بماء الغيب إن كنت ذا سر	وإلا تيمم بالصعيد وبالصخر
وقدم إماما كنت أنت إمامه	وصل صلاة الفجر في أول العصر
فهذه صلاة العارفين بربهم	فإن كنت منهم فانضح البر بالبحر

المراد **بالوضوء طهارة أعضاء الصفات القلبية من النجاسات المعنوية؛ وماء الغيب** هو خلوص التوحيد، فإن لم يخلص لك بالعيان فتطهر بصعيد البرهان؛ **وقدم إماماً كان إمامك** في يوم الخطاب ثم صرت أنت إمامه بعد سدل الحجاب، **وصل صلاة الفجر** التي هي صلاة نهار كشف المشهود بعد حجاب ظلمة الوجود في أول العصر الذي هو أول زمان انفجار فجرك، ولا تتأخر لآخر دورك، لأن الحكم للوقت والتأخير له مقت، **فهذه صلاة العارفين بربهم**، وهم الذين لم يخرجوا عن متابعة الأحكام الشرعية في جميع مشاهدة الربوبية، **فإن كنت منهم فانضح**، يعني اغسل بماء بحر الحقيقة ما تدنس من بَر الشريعة. وقال في قولهم: **النبي مشرّع للعموم، والولي مشرّع للخصوص**، أي النبي مبيّن للعوام برسالته، ومبين للخواص بولايته، لا أن الولي يشرع الأحكام الشرعية، فإنه ليس له ذلك، وإنما له تبيين الحقائق الكشفية بطريق الولاء والوراثة للأنبياء عليهم الصلاة والسلام، كما أن الولي يبين أجمل ما في السنة، والنبي يبين أجمل ما في القرآن. وقال في إنكار بعض المنكرين على قول بعض العارفين **إن الخضر مقام لا إنسان**، لا إنكار، لأن الولي المحبوب يُعطى من الكرامات ما للخضر من المعجزات، وذلك عند الوراثة، والوراثة الخضرية قبل الوراثة الموسوية، ولاشك أن الوراثة مقام. وقال في إنكار بعضهم على من قال: **حدثني قلبي عن ربي**، لا إنكار، لأن المراد أخبرني قلبي عن ربي من طريق الإلهام الذي هو وحي

الأولياء، وهو دون وحى الأنبياء عليهم الصلاة والسلام. وأيضاً لا إنكار على من قال: **كلمنى الله تعالى كما كلم موسى**. ويقول مخاطباً السالكين: لا تجلسوا العارفين إلا بالأدب. ويقول: من لم تؤدبه الصوفية فليس بأديب. ويقول: التعبد مفتاح باب الخير، فمن فاتته الأوراد فى بدايته فقد حرم الواردات فى نهايته، فللأعمال أنوار كما أن للمعارف أسرار، فعليك أيها السالك بالدوام على الأوراد. ويقول فى الاصطلاح الصوفى «**فلان عنده استعداد**» أى صَقَلَ مرآة قلبه بأنواع المجاهدات التى بسببها يكون الجلاء الموجب لتجلى صور الحقائق فى القلب الصافى كما هو معلوم حسا فى المحبين، وأما فى المحبوبين فقلوبهم منوّرة مصقولة اختصاصاً إلهياً. وكان يقول: ما ورد عليك هو ما ظهر منك لك، وما جلى عليك هو منك إليك، مثال ذلك النواة، إذا زرعت فكل شيء ورد عليها من ورقها وثمرها كان فيها مودعاً بالقوة، كذلك أنت أيها الإنسان، لا يرد عليك قط خارجٌ منك من غيرك، بل الوارد عليك فيك غيباً، ثم ظهر لك شهادةً لتعرف مقدار ما أنعم الله عليك. ويقول: من وقف مع عاداته وعلومه، ولم يظن أن فوق علمه علوماً فهو محروم من جميع المواهب، حتى من أهل مذهبه، ويسمى هذا **بالجاهل المركب**، فإياك والجدال مع مثل هذا لمحاولة إقناعه، فإنه لا يرجع، وتتسع الهوة بينكما، وربما صار يستفتى عليك وينسبك إلى أمور أنت برىء منها، فكف عنه ما دام يرى نفسه عليك، فإن الجاهل لا ينصف الحق أبداً، لعدم ذوقه لحاله، إلا أن يتداركه الله تعالى بالتسليم فيؤمن أن فوق كل ذى علم عليماً. ويقول فى تفسير قول بعضهم **ما فعلت كذا إلا بإذن من الله**، مراده بالإذن نور يقع بالقلب، ينشرح له الصدر، ولا يعنى ذلك أن كل ما يقع للفقير حق، لأنه قد يكون على غير الشرع. ويعرّف **الاستاذ** فيقول: هو من كمّل الدوائر وانطوى فيه علم الأوائل والأواخر، ويسمى بالعالم المطلق، فكل استاذ شيخ ولا عكس. وينصح الشاذلى المريدين فيقول: إياكم وصحبة الأحداث والنساء والأمراء والسلطان وأرباب الدنيا الذين لا خير فيهم. ويقول: من صحب ظالماً فهو ظالم. ويقول: اختلفوا أى الذكر أفضل، السرى أو الجهرى، والجهرى أفضل إن غلبت عليه القسوة من أهل البداية، والذكر سراً أنفع فى الجماعة. ولقد اختار أهل التعريف ذكر **الله الله** دون لا إله إلا الله مخافة أن يستخدموا لا فينفون الإلهية وهم يريدون إثباتها، وأنا أقول أن من غلبت عليه الأهواء فذكر **لا إله إلا الله** أنفع له، ومن خلص من الأهواء وذكر الجلالة فقط أى **الله** أنفع له. ويقول: ذكر أهل الحضرة **الحمد لله، واستغفر الله، ولا حول ولا قوة إلا بالله**، وزدت أنا عليهم آية من كتاب الله لتكون حرزاً عليهم، لأن كل أحد يحب دوام

النعمة عليه، وهى قوله: **ما شاء الله، لا قوة إلا بالله**، وكانت تلك هجير الإمام مالك فكان يقولها دوماً حتى كتبها على باب داره، وقال جنة الرجل داره، والله يقول: ولولا إذ دخلت جنتك قلت ما شاء الله، لا قوة إلا بالله، أى لو قالها الرجل لسلمت جنته من الآفات. ويقول الشاذلى: سألت الله أن يلهمنى حمداً أحمده فأعلى على لسانى الوارد فى الحال: **الحمد لله، ولله الحمد بكل المحامد، على كل المحامد، بجميع المدائح المحمودة، فى جميع الحمد والمدح، بما يجب للحمد لك، حمداً أزلياً، لا أول لبداية حمده، غير حمده، بحمده، لحمده، فى جميع المحامد الأزلية والأبدية، بلسان جمع الحمد وفَرقه، فى جمع المحمود بذاته لذاته، وبصفاته لصفاته، وبفعله على فعله.**

■ ■ ■

الشاذلى

محمد المغربى، كان يرفض أن يؤلف كتباً فى الطريق بدعوى أنه لم يعد هناك من لديه الاستعداد أن يخرج عن ماله وعياله ليتصوف. ويقول فى **التربية الصوفية** إنها نوعان: **تربية سوقية** يتعلم بها المريد كلمات هذيانية فى الفناء والبقاء وأحوال القوم، **وتربية بيتية** تشارك بها جميع أهل البلاد فى سائر أقطار الأرض فى بلائهم. ويقول: السالكون ثلاثة: **جلالى**، وهو إلى الشريعة أميل، **وجمالى**، وهو إلى الحقيقة أميل، **وكمالى**، جامع لهما على حد سواء، وهو منهما أكمل وأفضل. ويقول: كفى شرفاً بعلم القوم قول موسى للخضر عليهما السلام: هل اتبعك على أن تعلمنى مما علمت رشداً، وهو أعظم دليل وجوب **طلب علم الحقيقة**، كما يجب طلب **علم الشريعة**. وكان يقول: **ابن الشريعة** ناظر بعين الحكم الظاهر، **وابن الحقيقة** ناظر بعين الحكمة الباطنة، **وأدب الشريعة** مبنى على شهود الخلق فى شهود الحق، **وأدب الحقيقة** مبنى على فناء الخلق فى شهود الحق، وتباين الأمران يعنى تعين إظهار الأمر الظاهر، وتحتم إبطان الأمر الباطن خشية المعارضة والتعطل. ويقول فى رؤية النبى ﷺ يقظة، المراد بذلك أن الرؤية تكون يقظة القلب فيرى الرائى الرسول روحياً من غير انتقال ذاته الشريفة من البرزخ إلى الدنيا. ومات رضى الله عنه نحو سنة ٩١٠هـ ودفن بالقاهرة.

■ ■ ■

الشاطبى

إبراهيم بن موسى بن محمد اللخمى الغرناطى، الشهير بالشاطبى، المتوفى سنة ٧٩٠هـ، له كتاب «**الاعتصام**» يعترض فيه على الصوفية استنادهم إلى الرؤيا فى استخراج الأحكام الشرعية، واجتماعهم للذكر بصوت مرتفع، ثم الغناء والرقص والزمر، والتواجد المبالغ فيه، والضرب على الصدور. ويرى الشاطبى أن أحوال الصوفى ينبغى أن توزن بميزان الشرع فإن وافقته كانت صحيحة وإلا فهى بدعة، ويحتج فى ذلك بأن الإمام أحمد لم ينكر على الحارث المحاسبى سلوكه هو وأصحابه، وكان الحارث المحاسبى نفسه ممن يقتدى بهم ومن كبار مشايخ الصوفية.

■ ■ ■

الشبلى

أبو بكر دلف بن جحدر، أو ابن جعفر، أو أنه جحدر بن دلف، فاسمه الحقيقى مختلف فيه، وشهرته بكنيته، **وله شطحات عرفت عنه كشطحات البسطامى، وإن كان البسطامى له السبق والشبلى والحلاج من أخلافه**. وله شعر صوفى جميل، وسليقة شعرية فياضة، وقد جمع الدكتور كامل مصطفى الشيبى ما تيسر جمعه منه فى ديوان نشره باسم «**ديوان أبى بكر الشبلى**». وينسب الشبلى لقرية شبلة من خراسان، وولادته فى **سُرّ مَنْ رأى** سنة ٢٤٧هـ ببيت عز وجاه، فقد كان أبوه حاجب الحجّاب للموفق، وخاله أمير الأمراء بالإسكندرية. وبلغ الشبلى فى المناصب العامة إلى الحجابة ثم الولاية على دنباوند من نواحى رستاق الرى. وكتب الحديث الكثير ورواه، وتفقه على مذهب الإمام مالك، قال: كتبتُ الحديث عشرين سنة، وجالستُ الفقهاء عشرين سنة. ثم شغلته العناية عن الرواية، فقد التقى بالصوفى **خير النساج** وحضر مجالسه وفتن به فانصرف عن الدنيا، وطلب من أهل الولاية التى هو عليها أن يعفوه من أمرهم، وبدأ المجاهدة والتصوف، فصحب الجنيد شيخ الصوفية وارتبط به حتى كانا إذا افترقا سعى الشبلى إليه يقول:

عودونى الوصال، والوصل عذب ... ورمونى بالصد، والصد صعب
زعموا حين أزمعوا أن ذنبى ... فرط حبى لهم وما ذاك ذنب
لا وحق الخضوع عند التلاقى ... ما جزى من يحب إلا بحب

فيجيبه الجنيد :

وتمنيت أن أراك فلمّا رأيتكما
غلبت دهشة السرور فلم أملك البكما

وكان الشبلى كالجنيد فقيهاً وصوفياً ، وقال فيه **أبو عبدالله الرازى:** لم أر فى الصوفية أعلم من الشبلى . ومن تفسيراته الصوفية للقرآن أنهم سألوه فى معنى : **ادعونى استجب لكم ،** فقال : ادعونى بلا غفلة استجب لكم بلا مهلة ؛ **وفى معنى قل للمؤمنين يغضوا من أبصارهم ،** قال : أبصار الرءوس عما حرم الله تعالى ، وأبصار القلوب عما سوى الله ؛ وفى معنى : **يمحو الله ما يشاء ويثبت ،** فقال : يمحو ما شاء من شهود العبودية وأوصافها ، ويثبت ما يشاء من شواهد الربوبية ودلائلها ؛ وفى معنى : **والذين هم عن اللغو معرضون ،** فقال : كل ما دون الله لغد . والله تعالى هو كل دائرة تفكير الشبلى ، وهو كل الحب الذى أودعه الله تعالى فى قلبه ، ومركز الدائرة فى تفكيره هو **التوحيد.** والتصوف بدؤه معرفة الله ، ونهايته توحيده . ولم تكن تسمية الصوفية بالصوفية إلا لبقية بقيت عليهم من نفوسهم ، ولولاها ما تعلقت بهم التسمية ، يعنى أن الصوفية لأنهم جرّدوا أنفسهم لله تعالى ، فعرفوه فوجدوه فصفت نفوسهم من كل كدر. والتصوف ترويح للقلوب بمراوح الصفاء ، وتجليل الخواطر بأردية الوفاء ، والتخلق بالسخاء ، والبشر فى اللقاء ، ــيعنى أن الطريق هو التخلق بالأخلاق الربانية ونبذ الأخلاق الدّنيّة . ويزيد الشرح فيقول التصوف ضبط حواسك ، ومراعاة أنفاسك . وهو لا حال يقل ، ولا سماء يظل ، يعنى أن الصوفى ليس على حال واحدة ، وإنما طريقه هو الصعود باستمرار عبر مدارج الكمال . ويقول : ما أحد يعرف الله ، قالوا كيف ، قال : لو عرفوه لما اشتغلوا بسواه . وقال : ما أجوع الناس إلى سَكْرة ، فقالوا : أى سكرة ، قال : سكرة تغنيهم عن ملاحظة أنفسهم وأفعالهم وأحوالهم والأكوان وما فيها . وقالوا : أليس يخطر الكون ببالك ، قال : ليس يخطر الكون ببالى ، وكيف يخطر الكون ببال من عرف **المُكّون.** وقال : أهل الغفلة عن الله تعالى هم أهل البلاء . مساكين هؤلاء المماليك : نظروا بعيونهم إلى الملكوت المخلوق ، ورضوا بالجنات المخلوقة ، فبقوا معها خالدين فيها ؛ وأما الملوك فلم يرضوا بها ، فنظروا بقلوبهم إلى مالك الملوك ، فبقوا معه فى مقعد صدق عند مليك مقتدر. وقال : طرفة عين فى غفلة عن الله لأهل المعرفة شرك .

وكانت مجاهداته فى بدايته فوق الحد ، فلابد من الاجتهاد والمجاهدة ، ولكنهما لا يوصلان إلى شىء من الحقيقة ، لامتناعها عن أن تدرك بجهد أو اجتهاد ، وإنما هى

مواهب يصل العبد إليها بإيصال الحق تعالى لا غير، ولولا أنه تعالى يبدأ العبد بالمحبة ويهديه لمَا أحبه. **والمريد** ليست له فترة، أى هو دائم المجاهدة مثابر عليها، ودائم الذكر لله. والاعتبار لذكر القلوب، يقول: ليس للأعمى من الجوهرة إلا لمسها، ولا للجاهل م[illegible] إلا **ذكره** باللسان. والمريد الذى يبلغ الفلاح هو الأهلج بذكر الله، والأسرع مبادرة لرضاه تعالى، فذكر الله تعالى على الصفاء ينسى العبد مرارة البلاء، ومع ذلك فليس من استأنس بالذكر كمن استأنس بالمذكور. ويقول الشبلى: إنى لا استريح إلا إذا دخلت **حضرة الشهود**، لأنه لا ذكر فيها، استغناءً عنه بالشهود، لأن الذكر إنما هو للغائب.

والأمر فى **الزهد** عند الشبلى أنه تحويل القلب من الأشياء إلى رب الأشياء. وكذلك الشأن فى **التوكل** فهو عند الله وحده، يقول إن أحدكم يزعم أنه يتوكل على الله وهو يكذب، فلو توكل عليه لرضى بفعله. وكذلك **الرجاء** فهو أن ترجو أن لا يقطع بك دونه. وأما **المحبة** فهى صراط الأولياء، وتقويتها بالهمة، فمن ملّت همته ضعفت محبته. والأعجب عنده من أمر المريد هو أن يعرف الله ثم يعصاه، وأما المحب الذى لا تفتر محبته فهو دائم الشوق للحق، ومحبته تدفعه إلى سرور من يشتاق إليه وموافقته. ولابد له فى محبته من الأدب، يقول: الانبساط مع الحق بالقول ترك الأدب. وليس للمحبة مع الحق إلا تعريف واحد: أنها اتّباع أوامر المحبوب وتجنب نواهيه، ويجب فيها الإخلاص والصدق وكتمان الحال. وهى الفراغ للحبيب وترك الاعتراض على الرقيب. والمحبة كأس لها وهج، إن استقرت فى الحواس قتلت، وإن سكنت فى النفوس أسكرت، فهى سكر فى الظاهر، ومحبة فى الباطن. وسألوه. فهل تظهر صحة الوجد على الواجدين؟ فقال: نوراً مقارناً لنيران الاشتياق، فيلوح على الهيكل آثارها. والمحبة الكاملة لله تعالى هى أن تحبه من قِبَله.

ليس تخلو جوارحى منك وقتاً ... هى مشغولة بحمل هواك
ليس يجرى على لسانى شىء ... علم الله ذا سوى ذكراك
وتمثلت حيث كنت بعينى ... فهى إن غبت أو حضرت تراك

وكان الشبلى يبالغ فى تعظيم الشرع، وإذا جاء رمضان قام بتعظيمه لأنه شهر عظّمه ربى، ويقول «لا تأمن على نفسك وإن مشيت على الماء». والمهم هو «موافقه الله فى أوامره ونواهيه». وكمال المعرفة هو «إذا كنت قائماً بما أمرت، تاركاً لتكلف

ما كفيت ، فأنت كامل العقل ، وإذا كنت بالله متعلقاً لا بأعمالك ، غير ناظر إلى سواه ، فأنت كامل المعرفة » . وسألوه عن **معجزته** فقال : هى أن تعرض خاطرى فى حال صحوى على خاطرى فى حال سكرى ، فلا يخرجان عن موافقة الله تعالى » . والصوفى فى لغة الشبلى هو **الفقير** لأنه فى كل أوقاته وأحواله فقير إلى الله تعالى ، **والإفلاس** هو الاستئناس بالناس ، **ونصيحته لأتباعه :** إلزم الوحدة وامح اسمك من القوم ، والزم الجدار حتى تموت .

واشتهر الشبلى **بالشطح ، وأهم ما أثر عنه منه قوله لبعض من سمعوه « إيش أعمل بلظى وسقر؟ عندى أن لظى وسقر فيها** (يقصد الجحيم) **تسكن »** (يعنى فى القطيعة والإعراض) ، لأن من عذبه الله بالقطيعة فهو أشد عذاباً ممن عذبه بلظى وسقر . وهو قول يعنى أنه قد جرّد الجحيم فجعلها بمعنى القطيعة عن الله ، فالمقطوع عن الله أشد إحساساً بالعذاب المعنوى من عذاب المعذب بالجحيم . وعدم احتفاله بالنار يجعله يطلب أن يُلقى فيها فقال لما سمع قارئاً يقرأ عنها أخسأوا فيها ولا تكلمون ، **« ليتنى كنت واحداً منهم »** ، وذلك لأن عباد الله الصديقين بوسعهم إطفاء النار ، يقول : **« إن لله عباداً لو بزقوا على جهنم لأطفأوها »** ، وقوله يقصد به المعنى الباطن ، يعنى تجريدها من المعنى الحسى ، ولا يكون ذلك إلا لمن انصرف بكليته إلى الله ، وهى درجة إذا بلغها العابد فلا يعود يهمه شيء أو أحد . يقول : **إن مرّ بخاطرك ذكر جبريل وميكائيل عليهما السلام أشركت »** ، يعنى أنه صار فى مقام الولاية ، وفى هذا المقام يقول : **« يا قوم ، أمُرّ إلى ما لا وراء فلا أرى وراء ، وأمر يميناً وشمالاً إلى ما لا وراء فلا أرى إلا وراء ، ثم أرجع فأرى هذا كله فى شَعْرة من خنصرى »** ، يعنى أنه صار يسوّى بين الأشياء فاللاوراء يستوى بالوراء ، واللانهائية تستوى بالنهائية ، وكلتاهما شعرة من خنصره ، أى كل شيء مهما صَغُر فهو جزء من الوجود ، والوجود هو وحْدة كل الأجزاء ، والكل هو الله تعالى . يقول : **إن قلتُ كذا فالله ، وإن قلتُ كذَا فالله ، وإنما أتمنى منه ذرة »** ، يعنى أنه بدأ يستشعر الاتحاد ، ولذلك بدأ يشعر أن له عزة تزيد على عزة الناس ، فإذا كانت العزة لله جميعاً فهو قد صار مع الله حتى صارت عزة الناس من عزته . يقول : **« نظرت فى كل عز ، فزاد عزى عليهم ، ورأيت عزهم ذاك فى عزى . ومن كان يريد العزة فلله العزة جميعاً »** ، فإذا كان هذا ما آل إليه شعوره فهو يتوجه إلى من حوله ويقول : **أنا معكم حيثما كنتم . أنتم فى رعايتى وفى كلايتى »** . وهو يدرك الفرق بين ناسوته ولاهوته

فيقول مفرقاً بين نفسه وسرّه: «**نفسى تطلب منى كسرة خبز. ولو التفت سرّى إلى العرش والكرسى لاحترق**»، يعنى أن نفسه محدثة ومخلوقة، لكن سرّه قديم وأقدم من العرش والكرسى ولذلك يحترقان لو شاهدا سره. ويبلغ أقصى ما يمكن أن يبلغه الوجد عندما يقول: «**أنا الوقت، ووقتى عزيز، وليس فى الوقت غيرى، وأنا محَقْ**»، يعنى أنه الدهر، والدهر هو الله، فليس يوجد سواه، وهو الباقى والكل يفنى عنه، والذى يبلغه يفنى به فيه، والبلوغ أو الوصول محق لكل ما عداه. وهو فى هذه المرتبة يمر بمرحلتين، فى الأولى يكون **السلب** فيقول لا إله إلا هو، ولا إله إلا الله، وفى الثانية هو **الإيجاب** فيقول «**الله**» لا غير، والصوفى الواصل هو الذى يتجاوز السلوب لأنه عدم، ويكون مع الوجوب لأنه وجود يخلو من العدم، ومن كان مع الله فهو الموجود به وجوداً أبدياً لأنه هكذا يخبرنا الحق «خالدين فيها أبداً»، فأما وقد بقى بالله فصار كما يقول الحديث: «سمعه ويده إلخ» ومن ثم فقد صار لذلك يقول: «**أنا أقول وأنا أسمع**»، «**ولو دبّت نملة سوداء على صخرة صماء فى ليلة ظلماء ولم أشعر بها أو أعلم بها، لقلت إنه ممكور بى**»، يعنى أنه لو كان دون هذه المرتبة كما وعد الحق لقال إنه قد غُرّر به، ولكنه يعتقد أنه قد بلغ ما بلغ ولذلك يقول إنه سيشفع فى الناس: «**والله لا رَضِىَ محمد ﷺ وفى النار من أمّته أحد. إن محمداً يشفع فى أمته، وأنا أشفع بعده حتى لا يبقى فيها أحد**»، يعنى أنه يضع **الولاية** فى **مرتبة أعلى من النبوة**، وهو سيشفع فى كل الناس يوم القيامة بحكم ولايته. ويقول: «**أنا النقطة التى تحت الباء**»، وتلك أعلى المقامات، فالنقطة فى الباء هى التى تقوم بها، وكذلك الوجود كله، فبالشبلى قيامه، يعنى أنه **القطب الغوث وقائم الزمان**. يقول: **أنا أقول وأنا أسمع فهل فى الدارين غيرى!!**

■ ■ ■

إبن شرقاوى

أحمد بن شرقاوى بن مساعد (١٢٥٠ ــ١٣١٦هـ) من أعلام التصوف فى صعيد مصر، وشهرته أبو العباس الخلفى نسبة إلى قرية الخلفية أو الخلافية من قرى جرجا، وذكره الإمام محمد عبده فقال إنه من العلماء العاملين ومن بقايا شيوخ الطريق المخلصين، ومذهبه فى التصوف تربوى أساساً، وهو من أقطاب الخلوتية فى الديار المصرية وقد عمل على تجديد تعاليمها وكان مصلحاً اجتماعياً دينياً، وله مصنفات «**شمس التحقيق وعروة أهل التوفيق**» فى التصوف والأخلاق؛ و«**نصحة**

الذاكرين وإرغام المكابرين» ويضم مباحث فى الحقيقة والشريعة والصلة بينهما، و**«المورد الرحمانى»** وهو منظومة تبلغ مائتى بيت وسبعة فى علمى التوحيد والتصوف وقد استهلها بقوله :

يقول داعى المنهج الحفناوى أحمد نجل الخلفى شرقاوى

ويقصد بالحفناوى الشيخ محمد الحفنى الداعى الأول للطريقة والذى ينسب إليه ابن شرقاوى (ولعله لذلك يكنّى بابن شرقاوى أو الشرقاوى، ويعنى من الشرقية حيث أن الشيخ محمد الحفنى شرقاوى كذلك)، وتحدث فيها عن الطريق وآدابها، و**«منحة الفتاح ورقية الأرواح»** الموسومة بالنفسية والتى يقول فى مطلعها :

يا نفسى كفىّ عن سوى مولاك وابغى جماه فالسوى أرداك

يخاطب فيها النفس ويحذرها من المعاصى ويطلب إليها التقرّب من الملك العلاّم؛ و**«الوسيلة الحسنى فى نظم أسماء الله الحسنى»** ومطلعها :

يارب بالحسنى من الأسماء أشرق شموس القرب فى سمائى
وافتح صميم القلب ياالله وامزجه بالتوحيد يا مولاه

ومن تلاميذ ابن شرقاوى **العارف بالله السيد يوسف الحجاجى الأقصرى** (المتوفى ١٣٣٣ هـ) وقد ذكره ابن شرقاوى فقال مترجماً له أنه السيد أحمد بن السيد يونس الحجاجى محتدا، والأقصرى بلدا ومولداً، والشافعى مذهبا، والخلوتى سيراً ومرباً. ومنهم **أحمد الطاهر الحامدى** المتوفى سنة ١٣٣٢ هـ من الحامدية مركز الأقصر، وقد تولى شرح منظومة المورد الرحمانى لأستاذه بعنوان **«الكشف الربانى عن المورد الرحمانى»** ويقول فى المقدمة أن استاذه قد طلب إليه ذلك فى حياته وقد وافقه على ماذهب إليه فيها. وله أيضاً **«مطية السالك إلى مالك الممالك»** وهو عند الخلوتية من أركان الطريق وآدابها، ويذكر فى المقدمة أنه صنّفه بناءً على طلب استاذه ليكون نبراساً للمريدين، واختتمه بأن الطريقة الخلوتية هى خلاصة جميع الطرق وأنها تجمع آدابها. ومن تلاميذه أيضاً **محمد حسنين مخلوف والد حسنين محمد مخلوف مفتى الديار المصرية الأسبق**، وقد توفى سنة ١٣٥٥ هـ، وله **إتحاف الوارد بأشعة الأوراد للسادة الخلوتية**، ألّفه بأمر استاذه، وشرح المورد الرحمانى فى التوحيد والتصوف، وشرح نصيحة الذاكرين لأستاذه.

الشرنوبى

أحمد بن عثمان بن أحمد بن على الشرنوبى (٩٣١ ــ ٩٩٤هـ) له **«طبقات الشرنوبى»** فى مناقب بعض الأولياء، أملاه على تلميذه محمد البلقينى. ومن نظمه تائية **«السلوك إلى ملك الملوك»** شرحها عبدالمجيد الشرنوبى المتوفى سنة ١٣٤٨هـ فى كتابه **«شرح تائية الشرنوبى»**.

■ ■ ■

الشريشى السّلَوى

أبو العباس تاج الدين أحمد بن محمد الشريشى، ولد سنة ٥٨١هـ فى سلا من ضواحى الرباط بالمغرب، وأخذ عن علماء فاس والأندلس وبغداد ومصر، وتصوّف على أبى حفص السهروردى، واستقر فى الفيوم بمصر وتوفى بها سنة ٦٤١هـ، واشتهر بقصيدته الرائية فى التصوف، سماها **أنوار السرائر وسرائر الأنوار**، وشرحها أحمد بن يوسف الفاسى.

■ ■ ■

الششترى

الصالح العابد الأديب أبو الحسن على بن عبدالله النميرى الششترى (٦١٠ ــ ٦٦٨هـ)، وينسب إلى بنى نمير من بطون هوازن، وششتر إحدى قرى وادى آش بالأندلس حيث مولده، وله «تَقدُّم فى علم النظم والنثر على طريقة التحقيق، وشعره فى غاية الانطباع والملاحة، وتواشيحه ومقفياته ونظمه الزجلى فى غاية الحسن». ويذكره الذاكرون فيقولون: «كان من الأمراء وأولاد الأمراء، فصار من الفقراء وأولاد الفقراء»، وقيل بدأ حياته تاجراً متجولاً ورحل إلى بلاد عدة، وفى إحدى رحلاته إلى بجاية حضر حلقة ذكر لاتباع أبى مدين الصوفى المشهور، ولزم مجلس محى الدين بن سراقة تلميذ السهروردى صاحب المعارف، وأخذ عنه التصوف. وفى بجاية أيضاً التقى بابن سبعين فافتتن به رغم أنه كان يكبر ابن سبعين، وانجذب، كما يقول فى بعض قصائده، إلى «مغنطيس النفوس» و«إكسير الذوات»، وبلغ به الافتتان أن كان يطلق على نفسه فى منظوماته اسم **«عبد ابن سبعين»**. ويقول بعض مؤرخيه أنه كان وزيراً وعالماً قبل أن يلتقى بابن سبعين، فلما انضم إليه اشترط ابن سبعين

عليه أن يخرج عن الأسباب ويتضع. قال: «لا تنال منها شيئاً حتى تبيع متاعك وتلبس قشبانية (أى خرقة) وتأخذ بنديراً (أى علماً) وتدخل السوق»، ففعل جميع ذلك، وسأل ابن سبعين فماذا أقول فى السوق، فقال له قُلْ بدأت بذكر الحبيب، ففعل ولم يضف شيئاً مدة يومين، وفى الثالث بدأ يغنى فعلاً بعلوم الأذواق وقال:

بدأت بذكر الحبيب　　وعيشى يطيب
لما دار الكأس　　ما بين الجلاّس
عنهم زال الباس
سقاهم بكأس الرضا　　عفا الله عما مضى

واستمر ينشد ويعزف على آلة بيده، سميت الششترية على اسمه، والناس ينظرونه وهو يقول لهم:

شويخ من مكناس　　فى وسط الأسواق يغنى
إيش علىّ من الناس　　وإيش عَلَى الناس منى؟

وتذكر الرواية أن ابن سبعين لما وجد الششترى متراوحاً بينه وبين أبى مدين قال له: إن كنت تريد الجنة فسر إلى أبى مدين، وإن كنت تريد رب الجنة فهلم إلىّ. وقد تنقل الششترى وذهب إلى مصر فلما دخلها كانت له طريقته التى تشعبت عن السبعينية إلا أنه كما قيل تبرأ من مذهب الحلول والاتحاد فى آخر حياته. وقيل إنه لما قدم إلى مصر دخلها فيما ينيف على أربعمائة فقير يخدمونه. وقد اعتكف الششترى أول الأمر بالجامع الأزهر، وكان اجتماعه بمريديه فيه أو بباب زويلة. وهو أول من استخدم الزجل فى التصوف، وكذلك كان ابن عربى ـــ وهو أيضاً من دعاة وحدة الوجود ـــ أول من استخدم الموشح فيه. وخطورة الششترى كما يقول خصومه أنه يعبر فى زجله أو شعره عن المذهب ببساطة تعوز ابن عربى، وذلك ما جعل ابن تيميه ينبه إليه وهو يقول فيه **صاحب الأزجال**، غير أن تلاميذ الششترى كانوا يرجحونه على ابن سبعين لأنه أقرب إلى التصوف السنى من مذهب وحدة الوجود، ولعله لهذا السبب أيضاً لم يطعن فيه فقهاء مصر، وقد صنف عبدالغنى النابلسى رسالة فيه بعنوان: **«رد المفترى عن الطعن فى الششترى»**. واشتهرت الششترية كطريقة متميزة عن طريقة ابن سبعين، على الأقل فى اعتمادها على السماع والموشحات التى كان يؤلفها الششترى. حتى أن ابن الراندى دعا إلى جمع تراث الششترى الشعرى الإنشادى وهاجم ابن سبعين لغموضه، ولكن الششترى فى حياته كان يدافع عن استاذه ويقول:

« إنهم يفعلون ذلك لقصورهم عن فهم حقيقة الشيخ » . وفى مصر كان الششترى يتردد على الأديرة ويلتقى بالرهبان وعرف طريقتهم وردد ذلك فى شعره . واعتبر الششترى نفسه من الشاذلية فى مصر وقال « شيوخى .. هم شاذلية » ، وورث رباطه الشاذلية من بعده ، وأنشدوا موشحاته . وله **الرسالة العلمية ، والمقاليد الوجودية فى أسرار الصوفية ، والرسالة البغدادية** . ويقسّم اتباعه ديوانه الشعرى قسمين ، أحدهما يتضمن مذهبه الصوفى الفلسفى من مثل قصيدته التى يقول فيها :

فكم واقف أردىَ ولم سائر هدّى ... وكم حكمة أبدى ولم مملق أغنى
وتيّم الباب الهرامس كلهم ... وحسبك من سقراط أسكنه الدّنا
وجرد أمثال العوالم كلها ... وأبدأ أفلاطون فى أمثل الحسنى

والقسم الآخر موشحات وأزجال لإنشاد وتعليم المبتدئين من مثل :

يا حاضرا فى فؤادى ... بالفكر فيكم أطيب
إن لم يزر شخص عينى ... فالقلب عندى ينوب
ما غبت لكن جسمى ... من النحول يذوب

أو قوله :

دعنى ياسالى ... لو ذقت سلسالى
عرفت حالى ... والذى فى بالى

أو قوله :

مدامك يا شيخ الحضرة ... مدام عجيب
وكل العالم به يبرا ... إش ما يصيب

■ ■ ■

الشعرانى

الشيخ الإمام أبو المواهب عبد الوهاب بن أحمد بن على الشعرانى نسبة إلى قرية ساقية أبى شعرة بالمنوفية حيث هاجر إليها جده من الصعيد واستوطنها ، وكانت له بها زاوية للتعليم . وعائلة الشعرانى أصلاً من تلمسان وغادروها إلى الصعيد بناء على نبوءة

من الصوفى الإمام أبى مدين المغربى، ثم غادروها إلى المنوفية. وكان ميلاد الشعرانى سنة ٨٩٨هـ، وبعد أن توفى أبواه وتركاه يتيماً ليس له إلا الله نصيراً وولياً كما يقول، سافر الشعرانى إلى القاهرة سنة ٩١٠هـ، وأقام فى مسجد سيدى أبى العباس الغمرى سبعة عشر عاماً يتعلم ويعلّم ويتهجد ويتعبد، واتصل بصفوة العلماء من يومه الأول، ومنهم جلال الدين السيوطى وزكريا الأنصارى وناصر الدين اللقانى والرملى والسمنودى ودرس عليهم وعلى أضرابهم العلوم الإسلامية واللغة العربية والأصول والفقه والتصوف والحديث والتفسير والأدب حتى غدا بحراً زاخراً لا تدرك أبعاده، ثم انصرفت همته إلى سلوك أهل التصوف فاتصل بشيوخهم وتردد عليهم وفتح الله عليه بالشيخ على الخوّاص فكان معراجه وسلمه، وعلى يديه أصبح إمام عصره علماً وذوقاً.

والشعرانى عالم متحقق كانت له جهوده فى الدعوة إلى الله تعالى، وأسس زاوية يتلقى فيها الطلاب علوم الظاهر والباطن، وأصبحت زاوية الشعرانى منارة إسلامية وكانت مثابة للعلماء ومنبراً للدعوة والإرشاد، وساحة للذكر والعبادة، ورواقاً يضم المريدين ويأوى السالكين، وأثرى المكتبة الإسلامية بعدد كبير من كتب التصوف، يذكر على باشا مبارك فى موسوعته الخطط التوفيقية أنه رأى منها سبعين كتاباً، منها **«الأجوبة المرضية عن أئمة الفقهاء والصوفية» و«الأنوار القدسية فى معرفة آداب العبودية» (وبعضهم يجعل العنوان معرفة آداب الصوفية)، و«بهجة النفوس والأسماع والأحداق فيما تميز به القوم من الآداب والأخلاق»، و«تنبيه المفترين فى آداب الدين»، و«الجواهر والدرر الكبرى»، و«درر الغواص من فتاوى الشيخ على الخواص»، و«القواعد الكشفية فى الصفات الإلهية»، و«الكبريت الأحمر فى علوم الشيخ الأكبر»، و«لطائف المنن» المشهور بكتاب المنن الكبرى، و«لواقح الأنوار فى طبقات الأخيار» مجلدان، ويعرف بطبقات الشعرانى الكبرى، و«لواقح الأنوار القدسية فى بيان العهود المحمدية»، و«مدارك السالكين إلى رسوم طريق العارفين»، و«مشارق الأنوار»، و«المنح السنية»، و«اليواقيت والجواهر فى عقائد الأكابر».**

ويقول الشعرانى إن ما دعاه إلى كتابة هذه الكتب هو الحالة المتردية التى كان عليها التصوف والصوفية فى زمنه، وينعى على من توفى من أكابر المشايخ، «فلما ذهبوا زالت حرمة الطريق وأهلها، وصار الناس يسخرون بأحدهم ويقولون لبعضهم ما دريتم ما جرى، فلان الآخر عمل شيخاً، كأنهم لا يسلمون له ما يدعيه لما هو عليه من محبة الدنيا وشهواتها والتلذذ بمطامعها وملابسها ومناكحها والسعى على تحصيلها».

ويحذر الشعرانى من قراءة كتب العارفين إلا لعالم كامل أو من سلك طريق القوم، وأما من لم يكن كذلك فلا ينبغى له مطالعة شيء منها خوفاً عليه من إدخال الشبه التى لا يكاد يفطن أن يخرج منها فضلاً عن غير الفطن. ومما يقع فيه كثير من الناس قولهم: **يا من يرانا ولا نراه**، وقولهم **سبحان من كان العلا مكانه**، ونحو ذلك مما لا يجوز التلفظ به لما يورثه من الإبهام عند العوام، وقد أجمع أهل السنة على منع كل إطلاق لم ترد به الشريعة، وأجمعوا على وجوب تأويل أحاديث الصفات كحديث ينزل ربنا إلى سماء الدنيا. ومما يمنع شرعاً إطلاق بعضهم على الله تعالى اسم **الخمار والساقى وليلى ولبنى وسعدى ودعد وهند والكنز الأكبر** ونحو ذلك. وكذلك لا يجوز إجماعاً إرادة ذاته تعالى بقول بعضهم:

أنا من أهوى ومن أهوى أنا　　نحن روحان حللنا بدنا

وقولهم:

تمازجت الحقائق بالمعانى　　فصرنا واحداً روحاً ومعنى

فكل هذا وأمثاله لا يجوز عند أهل السنة. وكذلك مما ينبغى اجتنابه قول بعضهم **ما فى الوجود إلا الله**، وقولهم **إن الله فى قلوب العارفين**، وإنما الصواب ان يقال ما فى الوجود فى الأزل إلا الله، ومعرفة الله فى قلوب العارفين، وإليه الإشارة بحديث وسعنى قلب عبدى المؤمن، أى وسع معرفتى من غير إحاطة بى. وكذلك ينبغى اجتناب قول بعضهم هذا **زمان سوء** لأن الزمان هو الدهر، والدهر هو الله. وكذلك يحذر من مواضع فى كتاب **قوت القلوب للمكى** من مثل قوله **الله تعالى قوت العالم**، ومن مواضع فى **تفسير المكى**، ومن مواضع كثيرة فى كلام **ابن ميسرة الحنبلى**، ومن مطالعة كتب **الشيخ محيى الدين بن عربى** لعلو مراقيها ولما فيها من الكلام المدسوس على الشيخ لاسيا فى **الفصوص** وفى **الفتوحات المكية**، وكل ما فى كتبه من **الأمور المخالفة** مدسوس عليه. ويحذر من قراءة كتب **عبد الحق بن سبعين** مما يوهم الحلول والاتحاد والتشبيه، وأقوال **عمر بن الفارض فى التائية**، والجمهور على جواز تأويلها. ودافع الشعرانى عن ابن عربى وأوضح، ما يريد من أقواله من مثل **حدثنى ربى عن قلبى أو حدثنى ربى عن نفسه بارتفاع الوسائط**، فقال ليس مراده أن الله تعالى كلمه كما كلم الأنبياء، وإنما أن الله تعالى يلهمه على لسان ملَك الإلهام بتعريف بعض الأحوال.

وكتاب الشعرانى **المنن** من أفضل وأشرف كتب الأخلاق ويوضح فيه معالم

الآداب الإسلامية ، وكتابه **لواقح الأنوار القدسية فى بيان العهود المحمدية** هو طرح لمعتقداته مما يمكن أن يكون نبراساً للصوفى ومثلاً حياً له فى الأخلاق باعتبار الرسول هو المثل الأعلى لكل مسلم . ويقول فى مقدمته هذا كتاب نفيس لم يسبقنى أحد إلى وضع مثله ، والباعث لى على تأليفه ما رأيته من تنافس الإخوان على ما ينقصهم من دنياهم ، ولم أر أحداً يفتش على ما ينقصه من أمور دينه . وفى سبيل الغاية نفسها ألّف **كتاب الأنوار** القدسية وخصصه لتوضيح المناهج الصوفية والصلات التى تربط الشيخ والمريد والآداب ككل . وقد فضح الشعرانى الدجالين والمشعوذين من مدعى التصوف فى كتابه **الطبقات** ، فقد رأى فيهم البلاء ، وتعقّب شيوخ عهده مظهراً جهلهم وكفرهم وسوء أدبهم ، وهذا ما يجعل قراء هذا الكتاب يندهشون لإدارج الشعرانى لهؤلاء ضمن تراجم السلف الصالح ، ولكنه جعل ذلك ليتيح للقارىء المقارنة بين هؤلاء وأولئك ، وجعل كتبه **تنبيه المغترين والمنن الكبرى والأنوار القدسية وقواعد الصوفية** كلها ليجلو الأخلاق الصوفية المثالية . والشعرانى مصلح دينى واجتماعى ، ويدعو الصوفى الحق إلى العمل وأن تكون له حرفة يتعيش منها ولا يكون من المتبطلين ، وينتقد الفقهاء الذين يعلمون كثيراً ولكنهم لا يعملون بما يعلمون ولا يحضون على الفضيلة وينهون عن المنكر ، ويقول إن عداءه للصوفية والففهاء الذين ليسوا على الجادة هو الذى ألّب هذه الفئات عليه فكادوا له وأضافوا إلى مقدمة كتبه ومتونها إضافات من عندهم تخالف ظاهر الشريعة ، واستفتوا عليه زوراً وبهتاناً واستعدوا عليه الحاكم ، وأخيراً لجأوا إلى محاولة اغتياله فى الطريق ، ثم حاولوا دس السم له ، وأفلحوا مع تلميذه المناوى فمات بتدبيرهم ونجّى الله الشعرانى ، وحبّب فيه الناس حتى أن الأمير حسن بك صنجق صار من مريديه وخرج عن ماله وفرّقه على الناس وصمم على أن يبنى ضريحاً للشعرانى ، ويشاء الله أنه ما أن انتهى العمل فيه حتى وافته المنية سنة ٩٧٣ وكانت آخر كلماته « **أنا ذاهب إلى ربى الرحيم الكريم** » .

شقيق البلخى

أبو على شقيق بن إبراهيم من أهل بلخ ، توفى سنة ١٩٤ هـ ، **أول من تكلم فى علوم الأحوال** ، أى علوم الصوفية ، من أهل خراسان ، ولسانه يغلب عليه **التوكل والزهد** ، أى أن كلامه ينصرف أغلبه فيهما ، وكان استاذاً لحاتم الأصم وتلقى التصوف عن إبراهيم بن أدهم ، وهو يقول عن نفسه كنت رجلاً شاعراً وموسراً ومرابياً ، وأتّفقتى

أى أفعل فعل الفتيان ، فرزقنى الله التوبة فخرجت من ثلثمائة ألف درهم . وقيل فى سبب زهده أنه كان فى سفرة للتجارة فى تركيا فدخل بيتاً للأصنام ، والعالم الذى يعلّم عبدتها يقول كلاماً لم يعجبه فقام فيهم وقال للرجل : ما أنت فيه باطل ، ولهؤلاء (يقصد الأصنام) ، ولك ، ولهذا الخلق خالق وصانع ليس كمثله شىء ، له الدنيا والآخرة ، قادر على كل شئ ، رازق كل شىء ، فرد عليه العالم بأن قوله لا يناسب فعله ، إذ طالما أن الله خالق وقادر ورازق ، أفما كان الأولى أن يتوكل عليه فيرزق فى بلده بدلاً من السفر والعناء طلباً للرزق فى بلاد الغُربة . واتُخذ شقيق برده فما كان أحراه أن يفعل ذلك فعلاً ، ومن يومها طلب أن يتزهد ، وتوكل على الله ، ودخل الطريقة . وقيل أيضاً فى **سبب زهده** أنه رأى يوماً مملوكاً يمرح ولا يحمل هماً ، فى وقت اشتدت فيه ضائقة المسلمين وعانوا الجوع ، فعاتبه سائلاً ولماذا الفرح والناس فى كرب ، فرد عليه بما يعنى ولماذا لا يفرح وينّحى عنه الهم ومولاه غنى ويكفيه رزقه . ويقول شقيق فتبهت وتبت مما كنت فيه وسلكت الطريق . ويحكى عن سبب تلمذته على ابن آدهم وقد سأله هو عن ذلك فقال : سرت فى بعض الفلوات فرأيت طيراً مكسور الجناحين ففلت أنظر من أين يرزق هذا ، فإذا أن بطير قد أقبل وفى فيه جرادة وضعها فى منقار الطير المكسور ، فاعتبرت وتركت الكسب وأقبلت على العبادة .

ويتبين من الروايات السابقة أن طريقة شقيق تقوم — كما يقول — أولاً على **التوحيد** ، وهو أن توحد الله تعالى بقلبك ولسانك وعملك ، فإذا وحدّته بقلبك أن لا إله غيره ، ولا نافع ولا ضار غيره فليس لك بد من أن تجعل عملك كله لله لا لغيره ، فإذا سرت مخلصاً بهذا القول ، عاملاً له أنه لا إله إلا هو فليكن هو أوثق عندك من كل الناس ومن كل من على ظهر الأرض ، وتوكلْ عليه وحده . **والتوكل** على الله هو ثانى أركان طريقة شفيق ، ومعنى التوكل هو أن يطمئن قلبك بموعود الله ، ومعناه أن ترضى بما قضى الله ، فهو القادر والرازق ، وهو كل شىء ، ومن لم يعرفه بذلك فهو لم يعرفه ، ومن أراد أن يمتحن معرفته بالله فلينظر ما وعده الله ووعده الناس ، بأيهما قلبه أوثق . وسألوه بأى شىء يُعرف بأن العبد واثق بربه ، فقال يُعرف بأنه إذا أبطأ عليه شىء من الدنيا يكون أحب إليه من أن يأتيه . **والزهد** هو الركن الثالث . يقول شقيق عملت فى القرآن عشرين سنة حتى ميزت الدنيا من الآخرة ، فأصبته فى حرفين وهى قوله تعالى وما أوتيتم من شىء فمتاع الحياة الدنيا وزينتها ، وما عند الله خير وأبقى . **والزاهد** هو المنقطع إلى الزهد بقلبه ، يخاف على نفسه من حصول الغنى له كما كان يخاف عليها قبل توبته من حصول الفقر ، وعلامة صدقه فى زهده أن يفرح بكل شىء

فاته من الدنيا ويغتم لكل شيء حصلّه منها ، ومثله فى ذلك كمثل الرجل يغرس نخلة ويخاف أن تحمل شوكاً ، ومثل المنافق كمثل الرجل يغرس شوكاً ويطمع أن يحصل رطباً . وإذا كان الفقير الذى يريد أن يعرف بالفقر راغباً فى الدنيا والتنعم بملابسها ومناكحها ، فبمن يقتدى الراغب حتى يخرج عن رغبته ، وإذا كان العالم طامعاً وللمال جامعاً فبمن يقتدى الجاهل ، وإذا كان الراعى هو الذئب فمن يرعى الغنم ؟ وفرق بين **الزاهد والمتزهد** ، فالأول يقيم زهده بفعله ، والثانى يقيم زهده بلسانه . والزاهد يتقى الأغنياء لأن صحبتهم تورث الطمع فيهم فيتخذهم أرباباً من دون الله ، وهو الذى يطهر قلبه من حب عروض الدنيا حتى يدخل فيه حب الآخرة . والزهد أوله صبر وآخره رضا ، والصبر فى الزهد هو صبر على الجوع بالسرور لا بالفتور ، وبالرضا لا بالجزع ، والصبر على العرى بالفرح لا بالحزن ، والصبر على طول الصيام بالتفضل لا بالتعسف كأنه طاعم ناعم ، والصبر على الذل بطيب نفسه لا بالنكره ، والصبر على البؤس بالرضا لا بالسخط . وقوام ذلك كله أو أساس الطريقة هو **المعرفة** ، المعرفة **أولاً** بالله ، **وثانياً** معرفة نفسه ، **والثالث** معرفة أمر الله ونهيه ، **والرابع** معرفة عدو الله وعدو نفسه .

■ ■ ■

الشلمغانى

أبو جعفر محمد بن على ، وينسب إلى شلمغان إحدى قرى واسط ، يقول ابن الأثير وكان من مذهبه أنه إله الآلهة ، يُحق الحق ، وأنه الأول القديم والظاهر الباطن ، الرازق التام ، المومأ إليه بكل معنى . وكان يقول إن الله سبحانه يحل فى كل شيء على قدر ما يحتمل ، وأنه خلق الضد ليدل على المضدود ، فمن ذلك أنه حل فى آدم لما خلقه ، وفى إبليسه أيضاً ، وكلاهما ضد لصاحبه لمضادته إياه فى معناه ، وأن الدليل على الحق أفضل من الحق ، وأن الضد أقرب شيء من شبهه ، وأن الله عز وجل إذا حل فى جسدٍ ناسوتى أظهر من القدرة والمعجزة ما يدل على أنه هو . وتأثر بآراء الشلمغانى بعض كبار رجال الدولة العباسية ، ومنهم المحسن بن أبى الحسن بن الفرات ، كما استمع له ناصر الدولة بن حمدان الذى تستر عليه بالموصل إلى أن رحل منها إلى بغداد ، وقد تبعه إليها بعض الكبراء ومنهم الحسين بن القاسم بن عبدالله بن سلمان بن وهب الذى وزّره المقتدر بالله ، وأبو على بن بسطام ، وإبراهيم بن أبى عون ، وابن شبيب الزيات . ولما

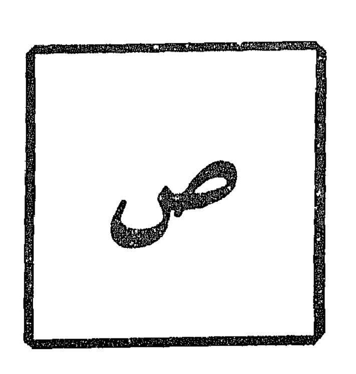
استفحل أمر الشلمغانى فى عهد الراضى (٣٢٢ ـ ٣٢٩ هـ) قبضوا عليه والكثير من أنصاره، وضبطوا لديه الكثير من المخطوطات المثبتة لادعائه الألوهية وإغراق أنصاره فى تأليهه، وعرضت الخطوط عليهم فأنكروها وأثبتها الشلمغانى، وأمرهم الخليفة بصفعه فرفضوا، وخاطبه أحدهم قائلاً إلهى وسيدى ورازقى، ولكن الشلمغانى تبرّأ مما قال وادّعى أنه لم يقل لهم ذلك، واعترفوا أنه لم يدع ذلك صراحة ولكنه زعم أنه الباب إلى الإمام المنتظر، وأفتى الفقهاء بقتله فصُلب الشلمغانى وابن أبى عون من أتباعه فى ذى القعدة سنة ٣٢٢ هـ وأحرقا بالنار.

■ ■ ■

الشيبانى

تقى الدين أبو بكر الشيبانى الشافعى (٧٣٤ ـ ٧٩٧ هـ) له «**آداب المريدين**» و«**الدرة المضية والوصايا الحكمية**» وتصانيف أخرى فى اللغة والنحو. والشيبانى من مواليد الموصل، إلا أنه انتقل منها شاباً إلى دمشق، واستقر ببيت المقدس وتوفى بها، وكان من الصوفية الزاهدين، ولتلميذه محمد بن موسى الهذيانى كتاب فى حياته وطريقته وأقواله ومواقفه فى التصوف باسم «**فتوح الوهاب**».

■ ■ ■



إبن الصبّاغ القوصى

أبو الحسن على بن أحمد بن الصباغ (نحو ٥٤٦ ـــ٦١٢هـ) شيخ التصوف المصرى فى القرن السابع الهجرى، ولادته بقوص، وتوفى بقنا ودفن بالقرب من **استاذه عبد الرحيم القنائي**، وكان أبوه صبّاغاً على الحقيقة ويعيب عليه عدم معاونته له وانقطاعه إلى أهل التصوف. ومذهبه فيه يقوم فى جانبه النظرى على **الحب الإلهى ووحدة الوجود والاتحاد**، وقد روى عنه من الأشعار فى الحب الإلهى :

بقائى فناء فى بقائى من الهوى ... فيا ويح قلبى فى فناه بقاؤه
وجودى فناء فى فناء فإننى ... مع الأنس يأتينى هنيئاً بلاؤه
فيا من دعا المحبوب سراً بسره ... أتاك المنى يوماً أتاك فناؤه

ومما روى عنه فى وحدة الوجود :

تسربَل وقتى فيك فهو مُسَربل ... وأفنيتنى عنّى فعدتُ مجدداً
وكلٌ بكلِ الكُلِ وصْلٌ محقق ... حقائق حق فى دوام تخلداً
تفرد أمرى فانفردتُ بقربتى ... فصرت غريباً فى البرية أوحداً

ويبدو أنه لم يجد اضطهاداً له بسبب مذهبه كالذى تعرّض له ابن عربى لأنه كان فى الصعيد فلم يدر به أحد. **وطريقته** عن التصوف يقول فيها ليس لأحد علىّ فى هذا الطريق منّة إلا الله ورسوله، وفى **تعليمه للمريد** يقول لن يصفو قلبك إلا بتصحيح

النية من الله عز وجل ، ولن يصفو بدنك إلا بخدمة الأولياء ، ومابك إلى حالة شريفة إلا بملازمة الموافقة ومعانقة الأدب وأداء الفرائض وصحبة الصالحين وخدمة الصادقين. والذاكر لله تعالى لا يقوم له فى ذكره عوض. والعارف من توافقه معرفته فى الأوامر ولا تخالفه فى شىء من أحواله ، والسنة التى لم يتنازع فيها أحد من أهل العلم هى الزهد فى الدنيا وسخاوة النفس ونصيحة الخلق. ومن علامة محبة الله للعبد محبة العبد إياه. وعلامة محبة العبد لله أن لا يوثر عليه شيئاً سواه ، ومن علامة عدم الإيثار على الله النظر إلى الدنيا بعين الاحتقار، وإلى الأكوان ببصر الاعتبار، والسعيد من أعطاه الله قلباً وفكراً وبصراً معتبراً ، وأذناً تسمع من الله ، ونفساً ناشطة فى خدمة الله. وأحق ما يفتقد العباد من حقوق الله سبحانه الشكر له ، والشكر له ظاهر وباطن ، فظاهره الموافقة ، وباطنه شهود النعمة ، فما شكره من لم يمتثل أوامره وحدوده ، وما حفظه من ضيّع عهوده.

وكان للشيخ سماع وتواجد وبكاء ، يقول :

غنِّ لى فى الفراق صوتاً حزيناً	إن بين الضلوع داءً دفينا
ثم جُدْ لى بدمع عينك بالله	وكنْ لى على البكاء معينا
فسأبكى الدماء فضلاً عن الدمع	ومع الفراق أبكى العيونا
كل أمر الدنا حقير يسير	غير أن يفقد القرين القرينا

■ ■ ■

الصُّفَّة

المقصود بها صفة الرسول أو أهلها بالذات ، قيل فيهم أخلاهم الحق من الركون إلى شىء من العروض ، وعصمهم من الافتتان بها عن الفروض ، وجعلهم قدوة للمتجردين من **الفقراء** ، لا يأوون إلى أهل ولا مال ، ولا يلهيهم عن ذكر الله تجارة ولا حال ، ولم يحزنوا على ما فاتهم من الدنيا ، ولا يفرحوا إلا بما أُيدوا به من العقبى ، وكانت أفراحهم بمعبودهم ومليكهم وأحزانهم على فوت الاغتنام من أوقاتهم وأورادهم ، وقيل فيهم نزلت الآية : «ولو بسط الله الرزق لعباده لبغوا فى الأرض» فزوى الله عنهم الدنيا وقبضها إبقاءً عليهم وصوناً لهم لئلا يطغوا ، فصاروا فى حماه محفوظين من الأثقال ومحروسين من الأشغال ، فلا تذهلهم الأموال. وكان من أهل الصفة سبعون رجلاً ليس لواحد منهم

رداء. وكان عدد قاطنى الصفة يختلف على حسب اختلاف الأوقات والأحوال، فربما تفرق طارقوها من الغرباء والقادمين إليها فيقل عددهم، وربما يجتمع فيها واردوها من الرواد والوفود فيكثرون. والمشهور من أخبارهم غلبة الفقر عليهم، وإيثارهم القلة واختيارهم لها، فلم يجتمع لهم ثوبان، ولا حضرهم من الأطعمة لونان، فإنهم لمّا هاجر الرسول من مكة تبعوه إلى المدينة، منها ومن غيرها من القرى، فلم يكن لديهم ما يُقيتهم، ولم يكن فى المدينة ما يمكن أن يقوموا به من أعمال يؤجرون عليها، فلجأوا إلى رواق المسجد يستظلون بظُلته من البرد والحر، وبلغ بهم الفقر أنه ما كان منهم من أحد عليه ثوب تام، وقد اتخذ العرق فى جلودهم طوقاً من الوسخ والغبار، وكان الرسول إذا أمسى قسّم أهل الصفة بين الناس من أصحابه، فكان كل صحابى قادر يستضيف منهم الواحد أو الاثنين أو الثلاثة حتى العشرة. وكان الواحد منهم يتوارى منه من العرى. وقيل فيهم إنهم قوم استوطنوا الصفة فصفوا من الأكدار ونُقّوا من الأغبار، ومن حالهم واسمهم كان اشتقاق اسم **التصوف والصوفى**. وقيل فيهم أهل الصفة هم أخيار القبائل والأقطار، ألبسوا الأنوار واستطابوا الأذكار واستنارت منهم البواطن والأسرار. وكان الرسول يحضرهم ويجعلهم مثل الحلقة ورجل منهم يقرأ عليهم القرآن، فيقول فيهم: الحمد لله الذى جعل فى أمتى من أمرت أن أصبر نفسى معهم، وينادى عليهم: «ليبشر فقراء المؤمنين بالفوز يوم القيامة قبل الأغنياء بمقدار خمسمائة عام. هؤلاء فى الجنة ينعمون، وهؤلاء يحاسبون». ومر عليهم يوماً يقرأون فكفّوا فسألهم: ما كنتم تقولون، قالوا: نذكر الله ورسوله، قال: فإنى رأيت الرحمة تنزل عليكم فأحببت أن أشارككم فيها. ومنهم **بلال بن رباح** وهو من السابقين المعذبين فى الله، **والبراء بن مالك** الذى قال فيه الرسول: «رب أشعث ذى طمرين لا يؤبه له، لو أقسم على الله لأبرّه؛ **وثقيف بن عمر** وكان يخدم النبى حتى إذا فرغ من خدمته أوى إلى المسجد فكان هو بيته؛ **وجعيل بن سراقة** قال فيه الرسول «فجعيل خير من هذا ملء الأرض»؛ **وحارثة بن النعمان** من أهل بدر وأحد الثمانين الذين ثبتوا يوم حنين ولم يفروا؛ **وحازم بن حرملة** قال فيه الرسول يا حازم أكثر من قول لا حول ولا قوة إلا بالله العظيم فإنها كنز من كنوز الجنة؛ **وحنظلة بن أبى عامر** الذى دعاه الداعى للجهاد وكان جنباً، فلما مات على حاله قال فيه الرسول ﷺ «لذلك غسلته الملائكة»؛ **والحكم بن عمير**. ويروى أن الرسول توجه فيهم بخطابه: كونوا فى الدنيا أضيافاً، واتخذوا المساجد بيوتاً، وعوّدوا قلوبكم الرقة، وأكثروا التفكر والبكاء، ولا يختلفن بكم الأهواء، تبنون ما لا تسكنون وتجمعون مالا تأكلون وتأملون ما

لا تدركون ». «كفى بالمرء نقصاً في دينه أن يكثر خطاياه وينقص حلمه وتقل حقيقته، جيفةٌ بالليل، بطاّلٌ بالنهار، كسولٌ هلوع، منوعٌ رتوع». «استحيوا من الله حق الحياء. احفظوا الرأس وما حوى، والبطن وما وعى، واذكروا الموت والبلى، فمن فعل ذلك كان ثوابه جنة المأوى». ومنهم **خباب بن الأرت** وكان من المعذبين، ومن السابقين الأولين من المهاجرين وشهد بدراً، **وخنيس بن حذافة**، من المهاجرين الأولين، وزوجته حفصة بنت عمر من مهاجرة الحبشة، وتوفى بالمدينة فى أول الإسلام، فلما تأيمت منه حفصة تزوجها الرسول ﷺ؛ **وخريم بن فاتك**، قال فيه الرسول: أى رجل أنت لولا أن فيك خصلتين: «تسبيل إزارك وتوفير شعرك» فرفع خريم إزاره وأخذ من شعره؛ **وأبو رزين**، قال له الرسول ﷺ: يا أبا رزين، إذا خلوت فحرك لسانك بذكر الله، فإنك لا تزال فى صلاة ما ذكرت ربك، إن كنت فى علانية فصلاة العلانية، وإن كنت خالياً فصلاة الخلوة. يا أبا رزين: إذا كابد الناس قيام الليل وصيام النهار، فكابد أنت النصيحة للمسلمين. يا أبا رزين: إذا أقبل الناس على الجهاد فى سبيل الله فأحببت أن يكون لك مثل أجورهم، فالزم المسجد تؤذن فيه لا تأخذ على أذانك أجراً. وقال له: ألا أدلك على ملاك هذا الأمر الذى تصيب به خير الدنيا والآخرة؟ عليك بمجالس أهل الذكر، وإذا خلوت فحرك لسانك ما استطعت بذكر الله، وأحبْ فى الله، وأبغضْ فى الله. هل شعرت يا أبا رزين أن الرجل إذا خرج من بيته زائراً أخاه شيّعه سبعون ألف ملك، كلهم يصلون عليه: ربنا إنه وَصَلَ فيك فَصِلْه. فإن استطعت أن تعمل بذلك فى ذلك فافعل». ومنهم **سالم بن عمير، والعرباض بن سارية**، وكانا من البكائين وفيهما وفى أصحابهما نزلت «تَوَلَّوْا وأعينهم تفيض من الدمع»؛ **وطخفة بن قيس**، مات فى الصفة؛ **وطلحة بن عمرو**، قال وكان الرسول يجرى علينا المدّ من التمر كل يوم حتى ناداه رجل منا: يا رسول الله قد أحرق التمر بطوننا، فقال له: لقد مكثت أنا وصاحبى بضعة عشر ليلة ما لنا طعام إلا البرير (ثمر الأراك) فقدمنا على إخواننا من الأنصار وعظم (أغلب) طعامهم التمر، فواسانا فيه. فوالله لو أجد لكم الخبز واللحم لأطعمتكم، ولكن لعلكم تدركون زماناً تلبسون فيه مثل أستار الكعبة ويُغدى ويُراح عليكم بالجفان»؛ **والطفاوى الدوسى** سيد من يقول بالاختيار والخصوص مع متابعته للآثار والنصوص، وكان من المحفوظين من أصحاب الرسول ﷺ؛ **وأبو ذر الغفارى** وكان من قطان مسجد الرسول فكان متوحداً متعبداً؛ **وأبو هريرة** أشهر من سكن الصفة واستوطنها طوال عمر النبى ﷺ، ولم ينتقل عنها، وكان عريف من سكن الصفة من القاطنين ومن نزلها من الطارقين،

وكان النبى إذا أراد أن يجمعهم لطعام حضره، تقدم إلى أبى هريرة ليدعوهم ويجمعهم لمعرفته بهم وبمنازلهم ومراتبهم، وكان أحد أعلام الفقراء والمساكين، صبر على الفقر الشديد وعن مخالطة الأغنياء والتجار، وزهد فى لبس اللين والحرير؛ **وعبدالله بن أم مكتوم** وهو الذى نزلت فيه «عبسى وتولى أن جاءه الأعمى؛ **وعبدالله بن عمرو** وهو الذى استشهد بأُحُد فقال رسول الله لابنه جابر: أبشرك بخير. إن الله أحيا أباك فأقعده بين يديه فقال تَمَنّ علىّ عبدى أعطيكه. قال يارب ما عبدتك حق عبادتك. أتمنى عليك أن تردنى إلى الدنيا فأقاتل مع نبيك فأقتل فيه مرة أخرى. قال إنه قد سلف منى أنك إليها لا ترجع»؛ **وعبدالله بن زيد الجهنى** أحد الأربعة الذين كانوا يحملون الألوية يوم الفتح؛ **وعبدالله بن الحارث** وكان مكفوفاً اكتفى عن رؤية الناس بالأُنس بذكر الله وتقديسه؛ **وعبّاد بن خالد الغفارى** وهو الذى نزل بالسهم فى البئر يوم الحديبية؛ **وفضالة بن عبيد الأنصارى** وصف إخوانه من أهل الصفة فقال كان رسول الله ﷺ إذا صلى بالناس يخر رجال من قامتهم فى الصلاة لما بهم من الخصاصة وهم أصحاب الصفة، فإذا قضى رسول الله ﷺ صلاته انصرف إليهم فيقول: لو تعلمون مالكم عند الله لأحببتم أنكم تزدادون حاجة وفاقة؛ **ومسطح بن أثاثة أبو عبّاد** وهو الذى ذكر فى حديث الإفك، وكان الصدّيق ينفق عليه لفقره وقرابته، فلما خاض فيما خاض آلى أن لا ينفق عليه، فلما نزلت: «فليعفوا وليصفحوا، ألا تحبون أن يغفر الله لكم»، عاد أبو بكر إلى الإنفاق وقال: بلى أنا أحب أن يغفر الله تعالى لى؛ **ووابصة بن معبد الجهنى** فلّما استقر بالرقة من بعد ظَلّ على حاله يجالس الفقراء ويقول هم إخوانى على عهد رسول الله ﷺ؛ **وهلالى مولى المغيرة**، قال فيه الرسول ﷺ: ليدخلن من هذا الباب رجل ينظر الله إليه — يعنى هلالا. وقال: ما أحبك على الله وما أكرمك عليه».

فهؤلاء هم بعض أهل الصفة الذين يقتدى الصوفية بسيمتهم، ويلازمون طريقتهم، ويتتبعون آثارهم، وقد أحصاهم عبدالرحمن السلمى فى طبقات الصوفية، وأبو نعيم فى الحلية، لتوطئة مذهب المتصوفة وتهذيبه على ما بينوه، إذ حقيقة هذا المذهب متابعة الرسول ﷺ فيما بلّغ وشرّع.

■ ■ ■

الصفوية

طريقة شيعية فى التصوف، بمعنى أنها تقرن التصوف بالتشيع، وتسب لشيخها

صفى الدين الأردبيلى من مريدى كمال الدين عربشاه الأردبيلى ، توفى سنة ٧٣٥ هـ ، وخلفه ابنه صدر الدين موسى المتوفى سنة ٧٩٤ هـ فأدخل الفتوة على الطريقة فوصفه محمد نور بخش أنه من أوتاد الأولياء وفتيانهم ولقبوه بخليل العَجَم ، وخلفه علاء الدين على سياه بوس وظهرت فى أيامه ضمن المريدين اتجاهات عسكرية هدفها تكوين دولة فارسية وتقويض الخلافة العربية أو دحر العرب من بلاد الفرس والترك ، وأطلقوا على أنفسهم لأول مرة اسم **الفدائيين** ، وفى خلافة الجنيد بن إبراهيم بن علاء الدين شرع فى تكوين طريقة من المتصوفة من الشيعة الغالية ، وبعد قتله تولى ابنه حيدر ثم إسماعيل بن حيدر. والصفوية وإن كانت صوفية اسما إلا أنها شيعية جوهراً ومبنى. ومنها متصوفة **الشبك** وهم فى حقيقتهم بكتاشية وتحولوا إلى صفوية ويجمعون بين التصوف والتشيع ويصدرون عن نزعة ملامتية جعلتهم يستخفون بالتكاليف والشرائع فأبطلوها وعاقروا الخمر وأهملوا الاستنجاء وتحللوا جنسياً ، ومن ذلك احتفال دينى عندهم يسمى **ليلة الكشفة** تجتمع فيها النساء والرجال فتُراق الخمور وتُباح الفروج. ومنهم **الباجوان** فى أنحاء الموصل على عقيدة الشبك ، وكذلك **الماولية** . **والإبراهيمية** هم صفوية تلعفر من أقضية الموصل من غلاة الشيعة ، وكتابهم فى التصوف هو **مناقب الأولياء** ويتناول التصوف كباطن للدين ، ويرد قبه أن الإبراهيمية نسبة إلى إبراهيم الزاهد الكيلانى وتتصل طريقته بالطريقة العشقية والتى يقال لها أيضاً الشطارية لأنها تقوم على الشُطّار جمع شاطر وهم الفتوة وتصدر عن روح الفتوة فى زعمهم. وقيل إن نجم الدين كبرى وروزبهان البقلى استاذه من شيوخها.

■ ■ ■

الصوفى (عبدك)

قيل هو **أول من أطلق عليه اسم صوفى من أهل بغداد** ، وهو أصلاً من الكوفة ، وكان أهل الكوفة يُنسب إليها لبس الصوف أو صناعته ، ويطلق عليها البعض اسم الصوفية ، فلما هاجر عبدك إلى بغداد كان أول ما تابع **لبس الصوف فيها** . **ويذكر** كتاب الأنساب للمقدسى أن اسمه عبدالكريم ، وحفيده هو محمد بن على بن عبدك الشيعى وكان مقدم الشيعة. وعبدك نقلاً عن ماسينيون هو آخر شيوخ فرقة شيعية فى الكوفة أطلقوا على أفرادها اسم الصوفى ، فلما تركها إلى بغداد نادوه باسم الكوفى أو الصوفى. ويذكر **الملطى** فى كتابه **التنبيه والرد على أهل الأهواء والبدع** أن عبدك كان رأس فرقة من الزنادقة الدين زعموا أن الدنيا كلها حرام محرم لا يحل لأحد منها

إلا القوت من حيث ذهب أئمة العدل ، ولا تحل الدنيا إلا بإمام عادل وإلا فهى حرام ، ومعاملة أهلها حرام ، فحل لك أن تأخذ القوت من الحرام من حيث كان .

■ ■ ■

الصوفى (محمد)

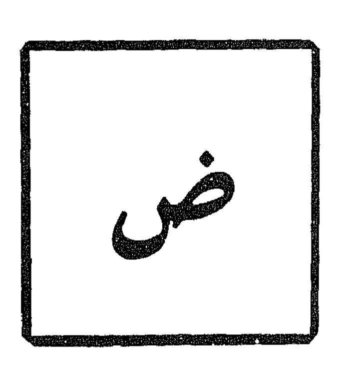
من كبار العارفين ، وكان يسكن **الفيوم** بمصر ويأكل من عمل يده بالحياكة ، وله عبارات يدق فهمها على العقول ، ومن ذلك قوله إن السير سيران ، **سير إلى الله ، وسير فى الله ،** فما دام السالك يسير فى مسالك فانية فهو يسير إلى الله ، فإذا قطع كرة الوجود صار إلى المعبود ، وهى **رتبة التحقق بالأسماء ،** ففى البداية أنت أنت ، والاسم الاسم ، وفى منتصف الطريق تارة أنت ، وتارة الاسم ، وفى النهاية أنت ولا اسم ، فإن التخلف بالاسم يظهر فعله على ناسوتك لقوته ، فلا يُرى منك إلا فعل الاسم . وكان يقول طى **المعانى** هو مجال أهل **العلم الأكبر،** وطى **المحسوسات** هو مجال أهل **العلم الأصغر.** وكان يقول : **الصفات ،** وإن كانت راجعة إلى مصدر واحد ، إلا أن بعضها متوقف على بعض توقف ظهور لا توقف إيجاد . وكان يقول : إنه يجتمع **بالنبى** فى اليقظة ، وهو صادق لأنه ﷺ موجود فى شريعته ويمكن أن تلقاه فى أى وقت بمطالعتها فى أى كتاب ، ومراعاة الشريعة فى كل فعل وقول .

■ ■ ■

الصومعى (محمد)

إبن عبد الرحمن ، الهروى الأصل ، مغربى قرأ على الحسن اليوسى ، وتنقّل بين تاوله وفاس والرباط وغيرها ، وله **شرح همزية البوصيرى ،** وتوفى بالطاعون سنة ١١٦٣ هـ .

■ ■ ■



إبن ضيف الله

محمد النور بن ضيف الله السودانى، صاحب كتاب **«طبقات الأولياء والصالحين فى السودان»**، كان أبوه يجمع بين تعاليم القادرية والشاذلية، ونشأ ابنه متأثراً بالمناخ الدينى الصوفى بالسودان حيث كانت تسيطر عليه الطرق القادرية والشاذلية والسمانية والختمية، وكان لشيوخها سلطان روحى عظيم على نفوس المريدين الذين التزموا بمناهجها الأخلاقية، واعتقدت العامة والملوك على السواء فى الأولياء، وذاع التصوف كثيراً نتيجة للتكريم الذى أولاه الملوك لمشايخ الصوفية، وخاصة ملوك الفونج، وكانت المساجد بالإضافة إلى أنها دور عبادة فقد اتخذها الصوفية خلوات، ويذكر ابن ضيف الله أن فكرة **الخلوة** بمفهومها الصوفى دخلت السودان مؤخراً، وتفرغ الصوفية للتعبد بعد أن كانت بدايتهم الأولى دراسة الفقه وعلوم القرآن وتدريسها فى المساجد، وصارت الخلوة أكثر الأسماء استعمالاً ودلالة على معهد التعليم وبمثابة المركز الثقافى والاجتماعى والروحى فى كل قرية، ويروى ابن ضيف الله أن لفظة **«فكى»** العامية صارت تعنى فى السودان **الفقيه والفقه** الصوفى معاً، فربما هى تحريف لفقيه، وربما لفقير. وكان للتصوف وانتشار الطرق الصوفية فضل نشر الإسلام وتعميم الدعوة الإسلامية، إلا أن الاهتمام بالتصوف كان على نواحيه العملية دون النظرية، ويقول **يوسف فضل حسن** محقق كتاب الطبقات أن السودان لم يشهد مولد نظريات أو فلسفات صوفية، وإن كانت بعض الترجمات التى ترد فى كتاب ابن ضيف الله تورد بعض اللمحات الفلسفية الروحية الأصيلة، وهناك نماذج من الحب

الإلهى إلا أنها لا تعكس تجربة أصيلة . ويقرر المؤلف أن دافعه إلى تأليف هذا الكتاب هو التنويه بمناقب الأولياء الأعيان للسودان ، وقد اقتدى فيه بمن تأثر بهم من المحدثين والفقهاء والمؤرخين ممن ألفوا فى التأريخ والمناقب مثل **عبد الغفار النيسابورى والسيوطى وابن حجر العسقلانى والشيخ أحمد المقرى** ، وكان أكثر تأثره بكتاب **الطبقات الكبرى للشعرانى** الذى روى عنه الكثير من الأخبار، وكذلك **طبقات الشافعية للسبكى** ، ويقول : «وأردت أن أجمع الأعيان والعلماء والقرّاء، كلاً على حده ، إلا أنهم جمعهم جميعاً فى ترتيب أبجدى ، ونوه بأسماء العلماء والصوفية الذين حفلت بهم مملكة الفونج ، وتحتوى الطبقات على نحو **٢٧٠ ترجمة** تشتمل كل واحدة على اسم الصوفى أو الولى ونسبه ومولده ، والعلوم التى درسها ، وشيوخه الذين أخذ عنهم الطريق ، والمريدين الذين تلقوا عليه . ويعتمد طول الترجمة على أهمية الشيخ ، فتراجم الشيخ إدريس ودالأرباب وبدوى أبى دليق وحسن ودحسونه وخوجلى عبد الرحمن وصالح بن نقا طويلة ومنظمة ، وبعض التراجم قصير لا يتجاوز السطور مثل تراجم تاجورى النحاس ومرزوق بن الشيخ يعقوب ، واعتمد المؤلف على المتواتر من أخبار الأولياء بين العامة ، وجمع فى ثنايا ترجماته الكثير من حياة السودانيين الدينية والعلمية والأدبية والسياسية والاجتماعية والاقتصادية ، والكثير من التعابير والاصطلاحات والألفاظ المندثرة ، وأسماء الأعلام غير العربية مثل تريجم وحتيك والكرسنى .

■ ■ ■

ط

أبو طالب المكّى

محمد بن عطية الحارثى، الإمام صاحب كتاب «**قوت القلوب**» وهو المرجع الثبت فى التصوف، تأثر به الغزالى فى كتابه إحياء علوم الدين، وذكره كأحد المتون فى كتابه المنقذ من الضلال، واقتبس منه الكثير أبو حفص شهاب الدين السهروردى فى كتابه «عوارف المعارف». والمكى من أهل الجبل بين بغداد وواسط، وكانت نشأته وشهرته بمكة، وإليها ينسب. والكتاب عنوانه الكامل «**قوت القلوب فى معاملة المحبوب ووصف طريق المريد إلى مقام التوحيد**». وقيل إن المكى رحل إلى البصرة، فاتهموه بالاعتزال، وسكن بغداد ووعظ بها فحفظ الناس عنه أقوالاً هجروه من أجلها، وتوفى ببغداد سنة ٣٨٦هـ. وقيل فى وصف هذا الكتاب إنه لم يُؤلف فى هذا الباب مثله، وكان ومايزال مدرسة للمريدين والسالكين، وكل الطرق الصوفية تستقى منه وتصدر عنه فيما تأخذ به من أذكار وأدعية وصلوات وصيام، وقد اختصره محمد بن خلف الأموى المتوفى سنة ٧٤٣هـ بدمشق وسماه «**الوصول إلى الغرض المطلوب من جواهر قوت القلوب**» ليسّهل مذاكرته على الطالبين. وللمكى أيضاً كتاب «**علم القلوب**» وله تفسير كبير. والكتاب يشتمل على **ثمانية وأربعين** فصلاً تناول فيها ما ينبغى للمريد من أعمال بالنهار وفى الليل، وصلواته وتسابيحه وقراءاته قبل وبعد كل صلاة، ومايستحب من الذكر والدعاء، وأوراد الليل والنهار، وتعريف النفس ومحاسبتها ومواجيد العارفين، والمقامات، والغفلة، واعتقادات القلب ومعاملاته وخواطره، وعلوم الباطن، وعلماء الدنيا والآخرة، والإخلاص والمؤاخاة والمحبة

وأوصاف المحبين، ويحذر من المبتدعين الضالين، والصوفية من أصحاب الشطح الغالطين المتجاوزين للكتاب والسنة والمسقطين للعلم والأحكام. **والتصوف** من منظور أبى طالب المكى أساسه الصدق فى الإرادة، والعلم بالطريق، فإذا كان المطلوب محجوباً، والدليل مفقوداً والاختلاف موجوداً لم ينكشف الحق وتحيّر المريد. ولابد فى تربيته من **خصال سبع: الصدق فى الإرادة** وعلامته إعداد العدة، **والتسبب إلى الطاعة** وعلامة ذلك هجر قرناء السوء، **والمعرفة بحال نفسه** وعلامة ذلك استكشاف آفات النفس، **ومجالسة عالم بالله** وعلامة ذلك إيثاره على ما سواه، **والتوبة النصوح** فبذلك يجد حلاوة الطاعة ويثبت على المداومة، وعلامة التوبة قطع أسباب الهوى والزهد فيما كانت النفس راغبة فيه، ولابد له من **طعمة حلال** لايذمها العلم، وعلامة ذلك الحلال المطَالبة عنه، وحلول العلم فيه يكون بسبب مباح وافق فيه حكم الشرع، ولابد له من **قرين صالح** يؤازره على ذلك، وعلامة القرين الصالح معاونته على البر والتقوى ونهيه إياه عن الإثم والعدوان، فبهذه الخصال السبع تقوى الإرادة، ولا قوام لها إلا بها. ويستعان على هذه السبع **بأربع** هن أساس بنيانه وبها قوة أركانه، أولها **الجوع، ثم السهر، ثم الصمت، ثم الخلوة**، فهذه الأربع: سجن النفس وضيقها، وضرب النفس وتقييدها بهن يضعف صفاتها، وعليهن تحسن معاملاتها، ولكل واحدة من الأربع صنعة حسنة فى القلب، فأما الجوع فإنه ينقص من دم القلب فيبيض، وفى بياضه نوره، ويذيب شحم الفؤاد، وفى ذوبه رقته، ورقته مفتاح كل خير، لأن القسوة مفتاح كل شر، وإذا نقص دم القلب ضاق مسلك العدو منه، لأن دم القلب مكانه، فإذا راق القلب ضعف سلطان العدو منه. والجوع مفتاح الزهد وباب الآخرة، وفيه ذل النفس واستكانتها وضعفها وانكسارها، وفى ذلك حياة القلب وصلاحه. وأقل ما فى الجوع إيثار الصمت، وفى الصمت السلامة وهى غاية العقلاء، ومن صفة الأبدال أن يكون أكلهم فاقة ونومهم غلبة وكلامهم ضرورة. وعلم التصوف ينجزىء على قسمين، نصفه سكوت، ونصفه أن تدرى أين تضعه. والخلوة هى أن تفرغ القلب من الخَلْق، وتجمع الهمّ بأمر الخالق، وتقوّى العزم على الثبات، إذ فى مخالطة الناس وَهَن العزم وشتات الهمّ وضعف النية. والخلوة يكون بها الانصراف إلى الذكر، وجلاء القلوب بالذكر، وبه يبصر القلب، **وعلم القلب** هو حقيقة الفقه، والرسول يقول ما حاك فى صدرك فَدَعْه، والإثم حواز القلوب، يعنى ما يؤثر فيها فينحزها لرقتها وصفائها ولينها ولطفها. وقال للرجل الذى سأله عن البرّ والإثم اسْتَفْتِ قلبك وإن أفتاك المُفتون، أى أن المتفين يعلمون معانى التأويل والرخصة، ولولا **أن علم القلوب** هو حقيقة الفقه ما ردّ

صاحبه من فتيا أهل الظاهر إليه ولا حكم على المفتين به ، فقد صار علم القلوب هو علم العلم إذ جعله الرسول قاضياً على المفتين بالحكم ، وصار عالم البطن هو عالم العلماء إذ لم يسعه تقليد العلماء. وفى حديث آخر البرّ ما اطمأن إليه القلب وسكنت إليه النفس وإن أفتوك وأفتوك ، فهذا وصْف قلبٍ مُكاشَف بالذِكر، ونعْتُ نفسٍ ساكنةٍ بمزيد السكينة والبر، كما وصف قلوب المؤمنين فى صريح الكلام وفى دليل الخطاب ، فأما صريحه فقوله تعالى الذين آمنوا وتطمئن قلوبهم بذكر الله ، ألا بذكر الله تطمئن القلوب ، وقوله تعالى هو الذى أنزل السكينة فى قلوب المؤمنين ليزدادوا إيماناً مع إيمانهم ، وأما دليل الكلام الذى يشهد بالتدبر فقوله تعالى فى وصف قلوب أعدائه المحجوبين كانت أعينهم فى غطاء عن ذكرى وكانوا لا يستطيعون سمعاً ، وقال ﷺ فى مجمل صفة القلب التقوى ههنا وأشار إلى القلب ، وفى الخبر إذا أراد الله بعبد خيراً جعل الله له زاجراً من نفسه وواعظاً من قلبه ، وقال الله تعالى فى التوبة من ميل القلوب ، وقال فى تحقيق العَمَى للقلب فإنها لا تعمى الأبصار ولكن تعمى القلوب التى فى الصدور، فأهل القلوب يتعظون بلا واعظ ويزدجرون بلا زاجر. والقلب خزانة الله تعالى من خزائن الغيب ، وهذه المعانى جنود الله تعالى مقيمة حول القلب يخفى منها ما يشاء ويظهر، ويبدى منها ما يريد ، ويعيد ويبسط القلب بما يشاء منها ، ويقبضه فيما شاء عنها . وإذا كان الإيمان فى ظاهر القلب كان العبد محباً للآخرة والدنيا فهو مرة مع الله ومرة مع نفسه ، فإذا دخل الإيمان إلى باطن القلب أبغض العبد الدنيا وهجر هواه . وقيل إن للقلب تجويفين ، أحدهما باطن وفيه السمع والبصر، وهو قلب القلب ، والآخر ظاهر القلب وفيه العقل ، ومثل العقل فى القلب مثل النظر فى العين . وخواطر القلب أولها **الهمة** وهو ما يبدو من وسوسة النفس بالشيء ، فإن صرفها بالذكر انمحت وإن تركها بالغفلة كانت **خطْرة** وهو خطور العدو بالتزيين ، وإن نفى الخاطر ذهب ، وإن ولى عنه قوى فصار وسوسة ، وهذه محادثة النفس للعدو وإصغاؤها إليه ، وإن نفى العبد هذه الوسوسة بذكر الله خنس العدو وصفت النفس ، وإن طاولت النفس **العوْد** بالإصغاء والمحادثة قويت الوسوسة فصارت نيّة ، فإن أبدل العبد هذه النية بنية خير فاستغفر منها وتاب ، وإلا قويت فصارت عَقْداً ، فإن حل هذا العقد بالتوبة وهو الإصرار، وإلا قوى فصار عزماً وهو القصد ، فإن تداركه الله بَعْدَ العزم ، وإلا تمكّن العزم فصار طلباً وسعياً وأظهر العمل على الجوارح فصار من أعمال الجسم .

■ ■ ■

الطرق الصوفية وفروعها

الإباحية ......

الاتحادية ......

الأحمدية: طريقة السيد البدوى المتوفى ١٢٧٦م ولها عدة فروع: الشنّاوية، والمرازقة، والكنّاسية، والانبابية، والحمودية، والمنائفية، والسلامية، والحلبية، والزاهدية، والشُعَيبية، والتسقيانية، والعربية، والسطوحية، والبندارية، والمُسلّمية أو الشُربلالية، والبيومية.

الإدريسية: فرع من الطريقة الخاضرية فى العسير.

الأدهمية: تنسب إلى إبراهيم بن أدهم.

الاسماعيلية: طريقة نوبية فى كردفان.

الإشراقية: أتباع السهروردى الحلبى.

الأشرفية: فرع تركى من الطريقة القادرية مؤسسها عبدالله الأشرفى الرومى (٨٩٩ هـ) وتسمى أيضاً الواحدية.

الإعت باشية: فرع تركى من الطريقة الخلوتية.

الاغتشاشية: فرع خراسانى من الطريقة الكبراوية (إسحق ختّلانى المتوفى فى القرن الخامس عشر).

الأكبرية: هى الحاتمية.

الأميرغنية: فرع نوبى من الطريقة الإدريسية.

الأمى سنانية: طريقة تركية.

الأويسية: تنسب لأويس الفرنى الصحابى.

البابائية: طريقة تركية فى أدرنة.

البحورية ......

البدوية: نسبة لأحمد البدوى.

البراقية: مؤسسها براف بابا من تركيا.

البرهانية: أو البُرهمية طريقة إبراهيم الدسوقى وفرعاها الشهاوية والشرابنة.

البسطامية: أو الطيفورية نسة إلى أبى يزيد طيفور البسطامى.

البكتاشية: طريقة أناضولية ولها فرع ألبانى مركزه آقجه حصار.

البكرية: أنظر الصدّيقية، وتطلق أحياناً على بيت البكرى شيوخ الصوفية فى

القاهرة منذ القرن السادس عشر، وهى فرع سورى مصرى من الشاذلية وطريقة خلوتية .

البكائية: فرع سودانى للقادرية ، ولها فرعان الفضلية والآل سيدية .

البناوة: فرع القادرية فى الدكن .

البوعلية: فرع جزائرى مصرى من القادرية .

البونوحية: طريقة مغربية .

البيرية: طريقة من طرق قيليقية .

البيرحاجات: طريقة أفغانية من أتباع الأنصارى الهروى .

البيرامية: مؤسسها حاجى بيرام فرع تركى من الطريقة الصفوية ، وانقسمت إلى الحمزاوية والشيخية والهَّمتية .

البيومية: فرع من الأحمدية .

التبائية: طريقة تونسية .

التجانية: طريقة جزائرية مغربية انتشرت إلى السودان .

التشتية: طريقة هندية أفغانية مركزها أجمير .

التلقينية: زندقة .

التهامية: هى الطَيْبية .

الجباوية: هى الطريقة السعدية .

الجراحية: فرع تركى من الخلوتية .

الجزولية: من فروع الشاذلية ، ومنها فروع الدرقاوة والحمادشة والعيسوية والشرقاوة والطيبية .

الجلالة: فرع القادرية فى المغرب .

الجلالية النجارية: فرع هندى من السهروردية (مؤسسها مخدوم جهانيان المتوفى ١٣٨٣م) .

الجمالية: فرع فارسى من السهروردية مؤسسها أردستانى المتوفى فى القرن الخامس عشر الميلادى . والجمالية أيضاً طريقة تركية مكانها استنبول .

الجلوتية: فرع تركى للصفوية ، وفروعها الهاشمية والروشنية والفنائية والهدائية .

الجنيدية: تنسب للجنيد وتفرع منها الخواجكان والكبراوية والقادرية .

الحاتمية: تنسب لابن عربى .

الحبيبية: فرع من الشاذلية فى تافيلالت .

الحروفية: زندقة .

الحريرية: فرع حورانى من الرفاعية .

الحفنوية: فرع مصرى من الخلوتية (توفى ١٧٦٧م).

الحكيمية: تنسب للحكيم الترمذى .

الحلاّجية: تنسب للحلاج .

الحلمانية: فرقة حلولية .

الحلولية: زندقة .

الحمادشة: فرع مغربى من الجزولية ولها فروع هى الدغوغية والصداقية والرباحية والقاسمية .

الحمزاوية: مزيج من البيرامية والملامية .

الحنصلية: طريقة مغربية .

الحيدرية: فرع فارسى من القلندرية .

الخاضرية: أو الخضرية طريقة ابن الدباغ بالمغرب ، وتفرعت منها الميرغنية والإدريسية والسنوسية .

الخرازية: تنسب لأبى سعيد الخراز.

الخفيفية: تنسب لابن خفيف الشيرازى .

الخفية: لقب النقشبندية فى الصين والتركستان .

الخلوتية: فرع السهروردية فى خراسان ، وفروعها فى تركيا الجراحية والاغتباشية والعشاقية ، والنيازية والسنبلية والشمسية والكلشنية والشجاعية ، وفى مصر الضيفية والحفنوية والسباعية والصاوية الدرديرية والمغازية ، وفى النوبة والحجاز والصومال الصالحية .

الخليلية: تونس .

الخموسية: تونس

الخواجكان: فى إيران متفرعة من الجنيدية ، وفى تركستان هى اليسوية نسبة إلى يوسف الهمذانى المتوفى سنة ١٤٤٠م .

الخواطرية: فرع ابن عراف للطريقة المدنية بالحجاز.

الدرديرية: فرع مصرى من الخلوتية .

الدرقاوه: فرع جزائرى مغربى من الجزولية ، وفروعها البوزيدية والكتانية والحراقية والعلوية .

الدسوقية: هى البرهانية .

الدهرية: اليمن والصين وتركستان.

الذهبية: الاسم الفارسى للكبراوية.

الرحّالية: المغرب.

الرحمانية: فرع خلوتى فى بلاد القبائل.

الرسولشاهية: الهند.

الرشيدية: الجزائر منشقة من اليوسفية.

الرفاعية: البصرة ثم دمشق واستنبول، وفروعها السورية الحريرية والسعدية والسيادية، وفروعها المصرية البازية والمالكية والحبيبية.

الركنية: فرع عراقى للكبراوية (علاء الدولة السمنانى المتوفى سنة ١٣٣٦م).

الروشنية: فرع خلوتى مصرى وتركى (الكلشنى المتوفى ١٥٥٣م).
والروشنية فرع أفغانى من السهروردية.

الرومية: هى الأشرفية.

الزرّوقية: فرع إيرانى من الشاذلية.

الزريقية: أو الزرقية زندقة.

الزيانية: فرع مغربى من الشاذلية.

الزينية: فرع تركى من السهروردية فى بروسه.

الساسانية: رباط حرفى فى سوريا والأناضول.

السالمية: السهلية.

السبعينية: طريقة ابن سبعين.

السعدية: فرع سورى من الرفاعية.

السقطية: تركية (السقطى المتوفى ٨٦٧م).

السلامية: وهى العروسية أيضاً.

السلطانية: تركستانية.

السمانية: فرع مصرى وسودانى من الشاذلية.

السنبلية: فرع تركى من الخلوتية.

السنان أمية: تركية.

السنانية: تونسية.

السنوسية: ليبية.

السهروردية: عراقية (عبد القاهر السهروردى وعمر السهرودرى) وتسمى الصدّيقية

على اسم أبى بكر الصدّيق، وفروعها الجلالية والجمالية والخلوتية والروشنية والصفوية والزينية.

السهلية: نسبة إلى سهل التسترى.

السهيلية: فرع جزائرى للشاذلية.

السيارية: نسبة لأبى العباس السيارى.

الشاذلية: فروعها فى المغرب الغازية والحبيبية والكرزازية والناصرية والشيخية والسهيلية واليوسفية والزروقية والزيانية. وفروعها المصرية البكرية والخواطرية والوفائية والجوهرية والمكية والهاشمية والسمانية والعفيفية والقاسمية والعروسية والهندوشية والقاووجية. ولها فروع فى استنبول ورومانيا والنوبة وجزائر القمر.

الشرقاوه: فرع مغربى من الجزولية.

الشرقاوية: مصرية من الخلوتية.

الشطارية: هندية وسومطرية وجاوية. نسبة إلى شطار المتوفى ١٤١٥م.

الشعبانية: تركية خلوتية.

الشمسية: تركية خلوتية.

الشوذية: تركية سبعينية.

الشيخية: أولاد سيدى شيخ فى وهران وهم شاذلية.

الصفوية: فرع آذرى من السهروردية.

الطالبية: مغربية.

الطيبية: مغربية جزولية.

الطيفورية: نسبة إلى أبى يزيد طيفور البسطامى.

العاشقية: زندقة.

العروسية: طرابلسية قادرية.

العزوزية: تونسية.

العشاقية: تركية خلوتية.

العشيقية: هندية شطارية (أبو يزيد عشقى المتوفى فى القرن الخامس عشر).

العلوانية: حجازية.

العمارية: تونسية جزائرية قادرية.

العلوية: جزارية درقاوية.

العلوية: نسبة إلى على بن أبى طالب .

العوامرية: تونسية عيسوية .

العيدروسية: يمنية كبراوية .

العيسوية: مغربية جزولية .

الغازية: مغربية شاذلية .

غزالية: مدرسة الغزالى .

الغوثية: هندية شطارية .

فردوسية: هندية كبراوية .

قادرية: نسبة لعبد القادر الجيلانى ولها فروع فى اليمن والصومال : اليافعية والمشارعية والعرابية ، وفى الهند البناوة والكرزمر، وفى والأناضول الأشرفية والهندية والخلوصية والنابلسية والرومية والوصلنية ، وفى مصر الفارضية والقاسمية ، وفى المغرب العمارية والعروسية والبوعلية والجلالة ، وفى السودان الغربى البكائية .

القرّائية: تونس .

القشيرية: تنسب للقشيرى .

القصارية: تنسب لحمدون القصار واسمها الملامتية .

القلندرية: فارسية .

القونياوية: نسبة لصدر الرومى ــ انبثقت من الحاتمية .

الكبراوية: خراسان من الجنيدية ، وفروعها العيدروسية والهمذانية والاغتشاشية والنوربخشية والنورية والركنية .

الكارزونية: فارس من الخفيفية .

الكرزارية: شاذلية فى تافيلالت .

الكرزمر: هندية قادرية .

الكلشنية: الروشنية .

المتبولية: مصرية .

المحاسبة: الحارث المحاسبى .

المحمدية: نسبة إلى النبى استعمل الاسم علّى الخواص والشعرانى .

المدارية: هندية .

المدنية: اسم الشاذلية أولاً .

المرادية: تركية .

المرازقة: فرع الأحمدية .

المشارعية: يمنية قادرية .

المشيشية: ابن مشيش .

المصرية: النيازية .

المطاوعة: الأحمدية .

المغربية: مريدوالشاعر الفارسى مغربى .

الملامية: خراسان .

الملامتية: الحمزاوية فرع البيرامية فى تركيا .

المنصورية: الحلاجية .

المولوية: جلال الدين الرومى ، وفروعها البوستنشينية والإرشادية .

الناصرية: المغرب شاذلية .

النبوية: رابطة حرفية فى سوريا .

النعمت اللية: طريقة شيعية فى كرمان فارس من القادرية اليافعية .

النقشبندية: تركستان من الطيفورية وفروعها فى الصين وقازان وتركيا والهند وجاوه .

الخالدية: نقشبندية نسبة إلى خالد النقشبندى .

النوربخشية: خراسان كبراوية (محمد نور بخش المتوفى ١٤٦٥م) .

النورالدينية: الجراحية .

النورية: مدرسة أبى الحسين النورى .

النيازية: تركية جلوتية .

الهدارة: المغرب .

الهمذانية: كشمير كبراوية .

الوارث عليشاهية : هندية .

الوحدنية: زندقة .

الوصولية: زندقة .

اليسوية: فرع خواجكان بتركستان .

اليوسفية: شاذلية مغربية .

يونسية: سورية (الشيبانى المتوفى ١٢٢٢م) .

■ ■ ■

إبن طُفَيْل

أبو بكر محمد بن عبدالملك بن محمد بن أحمد بن طفيل القيسى، الأندلسى والقرطبى والإشبيلى أيضاً، والمعروف عند الفرنجة باسم **أبو باسر** Abubacer تحريف لأبى بكر، صاحب قصة **حيى بن يقظان**، أشهر ما دبجته اليراع عن التصوف وطريق الصوفية، وقد ترجمت بمختلف اللغات، ومنها الترجمة التى توفر عليها **بوكوك** باللاتينية بعنوان **الفيلسوف الذى علمّ نفسه** Philosophus Autodidactus فلما قرأها لايبنتس امتدحها أيمّا امتداح. وابن طفيل فيها **فيلسوف صوفى**، والنهاية أو الدرس الذى نستخلصه منها هو درس صوفى خالص، وإن كان الطريق الذى اتبعه فى تعليمه هو طريق الفلسفة، غير أن ابن طفيل من بداية القصة بمهد لها بنقد شديد للفلسفة عند أئمتها، ويعلن أنه إلى جانب **الحكمة المشرقية** أى التصوف، وليس إلى جانب الحكمة المغربية أى الفلسفة، ولا يحاول أن يوفق بين الفلسفة والدين، وإنما هو يقول إن الفلسفة مرحلة على الطريق، وأن العقل بوسعه أن يصل متحرراً من كل سلطة إلى المعرفة التى تتهايأ له بالشريعة، والفلسفة أقل مرتبة من الدين، لأنها من تحصيل العقل، بينما الدين يعالج ما تعالجه الفلسفة بالإضافة إلى متطلبات الروح، غير أن رجل الدين تعلقه بالظاهر، والصوفى تعلقه بالباطن، وهو مشغوف ومشغول بالحق، ومرتبته لذلك أعلى المراتب فى الإنسانية، ويضرب ابن طفيل لذلك مثلاً بمكفوف البصر الذى كان كذلك منذ ولادته، ولكنه جيد الفطرة، قوى الحدس، ثابت الحفظ، مسدد الخاطر، فنشأ يتعرف أشخاص الناس وأنواع الحيوان والجمادات والسكك والمسالك والديار والأسواق، بما له من ضروب الإدراكات الأخر، حتى صار بمشى فى مدينته بغير دليل، ويعرف كل من يلقاه ويسلم عليه بأول وهلة. وكان يعرف الألوان بشروح أسمائها وبعض الحدود التى تدل عليها. ثم إنه بعد أن حصل هذه الرتبة حدثت له الرؤية البصرية، فشى فى تلك المدينة كلها وطاف بها فلم يجد أمراً على اختلاف ما كان يعتقده، ولا أنكر من أمرها شيئاً، وصادف الألوان على نحو صدق الرسوم عنده، غير أنه فى ذلك كله حدث له أمران هما **زيادة الوضوح، واللذة العظيمة.** ويخلص ابن طفيل من هذا المثل إلى أن حال الناظرين الذين لم يصلوا إلى مراتب الصوفية أو مرتبة الولاية هى حالة الأعمى الأولى، وفى مرتبة الولاية يكون الوصول، وتكون اللذة، وهى حال تعجز عنها العبارات، ولا يبلغها إلا الفرد بعد الفرد، ومن ظهر فيها بمعرفة لم يكلم الناس عنها إلا رمزاً، لأن الملة الحنيفية والشريعة المحمدية تمنع من

الخوض فيها وتحذر عنها ، والفلسفة لا تزودنا بشيء عن هذه المعرفة ، لأنها لا تتحقق بالبحث والنظر، وإنما بالذوق والمشاهدة ، فمن أرادها ينبغي له الزمن غير اليسير والفراغ من الشواغل والإقبال بالهمة . ويلجأ ابن طفيل للرمز والأساطير، **وحى بن يقظان** إنسان يوجد فى جزيرة متوحدة ، ووجوده فيها على الفطرة ومنذ البداية له فرضان ، فإما أنه بحسب القصة إبن لأميرة شديدة الحُسن ، لها أخ منعها من الزواج لأنه لم يجد لها كفؤاً ، وكان لها قريب يقال له **يقظان** تزوجها سراً فحملت منه وولدت ، وخافت أن يفتضح أمرها فوضعت طفلها فى تابوت ، وقذفت به إلى اليّم الذى دفعه إلى جزيرة تكسّر خشب التابوت على ساحلها ، وبكى الطفل فوقع بكاؤه على أذن ظبية فقدت ولدها ، فأقبلت عليه وأرضعته كولدها وتعهدته ، وهذا افتراض من يقولون أن ولادة الإنسان لابد فيها من أبوين ؛ وإما بحسب الافتراض الثانى أن التولد من الممكن أن يحدث من تخمرات الطين فتحلّ فيه الروح الذى من أمر الله فإنه تعالى فيّاض دائماً على جميع الموجودات ، ولم يكن بالجزيرة شيء من سباع ، فتربى الطفل ونما واغتذى بلبن تلك الظبية ، وتدرج فى المشى وكان يتبع الظبية فترفق به ، وتعلم الأشياء من حوله وصفاتها وخصائصها ، وعرف معنى الموت ، والأنواع والأجناس ، والفوارق بين الجماد والنبات والحيوان والإنسان ، وأن الموجودات لها جسمية ومعنى آخر زائد على الجسمية ، ولاحت له صورة الأجسام على اختلافها وهو أول ما لاح له من العالم الروحانى ، لأنها صور لا تدرك بالحس ، وإنما تدرك بضرب من **النظر العقلى** ، وأدرك فى الحيوان النفس الحيوانية ، وفى النبات النفس النباتية ، وفى الجماد المادة والصورة . ونظر فى ارتباط الموجودات فعلم **أن كل حادث لابد له من مُحْدِث** ، فارتسم فى نفسه فاعل للصورة ارتساماً على العموم ، وتتبع الصور فرأى أنها كلها حادثة ولابد لها من فاعل ، وتبيّن أن الأفعال الصادرة عنها ليست فى الحقيقة لها وإنما لفاعل يفعل بها الأفعال المنسوبة إليها ، **فلمّا لاح له من أمر هذا الفاعل على الإجمال حدث له شوق حثيث إلى معرفته على التفصيل** ، وجعل يطلبه على جهة المحسوسات ، وطرحها كلها لما رأى أنه ما من شيء منها بريء عن الحدوث والافتقار إلى فاعل ، وانتقل فكره إلى الأجسام السماوية ، وكان عمره وقتها **ثمانية وعشرون** عاماً ، فعلم أن السماء وما فيها من كواكب أجسام لأنها ممتدة فى الطول والعرض والعمق ، وعرف بقوة نظره أن الفَلَك فى جملته بما يحتوى عليه كشيء واحد متصل ، وأن الأرض والماء والهواء والنبات والحيوان كلها ضمنه ، وكأنه حيوان كبير هى منه بمثابة الأعضاء . فلما تبيّن أن الكون كله كشخص واحد فى الحقيقة ، وأنه محتاج إلى فاعل مختار، أدرك أن هذا

الفاعل لا يمكن أن يكون جسماً كالأجسام، ولو كان جسماً لكان من جملة العالم، وكان حادثاً واحتاج إلى مُحِدث، وإذن لابد من فاعل ليس بجسم، وإذا لم يكن جسماً **فليس إلى إدراكه بشيء من الحواس سبيل**، لأن الحواس الخمس لا تدرك إلا الأجسام أو ما يلحق الأجسام، وإذا كان لا يمكن أن يحس **فلا يمكن أن يتخيل**، لأن التخيل ليس شيئاً إلا إحضار صور المحسوسات بعد غيبها، وإذا لم يكن جسماً فصفات الأجسام كلها تستحيل عليه، وإذا كان فاعلاً للعالم فهو لا محالة **قادر عليه وعالم به**، وإذا كانت كل الموجودات مفتقرة إليه فى وجودها ولا قيام لها إلا به **فهو علة لها وهى معلولة له**، ولقد تصفّح جميع الموجودات تصفحاً على طريق الاعتبار فى قدرة فاعلها، والتعجب من غريب صنعته ولطيف حكمته ودقيق علمه، فتبين له فى أقل الأشياء، فضلاً عن أكثرها، من آثار الحكمة وبدائع الصنعة ما قضى منه كل العجب، وتحقق عنده أن ذلك لا يصدر إلا عن **فاعل مختار فى غاية الكمال وفوق الكمال**، أعطى كل شىء خلقه ثم هداه لاستعماله فعلم بذلك أنه **أكرم الكرماء وأرحم الرحماء**. وتتبع صفات النقص كلها فرآه **بريئاً منها ومنزّهاً عنها**، وكيف لا يكون بريئاً منها وليس معنى النقص إلا العدم المحض أو ما يتعلق بالعدم. وكيف يكون العدم قد تعلق أو تلمس بمن هو الموجود المحض **الواجب الوجود بذاته**، المُعْطى لكل ذى وجود وجوده، **فلا وجود إلا هو، فهو الوجود، وهو الكمال، وهو التمام، وهو الحُسن، وهو البهاء، وهو القدرة، وهو العلم**. وانتهت به المعرفة إلى هذا الحد وهو فى **الخامسة والثلاثين** من عمره، فشُغل بأمر **هذا الفاعل** حتى صار بحيث لا يقع بصره على شىء إلا ويرى فيه أثر صنعته، فينتقل بفكره فوراً إلى الصانع ويترك المصنوع، ويشتد به الشوق إليه، وانزعج قلبه بالكلية عن **العالم الأدنى المحسوس وتعلّق بالعالم الأرفع المعقول**. ولمّا كان قد أدرك أن حواسه كلها لا تدرك إلا جسماً أو ما هو فى جسم، وأن الموجود الواجب الوجود برىء من صفات الأجسام لا سبيل إلى إدراكه إلا بشىء ليس بجسم، ولا هو قوة فى جسم، ولا تعلق له بأى وجه من الوجوه بالأجسام، وقد تبين له أنه أدركه بذاته، فتبين له أن ذاته التى أدركه بها لابد أن تكون أمراً غير جسمانى، وأن كل ما يدركه من ظاهر ذاته من الجسيمات فإنها ليست حقيقة ذاته، وإنما **حقيقة ذاته ذلك الشىء الذى أدرك به الموجود المطلق الواجب الوجود**. فلما علم أن ذاته ليست هذه المتجسمة التى يدركها بحواسه ويحيط بها هان عليه جسمه بالكلية، وجعل يتفكر فى تلك الذات الشريفة التى أدرك بها ذلك الموجود الشريف الواجب الوجود، ونظر فى ذاته هل يمكن أن تبيد أو تفسد أو هى

دائمة البقاء، فرأى أن الفساد إنما هو من صفات الأجسام، وأما الشيء الذى ليس بجسم ولا يحتاج فى قوامه إلى الجسم، وهو منزّه عن الجسيمات، فلا يتصور فساده ألبتة. فلما ثبت له **أن ذاته الحقيقة لا يمكن فسادها** أراد أن يعلم عن حالها إذا طرحت البدن وتخلت عنه، ولقد تبيّن له أن كل القُوى المدركة تكون تارة مدركة **بالقوة**، وتارة تكون مدركة **بالفعل**، مثل العين فى حال تغميضها أو إعراضها عن البصر فإنها تكون مدركة بالقوة، ومعنى ذلك أنها لا تدرك الآن وتدرك فى المستقبل، وفى حال فتحها واستقبالها للمبصر تكون مدركة بالفعل. وتبين له أن كل واحدة من هذه القوى إن لم تدرك قط بالفعل فهى ما دامت بالقوة لا تتشوق إلى إدراك شىء مخصوص لأنها لم تتعرف به، مثل مَنْ خُلق مكفوف البصر، وإن كانت قد أدركت بالفعل تارة ثم صارت بالقوة فإنها ما دامت بالقوة تشتاق إلى الإدراك بالفعل لأنها قد تعرفت بذلك المدرك وتعلقت به، **وبحسب ما يكون الشىء المدرك أتم وأبهى وأحسن يكون الشوق إليه أكثر، والتألم لفقده أعظم، فإن كان فى الأشياء شىء لا نهاية لكماله، ولا غاية لحسنه وجماله وبهائه، وهو فوق الكمال والبهاء والحسن، وليس فى الوجود كمال ولا حسن ولا بهاء ولا جمال إلا صادر من جهته وفائض من قبله، فَمَنْ فقد إدراك ذلك الشىء بعد أن تعرّف به فلا محالة أنه ما دام فاقداً له يكون فى آلام لا نهاية لها، كما أن من كان مدركاً له على الدوام فإنه يكون فى لذة لا انفصام لها، وغبطة لا غاية وراءها، وبهجة وسرور لا نهاية لهما.** ومن كانت له مثل هذه الذات المُعَدّة لهذا الإدراك فإنه إذا طرح البدن بالموت، فإما أنه قبل ذلك فى مدة تصريفه للبدن لم يتعرف قط بهذا الموجود الواجب الوجود ولا اتصل به ولا سمع عنه، فهذا إذا فارق البدن لا يشتاق إلى ذلك الموجود ولا يتألم لفقده، وكذلك جميع القوى الجسمانية فإنها تبطل ببطلان الجسم ولا تشتاق لمقتضيات تلك القوى ولا تتألم لفقدها، وهو حال البهائم غير الناطقة سواء كانت فى صورة الإنسان أو لم تكن؛ وإما أنه فى مدة تصريفه للبدن قد تعرّف بهذا الموجود إلا أنه أعرض عنه واتبع هواه حتى وافته منيته على تلك الحال فيحرم المشاهدة وعنده الشوق إليها فيبقى فى عذاب طويل وآلام لا نهاية لها، فإما أن يتخلص من تلك الآلام بعد جهد طويل ويشاهد ما تشوّق إليه قبل ذلك، وإما أن يبقى فى آلامه بقاءً سرمدياً بحسب استعداده لكل واحد من الوجهين فى حياته الجسمانية؛ وأمّا مَن تعرّف بهذا الموجود الواجب الوجود قبل أن يفارق البدن وأقبل بكليته عليه والتزم الفكرة فى جلاله وحسنه وبهائه، ولم يعرض عنه حتى وافته منيته على حال من الإقبال والمشاهدة بالفعل، **فهذا إذا فارق البدن بقى**

في لذة لا نهاية لها وغبطة وسرور وفرح دائم لاتصال مشاهدته لذلك الموجود الواجب الوجود. فلما تبيّن له أن كمال ذاته ولذتها إنما هو بمشاهدة ذلك الموجود على الدوام مشاهدة بالفعل حتى لا يعرض عنه طرفة عين لكى توافيه منيته فى حال المشاهدة بالفعل فتتصل لذته، جعل يتفكر فيه كل ساعة، فما هو إلا أن يسنح لبصره محسوس أو يخرق سمعه صوت أو يعترضه خيال فتختل فكرته ويزول عن حال المشاهدة إلى أن يرجع إليها بعد جهد، وخاف أن تفجأه منيته وهو فى حال الإعراض فيفضى إلى الشقاء الدائم وألم الحجاب، وإلى ذلك أشار الجنيد شيخ الصوفية وإمامهم عند موته بقوله لأصحابه: هذا وقت يؤخذ منه «الله أكبر» وأحرَمَ للصلاة. وساءه ذلك وجعل يتصفح الحيوانات والنباتات ورأى أنها لم تشعر بذلك الموجود ولا اشتاقت إليه، وأنها كلها صائرة إلى حال العدم أو شبيه العدم. وأدرك أنه مباين لسائر المخلوقات، وتفكّر لِمَا اختص هو بهذه الذات، ورأى أنه لابد قد خُلِقَ لغاية أخرى وأُعد لأمر عظيم لم يُعد له سائر الحيوان، وأنه بهذه الذات أو هذا الجزء الأشرف الذى عرف الموجود الواجب الوجود، فيه شَبُه منه من حيث هو مُنزّه عن صفات الأجسام، كما أن الواجب الوجود مُنزّه عنها، ورأى أنه يجب عليه أن يسعى فى تحصيل صفاته لنفسه، وأن يتخلق بأخلاقه، ويقتدى بأفعاله، ويجّد فى تنفيذ إرادته، ويسلم الأمر له، ويرضى بجميع حكمه، رضاً من قلبه ظاهراً وباطناً. وكذلك رأى أن فيه شبها من سائر الحيوان بجزئه الذى من عالم الكون والفساد، وهو البدن المظلم الكثيف الذى يطالبه بالمحسوسات من المطعوم والمشروب وغيرها، وعلم أن هذا البدن لم يخلق له عبثاً ولا قُرن به لأمر باطل، وأنه يجب عليه أن يتفقده ويصلح شأنه، وأن ذلك لا يحصل له إلا بعد التمرن والرياضة، وألزم نفسه أن لا يأخذ لبدنه إلا بقدر الضرورى الذى به بقاؤه. وأن يتدرب على قطع كل العلائق بالمحسوسات، فكان يغمض عينيه ويسد أذنيه ولا يفكر فى شىء سوى الموجود الواجب الوجود حتى كأنه يشاهده، وكان يكدره أن لا تغيب عنه نفسه، وأن تكون ذاته مشاركة فى الملاحظة، فما زال يطلب الفناء عن نفسه والإخلاص فى مشاهدة الحق حتى تحقق له ذلك، فغاب عن كل شىء وعن كل العوالم، وغابت ذاته فى جملة الذوات، وتلاشى الكل واضمحلّ وصار هباء منثوراً، ولم يبق إلا الواحد الحق الموجود الثابت الوجود، واستغرقته حالته حتى شاهد ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر، ومن رام التعبير عن هذه الحال فقد رام مستحيلاً، وهو بمنزلة من يريد أن يذوق الألوان المصبوغة من حيث هى الألوان، ولا سبيل إلى

التحقيق بما في ذلك المقام إلا بالوصول إليه. وعاد إلى عالم الحس، ثم تكلف الوصول إلى مقامه بعد ذلك فكان أيسر عليه من الأول، وكان دوامه أطول، وما زال الوصول إلى ذلك المقام الكريم يزيد عليه سهوله، والدوام يزيد فيه طولاً حتى تمنّى أن يريحه الله تعالى من كل بدنه الذى يدعوه إلى مفارقة مقامه فيتخلص إلى لذته تخلصاً دائماً، وبقى على حالته تلك حتى أناف على عمر الخمسين. وفى يوم من الأيام وقع بصره على إنسان، وكان ذلك الإنسان اسمه **أبسال**، وكان من جزيرة قريبة تعبد الله على الشريعة، ونشأ مع آخر يدعى **سلامان** نشأة فاضلة متدينة، إلا أن أبسال كان محباً للعزلة بطبعه، وأشد غوصاً على الباطن، وأكثر عثوراً على المعانى الروحانية، وأطمع فى التأويل، بينما كان سلامان محباً للجماعة بطبعه، وأكثر احتفاظاً بالظاهر، وأشد بعداً عن التأويل والتأمل، وكان اختلافهما سبباً لافتراقهما، فقد اشترى أبسال بماله مَركباً وارتحل يطلب جزيرة متوحدة حتى عثر على جزيرة حيّ بن يقظان، وكان التقاء **أبسال وحي،** وبعد خوف ووجل تعارفاً، وتعلم حى من أبسال الكلام، وحكى له قصته كما وعاها وما صار إليه أمره، وعرف من أبسال عن دينه، واستمع منه أبسال إلى وصف الحقائق التى أمكنه وصفها مما عرفه عن الحق وشاهده عند الوصول من لذّات الواصلين وآلام المحجوبين، فأدرك أنه أمام **ولى من أولياء الله**، وأن ما عرفه بخاطره ووجدانه هو ما تحكى عنه الشريعة من أمور الله، وعند ذلك تبين التطابق بين المعقول والمنقول، وقربت عليه طرق التأويل، ولم يبق عليه مشكل فى الشرع إلا انفتح، وطمع أبسال أن يأخذه إلى أهل بلده يستمعون إليه لعل الله يهدى على يديه طائفة من معارفه المريدين، وتهيأت لهما الوسيلة للسفر، وبلغا بلده وكان سلامان قد صار رأس الجماعة وكبيرها، وشرع حى بن يقظان يبث الناس أسرار الحكمة وما كاد يترقى عن الظاهر قليلاً ويصف ما سبق إلى فهمهم خلافه حتى انقبضوا واشمأزّت نفوسهم مما أتى به، وتسخّطوا عليه فى قلوبهم لنقص فطرتهم. وتصفح حى طبقات الناس فرأى كل حزب بما لديهم فرحون، وقد اتخذوا إلهم هواهم، ومعبودهم شهواتهم، وتهالكوا على الدنيا وألهاهم التكاثر. وبان له وتحقق أن مخاطبتهم بطريق **المكاشفة** مستحيلة، وتكليفهم فوق طاقتهم غير ميسور، وأن حظ أكثر الجمهور من الانتفاع بالشريعة **إنما هو فى حياتهم الدنيا ليستقيم لهم معاشهم** وليس أكثر من ذلك، وعندئذ انصرف إلى سلامان وأصحابه وأوصاهم بالتزام ما هم عليه من حدود الشرع والأعمال الظاهرة وقلة الخوض فيما لا يعنيهم، وأمرهم بمجانبة ما عليه جمهور العوام من إهمال للشريعة والإقبال على الدنيا، وودعهم مصطحباً أبسال إلى جزيرتهما، يعبد

أبسال الله بالشريعة، ويطلب حى بن يقظان مقامه الكريم بالنحو الذى كان عليه، واقتدى به أبسال حتى قرب منه أو كاد إلى أن أتاهما اليقين.

والقصة كما يقول ابن طفيل لن يفهمها حق فهمها إلاّ أهل المعرفة بالله، ولن يقدر الدرس المستفاد منها إلا أهل العزة بالله. ولا نعرف لابن طفيل أعمالاً أخرى بخلافها سوى رسالتين فى الطب وبعض الآراء التى نوّه بها البطروجى فى الفلك، ورسائل ومراجعات بينه وبين ابن رشد فى رسمه للأدوية فى كتابه الكليات. وكان ابن طفيل الطبيب الأول لأبى يعقوب يوسف سلطان الموحدين وكان به ميل للعلوم والحكمة والفلسفة وقد جمع حوله المفكرين من كل الأنحاء ومنهم ابن طفيل وابن رشد. وتوفى ابن طفيل سنة ٥٨١ هـ فى مراكش ودفن بها، ولم يعرف تاريخ ميلاده، والأرجح أنه بين سنتى ٤٩٥ و٥٠٥ هـ.

■ ■ ■

الطمستانى (أبو بكر)

يوصف بالصوفى الربّانى فقد كان لا يقول إلا **جالسوا الله وهاجروا إلى الله وأصدقوا الله**، وكان مشايخ وقته يحترمونه لذلك، وهو أصبهانى لكنه قدم إلى نيسابور وتوفى بها سنة ٣٤٠ هـ، **ومذهبه** على النسبية فى المعرفة والأخلاق، وكلامه يقوم على المضادات، فالحياة لا تكون إلا فى الموت، وحياة القلب لا تتحصل إلا بإماتة النفس، واليقظة للآخرة، والغفلة للدنيا، وأهل اليقظة هم أهل الآخرة بينما أهل الغفلة هم أهل الدنيا، والطريق إلى الله يتعدد بتعدد الخلق، والحكمة أو المعرفة كل واحد يصيب منها على قدر ما يكشف له. ويأمر أصحابه جالسوا الله كثيراً والناس قليلاً، **ومن صحب الكتاب والسُنّة وعزف عن نفسه والخلْق والدنيا وهاجر إلى الله فهو الصادق. والنفس** لا يمكن الخروج منها بالنفس وإنما بالله وبصحة الإرادة من الله. ويحذرهم من العلم الذى يقطعهم عن الله، ويقول لهم إذا لم تقدروا أن تصحبوا الله بالأدب فاصحبوا من يصحبه لتصل إليكم بركات صُحبته.

■ ■ ■

الطهْطاوى

أبو القاسم بن عبد العزيز الطهطاوى، نسبة إلى طهطا من صعيد مصر، وقبره فيها ظاهر يزار، ومسجده ينعت بالعتيق، وكانت وفاته سنة ١١٨٣ هـ، ومن أحفاده رفاعة

رافع الطهطاوى من أركان النهضة العلمية فى مصر، وقد أوفدته الحكومة المصرية ضمن بعثة إلى فرنسا فلما رجع كان رئيساً للترجمة فى المدرسة الطبية وأشرف على مدرسة الألسن وعلى جريدة الوقائع المصرية، وألّف وترجم الكثير، ومن آثاره **تخليص الإبريز فى تلخيص باريز أو الديوان النفيس بإيوان باريس** ويعرف **برحلة الشيخ رفاعة**، **والمرشد الأمين فى تربية البنات والبنين**، وتوفى سنة ١٢٩هـ. وللطهطاوى الكبير أقوال فى الطريق تدل على القدم الراسخة فيه، ومن ذلك قوله المشاهدة هى ارتفاع الحجُب بين العبد والرب فيطّلع بصفاء القلب على ما أُخفى من الغيب فيشاهد الجلال والعظمة وتتغير عليه المقامات والجلالات فتداخله الحيرة والدهشة، ثم تخرجه الحيرة إلى البهتة فتصير أبصاره خاشعة بالحق إلى الحق، فتارة يشاهد الجلال، وتارة يطالع الجمال، وتارة يرى البهاء، وتارة ينظر الكمال، وتارة تلوح له الكبرياء والعزة، وتارة يبدو له الجبروت والعظمة، وتارة يشاهد البهجة، فهذا يبسطه، وهذا يقبضه، وهذا يطويه، وهذا ينشره، وهذا يُفقده، وهذا يعيده، وهذا يُبقيه، وهذا يُفنيه، فهو زائل عن نعوت البشرية، قائم بصفات العبودية، لا يحس بالأغيار، ولا يشهد غير عظمة الجبار. وكان رضى الله عنه كثير الاستشهاد بهذه الأبيات:

بواجد حق أوجد الخلق كلها ... وإن عجزت عنها فهوم الأكابر
وما الحب إلا خطوة ثم نظرة ... تنشى لهيباً بين تلك السرائر
إذا سكن الحق السريرة قد عرت ... ثلاثة أحوال لأهل البصائر
فحال بعيد السر عن سكنه وجده ... وتحضره الأشواق فى حال حائر
وحال به رحب وذو السر كاسب ... إلى نظرٍ أفناه عن كل ناظر

■ ■ ■

إبن طورخان

حسن بن طورخان بن داود بن يعقوب الاقحصارى، وكان **صوفياً بلا تصوف**، وربما متقشفاً كثير الصيام، **يبغض مشايخ الطرق** فى زمانه ويقرعهم بحجج الشرع، ويقول لو كانت الكرامة تنال بالرياضة لنلتها. وله **رسالة فى ذم الصوفية** يقول فيها: إعلموا أن **مذهب أهل التصوف مذهب باطل، وضلالتهم أشد من ضلالة الفرق الضالة كلها**، وتفريق مذهبهم واجب. واعلموا **أن صاحب الفصوص** (محى الدين بن عربى) قد كان فى أول حاله من **أفضل العلماء**، وفى آخره رئيس الملحدين، كالشيطان، كان فى أوله رئيس الملائكة، وفى آخره رئيس الكافرين، فقال كل من

عبد شيئاً من الممكنات فقد عبدالله، كما قال فى فصوصه إن الحق المنزّه هو الخلْق المشبّه، وأن من سجد للصنم عنده أعلم ممن كفر به وجحد. وقال إن ترك عبادة الأصنام جهل. وقال فى قوم نوح إنهم لو تركوا عبادتهم جهلوا من الحق بقدر ما تركوا من هؤلاء. وقال فى فصوصه إن كل عَبَدة الأصنام ما عبدوا إلا الله. وقال عن قوم هود إنهم حصلوا عن القرب فزال البعد، فزال مسمى جهنم فى حقهم، ففازوا بنعيم القُرب من جهة الاستحقاق. وقال إن من ادّعى الألوهية فهو صادق فى دعواه. ومراده من هذه الأقوال أن وجود الواجب الذى هو عين ذات الله هو وجود الممكنات، وإلا لَمّا صح قوله كل من عبد شيئاً من الممكنات فقد عَبَدَ الله، لأنه من البينّ أن فيض المعبود لا يكون إلهاً معبوداً، وذلك منه كفر، فقد أحدث **مذهب الوجودية**، فقال إن حقيقة الواجب هو الوجود المطلق الذى هو عين ذات الله، وهو وجود الممكنات فى الظاهر، ولزم من ذلك أن جميع الأشياء من الممكنات واجب، كما صرّح من النصوص لولا سريان الحق فى الموجودات بالصورة ما كان للعالم وجود، ولزم أيضاً من هذا الفول أن لا يكون للواجب تأثير فى وجود الممكنات لأنها عنده نفس الواجب، ومن البيّن امتناع تأثير الشىء فى نفسه. ولزم أيضاً من هذا القول تعطيل الصانع تعالى، وتكذيب جميع الرسل والأنبياء وجميع الكتب المنزلة. **ومذهب المتصوفين من الحلولية الوجودية** هو نفس مذهب صاحب الفصوص.

وابن طورخان من أهل البوسنة، ولد فى أقحصار سنة ٩٥١هـ، وولى قضاءها، وتوفى بها سنة ١٠٢٥هـ، ويقال له **حسن كافى**، واشتهر **بكافى**، وهو فقيه باحث له «**أصول الحكم فى نظام العالم**» وهو مترجم للتركية والألمانية والفرنسية والبوسنوية، وكان تلاميذه يصفونه بالنبى من أجل نبوءاته وزهده وتدينه، وله **سمت الوصول إلى علم الأصول**، وشرحه، **وروضات الجنات فى أصول الاعتقادات**، **وتمحيص التلخيص فى المعانى والبيان**، نقح فيه تلخيص الخطيب القزوينى، **وشرح مختصر القدورى**، فى أربعة أجزاء فى الفقه، **وشرح كافية ابن الحاجب** فى النحو، **ورسالة فى تحقيق كلمة جلبى**، **ونظام العلماء إلى خاتم الأنبياء** ذكر فيه سلسلة مشايخه فى الفقه إلى الإمام أبى حنيفة ثم منه إلى رسول الله ﷺ، مترجماً كل واحد. وكان يجيد العربية والتركية والفارسية وتلقى تعليمه فى الآستانة.

■ ■ ■

الطيْفوريّة

هم أتباع **بايزيد** طيفور بن عيسى **البسطامى،** وطريقته كما يقول **الهجويرى** فى **كشف المحجوب** هى طريقة الغَلَبة والسُكْر. وغلبة الحق عز وجل وحب السكر ليسا من جنس كسب الإنسان. وكل ما كان خارجاً عن متناول اختيار الإنسان تعتبر الدعوة إليه باطلة والتقليد فيه محال. ومن أقوال البسطامى أن الصحو يتحقق بتمكين صفة الإنسانية واعتدالها، وهو الحجاب الأعظم عن الحق تعالى. ويتحقق السكر بزوال الآفة ونقص الصفات البشرية وذهاب تدبيره واختياره واضمحلال تصرفه فى نفسه ببقاء طاقة متمكنة فى ذاته خلافاً لجنسه، وذلك أبلغ وأتم وأكمل. ويخالف مذهب البسطامى مذهب الجنيد الذى هو طريقة الصحو مخالفة تامة. ويقول الهجويرى إن الجنيد وفرقته من رأيهم أن السكر هو محل للآفة لأنه مشوش للأحوال، ومزيل للصحة، ومضيع لزمام النفس، ولأن قاعدة المعانى كلها هى الطلب، فإنه يكون إما بحسب فنائه، وإما بحسب بقائه، وإما بحسب محوه، وإما بحسب إثباته، وإذا لم يكن صحيح الحال لم تحصل له فائدة التحقيق، ومن أقوال النبى ﷺ: اللهم أرنا الأشياء كما هى؛ وهذه الجملة لا تتحقق إلا فى حالة الصحو، وأهل السكر ليست لهم معرفة بهذا المعنى. وكان أتباع البسطامى يتجنبون مخالطة الناس وصحبتهم على الأغلب، ويفضلون الخلوة والعزلة، وكانت الشطحات كثيرة بين أتباع البسطامى، أى أتباع طريقة السكر، لأن الصوفى إذ يعتبر نفسه مظهراً كاملاً لأسماء وصفات الحق يرى كل دعوة فى مثل هذه الظاهرة صحيحة فى عالم الهيام والفناء والاتصال بالحق. يقول البسطامى: طفت مدة حول البيت، ولما بلغت الحق وجدت البيت يطوف حولى. وسأله أحدهم ما هو العرش، فقال أنا العرش. وقال ما هو الكرسى، فقال أنا الكرسى، فقال وما هو اللوح والقلم، فقال أنا اللوح والقلم. وتوجد شطحات كثيرة فى الأشعار الصوفية من الطيفورية. **(انظر البسطامى)**

■ ■ ■

ع

عامر بن عامر

صوفى متشيّع من البصرة اشتهر بقصيدته التى يعارض بها **تائية ابن الفارض** الصوفى المصرى، ويبدو أنه قد انتهى من نظمها سنة ٧٠٥هـ، ويقول عن نفسه فيها أنه كان يسكن الغوير قرب السماوة على الفرات، وسافر إلى سيواس مركز الصوفية من أصحاب وحدة الوجود حيث ألّف ابن عربى الفتوحات المكّية، وتزوج فيها أم صدر الدين القونوى، وتعرف قصيدته باسم **التائية العامرية**، ويكرر فيها معانى التوحيد عند ابن الفارض بتصورات جديدة استدخل فيها **المفاهيم الاسماعيلية الفلسفية** بخصوص النفس والروح والمعاد والمبدأ والأدوار والأكوار وأوصاف المهدى :

ظهرتْ لنا فى صورة عيسوية ... ومن بعده فى صورة أحمدية
وقد آن أن تبدو لنا الآن ظاهراً ... بلا مرية فى صورة آدمية

ويقول :

تجلى لى المحبوب من كل وجهة ... فشاهدته فى كل معنى وصورة
وخاطبنى منى بكشف سرائر ... تعالت عن الأغيار لطفاً وحلّت
فقال أتدرى من أنا، قلت أنت يا ... منادى أنا وكنت أنت حقيقتى
فقال كذاك الأمر لكننى إذا ... تعينت الأشياء بى كنت نسختى
فأوصلت ذاتى باتحادى بذاته ... بغير حلول بل بتخصيص نسبتى

وهى عبارات واضحة الدلالة على **مذهب وحدة الوجود**.

■ ■ ■

إبن عبّاد

أبو عبد الله محمد بن إبراهيم بن عبد الله بن مالك بن إبراهيم بن يحيى بن عباد النفزى الحميرى الرندى (٧٣٣ ــ ٧٩٢هـ) له « **غيث المواهب العلية بشرح الحِكَم العطائية** » يشرح فيه كتاب « الحِكَم » لابن عطاء الله السكندرى، ويعرف **بشرح النفزى على متن السكندرى**، و« **بغية المريد** » نَظَم به الحكم العطائية، بأن يذكر الفصل من الحكم ثم يأتى بعده بالأبيات بعنوان **ترجيزُه**، وله كذلك « **الرسائل الكبرى** »، و« **الرسائل الصغرى** » و« **كفاية المحتاج** » فى التصوف والتوحيد. وابن عباد أندلسى، ولد برندة، ونشأ بها، وتعلم بفاس وتلمسان، ولازم فى طنجة الصوفى أبا مروان بن عبد الملك، ثم استدعى إلى فاس خطيباً لمسجد القيروان، ومن تلاميذه يحيي السراج، وابن السكّاك والخطيب بن قُنفذ.

■ ■ ■

عبد الرازق (مصطفى)

مصطفى بن حسن بن أحمد عبد الرازق (١٣٠٢ ــ ١٣٦٦هـ = ١٨٨٥ ــ ١٩٤٦م) المفكر الإسلامى، من أسرة عبد الرازق فى أبى جرج من قرى المنيا، ولد بها وتخرج بالأزهر وتتلمذ على الشيخ محمد عبده، وأرسل فى بعثه إلى باريس وانتدب للتدريس بليون وعين وزيراً للأوقاف المصرية، وله كتاب فى « **التصوف** » وكتب التعليق على مادة التصوف فى دائرة المعارف الإسلامية، ومن كتبه تاريخ الفلسفة الإسلامية، وفيلسوف العرب والمعلم الثانى فى سيرة الكندى والفارابى، والدين والوحى والإسلام، وسيرة محمد عبده الإمام وغير ذلك. والتصوف فى المنظور الفلسفى عند مصطفى عبد الرازق هو العلم الذى يصور المثل الأعلى الإسلامى فى الأخلاق، وإذا كان الصوفية هم البناة لهذا المثل الأخلاقى الأعلى فى الإسلام فإن للمرأة إسهامها فيه مثل أم الدرداء ومعاذة العدوية ورابعة القيسية وحمادة الصفوية وغزالة الشيبانية، والميلاء وحميدة وليلى الناعظية، ولهن من أشعارهن وأخبارهن مايقوم مقام الكتب المدونة. ومنهن رابعة العدوية التى توفيت عام ١٨٥هـ وتركت فى الإسلام شذا من ولايتها

لا يزال أريجا واستعملت فى غير تهيب كلمة الحب فى العشق الإلهى معتمدة على ما جاء فى القرآن. ويستنكر مصطفى عبد الرازق الرواية التى تقول إن عبد الواحد بن زيد قد خطبها فأنّبته وقالت له يا شهوانى اطلب شهوانية مثلك باعتبارها رواية مختلقة كسائر الروايات الكثيرة عن رابعة التى مقصودها إعلاء شأنها وترسيخ ولايتها وتفوقها على الكثير من أعلام الصوفية. ومن الروايات التى ينكرها كذلك تلك الرواية التى تؤنب فيها أحد الصوفية إذ تراه يقبّل ولداً من أولاده بقولها «ما كنت أحسب أن فى قلبك موضعاً فارغاً لمحبة غيره تبارك اسمه» فيقول الشيخ مصطفى وليس من شأن المرأة مهما بلغ بها التصوف أن تنكر الحنو على الأطفال. ويقول الشيخ إن رابعة العدوية على عكس ما ينسب إليها المستشرق ماسينيون لا يمكن أن تكون قد قصدت فى شعرها إلى معالجة المسائل الفقهية والكلامية والصوفية، وأنها ما كانت تتكلم فى ذلك إلا بما كان يفيض عن نفسها الشاعرة، وكانت بحكم أنها امرأة أول من أدخلت الحب والحزن فى هيكل التصوف الإسلامى بتعبيراتها الصادقة فيها، وما فاض به الأدب الصوفى بعد ذلك من شعر ونثر فى هذين البابين هو نفحة من نفحات **رابعة العدوية إمام العاشقين والمحزونين فى الإسلام**.

■ ■ ■

عبده (محمد)

الإمام محمد عبده بن حسن خير الله (١٢٢٦ ـ ١٣٢٣) مفتى الديار المصرية وصاحب الدعوة إلى الإصلاح والتجديد فى الإسلام، ولد فى شنرا من قرى الغربية بمصر، ونشأ فى محلة نصر بالبحيرة، وتعلم بالجامع الأحمدى بطنطا ثم بالأزهر، وتصوف وتفلسف، وكتب فى الصحف، وناصر الثورة العرابية، وسجن ونفى إلى الشام، وأصدر مع جمال الدين الأفغانى جريدة العروة الوثقى فى باريس، وتولى منصب القضاء ثم الإفتاء، وله **تفسير القرآن الكريم** (لم يتمه) ورسالة **الواردات** فى التصوف. وللشيخ مصطفى عبد الرازق سيرة الإمام الشيخ محمد عبده. وقد أكمل محمد رشيد رضا التفسير عن الإمام ونشره، وكان يكتب ما يلقيه من دروس فى التفسير ويحفظه ويقرأه عليه، ولما استقل بالعمل بعد وفاة الإمام توسع وزاد بما يمكن أن يخدم الدين، ويقول فى الجزء الثانى (ص ٧٢) عن أستاذه إن بعض الباحثين اشتبه عليهم السبب فى سقوط المسلمين فى الجهل العميم، وبحثوا فى تاريخ الإسلام وما حدث فيه فكان له هذا الأثر الانقلابى، وكان من أهم ما عرض لهم فى ذلك مسألة **التصوف**،

وظنوا أنه من أعظم أسباب سقوط المسلمين فى الجهل بدينهم وبعدهم عن التوحيد الذى هو أساس عقائدهم، وليس الأمر كما ظنوا فقد ظهر التصوف فى القرون الأولى للإسلام فكان له شأن كبير، وكان الغرض منه فى أول الأمر تهذيب الأخلاق وترويض النفس بأعمال الدين وجذبها إليه وجعله وجداناً لها، وتعريفها بأسراره وحكمه بالتدريج. وابتلى الصوفية فى أول أمرهم بالفقهاء الذين جمدوا على ظواهر الأحكام المتعلقة بالجوارح والتعامل، فكان هؤلاء ينكرون عليهم أسرار الدين ويرمونهم بالكفر، وكانت الدولة والسلطة للفقهاء، لحاجة الأمراء والسلاطين إليهم، فاضطر الصوفية إلى إخفاء أمرهم، ووضع الرموز والاصطلاحات الخاصة بهم، وعدم قبول أحد معهم إلا بشروط واختبار طويل، فقالوا لابد فيمن يكون منا أن يكون أولاً طالباً فمريداً فسالكا، وبعد السلوك إما أن يصل وإما أن ينقطع، فكانوا يختبرون أخلاق الطالب وأطواره زمناً طويلاً ليعلموا أنه صحيح الإرادة صادق العزيمة، لا يقصد مجرد الاطلاع على حالهم والوقف على أسرارهم، وبعد الثقة يأخذونه رويداً رويداً، ثم إنهم جعلوا للشيخ (المسلك) سلطة خاصة على مريديه حتى قالوا يجب أن يكون المريد مع الشيخ كالميت بين يدى الغاسل، لأن الشيخ يعرف أمراضه الروحية وعلاجها، فإذا أبيح له مناقشته ومطالبته بالدليل تتعسر معالجته أو تتعذر، فلابد من التسليم له فى كل شىء من غير منازعة، وقالوا إن الوصول إلى العرفان المطلق لا يكون إلا بهذا، ثم أحدثوا إظهار قبور من يموت من شيوخهم والعناية بزيارتها لأجل تذكر سلوكهم ومجاهداتهم وأحوالهم والتأسى بها، والتأسى هو طريق التربية، فظهر من هذا الإجمال أن قصدهم فى هذه الأمور كان صحيحاً وأنهم ما كانوا يريدون إلا الخير المحض، لأن صحة القصد وحسن النية أساس طريقهم. فماذا كان أثر ذلك فى المسلمين؟ كان منه **أن مقاصد الصوفية الحسنة قد انقلبت ولم يبق من رسومهم الظاهرة إلا أصوات وحركات يسمونها ذكراً** يتبرأ منها كل صوفى، وإلا تعظيم قبور المشايخ تعظيماً دينياً مع الاعتقاد بأن لهم سلطة غيبية تعلو الأسباب التى ارتبطت بها المسببات، بحكمة الله تعالى بها يديرون الكون ويتصرفون فيه كما يشاءون، وأنهم قد تكفلوا بقضاء حوائج مريديهم والمستغيثين بهم أينما كانوا، وهذا الاعتقاد وهو عين اتخاذ الأنداد وهو مخالف لكتاب الله وسنة رسوله وسيرة السلف. وزادوا شيئاً آخر أظهر قبحاً وهدماً للدين وهو زعمهم أن الشريعة شىء والحقيقة شىء آخر، فإذا اقترف أحدهم ذنباً فأنكر عليه منكر قالوا فى المجرم أنه من أهل الحقيقة فلا اعتراض عليه، وفى المنكر أنه من أهل الشريعة فلا التفات إليه. ولقد جاء فى كلام بعض الصوفية أن فى كلام الله ورسوله

ما يعلو أفهام العامة ويشير إلى دقائق لا يعرفها إلا الراسخون فى العلم ، فحسب العامة الوقوف عند ظاهره ، ومن آتاه الله بسطة فى العلم ففهم منه شيئاً أعلى مما تفهم العامة فذلك فضل الله يؤتيه من يشاء ممن يجد ويجتهد للتزيد من العلم ، فهذا ما يسمونه **علم الحقيقة** ، وليس فيه شيء يخالف الشريعة ، ومن آتاه الله نصيباً منه كان أتقى لله ، وكان الصوفية الأوائل على هذا ، فلما فسد التصوف وضعف الفقه فصار مناقشات لفظية اتفق المتفقهة الجامدون والمتصوفة الجاهلون وأذعن أولئك إلى هؤلاء واعترفوا لهم بالسر والكرامة وسلموا لهم ما يخالف الشرع والعقل على أنه علم الحقيقة ، فصرتَ ترى العالم الذى قرأ الكتاب والسنة والفقه يأخذ العهد من رجل جاهل أُمى ويرى أنه يوصله إلى الله تعالى ، فإن كان كتاب الله وسنة رسوله ، وما فهم الأئمة واستنبط الفقهاء منها ، كل ذلك لا يفيد معرفة الله تعالى المعبر عنها بالوصول إليه ، فلماذا شرع الله هذا الدين والناس أغنياء عنه بأمثال هؤلاء الأميين وأشباه الأميين ؟ وهل القصور إذن فيما أنزل الله أم فى بيان الرسول له وبيان الأئمة ؟ حاشا لله ، فلا طريق لمعرفته عز وجل غير ما نزله من الهدى ، وإنما كان غرض الصوفية الصادقين فهم الكتاب والسنة مع التحقيق بمعارفهما والتخلق بآدابهما من تقليد لأهل الظاهر ولا جمود على الظواهر. ولقد تشوهت سيرة مدّعى التصوف فى هذا الزمان وصارت رسومهم أشبه بالمعاصى والأهواء من رسوم الذين أفسدوا التصوف من قبلهم ، وأظهرها فى هذه البلاد الاحتفالات التى يسمونها « **المولد** » وهى أسواق للفسوق وإضحاك الناس ، وبعضها يكون فى المقابر ، وكلها منكرات ، ولم يكن فى القرن الأول شيء من هذه التقاليد ، ولا فى الثانى ، ولا يشهد لهذه البدع كتاب ولا سنّة .

■ ■ ■

إبن عجيبة

أبو العباس أحمد بن محمد بن المهدى ، الحسنى الأنجرى (١١٦٠ ـــ ١٢٢٤ هـ) دفن ببلدة أنجره من المغرب ، وله التصانيف الكثيرة منها فى التصوف « **شرح صلوات بن مشيش** » و« **الفتوحات الإلهية فى شرح المباحث الأصلية** » و« **الفتوحات القدوسية فى شرح المقدمة الآجرومية** » جمع فيها بين النحو والتصوف ، و« **إيقاظ الهمم فى شرح الحِكَم** » لابن عطاء الله . ويبدو أن اسمه ابن عجيبة كان تعبيراً من أهل زمنه عن سعة اطلاعه وتمكُنه من ثقافته وقُدرته على شرح آراء غيره واستبعابها .

■ ■ ■

إبن عربى

أبو بكر محمد بن على، شيخ الصوفية الأكبر، وشهرته **محيى الدين** باعتبار مصنفاته فى التصوف وتفسيراته فى الدين التى قيل إنه بها قد جدّد الدين وأحيا الملة، وهو أيضاً **ابن عربى** حيث أنه الصوفى المتميز بعروبته وليس من العَجَم كمشاهير الصوفية الفرس وغيرهم، وهو ينحدر من قبيلة حاتم الطائى، واسمه **المُرسى**، حيث كانت ولادته بمُرسّية الأندلس سنة ٥٦٠ هـ، ويعرف فى الأندلس باسم **ابن سراقة، وفى الشرق أعطوه اسم ابن عربى** بدون أداه التعريف تمييزاً له عن القاضى أبى بكر بن العربى المتوفى سنة ٥٤٣ هـ. ولابن عربى نحو **الأربعمائة** كتاب، أشهرها موسوعته الكبرى فى التصوف التى أطلق عليها اسم **الفتوحات المكّية** فى خمسمائة وستين باباً، يلخصها جميعاً الباب التاسع والخمسون، وقد اختصرها الشعرانى فى كتابه **اليواقيت والجواهر**. ولمّا طلب ابن عربى من ابن الفارض الشاعر الصوفى المصرى أن يشرح للناس تائيته أجاب ابن الفارض أنه لا يجد لها شرحاً خيراً من الفتوحات المكية. ويلى الفتوحات المكية فى الأهمية كتاب **فصوص الحِكَم** وهو الذى ألّب عليه الفقهاء وأشهرهم الإمام ابن **تيمية** وله رسالة فى التصوف كتبها حول ابن عربى ومن ذهب مذهبه من الحلوليين والاتحاديين، **وعلى القارى** وله أيضاً رسالة فى التصوف يرّد بها على كتاب فصوص الحكم لابن عربى، والإمام **جمال الدين محمد بن نور الدين** وقد ذكره فى كتابه «**كشف الظُلمة عن هذه الأمة**»، **والتفتازانى** الذى تصدّى له بالرد فى إحدى رسالاته. وقد نشر كتاب فصوص الحكم فى مصر أول مرة بشرح لعبد الرزاق القاشانى سنة ١٣٠٩ هـ. ودافع عن ابن عربى كثيرون، ومنهم الجلال السيوطى فى كتابه «**تنبيه الغبى فى تبرئة ابن العربى**»، وسراج الدين المخزومى فى كتابه «**كشف الغطاء عن أسرار محي الدين**». ومن أبرز المدافعين عنه مجد الدين الفيروزابادى صاحب القاموس المحيط، وكمال الدين الزملكانى وشهاب الدين عمر السهروردى وقطب الدين الحموى وصلاح الدين الصَفَدى ومحمد المغربى استاذ جلال الدين السيوطى، وسراج الدين البلقيسى، وتقى الدين السكى. ولابن عربى **التفسير الصوفى للقرآن**، وديوانان من الشعر الصوفى، أحدهما **ترجمان الأشواق** كان غزلاً صوفياً. وقد بدأ ابن عربى التصوف فى العشرين من عمره، ودخل الطريقة وأصبح صوفياً فى الحادية والعشرين، وكان أبوه صالحاً، كما كان له خال ترك المُلك ليصبح صوفياً، وآخر كان يصلى طوال الليل حتى تكل قدماه فيضربها مغضباً. وكانت لابن

عربى سياحات كثيرة فى الأندلس والمغرب والأناضول والعراق والشام والحجاز، وحاولوا اغتياله فى مصر، وقال فيه محبوه إنه القطب والعارف بالله والولى، وقال أعداؤه إنه الزنديق والمشرك. وكان كلما نزل بلداً يجرى عليه أغنياؤها وحكامها معاشاً كبيراً ينفقه على إخوانه ومريديه وفى أعمال البر، واستقر فى دمشق، وبها توفى ودفن بسفح جبل قاسيون سنة ٦٣٨هـ. وكتبه تنحو إلى الفلسفة، وهو من فلاسفة الصوفية، وقيل مذهبه **وحدة الوجود، لم يصرح به ولكن كتبه تتضمن إشارات قصد أن تكون غامضة ومدارها أن الحقيقة الوجودية واحدة فى جوهرها وذاتها، متكثرة بصفاتها وأسمائها، ولا تعدد فيها إلا بالاعتبارات والنسب والإضافات، وهى قديمة أزلية** لا تتغير وإن تغيرت الصور الوجودية التى تظهر فيها، فإذا نظرت إليها من حيث ذاتها قلت هى الحق، ومن حيث صفاتها وأسماؤها أى ظهورها فى أعيان الممكنات، قلت هى الحق، فهى الحق والخلْق، والواحد والكثير، والقديم والحادث، والأول والآخر، والظاهر والباطن، وهو يقول فسبحان من خلق الأشياء وهو عينها، وياخالق الأشياء فى نفسه، وأنت لما تخلقه جامع، وتخلق مالا ينتهى كونه فيك، وأنت الضيق الواسع، فما نظرت عينى إلى غير وجهه، ولا سمعت أذنى خلاف كلامه. وعند ابن عربى لا فرق بين الواحد والكثير، والحق والخلق، والله هو الحقيقة الأزلية، والوجود المطلق الواجب الذى هو أصل كل ما كان، وما هو كائن، وما سيكون، ووجود العالم بالنسبة إليه كوجود الظلال أو كصور المرايا، والعالم فى نفسه خيال وحلم، والوجود الحقيقى هو وجود الله، وهو الوجود الجامع لكل وجود، والظاهر بصورة كل موجود. ولا يحاول ابن عربى أن يبرهن على وجود الله، فوجوده غنى عن كل برهان، لأن الحق ظاهر بصور جميع الموجودات، ولا شىء أظهر من الوجود، وأما وحدة الوجود مع الحق فالبرهان عليه ذوقى وليس عقلياً. ويبنى ابن عربى على وحدة الوجود وحدة الأديان، والكل عنده يعبدون الله الواحد المتجلى فى صور كل المعبودات، وقيل إن ابن عربى قد غيّر عقيدة التوحيد الإسلامى من لا إله إلا الله، ولا معبود بحق إلا الله، إلى مذهب فى وحدة الوجود قوامه أن ليس فى الوجود على الحقيقة إلا الله، ولا معبود فى الواقع غير الله.

وابن عربى فى تأليفه لكتبه لم يكن يجرى فى التأليف مجرى المؤلفين، ولكنه كان يترك نفسه لفيوض الرحمن ويعكف بقلبه على باب حضرته. وهو يقول إن الله سبحانه هو معلمه، وأن إرثه هو الإرث النبوى المحفوظ والمعصوم من الخلل، ويصف كلامه بأنه ذكر، ويجعل من التصوف بديلاً عن الفلسفة، ومصنفاته فى أغلبها نصائح للمريد

والطالبين والسالكين، ويشرح فيها لغة المتصوفة، وله مايشبه القاموس اعتاد الناشرون أن يلحقوه بكتاب التعريفات للجرجاني، ومصطلحاته هي التي غلبت على لغة المتصوفة، وتدرس دائماً بالمقارنة إلى مايفهمه عنها غيره من الصوفية، وشروحه عليها يغلب فيها **التفلسف**، وكثيراً ماتحتاج الشروح لشروح عليها. وطريقته في التصوف يطلقون عليها اسم **الأكبرية** نسبة إلى شهرته باسم **الشيخ الأكبر**. ومبنى طريقة ابن عربي على أربع خصال هي الصمت والعزلة والجوع والسهر.

والفرق بين كتابات ابن عربي وكتابات الغزالي، أن الغزالي يكتب عن الصوفية لجمهور المؤمنين، أما ابن عربي فتوجهه للمتصوفة دون غيرهم. ولابد للمريد في طريقة ابن عربي من أن يتلقى عن شيخ، ويقول ابن عربي: **من لا شيخ له، فإن شيخه الشيطان**. وشرط الشيخ أن يكون مجازاً من شيخ آخر، وأن يكون عالماً، وأن يكون مؤدباً متشدداً، يتجنب كل أُلفة بينه وبين المريد، وأن يطلب منه الطاعة التامة كي تنمحي إرادته في إرادته. ويأخذ المريد **العهد** على الشيخ، ولا يلتزم **بلباس** معين، ولا يوصي ابن عربي إلا بأن يكون قماشة من النوع الزهيد، وألا يفيد إلا في ستر العورة مع الحشمة، وأن يكون قصيراً، وإذا قُبِلَ المريد بالجماعة خضع **لسلطة** الشيخ المطلقة، ويلزم **الخلوة** لا يبارحها إلا بإذن الشيخ، ولا يتصل المريدون ببعض إلا في حضوره، وإذا خرجوا خرجوا جماعات ذاكرين الله، لا يلتفتون يمنة ولا يسرة، ولا إلى وراء، ويجتمعون للصلاة والطعام والنوم والذكر وإنشاد الأشعار الصوفية. وينصح ابن عربي المبتدئين أن **يكسبوا قوتهم** من حرفة يحترفونها إن لم يصلوا إلى رتبة التوكل، ومن **كرامات** الشيخ أنه يفهم مايدور في عقول ونفوس تلاميذه، ويمكنه أن يوجههم عقلياً من خلوته. ولا يدخل عليه أحد هذه الخلوة **إلا خادمه**، وعليه أن يطلب **الإذن** في كل مرة حتى لا يفاجئه في مباذله، وهو يسهر على نومه ويرقد بالقرب من بابه، وإذا دخل قّبل يده ووقف في خشوع، وإذا أمره أن يجلس أقتعد الأرض خارج الحصيرة التي يجلس عليها الشيخ، وإذا صلّى خلفه احتاط أن لا يزحمه، فإذا سار معه في الطرقات يكون خلفه، وفي كل الأحوال فإن النظر إلى وجهه من سوء الأدب، وإذا مات الشيخ لا يتزوج أرملته، وإذا طلق زوجته لا يتزوج مطلقته، ويعادي من يعاديه ويصادق من يصادقه. **والسير في الطريق** يتوقف على استعداد المريد وملازمة الباعث، واستقامة الهمة، وصحة التوجه، وأن يعلم أن سيره أو سفره مبني على المشقة، وأن لا تكون غايته فيه سوى تحصيل الكمالات، فأما الكرامات واشتهاء المقامات فإن طلبها انحرف عن الهدف. وينصح ابن عربي المريد أن يستفيد من **وقته**

دون توقف، وأن يحرص على **التطهر**، والأصل فى ذلك أن النفس والقلب والروح فقدت روحانيتها بالاتصال بالبدن، وتجليتها تكون بالمجاهدة، **والتجلية** ضرورة لرفع الغشاوة عن البصر، والرين عن القلب، والكدر عن النفس، ولكى تسترد الروح صفاءها وشفافيتها، ويتحقق ذلك **بالتوبة والخلوة والذكر**، والتوبة تعنى الاقتراب من الله والبعد عن المخلوقات، **والجوع والسهر** ييسران التطهر، **والعزلة والصمت** يقمعان النفس الغضبية، ويعبر ابن عربى عن ذلك رامزاً بالموت فيقول: إن عناصر الرياضة أربعة أنواع من الموت، **هى الموت الأبيض** وهو الجوع، **والموت الأحمر** وهو مخالفة الشهوات، **والموت الأسود** وهو احتمال أذى الخلق واحتمال الآلام الجسدية والمعنوية، **والموت الأخضر** وهو الزهد فى الفاخر من الثياب. **والزهد** أولى درجات فضائل التصوف بعد التوبة، حقيقته الإعراض الإرادى عن الدنيا، ويأتى بعده **التجرد** أى تخلية القلب وقطع كل العلائق، ويكون معه البذل عن رضا، والتضحية عن طواعية، والإحسان عن غنى نفسى، والقناعة عن اقتناع. وبلوغ الكمال يكون **بمحاسبة النفس** صباحاً ومساءً، واستدامة استشعار حضور الله، والأنس به عن كل الخلق، والذكر والتلاوة والدعاء والتفكر. والله يهب **المقامات** بواسطة الفضائل، والمقامات كالتوكل والشكر والصبر والرضا، والعبودية والاستقامة والإخلاص والصدق، والحياء والحرية، والولاية والرسالة والنبوة، والمحبة والأنس والخوف والرجاء. ومجموع الأحوال والمقامات والمنازل تؤلف **الحياة الروحية** للمتصوف، وتكتمل الصورة **بالكرامات**، والكرامة خارقة يمنحها الله للخاصة مكافأة لفضائلهم فى الدنيا. ويصنف ابن عربى الكرامات إلى نوعين، **ظاهرة** أو مادية باعتبارها ظواهر من خارج الشخص، **وباطنة** أو روحية تتحقق فى نفس الصوفى أو فى غيره، وتتناسب الكرامة مع الفضيلة التى هى ثواب لها، **فكرامات البصر** هى ثواب عن الفضائل المتعلقة بالبصر، **وكرامات السمع** والمشى تفيد مكافأة فضائل هذه الجوارح وهكذا. ولكل مقام صورة **ابتلاء**، ومن ينجح فى الامتحان فإنه يكون قائماً **بالعهد** الذى قطعه على نفسه مع الله تعالى. **والتجلى والمكاشفة والمشاهدة** من الكرامات، والنفس فى **المكاشفة** تدرك المعانى الممثلة للحقائق الإلهية، وفى **المشاهدة** تدرك ماهيتها، **والتجلى** عبارة عن ظهور نورانى للذات الإلهية وصفاتها. وأعلى الكرامات هو **الفناء فى الله**، ويظهر الوجد الفنائى فى المراحل الأخيرة من الرياضات الصوفية وخصوصاً فى السماع والصلاة والخلوة عن طريق إنكار ما سوى الله، فيفقد العبد الشعور بالأعمال الإرادانية الخاصة به وبغيره، بأن يراها آثار الله الذى هو علّتها الوحيدة، ثم يفقد الشعور بقواه وصفاته، فالله وليس

هو الذى يبصر ويسمع ويفكر، ثم يزول شعوره بشخصيته ، وتستغرق نفسه فى مشاهدة الله والأمور الإلهية ، ويفقد الشعور بأنه هو الذى يشاهد ، ولا يتفطن إلى أن ما يشاهده هو الله ، ثم تؤدى مشاهدته لله إلى إبعاد كل ما سواه عن النفس ، ثم يتضاءل مجاله الشعورى أكثر فتزول **الصفات** الإلهية ، ويتجلى الله تعالى للعبد فى مشاهدته ، بوصفه المطلق الذى ليس له علاقات ولا صفات ولا أسماء ، ويتذوق خلال ذلك ظواهر انفعالية يصفها ابن عربى بالحلاوة والسعادة ، ويحصل له خدر فى الجوارح لقوة اللذة واستفراغ الطاقة . وطبيعة هذا الشعور لا يمكن التعبير عنها ، والصوفية فى هذا الصدد **ثلاث طوائف ،** فأحياناً يكون الوارد الإلهى على الصوفى شديداً لا تحتمله قواه ، فيستولى عليه ويجرده من كل إرادة طوال مدة الحالة ، وربما طوال الحياة ، وأحياناً يكون هناك بعض التمييز، بحيث يمكن للصوفى المستغرق فى الفناء أن يقوم بنفسه بتلبية بعض احتياجاته ، ولكنه يفعل ذلك كما تفعله البهيمة بلا وعى ، وأحياناً يكون الفناء مع الوارد طوال مدة بقائه فقط ، فإذا زال زالت معه هذه الحالة . وهناك طائفة رابعة لا تظهر عليهم أية ظواهر غير عادية وهم فى فنائهم ، سوى أن يشملهم استغراق ، ويبدو عليهم وكأن شيئاً ما يجرى فى دخائلهم ، مع احتفاظهم بحالتهم العادية . ويقول ابن عربى : **والمردود ،** أى الذى يرجع من فنائه ، أكمل من **الواقف المستهلك ،** لأنه يُرَدُّ فى حق نفسه ، وهو **العارف** يرجع لتكميل نفسه من غير طريقه الذى سلك فيه ، وقد يُرَدُّ إلى الخلق بلسان الإرشاد والهداية ، وهو **العالم الوارث. وتؤدى كل الطرق إلى غاية واحدة هى الاتحاد بالله عن طريق الحب ،** وحب الله هو غاية كل المقامات العالية ، وثمرة ممارسة أعلى الفضائل ، وهو ليس صفة عرضية أو مجرد علاقة بالمحب ، ولكنه خاصة جوهرية له ، لأنه لا يتوقف أو يزول ما دام المحب موجوداً ، ومن ثم يتحول حب الصوفى بحيث يستحيل فى نفسه **المحب والمحبوب واحداً ،** وتتطابق إرادة المحب وإرادة المحبوب . وليس ثمة غير **الحب الإلهى** فى الواقع ، لأن الله تعالى أحب أن يعرف فتجلى فى خارج ذاته حتى تحبه المخلوقات ، والله تعالى يحبنا من أجل ذاته ، وأيضاً من أجل ذواتنا ، لأنه خلقنا لكى نعرفه ونحبه ، وخلقنا أيضاً من أجل أننا بحبنا وعبادتنا له نسعد السعادة الأبدية . وفى **المشاهدة الصوفية** تظل النفس مأخوذة بالجمال الإلهى تجلياته فى الموجودات ، فتحب الله فى كل شىء ، كما تحب كل شىء من أجل الله ، ويستغرقها الحب لله ، فإذا جاءت الغزليات لهند أو ليلى أو سعاد الخ فإنما المقصود هو الله ، **فهو وحده الجمال الحقيقى الجدير بالحب ،** وقد احتجب تحت نقاب الصور الجسمانية ، فما ثم إلا الله ، وما ثم غيره ، وما ثم إلا عينه وإرادته ، **والوصول** هو تلك

الحالة التى يكون فيها بحيث إذا نظر إلى معرفته فلا يعرف سوى الله ، وإن نظر إلى همته فلاهم له سوى الله، فيكون كله مشغولاً بكله ، وينسلخ من نفسه ويتجرد له ، فيكون كأنه هو، فالنفس لا تصير الله ، بل تكون كأنها هو، والوصول ليس من قبل العبد ، بل بعناية الله ، وتصرف جذبات الألوهية ، وسبب حصوله هو كسب العبد.

وقضية الحيرة فى تفسير أقوال ابن عربى توجزها قصة اتهامه بالحلول فى مصر، فإنه لمّا نزلها على ما يرويه فى كتابه **محاضرة الأبرار** وترجمته فى **الفتوحات**، ساكن جماعة من مريديه من بلده ، فى زقاق يقال له زقاق القناديل ، وفى ليلة بغرفة دامسة الظلام ، وقد جلسوا إلى عباداتهم ومجاهداتهم ، تنورت أجسامهم ورأى ابن عربى كأن شخصاً له سمت جميل قد دخل عليهم مبلغاً إياه رسالة من الحق يقول له فيها : إن الخير فى الوجود ، والشر فى العدم ، والحق قد أوجد الإنسان بجوده وجعله واحداً ينافى وجوده ، فتخلق بأسمائه وصفاته ، وفنى عنها بمشاهدة ذاته ، فرأى نفسه بنفسه ، فعاد العدد إلى أسه ، فكان هو ولا أنت . وحكى ابن عربى عما شاهد واستمع ، وبلغت هذه الأقوال له فقهاء مصر، فناقشوها وفهموا منها الحلول ، وكلّموا أصحاب السلطان فيها وطلبوا محاكمته واتهموه بالزندقة ، وسعوا فى إراقة دمه ، لكن الشيخ البجائى كان من مناصريه ودافع عنه ، وفسر مقالته تفسيراً رمزياً وتأوّلها ، فلم يستمع السلطان لخصومه وأطلق سراحه . ويقول فى ترجمته إنه لام البجائى على الدفاع عنه ، وقال له مقالة ماتزال تورده موارد الهلكة « كيف يُحبَس من حلّ منه اللاهوت فى الناسوت ؟ » ومع ذلك فإن البجائى التفت إليه مباسطاً وقال : **ياسيدى تلك شطحات فى محل شُكر، ولا عتب على سكران»**.

وخلّف ابن عربى بعد وفاته ولدين ، أحدهما سعد الدين محمد (٦١٨ ــ٦٥٦هـ) وكان شاعراً صوفياً مجيداً وله ديوان شعر، ودفن بجوار والده ، والآخر عماد الدين أبو عبدالله محمد توفى بمدرسة الصالحية ودفن بجوارهما. وكانت له بنت اسمها زينب يحكى عنها ابن عربى أنها كانت تتلقى إلهاماً علوياً ، فلما كانت دون السنتين كلمّها أبوها قائلاً ما رأيك فى رجل جامع امرأته ولم يُنزل ــماذا يجب عليه ؟ فقالت بلسان فصيح وأمها وجِدتُها يسمعان « يجب عليه الغُسل » فصرخت جدتها وغشى عليها .

■ ■ ■

إبن العرّيف

أبو العباس أحمد بن موسى بن عطاء الله الصنهاجى (٤٨١ ـــ٥٣٦ هـ) من أعلام التصوف الأندلسى ، وله كتاب **محاسن المجالس** الذى حققه وعلق عليه ونشره المستشرق الكبير أسين بلاثيوس سنة ١٩٣٣ ، واعتبره ابن عربى من أهم الكتب التى اعتمد عليها فى تأصيل مذهبه فى وحدة الوجود. واسمه الذى اشتهر به يرجع إلى مهنة أبيه فى السابق فقد كان عرّيفاً أى رئيساً للشرطة المنوط بهم الحراسة فى الليل فى طنجة قبل أن يغادرها إلى المرية فى الأندلس وكانت قصبة للفكر الصوفى وخاصة بعد أن عرف الأندلسيون كتاب الإحياء للغزالى ، فكان بمثابة الدم الجديد للفكر الصوفى المتقادم والذى ران عليه طويلاً تأثير ابن مسرّة. ويدين ابن العريف وابن برجان وابن قسّى وأبو بكر الميورقى بالكثير للغزالى ، إلا أن التفكير الصوفى للثلاثة الأخيرين كان تفكيراً غير تقليدى وقد جرّ عليهم لذلك نقمة الحكام ، بينما ظلت لابن العريف مكانته حتى بعد اتهام قاضى المرية المدعو ابن الأسود له واستدعائه من قبل علىّ بن يوسف بن تاشفين إلى مراكش مع ابن برجان والميورقى ، ولقد هرب الميورقى ، وامتهن ابن برجان وزجوا به فى السجن فمات لتوه سنة ٥٣٦ هـ ، وأطلق سراح ابن العريف معززاً مكرماً ، فلم يرض بذلك القاضى ابن حمدين وقيل إنه دس له السم فمات أيضاً بعد قليل. وكانت علاقة ابن العريف وثيقة بابن برجان ، وقيل إن ابن العريف ربما تتلمذ على ابن برجان ، غير أنه مع ذلك كان شديد التأثير عليه ، وابن العريف لم يجعل من تصوفه وسيلة لاستحداث تغييرات اجتماعية أو سياسية ، وغايته من التصوف معرفة الله وعبادته ، وقيل إنه لم يعجبه ابن حزم الأندلسى لأنه غلط فى الفقهاء وفى التصوف وقال فيه عبارته المشهورة لسان ابن حزم وسيف الحجاج بن يوسف شقيقان. وله شعر طيب ومنه البيتان المعروفان عنه :

يا واصلين إلى المختار من مصر ... زرتم جسوما وزرنا نحن أرواحاً
إنا أقمنا على عذر وعن قدر ... ومن أقام على عذر كمن راحا

■ ■ ■

أبو العزائم

محمد ماضى أبو العزائم ، توفى سنة ١٣٥٦هـ له المصنفات فى التصوف ومنها

أصول الوصول إلى معية الرسول، وشراب الأرواح من فضل الفتاح، ومعراج المقربين ومذكرة المرشدين والمسترشدين والنور المبين لعلوم اليقين، ولعل أبرز ما في طريقته التربية الأخلاقية، ويقول في ترجمته لنفسه أن اسمه ماضي نسبة إلى عين ماضي بالمغرب الأقصى، وأبوه من نسل إدريس الأكبر، وجده لأمه من نسل الشيخ عبدالقادر الجيلاني، وفد من بغداد إلى مصر وهي معه، وميلاد أبي العزائم برشيد من أعمال مصر، ثم انتقل والده إلى محلة ابى على غربية من بلاد مصر ونشأ بها وتعلم. وشقيقه أحمد ماضي أبو العزائم مشهور بعلوم الدين وخدمة الوطن وأسس جريدة المؤيد، ويبدو أن الدكتور جمال ماضي أبو العزائم قد انتقل إليه ميراث محبة علوم الحكمة والطب عن الشيخ، وكان مغرماً بها محباً للتقرب من المجاذيب ومجالسة أهل العاهات ويؤثرهم على نفسه، وله تفسير للعلم ينصرف إلى معناه الحديث فيقول إن كل من تعلم علماً من العلوم له معلوم من علوم الدين وغيرها من علوم الدنيا كالطب والبيطرة، وعلوم القضاء والفتيا للولاية، وعلوم اللسان والإنشاء للوزارة، وعلم حماية الثغور واستحكام المعاقل وأصالة الرأى وتدبير الأحكام وعلم الحوادث والوقائع لقيادة الجيوش، كل واحد من هؤلاء يسمى عالماً بعلم نافع، ويجب على العلماء أن يجالسوا العباد ليتعلموا منهم العلوم النافعة، والعباد يجالسون العلماء ليتعلموا منهم ما لابد لهم منه حتى يكون المؤمنون كجسد واحد، ينتفع الجسد كله بكل عضو على حدته، والجسد كله فى منفعة العضو الواحد، وبذلك يكونون رحماء بينهم فيمنحهم الله العزة على الكافرين والذلة لإخوانهم المؤمنين، فيكونون جميعاً فى أى مكان كالبنيان المرصوص يشد بعضهم بعضا. وأبو العزائم يستخدم بدلاً من العارف بالله اسم **العالم بالله** ويذكر له خمس علامات هى الخشية والخشوع والتواضع وحسن الخلق والزهد. وأبو العزائم كان فى حياته ومع مريديه هكذا، وكان كلامه فى الأخلاق والتوحيد، وامتهن التدريس، وكان يصرف بقية وقته يعلم العامة حتى صار له إخوان يعينونه على مواجيده، وانتقل بعلمه إلى المنيا ثم الشرقية فسواكن فأسوان ثم حلفا ثم أم درمان فالخرطوم. وكان علم التصوف هو علمه المفضل والذى أفاض فى الشرح له ويعرّفه بأنه العلم الذى يعرف منه أحوال النفس فى الخير والشر وكيفية تنقيتها من عيوبها وآفاتها وتطهرها من الصفات المذمومة والرذائل والنجاسات المعنوية التى ورد الشرع باجتنابها، والاتصاف بالصفات المحمودة التى طلب الشرع تحصيلها، وكيفية السلوك والسير إلى الله تعالى والفرار إليه. وموضوعه القلب من ناحية ما يعرض له من اللمحات والخواطر والهواجس والوساوس والعلوم والنيات والقصود والعزائم والاعتقادات وحديث النفس ومسائله الأحكام المتعلقة بهذه

الخواطر والهواجس والنيات وسائر أحوال النفس. وعلوم اليقين التى يكون بها الترقى الإيمانى للسالك هى علوم أخلاقية تتناول التوبة والصبر والشكر والرجاء والخوف والزهد والتوكل والرضا، وأعلاها علم المحبة، ومن عرف الله من طريق المحبة أحبه الله فقرّبه وعلّمه ومكّنه، وذلك نهاية الطريق ومطلب المريد والسالك على السواء.

■ ■ ■

إبن عطاء الأدمى

أبو العباس أحمد بن محمد بن سهل بن عطاء الأدمى نسبة إلى بيع الأدم وهو الجلد، توفى سنة ٣٠٩هـ، وصفه أبو سعيد الخراز فقال إن التصوف خُلُق وما رأيت من أهله إلا الجنيد وابن عطاء، واشتهر بتفسيراته التى ينفرد بها لآيات القرآن والتى يسمعها السامع فيستملحها ويستظرفها منه، ومن ذلك تفسيره لقوله تعالى: «أو ألقى السمع وهو شهيد» أن الله خلق الأنبياء للمشاهدة، بينا خلق الأولياء للمجاورة لقوله تعالى: «عز جارك»، وخلق الصالحين للملازمة لقوله تعالى: «وألزمهم كلمة التقوى» وهى لا إله إلا الله، وخلق العوام للمجاهدة فقال تعالى: «والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا»، وكأن ابن عطاء يقول **بطبقات دينية** وبرسالة اجتماعية لكل طبقة، ثم جعل لكل منها آدابا تكون بها الصلاحية بمقام يسميه بساطاً، يقول: من تأدب بآداب الصالحين صلح لبساط الكرامة، ومن تأدّب بآداب الأولياء صلح لبساط القُربة، ومن تأدّب بآداب الصدّيقين صلح لبساط المشاهدة، ومن تأدب بآداب الأنبياء صلح لبساط الأنُس والانبساط. ويشرح ابن عطاء قوله تعالى: «واسجد واقترب» أى اقترب إلى بساط الربوبية نعتقك من بساط العبودية. ويقول فى قوله تعالى: «ثم تاب عليهم ليتوبوا» أن الرب مالم يعطف على العبد بالرحمة لم يعطف العبد على الله بالطاعة. ومن شروحه الطريفة لمعنى الطهارة مثلاً: الطهارة بالنفوس، والصلاة بالقلوب، فبغسل الوجه نعرض عن الدنيا، وبغسل اليدين نكفى الخلق يمنة ويسرة، وبمسح الرأس نبرأ عن أنفسنا، وبغسل القدمين نقوم لمناجاة ربنا، فإذا كبرنا للصلاة خرجنا من جميع كليتنا لتصح لنا مناجاة ربنا. ومن أملح ما قال أن الرسول لمّا قُبض قام أبو بكر يسوس الناس بقضيب مع قوة نسيم النبوة، فلما توفى أبو بكر تقدم عمر على سياسة الناس فأقام حدود الله بدُرته، ولم يقدر عثمان على سياسة الناس بالدرة فأخرج السوط فلم يستقم له الأمر كما استقام لصاحبيه، فلما استشهد لم يقدر علىّ على شىء يسوس به الخلق سوى السيف. وفى رواية مختلفة عن السابقة قال

كان أبو بكر يشم نسيم الرسالة، وعمر يشم نسيم النبوة، وعثمان يشم نسيم الاصطفاء، وعلىّ يشم نسيم المحبة، فكان بيان إشاراتهم مما خصوا به من الكرامة فى هجيرهم، فكان هجير أبى بكر لا إله إلاّ الله، وكان هجير عمر الله أكبر، وهجير عثمان سبحان الله، وهجير علىّ الحمد لله، فكان أبو بكر لم يشهد فى الدارين غير الله فكان يقول لا إله إلا الله، وكان عمر يرى ما دون الله صغيراً فى جنب عظمة الله فيقول الله أكبر، وكان عثمان لا يرى التنزيه إلا لله، إذ الكل قائم به غير معرّى من النقصان، والقائم بغيره معلول، فكان يقول سبحان الله، وكان علىّ رضى الله عنه يرى نعمة الله فى الدفع والمنع والمحبوب والمكروه فكان يقول الحمد لله.

■ ■ ■

إبن عطاء الله السكندرى

أحمد بن محمد بن عبد الكريم بن عطاء الله، وكنيته تاج الدين، وينسب إلى الإسكندرية حيث ولد وعاش إلى أن غادرها إلى القاهرة بعد وفاة شيخه **أبى العباس المرسى** سنة ٦٨٦هـ. وكانت له اليد الطولى فى العلوم الظاهرة والمعارف الباطنة، وإماماً فى التفسير والحديث والأصول، وصحب المرسى اثنتى عشرة سنة، وتلقى عنه الطريقة **الشاذلية**، ويعد أبرز ممثلى التصوف المصرى فى القرن السابع الهجرى، وكانت بدايته إنكاراً للتصوف واعتراضاً على المرسى، ثم استمع إليه وأعجب به وخلفه على الطريقة بوصاية أستاذه. واشتهرت عنه خصومته للإمام **ابن تيمية** بسبب ما قاله ابن عطاء من أن الإمام يغلط فى الصوفية وينتقد بعضاً من عبارات الشاذلى فى أوراده، وقد استعدى ابن عطاء السلطان عليه فخيرّه بين الإقامة فى دمشق أو القاهرة بشروط، أو الحبس، فاختار الإمام الحبس. وابن عطاء هو الذى جمع أقوال **الشاذلى** وتلميذه **أبى العباس المرسى**، وترجم لهما، وحفظ تراثهما وكان داعية للطريقة الشاذلية له أثره، وجميع الطرق الشاذلية فى مصر ترجع بالسند إليه وإلى ياقوت العرشى تلميذ المرسى. ومن مصنفاته **الحِكَم العطائية** من عيون النثر الصوفى، ويستخدم فيها الرمز، وتلخص مذهبه، وأغلبها فى صورة مخاطبات موجهة للمريد السالك، **والمناجاة العطائية** وتعد من روائع الأدب الصوفى، **والتنوير فى إسقاط التدبير**، أى إسقاط الإنسان لتدبيره مع الله تعالى، والرضا بما يورده عليه، **ولطائف المنن فى مناقب الشيخ أبى العباس المرسى وشيخه الشاذلى أبى الحسن**، يذكر فيه عن سيرتهما ومناقبهما وأحزابهما ومناقلاتهما، **وتاج العروس الحاوى لتهذيب النفوس** وهو مواعظ فى التصوف، وكتب

أخرى كثيرة يتميز فيها ابن عطاء كمرب ومعلم بتوجه بإرشاداته للمريدين والطالبين فيقول: أصل كل معصية وغفلة وشهوة **الرضا عن النفس**، وأصل كل طاعة ويقظة وعفة **عدم الرضا عن النفس**، وإذا التبس عليك أمران، فانظر أثقلهما على النفس فاتبّعه، فإنه لا يثقل عليها إلا ما كان حقاً. وينبغى عليك أن **لا تيأس على فقد شىء، وأن لا تركن إلى وجود شىء**، فإن من وجد شيئاً فركن إليه، أو فقد شيئاً فحزن عليه، فقد أثبت عبوديته لذلك الشىء الذى أفرحه وجوده وأحزنه فقده. ومتى كنت إذا أعطيت بسطك العطاء، وإذا منعت قبضك المنع، فاستدل بذلك على وجود طفوليتك، وعدم صدقك فى عبوديتك. **وليقل ما تفرح به، يقل ما تحزن عليه**. ويقول فى الإرادة والتسيير والمعصية والطاعة: يقول الله تعالى: **«وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون»**، فبّين الله تعالى أنه إنما خلق هذين الجنسين لعبادته، أى ليأمرهم بها، كما تقول لعبدك: ما اشتريتك أيها العبد إلا لتخدمنى، أى لآمرك بالخدمة فتقوم بها. وكما أنه خالق الطاعة بفضله، كذلك هو خالق المعصية بعدله. **قل كل من عند الله. والله خلقكم وما تعلمون**. واعلم أن سر خلق التدبير والاختيار ظهور قهر القهار، وذلك أن الله تعالى أراد أن يتعرف إلى العباد بقهره، فخلق فيهم تدبيراً واختياراً، ثم فسح لهم بالحجة حتى أمكنهم ذلك، فلما دبر العباد واختاروا توجه بقهره إلى تدبيرهم واختيارهم، فزلزل أركانهم، وهدم بنيانهم، فلمّا تعرف للعباد بقهر مرادهم علموا أنه القاهر فوق عباده، فى خلق الإرادة فيك لتكون لك إرادة، ولكن لتدحض إرادته إرادتك، فتعلم أنه ليس لك إرادة. والغافل إذا أصبح ينظر ماذا يفعل، والعاقل ينظر ماذا يفعل الله به. واعلم أنه ما من نفس تبديه إلا وله قدر فيك يمضيه، وأن الله تعالى أراد أن يجعل الحاجة للإنسان إما ليعرفه أو ليعرف به. والحاجة باب إلى الله، وسبب يوصلك إليه. يا أيها الناس أنتم الفقراء إلى الله، فيجعل الله الفقر إليه سبباً يؤدى إلى الوصول إليه والدوام بين يديه. ولعلك أن تفهم قول رسول الله: من عرف نفسه عرف ربه، أى من عرف نفسه بحاجتها وافتقارها وذلها وفاقتها ومسكنتها، عرف ربه بعزه وسلطانه وجوده وإحسانه، إلى غير ذلك من أوصاف الكمال. واعلم أن المؤمن قد ترد عليه خواطر التدبير، ولكن الله لا يدعه لذلك. الله ولى الذين آمنوا يخرجهم من الظلمات إلى النور. والمؤمن إذا وردت عليه خواطر الاضطراب والتدبير لا تثبت، لأن نور الإيمان قد استغرق قلوب المؤمنين.

ويقول ابن عطاء الله فى **آداب المريد**: هى عامة فى ظاهره وباطنه، وآداب الظاهر تبع لآداب الباطن، وآداب الباطن هى التحلى بمحاسن الأخلاق كلها.

وعلامات السقوط من عين الله ثلاث: الرضا عن النفس، وعدم الرضا عن الله، ومزاحمة الحق بالقضاء والقدر. وينصح ابن عطاء المريد فيقول: عليك بالخلوة والعزلة، فمن كانت العزلة دأبه كان العز له، ومن صدقت عزلته ظفر بمواهب الحق له بالمنن، وعلامتها كشف الغطاء وإحياء القلب وتحقيق المحبة. واعلم أن طريق المجاهدات والرياضات لابد منها، فإنه لا يمكن للسالك أن يصفى روحه ويطهر ذاته، واللذات الحيوانية مستعلية على روحه، والشهوات الجسمانية متغلبة على نفسه. وإرادتك التجريد مع إقامة الله إياك فى الأسباب من الشهوة الخفية، وإرادتك الأسباب مع إقامة الله إياك فى التجريد انحطاط عن الهمّة العلية. وتوفى رضى الله عنه بالقاهرة سنة ٧٠٩هـ. ونالت حِكَمه العطائية الكثير من اهتمام الشُرّاح، ومن ذلك كتاب «**احكام الحِكَم**» فى تفسيرها لابراهيم المواهبى المتوفى سنة ٩٠٨هـ، و«**غيث المواهب العلية بشرح الحِكَم العطائية**» لابن عبّاد الرندى المتوفى سنة ٧٩٢هـ، و«**شرح الحكم العطائية**» لأحمد بن أحمد زروف الفاسى المتوفى سنة ٨٩٩هـ (وله أيضاً فى التصوف «**البدع التى يفعلها فقراء الصوفية**» مئة فصل، و«**القواعد فى التصوف**»، و«**إعانة المتوجه المسكين على طريق الفتح والتمكين**»).

▪ ▪ ▪

العطّار

محمد فريد الدين العطار النيسابورى، صاحب المثنويات الشعرية، وله **تذكرة الأولياء**، ضمنها ١٠١ ترجمة صوفية، وكتاب **مقامات الطيور** المعروف باسم **منطق الطير**، برع فى التعبير عن الأشواق الصوفية والتضرع والاحتراق والفناء، وفى كتبه **ومصنفاته التى بلغت ١١٤ مصنفاً بعدد سور القرآن، طرح من أسرار التوحيد وحقائق الأذواق والمواجيد ما أشهره كمتصوف وصاحب طريقة، حتى اشتهر باسم فريد الدين، وكما قيل كان فريداً فى تدينه وفى شعره، وكان أحد ثلاثة شعراء متصوفة برزوا فى الأدب الفارسى هم سنائى والعطار وجلال الدين الرومى**. والعطار شاعر الحب الإلهى، وشعره بسيط، وسحره فى هذه البساطة، وقيل فيه إنه **سوط السالكين**، لأنه يهديهم إلى الحقيقة ولكنهم أثناء ذلك يحرقهم الشوق الذى يستثيره فيهم الشعر، ويكتوون بنار المحبة. والقصص فى شعره رمزى، ويكثر فيه من استخدام المجاز والاستعارة والحكمة. وقيل إن العطار، وكانت **مهنته** عطارة الأدوية، كان بباب دكانه يوماً فسأله **درويش** صدقة فلم يأبه له العطار، فأنبّه

الدرويش فكيف تصنع إذا جاءك الموت، فرد العطار ساخراً بأنه سيصنع مثله، **فما** كان من **الدرويش إلا** أن قعد على الأرض واستند إلى حائط ونظر إليه أن يصنع مثله لو استطاع، وقال «**يا الله**» ثم أسلم الروح. واضطربت حياة العطار من ذلك اليوم، فتاب وانخرط في التصوف، وقرأ فيه حتى ذكر أنه لكي يكتب **تذكرة الأولياء** التي يؤرخ بها لسير الصوفية قرأ سبعمائة كتاب وعشرة، وغايته منه أن يقوى به قلوب المريدين، ويفيدهم بكلام المشايخ السابقين، فيكون منه المدد الروحي على مواصلة الطريق. وواضح أن العطار قد خالط الدراويش منذ طفولته، وأن مهنة عطارة الأدوية أطلعته على نواح من الإنسان ألهبت عقله بالتفكير، ولم يهتد بعقله إلى شيء، ولهذا فقد قال إن الطريق إلى الله هو **طريق القلب**، وطريقة العطار في التصوف تقوم على المجاهدة والرياضة وتزكية النفس وتصفية القلب وتجلية الروح. وهو يصف النفس الإنسانية بأنها كالكلب، أو كالموقد المتأجج بالنار، وإذا قيدت الكلب وكبحت النار كنت الفتى الحقيقي، وتكون قادراً من بعد على كل شيء. وبطل العطار في **منطق الطير**، وهو المسمى **شيخ صنعان**، يطلب من مريديه أن لا يستريحوا من الرياضة أبداً، وأن يكون صومهم وصلاتهم بلا حدود، وأن لا يتركوا السنن، ويوصيهم بمراقبة أنفسهم والحذر الدائم فإبليس ظل يعبد الله زمناً طويلاً ثم عصاه فأضاع نفسه وكل عباداته السابقة وحلت عليه اللعنة. وهو يقول الطريق إلى معرفة الله هو القلب وليس العقل، والعقل هو الذي اختلف به الناس حول الله وعبادته، ولكنهم بالقلب يتحابون. وفي كتابه **مصيبت نامة** يجعل العطار أحد السالكين يتوجه إلى العقل طلباً للإرشاد، فينصحه العقل نفسه بأن **يستفتي قلبه**، ويقول له العقل أجل أعرفُ الحق، ولكن القلب أكمل مني في معرفته. وليس للعقل إلا أن يطيع **الشريعة** وإلا يكفر وإن بلغ الكمال، **والعقل البسيط** هو أفضل العقول، والعقل قاصر فالخمر تؤثر فيه وتستره فكيف يمكن الوثوق به. ويمتدح العطار **طريق الفقهاء**، ومنهم أبو حنيفة والشافعي وابن حنبل، ويهجو **طريق الفلاسفة**، وهو في ذلك يشبه **الغزالي**، ويقول إن طريق المتدينين هو طريق الشوق إلى الحق **وطريق الذوق**. وفي كتابه **أسرار نامة** ينصح العطار المريدين بالابتعاد عن الفلاسفة، وأن يسلموا أنفسهم لمشايخهم في الطريقة، يتعهدون فيه أذواقهم ويرشدونهم في رحلة الروح. ويقول العطار: **يا ولد، الطريق طويل وكله مشاق وعثرات، وقد تسقط في إحدى المهاوي وإن تكن أسداً حقاً، وأنت بدون من يأخذ يدك كالأعمى، فهل أبصرت أعمى يسير مستقيماً بدون عصا تقوده وتهديه**. وفي إحدى الحكايات في كتابه **مصيبت نامة** يقول

العطار: السالك يا ولد يجد نفسه فى مفترق طرق ثلاثة، الأول مكتوب عليها إن **الطريق طويل وصعب ولكن له نهاية**، والثانى مكتوب عليه إنه **طريق عظيم ولكن نهايته غير معلومة**، والثالث الكتابة عليه تقول **الطريق مهلك ولا عودة منه للسالك**، فهكذا **الشريعة والطريقة والحقيقة**، والطريق الأول هو طريق الشريعة، والثانى الطريقة، والثالث الحقيقة، والسير فى هذا الطريق الثالث معناه **الفناء** للسائر فى الله **والبقاء** به سبحانه، فمن فنى فيه بقى به، وأما الطريقة فهى **السفر فى النفس**.

ويقول العطار إن رحلة النفس مراحلها **سبع** بعدد المقامات، ويسمى المقام **وادٍ**، والوديان التى يقطعها المسافر السالك هى أودية **الطلب والعشق والمعرفة والاستغناء والتوحيد والحيرة والفقر والفناء**، وبعد ذلك فليس ثمة سير ولا طريق، لأنه بعد قطع تلك المسافات تقع **الجذبة** وينمحى كل شىء. ويتحدث العطار عن مقام **العشق** فيقول إن حب الصورة أو الجسد هو أدنى مراتب المحبة، والجسد ليس سوى أخلاط ولحم ودم فأى جمال فيه؟ ليس الجمال إلا **الجمال المعنوى**. ويروى العطار **حكاية** عن تلميذ أحب وتدله فى الحب حتى أنساه المواظبة على الحضرة، فعلم الاستاذ واستحضر جاريته التى أحبها التلميذ، وأعطاها مسهّلا وفَصَدَها، واحتفظ بأخلاطها ودمها فى طشت أعده لذلك، ثم طلب التلميذ وأطلعه على الجارية بعد ذبولها، وأشار إلى الطشت وما فيه، فقد كان هو الفرق والذى كان يصنع جمالها المادى، وثاب التلميذ لرشده وعاد للمواظبة على الحضرة. ويقول العطار فى **المعرفة** إن شمسها عندما تشرق يصيب منها كل أحد على قدر حاله. ويمثل العطار **لفناء الخبيث والطيب** بالعود والحطب، تلقى بهما فى النار فيحترقان ويتخلف عنهما رماد متشابه فى الظاهر، ولكنه ليس كذلك فى الحقيقة، فأن ينعدم أحدهما فهذا هو الفناء، وأما ما يفنى عن الفناء فإنه يبقى بقاء العود بعد الاحتراق. وهو يمثل لفكرة **الفناء** بزيت المصباح الذى يحترق فيستحيل دخاناً أسود، فيخرج عن زيتيته، ولكنه يبعث النور. والذين يصلون إلى مقام الفناء قليلون، فيبلغون درجة الوصال **والاتحاد بالله**، وليس معنى الاتحاد **الحلول**، وإنما معناه **الاستغراق فى الكل**، ويقول العطار للمريد: **لا تكن هنا حلولياً أيها الفضولى، إذ ليس الرجل المستغرق حلولياً**.

وميلاد العطار وموته مختلف فيهما، والأرجح أنه ولد بين سنتى ٥٢٨ هـ و٥٣٦ هـ وأنه عاش نحواً من سبعين إلى ثمانين سنة، ويبدو أنه تزوج قبل أن يتصوف، وكان شيخه الروحى أبا سعيد بن أبى الخير، ولم يثبت أنه قد مات مقتولاً على يد كفار

التتار. والأرجح أن وفاة العطار كانت بالشيخوخة نحو سنة ٦٠٧هـ، أو نحو سنة ٦١٧هـ، وقبره مزار عظيم.

■ ■ ■

ابن علوان

صفى الدين أحمد بن علوان (المتوفى ٦٦٥هـ) له «**الفتوح المصونة والأسرار المخزونة**» و«**البحر المشكل الغريب**» رسالتان فى التصوف، و«**ديوان شعر**» أغلبه فى التصوف. وابن علوان يمنى من قرية يفُرس من قرى تعز، واشتغل كاتباً فى بعض الدواوين السلطانية.

■ ■ ■

عنقا (على)

جلال الدين على أبو الفضل عنقا (١٢٦٦ ــ١٣٣٣هـ) له التصانيف العديدة فى الكلام والمنطق والبيان والتصوف، ومنها **رسالة فى الصحو، ورسالة الاصطلام، ومثنوى أنوار قلوب السالكين، وديوان حقائق المناقب**. وهو فارسى ولد بقزوين، واشتغل بالتدريس ثم انصرف إلى التصوف وانضم إلى الأويسية **والنعمة اللّهية** (نسبة إلى شاه نعمة الله ولى) والذهبية. (نسبة إلى سيد حسن حسين الموسوى الدزفولى الذهبى). ويقول إن أساس العرفان هو **النبى** خير الأنام، وهو الذى ذكر أن لكل نبى حرفة، وحرفتى اثنان: الفقر والجهاد، والحرفة هى التى يحق للنبى بها القربة وصنعها الحق فى روحه وقلبه، فواحد له الصبر، وآخر له الرضا أو السخاء أو الحزن أو الإخلاص أو الصفاء أو التسليم أو الغربة أو الرجاء. ويقول عنقا إن حرفة روحه فى الجهاد، ووجوده هو نفسه من الاجتهاد والافتقار. وفى ديوانه **الحقائق** يرد المقامات والأحوال إلى آل البيت، ومعظم قصائده تتحدث عن العشق كنهاية للطريق، ودين العشق ملّة ليس فيها كافر ولا مسلم، والمؤمن المتكمل هو العاشق بقلبه، والعشق لا يعنى إلا الإيمان، والعشق لا برهان له إلا العشق، والعشق هو الكنز المخفى وأحببت أن أُعرف، والعشق المطلق عندما تجلى ظهر العقل الكلى، وليس الهدف من خلق العالم إلا ظهور العشق، والعقل الكلى هو الباعث على سيرة العشق.

ولما توفى على عنقا خلفه على الطريقة ابنه قطب الدين محمد عنقا (١٢٧٤

ـ ١٣٤١هـ) وله **التجليات، وكتاب الإرشاد والمراقبة والشهود** وكتب أخرى، وفيها النظم والنثر فى التصوف.

■ ■ ■

إبن عيّاض (الفضيل)

أبو على الفضيل بن عياض بن مسعود التميمى اليربوعى (١٠٥ ـ ١٨٧ هـ) شيخ الحرم المكّى، خراسانى من ناحية مرو، قيل ولد بسمرقند، وقيل ببخارى، ونشأ بأبيورد، وأصله من الكوفة، وتوفى بمكة، وكان ثقة فى الحديث، وأخذ عنه خلق كثير ومنهم الإمام الشافعى. وقيل إنه كان قاطع طريق، وعشق جارية، فبينا هو يرتقى الجدران إليها سمع تاليا يتلو «ألم يأن للذين آمنوا أن تخشع قلوبهم لذكر الله»، فقال يارب قد آن، فرجع وأوى إلى خربة، فوجد بها جماعة قالوا نرتحل، وقال بعضهم بل نبقى حتى الصباح فإن فضيلاً يقطع الطريق، فانتبه وتاب، وأمّنهم، وجاور الحرم حتى مات.

وطريق الفضيل قوامها **الخوف من الله**، وكان من خوفه نحيفاً بادى الحزن والغم، فإذا ذُكّر بالله أو ذكره أو سمع القرآن استشعر الوجل وفاضت عيناه وبكى حتى ليرحمه مَن بحضرته، وكان دائم السهوم شديد الفكرة، وقيل فيه: ما رأينا رجلاً يريد الله بعلمه وأخذه وإعطائه ومنعه وبذله وبُغضه وحبه وخصاله كلها كالفضيل. ووصف أحواله بعض أصحابه فقالوا: كنا إذا خرجنا مع الفضيل فى جنازة لا يزال يعظ ويذكر ويبكى حتى لكأنه يودع أصحابه ويذهب إلى الآخرة، فإذا وصلنا إلى المقابر يجلس فكأنه من الموتى من فرط حزنه وبكائه، فإذا قمنا لنعود فكأنه يرجع من الآخرة يخبر عنها!

وكان رحمه الله من فرط خوفه يتمنى لو لم يولد ولو لم يكن إطلاقاً. يقول لو خُيّرت بين أن أُبعث يوم القيامة وأن لا أُبعث لاخترت أن لا أبعث. ولو خُيرت بين أن أعيش كلباً وأموت كلباً ولا أرى يوم القيامة لاخترت أن أعيش وأموت كلباً.

وكانت قراءته للقرآن حزينة بطيئة مترسلة كأنه يخاطب بها إنساناً، وكان إذا مر بآية فيها ذكر الجنة تردد فيها وسأل، وكانت صلاته فى الليل أكثر وهو قاعد، فتُلقى له حصير فى مسجده فيصلى من أول الليل ساعةً حتى تغلبه عيناه، فيلقى نفسه على

الحصير فينام قليلاً ، ثم يقوم فإذا غلبه النوم نام ، ثم يقوم وهكذا حتى يصبح . وكان إذا حدّث عن رسول الله ﷺ صَدَقَ ، ولكنه كان يتحرج من ذلك ويقول لو أنك تطلب منى الدراهم لأحب إلىّ من أن تطلب منى الأحاديث ، فقد كان يخشي الله ويخشى نبيه ، ويخشى أن يعرفه الناس كمُحَدث وأن يظهر بينهم . يقول إذا كنت فى جماعة الناس فاخف شخصك ، وإنّ رهبة العبد من الله على قدر علمه به ، والتعبير كله باللسان لا بالعمل ، وأشد الورع فى اللسان ، فاحفظ لسانك ، واعرف زمانك ، واخف مكانك ، وأقبل على شأنك . **وحزن الفضيل** هو حزن العابد وليس مرض الاكتئاب ، ولقد ظل ثلاثين سنة لا يضحك كما يقول أبو على الرازى الصوفى ، ولكنه رآه مبتسماً يوم مات ابنه علىّ ، فلما سأله عن ذلك قال إن الله عز وجل أحب أمراً فأحببت ما أحب الله . وحزنه كما يصفه هو حزن التائب ، وبسبب خوفه وحزنه زهد الدنيا لعله بزهده ينصلح قلبه وعمله ، وشعاره الذى ما يزال يردده على إخوانه **أصلَحُ ما أكون أفقر ما أكون ، وإنى لأعصى الله فأعرف ذلك فى خلق حمارى وخادمى .** والصالح هو الخائف الذى يتزهد كل شيء ويتورع عن كل فعل ردىء ، وصلاحه ينصلح به من حوله ، حتى الحيوانات التى تعايشه ، وخوفه من الله هو الذى يحزنه على ما آل إليه أمر الناس ، وإنه ليستحى أن يشبع والناس فيهم الظلم والحق قد زال فلماذا يفرح ؟ يقول لأصحابه : ألا أحدثكم حديثاً حسناً ، قالوا بلى ، قال لا تفرح إن الله لا يحب الفرحين . وينتقد العلماء والصوفية الذين يراءون ولا يخشون الله ، فقد رأى أصحاب الحديث يمزحون ويضحكون فناداهم مهلاً يا ورثة الأنبياء ، إنكم أئمة يقتدى بكم . ويقول إنما هما عالمان ، **عالم دنيا وعالم آخرة ،** فعالم الدنيا علمه منشور ، وعالم الآخرة علمه مستور ، فاتبّعوا عالم الآخرة ، واحذروا عالم الدنيا . واذكروا قول الله إن كثيراً من الأحبار والرهبان ليأكلون أموال الناس بالباطل . والعلماء كثير والحكماء قليل ، وإنما يراد من العلم الحكمة ، فمن أوتى الحكمة فقد أوتى خيراً كثيراً . وحامل القرآن حامل راية الإسلام فلا ينبغى له أن يلغو مع من يلغو ، ولا أن يلهو مع من يلهو ، ولا أن يسهو مع من يسهو . ولا ينبغى على حامل القرآن أن يكون له إلى الخلق حاجة ، وينبغى أن تكون حوائج الخلق إليه . ولو كان مع علمائنا صبر ما غدوا لأبواب الملوك والخلفاء . ويقول أف من الدنيا ، إنها ليست دار إقامة فما حاجتهم منها ؟ إنما أُهبط آدم إليها عقوبة . ولو أن الدنيا جميعها عُرضت علىّ حلالاً لا أحاسب بها فى الآخرة لكنت أتقذرها كما يتقذر أحدكم الجيفة إذا مر بها أن تصيب ثوبه !! وأما **الصوفية** فقد كره الفضيل منهم لباسهم ، ولما رأى جماعة منهم من الشبان وقد وضعوا الصوف قال لهم

وددت أني لم أركم ولم تروني حتى لا تحكون أني رأيتكم وأنكم رأيتموني. ولما ناقشه أحدهم قال له: لا تكن مرائياً وأنت لا تشعر. تصّنعت وتهيأت حتى عرفك الناس فقالوا هو رجل صالح فأكرموك وقضوا لك الحوائج وسعوا لك في المجالس، ولولا أنهم عرفوك في الله لهنت عليهم كما هان عليهم الفاسق، لم يكرموه، ولم يقضوه، ولم يوسعوا له في المجالس. لو حلفتُ إني مرائي لكان أحب إليّ من أن أحلف أني لست مرائياً. إن الناس تنظر إلى العالم وتنظر إلى الصوفي فيجتمعون حوله، ومَنْ من الناس لا يجتمع الناس حوله فلا يجوّد لهم كلامه؟ إنكم تفتون الناس بينما كان الواحد من الصالحين من بني إسرائيل لا يفتي ولا يحدث حتى يتعبد سبعين سنة. لأن آكل عند اليهودي والنصراني أحب إليّ من أن آكل عند صاحب بدعة، فإني إذا أكلت عندهما لا يقتدى بي، وإذا أكلتُ عند صاحب بدعة اقتدى بي الناس. والله يغفر للجاهل سبعين ذنباً ولا يغفر للعالم ذنباً واحداً. وكذلك صاحب البدعة لا يرتفع له عمل إلى الله. وما أدرك في الإسلام من أدرك بكثرة الصيام، ولا الصلاة، ولا التعالم، ولا التصوف، وإنما أدرك بسخاء الأنفس وسلامة الصدور ونصح الأمة. وذلك هو طريق الفضيل رضي الله عنه.

■ ■ ■

العيدروسية

من تريم بحضرموت، كانوا من أهل العلم والتقوى، ولهم طريقة صوفية انفرعت عن الطريقة العلوية، وجدهم الأكبر محمد بن علي بن علوي، وكان رباطه في يَبْحُر، ومنهم **أبو بكر بن عبدالله الشاذلي العيدروس** (٨٥١ ــ ٩١٤هـ) وله كتاب «**الجزء اللطيف في علم التحكيم الشريف**» وثلاثة أوراد على الطريقة الشاذلية، وديوان شعر نظمه ضعيف، ومن مريديه جمال الدين بحرق الحضرمي، وله فيه كتاب «**مواهب القدوس في مناقب ابن العيدروس**»، ومما يرويه عنه أنه أثناء سياحاته في اليمن أطلعه أتباعه على البن، فاقتات به مثلهم فأعجبه، وعممه على أتباعه، وكان يدعو زواره عليه، فذاع استخدامه عن ذلك الطريق، وكان ارتباط البن اليمني باسم العيدروسية لهذا السبب. ومنهم **شيخ بن عبدالله بن شيخ بن عبدالله العيدروس** (٩١٩ ــ ٩٩٠هـ) ولد في تريم واستقر في الهند وتوفي في أحمد أباد، ومن كتبه «**العقد النبوي والسر المصطفوي**»، و«**حقائق التوحيد**»، و«**معراج**»، و«**نفحات الحكم على لامية العجم**» بلسان التصوف. ومنهم **محمد بن عبدالله**

بن شيخ العيدروس الصوفى الزاهد، وله «إيضاح أسرار علوم المقربين»، وعبد القادر شيخ بن عبد الله بن شيخ بن عبد الله العيدروس (٩٧٨ ــ١٠٣٨هـ) وله كتب كثيرة لعل أهمها «تعريف الأحياء بفضائل الإحياء» و«الفتوحات القدسية فى الخرقة العيدروسية» و«الحضرة العزيزة بعيون السير الوجيزة» و«غاية القرب فى شرح نهاية الطلب» و«قرة العين فى مناقب الولى باحسين»» و«الزهر الباسم من روض الأستاذ حاتم»، وجعفر بن على بن عبد الله بن شيخ العيدروس (٩٩٧ ــ١٠٦٤هـ) ولد فى تريم واستقر فى سورت بالهند، وبها توفى، وله مصنفات منها «تحفة الأصفياء بترجمة سفينة الأولياء» وعبد الرحمن بن مصطفى العيدروس الحسينى (١١٣٥ ــ١١٩٢هـ) له «لطائف الجود فى مسألة وحدة الوجود»، و«إتحاف الخليل» فى الطريقة النقشبندية، و«النفحات المدنية» فى الأذكار، و«فتح الرحمن فى شرح صلاة أبى الفتيان». (انظر باعلوى والسقافية)

■ ■ ■

غ

الغزالى

حجة الإسلام أبو حامد محمد بن محمد بن محمد الغزالى (٤٥٠ ــ ٥٠٥ هـ)، وله المواقف من الفلسفة والتصوف، وكُتبه نحو من مائتى كتاب، منها **إحياء علوم الدين وتهافت الفلاسفة وفضائح الباطنية**، وما طرقه من موضوعات يجعل منه **موسوعة كاملة**، فقد طاف بميادين المعرفة، وانتهى به الأمر إلى الشك الفلسفى الذى أسلمه إلى التصوف فوجد فيه النجاة وعصمه وأوصله إلى اليقين. وكانت نشأته فى **غزالة من قرى طوس**، ولعله لذلك سمى الغزالى، أو أن تلك كنيته لاشتغال أهله **بالغزل**، وترعرع فى جو صوفى من طفولته، وهو يقول فى كتابه **المنقذ من الضلال** الذى يترجم فيه لحياته الروحية، أنه لما فرغ من العلوم العقلية أقبل على طريق الصوفية، فعلم أن طريقهم إنما تتم **بعلم وعمل**، وأن حاصل علومهم هو قطع عقبات النفس والتنزه عن أخلاقها المذمومة وصفاتها الخبيثة حتى يتوصل إلى تخلية القلب عن غير الله تعالى وتحليته بذكره. وكان العلم أيسر عليه من العمل، فابتدأ بتحصيل علمهم من مطالعة كتبهم، مثل **قوت القلوب لأبى طالب المكى**، وكُتب **الحارث المحاسبى**، والمتفرقات المأثورة عن **الجنيد والشبلى وأبى يزيد البسطامى** وغيرهم من المشايخ، فظهر له أن أخص خواصهم **لا يمكن الوصول إليه بالتعلم بل بالذوق والحال وتبدل الصفات**، وهناك فرق بين أن تعلم حد الصحة والشبع مثلاً وأسبابهما وشروطهما، وبين أن تكون صحيحاً أنت نفسك وشبعان، وفرق بين أن تعرف حدود السُكْر وأنه يتحصل نتيجة أبخرة تتصاعد من المعدة وتستولى على الفكر، وبين أن تجرب أنت نفسك أن

تكون سكران ، وكذلك هناك فرق بين أن تعرف حقيقة الزهد وشروطه وأسبابه ، وبين أن يكون حالك هو الزهد والعزوف عن الدنيا . وقد وجد الغزالى نفسه منغمساً فى العلائق ، وتبين له أن نيته فى التدريس الذى كان بمتهنه لم تكن خالصة لوجه الله ، وأدرك أنه هالك إن لم يتدارك نفسه ، وظلت الهواجس تخترمه ويعانى الصراع النفسى بين أن يترك كل شىء : التدريس وبغداد والأهل والصحاب والولد والجاه والشأن ، أو أن يبقى فربما لا يستطيع أن يعود فى الغد إلى ما ينوى تركه اليوم ، ولم يحسم تردده إلا إصابته بما يسميه علماء الطب النفسى **الحُبسة الكلامية أو عقال المدرس**، وتلك حالة يبلغها المرء حينما يتراوح بين أمرين كلاهما صعب عليه تحقيقه ، ويتساويان فى ضغوطهما عليه ، وقد حدث أن أقفل الله عليه لسانه كما يقول ، حتى اعتقل عن التدريس ، فكان لسانه لا ينطق بكلمة واحدة ، وتداعى بالمرض النفسى وعاف كل زاد وحار فيه الأطباء ، فدّبر السفر إلى الشام وتلطف بالحيل ليخرج من بغداد ، وفى دمشق أقام سنتين لا شغل له إلا العزلة والخلوة والرياضة والمجاهدة ، اشتغالاً بتزكية النفس وتهذيب الأخلاق وتصفية القلب لذكر الله تعالى كما سبق أن حصّل من كتب الصوفية ، ثم رحل إلى بيت المقدس وكان يدخل كل يوم الصخرة ويغلق بابها عليه ، وتحركت فيه داعية فريضة الحج والاستمداد من بركات مكة والمدينة وزيارة الرسول فسار إلى الحجاز ، ثم جذبته الهمم ودعوات الأطفال إلى الوطن فعاد إلى بغداد ولكنه استمر يحرص على خلوته ، وداوم على ذلك عشر سنوات ، وانكشف له فى أثنائها : **أن الصوفية هم السالكون لطريق الله خاصة ، وأن سيرتهم أحسن السير ، وطريقهم أصوب الطرق ، وأخلاقهم أذكى الأخلاق ، بل إنه لو جُمع عقل العقلاء ، وحكمة الحكماء ، وعلم الواقفين على أسرار الشرع من العلماء ، ليغيروا شيئاً من سيرهم وأخلاقهم ويبدلوه بما هو خير منه ، لم يجدوا إليه سبيلاً ، وذلك أن جميع حركات الصوفية وسكناتهم فى ظاهرهم وباطنهم ، مقتبسة من نور مشكاة النبوة ، وليس وراء نور النبوة على وجه الأرض نور يستضاء به . وماذا يقول القائلون فى طريقه أول شروطها تطهير القلب بالكلية عما سوى الله تعالى ، ومفتاحها هو استغراق القلب بالكلية بذكر الله ، وآخرها الفناء بالكلية فى الله . ومن أول الطريقة تبتدىء المكاشفات والمشاهدات حتى أنهم فى يقظتهم يشاهدون الملائكة وأرواح الأنبياء ، ويسمعون منهم أصواتاً ويقتبسون منهم فوائد ، ثم يترقى الحال من مشاهدة الصور والأمثال إلى درجات يضيق عنها نطاق النطق ، فلا يحاول معبر أن يعبر عنها إلا اشتمل لفظه على خطأ صريح لا يمكنه الاحتراز منه . وعلى**

الجملة ينتهى الأمر إلى قرب يكاد يتخيل منه طائفةٌ الحلول، وطائفةٌ الاتحاد، وطائفةٌ الوصول، وكل ذلك خطأ، والذى تلابسه هذه الحالة لاينبغى أن يزيد على أن يقول:

وكان ما كان مما لست أذكره   فَظُنْ خيراً ولا تسأل عن الخبر

وبالجملة فمن لم يرزق منه شيئاً بالذوق فليس يدرك من حقيقة النبوة إلا الاسم، وليست كرامات الأولياء على التحقيق إلا بدايات الأنبياء، وكان ذلك حال رسول الله ﷺ حين كان يقبل على جبل حراء فيخلو إلى ربه يتعبد حتى قالت فيه العرب: إن محمداً عشق ربه!! وهذه حالة يتحققها بالذوق من يسلك سبيلها، فمن لم يرزق الذوق فتيقنه لها يكون بالتسامع والتجربة إنْ أكثر الصحبة مع الصوفية حتى يفهم أحوالهم ويستفيد الإيمان من مجالستهم، فهم القوم لا يشقى جليسهم، ومن دونهم الجهلة الذين يقول الغزالى فيهم إنهم الضالون عن التصوف الذين يزعمون أنهم وصلوا فيه إلى مبلغ من الترقى يغنيهم عن العبادة، وقد يتعللون بشبهة أخرى من شبهات الإباحة. ويغلو الغزالى على المدّعين لإسقاط الأعمال فيقول فى **إحياء علوم الدين** إن من ينطق بشىء من ذلك فقتله أفضل فى دين الله، ويعود إلى نفس المعنى فى كتاب **فيصل التفرقة** فيقول إن ضرره فى الدين أعظم لأنه يفتح فيه باباً من الإباحة لا ينسد، ويقول فى أصحاب الشطحات إن كلامهم لا فائدة منه إلا تشويش القلوب وتحيير الأذهان وإدهاش العقول. ويصف هذا الصنف من الصوفية الضالّة فيقول ما أغلب الغرور على الصوفية، والمفترون منهم فرق كثيرة. ويقول فى أصحاب **مذهب الاتحاد والحلول** إنهم كالنصارى القائلين باتحاد اللاهوت والناسوت. ويؤيد ابن تيمية الغزالى فيما ذهب إليه فى كتابه المنقذ من الضلال من عثوره على حل لأزمته الروحية فى التصوف، لأنه عن طريق المشاهدات التى تحدث للصوفى يتأكد له صدق ما أخبر عنه النبى ﷺ، مع فارق أن المشاهدات التى تحصل للأنبياء أكثر شمولاً واتساعاً وتأثيراً من التى تحدث للأولياء، وكما أن لكل علم روادا فإن الأنبياء يكونون بذلك رواد طريق المكاشفات. وقد تبين مع ذلك للغزالى أن طريق الصوفية إن كان يفيد منه الصوفى إلا أنه لا يكفى وذلك أنه هناك من الصوفية من ضلّوا وأضلوا، ومن الفلاسفة والتعليمية والمتوسمين من العلماء، ومن أجل ذلك فقد عاد الغزالى إلى التدريس وأنهى عزلته وخرج من الزاوية بعد إحدى عشرة سنة من العزلة لينشر العلم ويصلح به نفسه والناس مخلصاً لله النية هذه المرة.

ويقول الغزالى فى كتابه **المقصد الأسنى** أن للمعرفة سببين، أحدهما السبيل الحقيقى وهو مسدود إلا فى حق الله تعالى فلا يكاد يطلبه أحد من الخلق إلا وترده سُبحات الجلال إلى الحيرة ويغض للدهشة طرفه. والسبيل الثانى هو معرفة الأسماء والصفات، وذلك مفتوح للخلق، وفيه تتفاوت مراتبهم، ويستشهد بقول الجنيد: لا يعرف الله إلا الله تعالى. ويقول الغزالى إن حظوظ المقربين من معانى أسماء الله تعالى ثلاثة: الأول معرفة معانى الأسماء على سبيل المكاشفة والمشاهدة، والثانى التشوق إلى الاتصاف بما يمكن من تلك الصفات الإلهية ليقربوا بها من الحق قربا بالصفة لا بالمكان، فيأخذوا من الاتصاف بها شبهاً من الملائكة المقربين عند الله، والثالث السعى فى اكتساب الممكن من تلك الصفات والتخلق بها والتحلى بمحاسنها، وبه يصير العبد ربانيا أى قريباً من الله تعالى، فإنه يصير رفيقاً للملأ الأعلى من الملائكة، فإنهم على بساط القرب، فمن كان سعيه لينال شيئاً من صفاتهم فإنه ينال شيئاً من قربهم بقدر ما ينال من أوصافهم المقربة لهم إلى الحق تعالى. وكأن الغزالى يقول إن **الوصول** الذى هو من مصطلحات الصوفية هو هذا القرب وحده بالمعنى السابق وليس بمعنى الحلول والاتحاد، وهو غاية نظريته فى التصوف. وفى كتابه الذى يخاطب فيه مريديه **بأيها الولد** يقول الغزالى عن تجربته الروحية: خلاصة العلم أن تعلم أن الطاعة والعبادة ما هى؟ واعلم أنها متابعة الشارع فى الأوامر والنواهى بالقول والفعل، فالعلم والعمل بلا اقتداء الشرع ضلالة، وينبغى ألاّ تغتر بشطح الصوفية وكراماتهم، لأن سلوك هذا الطريق يكون بالمجاهدة وقطع شهوة النفس وقتل هواها بسيف الرياضة، لا بالطامات والترهات.

■ ■ ■

الغزالى

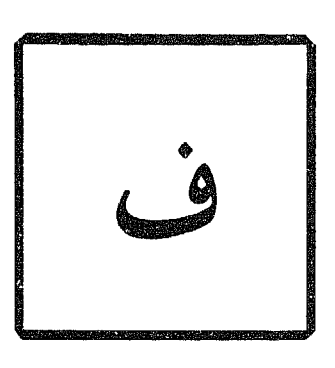
أحمد بن محمد الغزالى المتوفى ٥٢٠ هـ، أخو الإمام أبى حامد الغزالى، له «**الذخيرة فى علم البصيرة**»، و«**لباب الإحياء**» اختصر فيه كتاب الإحياء لأخيه، و«**بحر الحقيقة**» بالفارسية يشرح فيه مدارج السالكين، و«**سوانح العشاق**» عن أسرار العشق وأحواله وهو من المراجع الهامة فى التصوف. وكان من تلاميذه **عين القضاة الهمدانى** المقتول سنة ٥٢٠ هـ وله عدة تصانيف منها **زبدة الحقائق**.

■ ■ ■

الغمرى

أبو عبدالله شمس الدين محمد بن عمر، الواسطى الغمرى المحلى، وشهرته **الغمرى**، من فقهاء الشافعية، أصله من واسط، ومولده بميت غمر بمصر وإليها نسبته، وسكنه بالمحلة الكبرى وتوفى بها سنة ٩٠٥هـ. وكتابه الأشهر **قواعد الصوفية**، وقد قرأه عليه زكريا الأنصارى، وعنه أخذ الخرقة وأنشأ الكثير من الجوامع أو أصلحها، ودفن بجامع المحلة.

■ ■ ■



إبن الفارض (عمر)

أبو حفص وأبو القاسم عمر بن أبى الحسن على بن المرشد بن على (٥٧٦ ــ ٦٣٢ هـ) **« الصوفى المصرى الأول بلا منازع ورأس شعراء الصوفية من العرب »** كما يصفه الشيخ مصطفى عبد الرازق، ولقبه سلطان العاشقين، فقد حفل ديوانه بأناشيد الحب الإلهى فصار بها تحفة أدبية تزهو به العربية على آداب الأمم، وتراثاً روحياً فلسفياً يقول فيه ابن أبى حجلة : **هو من أرق الدواوين شعراً، وأنفسها دراً، براً وبحراً، وأسرعها للقلوب جرحا، وأكثرها على الطول نوحا، إذ هو صادر عن نفثة مصدور، وعاشق مهجور، وقلب بحّر النّوىَ مكسور، والناس يلهجون بقوافيه، وما أودع من القوى فيه، وكثر حتى قلّ من لا رأى ديوانه، أو طنّت بأذنه قصائده الطنانة »**. والديوان فى جملته استوعب حياة الشاعر الروحية كلها، وكثرت فيه الشروح والتفاسير وخاصة لقصيدته التائية الكبرى والخمرية، ولعل أوفاها وأخصبها شرح **عبد الغنى النابلسى**. وقصيدتاه المشار إليهما هى اللتان مطلع الأولى منهما :

سقتنى حميا الحب راحة مقلتى   وكأسى محيا من عن الحسن جلت

ومطلع الثانية والتى تسمى الميمية :

شربنا على ذكر الحبيب مدامة   سكرنا بها من قبل أن يخلق الكرم

والقصيدتان تشتملان على الرموز والتلويحات والإشارات والمصطلحات، وليست التائية الكبرى إلا ترجمة الشاعر لنفسه روحياً، وهو يقصّ فيها ما عانى من الرياضات والمجاهدات والمحن والآلام، وأما الميمية فالمقصود بالمدامة فيها، أى الخمر، المحبة الإلهية، أصل الوجود والخلق. ويقول **عبد الرازق القاشانى** الصوفى فى شروحه للتائية: فلما تصفحتها مراراً وقلبتها أطواراً واحتظيت بمعانيها على قدر ما قدر لى من الاستعداد، واجتليت مبانيها على ما وفق لى من النظر بالفؤاد، وجدتها مبنية على قواعد العلم والعرفان، منبئة عن نتائج الكشف والوجدان، مشيرة إلى ما أطلع الله ناظمها عليه ووصل قدمه إليه من حقائق التوحيد ودقائق التفريد، والمواجيد الصحيحة والمكاشفات الصريحة، والمعاملات النفسية والمنازلات القلبية والمواصلات الروحية». ولعله لهذه الأوصاف عرفت التائية باسمٍ آخر هو «**نظم السلوك**». ويذكر حفيد ابن الفارض الذى يؤرخ لسيرته أن القصيدة كان أول ما سميت به **أنفاس الجنان، ونفائس الجنان**، ثم سميت **لوائح الجنان، وروائح الجنان**، ثم رأى جده النبى عليه الصلاة والسلام فى المنام فأمره أن يسميها **نظم السلوك**. وأما قصيدته الميمية فالغالب أن شراحه هم الذين أطلقوا عليها اسم **الخمرية** حيث كنى الشاعر عن المحبة الإلهية بالخمر. ولم نعلم أن قصيدة من القصائد أو ديواناً من الدواوين حظى بمثل الشروح التى حظى بها ديوان ابن الفارض أو قصيدتاه، ولعل شرح **القيصرى** للخمرية، المتوفى سنة ٧٥١هـ، هو أفضل هذه الشروح حيث أنه يميل فيه إلى الفلسفة ويقدم له بمقدمة فى حقيقة المحبة وأقسامها. وقصائد ابن الفارض من الذيوع والشيوع فى كل بلاد الإسلام، وتنشد فى حلقات الذكر لإهاجة الانفعال وإثارة الوجدان، وقد ترجمها اللاتين بمختلف اللغات، ومن هؤلاء فابريسيوس وجونز وفالبن ودى ساسى ولاجرانج ودرمينجم ونيكلسون وفالرجا ودى ماتيو.

وحقيقة تسمية **ابن الفارض** بهذا الاسم أن والده وكان قد هاجر من حماه إلى مصر واستوطنها عمل فارضاً، أى الذى يثبت الفروض للنساء على الرجال بين يدى الحاكم، وغلب عليه هذا الاسم. وكانت ولادة عمر بالقاهرة وانطبع بالمصرية وأحب مصر وفتن بها حتى كان يقول:

وطنى مصر وفيها وطرى ولنفسى مشتهاها مشتهاها

وقد اختلفوا فى ابن الفارض حتى أدرجوه مع ابن عربى والعفيف التلمسانى والقونوى وابن هود وابن سبعين وتلميذه الششترى وابن مظفر والصفّار ضمن من قالوا:

« أقوالاً ردية أو غير مرضية » . ومن الذين انتقدوا عليه القاضى عبدالرحمن بن بنت الأعز المتوفى سنة ٦٩٥ هـ، وابن تيمية ، وابن خلدون ، والبقاعى المتوفى سنة ٨٥٨ هـ، ومس الذين ناصروه السلطان قايتباى والقاضى زكريا بن محمد الأنصارى الذى أصدر فتواه بتبرئته من التهم التى قال بها خصومه ، وأحمد بن حجر الهيثمى وجلال الدين السيوطى وعبدالوهاب الشعرانى . وكانت تهمة ابن الفارض أنه اتحادى وبقول بوحدة الوجود ، وأنه تلميذ لابن عربى ، وفى رأى البعض ومنهم ماسينيون أن اتحاد ابن الفارض ليس من نوع الاتحاد الفلسفى كالذى عند ابن عربى ، ولكنه اتحاد نفسى أملاه أن ابن الفارض شاعر يرى تجلى الله تعالى فى كل الطبيعة :

جَـلَـت فـى تجليها الوجود لـنـاظرى ... فـفـى كـل مـرئـى أراهـا بـرؤيـة

أو أن اتحاده اتحاد صوفى هو حال من الأحوال التى تدرك فيها الوحدة فى مقام سكر الجمع أو فى مقام صحو الجمع ، والوحدة التى تنسب إليه لذلك هى وحدة شهود وليست وحدة وجود ، بمعنى تجلى الله فى مظاهر الكون وشهود السالك للذات الإلهية شهوداً يرى فيه كل شىء على أنه عدم فى ذاته بالقياس إلى الوجود الحق الواحد. والشهود عند ابن الفارض فى أمثال هذه الأبيات :

أروح بـفـقـد لـبـى التزاماً بمحضرى ... ويجمعنى سلبى اصطلاما بغيتى
إخال حضيضى الصحو والسكر معرجى ... إليهـا ومحـوى مـنتهـى قـاب سـدرتـى

هو علة فقده لوجوده الذاتى واتحاده بذات محبوبه ، على عكس الوجود فإنه علة وجوده لذاته وتفرقته عن ذات محبوبه . وقضية الحب الذى استوعب حياة ابن الفارض والذى يفسر بها فلسفته هى نفسها التى تجعل منه شاعر الحب الأول ، فقد جعل منه دينا ومذهبا يجمع فيه كل الأديان والمذاهب :

وعن مذهبى فى الحب مالى مذهب ... وإن ملت يوماً عنه فارقت ملتى
ولـو خـطـرت لـى فـى سـواك إرادة ... على خاطرى سهواً قضيت بردتى

■ ■ ■

الفاسى

شمس الدين عبد الله الفاسى **رئيس المجلس الصوفى العالمى وشيخ الطريقة**

الشاذلية الفاسية، ورث المشيخة عن أبيه، وكانت ولادته بمكة سنة ١٣٤٥هـ، وتعليمه بالهند وقد تخصص فى القانون، ويهدف الفاسى من إنشائه للمجلس الصوفى أن يجمع به شمل الطرف الصوفية تحت لوائه، وفلسفته فى ذلك أنه لا اختلاف بين الطرق الصوفية طالما أن مصدرها واحد ولا تقود جميعها إلا للحق تبارك وتعالى، فلماذا التفرق الذى لا يخدم سوى أعداء الإسلام؟ **ووحدة الصوفية** هى حلم الدكتور الفاسى، وكما يقول فإنه إذا كانت الطريقة الشاذلية هى الأصل والأم بالنسبة للطرق الصوفية عموماً فمسئولية من يتولى أمرها أن يحمل هذه الريادة وأن تكون مهمته تكوين طليعة للجهاد المقدس وحرس خاص للمقدسات والحرمات والشريعة. وكان تأسيس المجلس الصوفى العالمى كمركز ومجلس للدعوة لوحدة الصوفية فى لندن بعيداً عن الأوضاع السياسية التى تحكم العالم الإسلامى، وكانت البداية فى سريلانكا عام ١٩٨١ حيث مقر الطريقة الشاذلية الفاسية، وقد استجابت كل الطرق هناك لدعوته وعددها ٢٨ طريقة بالإضافة إلى ١٨ هيئة إسلامية صوفية، ثم كان اختيار الفاسى للندن كمقر للمجلس ليبأى بالدعوة للوحدة الصوفية العالمية عن الحركات الدينية الجديدة التى يموج بها الوطن العربى للتتاح لهذه الحركات فرصة بلورة أفكارها وتوضيح مناهجها قبل أن تفكر فى الانضمام للمجلس وهى بعد فى طور التكوين، وحتى لا يتسبب المجلس فى إحراج أية حكومة عربية، وليتسنى للفاسى أن يقول ما يشاء فلا يحسب قوله على أحد ولا يتسبب لأحد فى مشاكل. وربما كان اختيار لندن كذلك لنشر الدعوة الإسلامية فى أوروبا هو نفس الدور الذى لعبته الطرق الصوفية فى الماضى عندما انتشر الإسلام من خلالها فى افريقيا وآسيا. والفلسفة التى يصدر عنها الفاسى أن الإنسان الغربى قد أوصلته الحضارة المادية إلى غُربة عن العالم الذى صنعه بها، وأصبحت هذه الحضارة أضخم منه، وأصيب بسببها بالأمراض النفسية والتوتر والقلق، ومن الطبيعى أن يكون رد الفعل فى الاتجاه الآخر المضاد لحركة التحديث، أى الاتجاه الروحى الذى تمثل الصوفية إحدى قيمه. وإذا قيض للإسلام أن ينتشر فى أوروبا فالمؤكد أن ذلك سيتم عن طريق الحركة الصوفية دون غيرها، فالتصوف يملك مفاتيح الطريق الذى يعين الإنسان المغترب عن بيئته، وذلك من الأسباب التى دفعت الفاسى إلى الاعتقاد بأهمية وحتمية تكثيف النشاط الصوفى فى قلب أوروبا، وبالتالى من الأسباب التى دفعته إلى تأسيس المجلس الصوفى العالمى حيث من الممكن اجتذاب المزيد من الباحثين عن الحقيقة. وقد أفلح الفاسى أن يضم إلى المجلس أكثر من ٣٢ طريقة صوفية من الهند وتوالت البيعات له من أنحاء العالم الإسلامى. وهو يختار من بين المجالس

الصوفية فى كل قطر واحداً من أعضائه ليكون رئيس المجلس الصوفى فى هذه البلد ويخلفه على رئاسته. ويبدو أن تلك المرتبة التى يسعى إليها الفاسى هى مرتبة القطبية من مراتب الحكومة الصوفية والتى كانت غيباً فى الماضى ويشهدها العالم الإسلامى حضوراً فى شخصية الفاسى وما يمثله من أفكار تتجاوز العلاقة التعبدية التى كانوا فى الماضى ينشدونها للصوفى مع ربه، وفى ذلك يقول الفاسى إن التصوف عمل وأخلاق وأمانة وفكر وحرص وتقوى، والله يحب الأقوياء. ويقول الفاسى فى الاجتماع السنوى احتفالاً بمولد الرسول: هل نكتفى بالاجتماع كل عام للاحتفال، أم نحوّل احتفالنا بمولد نبينا إلى جهاد، نجتمع فيه على الحق كالبنيان المرصوص، يداً واحدة تقاوم الفتنة والشر. أين منا فلسطين وصبرا وشاتيلا؟ أين منا مسجدنا وقِبْلتنا الثانية؟ هل نحتفل بمولد النبى الكريم دون عمل؟ نريد أن نجتمع لكى نجاهد فى سبيل الله وننتصر كما انتصر الرسول، فكونوا عباد الله إخواناً وانبذوا الفرقة بينكم. نريد أن نتحرك نحن المسلمين لنخلص المسلمين مما بهم ومما أصابهم فى أرواحهم وقلوبهم وعقولهم. نحن الذين علينا أن نحررهم. الحاكم وظيفته أن يرعى البلاد ويذود عنها شر المعتدين ويحفظ شرع الله ويؤدى الحقوق للناس بالعدل والقسطاس، ولكن كيف تصلح الإنسانية؟ إصلاحها ليس من حق الحاكم وإنما من حقكم أنتم، حق الأئمة والزعماء، وحقنا نحن المسلمين.

■ ■ ■

ڤالين

جورج أوغسط ڤالين Wallin (١٨١١ - ١٨٥٢م) فنلندى، ترجم الكثير من النصوص الصوفية الإسلامية، وأهمها ترجمته لشرح الشيخ **عبدالغنى النابلسى لتائية ابن الفارض** باللغة اللاتينية، وكانت معظم مصنفاته عن الإسلام والمسلمين باللغة اللاتينية، وله كتاب باللاتينية عن الفروق فى لهجات العرب المتأخرين والمتقدمين، واستاذه للعربية كان الشيخ الطنطاوى بجامعة بطرسبرج (لينينجراد)، وقد غيّر زيه الأوروبى ولبس الزى العربى، وتسمى باسم عبدالولى، ولما توفى أقاموا على ضريحه بهلسنكى شاهدا كتبوا عليه اسمه «عبدالولى» بحروف عربية، وله مذكرات فى حياته الروحية وإقامته بين المسلمين وتجاربه الصوفية أو الدينية معهم.

■ ■ ■

الفرجى

أبو جعفر محمد بن يعقوب بن فرج ، وشهرته الفرجى ، من أهل سامرا ، ووفاته بالرملة سنة ٢٧٠ هـ أو نحو ذلك ، وكان من علماء الصوفية أى الذين أحكموا علومهم وأتقنوها ، وله التصانيف فيها ، ومنها **كتاب الورع ، وكتاب صفات المريدين** ، نوه بهما أبو نعيم ، واتبع فى تآليفه طريقة الحارث المحاسبى فقد صحبه وأخذ عنه ، وكتابته فى التصوف عن التجربة وليست منقولة ، وظل عشرين سنة كما يقول لا يسأل فى مسألة إلا وينازلها ، أى يجربها ، قبل أن يتكلم فيها ، وكان المدافع عن الصوفية المتحققين ويرفع منهم وينتصر لهم بينما يضع المدّعين ويزرى عليهم ، ومن ذلك أنه كان ينكر الزعقة فلما عاتبوه فى ذلك قال إنما أُنكرها على الكذّابين ، ويروى عن نفسه أنه زعق ثلاث مرات فى حياته ، وكانت مناسبتها أنه شاهد صوفياً من الشطّاحين وقد أخرجوه من السجن ليُضرب على جسر بغداد ، وتجمع الناس للفرجة وكان هو منهم ، والكل يتعجب من صبر الرجل على الجلد ، فتقدم الفرجى منه ليسأله عن سر ذلك ، وهل هناك وقت يكون فيه الضرب سهلاً هكذا ، فأجابه الرجل نعم إذا كان من ضُربنا له يرانا ، يريد إذا كان الله يشهد مايفعلونه به وعدئذ يصبح العذاب فى سبيله محتملاً ، وقد أبدهت الإجابة الفرجى ولم يتمالك نفسه فصاح .

■ ■ ■

الفلالى

أحمد بن هاشم بن صالح الفلالى (١٢٦٠ ــ ١٣٢٧ هـ) من أهل تافلالت ونسبته إليها ، وهى فى السوس ، له « **رسالة الملكية** » فى التصوف ، جاور بمكة إحدى عشرة سنة ، وعاد إلى بلده وتوفى بها .

■ ■ ■

الفيضى

السيد محمود أبو الفيض المنوفى الحسينى ، عميد السادة الفيضيين ، وولادته فى منوف سنة ١٨٩٢م ، وكان والده من كبار رجال الأزهر والقضاء ويجمع فى دعوته بين الإصلاح الدينى والإصلاح الاجتماعى ، وأسس لذلك أول مجلة إسلامية هى **لواء**

الإسلام سنة ١٩٢٢، وأسس **ما سماه الكلية الصوفية والفلسفية** سنة ١٩٢٦م، وله المصنفات التى أهمها **كتاب الوجود، ووحدة الدين والفلسفة والعلم، والله أكبر حكمة وعقيدة، ونفائس الحكمة، ونشيد الأرواح، وبداية الطريق إلى مناهج التحقيق، ومعالم الطريق إلى الله، والمدخل إلى التصوف، وشرح منازل السائرين للهروى.** ويقول إن التصوف علم وذوق ووجدان وتحقيق وعرفان، لا يفهمه من جهله ولا يعرفه إلا من تذوقه، وكُتب المتقدمين فيه على شدة نفعها للسالكين ونفاسة ما احتوت من أقوال الأولياء والعارفين قد قلّ الانتفاع بها، لشدة تعقيدها وانغلاق عباراتها وتهويش دلالاتها. وموضوع التصوف هو عرفان الذات الإلهية وما ينسب إليها من نعوت وأفعال، وما يقع بين العبد وربه من مواجيد ومُعَارفة وأحوال، وشرف كل علم بشرف موضوعه وسمو غايته، ولقد أصبح أكثر المترسمين له حرباً عليه، وتصدّى لنقده قوم من غير أهله لم ينهلوا من بحره، ولم يخبروا قواعده، ولم يسلكوا نهجه، ومن أجل ذلك وضع كتابه الشامل **معالم الطريق** ليكون لهذا العلم كالأم ولطلاّبه كالمرجع، أو هو دائرة معارف صغيرة شاملة لعلوم الصوفية وأقوالهم وأحوالهم ومكالماتهم ومصطلحاتهم، وأما كتابه **المدخل إلى الصوفية** فهو كمقدمة لكتابه هذا الأكبر، ويضم أربعة أقسام أو كتب هى كتاب المفتاح وكتاب الشريعة وكتاب الطريقة وكتاب الحقيقة، واستتماما للفائدة فقد قفّى عليه بكتاب ثالث هو **جمهرة الأولياء وأعلام الصوفية** ليكون نموذجاً مكملاً لأخلاق القوم ونظمهم وحياتهم ومناهج طرقهم. ويفرق الفيضى بين التصوف والفلسفة حيث يستمد الصوفية المعرفة من الله مباشرة بعد تهذيب النفس ورياضتها من النقائص وتصفية القلوب من الشوائب، بينما يتحصل الفلاسفة المعرفة بكفاية العقل والحس، وكلاهما قاصر عن إدراك الحقيقة الغائية ــ حقيقة الوجود المطلقة. **والعارف الصوفى** تشرق له حكمة الحق فى الكائنات، ثم يستقرىء وحدات الكائنات طلباً لزيادة الإيمان، والفيلسوف تلمع له بوارق نوع الحق فتشتغل ذهنه وعقله فيطلب المعرفة بالعلة، ويستقرىء الوجود مستدلاً على العلة بمعلولها، وعلى الصانع بالمصنوع. ويقول الفيضى فى كتابه **بداية الطريق** إنه لما وضع **معالم الطريق** فإنه كان للبالغين فصنّف **بداية الطريق** ليكون صنوا له للمبتدئين، ومنهجاً للسير والسلوك فى شرح حقيقة التوحيد والتنزيه، وسيرة النبى الكريم وكونه خاتم النبيين، والقرآن آخر الكتب، والقضاء والقدر والموت، والقيامة والحساب والميزان، والعلم وفضله، والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر، والطاعات والمعاصى والنية، ويتدرج من ذلك إلى التصوف ومصادره، وأخلاق الصوفى ومراحل السلوك، وعلاقة الشيخ بالمريد، وآداب

الإخوان مع بعضهم، وآداب المريد. ومجموعة كتب الفيضى تشكل **موسوعة متكاملة وعصرية** فى التصوف، يُستغنى بها عن كل القراءات الأخرى، وقد صاغها بأسلوب جميل وعبارة رائعة وإخلاص متدفق. وشرحه للهروى قد أوفى فيه وبلغ الكمال.

■ ■ ■

ق

القارى

على بن محمد نور الدين ، المُلاّ الهروى القارى ، ولد فى هراة وسكن مكة وتوفى بها سنة ١٠١٤هـ ، وكان يكتب فى كل عام مصحفاً وعليه طُرز من القراءات والتفسير، فيبيعه فيكفيه قوته من العام إلى العام ، وله تصانيف كثيرة ، منها « **بداية السالك** » و« **تعليق على بعض آداب المريدين لعبد القاهر السهروردى** » ، و« **سيرة الشيخ عبد القادر الجيلانى** » ، و« **رسالة فى الرد على ابن عربى فى كتابه الفصوص ، وعلى القائلين بالحلول والاتحاد** » ، ومن كلامه فى ذلك أن بعض جهلة المتصوفين يقولون للمريد عند تلقينه كلمة التوحيد ، أن جميع الأشياء باعتبار باطنها متحدة مع الله ، وباعتبار ظاهرها مغايرة له وسواه ، فقلت هذا كلام ظاهر الفساد ، مائل إلى وحدة الوجود أو الاتحاد ، كما هو مذهب أهل الإلحاد ، فالله خالق كل شىء ، أى موجود ممكن ، فى عالم مشهود ، ومن المحال أن يكون الحادث بباطنه متحداً بالقديم الذى هو الله سبحانه . ويبين القارى بطلان الأحاديث التى يستند ابن عربى وغيره إليها من الزاعمين بالحقيقة المحمدية والنور المحمدى مثل كنتُ نبياً وآدم بين الماء والطين ، أو كنت نبياً وآدم لا ماء ولا طين ، أو أنه ﷺ كان نوراً يسبح حول العرش أو كوكباً يطلع فى السماء مما ذكره عمر الملا فى وسيلة المتعبدين ، وابن سبعين ، فإنها كذب . ويقول القارى عن نور النبى أنه فى غاية الظهور شرقاً وغرباً ، والله يسميه فى كتابه نوراً ، وفى دعائه عليه السلام يقول اللهم اجعلنى نوراً ، وفى التنزيل يريدون أن يطفئوا نور الله بأفواههم ، ويأبى الله إلا أن يتم نوره ، فذلك ما ذكره الله عن نور النبى

وليس ما يدّعيه هؤلاء . وللقارى كتاب «**تذكرة الموضوعات**» وفيه يقول إن حديث لولاك ما خلقتُ الأفلاك الذى يزعمه ابن عربى حديث موضوع وابن عربى كاذب ، وإن كان معنى الحديث صحيحاً فقد روى ابن عباس عن النبى : أتانى جبريل فقال يا محمد لولاك ما خلقت الجنة ، ولولاك ما خلقت النار ، وفى رواية لابن عساكر لولاك ما خلقت الدنيا ، والحديث قد يعنى كما يقول الغزالى أنه كان مقدراً أن النبى يكون نبياً قبل الخلق ، فالذى سبق الخلق هو **التقدير** لا الإيجاد ، وليس يعنى أسبقية الوجود المحمدى أن نبينا كان موجوداً بشخصه قبل وجود آدم ، ولكن وجوده كان الوجود الذهنى الذى يسبق الوجود العينى ، والذى سبق الخلق هو التقدير لا الإيجاد .

■ ■ ■

القاشانى

أبو الغنائم كمال الدين **عبد الرازق الكاشى أو الكاشانى أو القاشانى** ، صاحب كتاب **اصطلاحات الصوفية** ، وهو كتاب فى ألفاظ القوم جاء شرح القاشانى لها بعد أن قام بشرح لكتاب منازل السائرين للهروى ، وكتاب فصوص الحِكَم لمحيى الدين بن عربى ، فسألوه أن يفسر لهم ما استعجم من الألفاظ . واعتُبر الكتابُ مرجعاً فى المصطلح الصوفى ، واقتبس منه **التهانوى** فى الكشاف ، **والكمشخانوى** فى جامع الأصول ، **والحفنى** فى المعجم . وكان القاشانى من أقطاب الطريقة **السهروردية** ورأسها لفترة ، وكان من علماء التفسير ، وله غير ما سبق مؤلفات «**كشف الوجوه الغر**» فى شرح تائية ابن الفارض ، و«**السراج الوهّاج فى تفسير القرآن**» ، و«**تأويلات القرآن**» ، و«**رشح الزلال فى شرح الألفاظ المتداولة بين أرباب الأذواق والأحوال**» . وتوفى نحو سنة ٧٣٠ هـ بشيراز ودفن بها فى خانقاه الصوفية . ويقول القاشانى : اصطلاحات الصوفية لم يتعارفها أكثر أهل العلوم المعقولة والمنقولة ، ولم تشتهر بينهم . وجاء شرح القاشانى موجزاً ولكنه يفى بالغرض وإن لم يستوف فيه كل ما ورد من المصطلح ، وله فيه لوامع ولطائف ، تزيد من ترويح القلوب ، وتبين المهمل من ذلك ، وتفصل المجمل . ويقول القاشانى فى التصوف إنه التخلق بالأخلاق الإلهية ، وأنه ينبنى على خصال ثلاث هى التمسك بالفقر والافتقار ، والتحقق بالبذل والإيثار ، وترك التعرض والاختيار ، وغايته تهذيب النفس باجتناب الرذائل وتزكيتها عنها ، واكتساب الفضائل ، وتخليص القلب عن الكون باستئثار المكّون . والعبادة للعامة هى غاية التذلل لله تعالى ، وللخاصة هى تصحيح النسبة إلى الله بصدق القصد إليه فى

سلوك الطريقة، والخاصة الخاصة هي أن يشهدوا نفوسهم قائمة به. **وخرقة التصوف** هي ما يلبسه المريد من يد شيخه إعلانا للدخول في إرادته والتوبة على يده وليتلبس باطنه بصفاته كما تلبس ظاهره بلباسه، وهي لباس التقوى ظاهراً وباطناً. ويقول القاشاني عن الحقيقة المحمدية هي الذات مع التعين الأول، فله الأسماء الحسنى كلها وهو الاسم الأعظم. ويقول أيضاً: التجلي الثاني هو الذي تظهر به أعيان الممكنات الثانية التي هي شئون الذات لذاته تعالى، وهو التعين الأول.. لأن الأعيان معلوماته الأول. والقاشاني يتأسى بابن عربي فيما قال، ومضمون كلامه أن حقيقة نبيّنا محمد ﷺ وذاته موجودة قبل الخلق باعتبارها عينا وحقيقة ثابتة في العدم والأزل.

■ ■ ■

ابن قاضي سِماوْنَة

بدر الدين محمود بن اسماعيل، وشهرته ابن قاضي سماونة، وكان أبوه قاضياً بهذه البلدة من أعمال كوتاهية بتركيا، وله كتاب **«مسّرة القلوب»** في التصوف، وكتاب **«الواردات الغيبية»** الذي تولى شرحه الشيخ عبدالهادي إلهي. وكان فقيهاً حنفياً، درس بالقاهرة، واشتغل مؤدِّباً لأولاد المماليك، ثم رحل إلى أرمينية، وكان شيخها حسيناً الأخلاطي، فتصوّف عليه، وناظر بعض الفقهاء في تفليس في حضور تيمور، وعاد مع حاشية تيمور إلى بلده، واتصل عقب وفاة بايزيد وأثناء الحروب التي نشبت بسبب ذلك، بموسى الذي نادى بنفسه سلطاناً على تركية أوروبا، فعيّنه قاضي عسكر، ثم قتل موسى وعفا أخوه محمد الأول عن ابن سماونة وحدّد إقامته في إزنيق، ثم قامت حركة دينية يتزعمها من يدعى بور كلوجه مصطفى من تلاميذه، وكان اتباعه يسمونه دده سلطان، وهم فرقة من **الإباحية**، وهرب ابن سماونة إلى زغرة من ولاية روم إيلي، واتهم بأنه يريد السلطنة فقتلوه بسيروز. وله كتب في الفقه عند الحنفية منها **لطائف الإشارات، وجامع الفصولين**.

■ ■ ■

القسطلاني

أبو العباس شهاب الدين القتبي (٨٥١ ـ ٩٢٣هـ) من علماء الحديث، وكان شديد الورع وقارئاً يبكي الناس من قراءته ويغشى عليهم وجداً، وله مصنفات كثيرة

ومنها فى التصوف «**المواهب اللدنية فى المنح المحمدية**» و«**الروض الزاهر فى مناقب الشيخ عبد القادر**».

■ ■ ■

إبن قسّى

أبو القاسم أحمد بن الحسين، **أول من مزج التصوف بالثورة على الفساد وسعى إلى إقامة إمامة فاضلة يحكمها الصوفية**. وكان رومياً من بادية شلب من بنى قسى، انتحلوا الإسلام واستعربوا، ولكنهم عملوا على تقويض الدولة الإسلامية فى الأندلس. وكان ابن قسى خليعاً أحاط نفسه كما يقول بأصحاب السوء، إلا أنه «برحمة من الله» تاب وأناب وباع أملاكه وتصدّق بها على الفقراء وسلك مسلك الصوفية، وكان له رباط يجمع فيه المريدين فيخدثهم فى التصوف والفلسفة ويقتبس من الغزالى، وقيل كانت إشاراته للغزالى تمويها بسبب أن الغزالى كان مقبولاً كفقيه وصوفى إلا أنه فى الحقيقة كان على مذهب ابن مسرّة ويتبع مدرسة المرية فى التصوف التى كان منها ابن العريف وابن برجان والميورقى، وكلهم كانوا معادين للفقهاء ولهم وطأة على القضاة أصحاب الفتاوى الذين يحللون الحرام ويحرمون الحلال للأمراء. وقيل فى ابن قسى إنه كانت له مخاريق، وفيها هو مشعوذ وصاحب حيل يقصد بها التأثير على العامة وجمع الناس حوله وتصديق أنه المهدى والإمام. ولما توفى ابن العريف وابن برجان سنة ٥٣٦ هـ بشبهة السم من قاضى مراكش بن حمدين بعد محاكمتها قام ابن قسى بالثورة بعد سنة واحدة أى سنة ٥٣٧ هـ، وكان قد درّب مريديه على القتال بدعوى الجهاد، وملأهم حماساً فقد كان شاعراً فصيحاً، وأطلق عليهم اسم **المرابطين**. فأشار بأن يستولوا على قلعة ميرتلة غربى الأندلس، ونشرهم فى القرى المجاورة مقتفياً أثر ابن برجان ومتابعاً طريقته وداعياً لنفسه إماما، إلا أنه كصوفى لم يستطع أن يوفق كسياسى، فحالف الموحدين حتى ولّوه أمر شلبى، وطلب محالفة الفرنجة فتآمر عليه مريدوه وقتلوه سنة ٥٤٦ هـ. ويبدو أنه مصنف كتاب «**خلع النعلين فى الوصول إلى حضرة الجمعين**» وهو مختصر فى التصوف، وترتبط شهرته بهذا الكتاب وباقتران اسمه **بالتصوف السياسى**، وقد تولى الشرح عليه ابن عربى بعد أربع عشرة سنة من مقتله، وابن عربى كما يجمع النقاد يدين بالكثير له فى فلسفته الصوفية كما يدين لابن مسرة وابن العريف وابن برجان.

■ ■ ■

القَشّاشى

صفى الدين أحمد بن محمد بن يونس الدجانى القشاشى (المتوفى سنة ١٠٧١ هـ) أصله من القدس وكان جده يبيع القُشَاشة وله نحو السبعين كتاباً، أكثرها فى التصوف، ومنها **شرح الحِكَم العطائية** يورد فيه الحكمة وحديثاً يناسبها، **وحاشية على المواهب اللدنية، والسمط المجيد** فى طريق القوم، **وكلمة الجود فى القول بوحدة الوجود.**

■ ■ ■

القُشَيْرى

أبو القاسم عبد الكريم بن هوازن القشيرى صاحب **الرسالة القشيريه** المشهورة فى **التصوف**، التى تناول فيها شيوخ الطريقة فى آدابهم وأخلاقهم ومعاملاتهم وعقائدهم بقلوبهم، وما أشاروا إليه من مواجيدهم، وكيفية ترقيهم من بدايتهم إلى نهايتهم، لتكون لمريدى هذه الطريقة قوة، وقد وجهها لجماعة الصوفية ببلاد الإسلام سنة ٤٣٧ هـ، باعتبارهم الصفوة الذين فضّلهم الله على الكافة من عباده بعد رسله وأنبيائه، واختصهم بطوالع أنواره، لعل فيها السلوى عما وصلت إليه الطريقة من تفريط وتراخ وقلة مبالاة بالدين واحترام للشريعة، على يد قلة متشبهة بالصوفية، والتصوف منهم براء، فمع انقراض أكثر المتحققين من أهل القدوة وقلة الشباب المهتدين، كثر الأدعياء المقلدون للسوقة، والساعون وراء الحكّام والنسوان، والمزيفون للطريقة بما نسبوه لأنفسهم من حقائق الوصال، والمكاشفة بأسرار الأحدية، وزوال أحكام البشرية. وكانت هذه الرسالة، وما تزال، **مرجعاً من المراجع الكبرى فى التصوف وعلوم الصوفية وأخبارهم**، وقد تصدى لها بالشرح والتفسير أعلام المسلمين من أمثال **زكريا الأنصارى والعروسى.** وكان تأليف القشيرى لها تصحيحاً للفكرة الصوفية حتى يظل لها نقاؤها، فيقصد إليها القاصدون، وينهلون من منهلها الصافى. ومن رأى **ابن تيمية** أن تأليف القشيرى للرسالة كان رداً على الحلولية والاتحاديين وليبيّن أن طريقة مشايخ الصوفية تخالف ما عليه هؤلاء، فإنهم يجعلون الرب حالاً فى المخلوقات، محدوداً بحدودها، متكلماً بحروفها حتى ليجعلونه هو المتكلم على ألسنهم، وهؤلاء كثيرون فى المنتسبين إلى الصوفية، وعلى مثل ذلك قُتل الحلاّج. ويأخذ ابن تيمية على القشيرى امتداحه لعلم الكلام، والقشيرى يبدى تعجبه ممن يقول ليس فى القرآن علم الكلام،

فالآيات كثيرة فى القرآن التى فى الأحكام الاعتقادية ودلائلها ، وفى الجملة لا يجحد علم الكلام إلا رجلان : رجل جاهل ركن إلى التقليد ، أو رجل يعتقد مذاهب فاسدة . ويعلق الشيخ **سلامة العزامى** الصوفى الكبير بما يعنى أن الكلام المنهى عنه هو كلام المبتدعة الذى نهت عنه الأئمة من الخوض فيه ، فخافت الأمة على الضعفاء من أتباعهم أن يعلق بأذهانهم مالا يستطيعون الخلاص منه . ويذكر الشيخ سلامة أن هناك علم كلام غير منهى عنه مثل علم الكلام الذى سلكه القشيرى لما اشتدّ جدل المبتدعة ولم يجد أهل الحق بداً من التشمير عن ساعد الجد والنظر فى الكتاب العزيز واستخراج أصول الدين منه للرد على المبتدعة من القدرية والجهمية والحشوية ، فألّف أهل الحق كتب العقائد والتوحيد للرد على هؤلاء . ولقد كان القشيرى فقيهاً أصولياً جمع بين طرق الأشعرى والشافعى وابن فورك والاسفراييني . وله **لطائف الإشارات** فى تفسير القرآن تفسيراً يجمع بين الشريعة والحقيقة ، وله **حياة الأرواح والدليل على طريق الصلاح والفلاح ، والمعراج ، وشكاية أهل السنة ، والفصول ، والتوحيد النبوى ، والتيسير فى علم التفسير، وترتيب السلوك ، والتميز فى علم التذكير، والقصيدة الصوفية .**

والقشيرى من أصول عربية وإن كان قد ولد ونشأ بخراسان . وأهله من العرب الذين استوطنوا أُسْتُواى ، وكانت ولادته سنة ٣٧٦ هـ ، ومات أبوه وهو صغير فتربى يتيما ، وقرأ الأدب فى صباه ، وحضر إلى نيسابور ليتعلم الحساب لأجل قريته ، فاتفق حضوره مجلس الدقّاق ، فأعجبه كلامه ، ووقع فى قلبه ، فلازمه وسلك طريق الإرادة ، وقبله الدقاق وقد تفرس فيه فجذبه ، فأقبل عليه وزوّجه ابنته مع كثرة أقاربها الراغبين فيها .

وحجّ القشيرى فى رفقة الإمام البيهقى صاحب السنن ، والجوينى والد الإمام الجوينى وغيرهما ؛ وسمع ببغداد والحجاز، وكانت له فراسة وفروسية ، وكانت له الإمامة فى مجلس التذكير، وتوفى سنة ٤٦٥ هـ . واتبع القشيرى فى تفسيره الفريد للقرآن استبطان الألفاظ وعدم التوقف عند ظواهرها ، واستنباط الإشارات منها ، ففى قوله تعالى **وأتمّوا الحج والعمرة** يقول كمثال : إن إتمام الحج على لسان العلم هو القيام بأركانه وسننه وهيئته ، وعلى لسان أهل الإشارة الحج هو القصد ، فقصدٌ إلى بيت الحق ، وقصدٌ إلى الحق ، فالأول هو حج العوام ، والثانى هو حج الخواص ، كما أن الذى يحج بنفسه يُحرم ويقف ، ثم يطوف بالبيت ويسعى ، ثم يحلق ، فكذلك من يحج بقلبه ، فإحرامه بعقد صحيح على قصد صحيح ، ثم يتجرد عن لباس من مخالفاته وشهواته ، ثم باشتماله بثوبَى صبره وفقره ، وإمساكه عن متابعة حظوظه من اتباّع الهوى وإطلاق خواطر المنى وما فى هذا المعنى ، ثم الحاج أشعث أغبر تظهر عليه آثار الخشوع والخضوع والتلبية .

وأفضل الحج الشج والعج، فالشج صب الدم، والعج رفع الصوت بالتلبية، فكذلك سفك دم النفس بسكاكين مخالفتها، ورفع أصوات السرّ بدوام الاستغاثة وحسن الالتجاء، والوقوف بساحات القربة باستكمال أوصاف الهيبة. وموقف النفوس عرفات، وموقف القلوب أسماء الله الحسنى وصفاته، وطواف القلوب حول مشاهد العز، والسعي بالأسرار بين صفّي كشف الجلال ولطف الجمال، ثم التحلل بقطع أسباب الرغائب والاختيار والمعارضات بكل وجه.

وذهب القشيرى فى تفسير قوله تعالى: «فبّشر عبادى الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه» (سورة الزمر الآية: ١٨) فيقول اللام فى قوله (القول) تقتضى التعميم والاستغراق، والدليل عليه، أى على التعميم والاستغراق أنه مدحهم باتباع الأحسن، وعلى هذا الأساس فسر القشيرى أن سماع الأشعار بالألحان الطيبة مباح فى الجملة. ويقول ابن تيمية إن هذا الرأى يذكره طائفة منهم أبو عبد الرحمن السلمى، وهو غلط لأن الله لا يأمر باستماع كل قول بإجماع المسلمين حتى يقال اللام فى **القول** للاستغراق والعموم، بل من القول ما يحرم استماعه، ومنه ما يكره، واللام ليست لعموم كل قول وإنما لقول معهود معروف بين المخاطب والمخاطب، وهذا القول هو الذى اثنى عليه الله وأمر باستماعه وهو القرآن الكريم، ويتضمن هذا السماع الوجد المشروع. ويقول القشيرى فى تفسير «فهم فى روضة يحبرون» (الروم/ ١٥) أنهم يحبرون يعنى بالسماع بالأشعار والألحان الطيبة والنغم المستلذ، ولا خلاف أن الأشعار أنشدت بين يدى الرسول ﷺ، وأنه سمعها ولم ينكر عليهم فى إنشادها، فإذا جاز استماعها بغير الألحان الطيبة فلا يتغير الحكم بأن تسمع بالألحان. وقد جرى على لفظ رسول الله ﷺ ما هو قريب من الشعر، فكانت الأنصار يحفرون الخندق ويقولون نحن الذين بايعوا محمداً، على الجهاد ما بقيت أبداً، فأجابهم الرسول ﷺ اللهم لا عيش إلا عيش الآخرة، فأكرم الأنصار والمهاجرة. وقد سمع السلف والأكابر الأبيات بالألحان، وممن قال بإباحته من السلف مالك بن أنس، وأهل الحجاز كلهم يبيحون الغناء، والحداء كلهم مجمعون على إجازته. وينتقد ابن تيمية رأى القشيرى ويقول إنه منقول عن الغزالى والسلمى، ويقول الشعر أعظم مما وصفه القشيرى فقد ثبت عن النبى ﷺ أن من الشعر حكمة، فلا يتعين من حكمته أن يسمع بالألحان الطيبة، والسماع الحسن هو سماع القرآن، وسماع شعر الحكمة والمواعظ بدون ألحان. ويستشهد القشيرى بأقوال للجنيد فقد سألوه ما بال الإنسان يكون هادئاً فإن سمع السماع يطرب، فقال الجنيد إن الله تعالى لما خاطب الذر فى الميثاق الأول بقوله ألست بربكم قالوا بلى

فاستفرغت عذوبة سماع الكلام الأرواح ، فلما سمعوا السماع حركهم ذكر هذا . ويعلق ابن تيمية بأن هذا الكلام لا يمكن أن يصدر عن الجنيد لأنه أجّل من أن يقوله ، ومذهب الجنيد يقوم على كراهة التكلف فى السماع فى الحضور والاجتماع عليه ، وقد أثر عنه قوله : السماع فتنة لمن طلبه ، وترويح لمن صادفه .

وابن القشيرى «**أبو نصر**» كان عالماً كأبيه ، ومتصوفاً مثله ، ومن شابه أباه **فما ظلم** ، واستمع لإمام الحرمين وواظب عليه فحصّل طريقته فى المذهب ، وكان يعظ فى المدرسة النظامية وفى رباط شيخ الشيوخ ببغداد ، ثم رجع فى أواخر حياته إلى نيسابور ، يدّرس ويعظ بها إلى أن توفى سنة ٥١٤ هـ .

■ ■ ■

القصّار

أبو صالح حمدون بن أحمد ، **شيخ الملامتية** الذى نشرها فى نيسابور وما حولها ، وكان قصاراً ، واشتغل بالفقه على مذهب الثورى قبل أن يتحول إلى التصوف ، وقيل تلاميذه كانوا كُثرا وإنما أكثرهم أخذاً عنه كان **عبد الله بن منازل** ، وربما كان ابن منازل من تابعى التابعين له لأن القصار توفى سنة ٢٧١ هـ وابن منازل توفى سنة ٣٢٩ هـ . **والملامتية** هم الذين يسترون صلاحهم بأمور تتداولها العوام وليست بمخالفات ولا معاصى ، ويفعلون ذلك مبالغة فى الخفاء عن الشهرة . ولعل القصار لذلك دائم اللوم لنفسه ولأصحابه بدعوى أن سير السلف تشعره بالتقصير وتخلفه عن درك درجات الرجال ، وهم الذين قال فيهم الله تعالى صدقوا ما عاهدوا الله عليه . وسأله تلاميذه عن سبب قلة نفع الكلام فى التصوف فى أيامهم وسمو وجدوى كلام السابقين ، فرد القصار أنه لإخلاصهم ، فالسابقون تكلموا لعز الإسلام ونجاة النفوس ورضا الرحمن ، وهم يتكلمون لعز نفوسهم وطلب دنياهم واعتقاد الخلائق فيهم . وكان شديد القسوة فى نقد تلاميذه ويلح عليهم فى سلوك طريقه المبنية على الضعف والفقر والتضرع والالتجاء وينهاهم عن الكِبْر ، ولما طلب منه ابن منازل أن يوصيه حذّره من أن لا يغضب لشىء ما استطاع إلى ذلك سبيلا ، وأن لا يهتم لشىء مما جرى عليه فى سابق العلم ، ومن طلب القوت ، فكلٌ تُساق إليه كفايته مُيَسرةً من غير تعب ولا نصب ، وإنما التعب فى الفضول فاحذر الفضول تسلم ، ولا تُفشِ على أحد ما تحب أن يكون مستوراً منك ، ولا تتكلم إلا لأداء فرض أو لنجاة إنسان من بدعة تخاف هلاكه فيها . وكان القصار

نفسه إذا أهين أو سفه عليه أحد لا يرد ويحتمل وينظر لأصحابه ويقول فلأى شيء تعلمنا العلم إذن إذا كنا سنسفه. ويقول الهجويرى إن مذهب القصار أو طريقة أتباعه إظهار ونشر الملامة، لأن الآفة العظمى والحجاب الكثيف للسالك هو الإعجاب بنفسه وقبوله فى نظر الناس، أى أن يعجب الخلق بسلوكه وأعماله ويمدحونه عليها، وذلك من شأنه تعويقه فى الطريق وانحرافه، واتباع طريق الملامة على العكس مراده الحق لا الخلق وأن ينطلق السالك متحرراً لا يشغله عن الحق شاغل. وعلى الصوفى الملامتى أن يترك السلامة ويعرض نفسه للبلاء ويؤدب نفسه بالتحقير والمهانة التى توجه إليه من الخلق. ومن نوادر اتباع القصار أنه فى إحدى المرات سألهم استاذهم عن الفتوة، فأجابه أحدهم فتوتنا أم فتوتك، فقال القصار كلتيهما، ورد التلميذ فتوتى أن أخلع هذا القباء وأرتدى مرقعاً وأمارس العمل حتى أصبح صوفياً فأتقى المعصية حياء من الخلق فى ذلك الثوب، وفتوتك هى أن نترك المرقع حتى لا يفتتن الناس بك، ففتوتى إذن هى حفظ الشريعة بالإظهار، وفتوتك هى حفظ الحقيقة بالأسرار.

■ ■ ■

إبن قضيب البان

أبو الفيض عبد القادر بن محمد. شهرته ابن قضيب البان (٩٧١ ـ نحو ١٠٤٠هـ) وله التآليف الحسنة الدالة على رسوخ قدمه فى التصوف والمعارف الإلهية، ومن جملتها «**الفتوحات المدنية**»، ألفها على وتيرة «الفتوحات المكية» للشيخ الأكبر ابن عربى، وله «**نهج السعادة**» فى التصوف، و«**ناقوس الطباع فى أسرار السماع**»، و«**شرح أسماء الله الحسنى**»، و«**رسالة فى أسرار الحروف**»، وكتاب «**مقاصد القصائد**» و«**نفحة البان**» و«**حديقة اللآل فى وصف الآل**» و«**كتاب المواقف الإلهية**» و«**عقيدة أرباب الخواص**»، وغير ذلك ما يفوق على أربعين تأليفاً.

ولد ابن قضيب البان فى حماه، وتوطن أبوه فى حلب، وبها نشأ، ثم ارتحل إلى مكة وجاور بمكة، وتوجه منها إلى القاهرة «بإشارة القطب»، وكان شيخ الإسلام يحيى بن زكريا قاضياً بمصر فبشره بمشيخة الإسلام وبايعه على الطرق الثلاثة النقشبندية والقادرية والخلوتية، ثم أقره على طريق النقشبندية وأمره بالذكر القلبى. ولابن قضيب البان ديوان شعر على لسان القوم، وله تائية عارض بها تائية ابن الفارض، ومن لطائف شعره الصوفى:

أرى للقلب نحوكم انجذابا | لأسمع من جنابكم خطابا
فكم ليل بقربكم تقضّى | إلى سَحرَ سجودا واقترابا
وكم من نشوة وردت نهاراً | فلا خطأ وعيت ولا صوابا

ومن رقيقه قوله :

سقانى الحب من خمر العيان | فتُهت بسكرتى بين الدنان
وقلت لرفقتى رفقاً بقلبى | وخاطبت الحبيب بلا لسان
شربت لحبه خمرا سقانى | كصحبى فانتشى منها جنانى
شطحت بشربها بين الندامى | ورشدى ضاع مما قد دهانى
فأكرمنى وتوجنى بتاج | يقوم بسرّه قطب الزمان
وأقرنى على الأقطاب حتى | سرى أمدى بهم فى كل شان
وأطلعنى على سر خفى | وقال الستر من سر المعانى
فهام أولو النُهى من بعد سكرى | وغابوا فى الشهود عن المكان
مريدى ! لا تخف واشطح بسرى | فقد أذن الحبيب بما حبانى

ويحكى ابن قضيب البان بعضاً من هذه الأسرار للمعانى التى حباه به الله تعالى فى كتابه **المواقف الإلهية**، وهى ٢٨ موقفاً، منها موقف نفس الرحمن، والبرازخ العرشية، والغيب والشهادة، والإيمان بالغيب، والإسراء، ومقام العلي، ومقام الولى، ومقام الخلافة، ومقام المحبة، وموقف العلم، وموقف السُكر، والأنانية، والقطبية، والفناء، والغوثية، والحقيقة المحمدية، وسفر السالكين وغير ذلك. ويقول فى تعريف **السلوك** إنه الخلاص من القيود وإزالة التعينات وشهود أزل العين. وهو الدخول فى المقامات الشهودية والمنازل الوجودية والحضور فى المراتب الغيبية والدرجات الكشفية. ويتحدث عن **الإنسان الكامل** فيقول إنه الوجه لكل وجه والجامع لأحكام الوجوب والإمكان ومجمع البحرين أى الظهور والبطون. ويقول عن **العارف** إنه الذى يكمل الأعمال بالعلم، والأحوال بالسر، والأفعال بالأدب. وجمع العارف سقوط تفرقته ومحو إشارته، ووصوله استغراق أوصافه وتلاشى نعوته، وغَيْرته أن لا يعرف ولا يُعرف. والإخلاص هو أن يغيب عن السالك جميع الخلق فى شهود حقه.

■ ■ ■

قلندرية

إحدى فرق **الملامتية**، والملامتي كما يقول **السهروردي** حاله شريف ومقامه عزيز، فهو متمسك بالسنن والآثار، ومتحقق بالإخلاص والصدق، وليس مما يزعم المفتونون بشيء. وأما **القلندرى** فهو إشارة إلى أقوام ملكهم سُكْر طيبة قلوبهم حتى خربوا العادات وطرحوا التقييد بآداب المجالسات والمخالطات، وساحوا في ميادين طيبة قلوبهم، فقلت أعمالهم إلا من الفرائض، ولم يبالوا بتناول شيء من لذات الدنيا من كل ما كان مباحاً برخصة الشرع، وربما اقتصروا على رعاية الرخصة، ولم يطلبوا حقائق العزيمة، ومع ذلك هم متمسكون بترك الادخار والجمع والاستكثار، ولا يترسمون بمراسم المتقشفين والمتزهدين والمتعبدين، وقنعوا بطيبة قلوبهم مع الله تعالى، واقتصروا على ذلك ولا يتطلعون إلى المزيد سوى ما هم عليه من طيبة القلب. **والفرق بين الملامتي والقلندرى**، أن **الملامتي** يعمل فى كتم العبادات، والقلندرى يعمل فى تخريب العادات. والملامتي يتمسك بكل أبواب البر والخير ويرى الفضل فيه، ولكنه يخفى الأعمال والأحوال، ويوقف نفسه موقف العوام فى هيئته وملبوسه وحركاته وأموره، وستراً للحال لئلا يُفطن له، وهو مع ذلك متطلع إلى طلب المزيد. **والقلندرى** لا يتقيد بهيئة ولا يبالى بما يُعرف من حاله وما لا يعرف، ولا يتعطف إلا على طيبة القلوب وهى رأسماله. وأما **الصوفى** فالشأن معه مختلف، لأنه يضع الأشياء فى مواضعها ويدبر الأوقات والأحوال كلها بالعلم، ويقيم الخلق مقامه، ويقيم أمر الحق مقامهم، ويستر ما ينبغى أن يستر، ويظهر ما ينبغى أن يظهر، ويأتى بالأمور فى موضعها بحضور عقل وصحة توحيد وكمال معرفة ورعاية صدق وإخلاص.

ومن قواعد القلندرية فى هدم العادات حلق شعر الرأس والحاجبين واللحية والشارب، ويروى المقريزى أن سلطان مصر حسن بن محمد بن قلاوون أمر سنة ٧٦١ هـ بألا يحلق القلندرية لحاهم وأن يتركوا هذه البدعة والتزيى بزى الأعاجم والمجوس، ويبدو أنه كان لهم لباس خاص وكانوا يسمونهم بالجولقية لأنهم يلبسون الجوالق. ويحكى جلال الدين الرومى فى حكاية البقال والببغاء أن جولقيا مر وكان حليق شعر الرأس، وكذلك كان لحافظ الشيرازى انسجاماً خاصاً مع هذه الفرقة.

ويذكر محمد بن بهاء الزركشى صاحب رسالة «**زهر العريش فى الكلام عن**

الحشيش» أن أول من اكتشف الحشيش هو أحمد القلندرى ولذلك سميت الحشيشة بالقلندرية .

■ ■ ■

القنائى (عبد الرحيم)

أبو محمد عبدالرحيم بن أحمد حجون (٥٢١ ــ٥٩٢ هـ) شيخ قنا من صعيد مصر، جمع بين علمى الشريعة والحقيقة ، مغربى من ترغاى مس أعمال سبتا ، مات أبوه وهو صغير فكفله أخواله فى الشام وبها تعلم ، وجاور مدة تسع سنوات بمكة ، وفى الحج العاشر التقى بالشيخ مجد الدين القشيرى من قوص فأقنعه بمصاحبته إلى مصر، وزوجه ابنته ، وأقام بقنا يعظ ويتاجر، وتقوم طريقته على أن **الإسلام دين وعمل وأخلاق** فمن ترك واحدة فقد ضل الطريق. **والتصوف ليس هو القعود عن العمل ، وليس فعل الأعمال المنكرة والمبتدعة فى الدين ،** فذكر الله يجب أن يفعله عاقل بإدراك ، فإن لم يجده سقط عنه حق العبادة وأصبح مجنوناً ، وأما إذا كان نفاقاً فهو مطالب بالإقلاع عن البدعة حتى يثوب ويرجع إلى ربه . **والتصوف ليس ركناً من أركان الإسلام ولكنه ركن من أركان الأخلاق ،** والأخلاق الحسنة من دأبها الحض على الكمال وإتيان الحَسَن من الأفعال ، والقرآن كله كمال ، واتباع الدين وسيرة الرسول هو ذات الكمال ، والأخلاق تنبع من امتزاج العلم الظاهر والباطن ، والعمل المنتج يغسل النفس الأمارة من أدرانها ويتحصل به العقل على إدراك الأمور إدراكاً صحيحاً ، وتتكون به المعارف السليمة ، فينصلح حال الإنسان ويتجه بكله إلى الله وإلى كلام الرسول ، وهذه تسمى **الأخلاق الزاكية ،** وهى أعلى درجات الكمال ، وبها اتصف الرسول ﷺ فقال فيه الله تعالى وإنك لعلى خلق عظيم . ونظريته فى الأخلاق جديدة كما نرى لأنه لا يجعل العمل المنتج تابعاً للأخلاق ، ولكنه يلحق به الأخلاق ، **فالأصل أن تحسن الأعمال وتعتاد ذلك فتحسن به أخلاقك وتزكو.** والعلم مصدره الأحاسيس التى تصل بين العقل والإرادة ويقوم عليها الإنتاج الفكرى سواء كان جديداً فى بابه وبيانه أو أنه قديم صادر عن الذاكرة مخزن الأسرار. **والعلم** علم الواقع والعلم الطبيعى ، والأول حسى ظاهرى ، والثانى تحوطه المعرفة وهى ما يتبصره الإنسان وينظر بها ظاهر الأشياء وأسبابها الخفية . ويرتبط العلم الطبيعى بالدين ، وهو الذى يجر صاحبه إلى البحث والتنقيب وراء خالق الكون ، ويدفعه إلى التعمق إلى ما وراء ذلك من أمور تتصل بكلام الله وأقوال الرسل ، وأن يخلص نفسه جسماً وروحاً للارتقاء

والسير فى الطريق مجاهداً بنفسه ليبلغ المرتبة العليا من هذا العلم أو أسمى حقائق الدين، وبه أخذ **التصوف**، بل هو **التصوف** نفسه. **والعلم** أصل العقائد الدينية. وكان الشيخ يدعو كل من يحضر مجالس علمه أن تكون له **حرفة** والمزيد من العمل إلى جانب العلم، لأنه ضرورة، فبالإضافة إلى أنه سبب للرزق وسد الحاجات فهو استغلال للطاقة من أجل الخير والناس والحياة التى خلقها الله لنا، وتظهر به نعمة العقل. وكان يقول إن النبى ﷺ **تصوف** قبل الرسالة بغار حراء فانقطع عن الدنيا إلا ما يقيم صلبه، ولم يمنعه هذا من أن **يعمل** قبل الرسالة وبعدها عمل أهل الأرض. **ودعوته للعمل** كأصل من أصول التصوف **دعوة جديدة** تناسب العصر وترفع التصادم التقليدى بين التصوف والاجتماع. وهو يقول **إن العمل أصل نجاح العباد وعمران البلاد، ولا مصيبة أشد من أن يتمتع الفرد بكل مطالبه وتصل إليه جميع حاجاته بدون كد أو تعب. والأمة التى ليس من بين شعبها ميل إلى العمل والكد والكدح يجب حذفها من بين الأمم، ووجب عزلها لأنها أمة مريضة.** ولا يخاطب القنائى الناس إلا بيا أمة محمد لتعميق مفهومهم بالجماعة وبما يمكن أن تختص به ويكون سمة عليها، ويصل فى نظريته عن العمل إلى ربط عمل الدنيا بالآخرة، ويقول: **إنه يجب أن يفهم الجميع أن الأعمال كلها تؤدى إلى أعمال الآخرة وثوابها ما دام العمل فيها يرضى الله، فليست الصلاة والصيام والعبادات هى وحدها التى نسميها أعمال الآخرة وعليها الجزاء والمحاسبة، ولكن رجلاً يقوم بماله وقدراته ليقيم مصنعاً يستوعب مئات من الراغبين فى العمل ثم ينقدهم أجرهم فهذا عمل يؤدى حتماً إلى الجزاء الحسن فى الآخرة، وهو عمل من أعمال الآخرة، ومن لم يتعلم صناعة ولا عملاً فهو حقير، والإمام عمر يقول: إنى لأرى الرجل فيعجبنى فأقول أله حرفة فإن قالوا لا سقط من عينى.**

وللشيخ عبد الرحيم **تفسير للقرآن، ورسالة فى الزواج وأحزاب وأوردة وكتاب الأصفياء ومأثورات**، وله كلام كثير فى التوحيد، وكان كلما سمع المؤذن يقول أشهد أن لا إله إلا الله يقول **شهدنا بما شاهدنا وويل لمن يكذب على الله تعالى.** وكان يقول **الهيبة** فى القلب لعظمة الله تعالى هى طمس أبصار البصائر عن مشاهدته بمن سواه حساً فلا يُرى إلا بأنوار الجلال، ولا يُسمع إلا بسواطع الجمال. وكان يقول **الرضا** سكون القلب تحت مجارى الأقدار، بنفى التفرقة حالاً، وعلم التوحيد جمعاً، فيشهد القدرة بالقادر، والأمر بالآمر، وذلك يلزمه فى كل حال من الأحوال. ويقول **التمكن** هو شهود العلم كشفا، ورجوع الأحوال إليه قهراً، والتصرف بالقادح حكماً،

وكمال الأمر شرعاً. ويقول **التجريد** نسيان الزمنين حكماً، والذهول عن الكونين حالاً، وغمض البصر عن الأين وقتاً، حتى تنقلب الأكوان باطناً لظاهر، ومتحركاً لساكن، فيسكن القلب بتمكين القدر على قطع الحكم، والابتهاج بمنفسحات الموارد، وانشراح الصدور بصور الأكوان، مع ثبوت المقام بعد التلوين ورسوخ التمكين، فتكون السماء له رداء والأرض له بساطاً. ويقول **قطع العلائق** بقطع بحر الفقد، وظهور مقام العبد بعدم الالتفات إلى السوى وثقة القلب بترتيب القدر السابق. ويقول **الموحد** من عرف الواحد فاستراح واعتمد فى كل الأحوال عليه. ولما توفى القنائى قيل إن أكثر من عشرة آلاف كانوا يسيرون في جنازته، ودفنوه فى مكان إقامته ومحل درسه وهو الذى به مزاره الآن فى مدينة قنا.

■ ■ ■

القونوى

صدر الدين محمد بن إسحق، نسبته إلى قونية من تركيا، وفيها ولد وتوفى سنة ٦٧٢هـ، وكان من كبار تلاميذ محي الدين بن عربى، وتزوج ابن عربى أمه ورباه، ومصنفاته فى التصوف كثيرة وكلها مخطوطات ماعدا **إعجاز البيان فى تأويل القرآن**، وفيه يتصدى بالشرح لفاتحة الكتاب تفسيراً صوفياً ينهج فيه منهج استاذه. وله **«النصوص فى تحقيق الطور المخصوص»**، و**«اللمعة النورانية فى مشكلات الشجرة النعمانية لابن عربى، ومفتاح الغيب، والنفحات الإلهية القدسية، ولطائف الإعلام فى إشارات أهل الإلهام**. يقول فى **تفسير بسم الله الرحمن الرحيم** أن التسمية تنبيه للغير أو ترهيب منه، فمتى نبه الشخص شعر فرغب وسعى وطلب ليغنم او أنقى وحذر ليسلم واختصاصه بهذه الحروف دون غيرها لسر يعرفه من يعرف أسرار الحروف، وما غاب من حروف هذا الاسم فى التلفظ والكتابة فإشارة إلى ما بطن من المسمى به وما لا يقبل التعين منه فى عالم الشهادة والغيب المقابل له. وأما الرحمن الرحيم فهو فى ذوق هذا المقام المتكلم فيه اسم مركب فلا يخلو كل منهما عما تضمنه الآخر، فبعموم الحكم الرحمانى الذى هو الوجود ظهر التخصيص العلمى ثم الإرادى المنسوب إلى الرحيم، فبه تعينت الحصص الغيبية صوراً وجودية، كما أن بالرحيم ظهر الوجود الواحد متعدداً بالموجودات العينية. ويقول فى تكرار الرحمن الرحيم أن ذلك ليس ترديداً لما فى البسملة بل للواحد تخصيص حكم التعميم، وللآخر تعميم حكم التخصيص، ومتعلق أحدهما الحكم الدائم مقتضى حكم معنى الأمر باطناً مطلقاً،

وللآخر الحكم المقدر المشروط ناهراً وباطن. وسر ذلك وتفصيله أن الرحمة رحمتان، رحمة ذاتية مطلقة امتنانية هى التى وسعت كل شىء، ومن حكمها السادى فى الذوات رحمة الشىء بنفسه، وفيها يقع من كل رحيم بنفسه بالإحسان أو الإساءة بصور الانتقام والقهر، فإن كل ذلك من المحسن والمنتقم رحمة بنفسه. ومن حيث هذه الرحمة وصف الحق نفسخ بالحب وشدة الشوق إلى لقاء أحبابه، وهذه المحبة بهذه الرحمة لا سبب لها ولا موجب، وليست فى مقابلة شىء من الصفات والأفعال وغيرها، وإليها أشارت رابعة العدوية:

أحــبــك حــبين حــب الهــوى	وحــبــاً لأنــك أهــل لــذاكــا
فــأمــا الــذى هــو حــب الهــوى	فــذكــرك فــى الــســر حــتى أراكــا
وأمــا الــذى أنــت أهــل لــه	فــشــغــلــى بــذكــرك عــمــن ســواكــا
فــلا الحــمــد فــى ذا وذاك لــى	ولــكــن لــك الحــمــد فــى ذا وذاكــا

فحب الهوى لمناسبة ذاتية غير معلله بشىء غير الذات. وأما حب لأنك أهل لذاكا فسببه المثمر له هو العلم بالإلهية. والرحمة الأخرى هى الرحمة الفائضة عن الرحمة الذاتية والمنفصلة عنها بالقيود التى من جملتها قوله تعالى كتب ربكم على نفسه الرحمة، فهى مقيدة موجبة بشروط من أعمال وأحوال وغيرهما.

■ ■ ■

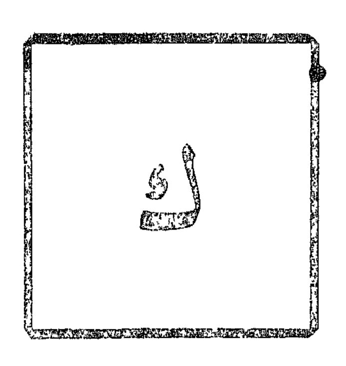
إبْن قَيِّم الجَوْزِيَّة

أبو عبد الله شمس الدين محمد بن أبى بكر بن أيوب بن سعد الزُّرْعى الدمشقى، تلميذ ابن تيمية، وولادته ووفاته بدمشق (٦٩١ ـــ ٧٥١هـ)، وله التصانيف والتآليف فى علوم الشريعة والحقيقة، ومنها كتابه «**مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين**» الذى شرح فيه كتاب منازل السائرين للهروى الأنصارى. وكتابته فى التصوف بنفس العناية التى لكتابته فى الفقه والحديث والتفسير، وقد اقتنى من كتبه مالا يتهيأ لغيره، وكان به ميل لطريق العارفين والسالكين إلى الله، واستغرقته حياته الروحية وتعبده وانكبابه على كتب القوم يلخصها فى كتابيه «**مدارج السالكين**» و«**طريق الهجرتين**» وغيرهما، ونظريته فى **المحبة الإلهية** من النظريات الصوفية التى تتخلل أغلب مصنفاته، وطريق الصوفى يبدأ من **تحديد المطلوب المحبوب، فالله سبحانه هو المطلوب المحبوب وحده**، ولكنه ينتقد

صوفية وحدة الوجود، ومصدر الخطأ عندهم هو التأويل والإسراف فيه، فقد ثقلت عليهم النصوص فكرهوها، وأعياهم حملها فألقوها عن أكتافهم، وتفلتت منهم السنن أن يحفظوها فأهملوها، ولقد باعها **ابن عربى** بمحصل من الكلام الباطل. ويفسر قوله تعالى **قل هل أنبئكم بالأخسرين أعمالاً، الذين ضل سعيهم فى الحياة الدنيا وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعاً**، بأنهم أرباب الأعمال التى لغير الله وليست على سنة رسوله، وهم المتصوفة المتعبدون بأذواقهم ومواجيدهم. وفى مقدمة كتابه **مدارج السالكين** يشرح قوله تعالى: **والعصر إن الإنسان لفى خسر إلا الذين آمنو وعملوا الصالحات وتواصوا بالحق وتواصوا بالصبر**، فيقول إن الدلالة واضحة على أن كل أحد خاسر إلا من كملت قوته العلمية بالإيمان، وقوته العملية بالعمل الصالح، وكمّل غيره بالتوصيو بالحق والصبر عليه، ومعنى ذلك أن الإيمان يقتضى العمل، ومدار ذلك القرآن بتفهمه وتدبره، فالحقيقة والطريقة والأذواق والمواجيد كلها لا تقتبس إلا من مشكاته، ولا تستثمر إلا من شجرته، **وكل علم أو عمل أو حقيقة أو حال أو مقام خرج من مشكاة النبوة فهو من الصراط المستقيم**. والإيمان عند ابن القيم بالمصطلح الصوفى ظاهره قول اللسان وعمل الجوارح، وباطنه تصديق القلب وانقياده ومحبته، وأصل هذا التقسيم للظاهر والباطن أن الإنسان خلق من الأرض ولكن روحه من ملكوت السماء، والمؤمن هو المستكفى بالغذاء الإيمانى عن الغذاء الحيوانى، وهو لذلك يعكف على الله، والجمعية عليه، وحفظ الخواطر والإرادات معه، من تصحيح المحبة والخوف والرجاء والتوكل والإنابة. وخير المتصوفة عنده هم الأوائل **لأنهم حائمون على اقتباس الحكمة والمعرفة وطهارة القلوب وزكاة النفوس وتصحيح المعاملة، وكلامهم وإن كان قليلاً إلا أن البركة فيه، بينما كلام متأخرى الصوفية كثير وبركته قليلة**، وهو لذلك يستشهد بأقوال المتقدمين من الصوفية **كالجنيد** عندما يقول مذهبنا مقيد بالكتاب والسنة، فمن لم يقرأ القرآن ويكتب الحديث لا يقتدى به فى طريقنا. وينتقد المحدثين بشدة لأنهم ظنوا أن المتمسك بالكتاب والسنة صاحب ظواهر، وأن المقدمين لنصوصها جهّال منقوصون، ويتعجب من موقفهم ويقول: أفيظن المعرض عن كتاب ربه وسنة رسوله أن ينجو من ربه بالإشارات والشطحات وأنواع الخيال؟ والاتحادى والحلولى والإباحى الشطّاح والسماعى يجاهر بالقحة والفرية ويقول حدثنى قلبى عن ربى، ويستشهد بقول **الدرارنى** الذى رؤى فى المنام فسألوه عما فعل الله به فأجاب: **غفر لى، وما كان شىء أضر علىّ من إشارات القوم**. ويخطىء أصحاب دعوى إسقاط التكاليف لأنهم لم يفهموا معنى اليقين فى الآية **واعبد ربك حتى**

يأتيك اليقين، وفى الآية **وكنا نكذب بيوم الدين حتى أتانا اليقين، فاليقين** بالإجماع هو الموت عند أهل التفسير، فمن يزعم أنه يصل إلى مقام يسقط عنه فيه التعبد فهو زنديق كافر بالله وبرسوله. وينتقد ابن القيم دعاوى أهل المجاهدات والجور على أنفسهم بترك الزواج والطيبات التى أباحها الله من المطاعم والملابس، وكذلك من تعبدوا بالعبادات البدعية التى ظنوا أنها تجلب الحال والكشف، ودعوى الفصل بين الشريعة والحقيقة، وقال إن كل إسلام ظاهر لا ينفذ منه صاحبه إلى حقيقة الإيمان الباطنة فليس بنافع حتى يكون معه شىء من الإيمان الباطن، وكل حقيقة باطنة لا يقوم صاحبها بشرائع الإسلام الظاهرة لا تنفع ولو كانت ما كانت. وينعى على **الهروى** قوله بمقام الفناء وبالجبر، ويعرف التصوف بأنه **تزكية النفس وتهذيبها لتستعد لسيرها إلى صحبة الرفيق الأعلى ومعية من تحبه، فإن المرء مع من أحب**، ودرجات ذلك ثلاث: هى تحسين الخُلُق مع الخلق، وتحسينها مع الله، والدرجة الثالثة هى الفناء، ولكنه **الفناء على قاعدته وأصوله، أى الإقبال بالكلية على الله تعالى والاشتغال به وحده عما سواه**، وفى هذا المقام تتحقق نظرية المحبة فى أكمل صورها، وهى المحبة لله ذاته، وترادف **الرغبة فى تحقيق مرادات الله فيكون المحب أصدق ما يكون عندما يصرخ أريد أن أنفذ أوامر ربى**.

والمؤمن عبر حياته يكون **مسافراً إلى الله**، ومنازل أو مدارج هذا السير هى المقامات والأحوال، وهى عند ابن القيم يسميها **منازل العبودية**، والأحوال عنده واردات ومنازلات تصبح مقامات إذا تمكنت وثبتت. وأول المنازل هو **اليقظة** ثم تكون **الفكرة**، ثم **البصيرة**، ثم **القصد** فيأخذ العبد مع صدق الإرادة إلى إعداد العدة للهجرة إلى الله وقطع العلائق المانعة له. وآخر المنازل هو **العزم** وهو القصد الجازم المتصل بالفعل، ويحتاج فيه السالك إلى المحاسبة وتأتى بعدها التوبة. ويورد ابن القيم الكثير من مصطلحات الهروى، ومن ذلك **الكشف**، والكشف الصحيح عنده هو المطابق لمراد الرب الدينى من عبده. ويرى أن **المشاهدة** من أوهام الصوفية، وغاية ما يصل إليه العبد هى **الشواهد**، وهى ما يغلب على القلوب الصادقة العارفة الصافية من ذكره ومحبته وإجلاله وتعظيمه وتوقيره بحيث يكون ذلك حاضراً فيها، مشهوداً لها، غير غائب عنها.



كبرى (نجم الدين)

أبو الجناب أحمد بن عمر الخيوقى نسبة إلى مدينة خيوه أو خوارزم، ويعرف باسم الشيخ نجم الدين كبرى صاحب **الطريقة الكبرية** فى التصوف ، وقيل إن **كبرى** اختصار لعبارة **الطامة الكبرى** وهو اللقب الذى أضفوه عليه بالنظر إلى مهارته فى الجدل، فكان كأنه المصيبة تحل بالمناظر، ويلقب أيضاً بلقب **ولى تراش** أى ناحت الأولياء، لأنهم كانوا يعتقدون أنه إذا نظر إلى شخص وهو فى حالة الوجد والانجذاب فإن هذا الشخص ينجذب ويصيبه اللطف ويصبح من الأولياء المجذوبين. ولقبوه أيضاً **«أبو الجناب»** وذلك كما قيل أنه رأى النبى ﷺ فى المنام، فناداه به، بمعنى المتجنب للدنيا ومافيها. واستشهد نجم الدين فى غارة للمغول على خوارزم سنة ٦١٨ هـ، ويذكر **جامى فى نفحات الأنس** أن جنكيز خان لما سمع بأمر هذا الولى أرسل إليه ليترك البلد، ولكنه رفض ودعا للجهاد، وتمنطق وحمل الحجارة وحربة، والتقى الكفار ولكنهم رموه بالسهام، وقيل إنه قبض على خصلة من شعر كافر ومات عليها ولم يستطيعوا تخليص الكافر من يده إلا بقطع الخصلة. وإلى هذه الواقعة يشير الشاعر الصوفى **جلال الدين الرومى**، وقد انتسب للكبروية، أو طريقة نجم الدين كبرى ــ يقول: نحن قوم نشرب خمر الإمام الصافية بإحدى اليدين، ونمسك بضفيرة الكافر بثانية الكفين! ومن تلاميذه **مجد الدين البغدادى وسعد الدين الحموى وكمال الجندى ورضى الدين على لالا وجمال الدين الجيلانى وبهاء الدين ولد والد مولانا جلال الدين الرومى**. ومن مؤلفات الشيخ رسالة **«أقرب الطرق إلى**

الله» من صحيفتين أو ثلاث، وموضوعها قول الصوفية المعروف «**الطرق إلى الله بعدد أنفس الخلائق**»، ورسالة «**صفة الآداب**» عما ينبغى أن يتحلى به المريد، و«**فوائح الجمال وفواتح الجلال**» وتفسير للقرآن فى ١٢ مجلداً على طريقة الصوفية وتحدث عنه جلال الدين الرومى وكان تلميذاً لتلميذه مجد الدين البغدادى، وقد ظل مجد الدين يأخذ عنه إلى أن دخل فى روعه أنه قد تفوق على شيخه فقال: كنا بيضا على ساحل البحر، فضمنا الشيخ نجم الدين تحت جناحيه، ومازال يحميا حتى أفرخنا، فلما صرنا بطيطات قفزنا إلى البحر، وبقى الشيخ على الشاطىء، فدعا عليه الشيخ أن يموت فى البحر الذى قفز إليه بالغرق، وقد كان، فيذكر جامى أن ملك خوارزم سَكَرَ فأمر بإغراقه !! وقيل إن نجم الدين لما سمع بذلك دعا على الملك، وقد حاول الملك أن يسترضيه، فقال له على العكس فذلك مكتوب ولا مهرب منه، ستموت وسأموت معك، ومعنا خلق كثير. ويقول جامى إن وفاة تلميذه مجد الدين كانت سنة ٦١٦هـ، وكانت له مكاتيب فى أصول التصوف وآداب المريدين ومراتب السير والسلوك وأحوال السالك ومقاماته، ورسالة أخرى بعنوان **رسالة سفر**، أى السفر من العالم الترابى إلى عالم الملكوت، ورسالة فى «**علم السلوك**».

الكلاباذى

أبو بكر محمد بن إسحق الحنفى البخارى الكلاباذى، أطلقوا عليه تاج الإسلام لعلمه وفضله، فقد كان موسوعة، وكان من علماء الصوفية، وله كتاب **التعرف إلى أهل التصوف**، جمع فيه مذهبهم وأحوالهم، وعرّف بطريقتهم وتسميتهم ومعتقداتهم، حتى قيل إن كتابه صورة للتصوف فى زمنه، وهو القرن الرابع الهجرى، فقد توفى الكلاباذى سنة ٣٨٠هـ، ولم يكتب ما كتب عن التصوف إلا بعد أن عاشر الصوفية، واستمع إلى أعلامهم، وحفظ عنهم، وكتابته كتابة العارف المتحقق مما يكتب، ولذلك فقد قالوا فى كتابه **لولا «التعرف» لما عُرِفَ التصوف**، وهو قول بليغ يعكس أهمية الكتاب وفوائده والغاية منه، فقد استهدف به أن يخرص المتخرصين والمتقولين على الصوفية، ويبين حقيقة ما ذهبوا إليه فى التوحيد والعبادة، والمعانى التى تنصرف إليها أقوالهم، والمقاصد من عباراتهم وإشاراتهم، ولطائف أقوالهم أو لطائف الله تعالى معهم. وكان الكلاباذى عالماً أصولياً، ومن مؤلفاته: الأربعين فى الحديث، والإشعاع والأوتار، وآمالى فى الحديث، وبحر الفوائد المشهور بمعانى الأخبار وغير ذلك.

ومن أقواله فى كتابه التعرف أن **اسم الصوفية** لم ينتحله القوم لأنفسهم ، ولكنه ألصق بهم للبسهم الصوف ربما ، أو لتشبههم بأهل الصفة ربما ، أو لصفاء سريرتهم ربما ، ويورد أسماء أخرى لهم شاعت عنهم ، فهم **الغرباء** لتغربهم ، **والسياحيون** لكثرة أسفارهم ، **والشكفتية** لأنهم يسكنون الشكفت أى الكهوف والمغاور ، **والجوعية** لأنهم ينالون من الطعام بقدر ما يقيم الصلب ، **والفقراء** لتخليهم عن الأملاك ، **والنورية** لتنزل الأنوار عليهم ، ولأن قلوبهم منورة بنور الله تعالى . وتجتمع الصوفية على أقوال فى **الله** تعالى كانوا فيها السابقين ، فالله ليس بجسم ، ولا شبح ، ولا صورة ، ولا شخص ، ولا جوهر ، ولا عرض ، ولا اجتماع له ولا افتراق ، ولا يتحرك ، ولا يسكن ، ولا ينقص ولا يزداد ، وليس بذى أبعاض ولا أجزاء ، ولا تأخذه السنات ، ولا تداوله الأوقات ، وصفاته على الحقيقة ، من العلم والقدرة والقوة والعزة والحلم والحكمة والكبرياء والجبروت والقدم والحياة والإرادة والمشيئة والكلام . وهو خالق لأفعال العباد كلها ولأعيانهم ، وبقضاء الله وقدره ، وإرادته ومشيئته يفعلون ، ولولا ذلك لم يكونوا عبيداً ولا مربوبين ولا مخلوقين ؛ وأجمعوا أنهم لا يتنفسون نفساً ، ولا يطرفون طرفة ، ولا يتحركون حركة إلا بقوة يحدثها الله تعالى فيهم ، واستطاعة يخلقها لهم مع أفعالهم ، ولا يوجد الفعل إلا بها . وأجمعوا على أن **لهم أفعالاً واكتساباً** على الحقيقة ، هم بها مثابون ، وعليها معاقبون . وأجمعوا على أن **الدليل على الله** هو الله وحده ، وقالوا **المعرفة** معرفتان ، معرفة تعرّف ، ومعرفة تعريف ، ومعنى التعرّف أن يعرّفهم الله نفسه والأشياء به ، والتعريف أن يريهم آثار قدرته فى الآفاق وفى أنفسهم . وأجمعوا على إثبات **كرامات الأولياء** ، وقالوا المعجزات للأنبياء ، والكرامات تجرى على الأولياء من حيث لا يعلمون ، والأنبياء بالمعجزات عالمون . وقالوا فى **حقائق الإيمان** أنها أربعة : توحيد بلا حد ، وذكر بلا بت ، وحال بلا نعت ، ووجد بلا وقت . ومعنى حال بلا نعت أن يكون وصفه حاله ، ووجد بلا وقت أن يكون مشاهداً للحق فى كل وقت . ويأخذ الصوفية بالأحوط والأوثق فيما اختلف فيه الفقهاء . وأجمعوا على **إباحة المكاسب** من الحرف والتجارات والحرث ، وسبيلها الأعمال المقربة إلى الله عز وجل . **وعلوم الصوفية** علوم أحوال ، والأحوال مواريث الأعمال ، ولا يرث الأحوال إلا من صحح الأعمال . والتصوف **أركانه** عشرة ، أولها تجريد التوحيد ، ثم فهم السماع ، وحسن العشرة ، وإيثار الإيثار ، وترك الاختيار ، وسرعة الوجد ، والكشف عن الخواطر ، وكثرة الأسفار ، وترك الاكتساب ، وتحريم الادخار . وكشفوا عن **الخواطر** ، وتكلموا فى التوبة ، والزهد ، والصبر ، والفقر ، والتواضع ، والخوف ، والتقوى ، والإخلاص ،

والشكر، والتوكل ، والرضا ، واليقين ، والذكر، والأنس ، والقرب ، والا تصال ، والمحبة ، والتجريد ، والتفريد ، والوجد ، والغلبة ، والسُكْر، والشهود ، والغيبة ، والجمع ، والتفرقة ، والتجلى ، والاستتار، والفناء ، والبقاء . وكلامهم فيه **ألغاز** ويحتاج للشرح والتفسير، وهو لغتهم التى بها مخاطباتهم . وهم درجات ، فهناك **المراد** ، **والمراد** ، **والعارف . والمريد** هو الذى لا يريد إلا بإرادة الله ، **والمراد** هو الذى يجذبه الحق جذبة قوية فيكاشف بالأحوال ، **والعارف** أعرف الخلق بالله وأشدهم تحيراً فيه . **وأول مقامات المعرفة** أن يعطى العبد اليقين فى سره لتسكن به جوارحه ، والتوكل فى جوارحه لتسلم به دنياه ، والحياة فى قلبه ليفوز بها فى عقباه .

■ ■ ■

الكُمُشْخَانوى

ضياء الدين أحمد بن مصطفى بن عبد الرحمن الكمشخاوى النقشبندى المجددى الخالدى (١٢٢٧ ــ ١٣١١ هـ) ونسبه لمكشخانة من تركيا ، وقد وفد إلى مصر وافتتح بها مطبعة ، وله التصانيف التى منها **راموز الأحاديث ولوامع العقول ونجاة الغافلين والأحزاب وجامع الأصول ،** ولعل أهمها هو الكتاب الأخير واسمه جامع الأصول ، ولعل أهمها هو الكتاب الأخير واسمه **جامع أصول الأولياء ،** وهو من المراجع الهامة فى التصوف ، قيل فيه إنه رسالة جامعة لأصول الطريقة العلية المحمدية ، ومجموعة شاملة لآداب الصوفية الصديقية المفيدة لكل طالب السلوك إلى طريقة الله والراغب إلى معرفته تعالى ، ويذكر الكمشخانوى فى أسباب تأليفه لهذه الموسوعة الصوفية أنه قد رأى الناس ضيعوا الطريق فأراد أن يجمع نبذة من أصولها وأوصافها والأولياء وأنواعهم واصطلاحهم وأطوارهم وبعض أسرارهم وآدابهم ومسلكهم وشروطهم إجمالاً . وهو يرصد المراجع للطرق الكبرى فالقادية مثلاً مراجعها فى بهجة الأسرار والفنية وقلائد الجواهر وفتوحات الغيب ونفحات القدس والمناقب ، والشاذلية فى المفاخر العلية والكواكب الزاهرة والمناقب والواردات ، والرفاعية فى بهجة الرفاعى والوصايا والمناقب ، والأحمدية فى بهجة البدوى وشرح متن الغاية والوصايا ، والدسوقية فى الوصايا والمناقب ، والأكبرية فى الفتوحات المكية والحلية والتدبيرات وحوض الحياة والمناقب والفصوص ، والموية فى المثنوى والمناقب وفيه ما فيه والسواقب ، والكبروية فى فقرات نجم الدين والتأويلات والمناقب ، والسهروردية فى العوارف وتعرف علم التصوف ، والخلوتية فى معيار العلوم وشرحه لعمر الفؤادى وترجمة الحال والمناقب ، والجلوتية فى خطاب الحقى

ومجالس أربعين والمسألة والمناقب، والبكناشية فى خطاب البيان والجاودان والمناقب، والغزالية فى الإحياء والحجة والمناقب، والسعدية والجشتية والشعبانية والكلشنية والحمزوية والبيرامية والعشاقية والبكرية والعمرية والعثمانية والعلوية والعباسية والزينية والعيسوية المغربية والبحورية والحدادية والغيبية والخضرية والشطارية والبيومية والملامية والغيدروسية والمبتولية والسنبلية والأويسية وغيرها مذكورة فى كواكب الدرية ونفحات الأنس وتذكرة الأولياء والقاشانى وطبقات الشعرانى والنفحات القدسية ومنقبة الأولياء وطبقات القاضى زكريا ورسالة القشير اى طبقات المشايخ ومقامات العارفين وكتاب المنجلى ولطائف الأعلام واصطلاحات الصوفية وشمس البونى والمناهج وكشف الواردات ودرة الموحدين وحقائق الدقائق وأسرار السرور ومحاضرة الأبرار والتجليات الإلهية والوصايا القدسية وكتاب الإسراء والتمهيد ومفتاح الغيب ومصباح الأنس والإنسان الكامل ومنازل السائرين ومدارج السالكين وكشف الحقائق وحدائق وخالصة الحقائق والميزان للشعرانى والتميز ومرآة الأصفياء والوصايا الإلهية وكشف الأسرار الأزلية وحاوى الأرواح ومقامات بدر الدين وروضة الواصلين وزبدة الحقائق. ولا تخفى قيمة هذا الرصد الذى يورده الكمشخانوى فهو جامع للمراجع الكبرى فى التصوف، وبعض الكتب التى يوردها لم يصل إليها علمنا. ويظهر المؤلف بمظهر الناقد المميز لخصوصية كل ولى والمنبه لها، ويقتبس الكثير من الشاذلى ويقول ذلك صراحة من مثل وقال الشاذلى، ويترجم له ويذكر سلسلته وأسباب تسميته بالشاذلى وطريقته ويقارن بينها وبين النقشبندية، ويدافع عن التصوف عموماً ضد من يسميهم بالمتفقهين المتعصبين والسفهاء لا الفقهاء فإنهم قد قصروا مرادهم على أن يعرفوا بين الناس بالعلم والفقه والرياسة لأغراض شيطانية وشهوات نفسانية يفتشون بمقتاها عن عيوب الناس ويفشونها لأنهم لا يرتفعون إلا بإنكار المناكر خصوصاً على الكامل الخاشع والعابد الذاكر. وأما الفقهاء أصحاب القدم الراسخ فى العلوم فإنهم من شدة شفقتهم على عباد الله لا يكادون يجدون فى الناس منكراً أصلاً من كمال اشتغالهم بعيوب أنفسهم عن عيوب الناس، ومن هؤلاء شيخ الإسلام المخزومى الذى يقول لا يجوز لأحد من العلماء الإنكار على الصوفية إلا أن يكون قد سلك طريقهم ورأى أن أفعالهم وأقوالهم مخالفة للكتاب والسنة والإجماع والسلف، وأما بالإشاعة والظن والخبر الكذب والبهتان فلا يجوز الإنكار عليهم ولا سبهم، وبالجملة فأقل ما يجب على المنكر حتى يسوغ له الإنكار على أقوالهم وأفعالهم أن يعرف سبعين أمراً ثم يسوغ له الإنكار، منها غوصة فى معرفة معجزات الرسل وكرامات الأولياء واطلاعه على التفاسير سلفا وخلفاً والأحاديث

ومنازع الأئمة والمجتهدين وأسرار الكتاب والسنة والتأويل وشرائطه واللغة والمجازات والاستعارات ومقالات السلف والخلف فى معنى آيات الصفات وأخبارها واصطلاح القوم فيما غيروا عنه من التجلى الذاتى والصورى والذات وذوات الذوات وحضرة الأسماء والصفات والفرق بين الحضرات والأحدية والواحدية والظهور والبطون والأزل والأبد وعالم الغيب والكون والشهادة والشئون والماهية واليهودية والسكر والمحبة والشطح وتأويله بما هو مصطلح عليه بينهم. والكتاب فى جملته عظيم الشأن وكثير الفائدة وأسلوبه سهل ويقصد فيه إلى المعنى الذى يريده بإيجاز واقتدار.

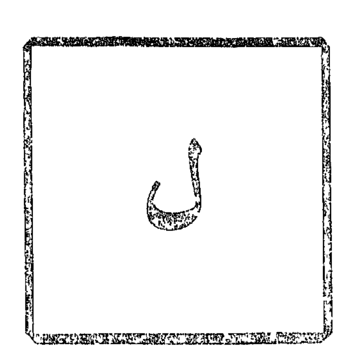
■ ■ ■

الكوفى (أبو هاشم)

قيل فيه إنه **أول من تسمى باسم الصوفى من أهل الكوفة**، ووصفوه فقالوا إنه كان يلبس كثياب الرهبان الضافية من الصوف. وهناك رأى مخالف يقول إن الكوفة كانت تشتهر بصناعة الصوف، وأن اسم الصوفى لذلك كان مساوياً لاسم الكوفى، ولهذا قيل فى أبى هاشم أنه أبو هاشم عثمان بن شريك الكوفى الصوفى. ويبدو أنه توفى نحو سنة ١٥٠ هـ، وأنه عاصر لذلك سفيان الثورى، وهو الذى قال فيه فى زعم البعض «**لولا أبو هاشم ما عُرفت دقائق الرياء**» يعنى أنه كان أول من خاض فى الكلام عن الرياء وفصّل لنا دقائقه، أى أنه كان ضد الرياء، فإن كان كذلك فكيف انفرد بلبس الصوف ليعرف هذا عنه؟ ومع ذلك فالأقوال متضاربة فيه، وهناك من يقول إنه كان من شيوخ النفاق، جبرياً فى الظاهر، وباطنياً دهريا فى الباطن، وكان يجيد الكلام وينطق الشعر، ويقول بالحلول والاتحاد، أو أنه تردد بين الدعويين فلم يُعرف إلى أيهما انتهى أمره، وكان قصده من كل ذلك وانتحاله النسك ولبسه الصوف إحداث البلبلة بين المسلمين وإثارة الاضطراب فى الإسلام، ومع ذلك نسبوا إليه كذلك أنه **أول من بنى خانقاه للصوفية فى الرملة!** ولربما يكون أبو هاشم من الملامتية وإن لم يكونوا قد ظهروا بعد كطائفة متميزة. وأبو هاشم رغم كل ما قالوه فيه لم يختلف أحد فى زهده فى الدنيا ولو تظاهرا ويقول فيها إن الله تعالى وسمها بالوحشة ليكون أنس المريدين بها دونها، وليقبل المطيعون إليه بالإعراض عنها، فأهل المعرفه بالله فيها مستوحشون، وإلى الآخرة مشتاقون. وكان على خلق عال وقد نبّه إلى آفة الخلق السيء وأول خطيئة فى الوجود، يقول ــ لقَلْع الجبال بالإبر أيسر من إخراج الكِبْر من القلوب، وذلك أن إبليس أبى واستكبر. وأبو هاشم لذلك يترك الكوفة وبغداد ويتجه

إلى الشام لعله فيها يجد الإخلاص ويعيش الورع ولا يصافح النفاق ويطلب الآخرة على الدنيا، ومثّله فى ذلك قوله لو أن الدنيا قصور وبساتين، والآخرة أكواخ، لكانت الآخرة أهلاً أن تؤثر على الدنيا، لبقاء تلك ونفاذ هذه.

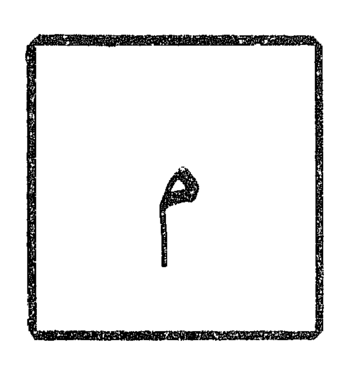
■ ■ ■



لوليو Lulio

رايموندو لوليو (١٢٣٥ ـــ ١٣١٤م) راهب فرانسيكانى قضى فى دراسة العربية وحفظ القرآن تسع سنوات (١٢٦٦ ـــ ١٢٧٥) وأنشأ مدرسة لتعليم العربية فى ميرامار، ومهد بها لإنشاء معهد الدراسات الإسلامية فى مدريد، وقرأ فى التصوف الإسلامى وأخذ به فارتحل إلى تونس وعاش مع الصوفية فيها، وكانوا يعرفونه باسم **الصوفى النصرانى**، وكانت له معارضات لفلسفة ابن رشد على طريقة المتكلمين العرب، وأثمرت دعوته لإنشاء كراسى لدراسة العربية فى الجامعات الأوروبية فى باريس وأكسفورد وبولونيا وسلمنكه. وعرف لوليو من الصوفية المسلمين ابن سبعين وابن هود والششترى وأبى مدين وعفيف التلمسانى، وكان حبه شديداً لابن عربى، فلما وضع مذهبه فى الإشراق كان بتأثير الصوفية المسلمين ومن نهج هذا المنهج منهم، وقد شرح ذلك فى كتابه الموسوعى «**تأملات فى الله**» والذى كتب معظمه باللغة العربية، وله **الصديق والمحبوب** كتبه على طريقة الصوفية العرب، ومناظرات بين رايموندو المسيحى وعمر العربى وترجمه إلى اللاتينية.

■ ■ ■



ماسينيون

لويس ماسينيون **Massignon** (١٨٨٣ ــ ١٩٦٢) مستشرق فرنسي له في التصوف الإسلامي بحوث ومقالات ومؤلفات بارزة، ولعله ونيكلسون الإنجليزي يصنعان أهم من يشارك من المستشرقين في التعريف بالتصوف الإسلامي لدى الفرنجة، ويبدو أنه كان للحسين بن منصور الحلاج تأثير كبير على ماسينيون حتى أنه شبّهه في حياته ووفاته بالمسيح، وله فيه **أخبار الحلاج وديوانه والشيخ المصلوب والطريقة الحلاجية وكتابه طواسين**، واختار لينشر رسالته فيه **«عذاب الحلاج شهيد التصوف في الإسلام»** تاريخ مرور ألف سنة على صلبه. ومن كتبه التي يعتز بها في التصوف **«نشأة المصطلح الفني للتصوف في الإسلام»** استعرض فيه تاريخ التصوف الإسلامي منذ الرسول حتى زمن الحلاج، مع دراسة لألفاظ التصوف كما هي عند أعلام الصوفية. وماسينيون يرفض النظرية التي ترد التصوف إلى التأثيرات المسيحية واليهودية والهندية والفارسية ويؤكد على مصادره العربية الإسلامية من الكتاب والسنة. ومن الذين تناولهم ماسينيون بخلاف الحلاج الخراز والمحاسبي والنوبختي والتستري وابن سبعين والششتري والسفطي والأخيضر والورّاق. واشتغل ماسينيون بالتدريس في الإسلام والمذاهب الإسلامية في الكوليج دي فرانس والجامعة المصرية، وكان من طلابه الدكتور طـه حسين، ومن الذين أخذوا عنه توجهاته الدكاترة زكي مبارك وعبد الحليم محمود وعبد الرحمن بدوي وآخرون، ولمّا أنشىء المجمع اللغوي سنة ١٩٣٣ عين عضواً عاملاً فيه حتى عام ١٩٥٦، ثم عضواً مراسلاً من سنة ١٩٥٧ حتى وفاته.

ويحسم ماسينيون الخلاف حول أصل كلمة «تصوف» ويقول إنها مصدر الفعل الخماسى المصوغ من «صوف» للدلالة على لبس الصوف، وأنه ينبغى رفض ما عدا ذلك من أقوال، ويؤرخ للفظ الصوفى بأنه يرد لأول مرة كلقب مفرد فى القرن الثانى كنعت لجابر بن حيان وأبى هاشم الكوفى، كما يؤرخ للتصوف الفلسفى بالقرن الرابع الهجرى ويصنف فلاسفة المتصوفة ثلاثة أصناف ـ الاتحادية كابن مسرة وابن قسى، والإشراقية كالسهروردى الحلبى والجلدكى والدرانى وصدر الدين الشيرازى، والوصولية كابن سينا وابن سبعين وابن طفيل، ويقصد بالوصولية القول بأن النفس تصل إلى موافقة الحق فتكون فى المنزلة الجامعة التى لا تكثّر فيها ولا تعدد ولا تفرقة بأى شكل من الأشكال.

ويعرّف ماسينيون الصوفية بأنهم قوم أرادوا أن يفهموا كيفية وصول التبديل فى أحوال الإرادة، ويستدلون على ذلك بالأحاديث والآيات، وعلم القلوب عندهم هو علم التقليب أى التبديل فى أحوال الإرادة. وأول من دقق فى هذا العلم هو سهل بن عبد الله العشرى المتوفى سنة ٢٨٣ هـ، وهو من الصوفية المقبولين على إجماع فقهاء الإسلام، وإذا رجعنا إلى ابن عربى فى كتابه الفتوحات لوجدناه يقول: وكان سهل بن عبد الله يدقق فى هذا الشأن، وهو الذى نبه على نفر الخاطر. ويقول ماسينيون إن أبا حمزة البغدادى كان أول من تكلم فى المحبة بالمعنى الصوفى وكان متذوقاً للجمال، ومن تلاميذه من كان يتعشقه حتى فى الصورة ويسجد لها. والحلاج هو الشهيد الأول للمحبة الصوفية، وشعره لا يذكر فيه محاسن النساء ولا الغلمان مثلما فى أكثر رباعيات أبى سعيد بن أبى الخير، والمحبة فيه مجردة. والغزالى هو أول فلاسفة المتصوفة الذين قالوا بأن الله وحده هو المستحق للمحبة، ويعرف الحب بأنه حب كل جميل لذات الجمال وليس لحظ ينال من وراء إدراك الجمال.

■ ■ ■

مبارك

زكى بن عبد السلام بن مبارك (١٣٠٨ ـ ١٣٧١ هـ ـ ١٨٩١ ـ ١٩٥٢ م) أو الدكاترة زكى مبارك، من مواليد سنتريس من أعمال منوفية مصر، له **«الأخلاق عند الغزالى»** و**«التصوف الإسلامى»** وكتب أخرى فى الأدب. ويؤرخ لتصوفه فيقول إنه كان فى حداثته كأكثر أهل الريف يشهد مجالس الصوفية، وكانت لأبيه

صلات روحية بأهل الطريق ، وعندما التحق بالأزهر انضم لنوادى الصوفية وأخذ العهد على طريقة الشاذلية ، ولكنه كان قليل الرعاية للتقاليد الصوفية فنازعه شيخه فاقتنع بأن الصوفية أرباب ظواهر وإن ادعوا أنهم أرباب قلوب ، وصنّف كتابه **« الأخلاق عند الغزالى »** الذى حاز به على إجازة الدكتوراه من الجامعة المصرية سنة ١٩٢٤ ، وقد تجنّى فيه على التصوف ورمى أشياعه بالغفلة والجهل ، وجعل سلوكهم سبباً فى انحطاط الأمم الإسلامية ، ومما قاله فى أغلاط كتاب الإحياء للغزالى استحسانه لأشياء مبناها على مالا حقيقة له ، وقوله ليس فى الإمكان أبدع مما كان ، وأن المقصود بالرياضة تفريغ القلب بالخلوة والجلوس فى مكان مظلم ، ومنها التقليل من الطعام ، وعدم الركون إلى الدنيا بالزواج وغيره ، والقيام طول الليل ، وأن يضع الصوفى نفسه فى موضع التهم ليخلص نفسه من فتنة النظر إلى الخلق ومراعاتهم له ، ودعوى أن الاشتغال بعلوم الظاهر بطآلة الخ ، وينتقد على الزبيدى دفاعه عن الغزالى فى كتابه **« أعلام الأحياء بأغلاط الإحياء »** ، ويورد أقوال السبكى فى طبقاته عن الأحاديث التى تضمنها الإحياء وليس لها إسناد ، ويتهم الغزالى بالغفلة وعدم التثبت فهو فى جمع الأحاديث كحاطب الليل ، واتهمه بالعناد فقد قذف ناقديه ورماهم بالغباوة والحسد والكذب ، وينسب له أنه أخذ كتابه الإحياء من كتاب قوت القلوب لأبى طالب المكى ، ويجزم بأنه قد نقل عنه كل ما صح لديه وحسن عنده منه وإن لم يشر إلى ذلك ، ويكفى أن نقرأ باب التوكل مثلاً فى الكتابين لنعرف أنهما يسيران فى طريق واحد إلى غاية واحدة ، ومن السهل إثبات أثر الرسالة القشيرية على أكثر أبواب الإحياء ، وكذلك أثر ابن مسكويه عليه حيث يأخذ منه عبارات بكاملها . وينقد على الغزالى أن كتبه الإحياء والأربعين والميزان والمنهاج والتبر المسبوك والأدب فى الدين وبداية الهداية كلها يكرر فيها نفس الأفكار والعبارات والأمثلة حتى يمكن القول بأن بضاعته فيها واحدة ، وفى خاتمة الكتاب يذكر مبارك أن الغزالى يبدو أنه لا يخلو من سذاجة ، وأن العصور التى تلت عليه كانت مقفرة من النقد ولذلك سادت فيها آراء مع ما تحتوى عليه من عناصر الجمود ، وخلو كتبه من العلوم الكونية دليل على عدم أهميتها عنده . ويبدو أن مبارك ندم على أحكامه فى التصوف والغزالى التى أسسها على العقل الخالص بعد أن التقى بالمستشرق ماسينيون فى باريس واستماعه لمحاضراته فى الكوليج دى فرانس عن التصوف والحب فصّحت عزيمته على معاودة الكتابة فى التصوف وقد تبين له أنه ليس وقفاً على الدراويش الذين يتعيشون بالتسول ، وإنما هو نزعة روحية ، ولذلك فقد صنّف كتابه **التصوف الإسلامى فى الأدب والأخلاق**

ليكون رسالة دكتوراه للجامعة المصرية سنة ١٩٣٧، وفيه يذهب إلى أن مذاهب الصوفية فى جوهرها ترجع إلى شعب ثلاث، **الأولى** عاطفة الحب الإلهى، **والثانية** نظرية وحدة الوجود، **والثالثة** حب الرسول. واهتمامه بالحب الإلهى لأنه يمثل السمو فى أذواق الصوفية إذ كانوا يتشهون الفناء فى الله، ويرون الأنس به أشرف الأغراض. وهيام الصوفية بالحب الإلهى حوّلهم إلى أقباس روحية ذوقية، وجعل حياتهم أوتاداً تصدح بأعذب الألحان فى عالم الأرواح والأذواق. **والحب الإلهى** هو الذى جعل الصوفية لا يرون غير المعانى ولا يعبأون بالأعمال. وتظهر أهمية هذه العاطفة السامية حين ننظر أثرها فى الأدب ونتعرف ما تركت من أقباس الحنان. وعن الحب الإلهى تنشأ نظرية **وحدة الوجود**، فالصوفية لم يكفهم أن يكون لهم وجود ذاتى يمتاز عن وجود الناس، ولم يكفهم أن يعرفوا بالشوق إلى ذات الديّان، وإنما وثب فريق منهم فادّعوا أنهم جزء موصول بحقيقة أزلية هى حقيقة واجب الوجود، فالفريق الذى يحب الله كان يتشرف بنسبة العاشق إلى المعشوق، وأما الفريق الثانى فلا يرى عاشقاً ومعشوقاً، وإنما يرى شوقاً يتمثل فى حنين الجزء إلى الكل، وهى وثبة جريئة فى عالم المعقول. وهذه النظرية شغلت كثيراً من الصوفية وشطرتهم شطرين، شطراً يؤثر الرفض، وشطراً يؤثر القبول، وكان لمعتنقيها ضحايا أشهرهم الحلاّج. ولابد من الاعتراف بأن التصوف فى جملته يرجع إلى هذه النظرية إذ كان الصوفى الحق لا يهمه إلا الفناء فى الله، فإن لم يكن فناء الجزء فى الكل فهو فناء العاشق فى المعشوق، وربما كان تهيبهم من إعلان هذه النظرية نوعاً من التقية وإيثار السلامة من مكايد الناس. وعن نظرية وحدة الوجود ينشأ **حب الرسول** الذى أبدع فى اللغة العربية فنا جديداً هو **فن المدائح النبوية**. وإنما نشأ حب الرسول عن وحدة الوجود، لأن من قالوا بهذه النظرية قرروا أن محمداً عليه السلام هو أول مظهر للذات الأحدية، وأنه خاتم النبيين وأول الأولين وآخر الآخرين، وأنه البرزخ بين الذات الأحدية وسائر الموجودات.

ويقول زكى مبارك إن **حِكَم ابن عطاء الله السكندرى** نموذج من الأدب الصوفى العالى، ولابن عطاء الله فيها كلمات تذكر بمذهب الحلول ومنها «إنما يستوحش العباد والزهاد من كل شىء، لغيبتهم عن الله فى كل شىء، ولو شهدوه فى كل شىء، لم يستوحشوا من شىء»، وقوله: «علم منك أنك لا تصبر عنه فأشهدك ما برز منه» وهو يفصح إفصاحاً بأن العالم هو الجزء البارز من الله، وأن على المؤمن أن يراه فى كل موجود. وعن **ابن عربى** يقول زكى مبارك أنه كانت له صبوات فى عالم الحس قبل أن تنقل صبوانه إلى عالم الروح، وأنه فى قصائده فى ترجمان الأشواق كان مقهور

النزوات والأهواء ومحبوساً عن اللذات الحسية فاندفع يطوف حولها فى رحاب عقلية لها رونق وبهاء. وهو يتناول المعانى بطرائق حسية ويواجه الدنيا بعين متشوقة إلى الصور والأشكال ، ومن ذلك قوله : رأيت ليلة أنى نكحت نجوم السماء كلها فما بقى منها نجم إلا نكحته بلذة عظيمة روحانية ، ثم لما أكملت نكاح النجوم أعطيت الحروف فنكحتها ... ». ويشبّه زكى مبارك الحلاج بالمسيح عليه السلام من نواح كثيرة ، منها كثرة السياحات وقوة التنسك وكثرة الأتباع وبشاعة المصير إلى الصلب ، والتشابه بينهما قوى جداً من الناحية العقلية ، فالمسيح كان يقول بوحدة الوجود كما قال الحلاج بوحدة الوجود ، والأساطير تنطق الحلاج باسم المسيح ، ولعلها لم تكن أساطير ، فالمسيح هو الرب فى نظر أتباعه من النصارى ، والحلاج هو الرب فى نظر مريديه من الصوفية ، والقرآن يقول إن المسيح لم يصلب وإنما شبه لمن صلبوه . وأتباع الحلاج يقولون إنه لم يصلب وإنما شبّه لمن صلبوه . وقصة الحلاج مع ربه قصة نادرة المثال وهى تغزو القلوب بالحزن والعيون بالدمع وتُفهم من لا يَفْهم أن الحب الصوفى لا يعرف اللعب ولا المزاح ، وكان الحلاج يتمنى أن يكون المحب عين المحبوب ليصح له أن يقول :

سبحان من أظهر ناسوته ... بسرّ سَنا لاهوته الثاقب
ثم بدا فى خلقه ظاهراً ... فى صورة الآكل والشارب
حتى لقد عاينه خلقه ... كلحظة الحاجب بالحاجب

وعن **ابن الفارض** يقول زكى مبارك إنه أى ابن الفارض مدين بخلود شعره إلى نزعته الصوفية ولولا التصوف لانطمس ذكره منذ زمان ، والمعانى الرمزية هى السر فى إقبال الناس على شعره ، وعنايته بالمعانى كانت فاتحة جديدة فى وزن المعانى بعد أن ظل الناس يحرصون على وزن الألفاظ ، ويكفيه هذان البيتان :

وحياة أشواقى إليك ... وحرمة الصبر الجميل
ما استحسنت عينى سوا ... ك ولا صبوت إلى خليل

وهما بيتان لا خطر لهما عند من يحفلون بجزالة الألفاظ ولكنهما على جانب عظيم من القوة عند من يؤثرون المعانى ، وهل فى الحب أجل وأشرف من توحيد المحبوب ؟ وابن الفارض شغل بالشعر أربعين سنة ، ولشعر الصبا لون ، ولشعر الكهولة لون ، والوحى واحد وهو الحب ، إلا أن الحب فى العهد الأول كان حباً حسياً ، وحبه الحسى كان أساس حبه الروحى فى الكهولة ، والهيام بالجمال الإلهى لا يقع إلا بعد الهيام بالجمال الحسى ، وابن الفارض شاعر عاشق توزعت عواطفه بين عالم المادة وعالم الروح .

وكتاب **التصوف** لمبارك موسوعة فى الأدب والشعر والأقاصيص الصوفية، واللهجات العربية فى مؤلفات الصوفية، وصور المجتمع الإسلامى فى كتب الصوفية، وأثر التصوف فى الفنون وفى الأخلاق، ويكفى الصوفية أنهم عطّروا الأدب العربى بأريج الكرامة والعزة والصيانة والعفاف، وهم الذين وصلوا المشرق بالمغرب وحفظوا الإسلام بإذاعة المعانى الروحية والذوقية. وأدباء الصوفبة هم الذين رحموا تاريخ الأدب العربى من وصمة التزلف بالمديح إلى الملوك والرؤساء والأمراء والوزراء.

■ ■ ■

مبارك

على بن مبارك بن سليمان (١٢٣٩ ـ ١٣١١هـ) الوزير المصرى والمؤرخ العالم صاحب «**الخطط التوفيقية**» فى عشرين جزءاً جرى فيه على نهج المقريزى فى خططه ويعدد الزوايا والرُبط والخانكات والتكايا الصوفبة فى مصر ويذكر أنها كانت لإقامة بعص الصالحين للتعبد فيها، وأغلبهم من الأجانب، وينعى أن يكون هؤلاء المتمتعون بخير البلد أبعد الناس عن التصوف كما عرّفه السهروردى فى كتابه عوارف المعارف. ويؤرخ مبارك لأول خانقاه بديار مصر زمن **صلاح الدين الأيوبى** سنة ٦٥٩هـ وقد أنشأها برسم الفقراء الصوفية الواردين من البلاد الشاسعة ووقفها عليهم، ووقف عدة أملاك يصرف من ريعها عليها، ورتّب لهم كل يوم طعاماً ولحماً وخبزاً، وبنى لهم حماماً بجوارها، ثم لما انقرضت الدولة الأيوبية حذا حذوهم السلاطين الجراكسة وبعض الأمراء فصار فى مصر إلى أول القرن التاسع عشر **٢٢ خانقاه**، ثم لما زال ملك السلاطين الجراكسة حصل الإهمال وعدم الصرف وضياع الأوقاف التى عليها فاندثر أغلبها وتخرّب الكثير منها واستبدلت بالتكايا وتنوسى اسم الخانقاه بالكلية، وهى كلمة فارسية معناها **بيت العبادة**. والتكايا جمع تكية، يسكنها الدراويش الأغراب غالباً الذين ليس لهم كسب وإنما تجرى لهم مرتبات شهرية وسنوية من ديوان الأوقاف العمومية أو من أوقاف خصوصية، فلذا تسمى محال إقامتهم تكية كأن أهلها متكئون أى معتمدون فى أرزاقهم على مرتباتهم. وعدد هذه التكايا فى القاهرة وحدها **عشرون** تكية، وأهمها تكية الخلوتية وراء الحلمية على يمين الذاهب إلى شارع محمد على، وتكية المغاورى بأعلى المقطم، وبها جملة من دراويش العَجَم يشاع عنهم أنهم يشربون الخمر، ويحتفلون فيها بموسم عاشوراء فيجتمعون ويذكرون ويصيحون ويصرخون ويذبحون الذبائح ويفرقون على الفقراء. ويتضمن كتاب مبارك تراجم لعدد من الأولياء

والصوفية **ويُعدّ مع كتاب المقريزى أفضل المصادر عن الصوفية والصالحين أثناء حكم المماليك لمصر.**

■ ■ ■

المتبولى

برهان الدين إبراهيم بن على بن عمر، **الأنصارى** المتبولى، من أصحاب الدوائر الكبرى فى الولاية، وينسب إلى متبول من قرى الغربية بمصر، وله كتاب «**الأخلاق المتبولية**» فى مكتبة عارف حكمت وصفحاته ٦١٦، وكان يقول أنا أحمدى، أى من أتباع سيدى أحمد البدوى، ويلبس الصوف ويتعمم به وله طليحية حمراء، **وطريقته** قوامها الإخلاص وتطهير القلب. يقول طهّر قلبك من محبة الدنيا يجر ماء الإيمان فيه جداول، ومن لم ينظف قلبه لم يؤمن. والتصوف عنده ليس تبطلا، وهو يقول لا أحب الفقير إلا كان له حرفة تكفه عن سؤال الناس، وكان هو نفسه يعمل فى الغيط ويدير الماء وينظف القناة من الأعشاب. ويصفه إبن إياس بأنه كان نادرة عصره وصوفى وقته، **وأخلاقه فى التصوف** أساسها البر والمعروف، وكانت حياته تماشى ما يدعو إليه، وأنشأ أماكن للعبادة كثيرة، منها جامع كبير بطنطا، وبرج بدمياط، وتوفى بأسدود. ويروى أنه اختلف مع السلطان قايتباى فقال السلطان إما أنا أو هو فى مصر، فخرج المتبولى يقصد القدس على حمارة ولكنه لم يكمل، وقيل مات عن ثمانين سنة ولم يغتسل قط عن جنابة لأنه لم يحتلم قط ولم يتزوج.

■ ■ ■

المحاسبى

أبو عبد الله الحارث بن أسد من أهل البصرة، ووفاته ببغداد سنة ٢٤٣ هـ، وشهرته المحاسبى فقد كان شديد المحاسبة والمراقبة لنفسه حتى تميزت طريقته فأطلقوا عليها **المحاسبية**، ومنهجه تحليلى نفسانى، ويصفه **المستشرق ماسينيون** بأنه إعجاز نادر، ويتحدث شيخ الصوفية **الجنيد** عن هذا المنهج فيقول إن المحاسبى كان يمر عليه فى بيته ويقنعه بالخروج معه إلى الصحراء للتفكير والنقاش فيبدأه بأن يقول له سَلْنى، فيقول الجنيد ما عندى سؤال أسأله، فيقول المحاسبى سلنى عما يقع فى نفسك، ويسأل الجنيد فيجيبه المحاسبى، ولكن السؤال يسلم لسؤال غيره، والإجابة تقتضى بدورها إجابة

أخرى وهكذا. وكان ذلك حال المحاسبى مع كل أصحابه وتلاميذه. والمحاسبى استاذ أكثر البغداديين، وأكثر من يروى عنه هو الجنيد، والأسئلة التى تطرح على المحاسبى وأجوبته التحليلية لها هى التى كان يملأ بها كتبه، ويقول الجنيد إنه كان يتوجه إلى بيته بعد المناقشة فيعملها كتاباً، ومؤلفات المحاسبى كثيرة، ويقدرها بعضهم بنحو المائتى كتاب، أشهرها كتاب «**الرعاية لحقوق الله عز وجل**»، وقيل فيه إن المحاسبى لو لم يؤلف إلا هذا الكتاب لكانت له نفس المكانة والأستاذية على أقرانه ومعاصريه، وإن أثر هذا الكتاب ليتجاوز وقته، وسيظل المحاسبى له المتلقون عنه وإن لم يعاصروه، ومن هؤلاء كان **الإمام الغزالى**، ومن النقاد من يذهب إلى أن الغزالى فى كتابه **الإحياء** قد تبطّن كتاب الرعاية للمحاسبى، فلولا الرعاية ما كان الإحياء، ومن رأى الغزالى أن المحاسبى هو خير أمة الإسلام فى **علم المعاملات**، والمقصود به علم الأخلاق النفسانية. وطريقة المحاسبى فى التعليم طريقة فريدة حقاً وتذكرنا بطريقة سقراط. يسأله سائل: بما تُحاسب النفس؟ فيقول: بقيام العقل على حراسة جناية النفس، فيتفقد زيادتها من نقصانها، فيقال له: ومما تتولد المحاسبة؟ فيقول: من مخاوف النقص وشين البخس والرغبة فى زيادة الأرباح. والمحاسبة تورث الزيادة فى البصيرة، والكيس فى الفطنة، والسرعة إلى إثبات الحجة، واتساع المعرفة، وكل ذلك على قدر لزوم القلب للتفتيش، فيقال له: ومن أين تَخَلُّفُ العقول والقلوب عن محاسبة النفوس؟ فيقول: من طريق غلبة الهوى والشهوة، لأن الهوى والشهوة يغلبان العقل والعلم والبيان، فيسأل: ومما يتولد الصدق؟ فيقول: من المعرفة بأن الله يسمع ويرى، فالمعرفة أصل للصدق، والصدق أصل لسائر أعمال البر، فعلى قدر قوة الصدق يزداد العبد فى سائر أعمال البر، فيُسأل: وما هو الشكر؟ فيقول هو علم المرء بأن النعمة من الله وحده، وأن لا نعمة على خلق من أهل السماوات والأرض إلا وبدائعها من الله، فتشكر الله عن نفسه وعن غيره، فهذا غاية الشكر، فيُسأل عن الصبر ما هو؟ فيقول: هو حمل النفس على المكاره وتحمل المؤن واحتمال المكابدات، فيُسأل: فكيف السبيل إلى مقام الرضا؟ فيقول: علم القلب بأن المولى عدل فى قضائه، غير متهم، وأن اختيار الله خير له من اختياره لنفسه.

وكان المحاسبى من فرط حسه الأخلاقى الدينى فيه خصلة نفسية بدنية، وهى أنه إذا استشعر حرجاً أخلاقياً دينياً فى طعام يدعى إليه تحرك عرق فى إصبعه كالمحذر له فيمتنع لتوه، ويصف هو ذلك فيقول: «بينى وبين الله علامة، إذا لم يكن الطعام عند الله مرضياً ارتفعت إلى أنفى منه فورة فلم تقبله نفسى. وفى ذلك أيضاً يقول الجنيد إن

الحارث ورث ثروة طائلة عن أبيه ولكنه رفض أن يتسلم منها شيئاً لأنه كان يرى أباه واقفياً على غير مذهب السنة، وأن أهل الملتين (مثنى مِلّة) لا يتوارثون. ومنه أيضاً أن جماعة من أصحابه رأوه متعلقاً بأبيه والناس مجتمعون عليهما وهو يقول له: طلق امرأتك فإنك على دين وهي على غيره.

والمحاسبة التي يقول بها المحاسبي والتي ينسب إليها هي محور تفكيره الصوفي ومذهبه في التصوف، وهي **موازنة** يقول إنها في ثلاث مواطن، فيما بين الإيمان والكفر، وفيما بين الصدق والكذب، وبين التوحيد والشرك. وطريقة المحاسبي القائمة على المحاسبة والموازنة والمراقبة **أساسها** قوله أن الإنسان ليس شيئاً بدون الله، وليس له إلا ما يناله من رضوان الله، وأنه إن اتقى الله وقاه شر مَنْ دونه، وإن صالح صلح به الناس، وإن فسد فسد به الناس، وأن عدوه من نفسه طبائعه السيئة، وأولياءه منها طبائعة الحسنة، وأنه لذلك محل صراع نفساني بين الاثنتين، والإنسان الأخلاقي المتدين هو الذي يقاتل بعضه ببعضه، ويستخدم أولياءه ضد أعدائه، فيقاتل الغضب بالحلم، والغفلة بالتفكير، والسهو بالتنبيه. ومراقبة الإنسان الأخلاقي لله على ثلاث خلال على قدر عقل العاقلين ومعرفتهم بربهم، والخلة **الأولى** هي الخوف من الله، **والثانية** هي الحياء منه، **والثالثة** هي الحب له. والخائف مراقب بشدة الحذر من الله تعالى، والمستحيي من الله مراقب بشدة انكساره وغلبة إخباته، والمحب لله مراقب بشدة سروره وغلبة نشاطه وسخاء نفسه. **والمراقبة** في أحوال ثلاثة، أولها التثبت بالحذر قبل العمل بما أوجب الله والترك لما نهى عنه مخافة الخطأ، فإذا تبين له الصواب بادر إلى العمل بما أوجب الله والترك لما نهى عنه، فإذا دخل في العمل فالتكميل للعمل مخافة التقصير، فمن لم يتّبت قبل العمل فهو غير مراقب لله، ومن لم يبادر ويسارع إلى العمل بعد ما تبين له صوابه فما راقب الله إذ أبطأ عن العمل وتثبط عن القيام بما أُمر به. ومن لم يجتهد في تكميل عمله فضعيف مقصّر في مراقبة من يراقبه وقد علم أن الله يحب تكميله وإحكامه. والطاعة لله فيما أوجب وما نهى منتزعة من حب الله لعباده، وحبهم لله تعالى من حبه لهم أولاً، فالله سبحانه هو الذي بدأ فعّرف عباده بنفسه ودلّهم على طاعته وتحبّب إليهم على غناه عنهم. ويحلل المحاسبي **المحبة** نفسيا كعادته فيقول إن الحب لله هو الشوق إليه، والشوق تذكار للقلوب بمشاهدة المعشوق، لأن المحب لا يشتاق إلا إلى حبيب، فلا فرق بين الحب والشوق. **وعلامات الحب** على المحبين تظهر على أبدانهم وفي ألفاظهم، والمحب يُعرف بأخلاقه وما يُجربه الله على لسانه بحسن الدلالة عليه وما يوحيه إلى قلبه. والمحبة أصلها في القلب وفرعها في اللسان. وأظهر **شواهد المحبة**

لله شدة النحول بدوام التفكير فى الله وطول السهر فى ذكره والقيام له وسخاء النفس فى الطاعة والمبادرة. **والنطق بالمحبة** على قدر ما فى القلب منها، ولذلك قيل علامة المحبة لله تمكنها فى قلب المحب وظهورها على لسانه. والحب لله استنارة للقلب بالفرح لقربه من حبيبه، فيستلذ الخلوة بذكر الحبيب، ويحل الأنس بالقلب لله فيستثقل كل أحد سوى الله، فإذا ألف الخلوة بمناجاة حبيبه استغرقت حلاوة المناجاة العقل كله حتى لا يقدر أن يستوعب ما سوى الله. وسألوا المحاسبى: فكيف نستعين على الطاعة؟ فقال بذكر حبيب العابدين فإنكم لو سفيتم من حبه ﷺ مثلما ذاق غيركم لتحصلت الراحة وتقضّت الهموم. والمحاسبى يجعل الحب والبغض فى الله أعظم ثواباً من الزهد فى الدنيا. ويسبق المحاسبى الجنيد حيث يشرح التوحيد بإفراد تجريد الحق، وهو الاصطلاح الذى اشتهر عن الجنيد، وهو ينقله عن المحاسبى فى وصفه لأهل التحقيق والإيمان أى الصوفية فيقول إنهم الذين جعلهم الحق أهلاً لتوحيده وإفراد تجريده، والذابين عن ادعاء إدراك تحديده، مصطنعين لنفسه، مصنوعين على عينه، ألقى عليهم محبة منه له.

ويرسم المحاسبى **الطريق النفسانى للنجاة بالتوبة**، ويقسم الناس بإزائها إلى منازل ثلاث، فمن نشأ على الخير وأتى الزلة فمحنته أخف لطهارة قلبه فيعود لرعاية حقوق الله فى نفسه، **والثانى** التائب بعد الصبوة، وهو الراجع إلى الله بعد جهالة والنادم على ما سلف منه، **والثالث** المصرّ على الذنب، وهو المقيم على السيئة فهو محتاج إلى ما يحل به إصراره من نفسه ليتوب إلى ربه ويلحق بصاحبيه السابقين، ويبعثه على ترك الإصرار الخوف والرجاء. ونظرية المحاسبى فى **الخير** كأنه ليس مفهوماً يفرض نفسه على العبد بالتفكير والتجريد، ولكنه الخير كما يحدده الدين. **والرياء** يحبط عمل الخير، والرياء هو القيام بالخير بإرادة محمدة الناس وليس ابتغاءً لوجه الله تعالى. وأعظم المرائين فى نظرية المحاسبى هو من يراءى بالإيمان ويعتقد التكذيب مع ذلك ويضمر الشك. والشر من النفس وعلاجه بالزهد واتقاء أصحاب السوء. ومن آفات النفس العُجب والكبر والغرة والحسد، ويصف المحاسبى العلاج منها بتصحيح الباطن فيجلو الظاهر. والعمل الصالح خيره ما كان مراقبة للنفس ومطالعة للغيب وذلك أشرف من العمل بحركات الجوارح. ومجاهدة الباطن تورث الهداية، والعلم بالنفس يورث الخوف من الله ومن المعصية كما يورث الزهد فى الدنيا. والمعرفة بالله تورث الإنابة. وحسن الخلق هو الغاية من كل سلوك، وهو ما ينبغى أن يكون هدف المريد ومنهجه اليومى. ونظرية المحاسبى فى **التصوف** أن الله تعالى أوجب التوكل كما أوجب السعى

للرزق الضرورى للحياة على أساس من الورع الذى هو مجابة كل ما يكره الله . والورع يُنال بالمحاسبة ، والزهد أعلى منه ، ودواعه أن الدنيا لا قيمة لها وأن الأولى أن نتحقق منها بالأقل من الكفاية . ومن وهبه الله التفويض زالت همومه واطمأنت نفسه ، ومن توكل على الله ووثق به نال الرضا وهو نعمة سبغها الله على من يحبه من عباده . ورجاء المحبين فى الله استدامة طاعته . ومن رأى الهجويرى فى كتابه كشف المحجوب أن **الرضا هو خصيصة مذهب المحاسبى**، وأن المحاسبى يعتبره من جملة الأحوال وليس من جملة المقامات ، والفرق فى ذلك أن المقام من جملة الأعمال أى أنه أمر اكتسابى واجتهادى ، وأما الحال فهو معنى يتصل بالسالك من جانب الحق من غير أن يستطيع دفع ذلك الحال بالسعى والمجاهدة عند حلوله . وصاحب المقام قائم بمجاهداته فى حين أن صاحب الحال فان عن نفسه . وظهور الحال لطف إلهى ينعكس فى قلب السالك . وقد أجاز المحاسبى دوام الحال ولم يجز ذلك الجنيد ، لأن الأحوال كالبروق تظهر للحظة ولا تدوم . وكان صوفية إيران ومنهم الهجويرى يعدون الرضا من المقامات بينما يعده صوفية العراق من الأحوال .

■ ■ ■

محمود (عبد الحليم)

الشيخ الإمام له المصنفات الكثيرة فى التصوف ، فقد انصرف بهمته وبعلمه للدعوة إليه ، وكان له المريدون من أهل العلم الذين حققوا الكثير من كتب التراث فيه . ومن آثاره **التصوف عند ابن سينا ، والتصوف الإسلامى ، والحارث المحاسبى ، وأبو مدين الغوث ، والشبلى ، وأحمد البدوى ، وقضية التصوف** ، وللشيخ نحو من العشرين كتاب فى التصوف ورجاله ، وفى الفلسفة عموماً . وكان ميلاده سنة ١٩١٠م فى قرية السلام من قرى مركز بلبيس بمصر ، وكان أبوه أزهرياً فألحقه بالأزهر صغيراً وحصل على العالمية منه ثم الدكتوراه من جامعة السربون سنة ١٩٤٠ . والمدرج الفكرى للشيخ الإمام كله مجاهدات ، وقد توجه منذ البداية إلى التصوف ، وكانت رسالته للدكتوراه بإشراف المستشرق ماسينيون صاحب الدراسات المنيفة والأثر غير المنكور على دراسات التصوف الإسلامى ، وقد وجهه ماسينيون إلى دراسة الحارث المحاسبى . ويلخص الإمام مآخذ المنكرين على التصوف فى أربعة مواضع ، فالفقهاء يرون أن التصوف دخيل على الإسلام ، وأن الأدلة على وجود الله ووحدانيته وقدرته وإرادته فى القرآن ولا داعى لالتماسها فى متاهات التصوف ، وأن التصوف ليس فى

متناول الجميع فهو ارستوقراطية فكرية أو دينية لا يتمشى مع ديموقراطية الإسلام ، ولأنه ليس فى متناول الجميع فهو تكليف بما لا يطاق ،لا يطاق ، وأن التصوف فيه ضعف والإسلام قوة ؛ والعقليون ينتقدون التصوف لاحتقاره للعقل وهو هبة **الله** والوسيلة الوحيدة لليقين فى مجال الدين وكل مجال ، والقرآن يحث على استعمال العقل . ويرى الشيخ الإمام أن الاستدلال على وجود الله لا يحتاج فى نظر الصوفية إلى إعمال فكر ، وإنما الإنسان فى حاجة إلى ما يزيل القلق والشك من نفسه وعقله إزاء طائفة من القضايا والأسئلة مجالها ماوراء إثبات وجود الله ، والتصوف قد اتبع **طريق ثالث** إلى نوع من المعرفة ليس هو طريق الحس ، وليس هو طريق العقل ، ولا يستمد صراحة من الكتب النصّية ، وهو طريق البصيرة أو الرؤيا ، وهو طريق النبوة التى ليست المعرفة فيها حسية ولا عقلية ، وليست تجربة وليست منطقاً ولا استقراءً ولا قياساً ، ولكنها وحى من الله . **وطريق الصوفية** هو البصيرة ، **والمعرفة الصوفية** معرفة إلهامية ، ودليل صحتها كما يقول الإمام محمد عبده ظهور الأثر الصالح من الصوفية وسلامة أعمالهم مما يخالف الشريعة وطهارة فطرتهم مما ينكره العقل الصحيح . **والبصيرة** فى نظر الشيخ الإمام عبد الحليم محمود سبيلها تزكية النفس ، وهى وسيلة صعبة المرتقى . لا تتوفر إلا لقلة من السالكين ، ومن هنا كان اعتراض خصوم التصوف بأنه ارستوقراطى . وطبيعة التصوف تقتضى فعلاً أن يكون كذلك ، لأنه نظام **الصفوة المختارة** الذين وهبهم الله حساً مرهفاً ، وذكاء حاداً ، وفطرة روحانية ، وصفاء يكاد يقرب من صفاء الملائكة ، وطبيعة تكاد تكون مخلوقة من نور . وإذا كانت الديموقراطية معناها التساوى فى كل شىء فهى أسطورة من الأساطير ، لأن التساوى لا يوجد فى الطبيعة ، والله تعالى لم يسو بين الناس فى ألوانهم وقواهم الجسمية وذكائهم وأرزاقهم وحظوظهم . والتصوف فى أرستوقراطيته ينسجم مع طبيعة الأمور ومن ثم يتهافت الاعتراض الرخيص بأن التصوف لو شمل كل الناس لفسد العالم ، ذلك أن الناس جميعاً لا يمكن أن يصبحوا متصوفين ، ولا يدعو الصوفية الناس جميعاً أن يكونوا متصوفة ، فأهل الحق نادرون ، وهذه فكرة بديهية لا تحتاج إلى استفاضة ، غير أن الصوفية إذا كانوا لا يدعون الناس جميعاً إلى التصوف فإنهم يعملون جهدهم للوصول إلى **مجتمع أسمى تشيع بين جنباته الروحانية والرحمة والمحبة والناس فيه إخوان متعاونون** . والناس فى فهمهم للدين متفاوتون ، والرسول يقول إن مثل ما بعثنى الله من الهدى والعلم كمثل غيث أصاب أرضاً فكان منها طائفة طيبة قبلت الماء فأنبتت الكلأ والعشب الكثير ، وكان منها أجادب أمسك الماء فنفع الله تعالى بها الناس فشربوا منها وسقوا وزرعوا . وأصاب طائفة منها أخرى إنما هى قيعان

لا تمسك ماء ولا تنبت كلأ، فذلك مثل من فقه فى دين الله تعالى ونفعه ما بعثنى الله تعالى به، فعلم وعلّم، ومثل من لم يرفع بذلك رأساً ولم يقبل هدى الله الذى أُرسلت به. وكان التصوف دائماً **قوة**، ونفوس الصوفية عندهم هيّنة فى سبيل الله وكان الكثير منهم مرابطين. والتصوف **روحانية**، والروحانية قوة. والتصوف فيه **الجهاد الحربى والمجاهدة الروحية**، والمثل الأعلى للصوفية عن بكرة أبيهم إنما هو رسول الله ﷺ. والصوفية **أهل علم**، وكان الشيخ الأكبر محيي الدين بن عربى قمة من قمم العلم الشامخة، وكذلك كان الإمام الغزالى والجنيد والمحاسبى. وهم أيضاً **أهل عمل**، وألقاب الكثير منهم تدل على ذلك مثل القصّار والورّاق والخزّاز والخوّاص والبزّاز والحلاّج والزجّاجى والحُصرى والصيرفى والمقرىء والفرّاء، وكانت للشاذلى المزارع والثيران والتجارة. ويرى الشيخ الإمام عبد الحليم محمود أن لفظة التصوف تنتسب إلى ملبس **الصوف** الذى كان مظهر وشكل ورسم المتصوفة، وأن الاسم وضع لنمط من العزوف عن الدنيا، وكان لباسهم الصوف علامة الزاهدين والمتنسكين. والتصوف وإن كان زهداً إلا أنه فى حقيقته يتجاوز ذلك، فهو معرفة، بل **هو أسمى درجات المعرفة بعد النبوة، وهو مشاهدة وطريقة إلى المشاهدة.** وهذه المشاهدة التى هى غاية الصوفى تعبير عما ننطق به فى كل حين حينما نقول لا إله إلاّ الله. وطريق الصوفية إلى هذه المشاهدة هو **المقامات والأحوال**، والمقامات منازل روحية يمر بها السالك إلى الله ويقف فيها فترة مجاهداً فى إطارها. والأحوال سمات روحية تهب على السالك فتنتعش بها نفسه لحظات خاطفة. والطريق الصوفى يستند إلى مقياس يزن الصوفى به نفسه وهو الاقتداء برسول الله، والرسول هو الصورة الحية للقرآن. والصوفى الذى يقتدى بالرسول لابد أن تتوفر فيه شروط **ثلاثة**، أن يرجو الله، وأن يرجو اليوم الآخر، وأن يذكر الله كثيراً، فإذا توافرت فيه هذه الشروط فقد أصبح جديراً بالتأسى برسول الله، وأصبح من الذين يحبونه، فيحاول أن يقترب منه فيبدأ بالدخول فى النظام القرآنى وبعزم على التخلى عما هو ليس بقرآنى وذلك هو **التوبة**، وإذا صدقت التوبة استلزمت **الورع**، وهو أن يترك الإنسان كل ما فيه شُبهة. والورع يكون فى الحديث والقلب والعمل، ويقتضى **الزهد** وهو أساس الأحوال الرضية والمراتب السنية، والزهد يُسلم إلى **التوكل** وفيه الثقة بالله والتفويض إليه والتسليم له والاعتصام به ومحبته، **والمحبة لله** إذا صدقت كانت إيثاراً له فى جميع الأمور، فعلامة المحبة الموافقة للمحبوب، ويتبع **الرضا** المحبة، لأن المحب يرضى دائماً عن أعمال محبوبه، ومعنى الرضا أن يجهد المحب ليصل إلى ما يحب الله. والرضا آخر المقامات، ثم يقتضى من بعد ذلك أحوال

أرباب القلوب ومطالعة الغيوب وتهذيب الأسرار لصفاء الأذكار وحقائق الأحوال. ويرى الشيخ الإمام عبدالحليم محمود أن الكاتبين فى التصوف يخطئون إذ يقفون منه موقفهم من الثقافة الكسبية التى يتأتى فيها التأثر والتطور والتقليد، فاتجاه السالك إلى طريق التصوف له مؤثراته الداخلية النفسية، وقد يكون المتجه إلى التصوف قارئاً للأفلاطونية أو لا يكون، وقد يكون على علم بعقائد الهند أو لا يكون، فذلك لا يفيده فى أن يكون صوفياً لأن **التصوف لا يكتسب ولكنه ذوق ومشاهدة،** ولا يحتاج فى وجوده وتحققه إلى معارف مكتسبة سوى العقيدة الصحيحة. والتصوف فى الإنسان بالفطرة منذ أن وُجِدَ الإنسان، ولم يكن التصوف لذلك شيئاً أضيف إلى الدين الإسلامى وإنما هو جزء جوهرى من الدين. وترشد السُّنة النبوية إلى أن الشريعة والحقيقة كليهما طريق صحيح تعتمد على سلسلة تصل دائماً إلى النبى. **والتصوف الإسلامى يختلف عن مثيله المسيحى،** لأن الهدف فى التصوف الأول هو المعرفة بينما الهدف الثانى هو المحبة، وهناك **شروط** فى التصوف الإسلامى لا توجد فى التصوف المسيحى، وذلك أنه يُشترط التأثير الروحى أو البركة ولا تتأتى إلا بواسطة **شيخ،** وتنتقل سلسلة البركات من الشيخ إلى المريدين، والانتساب إلى السلسلة الصحيحة التى تتحصل عن طريقها البركة ضرورى لبلوغ **الولاية،** والولى إما يظل ولياً أو يختاره الله لرسالةٍ فيكون نبياً أو رسولاً. **والرسول** نبى ولكن رسالته عالمية، وهو رحمة للعالمين ومظهر الصفة الإلهية الرحمن، **والنبوة** بذلك أسمى من الولاية، ودرجة الرسول العالمية أسمى من درجة النبى المحدودة، ودرجة النبى المحدودة أسمى من درجة الولى الخاصة، ومقام الجميع القرب من الله تعالى. **والمعرفة فى التصوف** تسمو على كل معرفة فى نطاق المُحَسَّات، ومن ثم فهى لا تدخل فى نطاق العقليات، والله ليس كمثله شىء فكيف يُدرك بقياس أو بإنعام نظر، وعلم الكلام الذى لا يسير على نهج سلفى هو آراء من صنع البشر وبدعة وضلالة وعبث وانحراف عن سواء السبيل. والسبيل فى التصوف هو **التحنث،** وكان الرسول يتحنث فى غار حراء وينقطع للتأمل. وطريق الكشف أو الإلهام أو الوحى هو طريق **البصيرة والمشاهدة،** وسماه الصوفية **معارج القدس ومنازل السالكين ومدارج السالكين ومنازل الأرواح.** والصوفى يبدأ طريقه بالشك ولكنه **الشك الصوفى** الذى يتناول الحرام والحلال والطيب والخبيث والحسن والقبيح، ومن ثم تكون توبته وورعه وتزهده، ويكون شكه فى خلجات نفسه من دقائق الرياء ثم ينصرف من ذاته إلى الذات العليا فيستشعر الراحة ويمنحه الله من فيضه وتتحول خشيته من الله إلى محبة له ورؤية الله فى كل ناحية وجانب ومكان، وبذلك يكون

الصوفى فى تصفية ، ولا يزال يصفى الأوقات عن شوب الأكدار بتصفية قلبه عن شوب النفس .

وكانت حياة الشيخ الإمام عبدالحليم محمود حافلة كصوفى وداعية ومعلم ومُرَبٍّ وكرئيس للأزهر، وفى عهده تضاعف عدد المعاهد الأزهرية والكليات الجامعية . ولمّا انتقل إلى رحمة الله سنة ١٩٧٨م بكاه خلْق كثير وترحم عليه كل المخلصين والأبرار وقد عرفوه بكنية «أبو العارفين» وهو تعبيرهم عن صورته التى عرفوه بها فى مجال المقبلين على الله من طلاّب الحقائق والباحثين عن مشارق الأنوار وأسرار الغيوب ، وقد كانَ صورة صوفية غير مكررة بما يفيض من القيم وما يُفاض عليه من المواهب .

■ ■ ■

أبو مدين

شعيب بن الحسن الأندلسى التلمسانى (٥٢٠ ــ ٥٩٤هـ) الغوث والقطب وشيخ الطريقة ، وكان محيى الدين بن عربى يلقبه **بشيخ الشيوخ** ويعده واحداً من ثمانية عشر نفساً ظاهرين بأمر الله عن أمر الله ، لا يرون سوى الله فى الأكوان . وهو القائل :

الله قــل وذر الــوجــود ومـا حـوى   إن كـنـت مـرتـاداً بـصـدق مـراد

وكان يقول لأصحابه : أعلنوا بالطاعة حتى تكون كلمة الله هى العليا كما يعلن هؤلاء بالمعاصى ولا يستحيون من الله . وكان يقول فى قوله تعالى : فإذا فرغت فانصب ، وإلى ربك فارغب ، أى إذا فرغت من الأكوان فانصب قلبك لمشاهدة الرحمن ، وإلى ربك فارغب على الدوام ، وإذا دخلت فى عبادة فلا تحدث نفسك بالخروج منها وقل يا ليتها كانت القاضية . وكان يقول لهم : إياكم أن تميلوا إلى غير الله فيسلبكم لذة مناجاته . ويقول : الحضور مع الحق جنة ، والغيبة عنه نار ، والقرب منه لذة ، والبعد عنه حسرة ، والأنس به حياة ، والاستيحاش منه موت .

وأبو مدين ولد فى **قطنيانة من أعمال إشبيلية ،** وبدأ راعياً ولم يكن يعرف الصلاة ولا يحفظ القرآن ، ويرى النساك فى البرية يتعبدون ويصلون فأصابه من ذلك الغم ، وقويت عزيمته على الفرار ليتعلم القراءة والصلاة ، وسار إلى أن وصل إلى البحر ووجد خيمة خرج منها شيخ ، ولما علم بقصته نصحه بالسفر إلى الحاضرة حتى يتعلم العلم لأن الله تعالى لا يعبد إلا بالعلم ، وارتحل إلى فاس ولزم جامعها وتعلم ، وكان من

شيوخه **أبو الحسن بن حرزهم**، وتعلم الطريق على **الصوفى الكبير أبى يعزى**، وبعد عدة سنوات انتقل إلى مكة والتقى فيها بالشيخ **عبد القادر الجيلانى** واستمع إليه، ثم عاد واستقر فى **بجاية**، زاهداً ناسكاً حتى اشتهر بين الناس فقصدوه وتابعوه، وكانت تعاليمه تخالف تعاليم الفقهاء فشكوه إلى السلطان الذى توجس من نواياه لما رأى أتباعه قد كثروا، ولم يكن أبو مدين يخشى السلاطين والأمراء، فاعتماده على الله، ولسانه لا ينقطع عن ترديد عبارة **الله الحق**. ومن كلماته التى كان يبذرها بين أحبابه كالنبت الطيب: حياتى قائمة بالوحدانية، وإشاراتى إلى الفردانية، وروحى راسخ فى علم الغيب يقول إذا ظهر الحق لم يبق معه غيره، والحق ما بان عنه أحد من حيث العلم والقدرة، ولا اتصل به أحد من حيث الذات والصفات. وكلماته كلها مدارها الحق سبحانه، **فالإخلاص** عنده هو أن يغيب الحق فى مشاهدة الحق، **والتقوى** هى أن ترى الله تعالى فى كل أعمالك، **والتوكل** هو الاعتماد على الله فلا يغلب على ذكرك إلا الله، **والتصوف** هو التسليم لله، وحقيقته ألاّ تذكر ولا تشاهد سواه. وهو يقول:

الله ربــــى لا أريـــــد ســــواه   هــل فــى الـوجـود الحـى إلا الله
ذات الإلـــه بهـــا قـــوام ذواتـــنـــا   هـل كــان يـوجـد غـيـره لـولاه

وأبو مدين من الصوفية الذين يرف عدهم الوجدان فيرون المعانى فى الأشياء فيأتيهم الوجد أرسالاً من العبارات الموزونة التى مدارها الحكمة وقوامها التراكيب والألفاظ الجميلة. وقصيدته فى الصوفية التى يصفهم فيها بأنهم الفقراء ويقول فيها:

مـا لذة العيش إلا صحبة الفقراء   هـم الـسـلاطين والـسـادات والأمـرا
فـاصحبهـمـو وتأدب فى مجالسهم   وخـل حـظـك مـهما قـدمـوك ورا

إلى أن يقول:

يهوى التصوف من أخلاقهم طرفا   حُسـن الـتآلـف منهم راقنى نظرا
لازال شـمـلـى بهم فى الله مجتمعا   وذنـبـنـا فـيـه مـغـفـورا ومـغـتـفـراً
ثم الـصـلاة عـلـى المختـار سـيـدنا   محـمـد خير مـن أوفـى ومـن نـذرا

وهذه القصيدة هى التى أعجبت الشيخ الأكبر محيى ابن عربى فقام بتخميسها إرشاداً للسالكين فقال:

يـا طـالـبـا من لذاذات الدُنا وطرا   إذا أردت جمـيـع الخير فـيـك يُـرىَ

المستشارُ أمين فاسمع الخبرا ما لذة العيش إلا صحبة الفقرا
هم السلاطين والسادات والأمرا

ولأبي مدين تصانيف منها كتاب «**أس التوحيد**» و«**مفاتيح الغيب لإزالة الريب وستر العيب**». وقيل إنه تخرج على يديه أكثر من ألف تلميذ وكانت لكل منهم الكرامة والبركة، ولذلك يقال له شيخ **مشايخ الإسلام وإمام العباد والزهاد**. وكان يحب أن يلقى مواعظه عليهم بالأمثلة، ومن ذلك قوله لهم: جاء رجلان إلى أبى عبد الله التاودى يزورانه فأبصرا بين يديه هرّين جعل كل واحد منهما رأسه على الآخر، فقالا له: هكذا ينبغى أن تكون الأخوة، فأخذ التاودى لقمة خبز ورمى بها إليهما، فوثبا كل واحد منهما على الآخر ليأخذ اللقمة، فقال أبو عبد الله: هكذا كانت الأخوة حتى دخلت الدنيا فأفسدتها. وقال: من اشتغل بطلب الدنيا ابتلى فيها بالذل. والله سبحانه جعل قلوب أهل الدنيا محلاً للغفلة والوسواس، وقلوب العارفين محلاً للذكر والاستئناس. ومن لم يصلح لخدمته شغله الله تعالى بالدنيا، ومن لم يصلح لمعرفته شغله بالآخرة، والذى يظهر الحق معه لم يبق معه غيره، وكل فقير (صوفى) الأخذ أحب إليه من العطاء لم يشم للفقر (أى للتصوف) رائحة!

والطريق عند أبى مدين يبدأ بالتوبة ثم الإرادة: «طلب الإرادة قبل تصحيح التوبة غفلة». ومع التوبة تكون الطاعات: فمن يهمل الفرائض ضيّع نفسه. وبالمحاسبة يصل العبد إلى درجة المراقبة. ومن رأيته يدعى مع الله حالاً لا يكون على ظاهره شاهد منه فاحذره. وإحدى آفات التصوف هم هؤلاء الذين يدعون المقامات ويزعمون الكرامات ويتحدثون عن الدرجات السنية فى القرب، مع أنهم فى أداء الفروض مقصرون، وفى الذكر فاترون. والدعاوى من رعونة النفس، فاحذر صحبة المبتدعة إبقاء لدينك، واحذر صحبة النساء إبقاء على إيمان قلبك. وإذا أردت الصفا فالزم الوفا، فالمهل فى الأحوال لا يصلح لبساط الحق، والحق ما عرف من لم يؤثره. والحق تعالى مطلع على السرائر والضمائر فى كل نفس وحال، فأى قلب رآه مؤثراً له حفظه من الطوارىء والمحن ومُضّلات الفتن. وكل حقيقة لا تمحو أثر العبد ورسمه فليست بحقيقة. **والأساس فى التصوف** هو الزهد والاجتهاد.

ومن شعر أبى مدين فى الحب لله تعالى ورسوله ﷺ:

أهل المحبة بالمحبوب قد شغلوا وفى محبته أرواحهم بذلوا

وخـربـوا كـل مـا يغنـى وقد عمروا ... مـا كـان يبقـى فيـاحسن الذى عملوا
لم تـلـهـهـم زينـة الـدنيـا وزخرفهـا ... ولا جـنـاهـا ولا حـلـى ولا حـلل

ويقول :

إلـيك مـددت الكـف فـى كـل شـدة ... ومـنك وجـدت اللـطف فـى كل نائب
وأنـت مـلاذى والأنـام بمـعـزل ... وهل مستحيل فـى الرجـاء كواجب
وإنـى لأرجـو مـنـك مـا أنـت أهلـه ... وإن كـنـت خـطـاءً كـثير المعـائب
وَصَـلِّ عـلـى المختـار من آل هـاشـم ... شفيـع الـورى عـنـد اشتـداد الـنـوائـب

وعندما حضرته الوفاة كان آخر ما نطق به : **الله الحق . الله الحى .** وقبره فى العباد على مشارف تلمسان مزار عظيم ، ويلقبه الناس فيها « والى تلمسان » . رضى الله عنه وعنا .

■ ■ ■

مرجليوث Margoliouth

(١٨٥٨ ــ ١٩٤٠) انجليزى وكان استاذاً للعربية بجامعة أكسفورد ومن أشهر المستشرقين ، وله صلات وطيدة بكثير من أدباء العرب ، ومن آثاره فى التصوف **سيرة عبد القادر الجيلانى** (١٩٠٧) **وسير بعض الصوفية** (١٩١٣) .

■ ■ ■

المرصفى (على نور الدين)

من الراسخين فى العلم ، وكان فى أول أمره أميّا ، وله المؤلفات النافعة فى التصوف ، منها « **منهج السالك إلى أشرف المسالك** » اختصر به مقاصد السلوك من الرسالة القشيرية ، ومنها أيضاً « **أحسن التطلاب** » فى آداب المريد . وينسب إلى مرصفة ، وكانت وفاته بالقاهرة نحو سنة ٩٣٠ هـ ، ومن كلامه أن المريد إذا وقع منه شىء مذموم عند شيخه ، وهو محمود عند غيره ، فالواجب عليه عند أهل الطريق رجوعه إلى كلامه شيخه دون كلام غيره ، وإذا قيل له إن كلام شيخه معارض كلام العلماء فعليه بالرجوع أيضاً إلى كلام شيخه ، ويكون ذلك أحرى به خصوصاً إذا كان شيخه من الراسخين فى العلم ، فإذا خرج المريد عن حكم شيخه وقدح فيه ، فلا يجوز لأحد

تصديفه ، لأنه فى حالة تهمةٍ لارتداده عن طريق شيخه ومعرفته أن الناس تستنقصه حس يرون أن شيخه طرده ، فلا يجد متنفساً من ضيفه إلا الحط من شيخه والزود عن نفسه ، كأن يقول لو رأينا فيه خيرا ، يقصد الشيخ ، مافارقناه ، فيزكى نفسه ، وإذا أراد الله بمريد خيراً ، جمعه عند استحكام الخلاف بينه وبين شيخه ، على من يصالحه عليه فيرجع إليه . وإذا خرج المريد عن حكم شيخه ، وانقطع عن مجلسه حياءً من الشيخ أو من جماعته ، أو لزلة وقع فيها ، أو فترة حصلت منه ، فهو كالطلاق الرجعى للشيخ أن يقبله إذا رجع ، لأن معنى رجوعه أنه ماتزال عنده للشيخ حرمة ، لاسيما أن المريد فى هذه الفترة ، أو هذا الاعوجاج ، أحوج مايكون للشيخ ، فينبغى على الشيخ التلطف به . ولا يجوز للمريد أن يسأل شيخه عن سبب هجره أو غيظه ، ولا يجوز له أن يجيب عن نفسه لو اتهمه شيخه بذنب ، لأن الشيخ يرى مالا يرى المريد .

■ ■ ■

إبن مسرّة

أبو عبدالله بن عبدالله بن مسرة (٢٦٩ ـ ٣١٩هـ) أندلسى صاحب طريقة وتعاليم فى التصوف أساسها **وحدة الوجود** ، وقيل إنه **إسماعيلى أو إشراقى** ، وكانت مدرسته تخلط التعاليم الإشراقية بفلسفة أنباذ وقليس ، واتخذ لنفسه منعزلاً على مشارف قرطبة يجتمع فيه بمريديه ويمارس شعائر طريقته ويفرض على نفسه وعليهم القواعد التى أرادها لطريقته . وللمستشرق الأسبانى **أسين بلاثيوس** دراسة فى فلسفة التصوف عند ابن مسرة ، ويعتبره من فلاسفة المتصوفة والأصل لكل المدارس التى تلته والتى قالت بوحدة الوجود وبتعاليم الإشراق ، وكانت لتعاليمه الاستمرارية من خلال **ابن العريف وابن عربى** إلى أن أثرت على الفكر الأوروبى عند **روجر بيكون** الفيلسوف ، **وريموندو لوليو** المتصوف ، ثم **دانتى** الشاعر فى الكوميديا الإلهية . وقيل إن ابن مسرة قد حرص على أن لاتقع تعاليمه فى أيدى غير اتباعه ، وأنه التزم فيها السرّية ، غير أن له كتاباً يسمى **توحيد الموقنين** قيل إنه يتكلم فيه عن الصفات الإلهية ووحدتها وتناهيها . ولايوجد عن حياته مانعوّل عليه سوى الشذرات التى كتبها **ابن حزم القرطبى وسعيد الطليطلى** عن الخصائص العامة لفكره . وقد شاع بين الناس برغم السرية التى فرضها على تعاليمه أنه يؤصل مذهبه على عقيدة المعتزلة فى الإرادة الحرة ، وعنده أن علم الله وقدرته صفتان وقتيتان ومخلوقتان ، وأن معرفته بالكليات ولا تحيط

بالجزئيات الحادثة إلا بقدر تحققها فى الزمان، وأن الأفعال الإنسانية لا دخل لقدرة الله فيها، لأن أمرها موكول بالإنسان، والعقاب والثواب ليس مكانهما النار والجنة على الحقيقة بل على المجاز، فالنفوس بمقتضى الأفعال تنقلب إلى منقلبات يكون فيها تطهيرها من أدرانها فى هذا العالم ليكتب لها الخلاص، ومن ثم فالجحيم والنعيم لا يمكن أن يكونا على الدوام، وخلاصها يكون بعودتها إلى العالم الروحانى الذى فاضت منه أصلاً، وطريقة الخلاص تكون بمحاسبة النفس حساباً يومياً يكون به تطهرها ونقاؤها، والمحاسبة ترقى بها فى مدارج المقامات الصوفية، ويتحصل بها العلم بالذات، ومتى تحصل العلم بالذات فقد حصلت الذات، وكذلك جميع الذوات المفارقة للمادة بتلك الذات الحقة، والتى نراها كثيرة فتصير عند الصوفى العابد بهذا الظن شيئاً واحداً، والتعود والكثرة أمران اقتضتهما الحواس الظاهرة وقصور العقل عن إدراك الوحدة الذاتية للأشياء أو مجموعها كمجموع، والوجود من ثم حقيقة واحدة. وقد وقع الناس فى كرب عظيم بسبب هذه التعاليم، وكانت لابن مسرة تأويلات لآيات القرآن، وجرت مساجلات حول حقيقة ما يقول ومقصوده مما قال، وما أوقع الناس فى اللبس حول مذهبه التناقض الذى عليه أفكاره فى جانبها الميتافزيقى وتطبيقاتها الأخلاقية، فاتهم بالزندقة، وخرج فاراً من قرطبة إلى إفريقيا واتجه إلى مكة، ولما تولى عبد الرحمن الثالث عاد إلى قرطبة واستأنف بث تعاليمه إلى أن توفى، وقيل كانت وفاته للإرهاق الذى ترتب على تنسكه الشديد، وقيامه على التدريس والجدل مع خصومه، وقد تناولوا مسائله بالرد عليها وخاصة تأويلاته للقرآن. وفى تاريخ قضاة الأندلس أن ابن زَرْب القاضى (المتوفى سنة ٣٨١ هـ) تتبع أصحاب ابن مسرة لاستتابة من يعتقد مذهبه، وأحرق ما وجد عندهم من كتبه، ووضع كتاب **«الرد على ابن مسرة»** فى نقض آرائه. ومن الذى تأثروا به فى الأندلس اسماعيل الرعينى تلميذه المتوفى سنة ٤٥٦ هـ، وأبو بكر الميورقى وابن برجان وابن قسى، وكان من نصيبهم جميعاً أن خلطوا تصوفهم بالفلسفة الإشراقية أو الحكمة الأنباذوقلية.

■ ■ ■

إبن مشيش

القطب الأكبر عبد السلام بن مشيش له المقام العلى فى المغرب، قيل هو كالشافعى فى مصر، **وطريقته** قوامها الإخلاص، يقول: «فاعبد الله مخلصاً له الدين ـ ألا لله الدين الخالص». والعارف لا تنقصه حظوظ نفسه لأنه بالله تعالى فيما يأخذ

ويترك ، والصوفى يرى نفسه حسب ما هو فى علم الله ، لا يختار من الأمر شيئاً ، ويختار أن لا يختار، وربك يخلق مايشاء ويختار ما كان لهم الخيرة. وكل مختارات الشرع وترتيباته فهى مختار الله ليس لك منه شيء، فاسمع وأطع، وهدا موضع الفقه الربانى والعلم الإلهى. وابن مشيش هو **استاذ أبى الحسن الشاذلى** وهو ينقل عنه ويقول أوصانى استاذى، ومن ذلك تلك العبارة الموجزة والمتضمنة للمذهب كله: حدد بصر الإيمان تجد الله فى كل شيء، وعند كل شيء، ومع كل شيء، وفوق كل شيء، وقريباً من كل شيء، ومحيطاً بكل شيء.. وامحو الكل بوصفه الأول والآخر والظاهر والباطن. كان الله ولا شيء معه. والزم الطهارة من الشرك، كلما أحدثت تطهرت من دنس حب الدنيا، وكلما ملت إلى الشهوة أصلحت بالتوبة ما أفسدت بالهوى. وعليك بمحبة الله على التوقير والنزاهة، وأدمن الشرب بكأسها مع السكر والصحو، وكلما أفقت أو تيقظت شربت حتى يكون سكرك وصحوك به، وحتى تغيب بجماله عن المحبة وعن الشراب والشرب والكأس بما يبدو لك من نور جماله وقدس كمال جلاله. وأما الشرب فهو سقيا القلب، وأما الكأس فهو معرفة الحق. وإن أردت أن لا يصدأ لك قلب، ولا يلحقك هم ولا كرب، ولا يبقى عليك ذنب فأكثر من قول سبحان الله وبحمده، سبحان الله العظيم، لا إله إلا هو، اللهم ثبت علمها فى قلبى واغفر لى ذنبى. وإن أردت الصدق فى القول فأكثر من قراءة إنا أنزلناه فى ليلة القدر، وإن أردت الإخلاص فى جميع أحوالك فأكثر من قراءة قل هو الله أحد. ومصدر ذلك كله صدق الورع وحسن النية وإخلاص العمل ومحبة العلم، فإن أردت أن تكون مرتبطاً بالحق فتبرأ من نفسك واخرج عن حولك وقوتك وأسقط الخلق من قلبك، ولا تسرف بترك الدنيا، وإذا توجهت لشيء من عمل الدنيا فقل ياقوى ياعزيز، ياعليم ياقدير، ياسميع يابصير، وإذا ورد عليك المزيد من الدنيا فقل حسبنا الله، سيؤتينا الله من فضله ورسوله إنا إلى الله راغبون ».

ولابن مشيش **رسالة الصلاة المشيشية** تناولها الكثيرون بالشرح كأبى العباس الكتانى فى كتابه الحلل العبقرية على الصلاة المشيشية. ولأبى محمد عبدالله بن محمد الوراق رسالة فى مناقب ابن مشيش. وكان يقول إن كنت مؤمناً فاتخذ الكل عدوا كما قال إبراهيم عليه السلام «فإنهم عدو لى إلا رب العالمين»، وقد قتله أحد هؤلاء ويدعى ابن أبى الطواجن الكتامى على يد جماعة بعث بهم. وكان استشهاده سنة ٦٢٢ هـ.

■ ■ ■

معروف الكَرْخي

من جلّة مشايخ العراق الذين يُذكرون بالورع والفتوة ، واسمه أبو محفوظ معروف بن فيروز أو ابن الفيرزان ، كان نصرانياً من موالى علىّ بن موسى الرضا فأسلم وهو طفل على يديه ، واضطر أبواه أن يسلما لمّا شاهدا منه الإصرار على الإسلام أو هجرهما . وقد اشتغل حاجباً لعلىّ بن موسى الرضا طوال حياته ، إلى أن ازدحمت الشيعة على باب علىّ يوماً فانكسرت ضلوع معروف فى الزحام ومات سنة ٢٠٠ هـ ، وقبره بظاهر بغداد تبرك به ، وكان معروف مستجاب الدعوة حتى أنه قال يوماً **لسرى السقطى** تلميذه : إذا كانت لك حاجة إلى الله فأقسم عليه بى . والحكايات الكثيرة تروى عن إجابة الله تعالى لدعائه . واسم **الكرخى** نسبة إلى الكرخ إحدى قرى بغداد حيث نشأ معروف . وقد صحب **داود الطائى** فقال له أصحابه وهو طفل : إياك أن تترك العمل فإنه الذى يقربك إلى مولاك ، وسألهم أى عمل ، فقالوا : دوام الطاعة لله وخدمة المسلمين والنصح لهم . وقد ظلت هذه حاله حتى مات فكان من أفضل المشايخ تعليماً للمريدين . **ومن كلامه :** إذا أراد الله بعبد خيراً فتح له باب العمل وأغلق عليه باب الكسل ، وقيل وأغلق عليه باب الجدل . وكان الكرخى يعاتب نفسه دوماً ويقول : يا مسكين ، كم تبكى وكم تندب . أخلِصْ تَخْلُصْ . وقيل له فى مرض موته : أوص ، **فقال :** إذا مت فتصدقوا بقميصى فإنى أريد أن أخرج من الدنيا عريانا كما دخلتها عريانا كما دخلتها عريانا . ولما مات حلم به **سرى السقطى** كأنه تحت العرش ، فيقول عز وجل للملائكته من هذا ، فيقولون أنت أعلم يارب ، فيقول هذا معروف الكرخى ، سكر من حُبى فلا يفيق إلا بلقائى . وسألوه فى منام آخر : ماذا فعل الله بك ، فقال : غفرلى ، فسألوه : بزهدك وورعك ؟ قال : لا ، بقبولى موعظة **ابن السمّاك** ، ولزوم الفقر ومحبتى للفقراء . ويقول معروف عن موعظة ابن السمّاك ، أنه كان مارا فسمع رجلاً يقال له ابن السمّاك يعظ الناس ويقول ضمن ماقال : من أقبل على الله بقلبه أقبل الله برحمته إليه ، وأقبل بجميع وجوه الخلق إليه ، ومن أعرض عن الله بكليته أعرض الله عنه جملة ، ومن كان مرة ومرة فالله يرحمه وقتاً ما . ويقول معروف : فوقع كلامه فى قلبى ، فأقبلت على الله تعالى وتركت جميع ما كنت عليه إلا خدمة مولاى علىّ بن موسى الرضا . وذكرت ذلك لمولاى فقال يكفيك بها موعظة إنْ اتعظت !! **ومن كلامه :** ما أكثر الصالحين وأقل الصادقين فى الصالحين . وطلب منه أحد تلاميذه أن يوصيه ، **فقال :** توكل على الله حتى يكون هو معلمك ومؤنسك وموضع شكواك ، فإن الناس لا ينفعونك

ولا يضرونك . **وقال :** غضّوا أبصاركم ولو عن شاة أنثى . **وقال :** علامة مقت الله للعبد أن يراه مشتغلاً بما لا يعنيه من أمر نفسه . وقال : طلب الجنة بلا عمل ذنب ، وانتظار الشفاعة بلا سبب نوع من الغرور ، وارتجاء رحمة من لا يطاع جهل وحمق . وسألوه عن الطائعين فى الله ، بأى شىء قدروا على الطاعة ، **فقال :** بإخراج الدنيا عن قلوبهم ، ولو كان منها شىء فى قلوبهم ما صحت لهم سجدة . **وسئل :** بما تخرج الدنيا من القلب ، **قال :** بصفاء الود وحُسن المعاملة . وسُئل عن **المحبة** فقال : المحبة ليست من تعليم الخلق ، إنما هى من مواهب الحق وفضله . **وقال :** الفتيان علامات ثلاث : وفاء بلا خلاف ، ومدح بلا جود ، وعطاء بلا سؤال . **وسئل :** ما علامة الأولياء فأجاب : ثلاث ، همومهم بالله ، وشغلهم فيه ، وفرارهم إليه . وقال : ليس للعارف نعمة ، وهو فى كل نعمة . وقال : قلوب الطاهرين تشرح بالتقوى وتزهر بالبر ، وقلوب الفجّار تظلّم بالفجور وتعمى بسوء النية . ومن إنشاداته :

الماء يغسل ما بالثوب من درن   وليس يغسل قلب المذنب الماء

■ ■ ■

إبن مُفْلح

شمس الدين محمد بن مفلح (٧٠٨ ــ ٧٦٣ هـ) قال فيه ابن القيم أنه ما تحت قبة الفلك أعلم بمذهب الإمام أحمد من ابن مفلح . وهو من تلاميذ ابن تيمية ، وكان يقول له ما أنت ابن مفلح بل أنت مفلح . وكانت ولادته ونشأته ببيت المقدس ، ووفاته بصالحية دمشق ، واشتهر بكتبه الثلاثة فى قواعد السلوك والآداب ، وهى **الآداب الشرعية الكبرى ، والوسطى ، والصغرى ،** وتشتمل على جملة كثيرة من الآداب الشرعية والمنح المرعية **مما يحتاج إلى معرفته أو معرفة كثير منه كل عالم أو عابد وكل مسلم ،** وقد حرص فيها على نقل آراء السابقين فى قواعد السلوك . ويحرم ابن مفلح النظر فيما يمكن أن يستجلب به الضلال ، أو يكون به التردى فى الشك والشبهة ، من أمثال كتب أهل الكلام والبدع المضلة **كالصوفية ،** ويقول إنه ليس أضّل من المتكلمين والصوفية ، والأولون إفسادهم للعقول بالشبهات ، **والآخرون إفسادهم للأعمال ،** ويقول إنه خير الطريقين ، وأن غاية الأولين الشك ، **وغاية الآخرين الشطح ،** والمتكلمون عنده خير من الصوفية ، لأن المتكلمين قد يردون الشك ، ولكن

الصوفية **يوهمون التشبيه والإشكال**. ويحذر من الثقة بهؤلاء وهؤلاء، فإنما الثقة تكون بمن «يحدثون عن الله فما أحدثوا، وعولوا على ماروووا وليس على ما رأوا». ونقده للتصوف من كراهيته للكلام فى الخطرات والوساوس، وحضه على التمسك بكتب الأثر. ويعارض الصوفية الذين يتمايلون ويصيحون فقد كان الرسول والصحابة تفيض دموعهم وتقشعر جلودهم وتلين قلوبهم لذكر الله، ولم يحدث فيهم صعق أو غشيان، وعلى الرغم من أن الصعق والغشيان حدث لغير واحد من التابعين فإن الصحابة أفضل منهم لقوتهم وكمالهم، وأما ماحدث بعد ذلك لغير التابعين فإن الصادق منهم عظيم القدر بسبب حضور قلبه الحى وعلمه لمعنى المسموع وتقديره. وتنهى الشريعة عن تحريك الطباع بالرعوبات، وتمنع دق الطبول والندب والنياحة والمرح وجو الخيلاء، فعلمنا أن الشرع يريد الوقار دون الخلاعة، فما بال الوجد وتخريق الثياب والصعق والتماوت مع هؤلاء المتصوفة؟

ويرى ابن مفلح أن القلوب تضعف وتمرض وربما ماتت من الغفلة والذنوب، وعلاجها ليس بالتصوف وإنما بالزهد من طريق السُنة، ويعرفه بأنه الإياس مما فى يدى الناس، والدعاء لله فإن القلوب تحيا وتقوى وتصح بالتوحيد واليقظة، والذنوب تنكت فى القلب حتى يبقى أسود، ومخالفة النفس تمنع عن الذنوب، والصلاة والمجاهدة وسائر أنواع الرياضات تقوى البدن والنفس كتقويتها بالتعلم والتأدب والصبر والسماحة وحب الخير، فتحصل للنفس القوة والانشراح، والجهاد أقوى من هذا المعنى وأولى.

■ ■ ■

المقريزى

أحمد بن على بن عبدالقادر (٧٦٦ ـــ ٨٤٥ هـ). قيل نسبته المقريزى **لحارة المقارزة** فى بعلبك، وله «**المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار**» ويُعرف **بخطط المقريزى** ويؤرخ فيه للديار المصرية، ويفرد فيه أبواباً فى أحوال الصوفية بمصر فى زمنه، وما لهم من رُبُط وخانقاوات وزوايا، ويلقى الضوء على مكانة التصوف عند المصريين، وأجناس المتصوفة وطريقة معيشتهم والنُظم والقواعد التى يأخذون أنفسهم بها، ومعاملاتهم مع السلطة والشعب. ويقول فى باب ماذاع عن تعاطى الصوفية للمخدرات تحت عنوان **ذكر حشيشة الفقراء** ـــ ويقصد بالفقراء الصوفية ـــ أن مشايخ الصوفية فى

خراسان من إيران كانوا أول من اكتشف التأثير المبهج للحشيش وأنه يقلل من الشهية للطعام فيساعد على الصيام، ويمنع التهيج الجنسى فيصون الصوفى عن الرذيلة، ويقول: **إن بداية هذا الاكتشاف سنة ٦٥٨ هـ**، وأن الصوفية تعاهدوا فيما بينهم أن لا يطلعوا العامة على نبات القنب ومفعوله، فقد خص الله الصوفية به، ولم تزل الحشيشة ذائعة فى إيران ولا يعرفها أهل العراق حتى وفد عليهم هرمز فاشتهرت هناك. والفقراء، أى الصوفية، يقصدون فى استعمال هذا المخدر، مع ما يجدون من اللذة، تجفيفاً للمنى، وفى إبطاله قطع لشهوة الجماع كى لا تميل نفوسهم إلى ما يوقع فى الزنا. ويقول المقريزى: إن انتشار الحشيشة كان من الصوفية إلى غيرهم، ولهذا السبب غلبت السفالة على الأخلاق، وارتفع ستر الحياء والحشمة من بين الناس، وجهروا بالسوء من القول، وتفاخروا بالمعايب.

ويقول المقريزى: إن «**الخونقاه أو الخانكاه**»، أى الموضع الذى يأكل فيه الملك، حدثت فى الإسلام فى حدود الأربعمائة من سنى الهجرة، وجعلت لتخلى الصوفية للعبادة. وبعد أن يتحدث المقريزى فى أصل كلمة صوفى وأركان التصوف عند السلف يعلق قائلاً: ثم تدهور الآن حال الصوفية ومشايخها حتى صاروا من سقط المتاع، فلا ينسبون إلى علم ولا ديانة، وإلى الله المشتكى! ويذكر المقريزى بعض أو أشهر هذه الخانقاوات، ومنها **دار سعيد السعداء وكانت أول دار تعرف فى الدولة الفاطمية**. وسعيد هذا هو الاستاذ قنبر ولقبه سعيد السعداء، وكان من عتقاء المستنصر وقتل سنة ٥٤٤ هـ، فسكن داره الوزير رزيك ثم شاور، فلما ولى صلاح الدين الأيوبى جعلها برسم فقراء الصوفية **الواردين من البلاد الشاسعة، وبقصد الأجانب عن مصر**، وَوَقفَها عليهم سنة ٥٦٩ هـ، وولّى عليهم شيخاً ووقف عليهم أوقافاً، وشرط أن من مات من الصوفية وترك عشرين ديناراً فما دونها تكون للفقراء، ومن أراد منهم السفر يعطى أجرة السفر، ورتّب للصوفية فى كل يوم طعاماً ولحماً وخبزاً، وبنى لهم حماماً بجوارهم، فكانت أول خانقاه عملت بديار مصر وعرفت **بدويرة الصوفية**، ونُعت شيخُها بشيخ الشيوخ، واستمر ذلك إلى أن كانت الحوادث والمحن واتضعت الأحوال وتلاشت الرتب، فلقب كل شيخ خانقاه بشيخ الشيوخ. وكان سكانها من الصوفية يعرفون بالعلم والصلاح، وترجى بركتهم، وولى مشيختها الأكابر والأعيان، كأولاد شيخ الشيوخ بن حمويه، مع ما كان لهم من الوزارة والإمارة وتدبير الدولة وقيادة الجيوش وتقدمة العساكر. ووليها ذو الرياستين الوزير الصاحب، وقاضى القضاة تقى الدين عبد الرحمن، وجماعة من الأعيان، ونزل بها الأكابر من الصوفية. وكان الناس يأتون

من مصر إلى القاهرة يوم الجمعة ليشاهدوا صوفية خانقاه سعيد السعداء عندما يتوجهون إلى صلاة الجمعة بالجامع الحاكمى كى تحصل لهم البركة والخير بمشاهدتهم. وكان لهم فى يوم الجمعة هيئة فاضلة، فيخرج شيخ الخانقاه وبين يديه خدّام الربعة الشريفة، والصوفية خلفه يمشون فى سكون وخفر إلى باب الجامع فيكون هذا من أجمل عوايد القاهرة.

وكان عدد الصوفية النازلين بخانقاه سعيد السعداء نحو الثلاثمئة رجل، لكل منهم فى اليوم ثلاثة أرغفة فى العادة، زنتها ثلاثة أرطال، وقطعة لحم زنتها ثلث رطل فى مرق، وتعمل لهم الحلوى كل شهر، ويفرق عليهم الصابون، ويعطى كل منهم ثمن كسوة كل سنة مقداره أربعون درهماً. ولما اضطربت أحوال الدولة الاقتصادية رأى المختصون إغلاق مطبخ الخانقاه وإبطال الطعام فلم تحتمل الصوفية وتكررت شكاواهم.

ومن الخانقاوات المشهورة أيضاً **خانقاه الظاهر بيبرس**، وكانت أجّل خانقاه بالقاهرة بنيانا، وأوسعها مقداراً، وأتقنها صنعة، بناها بيبرس وهو أمير، وبنى إلى جوارها رباطاً كبيراً وجعل بجانبها قبة بها قبره، وقرر بالخانقاه أربعمائة صوفى، وبالرباط مائة من الجند وأبناء الناس الذين قعد بهم الوقت، وجعل بها مطبخاً يفرق على كل منهم فى كل يوم اللحم والطعام، وثلاثة أرغفة من خبز البُر، وجعل لهم الحلوى، ورتب بالقبة درساً للحديث النبوى له مدرس، وعنده عدة من المحدثين، ورتب القرّاء يتناوبون القراءة بالليل وبالنهار، ووقف عليها الأوقاف، فلما خلع من السلطنة عُطلت عشرين سنة ثم فتحت من جديد، ثم من بعد ذلك عُطل المطبخ بسبب الضائقة الاقتصادية واستمر الخبز ومبلغ سبعة دراهم لكل صوفى فى الشهر بدل طعام، ثم زيد المبلغ إلى عشرة دراهم، ثم لما قصر مد النيل بطل الخبز وأغلق المخبز من الخانقاه، وصار الصوفية يأخذون فى كل شهر مبلغاً من المال. ويقول المقريزى أنه حضر الخانقاه وكانت لها مهابة، وقد ذهبت تلك المهابة ونزل بها الصغار والأساكفة والعامة. ويذكر المقريزى من الخانقاوات الأخرى **خانقاه سرياقوس بسماسم سرياقوس**، وكانت معالمها من أسنى المعالم بديار مصر، ويصرف فيها لكل صوفى رطل لحم من الضأن فى طعم شهى، ومن الخبز النقى أربعة أرطال، ويصرف له فى كل شهر مبلغ أربعين درهماً فضة، ورطل حلوى، ورطلان زيتا من زيت الزيتون، ومثل ذلك من الصابون، ويصرف له ثمن كسوة كل سنة، وتوسعة فى كل رمضان، وفى العيدين، وفى مواسم رجب وشعبان وعاشوراء، وكلما قدمت فاكهة يصرف له

مبلغ لشرائها. وفى الخانفاه خزانة بها السكر والأشربة والأدوية، وبالخانقاه الجرائحى والكحال ومصلح الشعر. وفى كل رمضان يفرق على الصوفية كيزان لشرب الماء، وتبيّض لهم قدورهم النحاس، ويعطون حتى الأشنان لغسل الأيدى من وضر اللحم. وبالحمام حلاق لتدليك أبدانهم وحلق رءوسهم، فكان المنقطع بها لا يحتاج لشىء غيرها ويتفرغ للعبادة، ثم استجد بها بعد سنة تسعين وسبعمائة **حمام آخر برسم النساء**، ثم تدهور الحال فصار بصرف لهم مبلغ من المال كمقابل للطعام. وأقول فأين ذلك كله من أحوال الصوفية الأوائل الذين اشتهروا بالزهد وفلسموا الجوع والسهر، فلا عجب أن يتوافد الصوفية على مصر من كل بلاد الإسلام، ويعيشون فى هذه الخانقاوات عيشة الترف، وفد قيل إن الشيخ المغربى لما وفد إلى مصر نزل بها وبصحبته خمسمائة من الصوفية!! ويقول المقريزى إنه سمع عن أحدهم كان ينام بالأربعين بوماً بلياليها فلا يستيقظ البتة!!

ومن الخانقاوات المشهورة أيضاً **خانقاه أرسلان** وأول من ولى مشيختها محمد بن جعفر جد الشيخ عبد الرحيم الفنائى. وعن الرُبُط يذكر المقريزى أنها بيوت الصوفية ومنازلهم، ولكل قوم دار، **والــرباط** هو دار الصوفية، وقد شابهوا أهل الصفّة فى ذلك، ومن أشهرها **رباط الصاحب** وكان يسكنه عشرة من الفقراء المجردين غير المتأهلين. والربط يمكن أن تكون للنساء المتصوفة كما هى الرجال، وقد علمنا أنهم أضافوا حماماً للنساء بخانقاه سرياقوس حيث يكون من الممكن أن جزءاً من هذه الخانقاه كان للنساء. ومنها أيضاً **رباط البغدادية** الذى بنته جليلة ابنة الملك الظاهر بيبرس فى مواجهة خانقاه أبيها ـ خانقاه بيبرس، وخصصته لسكنى الشيخة الصالحة **زينب إبنة أبى البركات المعروفة ببنت البغدادية**، فأنزلتها بها ومعها النساء الصالحات، ومهمة الشيخة أن تعظ وتذكّر النساء وتفقههن، وممن اشتهرن من النزيلات **فاطمة بنت عباس البغدادية** وكانت فقيهة وافرة العلم، وزاهدة، عابدة، واعظة، انتفع بها كثير من نساء دمشق ومصر، وكان لها قبول زائد، وصار بعدها كل من قام بمشيخة هذا الرباط من النساء يقال لها **البغدادية**. وكانت تودع فى هذا الرباط النساء اللاتى يطلّقن أو يُهجرن ولا عائل لهن، حتى يتزوجن أو يرجعن إلى أزواجهن، صيانة لهن، لما كان فيه من شدة الضبط وغاية الاحتراز والمواظبة على وظائف العبادات، حتى أن خادمة الفقيرات به كانت لا تمكّن أية امرأة من استعمال إبريق ببزبوز وتؤدب من خرج عن الطريق مما تراه.

ومن الزوايا التى يذكرها المقريزى **زاوية القلندرية** ــ ويقول فى القلندرية أنهم يتمون إلى الصوفية ، ويسمون أنفسهم أحياناً **الملامتية**. ويهمنا أن نتعرف إلى رأى المقريزى ــ أو ما يقوله الناس فى زمنه عن القلندرية فى مصر. ويقول المقريزى إن حقيقة القلندرية أنهم طرحوا التقيد بآداب المجالسات والمخاطبات ، وقلّت أعمالهم من الصوم والصلاة إلا الفرائض ، ولم يبالوا بتناول شىء من اللذات المباحة ، واقتصروا على رعاية الرخصة ، ولم يطلبوا حقائق العزيمة .. إلى أن يقول إن هذه الزاوية خارج باب النصر أنشأها الشيخ حسن الجوالقى القلندرى أحد فقراء العجم القلندرية ، ولما قدم مصر تقدم عند الأمراء وأقبلوا عليه واعتقده فأثرى ثراء زائداً !! وكان يحلق لحيته ولا يعتم .. وفى عهد السلطان الملك الناصر قلاوون استدعى الشيخ زاوية القلندرية ، وأنكر عليه حلق لحيته واستتابه ، وكتب توقيعاً سلطانيا منع فيه هذه الطائفة من تحليق لحاهم . ويعلق المقريزى على بدعة القلندرية هذه أنها منذ ظهرت حتى وقته لها ما يزيد على أربعمائة سنة ، وكان أول ظهورها بدمشق سنة بضع عشرة وستمائة . وقد كتب السلطان إلى بلاد الشام بإلزام القلندرية بترك زى الأعاجم والمجوس ، وعدم تمكين أحد من الدخول إلى بلاد الشام حتى يترك هذا الزى المبتدع واللباس المستبشع ، ومن لا يلتزم بذلك يعزر شرعاً .

■ ■ ■

ملامتية

مذهب فى التصوف انتشر من نيسابور، قيل صاحبه **حمدون القصّار** (المتوفى سنة ٢٧١ هـ) ، ويشتق الاسم من **الملامة** ، يُقصد بها الصوفى إذا أظهر أعماله أو أحواله للناس ، ومن ثم فالسلوك الأمثل **للملامتى** هو أن يظهر للناس كما لو كان لا يقصد إلى الخير، وهو فى نفس الوقت لا يضمر بالطبع أى شر. والمقولة التى يقوم عليها المذهب الملامتى هى **الإخلاص** ، وهو فى تعريفهم أن تكون صادقاً مع نفسك ومع الله دون الخلق ، فالملامتى لا يتوخى الناس فى سلوكه ويكتم أحواله وأعماله ، ويجد لذة فى كتمانه لها ، وعدم اطلاع الناس عليها ، وإذا ظهرت للناس استوحش من ذلك كما يستوحش العاصى من ظهور معصيته . والملامتى يتمسك بالإخلاص ويعتد به ، إلا أن هناك فرقاً بين إخلاص الملامتى وإخلاص الصوفى ، حيث الملامتى يريد أن يظهر فى نفسه أنه مخلص ، بينما الصوفى من فرط إخلاصه فى حاله وعمله ينسى نفسه فيهما ولا يدرى عن إخلاصه شيئاً ، ولذلك قيل إن الملامتى هو حقاً مخلص ، ولكن الصوفى

مخلص خالص ، أو قيل إن الملامتى **مخلِص** (بكسر اللام) بينما الصوفى **مخلَص** (بفتح اللام) . ولا شك أن رؤية المخلص لإخلاصه ينتقص من الإخلاص . وقد يظهر العارف أحياناً بعض عمله أو حاله ، ويقصد إلى ذلك ، وهو يريد به أن يراه المريد فيتابعه عليه ويتعلم منه ، ولا يجوز أن نطلق من ثم على سلوك العارف وقتها أنه الرياء ، وهو المقابل للإخلاص ، ولكنه بتعبير **أبى سعيد الخرّاز** صورة رياء وليس رياء ، على عكس المريد المخلص الذى يثبت لنفسه أنه مخلص بوعيه بإخلاصه وقصده إليه ، وذلك تفسير مقالة الخراز: **رياء العارفين أفضل من إخلاص المريدين ،** فالمخلص الذى يرى إخلاصه إنما ينتقص من كمال إخلاصه .

وقيل إن الملامتى إذا استدُعى لذكر فإنه يرفض لأنه لا يجب أن يظهر وجْده على لسانه . والذكر باللسان عند الملامتية هو ذكر العامة وذكر العادة ولا يكون إلا عند غفلة القلب واستغلاق السر وفراغ الروح ؛ والروح عندهم لها ذكر، وهو ذكرها للذات فى حال المشاهدة ؛ وللسر ذكر هو ذكر صفاته جل وعلا ، وهو ذكر الهيبة التى للمولى والتهيب الذى يكون عليه حال الصوفى ؛ وللقلب ذكر هو ذكر آلاء الله ونعمه أو ذكر أثر الصفات . ولا يصح للسر أن يطلع على ذكر الروح ، ولا يصح ذكر الروح بإطلاع السر عليه ؛ وأيضاً لا يصح للقلب أن يطلع على ذكر السر ، فإذا اطلع عليه لا يكون صحيحاً ؛ وكذلك لا يصح للسان الإطلاع على ذكر القلب . ومعنى قول الملامتية إطلاع السر على ذكر الروح يشيرون إلى التحقيق بالفناء عند ذكر الذات ، وأما ذكر السر فإشارة إلى معنى القرب وليس الفناء ، وذكر القلب يشعر أن هناك بُعداً ما لأنه اشتغال بذكر النعمة وذهول عن المنعم .

والقلندرية فئة من الصوفية الملامتية ، وحقيقة طريقتهم أنهم تركوا العادات والآداب ، وأهملوا التقيد بتقاليد المجالسات والمعاملات ، ويؤدون فرائض الشرع ولا يجيزون الزيادة عليها ، ولا يحرمون أنفسهم من اللذات المباحة ، ولا يلتزمون بالأحكام المتشددة ، ولا يتخذون طريق الإفراط فى الزهد والتقشف وترك الدنيا ، أى أنهم بينما يلزمون أنفسهم بألاّ يدخروا شيئاً ولا يجمعوا حطام الدنيا ، فإنهم فى نفس الوقت لا يبالغون فى التعبد والتزهد والتقشف ، وما يولونه عنايتهم حقاً هو صفاء القلب مع الله . والفرق بين الملامتى والقلندرى أن الأول يجتهد فى كتمان عبادته ، بينما الثانى يجتهد فى محو العادات ، ويتمسك الملامتى بكل وسائل الإحسان والخير إلا أنه يخفى أعماله ويظهر من حيث الشكل والهيئة كالعوام كى لا يقف أحد على حقيقة حاله ،

ولكنه فى نفس الوقت يعمل على الاستزادة من العبادة، بينما الفلندرى لا يهتم باللباس والمظهر، ولا يهتم باطلاع الآخرين على باطن حاله ولا يهمه شيء البتة إلا إخلاصه لربه وصفاء سره وباطنه، ويلبس كل ما يقع بيده، ولا يأبه بأية هيئة ظهر. ومن مظاهر القلندرية حلق شعر الرأس.واللحية والشارب والحاجبين. ويروى المقريزى أن السلطان حسن بن محمد بن قلاوون أمر فى مصر سنة ٧٦١ هـ بأن يترك الفلندرية بدعة حلق الشعر والتزيي بزى الأعاجم والمجوس.

■ ■ ■

الملطى (أبو الحسين)

محمد بن أحمد بن عبد الرحمن، نسبه الملطى لأنه من **ملطية**، وسكن بعسقلان وتوفى بها (٣٧٧ هـ)، وهو من أوائل الذين نقدوا غلاة المتصوفة فى كتابه «**التنبيه والرد على أهل الأهواء والبدع**» وأطلق عليهم اسم **الروحانية**، يقول سموا كذلك لأنهم زعموا أن أرواحهم تنظر إلى ملكوت السماوات، وبها يعاينون الجنان ويجامعون الحور العين. وسموا أيضاً **الفكرية**، لأنهم يتفكرون حتى يصيرون إليه، فجعلوا الفكر بهذا غاية عبادتهم ومنتهى إرادتهم، ينظرون بأرواحهم فى تلك الفكرة إلى هذه الغاية، فيتلذذون بمخاطبة الله لهم ومصافحته إياهم ونظرهم إليه ـ زعموا! ويتمتعون بمجامعة الحور العين ومفاكهة الأبكار، على الأرائك متكئين، ويسعى عليهم الولدان المخلدون بأصناف الطعام وألوان الشراب وطرائف الثمار. ولو كانت الفكرة فى ذنوبهم الندم عليها والتوبة منها والاستغفار، لكان مستقيماً، وأما هذه الفكرة فبوّبها لهم الشيطان، لأنه لا يتلذذ بلذات الجنة إلا من صار إليها يوم القيامة، وهكذا وعد الله عباده المؤمنين والمؤمنات. ومنهم صنف من الروحانية زعموا أن حب الله يغلب على قلوبهم وأهوائهم وإرادتهم حتى يكون حبه أغلب الأشياء عليهم، فإذا كان كذلك عندهم، كانوا عنده بهذه المنزلة، ووقعت عليهم الخلة من الله، فجعل لهم السرقة والزنا وشُرب الخمر والفواحش كلها ـ على وجه الخُلة التى بينهم وبين الله، لا على وجه الحلال، ولكن على وجه الخلة كما يحل للخليل الأخذ من مال خليله بغير إذنه ـ ومن هؤلاء **رياح وكليب**، وكانا يقولان بهذه المقالة ويدعوان إليها. ومنهم صنف من الروحانية زعموا أنه ينبغى للعباد أن يدخلوا فى مضمار الميدان حتى يبلغوا إلى غاية السبقة، من تضمير أنفسهم وحملها على المكروه، فإذا بلغ تلك الغاية أعطى نفسه كل ما تشتهى وتتمنى،

أحاديث الشرح الكبير فى ست مجلدات ، **وتحفة المحتاج إلى أدلة المنهاج** فى ثمانى مجلدات ، **وجمع الجوامع** وهو قريب من مائة مجلد ، **وحدائق الأولياء** ويشتمل على ألفى حديث ، **وخلاصة الفتاوى** يقع فى مجلدين ضخمين ، **ودُرة الجواهر فى مناقب الشيخ عبد القادر** (عبد القادر الجيلانى) ، **وشروح للألفية ، ولزوائد جامع الترمذى ، وسنن أبى داود ، والنسائى ، ومسلم ، والعمدة ، ومختصر التبريزى ، ومختصر منتهى السول والأمل فى علمى الأصول والجدل ، والمنتقى من الأحكام ، والجامع الصغير ،** وله **طبقات الأولياء أو الصوفية ، وطبقات القرّاء ، وطبقات المحدّثين** الخ .

وكتاب **طبقات** الأولياء أو الصوفية جمع فيه نحواً من مائتى وثلاثين ترجمة ، بخلاف التراجم الفرعية ، ابتداء من منتصف القرن الثانى الهجرى ، بدءاً **بإبراهيم بن أدهم** المتوفى سنة ١٦١ هـ ، حتى العقد التاسع من القرن الثامن الهجرى ، وانتهاء **بشهاب الدين القونوى** المتوفى سنة ٧٨٧ هـ ، ويقع فى قسمين ، الطبقات ، ثم الذيول عليها ، ويرتبه وفق الأبجدية ، على غير ما جرى عليه الحال فى التأليف لمثل ذلك ، فالمألوف أن الطبقة هى الجيل الواحد من أهل الصنعة أو العلم ، الذين يجمعهم زمان واحد ، فيأخذون عن بعضهم البعض . وتضم الذيول تراجم للصوفية حسب الكنية أو غير ذلك ، أو أنها تراجم لمن أخذ عن الشيوخ أو عاصرهم . ويقدم **ابن الملقن** للكتاب بهدفه وغايته من تأليفه فيقول : إنه جملة من أعلام الأعيان وأوتاد الأقطاب فى كل قطر وأوان ، جمعتُهم لأهتدى بمآثرهم ، وأقتفى بآثارهم ، رجاء أن أُنظم فى سلكهم ، فالمرء مع من أحب ، وأحيا بذكرهم ويزول عنى النَّصَب . ويمتاز الكتاب بالذيول على التراجم ، وكثرة الشعر الصوفى فيه ، إلا أن ما يورده ابن الملقن غير موثق التوثيق الذى عليه تراجم السلمى فى طبقاته ، وبعض التراجم المعلومات فيها ضئيلة قد تفى بالتعريف دون التوصيف .

وقيل إن ابن الملقن أصابه ذهول فى نهاية حياته ، فقد أتى حريق على مكتبته بما حوت من ذخائر ، فأصابه من ذلك حزن بليغ فقد قضى عمره يجمع فيها النفائس ولا يضن على ذلك بالمال ، وكان ابنه يعزيه ويقول له :

لا يزعجنك يا سراج الدين أن لعبت بكتبك ألسن النيران
لله قد قربتها فتُقبِّلت والنار مسرعة إلى القربان

وعنده أن أكل الطيبات كأكل الأراذلة من الأطعمة ، والصبر والخبيص بمنزلة واحدة ، والعسل والخل عنده بمنزلة ، فإذا كان كذلك فقد بلغ السبقة وسقط عنه تضمير الميدان وأتبع نفسه ما اشتهت ، ومن هؤلاء **ابن حيان** ، وكان يقول هذه المقالة . ومنهم صنف يقولون إن ترك الدنيا إشغال للقلوب وتعظيم للدنيا ومحبة لها ، ولما عظمت الدنيا عندهم تركوا طيب طعامها ولذيذ شرابها ولين لباسها وطيب رائحتها ، فأشغلوا قلوبهم بالتعلق بتركها ، وكان من إهانتها مؤاتاة الشهوات عند اعتراضها حتى لا يشتغل القلب بذكرها ويعظم عنده ما ترك منها . **ورياح وكليب** كانا يقولان هذه المقالة .

والظاهر أن السراج الطوسى قد تأثر به فى كتابه اللمع ، فقد كان معاصراً له ، فذهب إلى التنبيه إلى هؤلاء الغلاة وأطلق عليهم اسم **المترسمين بالتصوف** .

■ ■ ■

إبن الملقن

عمر بن على بن أحمد الأنصارى ، الشافعى ، سراج الدين ، أبو حفص ، الأندلسى ، ثم المصرى ، ولد بالقاهرة سنة ٧٢٣ هـ ، وتوفى بها سنة ٨٠٤ هـ ، صاحب **طبقات الأولياء** ، ويسمونها أحيانا **طبقات الصوفية** ، مات والده وعمره سنة واحدة ، وتركه فى كفالة صديق له هو عيسى المغربى الملقن ، فقد كان عمله تلقين القرآن بجامع ابن طولون ، أى يقرئه الناس ويحفظهم ، ولذا سموه **بالملقن** ، وتزوج الصديق الوصى الأم ، وتعهد الإبن بالتربية فاشتهر باسم زوج أمه ، ولكنه كان يؤثر عليه أن يدعى **ابن النحوى** . وقد أحسن زوج الأم استثمار ماله ، فأنشأ له به ربعاً يغل عليه كل يوم مثقال ذهب ، فكان يكتفى بأجرته ، وقد أعانته كثرة المال وقلة العيال وانخفاض الأسعار على اقتناء **مكتبة ضخمة** خاصة به جمع فيها مالا يدخل تحت حصر ، وكان محباً للعلم والعلماء ، كثير الأسفار ، وقيل إن من أخذ عنهم ابن الملقن من العلماء من الكثرة بحيث يشق على الراصد رصدهم ، ولقد صار من كبار مشايخ عصره ممن خدموا الحديث والفقه ، وقيل إنه كان **موسوعياً** ، اشتغل فى كل فن ، وقرأ فى كل مذهب وأفتى فيه ، وقيل إنه كذلك لم يكن محققاً مدققاً ، وقال عنه بعضهم إن أغلب تصانيفه كانت كالسرقات من الكتب ؛ ولقد ساعده على كثرة التصنيف أنه بدأ به وهو لم يكن قد بلغ **العشرين** ، واستمر فيه إلى فترة ثلاث سنوات قبل وفاته عن إحدى وثمانين سنة ، وقيل كان له نحو **ثلاثمئة مصنف** ، **مُنها البدر المنير فى تخريج**

واشتد به الاكتئاب حتى حجبه ابنه عن الناس وما لبث أن توفاه الله، فدفنه ابنه بحوش سعيد السعداء المعروف بالخانقاه الصلاحية أو خانقاه سعيد السعداء، ويذكر المؤرخون أنها أول خانقاه للصوفية فى مصر، أنشأها صلاح الدين الأيوبى أو تنسب إليه، ومكانها اليوم جامع سعيد السعداء بالجمالية.

■ ■ ■

إبن منازل

أبو محمد عبدالله بن محمد بن منازل الملامتى أو شيخ الملامتية بعد حمدون القصّار، قيل تلّقى عنه، والأغلب أنه كان من أكثر الرواة له، ذلك أن القصّار مات سنة ٢٧١ هـ بينما كانت وفاة ابن منازل سنة ٣٢٩ هـ. وكان ابن منازل من المشتغلين بعلوم الظاهر وكتب الحديث واشتغل بالتصوف من بعد على طريقة القصار، ونشر طريقة الملامتية فى التفكير والسلوك، وهو يؤكد فيما يقول على اجتناب الكبر والرياء ومجاهدة النفس والسلوك بالصدق. يقول لا تحكى عن أحوال غيرك وإنما تناول أحوالك، والأولى أن لا تتكلم، وإذا انتحلت الفقر فليكن ذلك عن حقيقة فلا خير فى الفقر إن لم يكن فضيلة، ويعنى أن الصوفى المتحقق هو الذى يخرج عن الدنيا وعن الخلق ويكون بالله ولله، فإذا استعاب فليستعن بالله، وليتكسب ولا يتكفف ما استطاع، والملامتى هو الذى يعانى ذل التكسب ويلزم نفسه ما يحتاج ولابد منه، وهو الذى لا يبتغى من سلوكه تعظيم الناس له، فإذا عظموه خاف على نفسه واتهمها وألزمها ذل السؤال والاتضاع ليحتقره الناس، وإذا كان عليه أن يقاوم شيئاً فى نفسه فهو الميل إلى الوعظ وأن يستشعر أنه العارف وغيره يجهلون، ومن يفعل ذلك فهو نفسه الجاهل وأولى به أن يعظ نفسه وأن ينفعها بكلامه وأن يشن عليها الحرب العوان ويساعد الناس عليها فيستجلب عليها ما يستوجب لومها. ويضرب ابن منازل المثل بقول الله تعالى الصابرين والصادقين والقانتين والمستغفرين بالأسحار فيقول إنه عز وجل ذكر أنواع العبادات ثم ختم المقامات كلها بالاستغفار ليرى العبد تقصيره فى جميع أحواله وأفعاله فيستغفر منها. ويستشهد بسيرة الصوفى أبى على الثقفى المتوفى سنة ٣٢٨ هـ، ويقول إنه كان الواجب عليه أن يتكلم لنفسه لا للخلق فالواعظ يظهر من نفسه دعوى العبودية ولكنه يضمر أوصاف الربوبية، وهو عاشق لنفسه ويعشق من يعشقها ومن أجل ذلك يحب الظهور وأن تصل إلى الناس كلماته وكان الأولى به أن ينتفع هو

نفسه بكلامه. ويقول ابن منازل من دحل فى هذا الأمر، يقصد التصوف، بضعف قوى فيه، ومن دخله بقوة ضعف فافتضح.

■ ■ ■

المناوى (عبد الرءوف)

زين الدين محمد عبدالرءوف بن تاج العارفين ابن على بن زين العابدين المناوى القاهرى (٩٥٢ ــ ١٠٣١ هـ) له «**الكواكب الدرية فى تراجم السادة الصوفية**» أخذ التصوف من جمع، وتلقّن الذِكْر من عبدالوهاب الشعرانى، وتابع الخلوتية والبيرامية والشاذلية والنقشبندية، وأقبل على التأليف وانقطع له فصنّف فى غالب العلوم، وولى التدريس فى المدرسة الصالحية فورد عليه من كل مذهب فضلاؤه حتى كثر حاسدوه، ولم يخل من طاعن فدّسوا له السم، فتوالى عليه بسبب ذلك نقص فى أطرافه وبدنه من كثرة التداوى، ولما عجز صار ولده تاج الدين يستملى منه التآليف ويسطرها، وهى كثيرة، قيل بلغت نحو الثمانين مصنفاً، وله شروح على منازل السائرين لهروى وحِكَم ابن عطاء الله السكندرى وترتيب الحِكَم للشيخ على النقى سمّاه فتْح الحِكَم ولكنه لم يكمل، وشرح على رسالة ابن سينا فى التصوف ثم إرسال أهل التعريف، ويشرح قصيدته العينية، وله شرح على المواقف التقوّية لم يكمل، وشرح على رسالة الشيخ ابن علوان فى التصوف، وكتاب منحة الطالبين لمعرفة أسرار الطوّاعين. ولما توفى دفن بجانب زاويته التى أنشأها بين زاوية سيدى أحمد الزاهد ومدين الأشمونى. وقيل فى كتابه **الكواكب** وهو المشهور باسم **الطبقات الكبرى** أو **طبقات المناوى** إنه يتفوق على طبقات السلمى وأبى سعيد النقاش وأبى العباس النسوى وعبدالواحد الشيرازى وأبى نعيم الحافظ وعبدالغفار القوصى. ويبدأها المناوى بمقدمة فى التصوف رداً على آراء المعتزلة، وتكلم على كرامات الأولياء، ثم أتبع ذلك بثمانية أبواب من سيرة الرسول ثم الخلفاء الراشدين، ويلى ذلك تراجم للصوفية مفرداً طبقات كل قرن على حدة حسب سنّى وفاتهم فكانت إحدى عشرة طبقة فى الجزء الأول، والباقى فى الجزء الثانى، فقارب ماترجمه نحو الألف، وفرغ من تأليفه سنة ١٠١١ هـ، وبعد أن أتمّه وتداولوه فى حياته اتجه إلى تأليف تذييله وهو **الطبقات الصغرى** المسماة **بأرغام أولياء الشيطان**، وتمتاز عن الأولى باتساع القول فى إثبات كرامات الأولياء، وبأنه أكثر فيها من تراجم صوفية العجم والروم والحجاز واليمن

والشام بخلاف الأولى التى كان أغلب تراجمها لصوفية مصر. وصدرها بمقدمة ذكر فيها بعضاً من أصول علم التصوف المهمه التى لا يستغنى عنها.

■ ■ ■

إبن المنور (محمد)

من أحفاد **أبى سعيد بن أبى الخير**، وأبوه هو أبو سعيد بن أبى طاهر، وله كتاب **أسرار التوحيد** صنّفه نحو سنة ٥٧٤هـ ويؤرخ فيه للشيخ أبى سعيد ويذكر أحواله ورياضاته وحياته من الطفولة حتى وفاته، وأشهر الحكايات عنه وكراماته ووصاياه، وهو بذلك يعتبر من أولى التصانيف الفارسية فى تراجم الصوفية، وهو مرجع من المراجع الكبرى فى آداب المريدين والشيوخ والتقاليد الصوفية ومصطلحات القوم.

■ ■ ■

المهدى (الإمام)

محمد أحمد بن عبد الله (١٢٥٩ - ١٣٠٢هـ) وشهرته **محمد المهدى** لأنه ادّعى المهدية وتلقب سنة ١٢٩٨هـ **بالمهدى المنتظر**، وتصوفه من نوع **التصوف السياسى**، وتركيزه على فريضة **الجهاد**، وله رسالة يدعو فيها إلى تطهير البلاد من مفاسد الحكام، وأعوانه يعرفون **بالدراويش**، وقد حفظ القرآن وهو دون الثانية عشرة ومات أبوه فكفله عمه واشتغل معه فى تجارة السفن. والمهدى من مواليد جزيرة ضرار، وكانت هجرته مع والده إلى أم درمان، ودرس الفقه فى مسجد ود عيسى بالجزيرة على يد الشيخ محمد الخير فى بربر، ثم تصوف وأخذ الطريقة السمانية على يد الشيخ محمد شريف ثم الشيخ القرشى فى الحصاحيصا. ويفخر الغبش بأن المهدى تخرج من مدارسهم، وفى المدة التى أقام فيها فى الغبش كانت له خلوة بناها له عبد الماجد محمد الغبشاوى ابن أخ الشيخ محمد الخير. وللتصوف تاريخ كبير فى السودان، وخاصة الطرق الصوفية، ومن ذلك الطريقة القادرية، والطريقة القادرية السمانية وشيخها هو محمد شريف نور استاذ المهدى، وهو ابن السيد نور الدايم بن السيد أحمد الطيب ود البشير من أهل المدينة المنورة وإليه يعزى دخول الطريقة السمانية للسودان. وكانت **للتصوف رسالة تثقيفية فى السودان**، وربما كانت المساجد التى يبنيها الصوفية هى منارات العلم الوحيدة فى وقت من الأوقات. والمجاذيب فى بربر كانوا منارة يهتدى بها فى التصوف، وكانوا

على الطريقة الشاذلية. والطريقة الختمية كان دعاتها يجوبون السودان مبشرين، ومن الختمية تفرعت الاسماعيلية على يد اسماعيل الولى الذى أخذ الطريقة على محمد عثمان الميرغنى. والطريقة التيجانية واشتهر أتباعها بالصلابة فى الجهاد. وعموماً فإن التصوف بحكم الأحوال الاجتماعية والثقافية ووجود الاستعمار كان لابد أن يتجه أصحابه به إلى **الجهاد**، وذلك ما حدث مع السنوسية فى ليبيا، ونفس الشىء دعت إليه المهدية، ومثلما اضطر السنوسى إلى تعليم مريديه فنون الفروسية والقتال فإن المهدى قاد **ثورة على الجهل والظلم والاستعمار والفساد**، فكان تصوفه من نوع التصوف **الإيجابى**، واتخذ اتباعه هتافهم **لا إله إلا الله والله أكبر ولله الحمد**، وأرسل الرسائل بذلك إلى الخليفة فى تركيا لطرد الإفرنج من بلاد المسلمين، وإلى خديوى مصر، واتصل بأهل الشام وعين لهم من يفودهم، واتصل بقبائل فاس ونجد والسنوسية والمدينة يدعوهم إلى الثورة، غير أنه أصيب بالجدرى ومات فى أم درمان، وجمعوا ما وجد من كتاباته فى كتاب اسمه «**مجموع المناشير**». وكانت البيعة التى يأخذ بها مريديه هكذا «بايعنا الله ورسوله، وبايعناك على طاعة الله، وأن لا نسرف ولا نزنى، ولا نأتى بهتاناً نفتريه، ولا نعصيك فى أمر بمعروف ونهى عن منكر. بايعناك على الزهد بالدنيا وتركها، وأن لا نفر من الجهاد رغبة فيما عند الله». وهو نص يوجز طريقة المهدى فى التصوف ويربطها بطرق السلف أو الطريقة المحمدية الجامعة وأخص أركانها الجهاد.

■ ■ ■

مورينو

مارتينو مورينو Moreno، إيطالى ولد سنة ١٨٩٢م، كان شديد الاهتمام بالتصوف الإسلامى، وله بحوث فى الإسلام، وترجمات للقرآن، وكتب فى خصائص الثقافة العربية، والتصوف العربى والتصوف الهندى، وهو بحث مقارن نشره فى حوليات لاتزان سنة ١٩٤٦، ومختارات من التصوف العربى والفارسى صدر بباريس سنة ١٩٥١.

■ ■ ■

المولوية

الدراويش المولوية أو **الدراويش الراقصون**، ينسبون إلى الشاعر الصوفى **جلال الدين الرومى** صاحب المثنوى والمتوفى سنة ٦٠٤هـ بقونية تركيا، والتاريخ الحق لهذه الطريقة يبدأ بولده الأكبر المسمى سلطان ولد، فهو الذى أنشأ الفروع الأولى للطريقة وساعدها على أن تحظى باحترام أكبر، وكان يطلق على كل تابع من أتباع الطريقة

من قبل وفى حياة مولانا جلال الدين الرومى اسم مولوى، وكانت هؤلاء الأتباع يختارون أوائل الأمر من بين أرباب الصنائع الذين يرتكبون جرماً. وقوام الشعائر الدينية للطريقة السماع والذكر، وذلك شائع فى الطرق الصوفية الأخرى إلا أنه يبلغ شأنا بعيداً عند المولوية، وقد استحدثه أولاً بير عادل چلبى المتوفى سنة ٨٦٤هـ. والمولوية لا يعدون طريقتهم طريقة صوفية بالمعنى المتعارف عليه، ولها جذورها بالطريقة الملامتية التى كانت بدايتها فى خراسان وتشبه فى بعض نواحيها الطريقة القلندرية من الطرق المرتبطة بالملامتية، وبعض الچلبية أى المشايخ بلغتهم يعيشون معيشة دراويش القلندرية مثل أولو عارف چلبى، وكان أخوه عابد چلبى، وكذلك محمد چلبى المعروف باسم المجنون أو الديوانه أكثر التزاما بطريقة دراويش القلندرية.

ومن مشايخ الطريقة المولوية سيد برهان الدين الترمذى، من أهل ترمذ ومن مريدى مولانا بهاء الدين ولد، وحضر فترة على بهاء الدين ثم عكف على الزهد والتنسك فى ترمذ فالتف حوله المريدون، فلما توفى بهاء الدين فى قونية عام ٦٢٨هـ جاءها الترمذى سنة ٦٣٠هـ تلبية لروح استاذه، وعنى برياضات مولانا جلال الدين الرومى، واعتزل الجماعة فى قيسارية بعد ذلك بتسع سنوات على الرغم من هواتف مولانا له بالبقاء، وظل بها وقد التف حول المريدون إلى أن توفى. وترجع أهميته إلى ما كان له من شأن فى شعائر المولوية.

■ ■ ■

الميرغنى

محمد عثمان الميرغنى (١٢٠٨ ــ ١٢٦٨هـ) **مؤسس طريقة الختمية** التى قيل فيها إنها أكبر الطرق الصوفية شأناً فى السودان، فليس فيها ما يضاهيها سعة نفوذ وعدد مريدين، وكان لها أكبر الأثر فى تاريخ السودان الفكرى والسياسى والاجتماعى. والختمية كما يقول مؤسسها جماع خمس طرق هى النقشبندية والقادرية والشاذلية والجنيدية وطريقة الميرغنية التى كانت لجده عبدالله الميرغنى المشهور بالمحجوب. والميرغنى أول من اشتهر من أسرته، وكانت ولادته بالطائف وتعلم بمكة وتاقت نفسه إلى حياة التصوف فأخذ ينتقل بين الطرق الصوفية إلى أن استقرت به العناية إلى شيخه أحمد بن إدريس. **ومدرسة الميرغنى** من مدارس التصوف الإيجابية التى اهتمت بالدعوة إلى الإسلام والتزام الكتاب والسنة والأخذ عن السلف، وقد سافر الميرغنى

بإشارة من استاذه أحمد بن إدريس إلى مصر، وأقام فترة بقرية الزينية ثم غادرها إلى السودان سالكاً طريق النيل حتى دنقلة، ومنها اتجه إلى كردفان ووصل الأبيض، فأسس بها مسجداً وتتملذ عليه كثيرون، وأخذ عليه العهد علماؤها، واتجه إلى بارا وتزوج إحدى سليلات بيوت العلم فأولدها ابنه محمد الحسن الميرغنى، وسافر إلى سنار ثم شندى فأسس بها مسجداً، واتجه إلى الشرق إلى جبال التاكة وأنشأ قرية السنية التى تعرف الآن باسم الختمية، وأسس بها مسجداً، وزار سواكن وأسس بها ثلاثة مساجد ومدرسة لتعليم المرأة هى الأولى من نوعها فى السودان. وكانت للمساجد والزوايا التى ينشئها هو وأتباعه فضل اجتماع أبناء الختمية والطرق الصوفية الأخرى، ومقاومتهم للحكم الأجنبى والاتجاه بالسودان نحو الإسلام والعروبة. وسافر الميرغنى إلى الحبشة وأرتريا، فاستقبلته قبائلها العربية بالحفاوة وأخذوا عنه الطريقة، ودعا القبائل الوثنية إلى الإسلام فاعتنقه منها فى شهور قليلة عشرات الألوف من الرجال والنساء. وللميرغنى مؤلفات بلغت الثلاثين مؤلف منها **تاج التفاسير لكلام الملك الكبير**، **والمدائح النبوية فى المدائح المصطفوية**. وتصوف الميرغنى من نوع التصوف الذى يكثر فيه السالكون من الصلاة على النبى، وفى كتابه المسمى **فتح الرسول** ويعرف **بالصلاة الميرغنية** يقول إن طريقته هى طريقة القطب النبوى السيد أحمد البدوى والهيكل بالربانى عبدالقادر الجيلانى والقطب الرفاعى والقطب الحقيقى إبراهيم الدسوقى ومحيى النفوس السيد العيدروس وأقطاب آخرين من حضرموت ومن غيرها كالسيد المتبولى وعبدالسلام بن مشيش وأحمد بن إدريس والبكرى. ويقول الميرغنى إن التعلق بالذات المحمدية والصلاة عليها أقرب الطرق إلى حضرة الله العلية، وأن حب النبى فى السويداء، وأنه يقف بين يدى المصطفى ويستأذنه فيأذن له. ومن الصفات التى يجعلها للنبى فى صلواته عليه وضمن طريقته حبيب الله وصفوة الله وعبدالله ومحبوب الحضرات الإلهية، ورئيس ديوان الكبرياء، وإمام أهل بساط القرب، ذو الجمال المحبوب لأهل الحب، وجبل قاف عظمة التجليات، وبحر محيط أسرار الصفات، وسيلة آدم والخليل وواسطة موسى ونوح، وممد عيسى وداود، وخزانة عطاء الملائكة، وولى الخزانة لكل الكائنات، والطبيب الشافى والغياث الكافى، باطن العلوم القرآنية، الفائض نور بيت الأنوار الإلهية.

وعبدالله الميرغنى الجد، والد أبى محمد عثمان الميرغنى، توفى سنة ١٢٠٧هـ، وطريقته تجمع بين الشريعة والحقيقة، وكانت نشأته بمكة وولد بها، ودرس فى المسجد

الحرام وظهر فيه، وانتهت إليه الرئاسة، وكان عمدة المحدثين فى عصره، صحب عمر البار وعلى الأهدل وتخرج عليه حسين بن عبدالشكور من أهل المدينة وله ديوان مدّحَ به شيخه يقول فيه:

كيف ترقى رقيك الأولياء والمراقى لها إليك ارتقاء
أنت من نور من قيل فيه ياسماء ما طاولتها سماء

وطريقة الميرغنى طريقة محمدية كذلك، وله ديوان العقد المنظم أو عقد الجواهر فى نظم المفاخر، يقول فى مدح النبى:

أنت شمس الوجود والأنبياء ـلا نجم له السنا والسناء
وبك العلم والمعالم طُرّا وجميع الرسوم والأسماء
وبك الذات والصفات جميعاً والشئون العلى وذاك الثناء
وبك الكون والمظاهر كلا والمجالى التى بهن الضياء
وبك الله قد بدا من عماء وبك الختم حسنه وابتداء
فإذا كنت أصل كل ظهور كيف ترقى رقيك الأنبياء
إنما أنت مفرد ومثنى وجموع وكل غيرك هاء

وكلامه شبيه بكلام فلاسفة المتصوفة القائلين بالحقيقة المحمدية، ويسمى الرسول واحد الدهر. يقول:

ربِ إنّا بواحد الدهر ندعو ونروم العلا ومنك العطاء

ويقول:

ولك الملك والتصرف دوماً فى أراضى الإله ثم السماء

وأصل تسمية الميرغنية أن الاسم كان لجدهم السادس لأول مرة، وهو تحريف من «أمير غنى» الفارسية بمعنى الشريف الغنى، خففت وصارت لقباً لأعقابه.

■ ■ ■

الميقاتى (عبد الخالق)

مصرى ، له الباع الطويل فى **علم المعقولات ، وعلم الهيئة ، وعلم التصوف** ، وكان مريدوه يحضرونه ليلة الجمعة ، يتذاكرون عنده فى أحوال الطريقة إلى الصباح ، وكان لا يعجبه أحد من **متصوفة زمانه** ويقول : لا ينبغى لأحد أن يتظاهر بطريق القوم ، إلا إن صدق فى طريقهم . وكان يكره لبس **الزى** ويقول : ليست الطريق بمثل ذلك ، وإنما كان السلف يلبسون **الصوف والمرقعات** لقلة الحلال المناسب لمقامهم ، ثم يقول : وماذا يعنى لبس مئزر الصوف والجِبة ، وصاحبها ينام الليل ، ويفطر النهار ، ولو أنه عكس الأمر لكان خيراً له .

■ ■ ■

ن

النابلسى

عبد الغنى بن إسماعيل بن عبد الغنى، وشهرته النابلسى، كان حنفياً دمشقياً نقشبندياً قادرياً، ولد سنة ١٠٥٠ هـ، وقيل بلغت مؤلفاته ١٨٨ مؤلفاً، منها **الحديقة الندية فى شرح الطريقة المحمدية، وجواهر النصوص فى حل كلمات الفصوص للشيخ محى الدين بن عربى، وكشف السر الغامض فى شرح ديوان ابن الفارض، وزهر الحديقة فى ترجمة رجال الطريقة، وإيضاح المقصود فى معنى وحدة الوجود، ومفتاح المعية فى شرح الرسالة النقشبندية، وتحقيق الذوق والرشف فى معنى المخالفة بين أهل الكشف، والنظر فى معنى قول ابن الفارض عرفت أم لم تعرف، والسر المختبى فى ضريح ابن العربى، والفتوحات المدنية فى الحضرات المحمدية، ورد المتين على منتقص العارف محيى الدين، والفتح الربانى والفيض الرحمانى، والصراط المثنوى فى شرح ديباجات المثنوى، وبداية المريد ونهاية السعيد، والعقود اللؤلؤية فى طريقة السادة المولوية.** وكان النابلسى شارحا فخيما للطرق الصوفية فى وقته، وأدمن قراءة ابن عربى، وله المدافعات الجليلة فيه وعن مذهبه فى وحدة الوجود، وله لطائف فى تفسير شطحات الحلاج والبسطامى وابن الفارض والعطار، واشتهر كتابه **تعطير الأنام فى تفسير الأحلام** الذى ذهب فيه مذهب تأويل الرؤى بالإشراقات والمكاشفات. ويقول فيه الدكتور زكى مبارك إنه كان موصول العهد بأسرة البكرى بالقاهرة، ويدل على ذلك اهتمامه بتخميس وتشطير ما أثر من أبيات الشيخ محمد البكرى، ولذلك شواهد فى ديوانه **الحقائق ومجموع**

الرقائق. واتصاله بأسرة البكرى يفسر وجود المواويل التى تغلب عليها المصرية بين شعره، والتى ينشدها المنشدون فى حلقات الذكر، ومنها:

يا أمة العشق فز بالبصر والسمع ... قوموا اتركوا الفرق عنكم واقبلوا الجمع
نور الشموع الذى يلمع عليكم لَمعْ ... من حرقة القلب قد سالت دموع الشمع

ومنها:

قوموا بنا كلنا نخرق حجاب الطبع ... ونتّبع يا جماعة ما أتى فى الشرع
حتى نشاهد جمال الله يلمع لَمْع ... ولا وجود لنا وهو الوجود الجمع

ومنها:

حبيبنا فى بديع الحسن حيرّنا ... بين الحياة وبين الموت خيّرنا
حكم علينا وبالهجران غيرّنا ... وبعد هذا بسوء الحال عيرّنا

وهى مواويل تستقى من التعابير المصرية. وكان للنابلسى فضل إذاعة المعانى الطريفة بين المريدين، وهو صاحب أنشودة الساقى الرائعة:

ساقى يا ساقى ... إسقينى من خمره الباقى
واكشف لى عن قيد إطلاقى ... آه يا ساقى، آه يا ساقى
أستاره راحت ... عن عينى والزهرة فاحت
والسكرة بالأسرار باحت ... آه يا ساقى، آه يا ساقى
اكشف لى عنك ... فى ذاتى وافتح لى دنّك
واجعلنى يا حبى أنك ... آه يا ساقى، آه يا ساقى
افتح لى باب الحان ... وأسمعنى من طيب الألحان
وارشفنى من كاسى الملآن ... آه يا ساقى، آه يا ساقى
من يشرب يسكر ... من خمرى لما يتفكر
والمغرور فى علمه أنكر ... آه يا ساقى، آه يا ساقى
لا يعرف أمرى ... إلا من يشرب خمرى
أحشاؤه تصلَى فى جمرى ... آه يا ساقى، آه يا ساقى

ويقسم النابلسى ديوانه أربعة أقسام، الأول فى صريح المواجيد الإلهية والتجليات

الربانية والفتوحات الأقدسية، والثانى نفحة القبول فى مدحة الرسول، والثالث رياض المدائح وحياض المنائح ونفحات المراسلات ونسمات المساجلات، والرابع خمرة بابل وغناء البلابل. ويعد النابلسى **من أقطاب شعراء الصوفية** وإن كان لا يستطيع اللحاق بابن الفارض، وهو فى أغراضه أوضح من ابن عربى، كما أنه فى أشعاره أقرب إلى البيئات الشعبية ولا يخرج عن دائرة التصوف إلا قليلاً. ويبدو أن النابلسى مع ذلك قد لقى العنت فى دعوته حيث قيل إن أهل دمشق أنكروه كثيراً وآذوه، فصارت تعتريه السوداء (أى الاكتئاب) فى أوقاته إلى أن مرض ومات سنة ١١٤٣ هـ.

■ ■ ■

النخشبى (أبو تراب)

عسكر بن حصين، إمام المتجردين ولذلك كنوه أبا تراب، وأما النخشبى فنسبة إلى نخشب مسقط رأسه من بلاد خراسان، وكان يقول الفقير قُوتُه ما وجد، ولباسه ما ستر، ومسكنه حيث نزل. وكان يفضل لو يسف التراب على أن يتكفف، ويحذر مريديه: مَن لبس منكم مرقعة فقد سأل (يعنى أنه بها يظهر حاله وكأنه بها يتسول) ومن قعد فى خانقاه أو مسجد فقد سأل، ومن قرأ القرآن من مصحف كيما يسمع الناس فقد سأل. ولذلك فقد نظر أبو تراب تلميذاً له يوماً وقد أضناه الجوع ولم يكن قد ذاق الطعام لمدة ثلاثة أيام، فمد يده يتناول قشرة بطيخ، فنهاه وصرفه قائلاً: أنت لا يصلح لك التصوف. وأبو تراب من **الجوعى**، وهو أحد أسماء الصوفية، والتصوف عنده هو الاستغناء عن كل الناس، فلا يشكو الفقير إلا لله، وتوكله دائماً بالله، ولذلك قالوا عن أبى تراب إنه **أحد أئمة التوكل**. والفقير (أى الصوفى) فى مذهبه لا ينبغى له أن يضيف إلى نفسه شيئاً من المال، فأخوف ما يُخاف عليه من النِعَم، وإذا تواترت النعم عليه فأولى به أن يبكى على نفسه لأنها تسلك به فى غير طريق الصالحين. وأنفع العبادات له **التوكل** وأن يصلح خواطر قلبه، فالله هو خالقنا وعليه رزقنا، وهو الذى يحيينا ويميتنا، ومن يستفتح أبواب المعاش بغير مفاتيح الأقدام وُكِلَ إلى حَوْله وقوته. **ومفاتيح الأقدار** التى يقول بها أبو تراب هى **الرضا** بما يرد على العبد فى كل وقت من أسباب الغيب. ويعرف القناعة بأنها أخذ القوت من الله تعالى، ويقول عن التوكل إنه طمأنينة القلب إلى الله.

وأبو تراب صحب **حاتماً الأصم** ولذلك فهو يروى كثيراً عنه، كما أن أبا عبد الله بن الجلاء صحبه وروى عنه. والجلاّء يروى عنه أن **من شروط الاستاذ المعلم فى التصوف أربعة أشياء** هى أولاً تمييز فعل الله عن فعل الخَلْق، ثم معرفة مقامات الأعمال، وثالثاً معرفة الطبائع والنفوس، ورابعاً تمييز الخلاف من الاختلاف. وأبو تراب على عكس المعروف عن الصوفية لا ينصح المريدين بالأسفار، وهو يقول لا أعلم شيئاً أضر عليهم من أسفارهم على متابعة قلوبهم ونفوسهم، وما فسد من فسد من المريدين إلا بالأسفار الباطلة. وكان أصحابه كُثرا حتى أن ابن الفرحى قال إنه رأى منهم حوله فى إحدى اللقاءات مائة وعشرين، ومنهم حمدون القصار وأبو الفوارس الكرمانى وأبو عبيد البسرى. وكان إذا رأى منهم ما يكره يزيد فى اجتهاده ويجدد توبته ويعتذر عن أخطائهم ويقول إنهم دُفعوا بشؤمى إلى ما دُفعوا إليه. ومع ذلك فلما مات كان وحده بالبادية فنهشته السباع سنة ٢٤٥هـ.

■ ■ ■

نظامى الجنجوى

أبو محمد إلياس يوسف بن زكى مؤيد، وتخلصه الذى عرف به فى الشعر هو **نظامى** عن لقبه **نظام الدين**، وله المثنوية الصوفية المشهورة **مخزن الأسرار**. ونظامى من شعراء الفرس النابهين، ولد فى جنجة سنة ٥٣٥هـ وإليها ينسب، وتوفى سنة ٥٩٩هـ، وشعره غزلى صوفى، ومنه منظومة **خسرو وشيرين** فى سبعة آلاف بيت، **وليلى والمجنون**، فى أكثر من أربعة آلاف بيت. والمثنوية الأولى على طريقة سنائى فى **حديقة الحقيقة**، وفيها المناجاة لله تعالى والكثير من الحمد له، ويتلو المقدمة موضوعات بعضها فقهى، وبعضها أخلاقى، يصورها الشاعر فى شكل حكايات وأمثلة، ومن ذلك حكاية **أنو شروان مع وزيره**، حيث يمران على قرية خربة ولا يعثران فيها إلا على بومتين يتحادثان، فيسأل الملك وزيره عن مضمون حديثهما، فيقول الوزير إن أحد الطيرين قد خطب ابنة الآخر، وهما يحاولان الاتفاق على المهر، فيقول له مهر ابنتى أن تترك هذه القرية لى وتبحث لك عن أخرى، فيقول له الآخر: اطمئن، فهذا الملك الذى يحكم هذه البقاع لو طال به العمر ستكون هناك قرىً خربة كثيرة، وبدل القرية الخربة الواحدة ستكون لك مائة ألف غيرها!! ويبدو أن نظامى كان يقصد من قصصه الشعرى الغرامى **تأكيد الفضائل والدعوة إلى الحب الروحى أو حب الله الدائم على حب الإنسان الفانى**، وذلك ما نخلص إليه من منظومته **خسرو وشيرين**، فبعد

أن يجتاز خسرو الصعاب، ويعانى الأهوال، ويعود منتصراً إلى حبيبته، تحاك له كذبة تنطلى عليه، بأنها قد ماتت، فيموت بدوره كمدا، ويسلم روحه لله. ونفس الدرس نخلص إليه من **ليلى والمجنون**، وبتعبير نظامى أن الدنيا لا نجنى منها إلا العناء، وقد عانت ليلى منها حتى توفاها الله، فأصابت الملك جُنة، ونظامى يتخيلها فى جَنّة إرم، وفيها ينال المحرومون ما حُرِمُوا منه، وينهلوا من السعادة والهناء، وفى الجنة لا وصب ولا تعب، وإنما هناء مقيم وسعادة أبدية، فإن الذى لا يتحصل فى دنياه على مناه، يتحصله فى أخراه.

■ ■ ■

أبو نعيم الأصبهانى

الحافظ أبو نعيم أحمد بن عبد الله الأصبهانى الشافعى، صاحب الموسوعة الصوفية المشهورة «**حلية الأولياء وطبقات الأصفياء**» فى عشرة أجزاء، كتبها ليدعم ما أسماه **بالتصوف الصحيح**، وأملاها من صدره بعد أن نيف على الثمانين، وضمنها ٤٦٩ ترجمة. وكانت ولادته بأصفهان سنة ٣٣٦هـ ووفاته بها سنة ٤٣٠ هـ، وكان جده محمد بن يوسف من الصوفية المشهورين، وهو أول من أسلم من أجداده، ويذكره أبو نعيم فى الحلية، وكان والده من العلماء، وقد حرص على أن يلحق ابنه بكبار المشايخ مثل جعفر الخُلدى والأصّم منذ السادسة من عمره. ودرس أبو نعيم بالعراق والحجاز وخراسان، وكان يعد طيلة أربعة عشر عاماً من خير الثقات فى الحديث، وإن لم يدخله الخطيب البغدادى الذى عاصره، وياقوت، ضمن من ترجما لهم من العلماء. ونشب الخلاف عنه بين الحنابلة والشافعية، ووجه إليه النقد الشديد أبو عبد الله بن مَنْده، مما تسبب فى أن يناله بعض الأذى بجسمه، وأن يتهجم عليه الناس، وأخرجوه من جامع أصفهان، فدعا على من كان بالجامع وشارك فى العدوان عليه وإخراجه، وقيل إن سبكتكين غزا أصفهان وذبح الناس المجتمعين للصلاة فى الجامع فنجا أبو نعيم، وكأن إخراجه كان لمصلحته، وعدّوا ذلك من كراماته. وهو يقول عن **منهجه** فى كتاب الحلية أنه يورد الأسماء وقد اختار منها أعلام المتحققين والأئمة، بدءاً من قرن الصحابة فالتابعين وتابعيهم ثم من يليهم ممن عرف الأدلة وباشر الأحوال والطرائق، فيورد الأحاديث عنهم، وبعض كلامهم. ويقول أبو نعيم إنه يصف هذه الموسوعة وفى باله قدح القادحين فى المتنطعين وأهل الدعاوى والمتشبهين والفسقة والإباحية والحلولية،

وليس ما يحل بهؤلاء من إنكار بقادح فى منقبة الأبرار من الصوفية. والمعيار الذى يحتكم إليه أبو نعيم فى اختياره لهذه الأسماء هو ما يمكن أن يكون للصوفية المتحققين من نعوت ظاهرة يعرفون بها، وعدد هذه النعوت عنده ثلاثة عشر نعتاً، فهم الصالحون العقلاء الذين ينقاد لهم الصالحون والعقلاء مثلهم، والجلوس إليهم يفيد جلاّسهم براً وذكراً، وهم المسلمون من الفتن والموقون من المحن، المضرورون فى الأطعمة واللباس، والمبرورة أقسامهم، وليقينهم تنفلق الصخور وتتفتق البحور، وبإخلاصهم ينصرون، ولقد نظروا إلى باطن العاجلة فرفضوها، ووضعوا ظاهر بهجتها وزينتها، وصانوا أنفسهم أن يغتروا بالدنيا ولم يبصروا منها سوى عظمة صانعها ومدبر أمورها، وشغفوا به وبوده، وكلفوا بخطابه وعهده، فهم الأتقياء والمخلصون، الحاكمون بالعدل والباذلون للفضل، المنبسطون جهراً والمنقبضون سراً، الموفون بالطاعات والموفون بالحقوق. **واسم التصوف** عند ابن نعيم مشتق من **الصفاء عند أهل الإشارات، وعند أهل اللغة** هناك **أربعة** احتمالات، فإما أنه مشتق من **الصوفانة** وهى بقلة صغيرة تنبت برياً، ويتقوت بها الصوفية فى سياحاتهم فعرفوا بها لما اختصوا بها، وإما أنه اشتقاق من **الصوفة** وهو اسم قبيلة عُرف أفرادها بخدمة الكعبة وأنهم نذروا أنفسهم لهذه الرسالة، فكل من يفعل فعلهم صار منسوباً إليهم فهو الصوفى، وإما أنه اشتقاق من **الصوف** المعروف على ظهور الضأن وهو لباس الصوفية لشدة فقرهم، وإما أنه من **صوفة القفا** وهى الشعرات النابتة فى القفا بالنظر إلى أن هؤلاء القوم يطيلون شعورهم فترسل على أقفيتهم لقلة اشتغالهم برسومهم وانشغالهم بالعبادة. **واسم التصوف يجمع فيه عشرة معان** هى: التقلل من كل شىء من الدنيا عن التكاثر فيها، واعتماد القلب مع الله، والرغبة فى الطاعات، والصبر عن فقد الدنيا، والشغل بالله عن سائر الأشغال، والتميز فى الأخذ عند وجود الشىء، والذكر الخفى عن جميع الأذكار، وتحقيق الإخلاص، واليقين، والسكون إلى الله عز وجل. **وكلام المتصوفة على ثلاثة أنواع، أولها** إشاراتهم فى التوحيد، والثانى كلامهم فى المراد ومراتبه، والثالث فى المريد وأحواله. ثم لكل نوع من الثلاثة مسائل وفروع يكثر تعدادها، **فأول أصولهم العرفان، ثم إحكام الخدمة والمداومة عليها. ومبانى المتصوفة المتحققة أركانها أربعة:** معرفة الله تعالى، ومعرفة أسمائه وصفاته وأفعاله، ومعرفة النفوس وشرورها ودواعيها، ومعرفة وساوس العدو ومكائده ومضاله، ومعرفة الدنيا وغرورها وتفنينها وتلوينها وكيفية الاحتراز منها والتجافى عنها، ثم ألزموا أنفسهم بعد توطئة هذه الأبنية دوام المجاهدة وشدة المكابدة وحفظ الأوقات واغتنام الطاعات ومفارقة الراحات والتلذذ بما أيدوا به من المطالعات وصيانة

ما خصوا به من الكرامات. وهم لم يفطعوا عن المعاملات، ولا ركنوا إلى التأويلات، ولا رغبوا عن العلائق، ولهم الأحوال الشريفة والأخلاق اللطيفة، الفرق يرعجهم والقلق يهيمهم، وقد جعلوا حبهم للحق، وفيه حياتهم وفناؤهم.

ويبدأ أبو نعيم كل فصل من فصول الموسوعة بعبارة **قال الشيخ** ويقصد نفسه. ويختلف كتابه عن الصوفية عن **كتاب السلمى الطبقات** أو كتب **ابن الملقن والشعرانى والقشيرى** وغيرهم حيث أنه لم يقتصر على الأقوال بل ضمنّه الحكايات. وقيل إن أبا نعيم عندما انتهى من تأليفه سافر به إلى نيسابور وعرضه هناك فبيع بأربعمائة دينار. وكان أبو نعيم ثقة فى رواياته فنقل عنه **ابن الجوزى** الكثير من المقتطفات فى كتابه **« صفوة الصفوة »**.

■ ■ ■

النِفَرىّ

العارف بالله محمد بن عبد الجبار النفرى، من نِفّر بين الكوفة والبصرة، اشتهر **بالمواقف والمخاطبات**، وله الكلام العالى فى الطريقة، وكان من العلماء البارعين فى كل العلوم، ومات سنة ٣٥٤ هـ. ومن مواقفه **موقف الإسلام**، يقول: أوقفنى الله عز وجل فى **الإسلام**، وقال لى: هو دينى فلا تتبع سواه، فإنى لا أقبل. وقال لى: هو أن تسلم لى ما أحكم لك، وما أحكم عليك. قلت: كيف أسلم لك، قال: لا تعارضنى برأيك، ولا تطلب علَى حمى عليك دليلاً من قبل نفسك، فإن نفسك لا ندلك على حقى أبداً، ولا تلتزم حقى طوعاً. وقلت: كيف لا أعارض، قال: تتبّع ولا تبتدّع. قلت: كيف لا أطلب على حقك دليلاً من قِبلَ نفسى، قال إذا قلت لك: إن هذا لك، تقول هذا لى، وإذا قلت لك: إن هذا لى، تقول إن هذا لك، فيكون أمرى لك هو مخاطبك، وهو المستحق عليك، وهو دليلك، فتستدل به عليه، وتصل به إليه. قلت: فكيف اتبّع، قال: تسمع قولى، وتسلك طريقى. قلت: كيف لا ابتدّع، قال: لا تسمع قولك، ولا تسلك طريقك. قلت: ما قولك، قال: كلامى. قلت: أين طريقك، قال أحكامى. قلت: ما قولى، قال: تحيرك. قلت: ما طريقى، قال: تحكّمك. قلت: ما تحكّمى، قال: قياسك. قلت: ما قياسى، قال: عجزك فى علمك. قلت: كيف أعجز فى علمى، قال: إنى ابتليتك فى كل شىء منى إليك، بشىء منك إلىّ، فابتليتك فى علمى بعلمك، لأنظر أتتبع علمك أو علمى. وابتليتك

فى حكمى بحكمك ، لأنظر أتحكم بحكمك أو بحكمى . قلت : كيف آتبع علمى ، وكيف أعمل بحكمى . قال : تنصرف من الحكم بعلمى إلى الحكم بعلمك . قلت : كيف أنصرف عن الحكم بعلمك إلى الحكم بعلمى . قال : تحلّ بكلامك ما حرمته بكلامى ، وتحرّم بكلامك ما حللته بكلامى ، وتدّعى على أن ذلك بإذنى ، وتدّعى على أن ذلك عن أمرى . قلت : كيف أدعّى عليك . قال : تأتى بفعل لم آمرك به ، فتحكم له بحكمى فى فعل أمرتك به ، وتأتى بقول لم آمرك به ، فتحكم له بحكمى فى قول أمرتك به . قلت : لا آتى بفعل لم تأمرنى به ، ولا آتى بقول لم تأمرنى به . قال : إن أتيت به كما أمرتك ، فقولى وفعلى ، وبقولى وفعلى ، يقع حكمى ، وإن أتيت به كما لم آمرك به ، فقولك وفعلك ، وبقولك وفعلك ، لا يقع حكمى ، ولا يكون دينى وحدودى .

وقال لى : إن سوّيت بين قولى وقولك ، أو سويت بين حكمى وحكمك ، فقد عدّلت فى نفسك . قلت : لا حكم إلا لقولك وفعلك . قال : فقهت ، قلت : فقهت . قال : لا تمل ، قلت : لا أميل . قال : **من فقه أمرى ، فقد فقه ، ومن فقه رأىَ نفسه فما فقه .**

ويقول النفرى فى **المخاطبات:** يقول الله عز وجل : ياعبد : لو لم أكتبك فى العارفين قبل خلقك ، ما عرفتنى فى مشهود وجدك لنفسك . ياعبد : إن لم تعرف من أنت منى ، لم تستقر فى معرفتى . ياعبد : إن لم تستقر فى معرفتى ، لم تدر كيف تعمل لى . ياعبد : إن عرفت من أنت منى ، كنت من أهل المراتب . ياعبد : أتدرى ما المراتب : مراتب العزة يوم قيامى ، ومراتب التحقيق فى يوم مقامى ، أولئك يلوننى ، وأولئك أوليائى . ياعبد : إعرف من أنت ، يكن أثبت لقدمك ، ويكن أسكن لقلبك . ياعبد : أنا أولى بك إن عقلت ، وأنت بى أولى إن حملت . ياعبد : لا أزال أتعرف إليك بما بينى وبينك ، حتى تعلم من أنت منى ، فإذا عرفت من أنت منى ، تعرفت إليك بما بينى وبين كل شىء . ياعبد : أنا العريب منك ، لولا قربى منك ما عرفتنى ، وأنا المتعرّف إليك ، لولا تعرفى إليك ما أطعتنى . ياعبد : إلجأ إلىّ فى كل حال : أكن لك فى كل حال !!

ويبلغ عدد المواقف ٧٧موقفاً ، وعدد المخاطبات ٥٦ مخاطبة ، ينهيها بمخاطبة أخيرة يطلق عليها **مخاطبة وبشارة وإيذان الوقت** ، ثم ينهى الكتابين جميعاً بموقف أخير يسميه **موقف الإدراك** . والكتابان لهما المكانة العالية بين فلاسفة الصوفية ، وعند أهل الفكر عموماً ، لما يتضمنان من نظرات بعيدة الغور ، وتحليلات تبلغ شأواً كبيراً من الروعة

والعظمة ، وقد كثر النقل منها عند الكثيرين ، ومنهم الشيخ الأكبر **محيى الدين بن عربى** صاحب التحفة الفريدة الفتوحات المكية .

■ ■ ■

النقشبندى

أبو البهاء ضياء الدين **خالد النقشبندى** المجددى العثمانى ، تمييزاً له عن أحمد السرهندى المجددى (الهندى) من أقطاب الطريقة النقشبندية ، وهو الذى بشّر بها فى البلاد العربية . ولد سنة ١١٩٠ هـ بقصبة قره داغ بالقرب من السليمانية ، وهاجر إلى بغداد فى صباه ، ثم رحل إلى الشام فى أيام داود باشا والى العراق سنة ١٢٢٨ هـ واستوطن دمشق وبنى بها مسجداً وأصلح الكثير من الجوامع المندرسة ، ومات بها سنة ١٢٤٢ هـ مصاباً بالطاعون . وله الكتب الكثيرة فى البلاغة والأصول والفقه والكلام ، وجمع له أسعد الصاحب رسائله فى الطريقة فى كتاب اسمه « **بغية الواجد فى كتابات مولانا خالد** » . ومن وصاياه للمريدين : أوصيكم وآمركم بشدة التمسك بالسنّة السنية ، والإعراض عن الرسوم الجاهلية والبدع ، وعدم الاغترار بالشطحات الصوفية ، وترك صحبة العوام والباشوات والأمراء والوزراء ، ولا تداخلوا الملوك والأغوات ، ولا تغتابوهم ، ولا تسبوهم ، وادعوا لهم بالصلاح ، ولا تدخلوا الطريقة أحداً منهم ومن أعوانهم ، ولا من التجار الجشعين ، ولا العلماء وطلبة العلم المستغلين الانتهازيين ، ولا من البّطالين الذين يستندون إلى الطريقة بسبب البطالة . وأوصيكم بتقوى الله ، وإكرام حملة العلم وحفظة القرآن ، والاشتغال بالقراءة وبعلم الفقه . ولعثمان بن سند كتاب فيه هو « **أصفى الموارد من سلسال أحوال الإمام خالد** » ، وكتب فيه أيضاً محمود الآلوسى « **الفيض الوارد على روض مرثية مولانا خالد** » ، وابن عابدين « **سلّ الحسام الهندى فى نصرة مولانا خالد النقشبندى** » .

■ ■ ■

النقشبندية

نسبة إلى مؤسسها **بهاء الدين محمد شاه نقشبند** المتوفى سنة ٧٩١ هـ . وقيل فى معنى **نقشبند** أو **نقش بندر** أنها ربط النقش ، والمقصود بالنقش انطباع القلب بالذكر ، وربطه أى بقاؤه من غير محو ، حيث تقوم هذه الطريقة فى التصوف على **الذكر** أساساً ، وتسمى أيضاً بأسماء عدة بحسب اسم إمام الوقت ، فهى كما قيل **صديقية** نسبة إلى أبى بكر الصديق ، **وطيفورية** نسبة إلى أبى يزيد طيفور البسطامى ، **وخوجكانية**

ونقشبندية أيضاً فى عهد رئيس الجوجكان بهاء الدين محمد شاه نقشبند ، **وأحرارية** بعد عبيد الله أحرار، ثم **مجددية وخالدية** وهكذا ، ومن قولهم أنها **طريقة الصحابة ،** ولذلك ينسبونها إلى أبى بكر الصدّيق ، كما ينسبونها إلى البسطامى . وكان إمامهم أحمد السرهندى المتوفى سنة ١٠٣٤هـ قد اشتغل بالطرق الثلاث التى سادت فى أيامه ، وهى القادرية والسهروردية والجشتية ، وارتاح إلى الطريقة النقشبندية وأخذ بها ، بدعوى أنها الأيسر والأصلح ، فقيل كذلك أن **النقشبندية أفضل طرق الصوفية للمريد الذى يطمع فى الوصول .** ويلاحظ أن الطريقة ظهرت وراجت فى أول الأمر بين المتحدثين باللغة الفارسية ، ولذلك فقد كانت الكلمات الفارسية بها كثيرة قبل أن يهاجر الإمام الثالث الذى يرتبط اسمه بها وهو الشيخ خالد النقشبندى إلى دمشق مبشراً بها ومرسلاً دعاته إلى البلاد العربية ، وقيل إن الكلمات الفارسية الأساسية الداخلة فى بناء الطريقة هى أحد عشر مصطلحا هى : **هوش دردم هوش** حيث هوش بمعنى العقل ، ودر ظرف ، ودم النفس ، والمعنى المراد أنه يبغى على السالك العاقل أن يحفظ نفسه عن الغفلة ليكون قلبه حاضراً مع الله تعالى فى كل زفرة وشهقة من أنفاسه ، **ونظر بر قدم** حيث بر بمعنى على ، والمقصود أنه ينبغى على السالك أن يستبقى نظره عند قدميه ، فلا يصعد نظره إلى الآفاق فيشغله ما يشاهد عن الذكر والتفكر فى الله تعالى ، **وسفر در وطن** أى السفر أو الانتقال إلى الوطن أو المقام ، فهو انتقال السالك عبر المقامات أو ذهاب السالك عن عالم الحق إلى جناب الحق ، **وخلوة دار انجمن ،** وانجمن تعنى جمعية الناس ، والخلوة منها الخلوة الظاهرة التى تكون باختلاء السالك فى بيت خال ، والخلوة الباطنة بالذهاب عن الخلق إلى الحق ، والمقصود أن يكون السالك برغم كونه مع الناس غائباً عنهم وحاضراً مع الحق ، **ويادكرد ،** وياد بمعنى الذكر ، وكرد أصلها كردن وسقطت النون تخفيفاً ، والمعنى تكرار الذكر بالقلب أو باللسان ، **وبازكشت** حيث باز هى الرجوع ، والمقصود رجوع الذاكر بذكره إلى الله ليحصل له الوصول بالذكر إلى المذكور عز وجل ، **ونكاه داشت** ومعنى نكاه هو الحفظ ، والمقصود أن السالك ينبغى عليه أن يحفظ قلبه من دخول الخواطر إليه ، **وياد داشت** بمعنى حضور القلب مع الله على الدوام ، **ووقوف عددى** أى الوقوف المتعلق بالعدد فى الذكر ووعى الذاكر بعدد مرات الذكر ، **ووقوف قلبى** وهو الوقف المنسوب إلى القلب ، يعنى وقوف قلب الذاكر على المذكور عند ذكره ، **ووقوف زمانى** أى مراقبة السالك لنفسه فى تغير أحواله فى زمنه وعبر مراحل أوقاته .

وفى **تعريف الطريقة** يقول النقشبندية أنها دوام العبودية لله تعالى ، ظاهراً وباطناً ،

بكمال الالتزام بالسنة، واجتناب البدعة والرخصة، فى جميع الحركات والسكنات، سواء فى العبادات أو العادات أو المعاملات، مع دوام الحضور مع الله وبالله تعالى على طريق الذهول والاستهلاك، **ولها أصلان** هما كمال اتباع النبى ﷺ، ومحبة الشيخ الكامل، ولها شرائط لابد منها للمريد **عددها أحد عشر**، منها أن لا يعترض فى قلبه على **أفعال الشيخ**، وألا ينسب نفسه إلى القصور، وأن يظهر خواطره بخيرها وشرها لشيخه، وأن يصدق فى طلبه فلا تغيره المحن، وأن لا يقتدى بجميع أفعال شيخه العادية إلا أن يأمره، وأن يبادر بإتيان ما يأمره، وأن يقطع علائقه بما سوى المقصود، وأن لا يكون مراده من الدنيا والآخرة غير الذات الأحدية، وأن يكون منقاداً مستسلماً لأمر الشيخ، وأن لا يظهر حاجة لأحد سوى الشيخ، وأن لا يغضب على أحد لأن الغضب يذهب بنور الذكر. **وآداب الطريقة التى يتعين بها المريد خمسة عشر أدباً**، منها أن يقصر اعتقاده على الشيخ، وأن يكون راضياً بتصرفاته ومنقاداً لها، وأن يسلب اختيار نفسه باختيار الشيخ، وأن لا يفعل ما يكرهه شيخه، وأن لا يتطلع إلى **تغيير الوقائع** والمناسبات والمكاشفات، وأن يغض الصوت فى مجلس الشيخ، وأن يعرف أوقات الكلام معه، وأن لا يكتم عنه أياً من أحواله وخواطره وكشوفه والكرامات التى تقع له، وأن لا ينقل من كلام الشيخ إلى الناس إلا القدر الذى يناسبهم ويليق بأفهامهم وعقولهم، وأن لا يطلب من الشيخ بعد قبوله له سوى أن يخدمه عن ميل ورغبة، وأن لا يتحمل تبليغ سلام الغير إلى الشيخ، وأن لا يتوجه إلا لما أراده الشيخ، وأن لا يتوضأ بمرأى الشيخ، وأن يبادر بإتيان ما أمره، وأن يأخذ بالتأدب الإلهى والذوق والوجدان الوهبى. **وطرق الوصول فى النقشبندية أربعة**، أولها هو أقواها وأعلاها، وهو **صحبة الشيخ** الكامل السالك، بشرط أن تكون صحبته له هى لخدمة الشيخ والانتساب إليه والافتخار به والإقبال عليه، وأن لا يعترض على أفعاله ولا ينكر له قولاً، لا فى الظاهر ولا فى الباطن، وأن يكون بين يديه كالميت بين يدى الغاسل فلا يخالفه فى شىء، وثانيها هو **الرابطة** أى الارتباط بالشيخ، وربط قلب السالك بقلبه وتعلقه به لأنه الكامل المتحقق بالصفات الذاتية، والموصل إلى مقام المشاهدة، وثالثها **الالتزام**، أى أن يلزم السالك نفسه بما يتلقنه عن الشيخ، ورابعها **الذكر**، والمقصود أن يكون حال السالك هو حال الذاكر لله على الدوام، وحال المتأدب بالذكر فيتطهر قلبه من المنهيات والهوى والحرص واتباع الشهوات، والذكر منه ما يكون باللسان، وما يكون بالقلب، وفى ذكر اللسان يحرص على أن يوقف قلبه على الله وينسى به ما سواه، وهو يفعله بالحرص الشديد على الأداء الأمثل فيقول اسم الجلالة «الله» لاصقاً اللسان بسقف

الحلق ، والأسنان بالأسنان ، والشفة بالشفة ، ويطلق تنفسه مع نطق الاسم بكل وعيه ووجدانه ، وكأنه يتخلل به كل جسمه ويملأ به قلبه وبصره وعقله ، مذكراً نفسه فى ابتداء الذكر وبين كل مائة منه فيقول اللهم أنت مقصودى ، ورضاك مطلوبى . وهناك ذكر آخر بخلاف ذكر اسم الذات ، وهو ذكر النفى والإثبات ، فالنفى هو لا إله ، والإثبات هو إلا الله ، ومع نطقها يتخيل لا تسرى فى الدماغ ، ثم إذا وصل إلى إله كان السريان بتخيله قد وصل إلى الكتف ، فإذا كانت **إلا الله** كان قد بلغ القلب ، يقولها بحرارة وفى صدق وإخلاص ، وبجماع نفسه وعقله وبدنه وقلبه ، فينفى بالنفى فى **لا إله** كل المحدثات ، ويثبت بالإثبات فى **إلا الله** ذات الحق ، ويقول فى آخرها **محمد رسول الله ،** يريد التقيد بالاتباع ، ويكرر ذلك على قدر طاقته واستعداده وبكل مايقر عليه من نَفَس ، ومع كل توحيدة يذكر قلبه بأن يذهب عقله مردداً **اللهم أنت مقصودى ورضاك مطلوبى ،** وذلك هو مناط الذكر : القصد إلى الله وطلب رضاه والتحقق به عمن سواه . والطريق الرابع هو **المراقبة** بأن يسقط السالك كل تدبير إلا تدبير الله ، وأن يحاسب نفسه ويراقبها واضعاً فى اعتباره أن الله مطلع عليه فى كل مايقول ويفعل ، وفى كل شهقة وزفرة وخلجة وخطرة . **(أنظر أحمد السرهندى وخالد النقشبندى) .**

■ ■ ■

نللينو

كارلو نللينو Nallino (١٨٧٢ ــ ١٩٣٨م) مستشرف إيطالى ، كانت عنايته بالتصوف والفلسفة والفقه والفلك والأدب والتاريخ الإسلامى ، وكان استاذاً للتاريخ والدراسات الإسلامية بجامعة روما ، وانتخب عضواً بالمجمع العلمى الإيطالى والمجمع العلمى العربى بدمشق والمجمع اللغوى بالقاهرة ، وتولى الإشراف على مجلة الدراسات الشرقية ومجلة الشرق الحديث ، ونشر كتاب البيان لابن رشد ، وحاضر فى الجامعة المصرية ، وله تاريخ الأدب العربى ، وحياة محمد **وشعر ابن الفارض والتصوف الإسلامى ،** وقصة سلمان وأبسال لابن سينا ، والفلسفة الإشراقية لابن سينا ، وقد نقله الدكتور عبد الرحمن بدوى فى كتابه التراث اليونانى فى الحضارة الإسلامية . وكتب فى دائرة المعارف الإيطالية عن ابن رشد وابن سينا والفارابى وابن جابر والغزالى وإخوان الصفا والإباضية .

■ ■ ■

النَّهْرجُورى

أبو يعقوب إسحاق بن محمد، نسبته إلى نهرجور بالقرب من الأهواز، وكان من علماء الصوفية، صحب الجنيد وعمرو بن عثمان المكى وأبا يعقوب السوسى، وأقام بالحرم مجاوراً سنين كثيرة ومات بمكة سنة ٣٣٠هـ، وكلامه فى **المعرفة والفناء والبقاء والصدق**، فأعْرفُ الناس بالله أشدهم تحيراً فيه، والذى اجتمع عليه المحققون فى حقائقهم أن الله تعالى غير مفقود فيطلب، ولا له غاية فيدرك، ومن أدرك موجوداً فهو بالموجود مغرور. وعنده أن الموجود معرفة حال وكشف علم بلا حال، ومن عرف الله لم يغتر به. والمشاهدة كما يراها نوعان، مشاهدة أرواح وهى تحقيق، ومشاهدة قلوب وهى تعريف. وسُئل عن **التصوف** فقال متحسراً تلك أمة قد خلت. **والطريق** إلى الله تعالى تكون باجتناب الجهلاء ومصاحبة العلماء واستعمال العلم ودوام الذكر. وقال لمّا طلب أهلُ الله الحقائق سادوا الخلائق. واليقين مشاهدة الإيمان بالغيب. والجمع عين الحق الذى قامت به الأشياء، والتفرقة صفوة الحق من الباطن. والفناء هو فناء رؤية قيام العبد لله، والبقاء هو بقاء رؤية قيام الله فى الأحكام. والعارف لا يصل إلى ربه إلا بقطع القلب عن ثلاثة أشياء: العلم والعمل والخَلْق. يقول:

العلمُ بى منك وطّأ العُذر عندك لى ... حتى اكتفيت فلم تعدل ولم تَلُم
أقامك علمُك لى، فاحتج عندك لى ... مقامَ شاهدِ عَدْلٍ غيرِ متّهم

وقال: الناس بما يكون به شبعهم، فمن كان شبعه بالطعام لم يزل جائعاً، ومن كان غناه بالمال لم يزل مفتقراً، ومن قصد بحاجته الخلق لم يزل محروماً، ومن استعان فى أمره بغير الله لم يزل مخذولاً. والمفاوز فى الدنيا والآخرة، ومفاوز الدنيا تقطع بالأقدام، ومفاوز الآخرة تقطع بالقلوب.

■ ■ ■

النورى (أبو الحسين)

أحمد بن محمد النورى البغدادى المتوفى سنة ٢٩٥هـ، ويعرف **بابن البغوى** نسبة إلى قرية اسمها بُغْشور بخراسان وإن كان قد ولد ونشأ ببغداد، وقيل اسمه النورى نسبة لقرية يقال لها نور، أو لنور أو حُسن فى وجهه، **وطريقته يسمونها النورية وتشبه طريقة الجنيد فقد كان من أقرانه**. والنورى صحب السرى السقطى وابن أبى الحوارى والقصاب، **وأساس طريقته الإيثار**، وهو اجتماعى يكره العزلة ويذم الانزواء

ويعلّم مريديه الصُحبة وحُسن العشرة. وحقيقة الإيثار عند النورية إنهم يحفظون حق صاحبهم فى الغيبة ويضحى كل منهم بنصيبه لصاحبه ويحتمل التعب ليريحه. ويروى عن النورى أنه لمّا سعوا عند الخليفة عن متزندقة الصوفية قبض العسكر على النورى وجماعته ضمن من قبضوا عليهم، وقضى الخليفة بإعدام الجميع بتهمة نشر الإلحاد، وجاء السيّاف وصفّهم بعد أن قيدهم فطلب النورى منه أن يسبق أصحابه، ولما ناقشه برّر عمله بأن طريقته مبنية على الإيثار، وهؤلاء أصحابه يفتديهم ولو بهذه الأنفاس القليلة، مبيناً أن النَفَس الواحد فى الدنيا خير من ألف سنة فى الآخرة، لأن الدنيا هى دار الخدمة والآخرة دار الغربة، ولا تُنال القربة إلاّ بالخدمة. وحمل السياف ما جرى بينه وبين النورى إلى الخليفة فتعجب وأمر بإعادة محاكمة جماعة النورى، واستمع القاضى لهم فكتب إلى الخليفة لو أن هؤلاء ملاحدة فليس على وجه الأرض موّحد واحد، فأطلق الخليفة سراحهم. وروى عن النورى أيضاً أنه كان يحمل غداءه من بيته فى الصباح متوجهاً إلى حانوته فيتصدّق به فى الطريق، ويظل صائماً بقية اليوم، فيظن أهل بيته أنه يأكل فى الحانوت، ويظن أهل السوق أنه يأكل فى بيته، وظل على هذه الحال عشرين سنة. **ومذهبه فى التصوف** أنه ترك كل حظوظ النفس، وأن التصوف ليس رسوماً ولا علوماً ولكنه قبل كل شىء أخلاق، وهو المعرفة بالله، ولكنها معرفة تكون فى الدنيا قبل الآخرة، فمن لم يعرفه أولاً فى الدنيا لن يعرفه فى الآخرة، ويقول إنه منذ أن عرف ربه ما اشتهى شيئاً ولا استحسن شيئاً، وأن الانقطاع عن ذكر الله عقوبة ينزلها العارف بنفسه، وأن الجمع بالحق هو التفرقة عن غيره، والتفرقة عن غيره هى سبيل الجمع به. ولما توفى النورى أبّنه الجنيد فقال **منذ مات رحمه الله لم يخبر عن حقيقة الصدق أحد.**

■ ■ ■

النيسابورى (أبو حفص)

عمر بن سلمة، وينسب لنيسابور، وصناعته الحدادة، ولذلك يقال أبو حفص الحداد، قيل توفى سنة ٢٧٠هـ أو نحوها، وتخرّج عليه عامة أعلام صوفية نيسابور، ومنهم أبو عثمان النيسابورى وشاه الكرمانى، وكان من أصحاب أحمد بن خضرويه، وكلامه وسلوكه فى **الفتوة** فهو الفتى حقاً، **والتصوف** عنده ليس إلا الآداب، ولكل وقت أو مقام أدبه، ومن لزم الآداب بلغ مبلغ الرجال، ومن ضيّع الآداب فهو بعيد

من حيث يظن أنه قريب، ومردود من حيث يرجو القبول. **وعلامة الفتوة** عنده أن الفتى إذا رأى الفتيان لا يستحى منهم فى شمائله وأفعاله، فهو مثلهم إن لم يبزهم، والفتوة سلوك وليست أقوالاً، وهى أداء الإنصاف للناس وترك الانتصاف لنفسه، **والرجولة** هى التى يقول فيها الله تعالى: **«رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه»**، أى كانوا بفعلهم وقولهم عندما عاهدوا الله عليه، فتركوا ما لهم والتزموا ما أمرهم به، والرجولة أخذ وعطاء، ومن يفعل ذلك فهو **الرجل**، وأما من يعطى ولا يأخذ فهو نصف رجل، ومن لا يعطى ولا يأخذ فهو همج لا خير فيه، ويفسر أبو عثمان كلامه بأن من يأخذ من الله ويعطى لله فهو الرجل، لأنه لا يرى فيه نفسه بأى حال من الأحوال، ومن يعطى ولا يأخذ فهو نصف رجل لأنه يرى نفسه كريماً وصاحب فضل، ومن لا يأخذ ولا يعطى فهو الهمج لأنه يظن أنه الآخذ والمعطى دون الله تعالى. واسم السخى لا يستحقه من يذكر العطاء أو يلمحه بقلبه، واسم البخيل يستحقه من لا يؤثر والناس فى حاجة. **والفتوة مع النساء** تعنى المعاشرة بالمعروف وحسن الخلق فيما ساءك ومن تكره صحبتها. وأبو حفص لا يدعى الخلق فهو يعرف أنه كان حداداً، وأنه سريع الغضب وقوى، وأنه ينسى نفسه فى كثير من الأحوال، ومن نسيانه أنه أدخل يده فى النار ليخرج الحديد منه حتى أن غلامه لمّا شاهد ذلك غشى عليه، إلا أنه يحاول أن لا يظهر عليه غضبه وأن يكبت غيظه، ويلتزم فى ذلك طريقة طريفة، فكان إذا استشعر الغضب تحدث فى الأخلاق وما ينبغى أن يتحلى به المرء منها، وعندئذ يهدأ رويداً، فإذا هدأ استأنف ما كان فيه. وتعليمه لمريديه كله رجولة وفتوة، ومؤداه حسن العشرة مع الإخوان، وحفظ حرمات الشيخ، والنصيحة للأصاغر، وترك الخصومات، وملازمة الإيثار، ومجانبة الادخار، وترك صحبة من ليس على طريقهم، ومعاونة الإخوان فى أمور دنياهم وآخرتهم. وهو يشخص الفساد فى التصوف بأنه بسبب فسق العارفين وكذب المريدين، ويفسر أبو عثمان فسق العارفين بأنه تهافتهم على الدنيا ومنافعها، وكذب المريدين أن يكون ذكرهم للخَلْق أغلب على قلوبهم من ذكر الله، وشوقهم لرؤية الناس أشد من شوقهم لرؤية الله تعالى.

■ ■ ■

نيكلسون

رينولد ألن نيكلسون Nicholson (١٨٦٨ ــ ١٩٤٥م) مستشرق إنجليزى، اشتهر

بتحقيقاته وبحوثه فى التصوف، ومن ذلك إخراجه **للمختارات من ديوانى شمس تبريزى الرومى** سنة ١٨٩٨، **وتذكرة الأولياء للعطار** (بين سنتى ١٩٠٥ و١٩٠٧) **وفارس نامه** بالاشتراك مع لسترانج سنة ١٩٠١، **والمثنوى والمعنوى لجلال الدين الرومى** مع ترجمة إنجليزية له (بين سنتى ١٩٢٥ و١٩٣٠). ونشر بالعربية الكتاب المرجع فى التصوف وهو **اللمع للسراج** سنة ١٩١٨، **وترجمان الأشواق لابن عربى** مع ترجمة وتعليق سنة ١٩١١، ومن ذلك ترجمته **لكشف المحجوب للهجويرى** سنة ١٩١١، **وأسرار النفس لإقبال** سنة ١٩٢٠. ومن بحوثه القيمة **«دراسات فى التصوف الإسلامى»** و**«مذكرات عن كتاب فصوص الحكم لابن عربى»**، وكتابه **«صوفية الإسلام»** وكتابه **«فكرة الشخصية فى التصوف الإسلامى»**.
وهو يقول فى مقدمة كتاب اللمع أنه قد آل على نفسه أن يؤرخ للتصوف الإسلامى وبخاصة لنشأته، وأن الزهد بخلاف التصوف ويمهد له، والزهد إسلامى خالص، ولكن التصوف يرجع فى نشأته إلى عوامل كثيرة، **نظرية** أبرزها الأفلاطونية المحدثة المتأخرة متمثلة فى أفكار ذى النون المصرى ومعروف الكرخى، والديانة المسيحية والمذهب الغنوصى، **وعملية** نتيجة احتكاك المسلمين بثقافات الهند وفارس الدينية متمثلة فى مذهب أبى يزيد البسطامى، وعلى ذلك فلا يمكن القول بأن التصوف إسلامى خالص أو أنه هندى فارسى، أو مسيحى، وإنما هو جماع كل ذلك. وله **ترجمات لابن الفارض ومعروف الكرخى ومحى الدين بن عربى وإبراهيم بن أدهم**، وبحث فى تطور التصوف وثبت بمصطلحاته عند الصوفية.

■ ■ ■

هـ

الهجويرى

أبو الحسن على بن عثمان بن على الغزنوى الجلابى الهجويرى، صاحب كتاب «**كشف المحجوب**» ويعد أقدم الكتب باللغة الفارسية فى التصوف وأشهرها، ولسنا نعرف الكثير عن الهجويرى، ومن المحتمل أنه توفى بين سنتى ٤٦٥ و٤٦٩ هـ فى لاهور، وقبره بها يزار، ويذكر الهجويرى أن له كتابين هما **الديوان ومنهاج الدين** فى التصوف أيضاً ولكنهما ينسبان إلى غيره، ولذلك فقد تحاشى فى تأليفه لكتاب كشف المحجوب أن يتمكن أحد من نسبة الكتاب إليه فذكر نفسه فيه كثيراً. وكان تأليفه للكتاب من الذاكرة، وذلك أنه كما يقول احتُجز فى لاهور عندما بلغها ولم يُسمح له بمغادرتها فألفّه فيها، وكان ذلك احتمالاً فى أواخر حياته، وكان بناءً على أسئلة قدمت إليه من واحد من أصحابه يدعى أبا السعيد الهجويرى، وتوخى أن يجىء كتابه بحيث يقدم صورة متكاملة عن التصوف لا مجرد أسماء وحكايات ومأثورات للصوفية، ويخاطب المؤلف القارىء على **طريقة المعلم** الذى يدرس لتلميذه، وهو يناقش الآراء التى يقدمها ويفند بعضها إذا لزم الأمر، وعلى ذلك فإن طريقته تتميز على طريقة القشيرى فى الرسالة، فضلاً عن أن المؤلف له **ميول فلسفية** واضحة وإن كان فى السنّة وليس من الشيعة، وهو يحاول أن يؤلف بين الدين والفلسفة، وتقوم **نظريته** على مقولة الفناء ولكنه لا يذهب فيها إلى حد أن يُدمج مع أصحاب وحدة الوجود، ويؤثر مع الجنيد **حالة الصحو** على حالة السكر، ويحذر المريدين من نبذ الشريعة، **فالعمدة فى التصوف** هو التزام الكتاب والسنة، ومع ذلك فهو يدافع عن الحلاج ضد خصومه

الذين اتهموه بانتحال الكرامات وافتعال ما من شأنه أن يبدو أن له كرامات، ويقول إن الحلاج قد يبدو من ظاهر كلامه أنه من أصحاب وحدة الوجود ولكنه ليس كذلك وإن كان الهجويرى لا يتابعه على أفكاره، ومع ذلك فإن ادعاء الهجويرى التزام السنة لا يستقيم مع شروحه التى يبديها لمختلف مدارس التصوف التى يعرضها، فهو فى كثير من الأحيان يبدو متعاطفاً معها ويحاول باستمرار أن يستعين بالتأويل لمدافعة الاتهامات التى قد تكال ضد هذه المدارس أو تلك. وعلى أى الأحوال فإن **خصيصة الهجويرى** فى هذا الكتاب أنه فارسى المشرب، وأنه ينتمى لنفس المدرسة التى أنجبت أبا سعيد بن أبى الخير وفريد الدين العطار وجلال الدين الرومى. ويبدو واضحاً أنه رغم نقله عن الذاكرة فإنه قد قرأ لمع الطوسى وطبقات السلمى، وأن هذين الكتابين فى باله وهو يعد مصنفه فى التصوف. والكتاب يتضمن خمسة وعشرين فصلاً عن التصوف والفقر ولبس الخرقة والملامة والملامتية وأهل الصفّة والتابعين وتابعيهم والمحدثين من أهل التصوف، ومعرفة الله (وبها ينشكف الحجاب الأول)، والتوحيد (يكشف الحجاب الثانى)، والإيمان (يكتشف الحجاب الثالث)، والتطهر من الذنوب (يكشف الحجاب الرابع)، والصلاة (وينكشف بها الحجاب الخامس)، والزكاة (وينكشف بها الحجاب السادس)، والصيام (وبه ينكشف الحجاب السابع)، والحج (ويكشف الحجاب الثامن)، والصحبة وقواعدها وأصولها (وهى مناط كشف الحجاب التاسع)، ولغة الصوفية ومدلولاتها (وفهمها يكشف الحجاب العاشر)، والسماع (وفيه يُكشف الحجاب الحادى عشر). ويبدو أن أهم فصول الكتاب هو **الفصل الرابع عشر** ويتناول أفكار بعض أعلام الصوفية كالجنيد والخواص والتسترى واختلافاتها عن أفكار الآخرين فى موضوعات كالفناء والأحوال والمقامات وترتيبها، ويوردها كمدارس عقائدية فالجنيدية نسبة للجنيد، والخرازية للخراز، والسهلية لسهل التسترى، والنورية لأبى الحسين النورى، والطيفورية لأبى يزيد طيفور البسطامى، والحلاّجية عند الحلاج، والحكيمية عند الحكيم الترمذى، والخفيفية لابن خفيف الشيرازى، والسيارية للسيارى، والمحاسبية للحارث المحاسبى، وكل مدرسة لها مشربها وروحها واهتماماتها التى تصطبغ بميول صاحبها الفكرية والمزاجية والنفسية وتتأثر بمحيطه الثقافى والشيوخ الذين أخذ عليهم، وعلى ذلك فهذه الدراسة هى **أول دراسة من نوعها فى التصوف**، وقد أثارت لذلك اهتمامات المستشرق **نيكلسون** فنقل الكتاب إلى اللغة الإنجليزية، واشتهرت ترجمته كما اشتهر الكتاب عن طريقه.

■ ■ ■

الهروى (الأنصارى)

شيخ الإسلام أبو اسماعيل عبدالله بن محمد بن على الأنصارى الهروى الحنبلى (٣٩٦ ــ ٤٨١ هـ) ونسبته **الأنصارى** لأنه من نسل الصحابى أبى أيوب **الأنصارى**، ونسبته **الهروى** لأنه من مواليد هراة، وبها نشأ وتوفى، وكان حنبلى المذهب وشديد التحمس للإمام أحمد بن حنبل، وصنف فيه كتاب «**سيرة الإمام أحمد بن حنبل**»، وكان قد بدا شافعياً، وتسبب له انتماؤه للحنابلة وتصوفه فى نفس الوقت فى الكثير من الحرج حتى تهددت حياته خمس مرات ونفى من بلده ثلاث مرات، فلا هو انتهى عن التحنبل، ولا هو امتنع عن مريديه، ولا سكت عن مخالفيه، وكان شديد الوطأة على خصومه واشتهر بكتابه «**ذم الكلام وأهله**»، وله فى التصوف «**المفاجأة**» و«**منازل السائرين إلى رب العالمين**»، و«**طبقات الصوفية**»، وأشهر هذه الكتب الثلاثة كتاب **منازل السائرين**، ولو لم تكن له قيمة فى ذاته فقد اكتسب هذه القيمة بالشروح التى صنفت عليه، ولعل أبرزها «**مدارج السالكين**» **لابن قيم الجوزية**، ومع أن كتاب الهروى لا يعدو الوريقات فإن كتاب ابن القيم كان فى ثلاثة مجلدات، وربما كان تطلع ابن القيم لشرح كتاب الهروى من منطلق أن الهروى كان حنبلياً وصوفياً فى نفس الوقت، وهو الاتجاه الذى اصطلح النقاد على إطلاق اسم **التصوف السنى** عليه تمييزاً له عن التصوف **الفلسفى** عند ابن عربى وابن سبعين وابن مسرة وغيرهم ممن قيل فيهم إنهم من أصحاب مذهب وحدة الوجود. ولقد اتهم الهروى بأنه من أنصار هذا المذهب، فقد ذهب فى تعريفه للفناء والتوحيد مذهباً يقربه من الاتحاديين، وقد عظّمه الاتحاديون لهذا السبب، وعدّوه منهم، وانتقده ابن تيمية وأخذ عليه هذه السقطة المستبشعة من شيخ كبير، وعالم جليل مثله، مشهود له بمجاهدة أهل الباطل، وهو الذى يصف نفسه فيقول :

أنا حنبلى ما حييت، وإن مت   فوصيتى للناس أن يتحنبلوا

والحقيقة أن تعريف الهروى كان تعريفاً مشكلاً، وربما كان تناول ابن القيم لكتابه لرفع اللبس عنه أولاً، ولإعادة الهروى إلى المدرسة السلفية كواحد من أقطابها، قد أثراها باتجاهاته الصوفية التى كان لابن القيم نفسه ميول إليها، فبنى على كتابه وطور أفكاره ووسع منها. وقد حاول الأئمة أن يدافعوا تهمة التجسيم عن الحنابلة. كما حاولوا أيضاً أن ينبهوا إلى أن الهروى لا يمكن أن يكون اتحادياً، وأن التفسيرات التى

أضيفت إليه من باب الاعتساف أو الإنكار عليه فقد كان الهروى حرباً على المتكلمين وراسخاً فى السنة لا يتزلزل ولا يلين، وقال بعض من أصحابه ليته لم يصنف هذا الكتاب، أو ليته كتب فى الزهد مثلما فعل ابن حنبل. ولكن يبدو أن التصوف كان غالباً على العصر، وابن حنبل نفسه ما كان يمتنع عن مجالسة الصوفية، وكان لا يستنكف عن سؤالهم فى مجلسه كلما كان هناك من المسائل ما كان جوابه عند الصوفية.

والهروى عندما يتناول التصوف فإنه يؤرخ لصوفية وقته ويذكر غيرهم، ومنهجه فى طبقات الصوفية يتوسط منهجَى عبد الرحمن السلمي وعبد الرحمن جامي. وعندما يذكر الصوفية يقول عنهم الفقراء، وتأريخه لهم كان بناء على طلب مريديه، وهو يكتب عنهم وعن أحوالهم ومقاماتهم سواء منهم من كان من أهل هراة أو من الغرباء على حد وصفه. وهو فى منازل السائرين يرتب هذه المقامات ترتيباً يشير إلى تواليها ويدل على الفروع التى تليها، ويخلى كلامه من كلام غيره، ويختصره ويربط المقامات بالقرآن والحديث، ليكون الكلام ألطف فى اللفظ وأخف على الحفظ، وجعل عدد المقامات مائة وقسمها إلى عشرة أقسام، وعنده أن العبد لا يصح له مقام حتى يرتفع عنه، ثم يشرف عليه فيصححه. ويعيب على من سبقوه من المصنفين فى مجال التصوف أن تصانيفهم غير كافية ولا مغنية، حيث قد أشار بعضهم إلى الأصول ولم يف بالتفصيل، وجمع بعضهم الحكايات ولم يلخصها، ومنهم من لم يميز مقامات الخاصة وضرورات العامة، ومَنْ عد شطح المغلوب مقاماً وجعل بوح الواجد ورمز المتمكن شيئاً عاماً، غير أن الاتفاق بين الجميع على أن النهايات لا تصح إلا بتصحيح البدايات، كما أن الأبنية لا تقوم إلا على الأساس، وتصحيح البدايات كما يراه الهروى هو إقامة الأمر على مشاهدة الإخلاص ومتابعة السنة وتعظيم النهى ورعاية الحرمة وبذل النصيحة ومجانبة كل صاحب يفسد الوقت وكل سبب يفتن القلب. والناس فى هذا الشأن ثلاثة نفر: رجل يعمل بين الخوف والرجاء، شاخصاً إلى الحب مع صحبة الحياء وهو الذى يسمى **المريد**، ورجل مختطف من وادى التفرق إلى وادى الجمع ويقال له **المراد**، ومن سواهما مدع مفتون مخدوع. وجميع هذه المقامات تجمعها رتب ثلاث، الأولى أخذ القاصد فى السير، والثانية دخوله فى الغربة، والثالثة حصوله على المشاهدة الجاذبة إلى عين التوحيد فى طريق الفناء. والإسناد فى الرتب الثلاث إلى قول الرسول فى الأولى: سيروا سبق المفردين. قالوا وما المفردون، قال المهتزون الذين

يهتزون فى ذكر الله عز وجل ، يضع الذكر عنهم أثقالهم فيأتون يوم القيامة خفافاً . وفى الثانية قوله طلب الحق غربة . وفى الثالثة أى معنى المشاهدة قوله فى الإحسان : أن تعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك . والفرق بين المقامات الثلاثة هو الفرق بين درجة العامة ودرجة السالك ودرجة المحقق ، ولكل منهم شرعة ومنهاج ووجهة . والأقسام العشرة التى يقسم المقامات إليها هى : البدايات والأخلاق والأحوال والأبواب والأصول والولايات والنهايات والمعاملات والأودية والحقائق . والبدايات مثلاً عشر ، هى اليقظة والتوبة والمحاسبة والإنابة والتفكر والتذكر والاعتصام والفرار والرياضة والسماع ، وكل واحدة منها يقسمها بدورها ثلاثة أقسام ، فالتوبة مثلاً لا تصح إلا بعد معرفة الذنب ، وهى أن تنظر إلى ثلاثة أشياء : إلى انخلاعك من العصمة حين إتيانه ، وفرحك عند الظفر به ، وقعودك على الإصرار عن تداركه مع يقينك بنظر الحق إليك . وشرائط التوبة ثلاثة أيضاً : الندم والاعتذار والإقلاع . وحقائق التوبة ثلاثة كذلك : تعظيم الجناية واتهام التوبة ، وطلب إعذار الخليقة . وسرائر حقيقة التوبة ثلاثة : تمييز التقية من العزة ، ونسيان الجناية ، والتوبة من التوبة أبداً . ولطائف سرائر **التوبة ثلاثة** ، وتوبة العامة تدعو إلى ثلاثة ، وكذلك توبة الأوساط ، وتوبة الخاصة ، وأيضاً فإن مقام التوبة لا يتم إلا بثلاثة . وهكذا فى كل الأقسام فإنه يجعلها عشرة ، ثم يجعل كل قسم ثلاثة . وكلامه فى التعريفات شديد الإيجاز وقد يغمض لذلك فى كثير من الأحيان ، وهو ما استدعى من الشارحين أن يشرحوه ، وقد حملوه أحياناً ما لا يحتمل فجرّحوا الهروى ، وكان نقد الكثيرين له سواء من الأشاعرة خصومه أو من السلفية من أصحابه كما سبق أن نوهنا . ويتبقى مع ذلك كتاب **منازل السائرين** تحفة فى الأدب الصوفى بأسلوب الهروى الرفيع فيه ، وهو ما اشتهر عنه ، فقد كان مبدعاً غاية الإبداع فى تخريجاته وألفاظه ومصطلحاته وتعبيراته .

■ ■ ■

هيار Huart

(١٨٥٤ ـــ ١٩٢٣م) مستشرق فرنسى كانت له اهتمامات بالطرق الصوفية خاصة **البكتاشية والمولوية** ، وتوفر على دراسة القيمة التاريخية **لمذكرات الدراويش** ، وروى الكثير من الطرائف والحكايات عنهم ، **وترجم منتخبات من الشعر الصوفى لعفيف الدين التلمسانى** ، **وكتاب مناقب العارفين لشمس الدين أحمد الفلكى** ، وكانت

له الكثير من البحوث فى المجلة الآسيوية ، واشترك فى مؤتمر المستشرقين الذى عقد بالجزائر سنة ١٩٠٥، ثم فى مؤتمر كوبنهاجن سنة ١٩٠٨، وكان استاذاً للعربية والفارسية والتركية بمدرسة اللغات الشرقية ، ومديراً لمدرسة الدراسات العليا ، وكان يحاضر فى تفسير القرآن باللغة العربية ، وانتخب رئيساً لمجمع الكتابات والآداب وعضواً بالمعهد الفرنسى والجمعية الآسيوية والمجمع العلمى بدمشق .

■ ■ ■

و

إبن واسع

أبو بكر **محمد بن واسع** بن جابر الأزدى (المتوفى سنة ١٢٣ هـ)، كان **قرآءً وبكّاء**، وصفه الحسن البصرى فقال إنه **زين القُرّاء**، وقال مالك بن دينار القراءون ثلاث طوائف، فقراءون للأغنياء أو للدنيا، وقراءون للملوك، وقراءون للرحمن. ومحمد بن واسع من **قرآء الرحمن**. وكان يبكى لدى سماعه القرآن، وكلما تفكر فى الله، وفى الآخرة. وبكاؤه **متكتم**، وكان يعيب على من يسمع القرآن ولا يبكى، ويعيب على من يكون بكاؤه مسموعاً، ويقول: أدركنا الناس وهم ينامون مع نسائهم على وسادة واحدة، ويبكون حتى تبتل الوسادة من دموعهم فلا تشعر نساؤهم ببكائهم لعشرين سنة. وكان رحمه الله يلبس **الصوف**، ودخل على الوالى يوماً فسأله ما دعاه إلى لبس **الصوف**، فسكت، فقال له أكلمك فلا تجيبنى، فقال أكره أن أقول: «**زاهد**» فأزكى نفسى، أو «**فقير**» فأشكو ربى عز وجل. وكان يقول: من زهد فى الدنيا فهو مالك الدنيا والآخرة. ويقول: من أقبل بقلبه على الله أقبل بقلوب العباد إليه. وكان شديد الإحساس بالذنب حتى قال: لو كانت للذنوب ريح ما قدرتم أن تدنو منى من نتن ريحى، يقصد أنه كثير الذنوب. وعرضوا عليه قضاء البصرة فرفض، وهدده الوالى فقال: ذل الدنيا ولا ذل الآخرة، وعاتبته زوجته على رفضه وقالت: لك عيال وأنت محتاج، فقال: ما دمت ترينى أصبر على الخل والبقل فلا تطمعى فى هذا منى، يقصد قبول منصب القضاء. وكان رحمه الله من ثقات أهل الحديث، وروى أنه دخل على بلال بن أبى بردة وقال له: يا بلال، إن أباك حدثنى

عن أبيه عن النبي ﷺ قال: «إن في جهنم وادياً يقال له هبهب، حقاً على الله أن يسكنه كل جبار»، فإياك يا بلال أن تكون ممن يسكنه. واشترك مع يزيد بن المهلب في غزو خراسان، واستأذن منه للحج فأذن له، فسأله: اتأذن به للجيش كله، فقال يزيد لا، فقال ابن واسع: إذن لا حاجة لي بالحج. وتلك سخاوة نفس فلم يرخص لنفسه دون إخوانه في الجهاد. وكان مع قتيبة بن مسلم في خراسان، وخرج عليهم الترك فأرسل قتيبة يجمع المجاهدة وسأل عمن يكونون بالمسجد، فقيل له ليس إلا محمد بن واسع يضنضن بإصبعه نحو السماء، فقال: تلك الإصبع أحب إلىّ من ثلاثين ألف سيف.

ومن كلامه في الخطايا: أربع يمتن القلب، الذنب على المذنب، وكثرة مثافنة النساء وحديثهن، وملاحاة الأحمق — تقول له ويقول لك — ومجالسة الموتى. وسألوه ما مجالسة الموتى، قال: مجالسة كل غني مترف وسلطان جائر. وكان يدعو الله ويقول: استغفرك ربي من كل مقام سوء، ومقعد سوء، ومدخل سوء، ومخرج سوء، وعمل سوء، وقول سوء، ونية سوء. استغفر منه فاغفرلي، وأتوب إليك منه فتب عليّ. وكان يصوم ولا يُظهر للناس صيامه، والمبدأ الذي يصدر عنه في زهده عن الطعام أن: من قلّ طعامه فَهِمَ وأَفْهَمَ، وصفّ ورقّ، وإن كثرة الطعام لتثقل صاحبه عن كثير مما يريد.

■ ■ ■

وفـــا

أبو الحسن **علي** بن محمد بن **وفا**، القرشي الأنصاري الشاذلي المالكي، كان مولده سنة ٧٦١هـ بالقاهرة، ووفاته بها سنة ٨٠٧هـ، وله التصانيف منها **المسامع الربانية، ومفاتيح الخزائن العلية، والباعث على الخلاص في أحوال الخواص، والعروش، والكوثر المترع من الأبحر الأربع**، وله ديوان شعر وموشحات، وشعره كما يقول السخاوي ينطق **بالاتحاد**، وكذلك كان شعر أبيه **محمد وفا** في مرحلته الأخيرة، وكثر أتباعه وأتباع أبيه من أصحاب **الطريقة الوفائية**، وكان يرتب لهم الأذكار بالتلاحين التي يستميل بها القلوب، وقال عنه **المقريزي والشعراني** أنه كان مهيباً عظيماً، وفي غاية الظرف والجمال حتى لم ير في مصر من هو أجمل منه وجهاً ولا ثياباً، وأعطاه الله لسان الفرق والتفصيل زيادة على الجمع، وله كلام عالي في الأدب، ووصايا نفيسة،

ومن ذلك قوله فى العارف بالله والمريد والأستاذ والدعاة : كل ما أرضى **العارف بالله** أرضى معروفه ، وكل ما أغضبه أغضب معروفه ، فاعلموا أيها **المريدون** على أن يرضى عنكم **العارفون** إن أردتم رضا ربكم ، واحذروا فإن العكس فى العكس . والمريد الصادق ليس له أن يفارق إمام حضرة هدايته أبداً ، واعرف يا مريد من هو مرادك ، ويا تلميذ من هو أستاذك ، والزم تغنم . وأستاذك أعلم بك منك ، لأنه حقيقتك وأنت ظلمة ، ومعرفتك بحقيقتك على قدر معرفتك بأستاذك . وما لم يرتفع حكم المغايرة لأستاذك عندك فأنت بالحقيقة لا شك ضائع . وصورة الأستاذ الناطق مرآة سر المريد الصادق ، إذا نظر فيها ببصيرته شهدها على صورة سريرته ، فأول مبادىء المريد أن تتحلى طويته بسمات أهل الفلاح والولاية ، فإذا كشف لبصيرته عن أستاذه رأى صورة صلاحه وولايته فى صفاء صورة أستاذه ، فينطو أن أستاده هو الصالح الولى ، فيستمد من بركات ملاحظته المتوالية وهممه العالية ، ولا يزال مطلبه من الأستاذ دعواته وخواطره ، فيتودد إليه ويراه عظيماً فيسفر حجاب صورته الآدمية عن جمال ما خصه الله من الروح المحمدية ، فهناك يشهد أستاذه سيداً محمدياً ، ويكون له عبداً ، ولا يجعل له فى سواه أرباً ولا قصداً ، إلى أن ينزع الله منه نزغة الزيغ ويغشى سدرة سر الأنوار الروحانية ، فينظر إلى أستاذه ، فلا يرى إلا الواحد يتجلى فى كل مشهد على قدر وسع الشاهد ، فيصير عدما بين يدى وجوده ، ومحواً فى حضرة شهوده ، فهكذا يكون المريد الصادق مع أستاذه : أول أمره توفيق ، وأوسطه تصديق ، وآخره تحقيق . واعلموا أن من ليس له أستاذ ليس له مولى ، ومن ليس له مولى فالشيطان به أولى . والمريد من تحقق بمراده فى عين أستاذه . ومن وافق أستاذه فى أفعاله ، طابقه فيما أخبر له من معارفه ، ومن خالفه فى أفعاله فَقَدَ المطابقة بتوهم معانى أقواله . ولفلاح المريد مع أستاذه ثلاث علامات : أن يحبه بالإيثار ، ويتلقى منه كل ما سمعه بالقبول ، ويكون معه فى شئونه كلها بالموافقة . ومن تقرب إلى أستاده بالخِدَم تقرب الله إليه بالكرم . ومن آثر أستاذه على نفسه كشف الله تعالى له عن حظيرة قدسه . ومن نزّه حضرة أستاذه عن النقائص زاده الله تعالى من الخصائص . ومن احتجب عن أستاذه طرفة عين أوثقه الله فى موابق البين ، وما بين المريد وبين مشاهدة أستاذه إلا أن يجعل مراده بدلاً عن مراده ، ومن لم ينبه أستاذه عن النقائص لم تكن له فرحة بحضرة بالخصائص ، ومن لم يجعل الله له نوراً فما له من نور . وسئل هل لمريد الحق أن يتعاطى ما يشغله عن مراده ، فقال : لا ، فقيل فما الحكمة فى إذن الشارع ﷺ لأمته فى التزويج ، وفيه من التشغل ما لا يخفى ، فقال : لأنه لما رأى النفوس البشرية مغلوبة لعوارضها المزاجية ، أذِنَ لها فيما يفك عنها غلبة تلك

العوارض عليها، لئلا تشغلها عنه، وشرط عليها مساس الحاجة ليكون الشغل فى ذلك به لاعنه. ألا ترى قوله تعالى: **ذلك أدنى أن لا تعولوا**، والعول الزيادة، أى أدنى أن لا تميلوا عن مولاكم إلى ما دونه، فمن تزوج بنّية صالحة كان عابداً لله تعالى بتزوجه، مع أن ذلك من ضمنه العصمة له من الزنا الذى هو أعظم الحجب عن الله تعالى، وأما من تزوج لمحض الشهوة فقط، فذلك الذى يشغله الزواج عن ربه. والأحق بالعبد هو مبدأ حقيفته الروحانية من مبدأ حقيقته الجسمانية، فإذا علمت هذا فقدم أمر ربك الذى هو مبدؤك. يقول تعالى **فنفخت فيه من روحى**، فهو تعالى أحق بك وأرحم، وأفرح بك من أمك وأبيك ومن كل شيء دونه، فافهم. ولما كانت حواء مظهر صورة شهوة آدم الباطنة، كانت المرأة لا ترى قط إلا شهوة جسمية، لا تدرى ما فوق ذلك، ولا تتوجه همتها إلى أعلى منه، ولا تنظر قط فى العواقب، وإنما تسرع إلى ما يحرك الوهم البهيم شهواتها إليه. وكم من الأشياء تعد كمالاً فى الخلق وهى نقص فى الحق، كالأزواج والذرية، فإن قيل لولا الزواج ما حصل النتاج، فقل لهم بل كان يحصل من حيث حصل فى آدم عليه السلام، وإنما محض التعريف للأسباب هو أكْلَة النهى، الموجبة لتسليط ما فى الضرورات من العقاب، فافهم.

■ ■ ■

وفــا

محمد بن محمد بن عمر بن شاهين (١١٧٩ ــ ١٢٦٤ هـ) ولقبه الشيخ **وفا الرفاعى** أو الشيخ وفا أو وفائى، من شيوخ حلب، وله «**الفصول الوفية في السادة الصوفية**» ورسالة فى **جوامع حلب وتكاياها وأسماء الأولياء المدفونين فيها**، وله موشحات وقدود كانت تنشد بين يديه فى حلقات الذكر.

■ ■ ■

وفــا

أبو الفضل محمد بن محمد بن محمد السكندرى، رأس **الوفائية**، كان شاذلياً، ولد بالإسكندرية سنة ٧٠٢ هـ، وتوفى بالقاهرة سنة ٧٦٥ هـ، وأصله مغربى، وقيل أصل الوفائية من صفاقس، وقيل كنيته كذلك أبو الفتح وأبو التدانى، وفى بعض المراجع اسمه محمد وفاء، وسبب التسمية بوفاء فيما يظهر أن الشيخ كانت له كرامات، ومنها

أن النيل تأخر فيضانه ، وهددت المزروعات ، فكان أن ذهب الشيخ إلى الشاطىء فى الروضة وأمر النيل بالوفاء . فحدث أن الماء زاد فيه فى تلك الليلة زيادة كبيرة حتى أوفى ، فسموه « **وفا** » . وكان نابغاً فى النظم رغم أنه أمى ، وأنشأ القصائد على طريقة **عمر بن الفارض** ، وكان قد ترك الإسكندرية إلى أخميم من الصعيد ، وصار له المريدون والأتباع ، فانتقل إلى القاهرة ، وكان واعظاً وله لسان غريب فى التصوف ، وله مؤلفات كثيرة ، منها **نفائس العرفان من أنفاس الرحمن ، وشعائر العرفان فى ألواح الكتمان ، والمقامات السنية المخصوص بها السادة الصوفية** . ولما حضرته الوفاة خلع منطقته على الأبزارى صاحب الموشحات ، واستودعها عنده حتى يكبر ابنه علىٌّ ، فلما كبر وأسلمها له قيل إنه لم يعد يعرف عمل الموشحات كالسابق . **ومن كلامه :** أعوذ بالله من شياطين الحق والكون ، وأبالسة العلم والجهل ، وأغيار المعرفة والنكرة . اللهم إنى أعوذ بك وبسبق قدمك من سر حدودك .. وأعذنى يا الله بك منك ، واغننى بديمومتك وبإحاطة وجودك وقيوميتك .. وغيّبنى فى ظلمة ذاتك التى تعجز فيها الأبصار والبصائر ، ويستحيل فيها معارف العقول الإلهية ذات الأسرار والسرائر . واستغفرك بلسان الحق لا بلسان الوقاية والنظر ، وبعين التلاشى لا بعين الرعاية . سبحانك من وجه ما أنت ، لا من وجه ما أنا .. وسبحانك فى الحيث الذى لا يلتحق به البقاء ولا الفناء .. اللهم أرنى وجهك لا من حيث كل شىء هالك . اللهم إنى أسألك بذات عدمك وبذات وجودك ، وبالذات المجردة ، وبالذات المتصفة بذات التكوين والتلوين ، وبالذات الفاعلة ، وبالذات المنفعلة . اللهم اجعلنى عينا لذات الذوات ، ومشرقاً لأنوارها المشرقات ، ومستودعاً لأسرارها المكتتمة فى غيوبها المبهمات . اللهم إنى أنزهك عن أوصاف الجسم والنفس والعقل والقلب ، وأنزهك عن كل ذلك ونِدّه ومثله وخلافه وغيره ، تنزيهاً معجوزاً عن تصوره وتوهمه . ويقول : قال لى الحق : أيها المخصوص ، لك عندى كل شىء مقدار ، ولا مقدار لك عندى ، فإنه لا يسعنى غيرك ، وليس مثلك شىء . أنت عين حقيقتى ، وكل شىء مجازك ، وأنا موجود فى الحقيقة معدوم فى المجاز . ياعين مطلعى ، أنت الحد الجامع المانع لمصنوعاتى إليك ، يرجع الأمر كله إلى مرجعك ، لأنك منتهى كل شىء ، ولا تنتهى إلى شىء . طويت لك الأرضين السبع فى سبع من الحب والنوى ، المتنوعة بالفعل إلى أصناف من نبات شتى ، فإذا شئت نشرها أولجت فيها جواهر السماء فاهتزت وربت ، وأنبتت من كل زوج بهيج . إن الذى أحياها لمحي الموتى وهو على كل شىء قدير ، فإذا تكامل خلقها وتكوّن ، وتزين كونها ، سعت على أقدام الإقدام لمسجدك الأقصى بحكم الاستقصا ، فتخر ساجده سجود

العبودية لأرباب حواسك الكلية والجزئية ، تسبحك بألسنة التقديس ، وتقدسك بأفواه التنزيه ، وتعظمك تعظيم مخلوق لخلاّق ، فأملاكها تسبح وتحمد ، وأفلاكها تقوم وتسجد ، وأنت جالس فى مجلس سلطانك ، مستو على عرش ناطقة إنسانك ، قد تلا لسان الإحسان بمحضر الأكوان ، **وخشعت الأصوات للرحمن فلا تسمع إلا همساً .**

■ ■ ■

ى

اليافعى

عفيف الدين عبدالله بن أسعد اليافعى (٦٩٨ ــ ٧٦٨هـ) نسبته إلى يافع من حمير، ومولده ونشأته فى عدن، وله «**نشر المحاسن الغالية فى فضل مشايخ الصوفية أصحاب المقامات العالية**»، و«**روض الرياحين فى مناقب الصالحين**» و«**أسنى المفاخر فى مناقب الشيخ عبدالقادر**»، قال فيه الدكتور زكى مبارك مؤلفاته الصوفية تعد من المراجع وفيها أدب وذوق، وأشهر كتبه روض الرياحين ويفيض بأخبار الكرامات، وهو من هذه الناحية كتاب ضعيف لأنه «يضيف المؤلف إلى طائفة المغفلين الذين يصدقون كل شيء»، ولكنه مهم جداً لما فيه من الأخبار الصوفية التى تنفع من يهمه أن يعرف شمائل أولئك الناس. وأما كتابه نشر المحاسن الغالية فهو ممتع لأنه شرح للأحوال والمقامات بأسلوب جميل، ولأنه دوّن فيه أكثر ما أنشأ من المنظومات الصوفية. ومنظومات اليافعى فن وسط، فلا هى بالشعر المطبوع، ولا هى بالنظم المتكلف، وهى فى جميع أحوالها من أثر الصدق، وأظهر ما فيها الشعر الرمزى الذى تجرى فيه الصبابة على الأساليب الحسية وهى فى ذاتها معنوية كقوله:

شربنا حُميّا الكأس فى قدس حضرة ... وأكرم بها فى حضرة القُدس من خمر

لنا عُصرت من كَرْم نور جمال مَن ... سقانا وقد غبنا وحرنا فما ندرى

سكرنا بها من شمها قبل شربها ... نشاوى بريّاها إلى آخر الدهر

أو السكر ذا من رؤية الكأس أو أتت ... به رؤية الساقى إلينا ذوى السكر

واليافعى له شعر فى الصوفية يقول :

رجال لهم علم بما جهل الورى ... لهم صار مكشوفاً متحى حجابُه
فأسرار غيب عندهم علم كشفها ... وقد سكروا مما يطيب شرابه
أولئك هم أهل الولاية نالهم ... من الله فيها فضله وثوابه
وقربه وأنس واجتلاء معارف ... ووارد تكليم لذيذ خطابه
بترك الهوى أمسوا يطيرون فى الهوا ... ويمشون فوق الماء أمْنٌ جنابُه
ملوك على التحقيق ليس لغيرهم ... من الملك إلا إسمه وعقابه

واليافعى من أشد المدافعين عن الحلاج وعبدالقادر الجيلانى ، ويفرد كلاماً كثيراً يشرح به قول الجيلانى «قَدَمِي هذا على رقبة كل ولى» ، والبيت الذى يختم به منظومته التى أولها :

ما فى المناهل منهل مستعذب ... لا ولىٍ فى الألذ الأطيب

ويقول فيه :

أفلت شموس الأولين وشمسنا ... أبداً على فلك العلى لا تغرب

ولعل الجديد عند اليافعى هو اعتذاره عما يصدر من بعض الصوفية من التخريب المقتضى للإنكار ، كتعاطى ما يؤدى إلى إساءة الظن بهم وسقوطهم من قلوب الخلق ورميهم لهم بالعظائم ، لا يحتفلون بمدح الخلق ولا بذمهم استجلاباً لكمال الإخلاص واستبراء للنفس من شوائب الشرك الخفى الذى لا يسلم منه إلا الخواص ، لا يبالى أحدهم بكونه بين الخلق زنديقاً إذا كان عند الله صديقاً ، فبعضهم يوهم الناس أنه لا يصلى ولا يصوم ، وهو يصلى ويصوم فى الباطن فيما بينه وبين الله تعالى ، وبعضهم يكشف عورته بين الناس ، وبعضهم يشتم الناس بالألفاظ القبيحة ، وبعضهم يجعل قصبته بين رجليه ويعدو عليها كأنها فرسه ، وبعضهم يشتمل ببعض الحرف الدنيئة ، وبعضهم جاء بعض الملوك فاستدعى بطعام وجعل يأكل أكلاً بشيعاً شنيعاً ، وبعضهم يأخذ شيئاً للناس حتى ينسبوه إلى اللصوصية وتزول عنه شهرة الصلاح ، وإلى ذلك يشير اليافعى فى شعره فيقول :

كما فعل الخوّاص فى لبس خُلعة ... ابن ملكٍ بحمامٍ لغسل تجرداً

حيث أن الخوّاص وقد أراد أن يزيل عنه شهرة الصلاة فدخل الحمام ووجد لباس ابن الملك قد نزعه ووضعه عند الحمامي ليحفظه له، فغفل الحمامي عنه فلبسه الخواص، ولبس من فوقه ثيابه وخرج يمشي رويداً حتى يلحقوه وينسبوه إلى اللصوصية فتزول عنه شهرة الصلاح، وقد لحقوه فعلاً وضربوه وأطلقوا عليه اسم **لص الحمام**، فقال لنفسه ههنا طاب المقام.

ويقول الدكتور زكي مبارك إن أهمية شعر اليافعي أنه ينشر الثقافة الصوفية، ولكن غرامه بنظم الشعر في كل شيء، وفي جميع المعاني والأغراض، يدل على أنه كان في أكثر أحواله من المتكلفين.

■ ■ ■

إبن يزدانيار

أبو بكر الحسين بن علي بن يزدانيار من أُرْمَية وإن كان الشعراني والقشيري يذكران أنها أرمينية، وأرمية إحدى مدن **أذربيجان وقيل** هي مدينة زرادشت. وابن يزدانيار عاش قبل القرن الرابع الهجري **وكان شديد النقد على الصوفية وله طريقته الخاصة وتعريفاته**، ومما يروى له أن **صوفية خراسان** عمل ولا قول، **وصوفية بغداد** قول ولا عمل، **وصوفية البصرة** قول وعمل، **وصوفية مصر** لا قول ولا عمل، وهو فيما نعلم أول قول تظهر فيه **الشعوبية** في مجال التصوف، ويظهر التحامل على مصر والمصريين بشدة لدرجة تجريد التصوف المصري من كل قول وعمل بما يعني أنه لا وجود للتصوف في مصر، ويبدو أن هذا الصوفي الفارسي قد ووجه بالإنكار عليه من قبل صوفية العراق فتراجع عن قوله فيهم وادعى أنه رأى في المنام أنه كما لو كان يوم القيامة وآدم عليه السلام يسلّم عليه الناس فذهب ليصافحه فقال له آدم: أغرب عني. أنت الذي وقعت في أولادي الصوفية ولقد قرّت عيناي بهم. ويعقب ابن يزدانيار فيقول: أتراني تكلمت بما تكلمت به إنكاراً على التصوف والصوفية؟ والله ما تكلمت إلا غيْرةً عليهم حيث أفشوا أسرار الحق وأبدوها إلى غير أهلها، فحملتي ذلك على الغيرة عليهم والكلام فيهم، وإلا فهم السادة وبمحبتهم أتقرب إلى الله.

وقيل في **طريقة وكلام ابن يزدانيار** أنه كان أميل إلى الظاهر فقد كان من علماء الظاهر، وأن أغلب كلامه في المعاملات والمعارف، وفي **الحياء** خصوصاً حتى ليدور

مذهبه فى التصوف عليه ويقسمه إلى واحد وثلاثين قسماً ، منها **حياء الجناية** كالذى جرى لآدم بعد أن ارتكب جنايته أو معصيته فى الجنة فأوحى إليه ربه أفراراً منى يا آدم فقال بل حياءً منك يا رب ، **وحياء التقصير** تقول الملائكة سبحانك ماعبدناك حق عبادتك ، **وحياء الإجلال** كما روى أن إسرافيل تسربل بجناحيه حياءً من ربه ، **وحياء الغيرة** كما روى أن النبى دخل عليه عيينة بن حصن وعنده عائشة فرفع النبى يده فسترها عنه فسأله عيينة عن ذلك فقال النبى مايعنى إن هذا هو الحياء الذى أعُطيناه ومنعتموه . ومنها **حياء الكرم** لقوله تعالى فى تأديب الصحابة فإذا طعمتم فانتشروا ، ولا مستأنسين لحديث ، إن ذلكم كان يؤذى النبى فيستحى منكم ، **وحياء الحق** كما فى قوله تعالى والله لايستحى من الحق ، **وحياء الوقار** كحياء النبى من عثمان وقوله ألا أستحى ممن تستحى منه الملائكة ، **وحياء الغربة** كقوله تعالى فى حق ابنة شعيب فجاءته إحداهن تمشى على استحياء ، **وحياء الأمثل** لبيان الحق كقوله تعالى إن الله لايستحى أن يضرب مثلاً مابعوضة فما فوقها ، **وحياء المراجعة** ليلة الإسراء لقوله ﷺ إنى قد استحييت من ربى ، **وحياء الواجب** كما روى عن عائشة فى ثنائها على نساء الأنصار بقولها إنهن لم يكن يمنعهن الحياء أن يسألن رسول الله ﷺ عن الصفرة والكدرة يعنى من دم الحيض ، **وحياء الرحمة** كما فى الحديث أن الله يستحى من ذى الشيبة أن يعذبه بالنار ، **وحياء المعرفة** كما رأى بعض الصالحين فى منامه أن يخاطب أهل البصرة فيقول يا أشباه اليهود كونوا على حياء من ربكم ، **وحياء الإيمان** كما روى عن النبى قوله الحياء من الإيمان الحياء من الجنة ، **وحياء المراقبة** فى الاتعاظ كما فى قول الله تعالى لعيسى عليه السلام ياعيسى عظ نفسك ، فإن اتعظت فعظ الناس وإلا فاستحى منى ، **وحياء قصر الأمل** كما فى قول النبى استحيوا من الله حق الحياء ، **وحياء الإحسان** كما قال النبى فى حق المتورعين عن المحارم إن الله يقول إنى لأستحى أن أحاسبهم ، وهو حياء إحسان لأنه يقول هل جزاء الإحسان إلا الإحسان ، فجازاهم بإحسان ورعهم إحساناً ترك المحاسبة ، **وحياء المعاودة** كما فى الخبر إن العبد إذا دعا الله تعالى يارب فيعرض عنه ثم يقول يارب فيعرض عنه فيقول الثالثة والرابعة فيقول الله إنى استحييت من عبدى من كثرة مايقول يارب .... إلى آخر الأقسام التى يستوفيها ابن يزدانيار.

■ ■ ■

اليسَوَى

أحمد إبراهيم اليسَوَى (نحو ٤٩٩ ـــ٥٦٢هـ) نسبة إلى مدينة يسى من تركستان، وله ديوان **الحكمة أو المناجاة** بالتركية العامية، وقصائده فيه تهذيبية فى لغة شعبية، تعبر عن السنن الإسلامية والمعتقدات الصوفية، وكانت أساس لون جديد من الأدب التركى هو الأدب الشعبى الصوفى. وهو أصلاً من مواليد سيرام ولكنه انتقل مع أسرته إلى يسى بعد وفاة أبيه وهو فى السابعة فتتلمذ على بابا أرسلان؛ وبعد وفاته ارتحل إلى بخارى وأصبح من مريدى الشيخ يوسف الهمذانى وخلفه على الطريقة سنة ٥٥٥هـ، وعاد إلى يسى وأقام بها حتى وفاته، وانتشرت منها **الطريقة اليسوية** فى آسيا الوسطى جميعها. وقيل إن اليسوى لم يلجأ إلى العامية إلا لكى يمكّن بها لطريقته وليحظى بالقبول لدى العامة، ولعلها لذلك أكثر الطرق الصوفية شعبية ورواجاً لدى جمهور الناس. واليسوى من الموحدين، وأفكاره لا يميل فيها إلى الفلسفة، ولكنها تلهج بمحبة الله والإخلاص له والتوكل عليه، فهو الرزاق والشافى والمعافى والمعين والميسر والمغنى والمرجو فى الشدائد، وله الأسماء الحسنى والصفات الفضلى. وأسلوبه الشعرى رمزى ويلجأ فيه إلى القصة وسرد الحكايات والحكم والأمثال، ولغته سهلة وإن قيل إن أتباعه من بعده أدخلوا على لغته الكثير من التعديلات بحسب الأحوال لتناسب التغير فى وسائل التعبير مع انتشار التعليم.

وأكثر ما تروج اليسوية بين البدو من التركمان، وهو يحاكى فى لغته فى الشعر لغة هؤلاء البدو، ويضم فى شعره كل الأدب التركمانى الشعبى قبله وما كان سائداً بين الناس من أساطير. ولمّا مات اليسوى بنى تيمور على مدفنه ضريحا فخماً، وخلفه على الطريقة أبناؤه وأحفاده.

■ ■ ■

أبو يَعزَىّ

يَلَنوّر بن ميمون المتوفى سنة ٥٧٢هـ، عاش فى فاس، وله زاوية يؤمها الناس فى بُلَيْدة، وحول قبره أقيمت قرية تسمى باسمه «مولاى بوعزى»، وشهرته أنه قد تخرج بصحبته جماعة من أعلام الصوفية بالمغرب، ومنهم أبو مدين الغوث، وكتبت فيه رسالات منها **المُعْزَى فى مناقب أبى يعزى** لأحمد الصومعى المتوفى سنة ١٠١٣هـ، وعنده أن طلب الحق دون أن يكون الطالب من الصوفية يوصل إلى المطلوب،

والتحقيق يكون بالفضل . وليس التصوف مسألة كلام فإن اللغة فيه أولى أن تكون إشارات ، والإشارات فيه أنفع من كل كلام ، وخاصة إذا كانت تعبيراً عن مشاهدات . والولى لا يكون ولياً حتى يكون له قدم ومقام وحال ومنازلة وسر ، والقدم هو ما يسلكه من الطريق إلى الحق ، والمقام ما تقره عليه سابقته فى العلم ، والحال ما بعثه من فوائد الأصول وليس نتائج السلوك ، والمنازلة ما خُص به من تحف الحضور بنعت المشاهدة ، والسر ما أودعه من اللطائف عند هجوم الجمع ومحو السوى وتلاشى الذات ، وتبرير ذلك أن حفظ حكم المقام يفيد الفقه فى الطريق ويفيد الاطلاع على خبايا معانيه ، وحفظ حكم الحال يفيد بسطة التصريف لله وبالله ، وحفظ حكم المنازلة يؤيد الفتح اللدنى ، وحفظ حكم السر يوسع قدرة الاطلاع على مكامن المكنونات ، وحفظ حكم الوقت يورث المراقبة ، وحفظ الأنفاس يوصل إلى مقام الغيبة فى الحضور.

ويُحكى عن **طريقته مع مريديه** أنه كان لا يجامل ولا يدارى وإنما يصف الكذاب بالكذب والسارق بالسرقة ويستعمل الألفاظ الجارحة فتكون النتيجة استشعار المسيء بإساءته فيكون الندم والتوبة والاستغفار والاستقامة ، فإذا خوطب أبو يعزى فى الرفق قال إنه مأمور ولولا ذلك ما فضحت أحداً ولسترت على الخلق . وشكاه مؤذنه وقال عنه مقالة المنكرين عليه «إن الرجل جاهل لا علم عنده فيقول للواصلين إليه سرقت يا هذا ، وزنيت يا هذا ، وفعلت يا هذا كذا وكذا ، فيذكر لكل واحد فعله» ، ومرض المؤذن فعاده الشيخ ومسح عليه وقال : يا بنى صدقت فأنا جاهل ولا أعلم إلا ما علمنى مولاى ، فقال المؤذن : أتوب إلى الله تعالى ، فقال أبو يعزى : مما تتوب يا بنى وأنت قلت الحق ؟ أنا جاهل لا أعرف إلا ما عرّفنى مولاى .

ويحكى أبو مدين عن طريقته معه فيقول إنه لما سمع عنه توجه إليه فى جماعة حتى دخلوا جبل إيروجان على أبى يعزى فأقبل على القوم دونه ، فلما حضر الطعام منعه من الأكل ، فقعد أبو مدين فى ركن الدار ، فكلما أحضر الطعام وقام إليه نهره ، وظل على هذه الحال ثلاثة أيام وقد أجهده الجوع وناله الذل ، فلما انقضت الثلاثة أيام قام أبو يعزى من مكانه «فأتيت إلى ذلك المكان ومرغت وجهى فيه ، فلما رفعت رأسى نظرت فلم أر شيئاً وصرت أعمى فبقيت أبكى طول ليلتى وأنشد :

قليل لمثلى زفرة ونحيب ... وليس له إلا الحبيب طبيب
وأمثل ما يلقى المحب خضوعه ... إذا كان من يدعوه ليس يجيب

فلما أصبحت استدعانى وقال لى : أقرب يا أندلسى ، فدنوت منه ، فمسح بيده على

عينى فأبصرت، ثم مسح بيده على صدرى وقال للحاضرين: هذا يكون له شأن عظيم أو قال كلاماً هذا معناه وأذن لى فى الانصراف». وعلى الرغم من هذا اللقاء القاسى عاد أبو مدين إليه مرة ثانية وثالثة وكرر الجلوس إليه فقد كانت هذه طريقة أبى يعزى فى تربية مريديه.

■ ■ ■

يونس المصرى

يونس بن حسن المصرى المتوفى بعد سنة ٨٩٦هـ، له فى التصوف «**غايات السرائر وآيات البصائر**» الذى فرغ من تأليفه سنة ٨٩٦هـ.

■ ■ ■

الفهرس

(أ)

(ب)

(ت)

إبن عطاء الأدمى — إبن عطاء الله — العطار فريد الدين — ابن علوان
عنقا على — إبن عياض الفضيل — العيدروسية

(غ)

الغزالى أبوحامد — الغزالى أحمد — الغمرى محمد

(ف)

إبن الفارض عمر — الفاسى شمس الدين — فالين چورج — الفرجى أبو جعفر
الفلالى أحمد — الفيضى السيد

(ق)

القارى على — القاشانى أبوالغنائم — ابن قاضى سماونة
القسطلانى أبوالعباس — إبن قسى أبوالقاسم — القشاسى أحمد — القشيرى أبوالقاسم
القصار حمدون — إبن قضيب البان — قلندرية — القنائى عبد الرحيم
القونوى صدر الدين — إبن قيم الجوزية

(ك)

كبرى نجم الدين — الكلاباذى — الكمشخانوى — الكوفى أبو هاشم

(ل)

لوليو رايموندو

(م)

ماسينيون — مبارك زكى — مبارك على — المتبولى إبراهيم
المحاسبى الحارث — أبومدين شعيب — مرجليوث — المرصفى على
إبن مسرة — إبن مشيش — معروف الكرخى — إبن مفلح
المقريزى — ملامتية — الملطى أبوالحسين — ابن الملقن

■ ■ ■

تمّ الكتاب بحمد الله

رقم الإيداع : ١٨٧٣/ ١٩٩٢ .

عربية للطباعة والنشر
١٠٠٧ شارع السلام ــ أرض اللواء المهندسين
ت: ٣٤١٩٠٩٨

الموسوعة الصوفية

أول موسوعة لأعلام التصوف من العرب وغير العرب، وفيها لأول مرة الطرق الصوفية وأعلامها، وكبار المتصوفة من فارس وتركيا والهند والمغرب والسودان، والكتب والموسوعات التي تناولت التصوف، ونقاد التصوف وما كتبوه وتناولوه في نقدهم، والمستشرقون وكتاباتهم في التصوف. وقد عالج المؤلف التصوف من وجهة نظر فكرية بحتة فقدم أصحاب الفكر وشرح أفكارهم وفلسفاتهم واعتقاداتهم، واختار هؤلاء دون غيرهم من المتصوفة واشترط أن يكون لهم في التصوف كتب معروفة وأقوال مألوفة. وعلى ذلك فالموسوعة الصوفية تختلف عن كتاب طبقات الصوفية للسلمي أو لابن الملقن وغيرهما، ولأن المؤلف من محبي الفلسفة فطريقته فيما يقدمه من بحوث تختلف تماماً عن طريقة السلمي وابن الملقن والعطار والقشيري والشعراني. وهو لا يرصد الكرامات أو يتحدث عشوائياً دون رابط فيما طرقه الصوفي من موضوعات، ولكنه يضع يده على أصول فكر كل واحد وأساسياته ومدرسته وما تأثر به وتأثيراته في الفكر الصوفي بعامة. والدكتور الحفني له في هذا المجال بخلاف الموسوعة معجم مصطلحات الصوفية ومعجم التصوف المسيحي، والتصوف اليهودي، وله كتاب رابعة العدوية إمامة العاشقين والمحزونين وموسوعة الفلسفة والموسوعة النقدية للفلسفة اليهودية وتخصصه في ذلك المجال من أوسع أبوابه فهو فيه من الثقات والرواد.

الناشر

